مكتبة نوبل مكتبة ١٩٥٥

هالدور كِليان لاكسنس

أُناسٌ مستقلّون

ترجمة: عبير عبد الواحد

إهداء لـ ..

لجين ٩٣

مكتبة | سُر مَن قرأ

t.me/soramnqraa

أُناسٌ مستقلّون

رواية

اسم المؤلف: هالدور كِليان لاكسنس

Author: **Halldór Kiljan Laxness**

عنوان الكتاب: أُناسٌ مستقلّون

Title: **Sjálfstætt fólk**

ترجمة: عبير عبد الواحد

Translated by: **Abeer Abdelwahed**

الناشر: دار المدى

P.C.: **Al–Mada**

الطبعة الأولى: 2021

First Edition: **2021**

جميع الحقوق محفوظة: دار المدى

Copyright © Halldór Laxness 1934, 1935, 1946

Published by Agreement with Licht
and Burr Literary Agency, Denmark
This book has been translated with a financial support from:

ICELANDIC LITERATURE CENTER

للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نواس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 | + 964 (0) 780 808 0800 | + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 | + 961 706 15017 | + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 | + 963 11 232 2275 | + 963 11 232 2289 | ص.ب: 8272

17 11 2022 مكتبة
t.me/soramnqraa

هالدور كِليان لاكسنس

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

أُناسٌ مستقلّون

#1058

ترجمة : عبير عبد الواحد

هالدور كليان لاكسنس
(1902–1998)

روائــيٌّ يملك روحًا شعرية ملحمية، عكست أعماله روح الشعب الآيسلندي وهويّته، وقيلَ في وصفهِ إنه يحمل روح تولستوي. ولِدَ هالدور لاكسنس بالقرب من ريكياڤيك في آيسلندا. نشرَ أول رواية له «طفل الطبيعة» عندما كان في السابعة عشرة من عمره. وقد كتبَ أكثر من ستين كتابًا، بما في ذلك الروايات والقصص القصيرة والمقالات والقصائد والمسرحيات والمذكرات. يُعتبر سيّد الرواية الآيسلندية المعاصرة بلا منازع، وأحد الروائيين البارزين في القرن العشرين. مُنِح جائزة لينين الدولية للسّلام سنة 1952، وفي 1953 نالَ جائزة الاتحاد السّوڤييتي للسّلام. وفي سنة 1955 حصلَ على جائزة نوبل للآداب.

- **من أعماله:**

  - ضوءُ العالم
  - أسفل النّهر الجليديّ
  - الفردوس المُستَعاد
  - الجرس الآيسلنديّ
  - المحطّة الذّرية
  - سَالكا ڤَالكا
  - النّساج العَظيم من كَشمير
  - حين تُغنّي الأسماك
  - المحاربون السُّعداء

مكتبة
t.me/soramnqraa

إشادات برائعة هالدور لاكسنس
«أناسٌ مستقلّون»

«هذه الرواية الجميلة والمحزنة تَسكُنني منذ سنوات، منذ أن أقرضني أحدهم نسخة نادرة منها. وإنه ليُثلج صدري الآن أن هذه التُّحفة النادرة لكاتبٍ عبقري غير مشهور نسبيًّا ستكون متاحةً لجمهور عريض من مُحبّي الكتب. إذا كان في العالم أية عدالة فسوف يصير اسم لاكسنس عما قريب كلمة مألوفة في كل منزل، على الأقل في تلك المنازل التي تعتزُّ بالأعمال الفِكرية الخالدة».

جويل كونيرو

***

«أناسٌ مستقلون» ملحمة آيسلندية مَهيبة فاخرة بقلم «تولستوي الشِّمال».

كشفٌ إنسانيٌّ عظيم لرواية تدور أحداثها في الريف الآيسلنديّ في بواكير القرن العشرين بِقلم الحائز على جائزة نوبل للآداب المُلقّب بِـ «تولستوي الشِّمال». تصويرٌ بديع للريف الآيسلندي الفريد، وصراع الإنسان الدؤوب العنيد في سبيل نَيل الاستقلال. يمتلك لاكسنس خيال الشُّعراء ومَلَكتهم في الرّمز والعبارة... ويمثّل بيارتور بطل الرواية الرمز المدهش والمعقد لاستقلال الفلّاحين.

هناك كتبٌ جيدة، وهناك كتبٌ عظيمة، وقد يكونُ كتابٌ أكثر من هذه وتلك؛ إنه كتاب حياتك!

ملحق مراجعة الكتب في صحيفة نيويورك تايمز

***

«قصة بطولية ابتُكِرت بطريقة ما لاستعادة الأجـواء المميزة النقية والفسيحة للحكايا الآيسلندية القديمة».

ذا أوبزيرڤر (لندن)

***

«يُقدّم لاكسنس صورة شاملة للحياة في ظلّ الظروف البدائية، وهوُ يكتبُ بوضوح، مُطعِّمًا أسلوبه بالسخرية ذات التأثير القوي؛ وما بين التوحش والحضيض ومُرّ العَيش لحظاتٌ غنية من الفُكاهة والشعر».

• ذا سبيكتاتر (لندن)

***

«اصنع لنفسكَ معروفًا واقرأ أناس مستقلّون. إنّ فتح هذا الكتاب يشبه فتح صندوق من الكنوز. وقراءة هذا الكتاب أشبه بإخراج هذه الكنوز، وإدراكها وتقديرها والتلذّذ بها قطعة قطعة، جُملة جُملة. إنها لرواية من النوع الذي يُذكِّرك بمدى سعادتك لأنك تعلّمتَ القراءة في المقام الأول!»

• شيكاغو تريبيون

***

الكتاب الأول

الجزء الأول:

الرائد الآيسلندي

1. كولمكيلي

في الأزمنة السحيقة، كما تقول التأريخات الآيسلنديّة، جاء أناسٌ من الجُزُر الغربية للعيش في هذه البلاد، وعندما غادروا، خلّفوا وراءهم صُلبانًا وأجراسًا، وغيرها من الأشياء المستعملة في ممارسةِ الشّعوذة. من مصادر لاتينية يمكن معرفة أسماء أولئك الذين أبحروا إلى هنا من الجزر الغربية في الأيام الأولى للبابويّة. كان زعيمهم الإيرلندي كولمكيلي ساحرًا ذائع الصيت. في تلك الأيام كانت التربة الآيسلندية تتمتع بخصوبة عالية، ولكن عندما وفدَ الإسكندنافيون القدماء إلى هذه الأرض أُجبِرَ السّحرةُ الغربيون على هجرتها، وتقول التّدوينات القديمة إن كولمكيلي، المصمّم على الانتقام، قد سلّطَ لعنته على الغزاة، وأقسمَ بأنهم لن يزدهروا ههنا، ومن هذا المنطلق، كثيرٌ من ذلك قد تحقق، على ما يبدو، منذ ذلك الحين.

لاحقًا على مرّ التاريخ، بدأ الإسكندنافيون في آيسلندا بالانحراف عن معتقداتهم الحقيقية، وشرعوا في عبادة أوثان وأصنام شعوب لا تمتّ إليهم بِصلة. من ثمّ تفشّت الفوضى في جميع أنحاء البلاد؛ وأمستْ آلهة الإسكندنافيين عرضة للسُّخرية، بينما استُحدِثت آلهة جديدة وقدّيسون جدد، بعضهم من الشرق والآخر من الغرب.

تروي السّجلات عن بناء كنيسة في هذا الوقت لكولمكيلي في الوادي

حيثُ انتصبَ قائمًا فيما بعد بُنيان «ألبوغاستثير» الكبير في الأراضي البور. كانَ هذا البناء فيما مضى مقرّ أحد الزعماء. وقد جُمِعَت كثيرٌ من المعلومات عن هذا الـوادي المترامي الأطـراف على يدِ عُمدة روثسميري جون ريكديلين، بعد أن دُمِّر المبنى أخيرًا عقبَ الظهور الشبحيّ الهائل عام 1750. شهدَ العمدة بنفسه وسمعَ مختلف الأحداث المروعة التي وقعت آنئذ، كما يتجلّى ذلك في كتابه الشّهير «شيطان ألبوغاستثير». وقد سُمِع الشّبحُ وهو يصدحُ عاليًا من عُقر مَبناه؛ من منتصف الشهر الرابع لفصل الشتاء إلى ما بعد أسبوع العنصرة، عندما لاذَ القوم بالفرار؛ ورَدّدَ اسمه مرتين في أسماع العمدة؛ إلا أنه أجاب على كلّ التساؤلات الأخرى بِـ«الآيات اللاتينية البغيضة، وبالألفاظ البذيئة الشّائنة».

من بين القصص العديدة التي سُرِدت عن هذا المبنى المهجور الموحش في الوادي الكائن ضمن الأراضي البور الفسيحة، ومن أبرزها دون شك تلك التي يعود تاريخها إلى ما قبل أيام العمدة جون ريكديلين بزمنٍ طويل، وربما ليس بخارجٍ عن المألوف أن تُستَذكر هذه القصة لإمتاع مثل هؤلاء الناس الذين ما فلحوا قط على الصّعيد الممتدّ على طول النهر، حيث استلقت قرونٌ من الزمن جنبًا إلى جنب في دروب مكسوّة بالأعشاب على نحو غير متساوٍ؛ تقطعها أحصنةُ الماضي، أو خطوات أولئك الذين قد يرغبون في زيارة الموقع العتيق على التلال في هاتيك المستنقعات بينما يشقّون طريقهم عبر الوادي.

قُبيل انتهاء مدة خِدمة الأسقف غدبراندور، على أبعد تقدير، أقدمَ زوجان على استزراع «ألبوغاستثير» في الأراضي البور. اسم الزوج غير مؤرّخ، لكن الزوجة كانت تُدعى غونڤور أو غودڤور؛ وهي امرأة ذات طبيعة جبّارة شرسة، اشتُهرت بمهارتها في الغوامض ومسائل السِّحر والتّنجيم، وبقدرتها على تغيير شكلها. وأما زوجها الذي كان على ما يبدو صاحب الفؤاد الأشدّ جُبنًا من بين جميع البائسين، لم يكن يتمتع بقدرٍ كبير من الحرية، وأبقت عليه تحت سيطرتها الكاملة. منذ البداية لم يُحرِزا نجاحًا يُذكر في الزراعة، وقلّة قليلة الأيدي العاملة التي استطاعا الاحتفاظ بها. تقول الأسطورة إن المرأة، بدافعٍ من فقرهما وكثرة ذُرّيتهما، أجبرت زوجها على حمل صغارهما المولودين حديثًا إلى البرّية وتركهم هناك ليموتوا. وهكذا وضَعَ بعضهم تحت الصخور المسطّحة في

الجبال؛ وربما ما يزال يُسمع عويلهم في بواكير الربيع أوانَ ذوبان الثلوج. وربطَ الآخرين بالحجارة، ثمّ أغرقهم في البحيرة حيثُ من الممكن سماع نحيبهم في ضوء القمر في منتصف الشّتاء، وخاصة في الصّقيع، أو قبلَ هبوب العاصفة.

تقول القصة، وإذ تقدّمت بالسيدة غونڤور السنون، بدأت تتعطش وبشدة لدمِ الإنسان. وتشتهي نقيّ العظم البشري. حتى قيل إنها أخذت دماء أولادها النّاجين وتناولتها بفمها! كان لديها سقالة مَبنيّة خلف منزلها من أجل السِّحر، حيث كانت بالنار والدخان تهتفُ وتترنّم بالشيطان كولمكيلي في المساءات الخريفيّة. ويقال إن زوجها حاولَ الهرب وإفشاء أفعالها الشريرة في الخارج، غير أنها تعقّبتهُ، وأدركتهُ عند مرتفعات روثسميري، فأجهزتْ عليه بالحجارة وشوّهت جثمانه. ثمّ حملت عظامه معها إلى سقالتها في المنزل، ولكنها تركتْ لحمه وأمعاءه للغربان، وأشَاعت في المقاطعة أنه هلكَ في الجبال أثناء بحثه عن خِرافه الشّاردة.

منذ ذلك الحين فصاعدًا اغتَنَت الزوجة غونڤور وكَثُر مالها، وقدّرَ النّاس أن ذلك مردّه إلى ميثاقها الخبيث مع كولمكيلي، وسرعان ما أصبحتْ مالكةً لكثيرٍ من الجياد المطهّمة.

في تلك الأيام كان الإقليم قِبلةً لكثير من الرحلات، سواء في فصل الصيف عندما يذهب الناس إلى الأنهار الجليدية لصيد الأسماك، أو في فصل الربيع، عندما يقصد الناس من مناطق بعيدة النهر الجليدي «جيكول» لشراء حاجتهم من السّمك المقدّد. لكن بمرور الوقت، من ناحية أخرى، سَرَت في المنطقة إشاعة تزعمُ بأنه كلما ازدادت خيول غونڤور، غدت أقل احتفاء وترحيبًا بالمسافرين الذين تحظى بهم. ومع أنها كانت امرأة ترتاد الكنيسة بانتظام، على جري العادة في تلك الحقبة، فلقد وردَ في سجلات الأحداث أنها في أحد العنصرة[1] لم تَستطع إبصار الشمس في السماء الصافية بعد الصلاة في كنيسة روثسميري.

1- أحد العنصرة (23 آذار): عيد مسيحي يحل في الأسبوع السابع بعد عيد الفصح. ويُحيي ذكرى حلول الروح القدس على تلاميذ المسيح بعد صعود يسوع بعشرة أيام. جميع الهوامش الواردة في الكتاب من وضع المترجمة.

في تلك الآونة طافت الشائعات همسًا في كل اتجاهٍ حول ما يتعلّق بمصير زوج غونڤور، وكيف كانت تقتل الناس؛ بعضهم من أجل مقتنياتهم، وبعضهم من أجل الدّم والنّخاع، وتطارد بعضهم الآخر في الجبال.

كانت في الوادي جنوبًا، على مسافة ليست بعيدة من المبنى، بحيرة راكدة اسمها «إيجولفاتن»، وهي ما تزال تحمل اسمها إلى يومنا هذا. قتلتِ السيدة ضيوفها في منتصف الليل، وكانت طريقة موتهم على الشكل الآتي: أغارت عليهم بسيفٍ قصيرٍ بينما هم نيام، وَقضمتهم من حناجرهم وشربت من دمائهم، من ثمّ، بعد أن قطّعت أوصالهم، استخدمت عظامهم دمىً لها وللشيطان كولمكيلي. وقد طاردت بعضهم عبر الأراضي البراح، وهاجمتهم بسيفها، وسَطعَ النّصلُ سطوعًا وهي تُزهِق أرواحهم. في القوّة كانت مُعادِلة لأيّ رجل، وكانت بالإضافة إلى ذلك مؤزّرة من قبل الشّيطان. كان بالإمكان رؤية بقع الدم المتخثّر على الثلج الذي يجلّل التلال، وبالأخص قبل عيد الميلاد. كانت تحملُ جِيفَهم وتنزل بها الوادي، ثم تغرقها في البحيرة، بعد تقييدها بالحجارة. ثم تسرقُ ممتلكاتهم، ملابسهم وخيولهم وأموالهم، إن وجدت. هذا وكان جميع أولادها معتوهين، وكانوا ينبحون من سطح المنزل مثل الكلاب، ويجثمون على الرصيف ببلاهة ويعضّون الناس، ذلك أنّ الشيطان قد حرمهم من العقل واللسان البشري.

حتى يومنا هذا لم تزل هذه التهويدة تُغنّى في المقاطعات على امتداد المروج والأراضي البور المرتفعة:

مكتبة
t.me/soramnqraa

ضيف غونڤور كان رجلًا
على صهوة مُهرٍ غالٍ،
في قلبهِ أعملتْ سيفها،
لولا بالولّا،
الدماء المسفوحة خَضّبتْ نِصال العُشب،
لولا بابلولّا،
ضيف غونڤور لم يكن في حِرز الله أو في نعمائه..
لقد كسرتْ ضلوعي،

كسرتْ عظم ساقي، وعظام وركي،
لولا بالولّا،
الدماء المسفوحة خَضّبت نِصال العشب،
لولا بابلولّا.

وإذا ما هاتفني كولمكيلي
فلسوفَ يقول:
عِظام ودم قانٍ
عِظام ودم قانٍ
وَدودودو،
فليتدفق طُوفان الدّم،
وكذلك لولا بابلولّا.

ولكن حدثَ أن أُميطَ اللثام عن ممارسات غونڤور الدنيئة في نهاية المطاف. كانت سببًا في هلاك كثير من الرجال والنساء والأطفال على حدٍّ سواء؛ وفي الدياجير كانت ترتلُ وتهتفُ للشيطان كولمكيلي. أُدِينت في موط[1] المقاطعة، وَدُقّ عنقها عند بوابة كنيسة روثسميري في أحد العنصرة. من ثمّ قُطِّعت أوصالها، وكان رأسها آخر ما بُتِر، وقد لاقت الميتة التي تستحق وعلى أتمّ وجه، إلا أنها أنزلت لعنات عجيبة على الناس. جُمِع جذعها وضلوعها ورأسها في كيسٍ جلديّ، وحُمِلَ إلى قمة الجبل غربَ ألبوغاستثير، ودُفنَ في أعلى بقعة في الجبل أسفلَ ركامٍ من الحجارة. بالإمكان رؤية الضريح حتى يومنا هذا، وقد بات الآن مكسوًّا بالأعشاب من أدناه، وسُمّي لاحقًا (غونيوكيرن) رُكام قبر غونڤور. يزعمُ الناس أن سوء الطالع لن يُصيب المسافر إذا ما ألقى حجرًا على ركام القبرِ في المرة الأولى التي يعبر فيها الحافة الجبلية، إلا أن البعض يلقي حجرًا في كل مرة يعبر فيها الدرب، آملينَ بذلك تحصينَ أنفسهم.

1- الموط: مجلس شعبي قديم متمتع بسلطات سياسية وإدارية وقضائية.

وكما بدت غونڤور في حياتها الدنيا مؤذية وشقيّة، فإنها برّت نفسها في سلوكها الشّرير عقب دفنها؛ فما لبثت تحت الرّكام إلا قليلًا حتى غذّت المسير مجدّدًا نحو الديار، وطافت في مزرعتها. عادت من الموت مع عديد من الناس الذين فتكت بهم، وما استراحَ القوم في ألبوغاستثير من العناء إلا زمنًا يسيرًا حتى اكفهرّتْ لياليهم وغرقت في الظلمة من جديد. استأنفت ممارساتها السابقة في تعذيب الأحياء والأموات على حدٍّ سواء، وعلى هذا الأساس كان يتردد في الحقل ليلًا صريخٌ وعويلٌ مدوّيان لكأنما أسرابٌ من النفوس المعذبة تنوحُ على السقفِ والنوافذ من فرطِ بؤسها وقلّة طمأنينتها. في بعض الأحيان، بدا الأمر كما لو أن رائحة الكبريت الأكثر كراهة قد نُفِثت من التراب، وملأت عصفتها البيت فينطرح الناس على إثرها مختنقين، وتهتاج الكلاب كأنما أصابها مسٌّ من الجنون. وفي أحيان أخرى كانت غونڤور تعتلي الأسطح فيهتز كل لوح خشبي، وفي النهاية لا يسلم بيتٌ من وبيل خبطها وقرعها ومن جولاتها الليلية المشينة. كانت تصعد على ظهور الناس وعلى ظهور البهائم وتدهس الأبقار؛ وكانت تسوقُ النساء والأطفال إلى الجنون سَوقًا، وتُفزِع كبار السنّ المذعورين، غير مُذعنة لإشارات الصليب ولا لتعاويذ سحرية

تذكرُ القصة أنه في النهاية جِيء بكاهن روثسميري لكي يخمدها بيد أنها فرّت إلى الجبل قبل سماع تلقيناته الباهرة، وأحدثت فيه صدعًا ما زال يُرى حتى الآن. يزعمُ بعض الناس بأنها اتخذت الجبل سَكنًا لها، وفي تلك الحالة ليس بمستبعد أنها تلوّنتْ في صورة «ترول»[1]. ويعتقد آخرون بأنها عاشت في البحيرة على هيئة ثُعبان أو وحش مائي، وبالطبع شاعَ على كل لسان أنّ الوحش استوطنَ البحيرة لأجيال عدة، وقد ظهرَ لشهود لا عدّ لهم ولا حصر، والذين أدلوا بشهاداتهم مشفوعة بالقسم والأيمان، حتى أولاء الذين لا يمتلكون البصيرة! وقال بعض الناس إنّ ذلك الوحش قد دمّرَ مبنى ألبوغاستثير ثلاث مرات، والبعض الآخر قال سبعًا، وبذلك لم يَنعم فلّاح

1- الترول: Troll جبار خرافي يسكن الكهوف. في الأساطير النوردية والإسكندنافية يُصوّر الترول إما كعملاق أو قزم. وصِفت هذه الكائنات في المصادر النوردية القديمة بأنها تسكن في الصخور المعزولة والجبال والكهوف في وحدات عائلية صغيرة، وقلّما تكون مفيدة للبشر.

هَهنا بالسّلام قَطّ، واستحالت المزرعة يبابًا لأنّ الأشباح من كل طيفٍ ولون دأبت على غزوها وعاثت فيها فسادًا. وهكذا في عهد العمدة جون ريكديلين ضُمّت ألبوغاستير إلى أراضي روثسميري أوّلًا بوصفها زريبة خرافٍ شتويّة؛ ومن هنا أتت تسميتها لاحقًا البيت الشتويّ «وينترهاوس»، ولكنها أصبحت بعد ذلك حظيرةً للحِملان في فصل الربيع.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

2. الأرض

على رابية وسطَ أراضي المستنقعات أطلالُ بيتٍ قديم في مزرعة صغيرة.

قد تكون هذه الرابية بمعنىً ما نِتاج الطبيعة، ولربما هي على الأرجح من صنيع فلاحين ماتوا منذ زمن بعيد؛ شيّدوا مساكنهم هنا على ضفاف النهر المعشوشبة، جيلًا بعد جيل، المنزل على أنقاض سابقه. إلا أنه لأكثر من مائة عام وهو حظيرة للحملان؛ هنا ملأت النعاج وحملانها الأثير بثغائها لأكثر من مائة ربيع. ما وراء الرابية وحظيرتها، تحديدًا باتجاه الجنوب، تمتد أميال من المستنقعات، تناثرت فيها جُزرٌ صغيرة من سويقات نبات الخلنج[1]، وعبر سلسلة تلال روثسميري ينساب نُهيرٌ ليصُبَّ في المستنقعات، بينما يتدفقُ نهيرٌ آخر من البحيرة شرقًا عبر وديان الأراضي البور الشرقية. وإلى شمال الرابية جبلٌ سامق حادّ شكّلت الانزلاقات الأرضية على منحدراته السفلية شتى الندوب، والألسنة مغطاة بنبات الخلنج. تشمخُ الجروف من هذه الانهيارات الأرضية في طبقات عمودية شديدة التحدّر، كما القلاع، ومن ناحية واحدة أعلى الحظيرة، يشقُّ الجبل أخدود بازلتي، وفي الربيع يسّاقط من هذا المجرى شلّالٌ نحيلٌ وطويل. في بعض الأحيان تهب الريح الجنوبية فتطيّرُ الرذاذ فوقَ الحافة، وبهذا يتدفق الشلال إلى الوراء. عند سفح الجبل تموضعت الجلاميد على نحو متفرق هنا وهناك. على مدى الأجيال

1- الخلنج: (هيذر) نبات دائم الخضرة على شكل شجيرات صغيرة تنمو في الأراضي البور ومنحدرات الجبال الصخرية والأراضي المستنقعية. ولهذا النبات أوراق خضراء داكنة وزهور بلون قرنفلي داكن، أو أحمر أو أحمر داكن أو أبيض.

القليلة المنصرمة، حيث انتصب سابقًا مبنى ألبوغاستثير في الأراضي القَفر، عُرِفت حظيرة الحملان هذه باسمِ البيت الشتويّ.

كان هنالك جدولٌ صغير يجري مارًّا بالحظيرة، ينسابُ في نصف دائرة حول المنزل، صافيًا وباردًا،، ولا يَشحُّ أبدًا. في الصيف تلهو أشعة الشمس في مجراه البهيج، وتضطجع الخرافُ على ضفافه مُجترّة وباسطة إحدى قوائمها على العشب. في يوم كهذا تكون السماء زرقاء. الشمس تلقي بنورها الساطع على البحيرة مع بجعاتها؛ وتتلألأ على صفحة نهر السلمون المرقط المتدّفق بسلاسة عبر المستنقعات. في يوم كهذا تهمهمُ المروج والمستنقعات أغنية جذلة!

الجبال والأراضي البراح المرتفعة المغطّاة بالخَلَنج تطوّقُ الوادي من جميع جوانبه. من جهة الغرب سلسلة تلال ضيقة، وأول مزرعة تقع وراءها تُدعى يوتيروثسميري، روثسميري، أو ميري فقط، وهي مقرّ وكيل الأرض. كان هذا الوادي بأراضيه البراح الشاسعة حتى هذا الحين جزءًا من ممتلكاته. ما وراء ميري، تمتدُّ أراض شاسعة مفتوحة، ومزروعة على نطاق واسع. كانت الطريق المؤدية إلى سوق المدينة في المضيق البحري، الممتدة عبر المروج المرتفعة شرقًا، تستلزمُ خمس ساعات على ظهور الخيل. في الجنوب يزداد ارتفاع الأراضي المنخفضة والمتموجة تدريجيًا إلى أن تسدّ الجبال الزرقاء الأفق، وتندغم بالسّماء، كأنها ترتيلة ربّانية، وقلّما تتبدى الجبال خالية الثلوج قبل عيد القديس يوحنا المعمدان. وماذا وراء الجبال الزرق؟ فقط فيافي هاتيك الأرض.

عندما تهبُّ أنسامُ الربيع على الوادي؛ وعندما تَسطعُ الشّمس وتأتلقُ على أعشاب العام الماضي الذاوية على ضفّتي النهر؛ وعلى صفحة البحيرة، وعلى بجعتيّ البحيرة البيضاوين، وتُقنِع العشب الطريّ بالبزوغ من تربة المستنقعات الإسفنجية الليّنة، من عساه يصدق في يوم كهذا أن هذا الوادي المعشوشب المسالم يحتضن قصة ماضينا، وأشباحها؟ يركب الناس جيادهم على طول النهر، على امتداد ضفافه حيث تترامى دروبٌ كثيرة جنبًا إلى جنب، دروبٌ عبرتها خيول الماضي دربًا تلو درب، قرنًا بعد قرن. ونسيم الربيع المنعش يهبُّ عبر الوادي المغمور بنور أشعة الشمس. في يوم كهذا الشمس أشدّ سطوعًا وَحِدّة من الماضي.

جيلٌ جديد ينسى الأشباح التي قضّت مضجع أسلافه. كم من مرة بدّدت الأشباح مبنى ألبوغاستير المشيّد على الأراضي البور؟ وأُعيد بناؤه رغم أنف الأشباح؟ عصرًا تلو عصر والعامل المستقل يغادر موطنه واستقراره ابتغاء تحصيل الثروة في هذه الرابية الكائنة ما بين البحيرة والصدع في الجبل، عاقدًا العزم على تحدي القوى الشريرة التي تهيمن على أرضه، وتتعطش لدمائه ونقيّ عظامه.

جيلًا بعد جيل والمزارع البسيط يرفع عَقيرته، ازدراءً بالقوى التي تدّعي أحقيّتها في أطراف بدنه، ويسعى جاهدًا كي يكون سيد نفسه والمتحكّم بمصيره حتى مماته. إن تاريخ القرون في هذا الوادي هو تاريخ رجل مستقل أعزل صارعَ أشباحًا بأسماء مختلفة ومتجدّدة أبدًا. في بعض الأحيان يكون الشبح عبارة عن عفريت نصف إله ينزل لعنته بأرضه. وتارة يتبدى له في مظهر «نورن[1]» ويسحق عظامه. وتارة على هيئة وحش أو مسخ ويدمّر له مزرعته وكوخه. ومع ذلك هو دائمًا، وإلى الأبد، نفس الشبح الذي يهاجم الإنسان نفسه قرنًا بعد قرن.

قال بتحدٍّ: «لا!»

كان ذاك صوت الرجل الذي أعدّ العدة لإعمار ألبوغاستير في الأراضي البور بعد قرنٍ ونصف القرن من تدمير آخر مزرعة. وعندما مرَّ بجوار ركام قبر غونفُور على قمّة الجبل، بصقَ، وصرّ على أسنانه بِحقد: «ملعونٌ هو الحجر الذي سوف تأخذينه مني يومًا ما أيتها العاهرة العجوز!» ورفضَ منحها حجرًا.

كانت حركته متجاوبة مع النسيم؛ تناغمت مشيته تناغمًا مع الأرض غير المستوية تحت موطئ قدميه. وكانت هناك كلبة صفراء اللون تتبعه؛ كلبة مَزارع لها خطم رفيع، وقد غزاها القمل، وكانت كثيرًا ما تنطرحُ على الأرض وتعضّ نفسها باهتياج، وتتشقلب مرارًا وتكرارًا بين الأحراش والأعشاب

1- نورن: Norn آلهة المصير في الأساطير الإسكندنافية أو النوردية؛ هي كائنات أنثوية تحكم مصير الآلهة والبشر. وهي تقريبًا تتوافق مع القوى المتحكمة بمصير البشر، كالقدر في الأساطير الأوروبية الأخرى.

النامية وتعوي عواء غريبًا مضطربًا؛ عواء تنفردُ به الكلاب الرديئة. كانت تعاني من نقصٍ في الفيتامينات، لأنها ما بين حين وآخر كانت تتوقف لتقضم العشب. ومن الجليّ أيضًا أنها كانت مُصابة بالديدان. بعدئذٍ ولّى الرجل وجهه صوبَ جهة رياح الربيع الطرية العذبة. وأشرقت الشمس على أعراف خيولٍ مرسلة منذ زمنٍ غابر، وفي الرّيح خببُ السّنابك التي دقّت هذه الأرض منذ عَهد بعيد؛ إنها خيول الماضي التي عبرت ممرات الجياد بمحاذاة النهر، عصرًا بعد عصر، وجيلًا إثر جيل، وما زال هذا الطريق وجهة السّالكين، والآن، وبوصفهِ مالك الأرض الأحدث، وَطليعيًّا آيسلنديًّا من الجيل الثلاثين، ها هو ذا يخطو مع كلبته، غير هيّابٍ على جري عادتِهِ. وعندما توقف على درب القرون؛ رنّقَ النظر إلى واديهِ المغمور بضياء شمس الربيع.

حالما توقف قَدِمت إليه الكلبة متوددة. أقحمت خطمها النحيل بين يديه الصلبتين، وأراحته هناك بينما راحت تهزّ ذيلها وجسمها كله، ثم نظرَ الرجل إلى الحيوان نظرة فلسفية، مُستمرِئًا إذعان كلبته وانقيادها، ووعيه بقوّته، وبنشوة السيطرة، والمشاركة ولو لثانية واحدة في أسمى أحلام الغريزة البشرية، مثل جنرالٍ ينظرُ إلى قواته، ويعرف أنه بكلمة واحدة يمكنه إرسالها إلى المهمة. مرّت بضع دقائق وهو على هذه الحال، وفي هذا الحين كانت الكلبة مقعيةً على الحشائش الذابلة على ضفّة النهر من أمامه، تراقبه بعينين متسائلتين، فأجابها: «أجل، كل ما ينشده الإنسان يجده في كلبه».

واصلَ تدارس هذا الموضوع بعد مغادرته الدّرب، وقد كان في هذا الوقت يشق طريقه عبر المستنقعات باتجاه أرضه، مردّدًا في صور مختلفة: «الأشياء التي يسعى إليها الكلب يجدها في الإنسان، ابحث تجد».

انحنى وتلمّسَ أعشاب المستنقعات الربيعية بأصابعه الثّخينة وقاس طولها، واقتلعَ بضع وريقات من رقعة في المستنقع، وبعد أن نفضَ عنها الوحل ببنطاله، وضعها في فمه مثل الخروف، وفكّر فيما هو يمضغ؛ فكّرَ مثل خروف. كان الطعم مرًّا، ولكنه لم يَلفظه؛ بل راح يتلمّظ ويلتذّ بطعمِ الجذور. وقالَ مُحدثًا نفسه: «لقد أنقذت هذه الأشياء أرواحًا كثيرة بعد شتاء طويل ومقدار قليل من القشّ. إنّ فيها حلاوة رغم مذاقها اللاذع. هذه الأعشاب المستنقعية الفتيّة هي التي تمنح الأغنام حياة جديدة في الربيع،

كما ترين؛ والأغنام بدورها تمنح الإنسان حياة جديدة في الخريف». ومضى في الحديث عن أعشاب المستنقع، ومزجَ معها الفلسفة مانحًا الفكرة أبعادًا مختلفة إلى أن وصل إلى أرضه.

واقفًا على أعلى نقطة في الربوة، مثل ڤايكينغ طليعيّ عثرَ على عرشه العالي، نظر من حوله، ثم تبوّلَ، أولًا إلى شمال الجبل، ثمّ إلى شرقه، باتجاه الأراضي المستنقعية والبحيرة والنهر المتدفقين بسلاسة من البحيرة عبر المستنقعات؛ ثمّ ناحية الأراضي البور، حيث الجبال الزرقاء، التي لم تزل مغطاة بالثلوج، والملتحمة بالأفق لحظة التأمل. والشمس مشعّة من سماء صافية.

ليس بعيدًا عنه كان زوجان من نعاج روثسميري يرعيان في حقلِهِ، وعلى الرغم من كونهما من نعاج سيّده فإنه تعقبهما وطردهما خارجًا، أخلى أرضه الخاصة به للمرة الأولى، وقال: «هذه الأرض أرضي الآن».

حينذاك بدا كأن هاجسًا استحوذ عليه فجأة؛ ربما لم يسدد ثمن الأرض كاملًا. وبدلًا من أن يترك كلبته تطارد الخراف، ناداها كي تتبعه. ومضى يعاين العالم من سياجه الخاص، العالم الذي اشتراه للتو. كان الصيف يهلّ على هذا العالم.

ولهذا السبب قال للكلبة: «البيت الشتوي ليس اسمًا مناسبًا لمزرعة كهذه، ليس اسمًا على الإطلاق. وأما بالنسبة لألبوغاستثير في الأراضي البور فهو ليس اسمًا مناسبًا أيضًا. إنه فقط أثر آخر من آثار البابويّة البالية. اللعنة عليّ إن كنتُ سأحتفظ بأسماء مرتبطة بأشباح الماضي في مزرعتي! عُمِّدتُ باسم بيارتور، الذي ينبغي أن يكون معناه «المشرق»، وبناء عليه يجب أن تُسمى المزرعة بالبيت الصيفي».

وطافَ بيارتور صاحب البيت الصيفي حول أرضه، متفحصًا الحشائش النامية من بين الخرائب، ودقق في حجارة جدار حظيرة الحملان، هدمَ وبنى مجدّدًا، في خياله، نفس طراز بيت المزرعة الذي ولدَ فيه وترعرع في المروج الشرقية.

ثمّ خاطبَ الكلبة بصوتٍ عالٍ: «الحجم ليس كل شيء، بأي حال من

الأحوال»، كما لو أنه توهم أنها تستمتع بالأفكار ذات الصوت المرتفع، «خذيها كلمة مني، الحرية أكثر أهمية من ارتفاع عارضة السّقف. ينبغي أن أعرف أن حريتي كلّفتني ثمانية عشر عامًا من العبودية. الرجل الذي يعيش على أرضه هو رجلٌ مستقل. هو سيّد نفسه. إذا تمكنتُ من إبقاء خرافي حيّة خلال الشتاء، ومن دفع الأقساط المتّفق عليها كما هو منصوص عليه من سنة إلى أخرى؛ إذن أكون قد فعلتُ ما عليّ وأبقيتُ على خرافي حية، ودفعتُ المستحقات. كلا يا تيتلا، إن الحرية هي ما نسعى إليه جميعنا. مَلكٌ هو الشخص الذي يقيم أوده بنفسه، ويوازن بين دخله ومصروفه. الشخص الذي يمكنه الحفاظ على حياة خرافه شتاءً لهوَ ملكٌ متوّجٌ في قصره!»

وعندما سمعت الكلبة هذه الكلمات، كانت سعيدة هي أيضًا. في ذلك الوقت كانت السماء صافية لا تشوبها غيمة واحدة. طَفِقت الكلبة تعدو من حوله في دوائر، وتنبحُ بطيشٍ، ثم انسلّت نحوه وخطمها يلامس الأرض، لكأنما تودُّ القفز عليه، وفي اللحظة التالية كانت تثِبُ بعيدًا وتعدو في دائرة جديدة.

قال لها برصانة: «كفاكِ حماقات. هل ترينني ألفُّ في دوائر وأنبح؟! هل أنبطحُ وأنفي على الأرض وأحرك عيني بطريقة سخيفة وأذهبُ إلى الناس؟ لا، لقد كلّفني استقلالي أعزّ من ذلك وأغلى: ثمانية وعشرون عامًا في خدمة وكيل المزرعة جون في روثسميري، وزوجته الشاعرة وابنهما إنغولفور أرنارسون جونسون، الذي يُقال إنه أُرسِلَ إلى الدنمارك الآن. أكانَ ذلك لمجرّد التنزه حين كنتُ أذهبُ إلى الجبال في الجنوب وأمشّطها بحثًا عن خرافهم الشاردة، والشتاء على الأبواب!

لا! كما أنني دفنتُ نفسي في الثلوج. وما كانت تلك خطيئتهم، باركهم الله، أن كنتُ أتزحّفُ إلى الخارج حيًّا في اليوم التالي!».

لدى هذه الذكرى انحسرت بهجة الكلبة إلى حدٍّ كبير، ثم افترشت الأرض وَراحت تعضّ نفسها.

«وما من أحد يمكنه القول أبدًا إني كنتُ أحسبُ خطواتي في خدمتهم؛ وعلاوة على ذلك، سدّدتُ القسط الأول من المزرعة صباحَ عيد الفصح

كما هو مُتّفق عليه. وعندي خمس وعشرون من الشِّياه المجزوزة والولّادة، كثيرٌ من الأشخاص بدأوا بأقلّ من ذلك، وأكثر منهم ظلّوا عبيدًا للآخرين طوال حياتهم، ولم يمتلكوا عصا واحدة! خذي أبي على سبيل المثال، عاش ثمانين عامًا ولم يتمكن من سداد القرض المرضيّ الهزيل الذي منحتهُ إياه الأبرشية عندما كان شابًّا».

تأمّلتهُ الكلبة بِتشكّكٍ لبعض الوقت، كأنها لم تكن مصدقة حقًّا ما كان يقول. فكّرت بالنباح، لكنها قرّرت ألّا تنبح، وَفتحت فكّيها في تثاؤب طويل، كأنه سؤال.

وأردفَ بيارتور: «لا، لا أعتقدُ أنك ستفهمين، أنتم معشر الكلاب كائنات في غاية البؤس والتعاسة، وعلى العموم لا أعتقد أننا نحن البشر لدينا ما نفخر به. ومع ذلك، سوف تسير الأمور معنا أسوأ مما ظننت، إذا كانت محبوبتي روزا تقدّم لمخدوميها عظام حصان عجوز على طاولة عشية عيد الميلاد بعد ثلاثة وعشرين عامًا من الخدمة والتدبير المنزلي هناك، فيما اعتقدت شاعرة روثسميري أنّ تصرفها هذا كان مناسبًا، حدثَ ذلك في العام الماضي على أبعد تقدير».

عاودت الكلبة عضّ نفسها باهتياج.

«إيه، ولا عجب أن كلب قطيعهم مُقمّل أجرب، ويقتاتُ العشب، في حين حتى مدبرة منزلهم لم تلحظ عينها مفتاح حجرة المؤن منذ عشرين سنة. والخيول التي كانَ يتركها في العراء شتاءً، أما كانت لتروي قصة رائعة لو أنها طليقة اللسان؟ يا للبهائم المسكينة، وخرافهِ أيضًا. لقد كان عذابًا عظيمًا مديدًا لهم طوال هذه الأعوام، وقد يكون من الأفضل في نظر بعض الناس ألا يكون للخراف مكانٌ على كرسيّ الحساب في السماء، يا للبهائم المسكينة!»

ينسابُ جدول المزرعة من الجبل في خط مستقيم إلى الحظيرة، ثمّ يميل غربًا ليكمل مجراه إلى المستنقعات. كانَ في الجدول شلالان بارتفاع الركبة، وبركتان تغمران الأقدام حتى الركبة. وكانَ في القاع حصىً وَحَصباء ورِمال. كان الجدول يجري في منعطفات عدّة. كل منعطف ولهُ

نغمته الخاصة به، ولم تكن واحدة منها مملة؛ كان الجدول بهيجًا وكَلِفًا بالموسيقى، مثل ميعة الصِّبا، وله مع ذلك أوتارٌ متباينة، وكانَ يعزفُ موسيقاه دون التفكير بأيّ جمهور –وإن لم يكن قد سمعهُ أحد منذ مائة عام– مثلَ الشاعر الحقيقي. راحَ الرجل يتفحصه عن كثب. توقف عند الشلّال العلوي، وقال: «هنا بإمكانها غسيل الجوارب، وخلافها»؛ وعند الشلال الأدنى قال: «وهنا بالإمكان نقع السمك المملّح». مطّت الكلبة رأسها نحو الماء ولعقت منه. وانبطحَ الرجل على الضفّة وشربَ هو أيضًا، وصعدَ قليل من الماء إلى أنفه.

قال بيارتور صاحب البيت الصيفي، وهو ينظر إلى كلبته بينما مسحَ فمه بكمّيه: «هذا ماءٌ فائق الجودة! أكادُ أجزمُ بأنه مقدّس».

لربّما خطرَ له أنه بملاحظته تلك إنما هو يُظهرُ نقطة ضعفه لقوى الشّر المجهولة التي كانت ستغزو الوادي بحسبِ المزاعم الرائجة بين الناس، ونظرًا لذلك التفّ فجأة في نسيم الربيع، استدار دورة كاملة، وهتفَ في كل اتجاه:

«ولا يعني ذلك أني أهتم إن كانت المياه غير مقدسة، هذا آخر همّي! وأنا لستُ خائفًا منكِ يا غونفور. سيكون من الصعب عليكِ معارضة حظي السعيد، أيتها العفريتة الدميمة، وما كان لأشباح أن ترهبني قطّ!» وأطبقَ قبضتيه، ثمّ بعينين يتطاير منهما الشرر نظرَ إلى الصدع في الجبل، ومن ثمّ إلى المرتفعات غربًا، ثم إلى البحيرة وما زال يطحن كلمات التحدّي تحت أسنانه بطرازٍ ملحميّ: «ولن تفعل أبدًا!»

وَثَبَت الكلبة عاليًا، واندفعت بجنون نحو الخراف أسفل الهضبة، وأنشأت تقفزُ عليها بشراسة، ظنًّا منها أن الرجل كان غاضبًا، بينما كان فقط مفعمًا بروحٍ معاصرة وبالعزيمة لكي يصير رجلًا حرًّا على أرضه، وبنفس الاستقلال الذي كانَ لدى أسلافه الذين استوطنوا المكان من قبله.

ضحكَ بازدراء، بعد مناداته على الكلبة لكي تتبعه، ثمّ صاحَ: «كولمكيلي! يا لها من حكاية! يا له من هراءٍ رضيت النساء العجائز أن تُحشى رؤوسهن به!»

***

3. الزّفاف

بحلول بداية الموسم، وقد بدأ العشب الوطني الآيسلندي يتبرعم للسّكان بسرعةٍ سارة ومرحب بها، أصبحَ بوسع المرء عما قريب أن يحمل منجله ليحصد العشب النّامي في الحقول المسمّدة. بدأت الأغنام ترفع رؤوسها الثقيلة مرة أخرى، واكتست الأضلاع لحمًا، وأما جثث الماشية التي أهلكتها قسوة الشتاء فأصبحت مدفونة تحت العشب الطويل في المستنقعات. بلى، الحياة جميلة في مثل هذا الوقت، والآن، هو الوقت المناسب للزواج، فجميع أوكار الفئران قد سُحِبت من الخرائب، وبُني بيتٌ جديد في الحقل. إنه منزل بيارتور صاحب البيت الصيفيّ. الأحجار رُحِّلت، والحشائش جُزّت، والجدران شُيّدت، والأُطر ثُبتت بالمسامير، والعوارض الخشبية رُفِعت، ومُسمِرت ألواح السقف المعلّق، وبُني موقد الطبخ، ووضِعت المدخنة في مكانها؛ وهناك انتصبَ كوخ المزرعة كأنه جزء من الطبيعة ذاتها.

وسط البلدة، وفي مَسكنٍ مشابه إلى حدًّ بعيد، أُقيمت مراسم الاحتفال بالزواج في منزل آل نيثوركوت؛ منزل أهل العروس. وقد وفدَ معظم الضيوف من نفس النوع من بيوت المزارع؛ البيوت الواقفة عند سفوح الجبال، أو المساكن على المنحدر الجنوبي من سلسلة التلال، ولكلّ بيت منها جدول صغير يجري عبر حقل البيت، ومن خلفه أراض مستنقعية، ونهر يتدفق بسلاسة عبر المستنقعات. عندما ينتقلُ المرء من مَسكنٍ إلى آخر لا شيء يبدو أكثر احتمالًا من كونهم جميعًا يحملون الاسم نفسه، وبأنهم جميعًا الرجل ذاته والمرأة ذاتها يعملان في هذه المساكن الزراعية؛ مع أن الأمر ليس كذلك إطلاقًا. الشيخ ثورثور نيثوركوت، مثلًا، تعلّق قلبه على مرّ السنين بحلم بناء طاحونة خاصة به على كتف الجدول في حقله. كان جريانه قويًا إلى حدٍّ ما، وإذا تمكن من بناء طاحونة وطحن الشعير الإسكتلندي للناس فسوف يجني ربحًا مقبولًا من المشروع. ولكن ما إن انتهى من البناء حتى توقف استيراد الحبوب غير المطحونة؛ وعلى أيّة حال كان الناس يُفضّلون الحبوب المطحونة الجاهزة. لعبَ أولاده في طفولتهم حولَ الطاحونة الفتيّة في أيام الربيع؛ تحت سماء زرقاء صافية، كانت لهم أيام لن ينسوها أبدًا ما عاشوا!

كانوا سبعة. وعندما كبروا غادروا المنزل، وتفرّقوا في أماكن بعيدة. اثنان من الأبناء غرقا في محيط بعيد، واختفى ابن وابنة في أرض نائية أكثر، في أميركا، التي هي أبعد من الموت. ولكن ربّما لا توجد مسافة أكبر من تلك التي تفرّق أسرة فقيرة ضمنَ بلدة واحدة؛ اثنتان من البنات تزوّجتا في قرى صيد الأسماك، إحداهما الآن أرملة مع حشدٍ من الأطفال، بينما الأخرى، التي تزوجت من معدمٍ مريض بداء السلّ، وهي الآن تعتاش من الأبرشية؛ أي حياة تلك؟

قضت الابنة الصغرى روزا معظم حياتها في المنزل إلى أن ذهبت إلى الخدمة في بيت وكيل الأرض في يوتيروتسميري. لم يبقَ حينئذ في البيت الريفي سوى الزوجين العجوزين، وامرأة حيزبون طاعنة في السن أقامت معهما وفَقير ثمانينيّ؛ وقد خُصِّص الأخيران لهما من قبل الأبرشية. واليوم روزا ستتزوج، وهذا ما آلَ إليه اليوم. غدًا سترحل إلى الأبد. وما زالت الطاحونة إلى جانب الغدير. تلك هي الحياة!

ومع أن بيارتور قد أمضى حياته في مزارع كبيرة مذ بَلغ مَبلغ الشّباب، فإن معظم معارفه كانوا من الفلاحين في وسط البلدة؛ مربّي أغنام كمثله كَدّوا كالعبيد من أجل عوائلهم، يومًا بعد يوم، على مدار السّنة، حتى وافتهم المنية دون إجراء صفقة عمل تعود عليهم بأكثر من بضعة دولارات في المرة الواحدة. أفلحَ البعض منهم في تحقيق قَدرٍ من التحضّر تجلّى في غرفة معيشة معمولة من الأخشاب ومسقوفة بالصفيح المموّج، إلا أن منازل كهذه تكون رطبة وعرضة للهواء؛ والتيارات الهوائية مصدر الروماتيزم، ومن المعروف أن داء السّل يتكاثر في الرطوبة. ومع ذلك، اعتقدَ معظمهم أنهم محظوظون إن تمكنوا من ترميم جدار أو اثنين من جدران بيوتهم الطينية مرة واحدة كل خمسة أعوام، وذلك على الرغم من أحلامهم بأمور أسمى. ففي كل بيت من هذه البيوت الريفية، بطريقة ما، يعيش ويستمر الحلم بشيء أفضل؛ منذ مئات السنين وهم يتخيلون أنهم سوف يشمخون فوق فقرهم المدقع بطريقة غامضة وستكون لهم مزرعة كبيرة ولقب المزارعين المالكين، إنه حلمهم الأبدي، والبعض يعتقد أن ذلك لن يتحقق إلا في جنّة النعيم.

عاشوا من أجل أغنامهم، وباستثناء وكيل الأرض، تعاملوا جميعهم في

«فِيورد» مع تولينوس جونسون، مدير شركة بروني للتّجار الدنماركيين. كان الوكيل يجري تعاملاته في «ڤيك»، ولأنه هو نفسه من يقرر السِّعر الذي سيحصل عليه مقابل أغنامه، فلقد أُشيعَ أنّ له أكثر من يد في العمل هناك.

اعتُبِر الناس محظوظين بإدراجهم في سجلّات شركة بروني، لأنه عادة ما سمحَ لهم بمقدار معيّن من التّسليف. طبعًا، منذ ذلك اليوم فصاعدًا لا يرون فلسًا واحدًا، لكنهم سيشعرون على نحوٍ معقول بأنهم واثقون من النجاة في فصل الشتاء، والحصول على ما يكفي من دقيق الجاودار[1]، وفَضْلات الأسماك الصالحة للأكل والقهوة لتربية الأطفال عليها، أولئك الذين لم يموتوا على الأقل (الآخرون في طور النسيان)، شريطة أن يقتصروا على وجبة واحدة يوميًا في الربيع. وفي حال نالوا الاستحسان والرّضا، كما يُقال، فقد تساعدهم شركة بروني حتى في شراء قطعة أرض، وبعد ذلك يتملّكون الأرض، بالاسم على الأقل، ويُصنّفون مُلّاكًا أحرارًا في فواتير الضرائب وحسابات الكنيسة؛ وعندما يموتون يمسونَ أسماء في سِجلّ الرعيّة الكَنَسيّ لينظرَ فيه العارفونَ بالأنساب.

هؤلاء الناس ما كانوا أذلّاء صاغرين بطبعهم، ولا كانوا يعتبرون أنفسهم جزءًا من القطيع العام. وقفوا على أقدامهم؛ وكان الاستقلال رأس مالهم العظيم. آمنوا بالمشاريع الشخصية، وكانوا إذا ما شربوا كأسًا من الشراب وتودد بعضهم إلى بعض اقتبسوا من القصائد والسّاغا[2]. كانوا رجالاً اخشوشنوا بِفعل كفاحهم الشّرس والدؤوب من أجل البقاء؛ رجالًا لا يفزعهم نَصبٌ ولا تعبٌ، ولا حتى تضوّرهم جوعًا مع أُسرِهم حتى نهاية الشتاء. ومع ذلك لم يكونوا بأي حال من الأحوال فقراء روحيًا، أو ماديين

1- الجاودار: حبوب الجاودار وتُسمى أيضًا بشتاء الجاودار وهي حبوب حولية تنمو في سنابل أشبه بسنابل القمح والشعير. يُزرع الجاودارعلى نطاق واسع في أوروبا وآسيا وأميركا الشمالية حيث المناخ وبرودته غير مناسب للحبوب الأخرى.

2- الساغا: ملحمة بطولية. جنس أدبي من الإرث الآيسلندي وهو عبارة عن تأريخ نثري محكيّ يصف أحداثاً وملاحم بطولية وقعت بين السكان النورديين والسلتيين في آيسلندا في القرنين العاشر والحادي عشر (بحسبِ موقع آيسلانديك ساغا داتا بيس).

شرهين ممن ينظرون إلى بطونهم كإلهٍ لهم؛ كانوا يعرفون من الشِّعر الكثير، بعضه نُظِمَ بالطريقة التقليدية المبتكرة ذات القوافي في الوسط والنهاية بالإضافة إلى الجناس، وكان بإمكان البعض منهم ارتجالُ رباعيّة شِعرية عن جاره، أو عن الفقر، أو الطبيعة، أو عن آمالهم بالأيّام الصالحة للعيش، التي يمكن أن تتحقق في الجنّة فقط؛ أو نعم، حتى عن الحبّ (الشعر الفاحش). كان بيارتور واحدًا من أولاء الشُّعراء. وكان لديهم أيضًا مخزونٌ فائضٌ من الحكايات عن رجال ونساء عجائز عجيبين، من البلهاء عادة، وقصص عن رجال دين غريبي الأطوار بالإضافة إلى ذلك. اتّسمَ قِسّهم بغرابة معيّنة، رغمَ أنه لم يكن أحمق ولا فاسدًا أفّاكًا، وعبّروا عن امتنانهم لتلك الغرابة بكتابة كثيرٍ من القصص والحكايات السّارة عن القِسّ الموقر غودموندور. هذا الشعور بالامتنان والالتزام تعمّق بصورة كبيرة بناء على حقيقة أنه قد جلبَ معه إلى المقاطعة سلالة أغنام مثيرة للإعجاب، وأطلقَ عليها اسم سُلالة القس غودموندور. ومع أن القس لم يسأم من التنديد بالأغنام والتّجني على تلك الحيوانات، فقد كانت برأيه تغوي قلوب البشر وتُضِلّها عن طريق الله، ومع ذلك كانَ بأكباشه مصدرًا لمساعدة الفلاحين أكثر من أي رجل قبله أو بعده، فقد كانت هذه الحيوانات لحيمةً وَمتينة، وإن كان حجمها صغيرًا بعض الشيء. من أجل ذلك أكنَّ المزارعون لقِسّهم احترامًا كبيرًا، وكانوا يميلون إلى مسامحتِهِ أكثر من سواه.

ولكن في رأي القِس، على أية حال، ليست الخراف وحدها من بَلبَل قومه وعكّرَ تفكيرهم القويم، وأضلّ قلوبهم عن الله وعن الخلاص المبتغى بِهِ هو وحده سبحانه. الاتّهام نفسه موجّه إلى الشاعرة الشهيرة، امرأة وكيل مزرعة ميري، التي ارتأى كثيرون أنه من الأنسب مناداتها بالسيّدة. وإليها تتحوّل القصّة الآن.

هذه السيدة، وهي ابنة مالك قاربٍ في ڤيك، قد تلقت تعليمها في الكلية الوطنية قسم التدبير المنزلي. تزوّجت من وكيل المزرعة جون، على حدّ قولها، لأنه بكل بساطة كان فلّاحًا وهي كانت مفتونة بمباهج الحياة الريفية. بدأت معرفتها بهذه المباهج الريفية في بيت ذويها بقراءة الأدب الأجنبي، وعلى وجه

الخصوص بيورنستيارنه بيورنسون[1]، كما تابعت دراستها في الكلية. قُبيل أوّل مخاضٍ لها، رأت في منامها إنغولفور أرنارسون[2]، أوّل مستوطنٍ آيسلندي، وبعد أن أشادَ بِحرفة الزراعة، طلبَ منها أن تُسمّي وليدها على اسمه.

أضافت إلى الأرض المئات والمئات من الأراضي بوصفها دوطةً لها، وملأت تلك الأراضي بالمواشي لاحقًا لدى حصولها على ميراثها. أحبّت الفلاحين أكثر من أي شيء آخر في الحياة، ولم تفوّت أيّة فرصة لإقناعهم بقيمة اللحن الرعويّ لبلدتهم، أو بالحبورِ الكامن في الحياة والممات في المزرعة. غمرت الإشراقات الروحية المنبثقة عنها جميع أرجاء المقاطعة؛ كانت المؤسّس والرئيس للمعهد النسائيّ، وقد نَشرت مقالات وقصائد في الصحف الجنوبية تمجّدُ فيها الأنشودة الرعوية، والصحة النفسية والجسدية المكتسبتين من العيش في المزارع. واعتبرت أن الحِرف اليدوية المحلية هي الشكل الوحيد من الصناعة الصالحة لآيسلندا، من أجل ذلك أغدقت كثيرًا من الوقت والمهارات الفنّية على النّسيج والغزْل. وبناءً عليه انتُدِبت لحضور مؤتمر اتحاد المعاهد النّسائية في العاصمة، بهدف مناقشة الحِرَف المحلية والصفات الأخلاقية والمسلكية التي تعزّزها حياة الأرياف، والتي لديها وحدها القدرة على إنقاذ بلدنا من النكبات التي تتهدّده في هذه الأوقات الصعبة. امرأة كهذه عرفت كيف تقدّر جمال الوجه المتبدّل للفصول والجبال الزرقاء، بينما هي جالسة بجوار نافذتها في مزرعة ميري. نعم، بالتأكيد، لقد عرفت أيضًا كيف تتحدّث عن هذا الجمال في المُلتقيات؛ تحدّثتْ عنهُ بشعورٍ سائحٍ في نُزهةٍ صَيفية. وكانت تؤكد أن العمل في الخارج؛ في حضن الطبيعة هو شكلٌ من أشكال التمارين البدنية الصحية في غمرةٍ من جمال الريف الذي لا يوصف. وكانت تغبط المزارعين البسطاء أيضًا على همومهم الصغيرة. وعلى نفقاتهم البسيطة للغاية. في حين أرهق زوجها نفسه بالديون بسبب المباني الجديدة الواسعة، والآلات الزراعية، وإدخال التحسينات

1- بيورنستيارنه بيورنسون (1832–1910) : كاتب وروائي وشاعر نرويجي. حاز على جائزة نوبل للآداب سنة 1903.

2- إنغولفور أرنارسون: الزعيم النرويجي إنغولفور أرنارسون أول مستوطن إسكندنافي دائم لآيسلندا، عام 874.

على الأراضي، علاوة على تكلفة الأيدي العاملة في هذه الظروف العصيبة. وكان كلِ ما على هذا المُزارِع فِعله من أجل سعادته هو الإبكار ساعةً في الاستيقاظ صباحًا، والعمل لساعةٍ إضافية ليلًا. وقالت إن الأثرياء لا حظّ لهم من السعادة أبدًا، ولكن الفقراء عمليًا سعداء دونما استثناء!

كلّما تزوج رجل فقير وأقام في الأودية بوصفه مُزارِعًا في حقله الصغير، هي أيضًا تتزوج بالرّوح، وتُقبِّل وقعَ خُطاه. ولذلك قدّمتْ خيمة كبيرة من أجل زفاف بيارتور، وبذلك تتوفّر سَقيفة لشربِ القهوة وإلقاء خطاب.

كان الفلاحون واقفين على الرصيف أمام الباب، أو متكئين على الحائط، وعلى وجوههم تعابير من أثرِ تنشّق السّعوط، أو يتحدثون مع العريس.

كان الحديث حديث الربيع، والمواضيع الثابتة والمستديمة، مع التركيز بشدّة على أمراض الأغنام المختلفة. لسنوات وسنوات كانت الدودة الشريطية لعنة وطنية، ولكن في نهاية المطاف ومع التقدم المتزايد في الصحة العامة للكلاب تمت السيطرة نوعًا ما على هذا النّزيل الطفيليّ المنكود. ولكن في الأعوام الأخيرة، ظهرت دودة جديدة، أقلّ وطنية من سابقتها، وبدأت بإثبات وجودها في الأغنام. إنها الدودة الرئوية، وعلى الرغم من أن الدودة الشريطية لم تفقد اهتمامها الاستنزافيّ الموسمي، فقد أظهرت الدودة الرئوية أنها وبسرعة تُقصِي سابقتها من مكان الصدارة بوصفها محور النقاش.

قال ثورير غيلتايغ: «حسنًا، إذا سألتموني عن رأيي، يجب أن أقول إنه لا يوجد ما نخشاه طالما تمكنتم من جعلها بمنأى عن الإسهال شتاء. وحتى لو خرجت الديدان من مناخرها لا أعرف ما القلق طالما أن بطونها نظيفة! وطالما أنّ بطونها نظيفة، فمن المؤكد أنّ أي شخص سوف يتوقع وقوفها في عُشبِ الربيع المبكر. على أيّة حال، قد أكون مخطئًا في تقديري هذا كما هو الحال في كثير من الأشياء الأخرى».

أجابه العريس: «لا، أنت محق تمامًا. راغنر أورثارسيل، الذي يُقال إنه مُستلقٍ الآن على فِراش الموت، كان له نفس الرأي، مع العلم أنه كان عبقريًا بمعالجة أمور الإسهال. أؤكدُ لك ذلك».

«ولكن عندما تتضرر الحملان كان يؤمن بشدة باجترار التّبغ. أذكرُ أنه

أخبرني عندما مكثتُ معه منذ بضعة أعوام عن شتاءاتٍ أعطى فيها لأغنامه مقدار أربع أوقيّات من أجود أنواع التبغ؛ وأضاف أنه عمّا قريب سوف يُقنّن قهوة أسرته، بالإضافة إلى السُكّر، على ألّا يرى أغنامه وقد نفدت مضغاتها».

وهنا أبدى إينار أونديرنيث ملاحظة: «حسن، لم يُثنِ أحد على أسلوبي في تربية الماشية!». وإينار هذا هو ناظم المزامير وشاعر الاحتفاليات التذكارية في المنطقة. «ولا أقول إني أكثرت على الإطلاق، لأنني لاحظتُ أن الناس الأكثر قلقًا لكسب ما يسدّ الرمق هم الأقل توفيقًا في هذه الحياة، وعلى ما يبدو أن الحظّ جعل منهم رياضته الخاصة! ولكن إن كنتُ سأدلو بدلوي، وعلى حسب درايتي الخاصة، فينبغي عليّ القول إن لم يكن في العلف سوى نفعٍ قليل لمعافاة الخراف من الديدان، فإن مفعول مضغات التبغ سيكون أقلّ. قد تجدي مضغات التبغ نفعًا معيّنًا في حال أمسى الوضع ميئوسًا منه، ولكن في نهاية المطاف، يظلّ العَلف علفًا والتّبغ تبغًا».

وإذ ذاك هتفَ أولافور يازتدال قائلًا: «ما قلته صحيح بما فيه الكفاية، كل كلمة منه!»، رشّ الكلام رشًا وبالأحرى بصوتٍ حادّ. «الأعلاف هي دائمًا أعلاف. ولكن يوجد فرق بين علفٍ وآخر، وكما اعتقدتُ بإمكان أي شخص أن يلاحظ ذلك بنفسه، مع الأخذ بعين الاعتبار عدد المرات التي ردّد فيها علماء الحيوان هذه المعلومة في الصحف. هناك حقيقة واحدة مؤكدة: في نوعٍ من أنواع العلف تختفي البكتيريا اللعينة التي تَنتج منها الديدان. البكتيريا دائمًا ما تكون بكتيريا بالتأكيد، وما من دودة ظهرت من غير بكتيريا. أعتقد أن كل واحد بإمكانه رؤية ذلك بنفسه. وأين هي البكتيريا في الأصل، هل لي أن أسأل، إن لم تكن في العلف؟»

أجابه ثورير غيلتايغ: «لا أدري، أنا لا أجادل في أيّ شيء هذه الأيام. نجدّ ونجتهدُ كي نرى أن الحيوانات عندها علفٌ جيد، ونجاهدُ كي نرى أن الأبناء قد تربّوا على الدينِ القويم. من المستحيل تحديد من أين تبدأ الدودة؛ أفي مملكة الحيوان أم في المجتمع البشري!»

وفي الأثناء، كانت النسوة جالسات في الداخل، وقد عقدنَ جلسة هامسة بشأن ستانكا غيلتايغ، التي كان من المفترض أن تعتني بأبيها ثورير. لقد

وضعت طفلًا الأسبوع الماضي، كما ترين، وبهذه المناسبة تهافتت نساء عديدات لتقديم خدماتهن طواعية في منزلها، ذلك أن الجميع حريص على تقديم المساعدة عندما يكون لدى أحدهم طفل غير شرعيّ، أو على الأقل خلال الأسبوع الأول، في حين لا أحد يعلم من هو الأب. لقد قاست وقتًا عصيبًا للغاية، يا للفتاة المسكينة، ولم يكن الطفل على ما يرام، وما يزال من المشكوك فيه ما إذا كان سينجو. ولكنّ حديث النساء انعطفَ شيئًا فشيئًا إلى أسقامهنَّ وحالات الولادة، فضلًا عن أمراض الأطفال: لا يبدو أن البلد بمستوى صحيّ جيّد هذه الأيام، ومع ذلك لا توجد علامات على أي وباء كبير مثل الجدريّ أو الموت الأسود[1] كما في الأيام السّالفة، فقط تلك الأوجاع والشِّكايات المستمرّة مثل آلام الأسنان، والطّفح الجلدي، وتورّم المفاصل، والرضوض والكدمات، والسُّعال الشديد، مع البَلغم في كثير من الأحيان، وآلام حارقة ومتواترة في الصّدر، والتهابٌ في الحنجرة، ولا داعي لذكر تلك القرقرة الغريبة من الداخل التي تَتأتّى عن غازات البطن؛ ولكن ربما أنه ما من مرضٍ يفتكُ بالعقلِ والبَدن مثلَ أمراض الأعصاب.

ولّت زوجة الوكيل هاربة من المنزل واندفعت بخفّة على الرصيف نحو الرجال. ولكن عندما سمعت موضوع المحادثة، أمرتهم بأن يكفّوا عن مثل هذه الثرثرة، بالكلمات التي تحمل ثقلها، لأنها كانت ذات حضور قويّ، بوجهها العريض، والنّظارات، وسحنة مهيبة لا تختلف عن صور البابا. طلبت منهم اختيار مواضيع أكثر انسجامًا مع بَهاء يوم ربيعيّ، وأشارت إلى المستنقعات الزّرقاء الحبيبة، وإلى السّماء الزاهية الصّافية من فوقهم، وإلى المروج التي ستغدو عمّا قريب خَضراء نَضِرة. وقالت: «لدينا هنا على الأقل شاعران لهما سمعتهما ومكانتهما المحلية، أوّلهما العريس نفسه، ومن ثم إينار أونديرنيث. وها هو شاعرنا أولافور يازتدال الشّغوف بالنظريات العلمية، والعضو في الجمعية الوطنية. بالطبع خطرت لكما بعض الأبيات الجميلة في أحضان الطبيعة العذبة هذا الربيع أليس كذلك؟»

1- الموت الأسود: الطاعون الأسود. تفشي خطير لوباء الطاعون الدِّبليّ ظهر خلال القرون الوسطى وتسبب في موت نصف سكان أوروبا.

بيد أن هذين الشاعرين ما كانا يومًا مترددين في تلاوة أشعارهما إلى هذا الحدّ كما هما الآن في حضرة امرأة الوكيل. فعلى الرغم من احتجاجاتها المنفعلة من أجل الفلاحين، والصراحة التي اعترفت فيها بِغبطتها لهم على جوّهم العام، فإن ابتسامتها كانت باردة جدًا لدرجة أنهما شعرا أن لا شيء بمقدوره جَسر الهوّة بينهما وبينها. كانا كلاهما بمنأى عن سيّدة ميري في طريقة تفكيرهما. كانت هذه السيدة من المعجبين المتحمسين لكبار الشعراء، ولم تتمكن من الإشادة بروعة الحياة على الأرض حقّ الإشادة. وكانت مؤمنة أشدّ الإيمان بالله الذي يُسيّر هذه الحياة، وتعتقد أنه موجود في كل الأشياء، وأن دور الإنسان هو الوقوف إلى جانبه، بأيّ وسيلة كانت نزيهة أم غير نزيهة؛ ولم تكن مَعنيّة بأي حياة أخرى. أدانَ القِسّ طريقة التفكير هذه على أنها وثنية صِرفة. ومن ناحية أخرى، كان إينار أونديرنيث يحتقر العالم وعادة ما يكتب عن الناس بعد موتهم. كما التمسَ السلوان ونعيم البال في الديانة المسيحية التي اعتقد أنها ستعود بالمنفعة على الفلاحين في الحياة الآخرة أكثر مما في هذه الحياة. ومع ذلك، فقد حرّم القسيس غناء مراثيهِ في الجنائز، معتبرًا أنه من غير اللائق لفلّاح بسيط، غير محنّك في الدين، أن ينافس أصحاب المزامير العِراق في الأمّة. أما بالنسبة لبيارتور فقد كانَ محبًّا متعصّبًا للروح البطولية القديمة للأمة مثلما تتجلّى في الشِّعر والأعمال الكلاسيكية الأخرى، وكان يُكبِرُ فقط أولئك الأشخاص الذين وثقوا بِقواهم البدنيّة وجبروتهم، كمثلِ بيرنوتس بورني آركابي، والجومسڤايكينغ[1]، وغيرهما من القُدامى الأفذاذ. ومن الأدب الكلاسيكي أيضًا استقى أسلوبه الشعريّ، رافضًا الاعتراف بأن أي شيء أقل تعقيدًا من الرباعيات الشّعرية يمكن اعتباره شعرًا جيّدًا.

1- الجومسڤايكينغ: The Jomsvikings، عصبة من محاربي الڤايكينغ القدماء في القرنين العاشر والحادي عشر، اتخذوا من قلعة جومسبورغ على ساحل بحر البلطيق مقرًا لهم. عرفوا بوثنيتهم وتعبدهم للآلهة مثل ثور وأودين. يتجلى محاربو الجومسڤايكينغ في الساغا الآيسلندية أبطالًا خارقين، وكانوا جيش مرتزقة أسطوريًا؛ يقدمون مهاراتهم القتالية ويحاربون من أجل أي ملك يستأجرهم وقادر على دفع أتعابهم الكبيرة.

في هذه اللحظة ظهرَ القسّ على صهوة حصانه. ندّتْ عنهُ آهةٌ عميقة وهو يترجّل عن الحصان، ثم وقف هناك، رجلٌ ذو هيكل فارع، محتقن الوجه، خالطَ الشيبُ سوادَ شعره، شَكسٌ وخشن في ردوده، ولا يُساير أحدًا في رأيه. ومما زادَ الطين بِلّة في هذه المناسبة أن أول شخص أبصرته عينه هو الشاعرة.

قال بتذمر: «لا أرى سببًا لجرجرتي إلى هنا، ربما كان هنا أشخاص بالفعل يفقهونَ في الوعظ أكثر مما أفقه». فأجابه بيارتور مبتسمًا ابتسامة عريضة، وهو يمسكُ لجام الحصان: «ربما! ولكن يعجبنا أكثر أن نضفي على الحُبّ وَسمًا دينيًا».

«حُبّ! ها!»، تلفّظَ الكاهن بتهكّم وهو يحثُّ الخُطى عبر الميدان باتجاه المنزل. أرادَ الرجل الطيّب شرب قهوته قبلَ بدء المراسم، لأنه كان في جولة سريعة؛ كان يوم السّبت، وكان هناك طفل لا بد من تعميده قبيل حلول الظلام، وزيارة أبرشية في شمال ساندغيلس هيث. وأردفَ بالقول: «لن أزيد كلمة واحدة على الشعائر، أعتقدُ أني حرقتُ أصابعي بما يكفي في مراسيم الزواج هذه. يُهرع الناس عادة إلى هذا الطيش دون ذرة تدبير لمتطلبات رباط الزواج المسيحي؛ وأين ينتهي هذا كله؟ من بين الذين عقدتُ قرانهم اثنا عشر زوجًا منهم من انتهى بهم المطاف عالةً على الأبرشية؛ ولمثل هؤلاء الناس ينبغي على المرء أن يوجّه خطابه!» ثمّ أحنى رأسه مُتجنّبًا عتبة الباب العلوية، واختفى في الداخل. بعد ذلك بوقت وجيز، خرجت العروس كامدة مسبلة العينين، وبانحراف متذبذب في عين واحدة، تقتادها زوجة الوكيل إلى الخيمة. تبعتهما جماعة النساء، ثم أتى الرجال والكلاب، والكاهن في رداء متغضّن، وقد أنهى للتوّ شرب قهوته التي أُحضِرت له في الداخل. كانت روزا نيثوركوت في سنّ السادسة والعشرين يوم تزوّجت، ذات وجهٍ طافح، متحفظة، ولديها حَوَل طفيف في إحدى العينين؛ وكانت ذات خدّين متورّدين، متينة البنية، ولكنها ليست طويلة القامة. ظلّت تنظرُ إلى الأسفل على مئزرة لباسها الوطني طوال الطريق إلى الخيمة. بجانب عمود الخيمة الداخلي منضدة صغيرة، الهيكل؛ وقف القس خلفها وأنشأ يقلّب صفحات كتاب الصلاة بإبهامه. لم يَفُه أحد بكلمة، لكن الجوقة همست فيما بينها

لبضع دقائق قبل أن تجهر بعض الأصوات الخشنة والمتنافرة بترنيمة الزفاف؛ بألحان مختلفة وبدرجات إيقاعية متفاوتة. جفّفت النساء الدمع من أعينهن، ونقّب القس مليًّا في جيبه الداخلي، وانتشلَ ساعته على مرأى من العروسين. ثمّ زوّجهما بحسب كتاب الصلاة. لم يُنشَد بعد المراسم أية أنشودة، ولكن القس تمنى للعروسين السّعادة وفقًا للمتطلبات الرسمية، وسأل العريس ما إذا كان حصانه جاهزًا؛ إذ لم يكن لديه فائض من الوقت لبعزقتهِ على الأعراس! عجّلَ بيارتور محفوفًا بالبهجة للبحث عن الخيول، في حين طوّقت النساء العروس وشرعنَ يقبّلنها. وكان الوقت قد أَزِفَ للتفكير في احتساء القهوة.

كانت المقاعد والطاولات قد وضعت في أماكنها، وكان المدعوّون مسرورين بالجلوس أخيرًا. منذ ذهاب القسّ قعدت امرأة الوكيل بجانب العروسين. طافت بالحضور أطباق مملوءة بالكعك المحلّى، وكعكة العيد المحشوّة بالزبيب الغالي، وواصل الرجال الحديث عن الخراف وتنشّق السّعوط. وسرعان ما وصلت القهوة.

بدت الحفلة مفتقرة إلى الحماس لبعض الوقت، لكن كلٌّ ازدردَ بانهماكٍ وصخبٍ من أربعة إلى ثمانية أكواب من القهوة، في حين سُمِع من هنا وهناك صوت سحقٍ بذور الزبيب.

«هلمّوا إلى العَلف يا شباب!»، صاحَ بيارتور مُتّقدًا بكرم الضيافة، «ولا تخجلوا من طلب القهوة!»

في آخر الأمر كل من رغب في القهوة كان قد ارتوى منها. ومن الخارج كان بالإمكان سماع صُدَاح الكروان المائي، فقد كان موسم تزاوجه أيضًا.

بعدئذٍ نهضت سيّدة ميري الشاعرة على قدميها، وقد أشرق نور وجهها على الجمهور، وتبدّى سَمحًا بوقاره البابوي. تحسّست جيب تنورتها، وأخرجت بضع أوراق مرصوصة بالكلمات رصًّا.

قالت إنها شعرت بأنه يجبُ عليها أن تقول بضع كلمات في هذه المناسبة الجليلة التي شهدت ارتباطًا بين قلبين. وبالطبع لم يكن واجبها، ولكن من واجب الآخرين أن يدَعوا نورهم يشعّ على هذين الزوجين الشابين الخارجين

الآن إلى الحياة للاضطلاع بمسؤوليتهما نحو أرض الآباء والأجداد، إنه الواجب المتاح والأكثر إنصافًا لتأدية الواجب تجاه الوطن، والله. ولكن كما تقول الأمثولة القديمة: كثيرون يُدعون ولكن قلّة من يُفلِحون[1]، ولذلك ارتأت أن الطريقة الأنسب للخروج في ظل الظروف الراهنة هي أن تُلقي خطابًا قصيرًا، مثلها مثل أي امرأة عادية أخرى. لم تتمالك نفسها حقًّا، كان يجب عليها أن تقول شيئًا ما، لأن هذين الاثنين كانا، إن صحّ التعبير، ولديها. لقد خدما أهل بيتها بإخلاص وتفانٍ –العريس لمدة ثمانية عشر عامًا– ولم تحتمل رؤيتهما منطلقين إلى رحلة الحياة المقدسة دون منحهما بضع كلمات من التشجيع والنصيحة. أسِفت للقول إنها بدافعٍ من هوى فطريّ لم تفوّت فرصة للإشادة بنبل حياة الفلاح. صحيح أنها ترعرعت في المدينة، لكن شاءت إرادة العلي القدير أن تغدو زوجة فلاح، وبالتأكيد لم تندم على ذلك قطّ، لأن الطبيعة هي خلق الله الأسمى، والحياة المعاشة في حضن الطبيعة لهيَ الحياة المثالية. وبالمقارنة معها، أي حياة أخرى ما هي إلا زَبدٌ ودُخان.

وواصلت القول: «إن سكّان المدن ليس لديهم أيّ تصوّر عن السّلام الذي تهبه الطبيعة الأم، وطالما أن السلام غير موجود يتحتّم على الروح أن تسعى لإخماد عطشها في البِدع والمبتكرات السريعة الزوال. وأيّ خاطرة أكثر بداهة من أن سعي سكّان المدن المحموم وراء المتعة سوف يقولبهم في أشخاصٍ ذوي شخصيّات متزعزعة ورعناء؛ لا يفكرون إلا في منظرهم الشخصي وملابسهم، ويجدون الراحة المؤقتة في صيحات الموضة السخيفة وغيرها من هذه الابتكارات التي لا قيمة لها؟ وعلى الصعيد الآخر، يتمشّى الريفيّ في المروج الخضراء، في هواء صافٍ نقيّ، وإذ يستنشقه إلى رئتيه تتدفق قوى غريبة في حنايا ضلوعه تنتعشُ بها الروح والجسد. وتُشيعُ الطمأنينةُ التي تسود الطبيعة في نفسه الهدوءَ والمسرّة، وينبّهُ العشبُ الأخضر اللامع تحت قدميه الإحساس بالجمال، وما يَقرُب الخشوع. وَلهُ في الطِّيب المحمول بعذوبةٍ إلى منخريه، وفي السَّكينة المتعاظمة هناءةً من حوله، رَفَاهةٌ ورَوَاح.

1- لعلّها إشارة إلى العبارة الواردة في إنجيل متى: «هكذا يكون الآخرون أولين والأولـون آخرين، لأن كثيرين يُدعونَ وقليلينَ يُنتخبون». أي أن البعض لقلة مواهبهم واجتهادهم لا يفلحون. (المترجمة).

التّلال والوديان العميقة والشلالات والجبال جميعها أصدقاء طفولته، ولا يمكن نسيانها أبدًا. بعض جبالنا تشكل مشهدًا عظيمًا وملهمًا. قلّة هي الأشياء التي يمكن أن يكون لها أثر عميق في قلوبكم لا ينمحي كمثلِ معالمها النقيّة المهيبة. فهي تمنحنا المأوى في وديانها، وتلزمنا أيضًا بمنحِ المأوى لأولئك الذين ليسوا بحجمنا ولا قوّتنا!»

وتساءلت الشّاعرة: «أين يوجد نعيمٌ فيّاض كمثل هذه الفُسَح الجبلية المزهرة الهادئة، حيثُ الأزهار، عيون الملائكة هاته، إن جاز لي الوصف، تتطلّع إلى السّماء وتأمرنا أن نركع بخشوع لله عزّ وجلّ، للجمال، للحكمة، والحبّ؟»

«نعم، يقينًا كل هذه الظواهر عظيمة في قوتها، ونطاقها البعيد المدى».

واعتبرت السيدة أن في عيش الإنسان عرضة لهذه القوى قيمةً لا يستهان بها.

وقالت مستطردة: «لقد كان من الشهامة في العصور الوسطى حماية العاجزين، فلماذا لا تُعتبر الآن كذلك؟ ولقد أطلقت تسمية العاجزين على كل أولئك الأضعف منا، والذين بحاجة إلى مأوى تحت جناح حمايتنا.
«وحين أقول هذه الكلمات، فإنني أرفقها بخالص الشكر وأجزله لكَ يا بيارتور، من أغنامنا في يوتيروتسميري. لقد قمت بدور عظيم ونبيل بعملك راعيًا في المزرعة. وكما تقول قصيدة قديمة: «أَحِبّ الراعي كما لو أنّه من لحمك ودمك!»

«ينهض الراعي باكرًا ويخرجُ في الجو القارس، ليتفقد البهائم البكماء في حظائرها. ولكنه لا يرعوي. فالعواصف الجليدية تقويّ عوده، وتجعل أعصابه حديدية. يستشعر داخله قوة لم يعهدها من قبل. تنشطُ نزعته البطولية في خضمّ صراعه مع العاصفة؛ بينما يسري في قلبه دفء الطمأنينة لاعتقاده أن مجهوده الذي يتغرّمه هو من أجل كائنات لا حول لها ولا قوة. وهنا تكمن روعة حياة القرويّ! إنها أعظم مؤسسة تعليمية في البلاد. وحضارتنا الريفية محمولة على أكتاف فلاحينا. الحكمة تقعدُ إلى جانبهم على مقعد الشرف متوّجة؛ ينبوع دائم من البركة للأرض وشعبها». قرأت الشّاعرة خطبتها

بقناعة وحماس، بالإضافة إلى حرارة الخيمة، فتصبّب العرق بغزارة من جبهتها العريضة، وانثالَ على وجنتيها المزهرتين. أخرجت منديلًا وجفّفت وجهها. ثم استأنفت الكلام: «لا أعرف ما إذا كنتم على دراية بالمعتقدات الدينية للفُرس. يعتقد هذا العِرق أن إله النور وإله الظلمات قد شنّا حربًا أبدية، وأن دور الإنسان إعانة إله النور في نضالِهِ وذلك بحراثة الحقول وتحسين الأراضي. وهذا ما يفعله الفلّاحون بالضبط! إنهم يعاونون الله، إن جازَ للمرء قول ذلك؛ إنهم يعملون مع الله في زراعة النباتات، والعناية بالمواشي، والاهتمام بإخوانهم.

لذلك أود التوجه بهذه الكلمات إلى جميع الفلاحين، لكن في المقام الأول إلى عريسنا هذا اليوم: أنتم يا أبناء الأرض، يا من جهودكم لا تنقطع، ومقدار راحتكم هزيل، أعلم ذلك، طوبى لكم، كم هي مهنتكم ممجّدة وجليلة! إن الزراعة عمل بالتعاون مع الخالق نفسه، وعنكم سيكون راضيًا. ولا تنسوا أبدًا أنه هو من يرزقكم الثّمر».

وأضافت السيّدة: «والآن، أودُّ أن أقول بضع كلمات خصيصًا لروزا، الفتاة الخلوقة المهذّبة، الرزينة الرصينة، سليلة آل نيثوركوت التي تعلّمنا جميعًا أن نحبها وأن نقدرها كل هذا الحب والتقدير خلال العامين اللذين مدت لنا فيهما يدَ العون في يوتيروثسميري ؛ عروسنا اليوم، ربّة البيت الصيفيّ المستقبلية».

«ليس من السهل أن تكون الواحدة ربة منزل؛ وليس بالأمر الهين معرفة أن قَدَر المرأة القيام بأسمى مهمة على الإطلاق».

«وما من شكٍّ عندي أن نساء كثيرات سوف يعتقدنَ أنها مهمة مستحيلة أن يجعلن منازلهن بتلك الصورة؛ بحيثُ أينما نقّلَ المرء ناظريه صادفته ابتسامة مضيئة بالحبِّ والسعادة؛ واستثمار كل ما في البيت بِسكون وهناء فتتلاشى الكراهية والمرارات بأكملها ويشعرُ الجميع بالمساواة إزاء أعتى العقبات؛ وإشعار كل فرد في العائلة بأنه حرٌّ ومخيّرٌ وشجاع، وجعله مدركًا لِصلتهِ الروحيّة مع الله والمحبّة. كلّ ذلكَ صعبٌ ومُربك بكل تأكيد. ولكن هذا هو دوركِ أنت يا ربة المنزل! إنه الدور الذي منحكِ إياه الربّ للقيام به.

وأنت تملكين القوة لتأديته، على الرغم من أنك قد لا تعرفين ذلك بنفسك. أنتِ قادرة على أداء دورك، إلا إذا فقدت الإيمان بالحبّ داخلك!

وليس فقط المرأة التي سَمح لها حظّها السعيد بارتياد مسارات الحياة الأشد إشراقًا، والتي أفادت من التعليم الجيد، ولكن أيضًا تلك التي نالت قدرًا ضئيلًا من التعليم في المدارس والتي تعيش في جانب الحياة الظليل، في بيت صغير مع خيارات محدودة؛ فيها أيضًا تكمنُ المقدرة، ذلك لأنكن جميعكن من ذات المنبت الكريم: جميعكن عيال الله.

إن مقدرة المرأة التي يتوهج بيتها بضياء النعيم الدنيوي تُمكنها من جعلِ الكوخ بِسقفه الواطئ والقصر بِروافده السّامقة متساويين. كلاهما مشرق على حدّ سواء. كلاهما دافئ وبالتّساوي. إنّ هذه المقدرة لَهيَ الاشتراكية الحقيقية!

وتذكري يا روزا، في كل يوم تركبين فيه أمواج الحركة المتماوجة وصولاً إلى أقصى حدود الوجود؛ إنما أنت بذلك تَستحثّين الأمواج المتكسرة على شواطئ الأبدية بحدّ ذاتها. ومن الأهمية بمكان ما إذا كانت هذه أمواجًا مشرقة تأتلقُ وتنشرُ الطّيبَ والضوء في كل الأرجاء، أو أنها أمواج الكآبة التي تحملُ البؤس والبلوى؛ مطلقةً العنان لأنهار من الجليد المحبوسة، التي من شأنها خلق العصر الجليدي في القلب الوطني.

انظري إلى الحبّ في صورته المثالية، في تضحياته غير المشروطة، وارتباطه بكل ما هو كريم ومتعال في روح الإنسان. فكري في القوة التي تتصدّى لكل ما هو شرير وغير طاهر. تفكري في قوة الحبّ، كيف يستحيل الكوخ الحقير قصرًا، وكيف يغدو الشتاء القارُّ صيفًا مشعًّا، وكيف يصير الفقر ذاته فراشًا وثيرًا مفروشًا بالورود».

أصغى العروسان والضيوف إلى الخطاب بسكوتٍ مطبِق في ما خلا سقسقة الطيور الصيفية في الخارج، وطنين ذبابتين زرقاوين حولَ سارية الخيمة في الأعلى، وخرخرة تَنفُّسٍ مسدود لمنخرين غطّاهما المخاط. إذ لم يجرؤ أحد على التمخّط حتى جلست الشاعرة! بعض النساء تحاورنَ فيما بينهن حولَ الخطاب بإعجاب. ثم عمّ الصمت من جديد. ظل الحضور

جالسين وراحوا يحدقون بلا معنى إلى الرقعة قبالتهم، مثقلين من الحرّ، ومن شرب كثيرٍ من القهوة، ومنوّمين مغناطيسيًا بفعل الجدران القماشية الباهرة التي تسطع في الشمس، وأزيز الذباب الأزرق.

في الأخير كُسِر الصمتُ مرة أخرى. لقد كانَ هورلاغور كيلدور، مزارع طاعنٌ في السنّ غليظ الأنف شائب اللحية، الذي استدار ناحية بيارتور، وقال له دونما سبب واضح:

«هل من علامات ترنّح في قطيعك في «ميري» هذا الربيع يا بيارتور؟»

هذا الاستفسار الملائم أيقظَ الجَمع من السُّبات والغيبوبة، واستعاده من جديد إلى الاهتمام بمصالح الحياة. روى الرجال بدقة كل حالة من حالات الترنّح التي وقعت في المقاطعة أثناء الربيع، ونفّسوا عن غضبهم ببعض الملاحظات غير المهذبة بما يخصّ الدودة الشريطية. الكلّ أجمعَ على أن عملية تطهير الكلاب كانت فوضوية على نحوٍ مخزٍ خلال العامين المنصرمين، الأمر الذي نزعَ البعض فيه إلى إلقاء اللوم على «مَلك الجبل» وكاتب الأبرشية؛ الرّجل الذي تمكن من التسلل إلى مكتب طبيب الكلاب بتوصية من القسّ.

صرّح العريس: «من ناحيتي اعتزمتُ تنظيف كلبي على نفقتي الخاصة في الخريف القادم».

اتُفِق بالإجماع على أن الكلب السليم هو أحد أساسيات الحياة، وأن من المشين تهاون بعض الناس في أمر الدمامل، وحتى في المزارع الناجحة.

وقال ثورير غيلتايغ الذي أمدّته تجاربه بالخبرة: «إن عرفَ الناس كيف يعتنون بالخرّاجات كما ينبغي، فلن يكون ما يُخشى منه. ولكن الأمر سواء أكان خُرّاجًا أو كائنًا بشريًا. الاستهتار أصل معظم النوائب والرزايا، فقط لو فطن الناس أثناء عنايتهم بالخرّاجات أن الشيء الأساسي إنما هو العناية بها بصورة صحيحة، ومن ثمّ سيكون الكلب على خير ما يُرام، ولن يكون ما لا تُحمد عقباه. فلا يلومنّ المرء إلا نفسه!»

قُلِّب الموضوع على أوجهه، ونوقِش من كل زاوية ممكنة، وساهم عدة أشخاص بآرائهم. كما أعربَ إينار أونديرنيث عن عدم إيمانه بالتدابير

البشرية، ففي المقام الأول لأن العالم كان متجهًا نحو الكارثة والدمار، وكما برهن زماننا وبوفرة، لا العقاقير ولا الأطباء ولا أي علم بمقدوره حرف مسار العالم بوصة واحدة؛ وفي المقام الثاني لأن الكلاب كانت دائمًا كلابًا، والخرّاجات خُرّاجات، والأغنام أغنامًا. لم ينل هذا الرأي استحسان أولافور يازتدال، مؤكدًا أن الدودة الشريطية في الكلاب وما يتلو ذلك من ترنّح الأغنام وداء الكيسات العدارية (المائية) في جسم الإنسان قد أثبتا فقط أن الدواء المعطى للكلاب لم يكن علميًّا منذ البداية.

واستطردَ بالقول: «لأنه بوسع أي شخص أن يلاحظ أنه إذا كان الدواء مضبوطًا ومدروسًا منذ البداية، ما كانت الكلاب لتُصاب بالإمساك قط».

***

4. غيوم منجرفة

في اليوم التالي أُحضِرت العروس إلى بيتها على ظهر «بيلسي». ولكونه غير معتاد على حمولة الراكب، كان المهر حرونًا ومِيالًا إلى المهاجمة بحوافره، لذلك اضطرّ بيارتور لسياقته طوال الطريق. في كيس تدلى من كتفه حمل فراش زوجته، بينما رُبطت صرّتان على حنو السَّرج تحتويان على بعض هدايا العرس، من بينها مقلاة ومغرفة ظلتا تصلصلان، وتفزعان المهر بحيث أخذ يجفل بلا هوادة وكان سيشرد لولا أن بيارتور تشبّثَ بالرّسن مثل الخطّاف. دَرَجت تيتلا طوال الطريق في الخلف، وراحت تتشمّم هذا وذاك، سادرةً، كما تفعل الكلاب عادة في شذا الربيع، لكنها حذرة تمام الحذر، في كل مرة يجفل فيها المهر، كانت تندفع بجنون نحو حوافره فتزيد من هلعه وهلع راكبته. وما بين شتمِ الكلبة والحصان، لم يتبق للرجل نَفَس لأي شيء آخر، وبهذا لم يدُر أيّ حديث في الطريق إلى المرتفعات.

لكن عندما وصلا إلى ركام قبر غونفور، رغبت العروس روزا بالترجّل. أرادت وضعَ حجرٍ على قبر غونفور، ظنًا منها أن ذلك سيجنّبهما سوء الطالع. إن غونفور تطالب بحجر، إنها ترصدُ جميع من يعبرون الجبل.

«هراء!»، هتفَ بيارتور، «لا دخل لهذا بالحظ على الإطلاق. لن أتعامل مع أي من هذه الخرافات. بإمكانها الرقود حيث هيَ، العاهرة العجوز».

«دعني أنزل لإعطائها حجرًا يا بيارتور».

«ما الذي ستفعله بالحجر بحق الجحيم؟ لا حجر لها مني أو ممن يخصونني. نحن ندفع ما علينا من مستحقات للأحياء، وهذا أولى من إرضاء أناس احترقوا في جهنم منذ قرون عدة».

«بيارتور دعني أنزل، أرجوكَ!»

«كفّي عن بابويّتك هذه».

«بيارتور، أريد أن أعطيها حجرًا!»

«على ما أذكر، لقد سددتُ للكاهن أجره قبل أن يجفّ عرقه البارحة، مع أنه حرمنا من موعظته! لا أدينُ لأحد ببنسٍ واحد».

«بيارتور، إن لم تأذن لي بالنزول من المؤكد أنه سيحدثُ شيء ما».

«ظننتُ أنه من الكافي الاعتقاد بالقسّ القديم الموقر غودموندور دون الاعتقاد بإبليس في ذات الكفّة. أنا رجلٌ حرّ. وأنت امرأة حرّة».

تضرّعت المرأة بصوتٍ خالَطهُ النشيج: «يا حبيبي، أنا خائفة جدًا من أن يحدث مكروهٌ لي إن لم أعطها حجرًا. إنه معتقد قديم».

«دعيها تتعفن تلك العجوز الفاجرة. ما خطبكَ يا بيلسي. أغلقي فمكِ يا تيتلا!»

تمسكت روزا بعُرف المهر بكلتا يديها، مثل الطفلة، وشفتها مرتجفة، ورأسها مُنكّس، مثلَ طفلة. لم تجرؤ على قول كلمة زيادة. وانطلقا من جديد.

ولكن عندما نزلا إلى صعيدٍ من المروج المنبسطة على الجانب الآخر من الجبل، كان بيارتور من توقف هذه المرة، فقد كان بالإمكان رؤية البيت الصيفي في الأفق. اتكأ على جِيد الحصان، وأشارَ إلى بيت الحقل الجديد، كم يبدو ميمونًا مزدهرًا وهو يقفُ هناك على الرقعة الخضراء اللامعة في تَلّته المنخفضة، الجبل من فوقه والمستنقعات ممتدة من أمامه؛ والبحيرة، والنهر المنساب بسلاسة عبر المستنقعات. كان البيت ما يزال بنيّ اللون، وبقع المرج المجزوزة حديثًا ما تزال خالية من الأعشاب. كان متشوّقًا لأن يُريها

بيت الحقل من على بُعد، وكان في هذا المكان بالذات، فعليًا، وسط التُرع والأراضي البراح، وقد أملَ أن يسمع منها هتافات الدهشة والسرور. ولكن لم تَلُح التماعة في تلك العينين الفاترتين اللتين كانتا تحدقان في الوادي بالأسفل! فما زالت ظلال الألم التي تسبب بها بيارتور نتيجة تصرفه العنيد عند الركام تعتّم ملامحها. ظنّ أنها ممتعضة لأن الحقل لم يكن أخضر بعد. فقال: «لكن لا يمكنك توقع ظهور العشب في خمس دقائق. فقط انتظري حتى الصيف المقبل، وأراهن أنك لن تري فرقًا كبيرًا ما بين السقف وأرض الحقل». إلا أنها لم تنبس بكلمة.

قال: «إنه منزل جميل».

ثم سألته:

«لماذا لم تسمح لي بالنزول عند ركام القبر؟»

«بالطبع أنتِ لستِ عابسة هكذا لأنك لم تتمكني من رمي الحجارة على تلك الغول الغابرة، أليس كذلك؟»

لكن المرأة، غير مستجيبة، واصلت التحديق نحو الحصان بعناد، وسقط الظلّ فجأة على الوادي وسط الأراضي الشاسعة، ذلك أنه كان يومًا من بواكير الصيف له وجوه متقلّبة؛ عبرت السماءَ قطعٌ من السحاب البيضاء كما الأفكار، فاجتاحت الظلال الأرض وحجبت الشمس عن الوادي بأكمله، على الرغم من أن الجبال المحيطة به من كل جانب لم تزل مغمورة بضياء الشمس. وعندما لم تُبدِ زوجته أي رد، أراح بيارتور قبضته عن جِيد الحصان، وأمسكَ بالرسن من جديد، ونادى الكلبة، وإن كان لا لزوم لذلك، ومع الصليل الدؤوب لهدايا العرس في الخُرْج، قادَ عروسه مرة أخرى.

أخذ الدرب يميل نحو سفح الجبل بمحاذاة حرف الوهدة التي يقطعها النهر عبر سلسلة الجبال، وكانت قد بدأت بضع قطرات من المطر بالتساقط من السحابة فوق الوادي قبل أن تكسر المرأة الصمت بأن نادت على زوجها قائلة: «بيارتور!»

استدار على عقبه وسأل: «ما بك؟»

أجابت: «لا شيء، أنزلني هنا، هلّا فعلت؟ سأعود إلى المنزل».

حملقَ في زوجته فاغرَ الفم من الدهشة.

وفي الأخير سألها: «هل فقدتِ رشدكِ يا روزا؟»

«أريد أن أعود إلى المنزل».

«أي منزل؟»

«منزل أهلي».

قال الرجل: «لم أعهدكِ تتصرفين بهذه الشاكلة من قبل يا روزا!» ثمّ التفّ، ومن جديد قادها في الطريق. طَفِقَ الدمع ينهمرُ من عينيها؛ قليلة هي الأشياء التي تبعث الارتياح في الصدر مثل القدرة على البكاء. على هذا المنوال، واصلا رحلتهما إلى الوادي. مشت الكلبة في الخلف بهدوء وأناة. وعندما وصلا إلى موقع مقابل البيت، قاد بيارتور الحصان خارج الطريق، وغذّ المسير إلى أرضه عبر المستنقعات. كان عليهما أن يتجنبا كثيرًا من مناقع الماء والبرك العميقة. في أحد الأماكن غاص الحصان حتى أعلى الفخذ، وعندما خرجَ متعثّرًا إلى أرضٍ صلبة انقذفت المرأة وانطرحت في الماء والوحل. أقامها بيارتور على قدميها، من ثمّ مسح عنها لطخات الطين المؤذية بمنديله. وقال: «بتصوّري، أنتن يا معشر النساء موضع شفقة أكثر من بقية البشر!» هذه الملاحظة جعلتها تكفّ عن البكاء، ومشت إلى جانبه بقية الطريق. جلست روزا بجانب الغدير وعصرت تنورتها من الماء، بينما نزع المزارع الصغير السرج عن بيلسي، وربطه. انقشعت الظلال عن الوادي، وغطّت أشعة الشمس الحقل الصغير.

كان بيتًا وإسطبلًا في الوقت نفسه. كلُّ ما كان مرئيًا من الهيكل الخشبي الداخلي هو الباب وإطاره، وكانَ صغيرًا للغاية، وكانت العَتبة عالية جدًّا بحيث كان على المرء الانثناء عند الدخول. في الإسطبل بالأسفل كان المكان باردًا ومعتمًا، ورائحة الجو أفسدتها رطوبة التربة والفطور الرخوة، ولكن عندما رُفعَت درفة الباب الأفقي أومضَ نور خافت من الدور العلويّ. كانت المعالف على امتداد الجوانب، وفي الجدار البعيد فجوة تتسع لإدخال الدريس للحظيرة التي انتوى بيارتور بناءها خلف المنزل. وكان هناك سلّمٌ من سبع درجات يؤدي إلى غرفة المعيشة في الأعلى؛ ارتقى بيارتور السلّم

أولًا ليبرهن لزوجته أنه آمن. لحقت به إلى الأعلى وأجالت بصرها بالغرفة. ورأت أن النافذة صغيرة.

فقال بيارتور هازئًا: «من يسمعك يظنّ أنك ولدت في قصر! إذا كانت أشعة الشمس ما تسعينَ إليه فهنالك الكثير منها في الخارج».

«ومع ذلك، خشيت من التغيير بعد كل النوافذ الكبيرة في روثسميري».

فردّ عليها بخشونة: «أتساءل إن كنت ستفتقدين شيئًا أو شخصًا في روثسميري؟»

سألتهُ بإلحاح: «ماذا تقصد؟ يجدر بك أن تخجل من نفسك لقول كلام كهذا».

كانت غرفة متوسطة الحجم، وواطئة للغاية بحيث إن بيارتور كان يداني عارضة السقف إذا وقف. وقد ثُبّت على الجدار هيكلا سرير من نفس نوعية خشب السقف والأرضية، بينما كانت الطاولة مسمّرة على حافة الشبّاك. على يسار فتحة الباب الأرضي كانَ حيّز ضئيل، ومن فوقه في منحدر السقف، نافذة أخرى لا تتجاوز راحة الكف لها لوح زجاجيّ؛ ومن خارج النافذة نمت بضع سيقان من العشب راحت تتمايل مع الريح. إلا أن سماكة الجدران العشبية في الخارج كانت كبيرة لدرجة لا تسمح بدخول كثير من الضوء، لهذا لا يمكن لأشعة الشمس الدخول ما لم تشرق الشمس مباشرة على النافذة.

كان السرير الأقرب إلى النافذة مزوّدًا بحَشيّةٍ من العشب الجافّ، كان سرير الزوجيّة. أسفل هذا السرير كانت صناديق المؤونة، ذلك أن بيارتور كان قد حصل على مستلزماته من سكّرٍ وطحين جاودار من شركة «بروني»، ومن أفضل نوعية، وربما يوجد مقدار قليل من القمح الأبيض لصنع الفطائر المحلّاة، وإذا ما تحسّس الواحد هنا أو تلمّس هناك، من يدري ما إذا كان ثمة كيس أو اثنان من الزبيب مخبوءان في مكان أو غيره؟ في الطابق السفلي كان هناك جِراب مملوء بمخلّفات الأسماك. ثمّ أن كروسي جيل نفحهما بهدية زفاف عبارة عن حمولة من زبل الأغنام الجاف لأغراض الوقود، وذلك لأن بيارتور أنقذَ مهره الصغير من الغرق في بئرِ العام الفائت، ولكن يتوجب استخدام هذا الروث باقتصاد وأن يُخلطَ أوّلا بأعشاب الخلنج وبالطحالب،

علاوة على ذلك، يوجد كمّ وافر من الخثّ[1]، هناك شرق البيت بعمقِ أربع ضربات بالمجرفة في المستنقعات.

كانت روزا، بعينين محمرّتين ومرفقين موحلين، جالسة على طرف الفراش المحشوّ بالتبن، ترنو إلى اليدين الكبيرتين الحائرتين في حجرها.

سأل بيارتور صاحب البيت الصيفي: «حسنًا، ألا يلائمكِ المكان؟»

«أنت لا تعتقد أني توقعت أفضل من هذا، أليس كذلك؟»

«حسناً، في البيت جانب مشرق على الدوام؛ ما من أحد يعيش هنا بحاجة إلى عبدٍ للنهوض بالأعمال المنزلية طيلة اليوم. ولطالما اعتقدت أن لديك ما يكفي من رجاحة عقلٍ وحسٍّ سليم لتقدير استقلاليتك. الاستقلال هو أهم ما في الحياة. وأقول من جهتي إن الإنسان يعيش سُدى إلى أن يصير مستقلّا. البشر غير المستقلين ليسوا بشرًا. الرجل الذي ليس سيد نفسه سيّئ مثله مثل رجلٍ بلا كلب».

«كلب؟»، سألت غير عابئة، ونَشَقت.

أدام النظر خارج النافذة حينًا من الوقت، لا على هدىً مضى تيّار أفكاره، حدّقَ بصمت نحو الجبل.

ونطقَ أخيرًا: «هذه الأرض لن تغدر بقطعانها».

مسحت زوجته قطرة من نهاية أنفها بظاهرِ كفها.

وقال العريس مستطردًا: «حيث تعيش الأغنام، يعيش الإنسان. وكما اعتاد أبي أن يقول: بطريقة ما الإنسان والأغنام واحد».

قالت زوجته: «لقد راودتني أحلام مزعجة للغاية».

فأدار رأسه ليرميها بنظرة متهكمة، وقال: «لماذا تولينَ اهتمامًا لمثل هذه الأمور؟ تنجم الأحلام عن تدفق الدم للأعلى، تحدث عندك حينما تكونين مستلقية في مكان ضيق، أو إذا كان تحتك كتلة، وهذا كل شيء. على سبيل المثال، في هذا الربيع، عندما كنتُ منهمكًا بإخراج الحجارة من الأنقاض هنا، حلمت بامرأة أتت من الجبل، ودعيني أقول لك، أيضًا، إنها كانت امرأة فائقة الجمال!»

1- الخثّ= فحم المستنقعات.

قالت زوجته: «نعم، كانت امرأة، أليس كذلك؟»

واصل بيارتور القول: «دون تصديق فعليّ بالأحلام، أراهن أن ذلك الحلم يعني بأنه سيكون عندي بعض الحِملان الجيدة للبيع في الخريف المقبل».

«الجميع يقول إن غونڤور قادرة على بسط سيطرتها على هذه المنطقة. لقد مرّ عامان فقط على جفولِ حصان هنا، وفراره في وضحِ النهار».

«لا أريد سماع المزيد عن اللعينة».

«وقد أجبرت كثيرًا من الناس على مغادرة المستنقعات بأية حال».

قال بيارتور هازئًا: «عصبة من الحمقى أو غيرهم ممن لا يفرقون بين مِشط الأرض والمجرفة. بمقدورهم دائمًا إيجاد العذر لإلقاء اللوم على الآخرين إذا ما وضعوا في رؤوسهم فكرة البيع».

«وكأنك تعتقد أن الشر غير موجود!»

فأجابها بالقول: «كلا لستُ أدعي ذلك، يوجد أخطار في البر وأخطار على اليابسة، ولكن ماذا في ذلك؟ إذا ما وقعتِ في الخطر فإما التهلكة وإما النّجاة. ولكن أن تقولي إن الشياطين والعفاريت ومثل هذه الزمرة من الكلام موجودة فهذا يعني أن فؤادك مضطرب، وكفى».

قالت زوجته: «ومع ذلك، الكلاب تبصرُ كثيرًا من الأمور هنا».

«الكلب كلب».

«ياللعجب! لطالما اعتقدتُ أنك تؤمن بأن الكلاب عارفة بكل شيء!»

صاح محتجًا: «لا، هذا كلام لم أقله إطلاقًا. كل ما قلته أنّ الكلب هو الحيوان الوحيد الذي يفهم الإنسان. ولكن على الرغم من ذلك فالكلب كلب والإنسان إنسان، كما يقول إينار أونديرنيث».

«كلّ ذي بصيرة يقول إن هذا المكان مسكون».

قال بنبرة متذمرة: «لا أكترث إطلاقًا لأصحاب البصيرة وبُعد النظر. أعطني شخصًا واحدًا فقط يمتلك شيئًا من السيطرة على حواسه. ها هم أولاء يذهبون لرؤية وسماع أشياءَ الشيطانُ وحده يعلمها، مثل ذلك المتشرد الأخرق الذي أثيرت حوله ضجة كبيرة في فِيورد منذ سنة أو سنتين. وهناك كان من المفروض أن يغشى عليه وأن يُبربر بكل ذاك الهراء من الحياة الآخرة

عن يسوع المسيح وإيجيل سكالاجريمسون والملك كريستيان التاسع. وانتهى به الحال في السجن لتزويره توقيع عمدة البلدة».

قالت: «أنا واثقة بأنك لا تؤمن بالربّ حتى يا بيارتور».

فأجاب: «لم أقل أي شيء بخصوص ذلك، ولكن هناك شيئًا لن أنكره أبدًا وهو أن القسّ المبجّل غودموندور مربّي أغنام عظيم، بل هو أفضل من عُرِف بذلك في هذه المقاطعة».

«أنت لا تقصد أن تخبرني بأنك لا تتلو صلواتك ليلًا، يا بيارتور؟»

«أوه، لا أعلم. إذا كانت القوافي التي أرددها وأنا أخلد إلى النوم ما إذا كانت صلوات أو ابتهالات، وذلك لمجرد ملء الوقت فقط، أو عندما يكون لدي القليل لأفكر فيه. ولكنها لم تكن الصلاة الربانية قط، لأني لا أسمي ذلك شعرًا. وعلى كل حال، بما أنني لا أؤمن بالشيطان، لا أرى مبررًا للصلاة، وبالمحصلة لن نتحدث أكثر حول هذا الموضوع. ما رأيك برشفة من القهوة نتنعش بها؟»

قالت روزا: «يا له من حديث مريع يا جودبيارتور! أنا متأكدة من أن الطريقة التي تتحدث بها سوف تُرهب ملائكة الله. أنت تنكر كل شيء ما عدا ما تودُّ تصديقه؛ إنك لرجل من هذا النوع!»

ردّ قائلًا: «عندي حواسي الخمس، ولا أرى ما يستدعي المزيد».

«أعرفُ أناسًا أرفعُ منك شأنًا في المجتمع، ومع ذلك هم يؤمنون بالخير والشرّ على حدٍّ سواء».

قال بيارتور: «ربّما، وأعتقد أنه بمقدوري أيضًا معرفة من أيّ طينة هم. ولن أندهش ما إذا كان واحدًا منهم ذلك الشاب الذي كان يحوم من حولكن أنتن النساء في مزرعة ميري هذا الربيع، ذاك الشخص الذي كان يفزعك بين ذراعيه بقصص الأشباح».

«نحن؟ من؟»، قالت متسائلة، وقد رفعت بصرها للأعلى، وللمرة الأولى ظهرت التماعة في عينها الحولاء. «ما الذي تقصده بكلامك هذا؟»

ولكنه كان منشغلًا بهمهمة شعر قديم وبالبحث عن الغلّاية لإحضار

الماء، لأنه كان عازمًا على شرب قهوته. استدار من على السلّم وترك من ورائه هذه الملاحظة:

«أوه، ربّما تقرَّبَ شخصٌ من شخصٍ آخر قدر ما شاء. ينبغي ألّا أتفاجأ إطلاقًا، وينبغي ألّا أتفاجأ قيد أنملة».

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

5. الأسرار

من منظور سطحي، بدت هذه الملاحظة الختامية لا هي محدّدة على نحو خاص ولا ذات دلالة معيّنة، ومع ذلك فالقليل من الأمور تُحدِث تأثيرًا عميقًا على الحياة الأسرية في بواكير نشأتها في البيت الصيفي مثل الإيحاء الذي تحمله، أو بالأحرى تلك الحقيقة التي أثبتت منذ الليلة الأولى أنها الأساس لها.

هتفت قائلة: «كلا، هذا كذب».

أشاحت بوجهها نحو الحائط بتحدٍّ، مُكدّرةً خائبة الأمل.

سألها: «من كان؟»

«إنه هوَ!»، وانخرطت بالبكاء مرة أخرى.

«يفترض بي أن أحكي لو كنت في مكانك».

«لم تخبرني عن أسرارك».

قال: «حقًّا؟ لست مضطرًا لإخفاء أي شيء».

«لا أريد سماع أي شيء عنها!»

«أنتن في يوم زفافكن طافحات بالحياء والحشمة، لكن رغم حمرة الخجل هذه لا أحد يعلم بأي سرير نمتنَّ. ومن ثمّ تمررن إلينا نحن الرجال جثّة الحُبّ الهامدة بعد أن اقتلعت النسور أعينها».

قالت: «أنت ملاك، على ما أعتقد!»

«هل كان ذاك الشخص من تندستير؟»

«اسأله».

«أم كان ذاك الأخرق من الساحل الذي يشتغل بحراثة الأراضي؟»

«من المحتمل».

«طبعا لم تكوني مجنونة إلى الحد الذي يجعلك تصاحبين ذلك الزّاني الذي حبّلَ ستانكا غيلتايغ؟»

«لماذا لا تحصي جميع الزناة والقوّادين في البلدة؟»

«لأجد أنكِ كنتِ على علاقة معهم جميعًا؟ القطة التي تزحف أشد مراوغة من التي تنطّ!»

ثم نهضت وقد تميّزت غيظًا، وأنشأت تصرخُ مُحتدمة:

«يشهدُ الله، والمسيح، بأنني إن كنتُ نادمة على شيء فأنا نادمة لأني لم أطارحهم الغرام جميعًا بدلًا من الزواج من رجلٍ يتعبّد الكلاب، ويثق بأغنامه ويعلّق آمالًا كبيرة عليها أكثر مما يفعل مع الروح الإنسانية، وأتمنى فقط لو أنني أملك الحسّ السليم كي أعود إلى موطني؛ إلى أمي وأبي!»

فقال: «أوه، أنا أعرف حق المعرفة أنها لم تكن الغول الغابرة التي كنت خائفة منها، أستطيع أن أرى أبعد من أرنبة أنفي قليلًا، كما تعلمين. وما من داعٍ لاستجوابك، لا يقتضي الأمر كثيرًا لتدرك كُنه امرأة. هذه هي الطريقة التي تتصرفن بها عادة: تحببنَ السادة النبلاء المرهفين بما يكفي لطردكن حينما يسأمون منكن، ومن ثم تنطلقنَ وتتزوجنَ بشخصٍ تزدرينه».

«أنت كاذب!» صاحت المرأة.

«إذن كان هذا هو السبب أنك كنت دائمًا تشعرين بالنعاس خلال النهار عندما عاد من الكُلية الزراعية في الربيع الماضي. إذن كان هذا هو حبك للاستقلال. كان هذا عشقك للحرية. لقد ظننتِ بالطبع أن هذا النسب أشرف من نسبي لأن أباه أشدّ بخلًا من أن يأكل وجبة لائقة عندما يكون في الصيد، وكان يزوّد الدّهنَ بالقطران، ويحتال على أصحابه بالبراندي المخلوط بالماء، ويشتري الخيول المعتلّة بالأجور الصيفية حين يكون في الجنوب، ثم يعود إلى المنزل ويضع الخردل تحت ذيولها فتقفز كأنها لم تُكسَر قط. بإمكانك أن تكون رجلًا ذا شأن وأن تثب إلى السرير مع الخادمات ليلًا،

وتنام بعد ذلك النهار بطوله، إذا ما واتاك الحظ الوافر بأن يكون لك أبٌ لصٌّ ونصّاب في آن معًا».

استشاطت المرأة غضبًا، «أنت تكذب، تكذب!»

«ومن أجل هذا الخنزير قضيتُ ثمانية عشر عامًا في العبودية؛ ثمانية عشر عامًا من عمري ليدفع تكاليف خيوله الأصيلة، وسفرياته، وتعليمه؛ ومن أجل هذا الخنزير احتملتِ سخرية الوكيل حينما اعتقد أنكِ لا تسقينَ الحقل من المبولة تحت أسرّتهم باعتزاز وفخر. وحتى إنهم يطلبون مني الآن تربية ولده غير الشرعي في بيتي».

وهنا كان بيارتور قد بلغ درجة عالية من الانفعال، واستبدّت به سورة الغضب فوثبَ خارج السرير وجرَّ الملابس عن زوجته شبه العارية كأنما كان في نيّته أن يسلخ جلدها. زحفت على ركبتيها في فزع، وألقت ذراعيها حول رقبته وأقسمت بكل مقدّس بأنه لم يعرفها رجل من قبل. وصاحت: «وقبل كل شيء، قبل كل شيء، قبل كل شيء؛ فليساعدني الله العلي القدير إن كنتُ أكذب. لقد علمتُ أن لعنة نزلت على حظيرة الأغنام هذه؛ لقد دُمِّرت المزرعة سبع مرات على يد الأشباح والعفاريت، وما الخير في تسميتها بالبيت الصيفي إن كنت ستقتل زوجتك في ليلة زفافها، وأن تعطي عظامها لكولمكيلي؟»

وهكذا مضت تلتمس الرحمة بتوسّلات مشتتة مرويّة بالدموع، إلى أن أشفقَ عليها آخر الأمر. لأنه يعلم بأن النساء أجدر بالشفقة من البشر العاديين. تناول قبضة من السعوط، واستلقى من جديد، وغطَّ في النوم. ليلة زفافهما، في ليلة من ليالي الصيف.

من هذا القبيل كانت حياتهما الزوجية.

***

6. الأحلام

ولكن في الصباح حينما أفاقَ قبل أول طير، لم يطاوعه قلبه على إيقاظها، كانت نائمة على نحو عفوي وتلقائيّ للغاية. نَعّمَ فيها النظر وهو يرتدي ملابسه، وقال في سرّه: «إنها نضرة مثل الوردة»، وكان سيسامحها من أجل

أمور كثيرة. ومع ذلك كثيرًا ما أخذه العَجب، أن التي ترقد هناك نائمة في غاية البراءة، كان عليها أن تحبّ رجالًا آخرين، وكان عليها ألا تقرّ بفعلتها، هي التي لطالما كانت متحفّظة ومن المستبعد أن تستجيب لأي محاولة تقرّب! كان يقول مرارًا: هناك فتاة تصون نفسها، وتُبقي على مسافة بينها وبين الرجال؛ سوف أتزوج تلك الفتاة وأبتاع لنفسي مزرعة. والآن بعد أن تزوجها واشترى مزرعة، اتضح أنها أحبّت رجالًا آخرين، ولم يعرف أحد أي شيء عن ذلك.

عندما كانت نائمة، كانت هانئة، ولكن عندما استيقظت لمحَ في مقلتيها الإحباط وخيبة الأمل، ولذلك تركها تكمل نومها. تكلّما قليلًا وبالكاد تجرآ على النظر بعضهما إلى بعض؛ كما لو أنهما متزوّجان من خمسة وعشرين عامًا وما فَهِما بعضهما بعضًا قط. دارَ حولَ زاوية الحقل وعَبرَ إلى الشرق بحكم العادة، دون تفكير. قفزت تيتلا من الحائط، حيثُ كانت نائمة على حافة النافذة الغربية المعشِبة. في كل صباح تَخِفُّ إليه متودّدة بالصداقة الحميمة بينهما، ومتحمّسة كما لو كانا يلتقيان بعد فراق دام أسبوعين. راحت ترسم حلقات كبيرة في العشب من حوله، وتنبح طيلة الوقت، كانت تركضُ إلى أطراف الحقل وتعطس وتفرك خطمها بالعشب. ثمّ لحقت به إلى جزّ الحشيش في الخارج.

كان الفجرُ وشيكًا، والنسيم منعشًا مُشْبعًا برائحة الصبح، والبحيرة صافية كالمرآة. هناك، على جزيرة صغيرة، كان زوجا بجعٍ يُعشّشان، وبطة متوّجة وبطة العين الذهبية تسبحان في صحبة صغيرة، أما بط المالارد البري والبط المهرج فيفضّل برك النهر الأعمق ويبني أعشاشه على ضفافه؛ أحيانًا لا يستطيع هذا الفلاح الصغير كبح نفسه من التوقف لدقائق إجلالًا للريش الملكي للبطّات. طارت بضعة طيور من الطيطوى ذوات السيقان الحمر من الشرق لدى رؤيته، محمّلة إياه تحياتها الصباحية المنمّقة. كانت أيضًا بعض طيور الخرشنة[1] تبني أعشاشها بالقرب من البحيرة؛ ومن أحداقها يشعُّ دفء الحياة. وفي أماكن متفرقة على المساحات العشبية المنبسطة حول البحيرة

1- طائر الخرشنة: طائر مائي؛ خطّاف البحر.

كان بالإمكان رؤية إوزات الفول[1] تتحرك اثنتين اثنتين، ورقابها الطويلة متجهة نحو السماء. الطيور أكثر سعادة من البشر، وأجنحتها هي التي لها أبلغ الأثر؛ «أيتها الإوزة الأم الرمادية، أعيريني جناحيكِ!»، كان الصوت الحزين الوحيد هو صوت السّامك[2]، طائر غرّيد كئيب. أمسكَ بيارتور صاحب البيت الصيفي مقبض المنجل وَهَمَّ بحشِّ الحشيش.

حينما هوى بمنجله في بادئ الأمر شعر بالتيبّس بعض الشيء، لم يكن مفعمًا بحيوية الصباح كما كان منذ عشر أو اثنتي عشرة سنة، عندما كان يجد متعة في إضافة الليل إلى النهار. في تلك الأيام لم يكن بحاجة إلى النوم، ولم يكن بحاجة إلى الراحة، ولكنه اعتاد أن يأكل حصّته الصباحية من اللبن الخاثر أثناء وقوفه في المروج؛ متكئًا على مقبض منجله. منذ خمسة أعوام فقط اكتشف ماذا يعني أن تكون متعبًا، وفي الوقت الحاضر يبدأ يومه أحيانًا برفرفةِ آلامٍ واخزة تسري في ضلوعه. ولكن على الرغم من ذلك كله هو مالك أرضٍ الآن، ومسجّل بصفته هذه لدى الدولة. وفي غضون اثني عشر عامًا سيكون قد سدّد آخر بنسٍ مترتب عليه من ثمن الأرض المستأجرة، أي مجموع ثلاثين سنة. إنه ملكٌ في مملكته، والطيور بريشها الملكي وبشدوها المتعدّد الأشكال ضيوفه. زوجته نائمة في البيت في حقله الصغير، وهي زوجته الشرعية، على الرغم من أن شخصًا ما قد يكون عاشرها من قبله، وربما ما يزال الخيار الأول بالنسبة لها. بينما كان يعمل نسجَ هذه الأفكار في أبيات من الشِّعر، بيد أنه كان شعرًا لم يتلُه على أحد. كانت الكلبة تعدو في الجوار مطارِدةً الطيور في المستنقعات. وقد تُوفّق أحيانًا في اصطياد طائر تَفلِق[3]، أو طائر شنقب[4]. كانت تأكل طريدتها، ثم تجلس في الميدان، وتنهمك في عضّ ولعقِ نفسها. بعدئذ قد تنخرط في نوبة تأملية؛ تحدّق

1- إوزة الفول: جنس من الإوز يتكاثر في شمال أوروبا وآسيا.

2- السامك: طائر مائي يأكل السمك.

3- التّفلق: هو الاسم الشائع لفصيلة من طيور المستنقعات التي تعيش في معظم أنحاء العالم، والتفلق طائر من طيور الماء.

4- الشنقب: طائر الشنقب أو الجهلول، طائر له منقار طويل ومستقيم يعيش قرب الأنهار والمستنقعات.

في الوادي وتغيب في نشوةٍ لا يطرفُ لها فيها جفن. ثم في آخر المطاف نَبشت عن أريكة لها في العشب، وتكوّرت على نفسها. طلعت الشمس من مَشرقها، وانحسرت الأفياء، ولكن في وقت الإفطار غالبًا ما كانت الشمس محجوبة بالغمام، وعصفت بالوادي ريح باردة؛ وبهذا كان أجمل جزء من اليوم قد مضى. ما كانت الأصباح يومًا مألوفة، إذ إن كل صباح هو صباح جديد، ولكن مع تقدّم النهار يقلّ غناء الطيور، وتفقد الجبال الزرق لونها البديع تدريجيًا. كانت الأيام مثل الناس الكبار، والأصباح دائمًا صغيرة فَتيّة.

حَسِبَ أن زوجته سوف تستقبله الآن بحفاوة وسرور لدى عودته لشرب قهوته الصباحية، وقد ترغب أيضًا بسماع قصيدة جديدة عن الطبيعة؛ ولكن يبدو أنها لم تكن على ما يرام، أو على الأقل لم تكن جيدة بما يكفي للاستمتاع بقصيدة. وعلى كل حال لم تكن ترى فائدة تُرجى من الشِّعر. كان قد اشترى لها ثوبًا موشّى بالزهور، أنسب ما يمكن ارتداؤه في الطقس الجاف، غير أنها بدت دائمًا تفضّل المئزر الخيش[1] العتيق الذي كانت ترتديه لحلبِ الأبقار في روثسميري، أو التنورة الصوفية الرثّة مع معطف قديم مرقّع. وعلى نحوٍ ما لم تكن بصحة جيدة، ففي بعض الأحيان تشعر بالدوار وتضطر للجلوس، وكثيرًا ما يتحتّم عليها الانزواء وراء الأكمة. في الصباح يفطران على خبز الجاودار وقهوة بلا حليب. في وقت من الأوقات، كانت معاونة بارعة وعاملة نشيطة في قصّ الحشيش وتجفيفه، ولكنها الآن كثيرًا ما تتدلّى بخمول على مِدمّتها[2]. علّقَ بالقول: «تبدين خاملة بوجهٍ ما، وكالحة اللون للغاية!»، ما من جواب. ثم أردفَ متبرّمًا: «بإمكان مشط العشب هذا أن يعمل بمزيد من الحيوية من خلفه!» لم تَحِر جوابًا، وأخذت تقضم شفتها. كانت تذهب إلى المنزل متهدلة قبل حلول التاسعة كي تسلق السمك، ولكنها في غالب الأحيان لا تفلح في إشعال النار. تحضرُ له السمك وخبز الجاودار والقهوة إلى المرج. قال يقصد السُّكّر «لا داعي لأن تكوني شحيحة مع هذا الوحل!»، ذلك أنه دائمًا يتحدث باستخفاف عن الأشياء الحلوة. وبعد ذلك كان يذهب ويتمدد على كتف النهر، ويستريح، ولكن ليس لأكثر من أربع

1- الخيش: (الجنفيص)، نسيج غليظ خشن متباعد الخيوط يسمى الكانفاس.
2- المدمّة: مشط العشب/ المِدمّة خشبة ذات أسنان تسوّى بها الأرض.

دقائق. وفي الأثناء تجلس زوجته في المرج، وتقتلع الحزاز[1] بأصابعها، شاردة الذهن.

اعتادَ في أيام الآحاد أن يتسلّق منحدرات الجبال ويجمع نباتات الخلنج، أو أن يتمشى صعودًا إلى المروج المرتفعة ويُسلّي نفسه بالاستطلاع حول الأغنام ورؤية ما إذا كان بمقدورهِ معرفة أصلها، لأنه يعرف السُّلالات المختلفة للعديد من القطعان. وكان لديه أيضًا ولعٌ غريب بدحرجة الصخور الكبيرة من على حواف الجروف. وفي الأثناء كانت زوجته تغسل حاجياتهما في الغدير، بجانب الشلال السُّفلي. وفي يوم أَحَد غاب زمنًا أطول من المعتاد، وعندما عاد إلى المنزل كان متهلّلا ومسرورًا بنفسه، وسألها هل بإمكانها أن تخمّن ماذا رأى؟ لقد تبيّن أنها «مجيونهيرنا»، كان قد رآها جنوب ليندير يرافقها حملٌ مدهش. «أراهن أي شخص على أن حَمَل «المجيونهيرنا» هذا لن يقلّ وزنه عن ثلاثين باوندًا بحلول الخريف القادم!» بيد أن زوجته لم تُظهِر ولو علامة من بهجةٍ أو سرور.

وقال معقّبًا: «إنها سلالة متينة من تربية القسّ جودموندور. سلالة لا تهيم على وجهها، وليست تشردُ في العراء بلا وِجهة. فهي تعرف ما الذي تسعى إليه ولا تَشطُّ عنه، إنها أغنام ذكية. وإن كنت عازمًا على شيء فإنما هو تربية كبشٍ من السلالة التي ربّاها القسّ غودموندور».

قالت روزا: «طيب يا عزيزي. هذا حسن».

لم تشاطره سعادته، لا بل كانت غير مبالية بطموحاته. ومهما كانت أفكارها، فقد احتفظت بها لنفسها.

1- الحزاز: ويطلق عليه أحيانًا خطأ الطحلب. أحد أنواع مجموعات النباتات الصغيرة، الخضراء غير الزهرية التي توجد في كل أنحاء العالم. تميل الحزازيات للنمو متجاورة معًا في أعداد كبيرة، وتكون عادة غطاء كثيفًا ناعمًا على الصخور، وعند جذوع الأشجار أو على سطح التربة. وتعيش أغلب الحزازيات على الأرض في الأماكن الرطبة الظليلة، ولكن يوجد بعضها في بيئات جافة، وينمو بعضها الآخر في كلٍ من البحيرات والبرك أو الأنهار. تنمو الحزازيات الخثيّة، وتُسمى أيضًا الأسفغنون في المستنقعات وغيرها من المناطق المستنقعية. وتعيش في كل أنحاء العالم، لكن معظمها ينمو في الأجزاء الباردة من نصف الكرة الشمالي.

وبعد صمتٍ قصير قالت: «بيارتور. أشتهي بعض اللحم».
سألها باستغراب: «لحم؟ لحمٌ في عِزّ الصيف؟»
«فمي يفيضُ بالرّضاب في كل مرة أنظر فيها إلى خروف».
كرّر قائلًا: «رضاب؟ ما بالك، لا بدّ أنها حرقة في المعدة».
«سمك السلّور المالح الذي عندك لا يصلح لتقديمه لكلب».
«هل أنت متأكدة أنك بخير يا حبيبتي؟»
قالت: «في روثسميري كنا نتناول اللحم مرتين أسبوعيًا، وبانتظام».
«لحم خيول. لا تذكري قاذوراتهم اللعينة مرة أخرى».
قالت: «ما مرَّ يومُ أَحَد دون أن نأكل لحم ضأن، وحتى في فصل الصيف. وعلى أية حال لحم الخيول طعامٌ ممتاز».
«هم لا يذبحون شيئًا من أجل جماعتهم، بل يستهلكون النعاج والأفراس الضامرة الهرمة. لحومهم صالحة للعبيد والخدم فقط».
«فإذن أين هي لحومك؟»
أجاب: «الرجل الحرّ يمكنه العيش على السمك. الاستقلال خيرٌ من اللحم».
«أحلمُ بالسّجق كل ليلة. يخيّل إليّ أنني أقطّع الأمعاء بملء يدَيّ؛ أراها خارجةً من القدر يتصاعد منها البخار ويتقاطر منها الشحم. أحيانًا سجق الكبد وأحيانًا سجق دم[1]. فليساعدني الله في عُلاه!»
فسّرَ ذلك بالقول: «هذا يعني مطر وعاصفة. ويرمز الشّحم إلى السحابة وقليل من أشعة الشمس. يبدو كأنه سيكون لدينا الطقس ذاته طوال أيّام الشّعْرَى[2]».
تابعت كلامها: «أحلمُ بالحليب أيضًا».

1- سجق الدم: blood sausage سجق داكن محشوّ بالدم المطهو أو المجفف والمخلوط بحشوة إلى أن يثخن بما يكفي ليصير متماسكًا حين يبرد. تختلف طريقة تصنيعه من مكان إلى آخر حول العالم. ممكن أن يكون من دم الخنزير أو البقر أو الخروف أو البط أوالماعز.

2- أيام الشّعرى: يراد بها أشد الأيام حرًّا في الصيف، وبالإنكليزية تُعرف بأيام الكلب، وهي ما بين 12 يوليو إلى 20 أغسطس من كل عام. والشِّعْرَى كَوْكَب نَيِّرٌ يطلع عند شِدةِ الحرِّ.

«حليب؟ ثلجٌ؟ في عزّ الصيف؟»

بدا هذا الحلم من أشد الأحلام غرابة بالنسبة إلى بيارتور.

«حلمتُ في الليلة الماضية أنني عدتُ إلى روثسميري. رأيتُ أنني أفصِل الألبان، ومن أحد الأنابيب يتدفق لبن مقشود ومن الآخر القشدة، تمامًا كما لو كنتَ تعمل في فصل الألبان، وحلمتُ بأنني وضعتُ فمي على أنبوب القشدة».

قال بيارتور: «لا أعرف لماذا ينبغي عليك أن تؤرقي رأسك بمثل هذه السفاسف البغيضة على نحو يفوق استيعابي. لا معنى لها بالنسبة إلي». ثم أعرضَ عن أحلامها جميعًا وقد تمكّنَ منه اليأس.

«وفي وضح النهار أيضًا أفكر في الحليب دائمًا. وحينما أكون منهمكة بالتمشيط في المروج، أفكر في الحليب واللحم».

جلسَ بيارتور متجهّم الوجه، مُستهجنًا هذا الموضوع مدّة من الزمن، ثم قال في الأخير: «أصغي إلي عزيزتي روزا، أتمنى أنه ما من علّة في أعصابك».

«هل من الجائز أن نشتري بقرة، يا بيارتور؟»

«بقرة؟» كرر في دهشة فاغرًا فاهُ، «بقرة؟»

وأصرّت زوجته بعناد: «نعم، بقرة».

«ها قد انقطع الشك باليقين يا امرأة. إنها أعصابك. هكذا بدأ الاعتلال في أعصاب أمي العجوز المسكينة. بدأت معها القصة بكونها دائمًا ملآنة بالأفكار الغريبة، ثم أخذت تسمع أصواتًا. بَادِئَ بَدءٍ قصدنا امرأة تعالج بالأعشاب بخصوص هذه المسألة، وعندما لم يُجدِ ذلك نفعًا اضطررنا لمراجعة الطبيب. إذا استمر هذا الوضع فمن الأفضل أن تُعلِميني لكي أذهب إلى العجوز فينسن وأحضر لك ترياقًا».

«لا أريد دواء. أريد بقرة».

«وأين حقلكِ إذن؟ ظننتُ أنك تستطعين أن تري بنفسك كم هو قليل العشب على هذه الهضبة العارية التي بُني عليها البيت والحقل. والمروج البعيدة أشد سوءًا، كما ينبغي أن تعلمي من تجربتك الخاصة. من أين ستحصلين على الحشيش من أجل بقرتك؟»

«يوجد نبات السُّعد على امتداد النهر».

«ومن سيجزّه؟ ومن سيرفعه إلى الضفة؟ وكيف سنوصله إلى المنزل؟ هل تعتقدين أننا قادرون على الانغماس بالكماليات، ونحن مزارعان صغيران في عامنا الأول؟ لستِ في كامل وعيك!»

قالت بسخرية: «ظننت أنك ملك حرّ!»

«أليس لدينا وفرة من الأسماك الجيدة، على سبيل المثال؟ نحن أسياد أنفسنا، ونسعى لتثبيت أقدامنا على أرضنا الخاصة. ولسنا مضطرين لأكل النفايات الرجسة التي تُقدَّم لعمال المزرعة في روثسميري، ونحن نأكل سمك سلور مجففًا ممتازًا، وحديثًا أضفنا إليه البطاطا الأجنبية. ولدينا كثير من خبز الجاودار، وكثيرٌ من السُّكر. وليس خطئي أنك تركتِ البسكويت يتعفن. كان عليك أن تأكلي البسكويت على سبيل التغيير، بدلًا من أن تتركيه للعفن. بسكويت الجاودار يعتبر دائمًا من الحلويات. وعلاوة على ذلك يا حبيبتي، بسكويت الجاودار هو مخبوزات أجنبية».

«أنا متأكدة من أن أبي سوف يعيرنا خيول الجرّ الثلاثة التي عنده لحمل نبات السُّعد إلى البيت».

«لن أسلك درب التسوّل إلى أي أحد من أجل أي شيء، إلا إذا كانت الحياة معتمدة عليه وبإمكاني أن أدفع حتى آخر قرش»، قال بيارتور. «والآن كفانا من هذا الموضوع. إنه هباء وما من مسوّغ لفلاحين على مزرعة معزولة للحديث عن بقرة؛ هذه مزرعة أغنام، وعلينا أن نبني على الأغنام، ولن أستمع إلى مزيد من السفاسف!»

«وماذا إن أنجبت طفلًا؟»

«سيعتاش طفلي على حليب أمه. كنت أتغذى على السمك المغلي، والشحم الحيواني، وزيت كبد سمك القدّ في كيس الرضاعة الجلدي قبل بلوغي العام الأول بكثير، ونموتُ جيدًا».

حدّقت به بعينين مملوءتين ذعرًا وكمدًا، وامّحت من وجهها فجأة كل ملامحها الشخصية. تأثّرَ، وقال بنبرة اعتذار: «باستطاعتك رؤية ذلك بأمّ عينك: الاحتياجات الملحّة يجب أن تأتي أولًا، وذلك كي نسدد أقساط

المزرعة. وغالبية الحملان يجب أن تُباع لتخفيض الحسابات مع وكيل الأرض، ومن الجنون بمكان أن نغرق أنفسنا بالديون من الرأس حتى أخمص القدم؛ لأننا سنكون مضطرين حينئذ للإنقاص من أغنامنا، وكل ذلك من أجل البقرة. ولكن في غضون سنة أو نحو ذلك، سنحاول الحصول على قطعة أرض لزراعة الخضروات من أجلك. وصَفَقها على كتفها كما لو أنه يَصفق حصانًا!

***

7. الأعصاب

ولكن على الرغم من الأدوية الفعالة التي جلبها لها بيارتور من الطبيب فينسن، فإن أعصاب زوجته، بدلًا من التحسن، ازدادت سوءًا على سوء، وبصورة مطردة.

في الليل قدّمت له خبزهُ والسمك باردًا، ولكنها غَلَت شيئًا من عصيدة الشوفان الثخينة القوام لنفسها. وقفت منحنية فوق الموقد، وراحت تحرّك بالمغرفة بينما ملأ الدخان المتصاعد من العيدان شبه الجافة الغرفة بأكملها. التقطَ بيارتور الحسك من السمك، من ثمّ، بعد أن وضع النصفين معًا بحيث أطبقَ الجزء السميك على الرقيق على نحو محكم، قضمها كما لو أنها شريحة من الخبز، وظل طيلة الوقت يرمقُ زوجته من تحت حاجبيه مستاء. قبل اثني عشر شهرًا كانت فتاة ذات بشرة بَضّة، وكان من عادتها أن تغتسل كل مساء وترتدي أفضل ثيابها، وكانت قادرة على الضحك على طريقتها، على أي شيء تعتبره مُسلّيًا. وفجأة صارت هذه الفتاة امرأة في منتصف العمر، امرأة مهملة قذرة بمئزر عتيق من الخيش كانت ترتديه لحلب الأبقار في روتسميري. أصبح وجهها شاحبًا ومتجعّدًا، وتلاشى الضياء من مقلتيها، واللون من خدّيها، والرشاقة من مِشيتها. وهكذا سرعان ما ذَوَت زهرتهُ على الرغم من وفرة الأسماك، والخبز، والعصيدة، والبطاطا منذ أسبوعين فصاعدًا؛ وبسكويت الجاودار الذي هو في الواقع من المخبوزات الأجنبية (الحلويات القارية). قال في سرّه: «يبدو لي كأنها متحسرة على عشيق

لعين»، ويمكنها أن تسمع إن شاءت. الأمر المؤكد هو نفورها منه أيّما نفور لدرجة أنها حريصة كل الحرص على عدم الذهاب إلى الفراش قبل أن ينام، وإذا ما أفاق على حركتها وهي تصعد إلى السرير، أعطتهُ ظهرها على الفور، وإذا ما همسَ في أذنها رقدتْ مثل جثة هامدة، فتنصرفُ عنه الرغبة برمّتها. وهو بذاته ليس همّامًا فائرًا بالشهوة، فهو إما مكدود الحيل دائمًا، أو يشعر بالإرهاق، بأية كيفية. لعنَ حظّه بصمت؛ صفوة سِني حياته، ثمانية عشر منها، ذهبت في خدمة الوكيل وعُصبته، والآن لا يستطيع الواحد أن يحظى بشيء من المتعة من زواجه، بعد إذ صارَ أخيرًا سيّد نفسه والمتحكم بأمره. عندما نام رأى في نومه أبقارًا ترعى أعشابه. كانت الأبقار غاضبة، اندفعت نحوه، وأفزعته في الأحلام كما كانت تفزعه في طفولته. هبّ من نومه قافزًا، ولا يزال في حالة ذهول، تمتم: «الكفن ولا البقرة!». وحينما خرجَ في الصباح ليقضي حاجته في الجوار، عبرَ بعد ذلك باتجاه الشرق وتمتم: «باسم الآب، والابن، والروح القدس: الكفن أسرع إلي من بقرة. دائمًا وأبدًا، آمين!»

وهناك كانت واقفة قدّام عصيدتها، تدسُّ مزيدًا من العيدان أسفل القِدر؛ طقطقت وطقطقت، وتصاعدَ الدخان دونما انقطاع، أكثف فأكثف.

قال: «احترسي من إضرام النار يا حبيبتي». غير أنها لم تصغِ وأضافت المزيد.

«حسنًا، الاحتراس من شأنك يا جميلتي، مثلما هي مهمتك سحب القدر من النار عادة».

وأخيرًا كانت العصيدة جاهزة، تناولت قصعة وملأتها، يا إلهي الرحيم، ملأتها حتى الحافة، كم كانت ستأكل المرأة؟ غمست يدها في الصندوق، وكسرت كتلة كبيرة من السُّكر الصخري لتأكلها مع العصيدة. راقبَ كل هذا باندهاش، وشبه مصدوم كيف يخطر على بال شخص، ولو مجرّد تفكير، أن يأكل شيئًا كهذا، سُكّر نَبات مع العصيدة! وليس لأنه يستخسر فيها الأكل. وبصرف النظر عن ذلك؛ كان في دخيلته فخورًا لمعرفة أن زوجته كانت تأكل حصته من دقيق الشوفان، حتى وإن كانت تأكل السُّكر الصخري معه؛ ولكن عندما عادت إلى القِدر وطفّحت الإناء مرة ثانية، وكسرت مزيدًا من

السُّكر لتأكله معه، بدأ الشكّ يتسلل إلى قلبه. قصعتان مطفحتان بالطعام لامرأة واحدة؟ ومزيدًا من السُّكر؟ بلى، المزيد من السُّكر. حارَ معها، ليس باستطاعته معرفة رأس من ذيل مع مرض أعصابها، وتقلباتها المبهمة. البارحة كان الحليب واللحم، والليلة قصعتان مملوءتان بالعصيدة والكثير من السُّكر، ومن المحتمل غدًا أن يكون فِيلًا! لم يفه بأي كلمة، إلا أنه استظهرَ بعض الأبيات بينه وبين نفسه، تلك القصائد ذات القوافي المعقدة التي اعتاد ترديدها كلما وقعَ في ورطة، همهمها من أولها إلى آخرها مع تفخيم القوافي الداخلية، مونولوجًا روحانيًا. بعد العشاء أخذت بعض الجوارب الموحلة لغسلها في الغدير، ومضى إلى السرير بمفرده.

عندما استيقظ صباح اليوم التالي لم تكن إلى جانبه. لم يسبق أن حدث هذا من قبل، ارتدى ملابسه على عجل، ثمّ هبطَ السلم وخرج.

«روزا!»، زعقَ من على الرصيف مثل الأبله. ذهبَ أيضًا خلفَ البيت وصاحَ باتجاه الجبل: «روزا!»

لكن الاسم المُنغَّم لم يُثِر أي صدى في المنظر الطبيعي. كانت الشمس قد سطعت مع ظلالها الطويلة التي جعلت من منزل الحقل الصغير قصرًا. ولكن كان المكان مظلمًا بعيدًا في الغرب. كان الصيف إلى انقضاء؛ وقد غنّت الطيور أعذب أغانيها، والآن صارت تغريداتها قصيرة ومتعجلة، كما لو أنها تَبيّنت الوقت.

صاحَ: «تيتلا». ولكن الكلبة لم تقفز من الحائط كعادتها. هي أيضًا ضلّلته. هذه كارثة بالنسبة للرجل. لكنه لم يستسلم؛ وفي الفترات ما بين مناداته على المرأة والكلبة، لوّح بقبضته الغاضبة باتجاه الجبل. وصاحَ عاليًا: «مزّقيني إلى أشلاء، إربًا إربًا، ولكني لن أخضع، روزا، تيتلا، إربًا إربًا، شلوًا شلوًا».

في آخر المطاف تناهى إلى سمعه عواء من ناحية الغرب، من المستنقعات. لقد كانت الكلبة. جاءت مسرعة من جهة اليمين، تعوي دونما توقف. هرع الرجل لملاقاتها. سألها: «أين هي؟» كانت الكلبة ملطخة بالوحل وتلهث من الجري، ولسانها متدلٍّ من فمها، لكنها وثبت عليه ودسّت فكّيها المشرعتين في وجهه. ثمّ استدارت وراحت تعدو من جديد، مباشرة مثل

السّهم، عبر البرك والمستنقعات، والرجل يعدو من خلفها. وما بين حينٍ وآخر كانت تتوقف وتنتظره كي يلحق بها، ولكن كلما صار على بعد بضع ياردات منها، كانت تنطلقُ مسرعةً مجددًا؛ حيوان حصيف. اجتاحت الغيوم قرص الشمس، وهبّت رياح رطبة مُنبِئة بمطر وشيك. وهكذا مضت المسيرة الغريبة بكلبٍ يقود إنساناً. ولم ينتهِ المسير قبل أن يبلغا قمّة الجبل حيث ركام الحجارة فوق قبر المرأة التي دُفنت منذ أمدٍ بعيد، وكانت الكلبة محقّة في النهاية: كانت زوجة بيارتور نائمة هناك أيضًا. كانت مستلقية فوق الحشائش النّامية حول أحجار القبر، في مَيدعتها الخيش البالية، ورأسها معصوب بقطعة قماش، وجورباها سقطا أسفل كاحليها، والطين وصلَ إلى الركبتين، مثل متشرّدة تاهت ليلًا على قمة جبل في قصّة قديمة، وقد وضعت صرّتها تحت رأسها. أيقظها فنظرت من حولها بعينين مضطربتين، وأسنانها تصطك. تكلّم معها، لكنها لم تُجِب. حاولت غيرَ مرّة الوقوف على قدميها، غير أنها أخفقت في كل مرة. هل حملتها الأشباح في نومها إلى هنا؟

«ما الذي تفعلينه هنا يا امرأة؟ إلى أين كنت ذاهبة؟»

«ابتعد عني».

سألها: «هل كنت تسيرين أثناء نومك؟»

«دعني وشأني».

«أنتِ بالطبع لم تُسحبي إلى هنا، أليس كذلك؟» سألها، ومن المثير للعجب أن شخصًا متشكّكًا مثله لم يكن كارهًا بالمجمل فكرة أن يكون للأشباح ضلع في هذه الحادثة على الأقل. رفعها على قدميها، وسحب جوربيها للأعلى. كانت لم تزل مرتجفة، وتعاني من صعوبة في الكلام. اقتادها ونزل بها إلى السبيل، وما تزال ساقاها تترنحان أكثر فأكثر.

قال: «جربي أن تقفي يا حبيبتي».

فقالت: «أرغب بالحليب».

أجاب: «نعم، السبب مرضك».

إذن لقد كانت ذاهبة إلى روثسميري من أجل الحليب، واستغلّت الفرصة لسداد دينها إلى غونڤور وعلى أيّة حال، لم يستدرجها أي شبح إلى هنا،

باستثناء ذلك الشبح الذي شقّ طريقه إلى قلبها. ولكن أن يتعين على زوجة المالك الحر للبيت الصيفي استجداء الآخرين من أجل الحليب لهو إذلال كبير قد تجرّعه بيارتور لمجرد سماعه فقط.

قالت معترضة: «لم أكن ذاهبة لاستجداء أي شيء»

«ماذا لديك في الصرة؟»

غير أنها دسّتها بِتوجّس تحت إبطها، وقبضت عليها بإحكام، كما لو أنها تخشى أن يأخذها منها. وقالت: «إنها ملكيتي الخاصة».

ولكن عندما ألحّ على معرفة مزيد من التفاصيل، تبيّن أن في الصرّة صوفًا، صوفها الخاص، جزءًا من جزّة صوفِ شَاتها كولّا، وكولّا هي ملكيتها الخاصة، ومساهمتها الوحيدة في المزرعة، حيازتها الوحيدة بعد عمر ستة وعشرين عامًا، ومن العمل الشاق لساعات طويلة والقليل من النوم. كانت تنوي إعطاء سيدة ميري هذه الخصلات مقابل قنينة من الحليب، ولكن بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى قمّة الجبل كان قد نال منها التعب؛ وساقاها كانتا على الدوام ضعيفتين للغاية، فوضعت حجرًا على ركام قبر غونقور وَغطّت في النوم.

ووعدها بيارتور: «في الصيف المقبل سنفصل ست أو سبع نعاج عن حملانها ونحتفظ بها من أجل الحليب».

في هذا الحين، المرأة مقرورة وخائرة القوى، جاشت نفسها بشدة. وتقيّأت بضراوة، وقد تعيّن على بيارتور مساندتها أثناء تقيؤها على الدرب. ثمّ بدأت السماء تمطر؛ سقطت قطرات كبيرة، الأولى، ثم الثانية، وحين تقيّأت كانت منهوكة القوى تمامًا، وكانت الأمطار تهطل بصورة ثابتة. سَندَ الرجل زوجته نزولًا إلى الوادي، ثمّ حملها عبر البرك والمستنقعات على طريق العودة إلى البيت الصيفي بينما استمر هذا الصيف تحت زخات المطر.

تساءل بيارتور: «ألا تنوي أن تصحو أبدًا؟»

سيربح اللعبة إذا صحا الجوّ، ولكن إن ظلّ الأمر معلّقًا بصورة أساسية ما بين ريح البحر وهطولات المطر المفاجئة، سيكون عدم اليقين ذاته، والحرب ذاتها؛ في بعض الأحيان تُفسد مجهود أيام بأكمله. تقلّبات السماء

تفوق الحصر. لقد كانت حربهما العالمية، وفي حربهما العالمية هذه كان بيارتور يُصدِر الأوامر مثل قائد أعلى، والفوج العسكري يمتثل للأوامر، الفوج العسكري الصغير، بل أصغر فوج في سجلات أي حرب، بلا لحم أو حليب، وبلا أغذية طازجة؛ ومع ذلك لم يتمكنا من جمع الحشيش في أكداس قبل أن تمطر بشدة.

وفي يوم من هذه الأيام الماطرة، كانت تعمل بالقرب من البحيرة. كانت تجرفُ الحشيش المجزوز حديثًا وتكوّمه بين مجاري المستنقعات، وفي أحد هذه التيارات المائية المليئة بالحشائش والحمأة والنجيل الذي ينمو أسفل الحواف، رأت شيئًا يتحرّك؛ كان يتلوّى ضدّ المجرى في منحنيات منعرجة. أمسكت مقبض مدمّتها وحشرته تحتها، ثمّ سحبته مؤرجحة إياه خارج الماء. سقطَ على رأسها، أنقليس[1] كبير، طوله ثلاثة أقدام على الأقل، وهبطَ بعيدًا عنها، ثمّ تمدد بين أكوام الحشيش مثل دودة أرض عملاقة، وتمعّجَ في ثماني عشرة لفة. هاجتْ غريزة الصيد داخلها؛ إنه سمكة، ومن أجل ذلك بدا مضطربًا على الأرض اليابسة. انتابتها بعض الهواجس بالتأكيد، ذلك أنها تعلم أن بيارتور سوف يقرّعها إذا ما عرف بأفعالها هذه، غير أنها كانت مصممة على اصطياد الثعبان وأكله، كلّه، لذلك أخرجت مِديتها، وحاولت الإمساك بالثعبان، ومع أنه انزلق مرارًا من قبضتها، وحتى إنه التفّ حول ذراعها، تمكنت في آخر الأمر من بترهِ إلى نصفين. ثم كانت هناك سمكتان، وكانتا كلتاهما صيدًا بعيد المنال، وحاولتا الإفلات في اتجاهات مختلفة، لذلك استغرقها الأمر وقتها كله لجمعهما معًا. أخرجت منديلها، ولفّتهما فيه، ثم وضعتهما على قمة رابية صغيرة، وظلّ المنديل ينتفض ويموج حتى المساء، وعندما حان أوان أوبتها إلى البيت لإعداد العشاء، كان المنديل قد تدحرجَ إلى أخدود في الأرض.

قال بيارتور وهو يحدّق بعينٍ مَشدوهة إلى تلك المرأة المعتلّة الأعصاب التي كانت منهمكة في سلخِ إنقليس: «كنتُ لأفكّر مرتين في أمر إضرام النار قبل استخدامها لمثل هذه القذارة يا حبيبتي». تلوّى الإنقليس داخل القِدر

1- الإنقليس: أو الحنكليس هو ثعبان الماء.

في حلقات عديدة إلى أن سُلِق وكان جاهزًا في الأخير. رفعته روزا من القِدر وقالت: «هل ترغب ببعض السّمك للعشاء؟»

«يا لطيف يا ربّ! لا! ليس من هذا النوع على أية حال. أحسبتِ أنني سوف آكل دودة؟ إنها دودة مائية، هذه ماهيتها».

فأجابته: «المزيد لي، إذن»، وَهمّت بالأكل، بينما كان زوجها يراقبها، مشمئزًا من كونها قادرة على أكل شيء كهذا، وقد التهمت الإنقليس بأكمله».

«على الأرجح هذا إنقليس كهربائي[1]، إنه سيىء مثل أكل وحش بحري».

قالت زوجته: «حقًّا؟»، وَاحتَست المرق.

«لم يخطر على بالي قط أن زوجتي ستضع في فمها قذارة كهذه بينما في المخزن خيرات كثيرة».

أجابت زوجته بحدّة، وقد تملكها الغضب من أجل ثعبانها: «إنه أقل قذارة بكثير من سمك السلور المتعفن الذي جعلتني آكله طوال الصيف».

لكن بيارتور لم يكن مهتمًا بالانخراط في مشاحنة في الليل مع امرأة تعاني من توتر الأعصاب؛ وعوضًا عن ذلك شرع يخلع ملابسه، وحكّ جسمه هنا وهناك فترة، مُهمهِمًا بضعة أبيات من قوافي غونغو هورلفور[2]، ذات أصول جريمور المحيطية. ثمّ استلقى وأسلمَ نفسه للنوم..

***

1- الإنقليس الكهربائي أو الإنقليس الرعّاد: من فصيلة السمك الكهربائي، وهو يقبض على فرائسه ويدافع عن نفسه بإحداث صفعات كهربائية. ومن أخطر الأسماك الكهربائية هو إنقليس أميركا الجنوبية المسمى أحيانا «حنكليس البرازيل الكهربائي» يعيش هذا السمك الغليظ، الضارب للسواد، في روافد الأمازون وأنهار أورينوكو، ويصل طوله في الغالب الى خمسة أقدام (متر ونصف المتر) أو أكثر.

2- غونغو هورلفور: Gongu–Horlfur ملحمة (ساغا) إسكندنافية أسطورية. كُتِبت في المقام الأول للترفيه كما أوضح كاتبها في مقدمة الملحمة وخاتمتها. تدور أحداثها في روسيا، وتنتهي بزواج الفتى النرويجي هورلفور من الأميرة إنغيغيرد ابنة الملك هيرغفيد (ملك نوفغورود وهي إحدى المدن الروسية وتعني المدينة الجديدة العظيمة) بعد هزيمته لخصومه الڤايكينغ وقتل زعيمهم الملك إيريك، بمساعدة القزم موندول، ومن ثم تولّيه زمام الحكم في روسيا.

8. الطقس الجاف

كما مآل الأمور، انقطعَ المطر أخيرًا. إلا أن الجفاف كان في الواقع نعمة ونقمة في آن معًا. عصفت بالأرض ريح هائجة من جهة البحر، واقتلعت أعشاب المروج اليابسة من أيدي العاملين عليها، وطيّرتها إلى كل جهة ومكان، بعضها صوبَ العشب غير المجزوز، والبعض -على الأقل ثُلث حصيلة ثلاثة أسابيع من الكدّ والكفاح- إلى البحيرة. أمضيا ثلاثة أيام على الضفاف في جمعها وتكويمها في أكداس. ثمّ هدأت العاصفة مرة أخرى، ومرة أخرى امتدت عبر السماء شرائط من الغيم أشبه بالمخالب، منذرة بالمطر؛ كان المجد في نهايته. يجب حزم القشّ وحمله إلى المنزل فورًا قبل أن يتردّى الطقس من جديد. لا وقت للتفكير بالعبث في المنزل، وطهي الطعام، وتدليل البطن؛ هذا ليس أوان التفكير بالنوم، هذا أوان الجدّ والتغلب على عناصر الطبيعة، فتلك حرب استقلال بيارتور صاحب البيت الصيفيّ. بمجرد الانتهاء من تكديس القشّ، شرعَ بيارتور في عملية التربيط بهمّة عالية. كان ذلك في وقتٍ متأخر من المساء، والضوء يتلاشى، والصيف في سبيله إلى الزوال. في أشدّ ساعات الليل حلكة هرعَ للبحث عن المهر لكي يحمل القشّ إلى البيت، تاركًا زوجته تأخذ غفوة خلف كومة قشّ. وجدَ المهر أخيرًا وسطَ قطيع من خيول روثسميري، وقبل أن يُسرِج المهر ويعود كان الضياء قد بزغَ ثانية. أيقظَ زوجته وبدأ بِحزم القشّ من حيث كانا قد توقفًا؛ وأكلا سمكًا باردًا وشربا ماء من البركة. تمددت شرائط الغيم واتّسعت على عرض السماء، وقد يهمي المطر الآن بغزارة في أية لحظة، يجب أن يُرحّل القش إلى الداخل عاجلًا. وهكذا تعيّن على روزا قيادة الحصان إلى المنزل وركوبه والعودة به بأقصى سرعة. اتخذت طريقًا عبر المستنقعات، تقود الحصان بحمولته، ومن ثمّ تمتطي صهوة الفرس، وتعجّل بالعودة إلى المروج من أجل الحمولة التالية. كانت الأمطار لم تزل مُحتبسة. ومع اقتراب الليل رقّت السُّحُب في أماكن متفرقة، وأطلّ من بينها قمرٌ وليد. كان من المنعش رؤية قمر صقيل متلألئ كهذا، ونورهُ رومانسي للغاية، خرافيّ مدهش للغاية عقب كدح النهار المتواصل بحيث يتسنّى للمرء رؤية الجان

خارجةً من شِعابها للنظر إلى القمر؛ الجنّ أكثر سعادة من الإنس. ولكن بمضيّ الساعات فقد القمر قدرته على الإثارة، وتحريضه المغوي على الانغماس في أحلام اليقظة؛ وتقهقر الإحساس بالسلام الآسر أمام سطوة الجوع والإعياء. تعثّرت بالحصان عبر المستنقعات غدوًّا وَرَواحًا. لم تعد تشعر بساقيها مطلقًا، سقطت المرة تلو المرة. عندما امتطت الحصان مجددًا في رحلة العودة، تدلّى رأسها إلى الأمام على صدرها واستيقظت لتجدَ الحصان يرعى.

«ليس في النعاس نفعٌ حينما يكون مصدر رزقنا على المحكّ!» دمدمَ المُزارِع.

لم تقوَ على الردّ، لأن لسانها أبى أن يتحرك. أبصرت القمر مُترقرقًا على صفحة الماء في قناة صغيرة، وفي تلك القناة كانت تعوم ثلاثة أو أربعة من طيور الفلروب، ورؤوسها تغطس في الماء على نحو إيقاعيّ، وببهاءٍ مترف. «أعزائي الطيور الصغار، محبورة في ضوء القمر ولا شيء يشغلها، كم كانت ستبدو رائعة على طبق!» في هذا الوقت كانت الدنيا تزداد ضياء. صارت خطوات الحصان أبطأ فأبطأ، ومضى يشقّ طريقه بمشقّة أكثر فأكثر، استترَ القمر وشَحُبَ خلف الغيوم الداكنة، وبدا أن القش قد فقد رائحته التي كانت لديه البارحة. لم تعد تعرف ما إذا كانت مبللة أم جافة، كما لو أن وجه العالم انطمس، الأنف والعينين، وغابت الأحاسيس جميعًا خلا غثيان لا سبيل إلى السيطرة عليه، والطعم المرّ في فمها، والرائحة النتنة في منخريها. كَرّة بعد كَرّة، اضطرت للتوقف والتشبث بالمهر بينما كانت تتهوّع وتتقيأ الصَّفراء. مسحت العرق البارد عن جبهتها وحاولت ابتلاع المرارة اللاذعة في حلقها. على هاته الشاكلة كانت هذه الحرب العالمية، أجل، وكان الضوء ينتشر تدريجيًا، وكانت السُّحب تزداد قتامة، ومرة أخرى ساقت المهر إلى البيت. في هذا الوقت كان بيارتور منهمكًا بإتمام الكدسة الأخيرة؛ عمّا قليل سيتحقق النصر. لكنها ليست مبتهجة، ما من أحد يربح حربًا عالمية يكون سعيدًا قط؛ كانت مُستنفَدة بالكلّية. ركعت على ضفة الغدير المكسوّة بنبات الخزاز، والمتدفق مرورًا بالمنزل، انحنت للأمام وقعّرت يدها لكي تشرب، وشعرت، إذ مالت بجسدها إلى الأمام، كما لو أن يدين حانيتين تطوقانها،

وتسحبانها برقّة إلى صدر الراحة، وفي الحال مضت عبر ذاك العناق أعمق فأعمق إلى أبد الآبدين، كأنه حضن جدتها، التي توفيت قريرة العين مرتاحة البال وتركت مرتبةً واحدة لابنة ابنتها، أعمق فأعمق، ورأت انعكاسها ينجرفُ بعيدًا في دفق التيّار، وطَفَت الأرض معها في الفضاء كما الملائكة التي تحلّق معنا حين يدركنا الموت، ومن جديد تشبّعت حواسها برائحة التراب الخريفية الزكيّة، وبسطت لها الأرض خدّها مثل أمّ، في حين مَاجت أمواهُ العالمِ في أسماعها، مُعبرة عن حبّها، وَمن ثمّ سَكَنت الأشياء..

***

9. يومٌ في الغابة

حدثَ ذلك في يوم أحد.

كانت السّماء تمطر منذ بعض الوقت حين عثر عليها بيارتور نائمة على ضفّة الغدير. كانت مستلقية هناك ومبتلّة تمامًا، وخَدّها لِصقَ الأرض وذراعها تحتها. كانت هنالك حزمة من القش ملقاة بالعرض في الماء، وسرج الحصان أربطته منزوعة، ومفكّك إلى أجزاء على الحصى، وكان الحصان يرعى في مرج المزرعة. نظرت المرأة من حولها بعينين مُعتَمّتين، كمثلِ من أيقظه مهرّجٌ من الموت، وأصغت إلى تهكمات زوجها وهي تعاني من آلامٍ في العمود الفقري. بعدئذ، وبينما انهمكَ في تغطية القشّ بطبقة من الأعشابِ، لحمايته مؤقتًا من المطر، جرجرت نفسها إلى المنزل، ذاهلة دائخة، لكي تسخّن بعض القهوة، فإذا بها تغطُّ في النوم من جديد.

قبيل حلول الظهيرة، وفيما كان بيارتور يعدو إلى البيت لاهثًا ليوقظ زوجته ويطلب منها صنع بعض القهوة، لاحَ عبر المروج جمعٌ من الناس ركبانًا، يتقدمهم البعض على خيولهم خببًا، وقد بلغوا السهل على مسافة قصيرة من المزرعة.

قال: «ليس لديهم أمتعة على ظهور خيولهم، لا بد أنهم لفيف من الحمقى قادمون في نزهة من البلدة، أو ما شابه، حتى يختاروا وقتًا كهذا!»

اعترضت روزا: «لن أسمح لأحد برؤيتي هكذا».

أجاب: «يتوجب أن يأخذوا فنجان قهوتهم إذا ما حلّوا بدارنا يا امرأة، أنت كفؤ لهذا أليس كذلك؟»

انثنى عبر الطاولة ليراقبهم من النافذة، وقد تعرّف إلى الناس والأحصنة لدى اقترابهم. بعضهم كان من أبناء وبنات الفلاحين الأثرياء في البلدة، والبعض كان من عمال الصيف في يوتيروثسميري؛ ثمّ كانت بنات القسّ وأيضًا إنغولفور أرنارسون جونسون، المهندس الزراعي، على صهوة جواده الأشهب. ولكن عندما نظرَ بيارتور من حوله مجددًا لم يرَ لزوجته أثرًا.

أتى الشبّان لامتطاء خيولهم، في حين أتت الفتيات لِقطف عنب الأحراج الذي أصبح ناضجًا الآن في الأراضي البراح. أطلقوا على هذه الجولة تسمية «يوم في الغابة»، وقد جلبوا معهم بعض الطعام في حقائب جلدية، وكانوا يعتزمون التنزّه في الغابة. لم يقترب إنغولفور أرنارسون من المزرعة، لكنه أرسل في السؤال فيما إذا كان بيارتور يمانع بالقيام ببعض الصيد حولَ المستنقعات، وتجريب رمية أو اثنتين بالصنارة في البحيرة؟ وإن كان بإمكان السيدات التمشي بمحاذاة الجبال، والتبيّن ما إذا كان بإمكانهن العثور على شيء من العنب؟

كان بيارتور فخورًا بحقوقه باعتباره مالك أرض، ومن دواعي سروره دومًا أن يُطلَب إذنه. وقد ألمحَ بالطبع إلى أن الفتيات يعرفنَ طريقهن وما الذي يبحثن عنه، بمجرد أن بدأن الاستكشاف، ولا مانع لديه لو قطفن بضع حبات عفنة من العنب، ولكنه سوف يتفاجأ إذا كان العنب فقط ما يسعين إليه. وإذا كان لدى ابن الوكيل الرغبة في تدنيس نفسه باستخراج أحشاء السمك العطِنة هناك على البحيرة، وإن أراد في يوم أحد تعذيب الطيور البريئة التي تحلّق فوق المستنقعات دون إلحاق الأذى بأحد، حسنًا، فمن المحتمل أن يبقيه ذلك بمنأى عن المتاعب وسوء الفهم. وأضاف: «إلا أني كنتُ سأظن فيه غير ذلك لو أنه قاد حصانه إلى باب بيتي وقابلني وجهًا لوجه، ذلك أنه لم يمضِ وقت طويل منذ أن اعتدت مساعدته في تزرير سروال ركوب الخيل، وعلى حدّ علمي فأنا أسدد دائمًا ما يترتب عليّ لأبيه، وعليه فأنا أمتلك الجرأة كل الجرأة للنظر في وجه أي شخص من عصابته، سواء أتجرأوا على النظر في وجهي أم لم يجرؤوا. لكني أعجب ما الذي دهى روزا؟ يفرطن

بالتدقيق في مظهرهن، هؤلاء النسوة لا يقتربن من الباب في ملابسهن التي عليهن، ولا يرتضين بأقل من ثياب يوم الأحد الرسمية. ومع ذلك تفضلوا بالدخول، ستظهر عاجلًا أم آجلًا، ومرحبًا بكم في البيت الصيفي. لا بد من وجود قهوة في الدلو، وقد توجد كتلة من السُّكر موضوعة في مكان ما، فقط إذا تمكنا من العثور عليها».

رُفِضت القهوة، بالطبع، مع الشُّكر، إلا أن معظمهم أراد إلقاء نظرة على البيت في الداخل، فكونهم منحدرين من طبقات أعلى أو من تلك التي شَهدت مجاعات أخفّ وطأة، بدت لهم تجربة غير مألوفة التقدّم والانحناء عبر باب البيت الصيفي، وتنشّق الرائحة الترابية التي هبّت في موجة كثيفة من العتمة. بعضهم تسلّق السلّم، فأصدرَ صريفًا، والبعض الآخر اكتفى بالتلصّص عبر النافذة من فوق صهوات خيولهم، وما كان عليهم التمطط كثيرًا، إذ لم يكن أعلى من ارتفاع الإنسان عن الأرض. بعض الفتيات ألححن بالاستفسار عن روزا، لأنهن أردنَ منها الذهاب معهن لقطف عنب الأحراج، وهكذا فَتّشنَ كل زاوية وركن، ولعلعت الصيحات والنداءات من داخل البيت وخارجه، في حين كانت روزا تحاول ضغطَ نفسها على الأرض أكثر تحت مِذود الحصان، حيثُ التمست ملاذًا، مع الصلاة للمخلّص الفادي. ولكن سرعان ما ضاق بيارتور ذرعًا بهذه الحماقة، فما كان منه إلا أن سحبَ زوجته من تحت المعلف بِغلظة، وسألها أين أخلاقها وحسن تصرفها وما الذي تخجل منه، وهي امرأة متزوجة زواجًا قانونيًا؟ «وأريد قهوة من أجل ضيوفي، وإن كانت آخر قطرة لدينا في البيت! ثمّ أيّ سلوك مُتنسّك متقوقع هذا؟ لدرجة أن تهربي وتختبئي من بني قومك؟ هيا اذهبي وَرحِبّي بضيوفكِ يا امرأة». رفعها إلى السلّم بملابسها التي عليها، بتنورتها الخيش، والشّال البالي حول منكبيها، وكانت متسخة بالعشب ومغبرّة، وهناك حبّات فطر عالقة بشالها. «انظروا، ها هي ذي»، فَاكتست وجوههم فجأة بسيماء الجدية، وبسطوا أيديهم للسلام.

لا، شكرًا، ليس لديهم رغبة بالقهوة، إلا أن الفتيات أخذنَ بيد روزا واصطحبنها خارج المنزل، ومشينَ بها إلى الجدول بالأسفل وجلسن بقربها، وقلن إنه من البهيّ أن يكون لديك مثل هذا الجدول الصغير قريبًا

جدًا من المنزل، يا له من جدول لطيف ودود، أيضًا. واستنبأَ عن حالها، وقالت إنها على خير ما يرام؛ فسألنها بالتالي لماذا وجهها متورّم هكذا؟ فكان السبب وجع الأسنان؛ من ثم سألنها لأي مدى أعجبها العيش هنا في المروج؟ فتنهدّت وأطرقت برأسها، وقالت إنه من المفترض أن هناك مُتّسعًا من الحرية، بأية حال. وَسألنها عما إذا كانت قد رأت الشبح، وقالت إنه ليس هناك أية أشباح. وبعدئذ غادروا جميعًا.

تجوّل الشباب في أعطاف الريف إلى أن بدأ يشحُّ الضياء. وفي المنزل في الحقل الصغير المسوّر كان بالإمكان سماع أصواتهم المرحة من المنحدرات الجبلية؛ جلجلة ضحكاتهم وَرجع أغانيهم. ولكن سُمِع أيضًا دويّ إطلاق الرصاص من المستنقعات. كانَ صاحب الحقل مستريحًا اليوم، بعد عملٍ متصل ليل نهار في الآونة الأخيرة، وكان نائمًا على السرير. وكانت زوجته جالسة إلى جوار النافذة، مصغية إلى إطلاق النار، ومحدقة صوب المستنقعات، مترقبة بأسىً كل رمية رصاص. كان الأمر كما لو أنها أحسّت بأن كل رصاصة يُطلقها سوف تصيبها؛ هي وحدها ولا أحد غيرها، ستصيبها في القلب، وليس سوى القلب. ولكن ما حدث أن صاحب الحقل لم يكن مستغرقًا بالنوم، ولمّا أفاقَ من غفوته راحَ ينظر إليها من حيث لا تدري، ورأى كيف كانت ترتعدُ بحدّة مع كل طلقة.

تساءل: «لا أظنّ أنك تعرفين هذه الطلقات النارية، أتعرفينها؟»

«أنا؟»، قالت زوجته ووثبت على قدميها بارتباك، «لا!»

قال: «تلك العائلة البغيضة ليس بوسعها النظر إلى كائن حيّ دون الرغبة بالاستفادة منه، مؤثرة قتله»، ثم غفا مجددًا.

عادَ المتنزهون إلى الحقل المسوّر عند المغيب، حيث كان عليهم انتظار الصيّاد، الذي كان عازمًا على الاستمرار بإطلاق النار ما دام الضوء في السّماء. رجعت الفتيات من المنحدرات الجبلية محمّلات بأوعية العنب الملأى عن آخرها، وساهمت كل واحدة منهن بطبقٍ لروزا. وعندما تصرّفت كأنها ترفض عرضَ هدية كهذه قلنَ لها: «عِنبٌ من جَبلك يا بنت!» وتجمّعن في مجموعات صغيرة ولعبنَ ألعابًا مختلفة في الحقل بالخارج

بجانب بيارتور؛ وردّد الجبل صدى ضحكاتهن. كان المساء رائقًا، وصفحة البحيرة صافية ملساء، وكانت هناك بعض البراغيش، وقمر جديد في السماء. كان الوادي مسالمًا وحُرًّا. كان بيارتور بمزاج ملتبسٍ، وأفهم الجمع فكرة مفادها بأن تيبيس الكَلأ لا يُضني كثيرًا أحدًا من أهل البلدة. وقال بسخط: «أعتقد أنني أستطيع أن أراكم وأنتم تدوسون على أعشاب الوكيل المسمّدة على هذا النحوّ. وإنني أتطلع لرؤية قومكم في الربيع المقبل وهم يرقصون بهاته الطريقة حين آتي لاستجداء حمولة من الكلأ، عندما لا يكون عندي قشّة واحدة».

إلا أن بنات القسّ والفتيات اللواتي كنّ يعملنَ في مزرعة «ميري» لم يشأن أن يكون أحد معتكر المزاج، فحاولن ملاطفته وتملّقه لتحويل اهتمامه عن الموضوع. وجذبنه، شاء أم أبى، إلى الحلقة حيث كنَّ يلعبنَ لعبة اللمس والمطاردة، ولمسنه فقال لهن اذهبنَ إلى الجحيم! ولكن في آخر المطاف بدأ بمطاردتهن، وقال إنه طارد من قبل شِياهًا صغيرة لعوبًا وثابة مرات عديدة، وبصقَ على يديه قبل أن يلمسهن بدوره. حتى إنهن انفردنَ به جانبًا وطلبن إليه إلقاء شيء من الشعر المقفى، ومن ثم طابَ له الأمر وصار على سجيّته ولم يتوقف إلى أن قرأ على أسماعهن جميع الأبيات البذيئة من ملحمة غونغو هورلفور؛ منذ اتّهام العجوز أولفر لهورلفور بشغفه الغريب بفيليامور، حيثُ ارتمت الفتيات إحداهن على صدر الأخرى وحاولنَ كبتَ قهقهاتن، وصولًا إلى إنغيغيرد وهي تسكبُ قِدرها على موندول، وَهنا ما عاد بمقدورهن كبح جماح صرخات الضحك. وانتهى بهنَّ الحال بأن طلبنَ منه نظمَ بعض الشِعر عنهن. فردَّ عليهن صاحب المزرعة بالقول إنه بالفعل قد خطرت على باله بعض الأبيات، بأوزانٍ مختلفة، بينما كنَّ منشغلات بقطاف عنب الأحراج في المنحدرات الجبلية، ولكن لم يكن لديه الوقت الكافي لتنقيحها، مع العلم بأن الرباعية الأولى ذات قافية مزدوجة، وجناس مزدوج.

جالا وغانا لا هيتين هَربتا

من مواعظ يوم الأحد،

غير آبهتين فَرّتا في فورةٍ من المرحِ الطائش.

عابثتان سَعتا بحيويةٍ إلى دِفء الشمس

الأنامل تنقلت بِخفّةٍ في شُجيرات العنب
والشّفاه الماجنة الجَذِلة
رَشَفتْ عصارة العناقيد الحلوة
وتَضاحكتْ مُمتنّة من النُّزهة الشّاردة

أيتها الحوريّتان البَهيّتان ذاتا الشّعرِ البندقي
قَطفُ العنبِ ليس المبتغى!
لَعوبان، صَخّابتان، بمنتهى الحسن والجاذبية
فَلتعترفا أنّكما رُمتُما مَسرّات أكثر غَرامية!

كان اللعب في أوجهِ عندما ظهر في المشهد ابن الوكيل إنغولفور أرنارسون جونسون. تجلّت على شفتيه ابتسامة باردة، ابتسامة العجرفة والاعتداد بالنفس التي ورثها عن أمّه، الابتسامة التي جعلت جهود سيدة ميري الأدبية أقلّ تقديرًا خلافَ ما كانَ يمكن أن تكون. كان صيده متدلّيًا من كتفيه في حبلين، في أحدهما بط وإوز، وفي الآخر سمك سلمون مرقّط، كل من السلمون المرقط البني وسمك الشار يتراوح وزنه بين باوند إلى ثلاث باوندات. بعد أن أوعزَ إلى الراعي بحزمها إلى رمانة سرج حصانه، حيّا بيارتور بابتسامته الباردة، وبمظهر الإحسان المَغيظ الذي تتّصف به العائلة بأسرها.

«لا بدّ أن أبي كان يحلم حينما كان على قدرٍ كبير من الكرم وأعطاك «البيت الشتوي»، وجعلك سيّدًا لهذه الأرض الخيّرة. بماذا أدين لك مقابل الصيد؟»

أجابه بيارتور: «أوه، إنّ في الأمر تجاوزًا لحدود المنطق إذا توقعتُ منكَ دفع أجرة لعطيّتكم هذه. علاوة على ذلك، وكما قلت أنت بنفسك،

هذا الحقل الصغير، الذي، سمحتَ لنفسي بتسميته «البيت الصيفي»، إن لم تسمع بالاسم من قبل؛ هذا البيت الصيفي فيه من الخير الوفير بما لا يحوجني إلى أن أحسدك على الجِيف التي اصطدتها في رحلتك الاستكشافية هنا، يا رفيقي «إنغي». إن أغنامي لديها ثقة أكبر بالتبن الشحيح من الذي على ضفاف اللمبي هناك. لذا على الرّحب والسعة لكل الطيور والأسماك التي بإمكانك الحصول عليها، يا رفيق إنغي. وينبغي أن يكون غذاء مرحبًا به عند قومك في ميري، لأنه إذا توفر على مائدتكم سمك وطيور هذا الشتاء، فستكون هذه المرة الأولى التي أسمع فيها بذلك».

«يا للعجب! أيّ رجل حادّ الطباع هذا!»، قال إنغولفور أرنارسون بابتسامته الباردة، وهو يسحبُ بضع بطات ذات العين الذهبية، وبعضًا من أسماك الشار، ثم رماها عند قدمي بيارتور.

قال بيارتور: «سأطلب منك إخلاء هذه الأشياء من مزرعتي! فأنا أحبّذُ وبشدّة أن تتحمل بنفسك مسؤولية المخلوقات التي قتلتها في يوم الأحد».

لكن هنا تدخلت الفتيات واستحلفنه بالله بألا يرفض طعامًا جيّدًا كهذا، كرمى لروزا إن لم يكن من أجله، وأضفنَ بالقول: «هذه الطيور ستكون طعامًا لذيذًا».

أجاب بيارتور «في عهدي، كان من عادة السيدة الكبيرة في ميري نبذ الدجاج بحيث لا يتبقى بين يديها شيء من لحم الخيول، أما وأن الطيور قد توفرت في القائمة الآن، فإن أفضل ما يمكنك فعله بهذه الجِيَف هو أن تحملها في العربة معك إلى آل الوكيل، حيث مكانها الأنسب».

«أنا متأكدة أنها ستكون وجبات ممتعة لروزا. لا يبدو عليها أنها تناولت كثيرًا من الطعام الطازج في هذا الصيف».

ردّ بيارتور من فوره: «بما أننا عاملون مستقلون، فإن الاعتبار الأهم بالنسبة لنا هو علف الماشية. وما يتغذى عليه المرء في الصيف هو أقلّ شأنًا من مصلحة الأغنام في الشتاء».

فضحكوا من هذا الجواب، من باب التسلية لا التأثر بشعار العامل الحرّ. ولكن العديد منهم كانوا أعضاء في الفرع المحلي لجمعية الشباب

الآيسلندي، وكان إنغولفور أرنارسون رئيسًا لهم، وكانوا يؤمنون ببلدهم، الجميع لآيسلندا، وكان شعارهم «آيسلندا للآيسلنديين»، وها هم الآن واقفون وجهًا لوجه مع رجلٍ شقَّ طريقًا جديدًا، رجل يؤمن بوطنه، والأكثر من ذلك، كان إيمانه باديًا في أفعاله. عن كثب، قد لا يبدو أسلوب تفكيره خلوًا من عنصر السخف والفكاهة، إلا أنه لم يخفق في تحريك مشاعرهم، بينما كان واقفًا فوق تراب أرضه، في هدوء مساء يوم الأحد، ومنزله المتواضع من خلفه، متأهبًا ومتحمّسا لشنّ حربه الاستقلالية ضد قوىً معادية، طبيعية وخارقة، وجَسورًا، غير آبهٍ بالعالم.

مكثوا لوقت أطول قليلًا، بينما كانت جماعتهم تحضر لهم خيولهم، ولم ينزعج أحد من بيارتور إذا أظهر أنه كان يعلم بأنه يقف على أرضه. ودعا إنغولفور أرنارسون إلى غناء أغنية. وقال: «أنا وبيارتور صديقان قديمان، وبمنزلة شقيقين بالتبني. قمنا معًا في زماننا ببعض الأشياء ولربما من الأفضل نسيانها، وأعلم أننا نفهم بعضنا بعضًا جيدًا. وعلى أية حال أنا أعرفُ معدن بيارتور وكذا روزا. لقد برهنَا على أن الروح البطولية للمستوطنين الأوائل لم تنقرض بعد في الآيسلنديين بالوقت الحاضر، وقد تسود طويلًا!»

وَدَعا الآخرين للغناء، فَغنّوا:

صارمٌ نضالنا
ولكن كأخوة
اصدحوا بالشعار، بلا وَجَل:
«عِش من أجل آيسلندا، اعمل من أجل آيسلندا!
صامدون في الكِفاح الموحد

وهتفوا: «مرحى للطليعي في الوادي المزنّر بالمروج! يعيش ابن آيسلندا الباسل! مرحى لبيارتور صاحب البيت الصيفيّ وزوجته!» أغنية وطنية تلو الأخرى، تردّد صداها من الجبل، في سكونِ مساء خريفي مبكر، إلى أن كفّ طير السّامك عن الصياح من البحيرة، وقد أخذه العجب. في النهاية جلبَ الفتية كل الخيول، وودّعَ الجّمعُ بيارتور وداعًا حارًّا، ومضت بعض الفتيات

إلى الداخل لوداع روزا، لكنها كانت قد اختفت. أمرَ إنغولفور أرنارسون المنشدين بمتابعة الغناء حينما صار الجميع على ظهور الجياد، وكانت الأغنية الأخيرة في مديح الحياة الريفية، دَوّى صداها من المستنقعات على سبيل الوادع لقاطني البيت الصيفي.

ظلّت الأصوات المرحة مسموعة زمنًا قصيرًا، ومن ثم اختلطت بصوت حوافر الخيل، حيث عجّل الزوار من خطوهم على أرضية ضفّة النهر الصلبة، وَخَفَتت الأصوات في الأسماع أخيرًا؛ وهبطَ شفقٌ خريفي مبكر على الوادي والمروج. وهناك وقف رجل الوادي بمفرده في أرضه. ثمَّ ولجَ إلى الداخل ليأوي إلى فراشه. ظهرت روزا للعيان، ولم تفه بكلمة.

قال بيارتور: «هناك هدية لك ملقاة عند الغدير».

«من أجلي؟»

«نعم، سمك وطيور».

تساءلت: «مِمّن؟»

«انزلي إلى الغدير، وتحققي إن لم تعرفي بَصمتهُ عليها».

تسلّلت خارج البيت بينما كان بيارتور يخلع ملابسه، وقصدت الغدير في الأسفل، وفعلًا كانت هناك الأسماك التي اصطادها، والطيور التي أرداها بالرصاص. وشعرت بأن ما يزال في الوادي رجع أصوات الذين غنوا في جَنباتِه، الأغاني التي غُنّيت لم تزل غضّةً حاضرةً في أفكارها، لم تزل معلقة بالأثير فوق المستنقعات. على مسافة منخفضة من الحقل حلّق سرب من البط ذي العين الذهبية، وحفيف الأجنحة ما زال ملفوفًا بالتوجس.

همست المرأة الشابة: «لا داعي للخوف أبدًا، لقد رحلَ الآن».

وقفت بالقرب من الغدير برهةً أوان الغسق، مُصغية إلى الأغاني التي صمتت في الوادي، إلى العيارات النارية التي أُطلِقت منذ مدّة طويلة، وتفكرت في الطيور البريئة التي قتلها. عمّا قريب سيحلّ الخريف.

***

10. اجتماع الرعاة

قبل يومٍ على طِراد المواشي (جمعها وسَوقها) قرّر بيارتور حلاقة لحيته الصيفية. ومن الواضح أنه كان يكره مثل هذه الشكليات، وقد تلفّظَ بأقذع الشتائم أثناء العملية، ولكن لم يكن بُدٌّ مما ليس منه بُدٌّ، كان كرنفال الخراف وشيكًا. وكانت هناك مهمة أخرى، بغيضة بنفس المقدار، بانتظاره ذلك اليوم. كانت على ما يبدو، من أعراض توتر الأعصاب لدى زوجته خشيتها من البقاء بمفردها في البيت، إذا كان بيارتور بعيدًا. وكانت أمامه ثلاثة أيام للبحث في المراعي الجبلية، ثم على الفور وبعد التوزيع على الحظائر، السّفر إلى البلدة برفقة المزارعين الآخرين. أكّدت روزا أنها لن توافق أبدًا على البقاء وحيدة في بيت المزرعة أثناء غياب زوجها. في البداية طلبت منه أن يترك لها الكلبة، ولكن عندما وضّح لها بأنه بحاجة إلى الكلبة في يوم طِراد المواشي أكثر من حاجته إلى قدمه اليمنى، رفضت الاستماع إلى مزيد من التبريرات، وقالت: «حسن جدًّا، في هذه الحالة ليس أمامنا حلّ سوى الذهاب إلى يوتيروتسميري، عوضًا عن البقاء في بؤرة الأشباح هذه». وبما أن لا شيء يثير اشمئزاز بيارتور أكثر من التفكير بالتماس أيّة نعمةٍ كانت من أُناس يوتيروتسميري، فكانت النتيجة أن عرَضَ عليها محاولة البحث عن واحدة من نعاجه الحوليّة ليضعها عندها؛ نعجة من ضمن قطيع صغير كان قد رآه يرعى في الجوار قبل بضعة أيام خلت. وهكذا عندما فرغَ من الحِلاقة، انطلقَ مع الكلبة، وعثر على الشاة، وأمسكَ بها بمساعدة الكلبة، وعاد بها قبيل المساء، وربطها بحبلٍ عند أطراف الحقل. كان اسم الشاة غولبرا. تلك الليلة نامت المرأة نومة سيئة، لأن الشاة في الحقل ثغت ثغاء متواصلًا، غير قادرة على تفهّمِ أهواء البشر.

دخلَ الرعيان إلى الحقل على صهوات جيادهم خَببًا، ومعهم كلابهم قبل طلوع الضوء بوقت طويل. بيارتور الذي كان واقفًا على الدكّ، وجواربه مرفوعة فوق سافلة بنطاله، صافحهم، وكتفاه تتلويان بهجة وسرورًا، وتبختر قدّامهم صعودًا وهبوطًا، أو في دائرة من حولهم وهو يطلب منهم جميعهم الدخول لشرب القهوة. أراد معظمهم معاينة البناء وتَفليَته؛ وهكذا

تسلّق بعض الشباب السلّم إلى حيث الدخان المتصاعد لرؤية روزا، وحاولت الكلاب اللحاق بهم، إلا أن السلّم كان شديد الانحدار بالنسبة لها فتساقطت وهي تعوي.

«هذا هو قصري، إذن»، قال بيارتور، «ولا بِئس متأخرًا عليه حتى الآن».

فأعربَ ملك الجبل (فِيلْ كينغ) باستحسان: «كُثرٌ استهلّوا طريقهم بأقلّ من ذلك، وانتهى بهم الحال مزارعين ذوي شأن وثروة». هو بحدّ ذاته بدأ بالقليل، ولكنه حاليًا، مع مكاتب ملك الجبل، وموظف في الأبرشية، ومعالج كلاب لحسابه، بلغَ منصبًا ذا بال، وكان من المعروف بأنه لا يعارض الحصول على مقعد في مجلس الأبرشية، إذا ما سنحت له الفرصة.

انبرى أحد الشبّان بالقول، وقد كان معتادًا على تلطيف الجو من حوله بطيش واندفاع: «جون هوسافيك بدأ بكتلة من الخثّ من الشيطان!»

«حسنًا، والآن يا أولاد، انصرفوا!»، قال ملك الجبل، الذي أراد للفتية أن ينطلقوا إلى رحلتهم حالًا، ذلك أنهم كانوا يُسلّون أنفسهم بركوب خيلهم في إثره على التلال، سعيًا منهم لجعل حصانه يجنح إلى الفرار، ولاحقًا، حينما عبروا المستنقعات، قادوا خيولهم من أمامه بحيث يتمكنون من طرطشتِهِ بالوحل. كما أنه لم يكن في نيّته المكوث لشرب القهوة في البيت الصيفي برفقة أحد أيًّا كان! كانَ يفضّل بضعة رجال مخُتارين بعناية ممن سيجمعه الودُّ معهم على كأسٍ من الشراب، وخاصة بعض الفلّاحين الصغار الذين -مع عدم وجود عمال مستأجرين لديهم- تعيّن عليهم حضور حملة مطاردة الماشية وسِياقتها شخصيًا. كان ثورثور نيثوركوت أحد هؤلاء العمال المنفردين، حَمو بيارتور صاحب البيت الصيفي. هذا الرجل المخضرم فقدَ معظم أبنائه بطريقة غير جديرة بالملاحظة، وقوبلَ بالخيبة في المشروع الوحيد الذي أولاهُ تفكيرًا جديًّا، ألا وهو مطحنة الحبوب، إلا أنه لم ينظر إلى الحياة بعين السّخط، ولم يلعن الحظّ ونكد الطالع؛ على الإطلاق، تقبّلَ تصاريف الدهر كيفما أتت بصفاء ذهني أقرب إلى الفلسفي؛ بتسليمٍ منشرحٍ تكتنفهُ التقوى. سُمِعَ في ذلك الحين على السلّم وهو يعبر عن إعجابه بالرائحة النادرة المنبعثة من دخان ابنته قرّة

عينه، وأعانته على الخروج من الباب الأرضي، ثم دفنت وجهها في وجنته المتسخة وشعر لحيته الأشعث.

قال لها وهو يناولها رزمة صغيرة ملفوفة بمنديل: «أمك أرسلت محبتها وسلامها إلى محبوبتها الصغيرة، وطلبت مني أن أعطيك هذا الفُتات البسيط». احتوَت الرزمة على نصف رطل من السُّكر، ونصف رطل من القهوة.

لم تقوَ على انتزاع نفسها من الرجل العجوز. تشبّثت به وجففت عينيها بمريلتها، كان تصرّفها مفاجئًا وطفوليًّا جدا بأُلفتهِ وإخلاصه، مُشبعًا بالحبّ والحنان، لدرجة أن بيارتور خُيّل إليه أنه لم يرَ هذه المرأة في حياته قط! في لحظة بدت كأنها ألقت عن كاهلها الكآبة المزمنة لامرأةِ الأراضي البور، وتحولت إلى طفلة صغيرة قادرة على إظهار مشاعرها. انتحبت قائلة: «أبي، يا أبي. كم تلهّفتُ إلى رؤيتك!»

هذا ما قالته. لقد انتظرت والدها طويلًا، ووطّدت القلب على أمل رؤياه، دون أن يدرك بيارتور هذا يومًا. وعندما رآها تتشبث به بطريقة طفولية، وتعانقهُ بسخاء ودونما تحفّظ، استحوذ عليه شكٌ وَخيمٌ، كما في ليلة زفافه، بأن مملكته فوقَ الأراضي البراح ليست منسجمة بالقدر الذي تمنّاه.

قعدَ الرجال، وأخرجوا قرون[1] السّعوط، وشرعوا في مناقشة أحوال الطقس بالجدية والخطورة البالغتين، وبالانضباط العلمي، وبالأسلوب الفائق الصرامة الذي كان يُقدَّس به هذا الموضوع دائمًا. ومن خلال تحليل أكثر دقة تمكنوا من إجراء مراجعة عامة للطقس خلال الشتاء الماضي، ولظروف الربيع المختلفة، إلى جانب مسحٍ شاملٍ لموسم ولادة النعاج وأوضاع الأغنام والصوف، وتبادلوا الأدوار في التدقيق والتمحيص، أسبوعًا بعد أسبوع، في فصل الصيف. صوّبَ واحدهم للآخر مَقاله، بحيث تحرّوا الدقة في كل ما قيل، وتذكروا كل ريحٍ جافة خلّفت وراءها أثرًا، وعرضوا سجلات كاملة عن الأحوال الجوية خلال كل طورٍ من أطوار الأمطار والعواصف، واستذكروا ما تنبأ به هذا، وما تنبأ به ذاك، وكيف في النهاية أخذ كل شيء مجراه الخاص على الرغم من التنبؤات. لقد شنّ كل منهم بمفرده

1- . قرون السّعوط: يُقصَد بها قرون الحيوانات المستخدمة لحشو السعوط فيها وتنشّقه.

حربه الكونية الخاصة ضد العناصر التي لا ترحم؛ وقد أفلح كلٌّ بطريقة ما بجلب محصوله من القشّ، تالفًا أم غير تالف، إلى منزله وعلى ظهر حصانه. وكثير منهم ما زال لديه قشّ ملقى في المروج؛ وأحدهم بعثرت الرياح محصوله، بينما أغرقت المياه محاصيل الآخر.

باستثناء ملك الجبل، كانوا جميعًا عُمالًا منفردين، ولم تتوفر لديهم الإمكانيات المادية لاستئجار عمالة مقتدرة، لكنهم اضطروا غالبًا إلى تدبّر أمورهم بمساعدة بسيطة أمكنهم الحصول عليها من أولادهم الذين لم يبلغوا سن الرشد بعد، أو من العجائز، أو من المعاتيه، أو غيرهم ممن لا يُعوَّل عليهم كثيرًا.

قال ملك الجبل الذي ارتقى الآن إلى مرتبة الفلاحين من الطبقة الوسطى: «لمدة خمسة عشر عامًا وأنا أزرع دون استئجار عامل. وحين أنظر إلى تلك السنوات الآن، تبدو لي غالبًا على أنها أفضل سِني حياتي. حين تبدأ في دفع الأجور بإمكانك أن تقول وداعًا للازدهار والغنى. الأجور تعرقل المرء إلى الأبد».

وهنا جهرَ إينار أونديرنيث بالقول: «في رأيي، يمكن للفلاحين الكبار قول ما يحلو لهم، ولكن العيشة عيشة كلب دون مساعدة من رجل مفعم بالحيوية أو سواه. وإنها لكذلك دائمًا. إنها مجاعة روحية ومادية. وسوف تكون كذلك دائمًا».

أبدى كروسي جيل ملاحظة: «لا ينبغي أن تكون كثير الشّكوى يا إينار، طالما أن ابنك سْتِيني ما زال في البيت».

ردّ عليه من فوره: «أوه، كلهم يريدون أجورهم الأبناء والغرباء على حد سواء. ثم إنها نعمة قصيرة الأجل على أية حال؛ لا يمكن للأرض هذه الأيام أن تتعشّم في منافسة البحر، وأتوقع أن يسلك سْتِيني نفس الطريق الذي سلكهُ الآخرون قبل أن يكبر بكثير. بالكاد يكون حليب الأم قد جفّ على شفاههم قبل أن ينطلقوا، الأرض هي الأرض؛ والبحر هو البحر. خذوا راغنار صاحب مزرعة أورثارسيل، على سبيل المثال، أيّ توفيق أصاب؟ كان لديه ثلاثة من الأبناء، جميعهم أقوياء كما الأحصنة، ما كادت تنبت لِحاهم حتى

قصدوا البحر. غرقَ أحدهم، وانتهى المطاف بالاثنين الآخرين في أمريكا. وهل أرسلا لأمهما ولو رسالة قصيرة في الربيع حينما مات أبوهما؟ لا ولا حتى كلمة؛ ولا حتى بضعة دولارات سلوانًا لها. والآن نقلت المرأة العجوز وابنتها ملكية البيت إلى القسّ، وأقامتا معه». وتنبأ إينار بأن نفس الشيء سيحصل معه، بما أن اثنين من أبنائه قد غادرا والثالث أمسى خارج السيطرة.

بيد أنّ كروسي جيل اعتبر أن الأولاد ليسوا بمشكلة إطلاقًا بالمقارنة مع كبار السنّ. لا يمكن لأحد أن يأتمن رغبتهم؛ توفّي والده منذ سنة مضت، عن عُمرٍ يناهز الخامسة والثمانين. وأضاف: «والآن، كما تعلمون جميعًا، يسلبون مني بضعة دولارات ضريبة، وقد أعطوني زوج أبي لإعالتها. إنها في الثانية والثمانين من عمرها، أكل الدهر عليها وشرب، جسدٌ سقيم هرم، حتى إننا اضطررنا إلى إبقاء عين متيقظة على المعدّات طوال الصيف، لأنها كانت مصمّمة على إخفائها كلها». (وقال ثورثور نيثوركوت مغمغمًا: بلى، وعاملة نادرة في يومها، أيضًا!)

قال ثورير غيلتايغ، الذي جعلته ابنته ستينكا جَدًّا منذ بضعة أشهر، رغم أنها غير متزوجة: «شخصيًا، لا يمكنني أن أرى ما الذي يدعوكم إلى القلق يا رجال، بمقدور الأبناء عادة الاعتناء بأنفسهم أينما حطّ بهم الرحال، ومع أن كبار السن يعيشون أمدًا طويلًا بقدمٍ عالقة في القبر، فإن القدم الأخرى تتبعها في النهاية ولو بعد حين. ولكن البنات يا شباب! البنات مصدر همٍّ ومتاعب لآبائهن لدرجة أني لا أحسد أي رجل لديه بنت في هذه الأوقات العصيبة. هل يمكن القول، على سبيل المثال، إن الجوارب الصوفية، المصنوعة منزليًا من أكثر خيوط الغزل نعومة، جيدة بما فيه الكفاية بالنسبة لهنّ؟ لا، التفاخر والشّيطنة كلّ ما يسعين إليه، وكل ما يبتغينه من نهاية عام إلى آخر».

ملك الجبل: «ياه، لست أدري. رجال كثرٌ يجدون السّلوى في بناتهم. ومن الجميل أن تحظى دومًا بابتسامةٍ وأغنية تطوف أرجاء البيت، بكل تأكيد».

«نعم، تطوف؛ وإذا كنت لا تمنحهن أموالًا طائلة لإنفاقها في المدينة، فما زلنَ يُنغّصن عليك عيشتكَ حتى يذهبنَ إلى العمل في الخدمة المنزلية،

ويُفضّل في ريكياڤيك[1]. وإذا لم يستطعن الحصول على أيّ منهما، أقمنَ علاقات غرامية عابرة في بيوتهن. يبدأن بطلب جوارب مصنوعة من القطن الخالص، ولا تكون سوى غشّ دام، وها هنّ أولاء يخرجن لإهدار المال على تلك القمامة، التي لا تقي من البرد، وتفتقر إلى الطول، اللعنة عليها، وهي لا تُعدُّ مستحقة لثمنها ما لم تصل مباشرة إلى المنفَرَج؛ ولكن، إذا انفرطت منها قطبة، ماذا سيكون مآلها؟ في شبابي، كانت المرأة تشعر بالرضا إذا وصلت جواربها إلى الردفين، وكانت تعتبر زوجة صالحة رغم كل ذلك. وكانت النساء أيضًا أقلّ خفّة وعبثًا في تلك الأيام، نعم كما أقول لكم، وربما لم تكن العادة أن تُرفع التنانير إلى هذا الحد كما في أيامنا هذه».

«نعم»، قال ملك الجبل مصدّقًا على كلامه، «قد يكون ذلك صحيحًا. وبالحديث عن التنانير، لا أعتقد أن أحدًا سينكر أنها تبدو هذه الأيام أقصر بكثير مما كانت عليه في السابق».

ثورير: «وأين سينتهي كل هذا؟ لقد سمعت من مصادر موثوقة أن القطن لم يعد مُقنِعًا بما فيه الكفاية الآن. سمعت أن فتاة ابتاعت لنفسها جوارب حريرية، لا أكثر ولا أقل!»

– جوارب حريرية؟؟؟

– أجل، جوارب حريرية، جوارب من الحرير الخالص، لا أكثر ولا أقل؛ بإمكاني أيضًا أن أقول لكم اسمها، إنها ابنة القسّ الوسطى، تلك التي كانت في الجنوب العام الماضي.

– أوف، لا بدّ أن أحدًا ما قد لفّقَ هذه القصة – همهمَ ثورثور نيثوركوت على نحوٍ متساهل.

– قد يكون لدى ابنتي ستينكا عيوبها، لكنها ليست كذابة مثل معظم الناس، وهي على استعداد للقسم على أنها رأتها بأم عينها وهي مرتدية تلك الجوارب. أوّل كلّ شيء، تكفّ النساء عن لبس التنورة التحتية، من لا شيء سوى الزهوّ والفساد، ثم تأتي الجوارب القطنية التي تصل إلى المنفرج، وهي بالإضافة إلى بقية الملابس المبهرجة تكاد تساوي ثمنَ خروف، من ثمّ

1- ريكياڤيك: عاصمة أيسلندا.

يقصّرن تنانيرهن، وحينما يبلغ انعدام الحياء مبلغه هذا، من الطبيعي أن تبقى خطوة واحدة إلى الجوارب الحريرية، وفي النهاية، أعتقد، ستكونُ خطوةٌ لا تنانير فيها أبدًا.

اعترضَ ثورثور نيثوركوت الكلام:

– لم يتسنّ لي ارتداء بنطال جديد منذ سبعة أعوام.

– وبماذا يخرجنَ من كل هذا؟ الاستهلاك، لا شيء أكثر. ولكن على أيّ شيء سوف ترتكز الأمّة حين تضيع المبادئ السامية، وعفّة النساء؟ كثير من الآباء المساكين تنقصمُ ظهورهم تحت عبء كل هذا الفجور.

وهنا أبدى أحدهم ملاحظة مفادها أن بنات الكاهن الثلاث يبدون نضرات وبصحة جيدة.

قال ثورن: بالطبع. هكذا سيبدو الواحد إذا كان والده يستهلّ السنة بألف وخمسمائة كرونة من الموارد المالية الوطنية مقابل عدم القيام بأي شيء، ولا حتى عمل واحد بسيط، سوى لعب دور الشخص الأحمق اللعين. ومثل هؤلاء ليسوا بعامة الناس، كما تعلمون.

قال ثورثور نيثوركوت: أكاد لا أصدق أنهم يدفعون له حقًّا ألفًا وخمسمائة كرونة! لربما وعدوه بها فقط.

البعض منهم كان يشكّ فيما إذا كان مثل هذا المبلغ الكبير من المال موجود بالمجمل.

قال ثورير: إنها الحقيقة، وأرفض سحب أي كلمة مما قلته.

حينئذٍ قال بيارتور محتجًّا: «هذا العجوز الخرِف لديه صفاته الحسنة، كما تعلمون»، ذلك أنه لم يكن يحب أن يسمع أي شخص يحطّ من قدر القسّ الذي كان يكنّ له احترامًا كبيرًا في قرارة نفسه بسبب سلالة الأغنام الخاصة به. «إن أكباشه تتمتع ولا ريب بتربية جيدة، على الرغم منه. وإني لأوثِرُ واحدًا من كباشه في أي يوم على بناته الثلاث مجتمعات، بالإضافة إلى ألف وخمسمائة كرونة معهن. ولكن، بالمناسبة، هل عندكم علم كم سيجلب لحم الضأن في هذا الخريف؟»

سردَ ملك الجبل كل الأنباء التي سمع بها، غير أن هذه الأنباء، كما هو شائع في المعلومات المتعلقة بالأسعار، قد تباينت على نحوٍ كبير. قال هرولاغور كلدور، وهو أحد المستأجرين من وكيل الأرض، إنه سيعطي حملانه إلى جون ميري كالعادة، بما أنه كان عليه دفع إيجاره على أية حال، وإن كانَ من شيءٍ يُحتَسب للمحتال العجوز، فهو أنه يعطيك مالًا عدًّا ونقدًا مقابل الحملان الزائدة، ومع أن أسعاره بخسة، حسنًا، العصفور في اليد يظلُ خيرًا من عشرة على الشجرة، وفي وسط البلد لا يرونَ فلسًا مهما عملوا، لا شيء هنالك سوى الديون.

وما كان بيارتور ليُنكر أنه قد يكون من المفيد رؤية القطع النقدية من حين إلى آخر، ولكن عندما كان السؤال لمن كان عليكَ أن تكون مَدينًا، حسن، فإن شركة بروني كانت أهون الشرّين؛ فالشخص الوحيد الذي كان يرى المال أثناء التعامل مع الوكيل كان الوكيل نفسه. كان الأخير داهية في فنّ التعامل مع أولئك الذين لم تكترث بروني بمنحهم بضاعة على الحساب؛ ولم يكن يعطيهم سوى ثلثي ما تمنحه بروني لهم في «فِيورد». ولكن كم كان المبلغ الذي يحصل عليه مقابل الخراف التي اشتراها حينما كان يسوقها جنوبًا إلى «ڤيك»؟ على الأقل أكثر بمرة وضعف المرة مما كانت بروني تمنحه. كان يبيع الخراف بالمئات في حين كان يبيعها الآخرون بالعشرات، وفوقَ كل ذلك، كان يُملي أسعاره على التاجر في «ڤيك».

اعترضَ ثورثور نيثوركوت الكلام مجدّدًا، الذي لم يستطع تصديق أي شيء على نطاقٍ واسع:

«يا للعجب، هذا أمر يصعب تصديقه! وانظروا إلى المخاطر. العملية تكلّف مالًا كثيرًا لاستئجار رجال لقيادة القطيع كل تلك المسافة إلى الجنوب. وغالبًا ما تضيع بعض الأغنام على الطريق».

ومع ذلك، زعمَ ملك الجبل بأن كثيرًا من الناس كان لديهم السبب ليباركوا اليوم الذي أدرجتهم فيه بروني في سجلّاتها. لم تترك بروني أحدًا من عملائها عُرضة للجوع. «هل سبق أن سمعَ أي شخص أن بروني رفضَت تسليف أحدهم، بمجرّد أن قبلت ضماناتهم؟ والحقّ يُقال، إن شركة بروني

لا تكترث بالدفع نقدًا في هذه الأوقات الحرجة، وقد كانت سنواتٌ كثيرة لم يُلمح فيها فلسٌ واحد في الأرياف، ويعرف الجميع حقّ المعرفة أنها مقتّرة بما يخصّ الكماليات؛ ولكن من النادر جدًا أن تترك عملاءها يعانون العوز وشدّة الحاجة، إلا إذا كان الأمر، طبعًا، يستحيل تجنّبه، كما في فصل الربيع مثلًا». وأردفَ ملك الجبل بالقول: وعلى أية حال، من البعيد كل البعد عن الحقيقة الاعتقاد بأن كل شيء يعتمد على المال. كثيرٌ من الناس دخلوا إلى الدنيا ولم يتعاملوا مع المعدن الذي يهمّ». ثمّ أضاف تأكيدًا على قوله هذا: «بالمناسبة سألني العمدة في البرلمان الوطني خلال الربيع ما إذا كان بإمكاني ترشيح شخص موثوق به للمساعدة في تطبيب الكلاب».

قال بيارتور: «صحيح تمامًا. ليس من النافع إهمال الكلاب، وربما سمعتم، أنني أقسمت يوم زفافي في الربيع بأنني سوف أهتم بكلبي بنفسي، إذا لم تنظفها طبختكم الدوائية الرديئة».

قال ملك الجبل، متظاهرًا بمظهرِ البيروقراطية الرسمية: «بالتأكيد لن يهتم أحد بالقول إن كان هناك شيء خاطئ أو فاسد بخصوص أدوية الكلاب التي استلمتُها مباشرة من يد المسؤول الطبي في المنطقة بنفسه. وأعترف، طبعًا، بوجود هذا العدد الكبير من الكلاب للاعتناء به، أنه لا أحد على استعداد للقسم بالله، وبأملِهِ بالخلاص، بأن الأدوية قد طُبِّقَت تطبيقًا ناجعًا لكلّ حالة منفردة. لهذا السبب ارتأى العمدة ضرورة تعيين شخص آخر يُعتمَد عليه بوصفه مساعدًا لي».

وَاتّفق الجميع على أن الوضع يقتضي اتخاذ تدابير ملحّة، بما أنه حتى في يوتيروتسميري شوهِدت علامات تَرنُّح خلال الربيع الماضي.

واصل ملك الجبل كلامه بنبرة من يَعي تمامًا مسؤولياته: «نعم، يجب أن أفكر بالموضوع تفكيرًا جديًا. إنه لعملٌ على قدرٍ من الأهمية، على الرغم من أنه ليس أكثر متعة من أي عمل طبي آخر. والأمر يستلزم رجلًا مقتدرًا للاضطلاع بهذه المهمة. وأظنُّ أني بقليل من الإقناع بإمكاني حمل العمدة على الموافقة بمنح أجر جزيل عادل لمساعدي المزعوم. ولكن حتى هذه اللحظة لا أملك السّلطة للوعد بأي شيء».

«أقـول، ماذا عن الوكيل؟»، قال بيارتور الذي لم يكن قـادرًا على اقتلاع الوكيل من رأسه. «لا أفهم لماذا لا يتحتم عليه إيجاد مساعد طبيب كلاب مناسب؟»

لم يُثِر هذا الاقتراح، الذي قُدِّمَ ما بين جدّ وهزل، أيّ رد فعل حقيقي في مزاج أحد من ضيوف بيارتور؛ مجرّد أنهم نخروا أو لووا أنوفهم قليلا باستخفافٍ كئيب.

في هذا الوقت أحضرت روزا القهوة، ولمّا كانت الأكواب قليلة، اضطروا للشرب في جلستين.

«اشربوا، يا رفاق» حثّهم بيارتور «لا حاجة بكم إلى الخوف من الإصابة بألم في المعدة بسبب القشدة في قهوة البيت الصيفي! لكننا لم نبخل بحبّات البُّن».

قال ملك الجبل: «ما رأيكم بشيء من القشدة الدنماركية؟ ثمّ أخرجَ قارورة صغيرة من جيب قميصه. وبينما كان يسحب السدادة، بانت على وجوه العمال المستقلين الصارمة والباهتة من حوله ابتسامات البهجة والسرور. «أحبُّ دائمًا أن أكون قادرًا على فعل شيء من أجل أصدقائي حينما نكون خارجين إلى الجبال». وأردف ملك الجبل بالقول: «من يدري، قد يتمكن أصدقائي من القيام بشيء من أجلي حينما نعود جميعًا إلى منازلنا». وأضاف، بينما كان يسكب القليل في كلّ كوب: «الضرائب المرتفعة أدت إلى تراجع أحوال أصحاب الحيازات الصغيرة في السنوات القليلة الماضية، كما تعلمون جميعًا، ولكن قد يحدث أن يصير لِمن يعيشون كَفافًا مُتحدّثٌ بالنيابة عنهم في المجلس عمّا قريب. وهناك سوف تُعتبر المسألة منتهية».

هتف بيارتور: «مدّوا أيديكم إلى الكعك المحلّى يا رجال! ولا توفّروا السُّكر القميء. صبّي كوبًا آخر لِملك الجبل يا روزا!»

قال ملك الجبل: «حسن يا رفاق. من المؤكد أن أحدكم قد نظم بعض الأبيات أثناء تيبيس الكلأ هذا الصيف، وإن كانت غير مضبوطة».

قال آخرون: «بلى، آن الأوان لسماع قصيدة حاذقة!»

قال إينار: «حسنًا، لا داعي إلى توقع ذلك مني. إن آرائي في الشعر، كما

تعلمون جميعًا، تتلخص في أني لا أربك نفسي بالشعر الحاذق، كما يُسمى. ففي المقاطع القليلة التي أحاول نظمها عندما تسمح الفرصة، أحاول إيلاء مزيد من الاهتمام لحقيقة الإحساس أكثر من إحكام الأوزان».

وما كان خافيًا على أحد أن بيارتور كان لديه رأي رديء في شعر إينار، لأن بيارتور كان قد نشأ على المعايير القديمة للقصيدة القصصية في القرن الثامن عشر، ولطالما ازدرى كتابة التراتيل، والقصائد الغنائية الحديثة بالقدر الذي ازدرى فيه أي شكل آخر من الفانتازيا[1] الفارغة. قال: «كان أبي رجلاً عظيمًا في الشِّعر، وهِبَ لسانًا طلقًا فصيحًا، وأنا مدينٌ له بتعلّمي قواعد الأوزان في سنٍّ صغيرة، وقد احتفظت بها منذ ذلك الوقت، على الرغم من كل النظريات الحديثة للشعراء البارزين، سيدة ميري مثلًا. ورثتُ نُسَخي من القوافي من والدي، سبع منها تعود إلى الأيام حيث كان في آيسلندا رجال عباقرة، رجال يعرفون جيدًا ما كانوا سيسافرونَ من أجله على أقدامهم؛ رجال احتاجوا أربعة أسطرٍ فقط لِشِعرهم، ومع ذلك بمقدورك قراءتها بثمانية وأربعين وجهًا، وفي كل وجه مغزى ومعنى. ليس لهم النمط الشعري الغنائي المتخم بالأسى والقلق وبالعاطفة الرطيبة؛ ولا التراتيل حتى، تركوا ذلك للكهنة. كانوا رجالًا لا يؤمنون بتمزيق شعورهم ولطمِ صدورهم. خذوا «قوافي أولفار»، على سبيل المثال، بمعاركهم الجبّارة كلّ معركة بزّت سابقتها في البسالة؛ هؤلاء كانوا أبطالًا لم يزحفوا للعق أقدام امرأة، كمثل شعراء الحبّ والغزل في وقتنا الحاضر. ولكن لعلمكم، كانوا إذا تناهى إلى سمعهم نداء امرأة شهيرة يبذلون الغالي والنفيس للوصول إليها، وإن كانت تعيش في النصف الآخر من الكرة الأرضية، كانوا ينطلقونَ في إثرها ونصال السيوف تلتمعُ في أحداقهم، ليقهروا الملوك والممالك ويكوّموا القتلى في أكوام أعلى من التلال».

استمرّ الجدال دون التوصل إلى أيّ اتفاق، واحدهم أقسمَ بالقالب الكلاسيكي، وبالروح البطولية في القصيدة القصصية، وظلّ الآخر على

1- الفانتازيا: الخيال، أثر أدبي وتُعرف أيضًا على أنها لحن متحرر من القيود التقليدية كالمنطق والشكل والإخبار.

رأيه؛ لم يتزعزع إيمانه بالعناية الإلهية وبالإنسان. ونتيجة لهذا الاختلاف في التوجّه تعذّرَ إقناع الواحد منهما بإلقاء أيّ من شِعره ما دامَ الآخر حاضرًا!

قال إينار: «إن الأشخاص الذين يحبون استعراض أساليب معقدة في شعرهم يميلون إلى التفاخر بأعمالهم أكثر من أولئك الذين يكتبونَ عزاءً لأنفسهم». ردّ عليه بيارتور من فوره بأنه لم يكن ينظر إلى نفسه على أنه شاعر، ولكن أن يكون مضطرًّا للاستماع إلى أي شيء أقل قدرة من الرباعيات ذات القوافي الداخلية لهو أمر يفوق احتماله! وأضاف: «وإن كنت شاعرًا، ينبغي عليّ التيقن أن لا شيء مما أكتب سيخرج إلى الملأ ما لم يكن شعرًا ذا صنعة ماهرة، يُقرأ إلى الأمام أو الخلف بالطريقة ذاتها».

أولافور يازتدال، صاحب العقلية العلمية والمهتم بصفة خاصة بغوامض العلم، كان دائمًا غير مُنشرحٍ حينما يكون النقاش مقتصرًا على الشِّعر. ولم يتمكن حتى اللحظة من الإدلاء بكلمة، بيد أنه الآن لم يستطع منع نفسه من طرح بعض الأسئلة، فمهما كانت صغيرة، من شأنها أن تضمن له نصيبه من الأضواء في اجتماع الفجر هذا، هو الذي كان عقله المحبّ للاستطلاع الفكري منشغلًا على الدوام في مغالبة مسائل محيّرة.

قال: «أي نعم، الدنيا مكان عجيب، إنها لكذلك حقًّا!» وقد انسلّ إلى المحاورة مثل لصٍّ في الليل. «يقولون إن عيد الفصح[1] سيصادفُ يوم السبت في العام القادم».

رانَ الصمت على الجَمْع بُرهةً من هولِ ما سمعوا من أنباء.

في الأخير كرّر ملك الجبل، بتفكّر: «السبت؟ لا يمكن أن يكون الكلام صحيحًا، يا أولافور، أعياد الفصح تحلّ دائمًا يوم الأحد».

هتف أولافور مأخوذًا بنشوة النصر: «هذا ما اعتقدته دائمًا، إلا أنني

1- عيد الفصح: عيد القيامة، ويعرف بأسماء عديدة أخرى أشهرها عيد الفصح والبصخة وأحد القيامة ويوم القيامة. من أهم الأعياد المسيحية وأكبرها، ويستذكر فيه قيامة المسيح من بين الأموات بعد ثلاثة أيام من صلبه وموته كما هو مسطور في العهد الجديد، وفيه ينتهي الصوم الكبير الذي يستمر أربعين يومًا، كما ينتهي أسبوع الآلام، وهو أسبوع تغمره الصلوات والعبادات الخاصة.

قرأت الخبر مرتين في (تقويم الوطنيين)، ذُكِرَ فيها أن عيد الفصح سيصادف يوم السبت».

«لا بد أنه خطأ مطبعي»، اقترح ملك الجبل.

«خطأ في التقويم؟ لا، غير وارد مطلقًا؛ لا يجرؤون. لكني أعتقد أن لدي التفسير الصحيح. أظن أنه في كتاب قديم للقسّ غودموندور، كنتُ قد عكفتُ ليلةً كاملة على قراءته منذ بضع سنوات. يقول الكتاب إن الشمس تباطأت من آنٍ لآخر خلال فترة من الزمن. وإذا صحّ هذا القول، فمن المستحيل طبعًا على الوقت فعل أي شيء سوى الرجوع إلى الوراء في الأثناء. ولو قليلًا على الأقل».

«يا عزيزي أولافور»، قال بيارتور بتلطّفٍ، «كرمى لله لا تدع أحدًا يظن أنك تأخذ ذلك النوع من الأفكار على محمل الجدّ. يجدر بك الاحتراس من تصديق ما تقرأه في الكتب. أنا لا أنظر إلى الكتب أبدًا على أنها حقيقة، ولا سيّما الكتاب المقدس، لأنه ما من رقيب على ما يُكتب فيها. بوسعهم نسج أكاذيب كبيرة قدرَ ما يحلو لهم، ولن تعرف أبدًا، ما لم تكن في موقع الحدث. وإذا كان صحيحًا، على سبيل المثال، أن الوقت يرجع إلى الوراء، ولو قليلًا في كل مرة، فإذن سينتهي الحال بحلول عيد الفصح في يوم عيد الميلاد».

«حسنًا»، قال ملك الجبل، «كل ما عليّ قوله هو أن القصة تروي لك أن المسيح سيقوم من الموت مرة أخرى صباح يوم أحد، وأنا متمسّك بهذا. من أجل ذلك لا بدّ أن يصادف عيد الفصح يوم الأحد دائمًا، سواء كان الوقت يمضي إلى الأمام أم إلى الوراء».

قال بيارتور بتشكك: «بوسع القصة أن تقصص عليّ ما تشاء. ولكن ما أود معرفته هو الآتي: من رأى المسيح يقوم يوم الأحد؟ عصبة من النساء، على ما أعتقد، وإلى أي حدٍّ يمكنكم الركون إلى النساء وإلى أعصابهن؟ فعلى سبيل المثال، منذ عام أو عامين كانت هناك امرأة من الجنوب تعمل خادمة في يوتيروتسميري، جاءت مُولولةً وقالت إنها تعثّرت بطفلٍ عارٍ عند الانهيارات الصخرية هناك عند المنحدر، كان ذلك في وقت متأخر من ليلة صيفية، وأقسمت بأنه أطلق عويلًا. ولكن ماذا كان برأيكم؟ لم يكن بالطبع سوى قطة برية تموء في مرحلة السّفاد!

«بالمناسبة»، قال ملك الجبل، الذي فضل عدم تشجيع تعقيدات مناقشةٍ لا صلة لها بموضوعهم، «كنت أتساءل، لدى سماعي كلام بيارتور عن القطط البرية هناك، ما هي مخططاتكم بخصوص صديقنا الثعلب لهذا الخريف؟»

أجابوا بالقول: «الخطط شيء، والأفعال شيء آخر، ماذا عن مراجعة الوكيل حول هذا الموضوع؟»

قال بيارتور مؤكدًا: «أوه، من غير المحتمل أن الوكيل يعاني من متاعب مع المحتال[1]. في العام الماضي كان لديه من الجلود عشرون لبيعها في الجنوب. وقد حصل مقابلها على سعرٍ عالٍ أيضًا».

ورأى الآخرون أن مالكي الأغنام الصغار سوف يعانون بنفس الطريقة، ولعنوا «رينارد[2]» وتداوروا على شتمهِ بطائفةٍ مختلفة من الشتائم لبعض الوقت. لقد قتلَ في الخريف الماضي، ومن المؤكد سيقتل في هذا الخريف. وصرّح ملك الجبل على نحو دامغٍ وقور بأن الثعالب ولا ريب من أسوأ أعداء الأمة. وأنهى العجوز من آل نيثوركوت حصته من الحديث جازمًا: «لقد قَتَلَ في العام الماضي. وقتلَ في الربيع. وسيقتلُ مجدّدًا في الخريف».

عندما انتهى الجميع من احتساء قهوتهم، أعادَ ملك الجبل السدّادة وحشرَ القارورة داخل جيبه؛ كانت الدنيا قد أضاءت بما يكفي لمواصلة السعي.

وبينما كان ينهض قال: «حسنًا يا رجال، لقد سافرت عبر المروج ههنا مرارًا وتكرارًا، لكن ليس كمثل هذه المرة قط. ويا له من اختلاف! اختلاف يسعد به كثير من الناس في يوم شتوي قاس. لقد استُضِفنا مثل الملوك. ولن تشعر بالراحة الكافية للسّعي على أقدامك وراء خرافك، كما أنت عليه الآن».

إلا أن بيارتور أراد أن يُظهِر بأن حسن ضيافته كانت مسألة بسيطة للغاية. وقال: «النقطة الرئيسة، النقطة التي وجهتُ إليها وجهتي هي الاستقلالية. الإنسان حرٌّ ومستقلٌّ ما دام الكوخ الذي يسكنه ملكه الخاص. وسواء عاشَ أم مات فهذا شأنه هو، وهو وحده. وخلاف ذلك، أؤكد لكم، لا يمكن للمرء

1- يُراد به الثعلب.

2- رينارد: Reynard، اسم الثعلب الأحمر في الفولكلور الأوروبي.

أن يكون مستقلّا. هذا المطمح إلى الحرية يجري في عروق الإنسان، كما يمكن لأي شخص عملَ خادمًا للآخر أن يتفهم قولي».

وافق ملك الجبل على قوله: «نعم، أنا شخصيًا أتفهم. إن حبّ الحرية والاستقلال كان دائمًا سمة من سمات الشعب الآيسلندي. استُوطِنت آيسلندا بالأصل من قِبل زعماء أحرار فضّلوا العيش والموت في العزلة على خدمة ملكٍ أجنبي. كانوا رجالاً من نفس نوعية بيارتور. إن بيارتور والرجال الذين على شاكلته هم الآيسلنديون المولودون أحرارًا، والذين ارتكز عليهم الاستقلال الآيسلندي والقومية الآيسلندية، ويرتكزان الآن، ولسوف يرتكزان عليهم في كل حين. وروزا، أيضًا، انتعشت هنا في الوادي وازدهرت على خير وجه؛ لم أرها ريّانة هكذا من قبل. ما رأيك بالمعيشة هنا في المروج، يا روزا؟»

أجابت: «ياه، إنها حرّة للغاية بالطبع»، وتنشّقت نفسًا.

«أجل»، قال ملك الجبل وقد تبدى بمظهر المزارع الكبير في نظرتهِ المستقبلية بعد احتساء قطرة من البراندي، «لو أن الروح التي تُحيي هذين الزوجين الشابين تَشيع في جيل الشباب كله، رجالًا ونساء على حدّ سواء، لما كان على البلاد أن تخشى المستقبل قط».

«حسنًا»، قال نيثوركوت العجوز، «أعتقد أنه من الأنسب لي التقدّم بالطريق على مَهلٍ فوق فرسي الهرِم المسكين».

وقفَ بجانب الباب الأرضي القلّاب، شيخ فانٍ منهوك القوى بعد حياته الطويلة والنزر اليسير من الظروف المثالية، لدرجة أنه كان من الصعب ألا يُقال له شيء أيضًا. لذا ربتَ ملك الجبل على كتفه مواسيًا وقال:

«نعم يا عزيزي ثورثور، الحياة بالنسبة لنا جميعًا نوع من اليانصيب».

«إيه؟»، ردّ الشيخ على نحوٍ تافه، عاجزًا عن فهم المقارنة، إذ إنه لم يشترك إلا في يانصيب واحد، وكان ذلك قبل بضع سنوات خلت عندما قدّمت سيدة ميري مهرةً جائزةً ليانصيب يُحصد ريعه لمصلحة صندوق المقبرة. وكانت نتيجة ذلك اليانصيب أن الوكيل سحب المهرة بنفسه.

«أبي»، قالت روزا، عندما اصطحبته إلى حصانه في الخارج، «حاول أن تغطي نفسك جيدًا في الكوخ الليلة».

«لمَ يتحتّم عليّ في عمري هذا مطاردة الخراف الجامحة عبر الجبال؟»

قال وهو يضع اللجام على حصانه، «إنه لأمر يفوق استيعابي؛ رجل يداني الثمانين من العمر، وبالكاد أقوى على رفع عظامي الهرمة من الفراش صباحًا».

فرّق الرجال كلابهم التي كانت تتشقلب، وتتعارك، على المنحدر قبالة المنزل، والشاة التي ما تزال مربوطة على أطراف السياج، وقفت وأخذت تثغو وهي تراقبهم.

احتضنَ الشّيخ ابنته، ثم شرعَ يعتلي حصانه بمشقّة، بينما ثبّتت له رِكاب[1] السّرج؛ كان لديه جلد خروف أسود فوق السّرج من أجل الراحة والحماية. مسّدت خطمَ حصانه؛ جلاسيير العجوز، الحيوان العزيز الذي تتذكره وهو مهر صغير، حين كان كل شيء في المنزل بهيًّا ورائعًا في هاتيك الأيام، منذ ثمانية عشر عامًا، عندما كان جميع أشقائها وشقيقاتها في المنزل في مزرعة نيثوركوت، الأخوة والأخوات الذين بعثرهم الشتات في كل حدب وصوب! وفجأة ظهرَ سامور، كان لسانه متدلّيًا من فمه عقب العراك؛ لكنه عرفها، ونسي على الفور النزاع الأخير، ووثبَ عليها، وراحَ ينبحُ بفرحٍ غامرٍ على اجتماع الشمل، فما كان منها إلا أن هرعت إلى الداخل لكي تعثرَ على قطعة من السمك وتعطيها لكلب أبيها.

«كنت سأطلب منك أن تعيرني سامور للبقاء معي الليلة، يا أبتِ، لولا أني أعرف بأن الأولوية لمصلحة الخراف. ويبدو أن ثقتي قليلة بتلك الشاة التي ستتركها معي».

في هذه اللحظة ظهرَ بيارتور على السّاحة، وكان يقود بيلسي من عِنانه. قبّلَ زوجته على عَجل وأخبرها بما ينبغي فِعله في غيابه، ثمّ تأرجح إلى السّرج، ونادى على تيتلا. ومضى الرجال على صهوات جيادهم خارجَ المزرعة لِطرادِ الماشية وسَوْقها. راقبتهم وهم يعبرون المستنقعات، كانَ والدها خلفَ الآخرين، مرتخيًا على السرج، وكان يؤرجح ساقيه لينخز خاصرتي حصانه. كان جلاسيير العجوز يخوضُ في الوحل بتثاقل.

***

1- الرِّكاب: حَلْقةٌ من حديد جهتها السُّفلى مفلطحة معلَّقة بالسَّرج يمكِّن فيها الفارس رِجْله.

11. ليلة من أيلول

بعد ذلك بمدة وجيزة، بدأ المطر بالهطول، في البدء على نحوٍ ناعمٍ بريء، إلا أن السّماء احتشدت بالغيوم، وشيئًا فشيئًا صارت قطرات المطر أكبر وأثقل، إلى أن كانت أمطار الخريف الموحشة التي تتساقط؛ الأمطار التي بدت من شدة وطأتها كأنها تَسوطُ المعمورة بأسرها سَوْطًا، أمطار توحي بكآبتها وعزلتها بشلالات أزلية تسّاقط ما بين الكواكب، أمطارٌ سَقَفت السّماء بالشّحوب، وخيّمت بلا هوادة على الريف كلّه، كمثلِ الداء، شديد في بسطِ سطوته، مطّرد في رتابته؛ كما الداء بثقله الخانق، وقسوته الباردة المتعنّتة. انهمرت الأمطار انهمارًا، على المقاطعة بأكملها، على حشائش المستنقعات الكابية، على البحيرة المضطربة، على المِهَاد المفروشة بالحصى الرصاصي، على الجبل الداكن أعلى الحقل الصغير المسوّر، مُبقِّعةً كلّ مشهدٍ ومنظر. سلكت ضربات المطر الثقيلة المهيبة غير المتناهية سبيلها إلى كل شقٍّ في بيت الحقل الصغير، وتموضعت في الآذان مثل حشيّة من القطن، وأحاطت بمداها كلّ شيء، القاصي والداني، كمثل قصّة غير رومانسية من الحياة نفسها، لا إيقاعَ لها، لا تصعيد، ولا ذروة، بيد أنها مع ذلك ذات نطاقٍ طاغٍ وجسامةٍ مرعبة. في قاع هذا المحيط الذي لا يُسبر له غور من المطر الزاخر جَثمَ البيت الصّغير وامرأتهُ العُصابيّة الوحيدة.

كانت قد تناولت بعض الثياب لترفوها، لكنها كانت متوانية فاترة الهمة، جلست إلى جوار النافذة بلا حراك، منوّمة تحت تأثير صوت طقطقة المطر. حدّقت بخمولٍ غافلٍ في الظلمة الرمادية بالخارج، أو حدّقت بعينين طفوليتين بالبرك المتشكلة على إفريز النافذة حيث تسربت إليه المياه. بتقدم النهار هبّت عاصفة هوجاء، وطاردت الريح المفاجئة الأمطار بعَصفات عاتية لها عويل، وضربتها كما لو أن الأمطار قطعان كثيرة من الأغنام. اندفعت القطعان المطريّة صوب المستنقعات وطَفَت فوقها مُشكّلة طبقة من الزبد، واتخذت شكل أمواج توشكُ أن تتكسر، ورَبت أكثر فأكثر، ومن ثمّ إما خمدت أو تكسّرت.

في هذا الوقت كانت الشاة في زاوية الفناء قد كفّت عن المأمأة، ووقفت

بعيدًا عن الوتد بالقدر الذي سمحَ به الحبل، وكان رأسها محنيًّا وقرناها في الهواء. في أول الأمر أشفقت المرأة عليها في محنتها، من بين شياه الجبال كلها كانت الوحيدة التي جُرجرت وأسرت، لذلك قررت إدخالها إلى المأوى. حاولت النعجة الفرار حينما رأتها تدنو منها، إلا أن الحبل قيّدَ حركتها. استوثقت من إمساك الحبل بيديها، وتتبعته حتى تمكنت من القبض على قرونها، واستحوذت على الشّاة بين ساقيها، ثمّ كافحت للعودة بها إلى داخل البيت، وتركتها طليقة في الإسطبل المعتم بالأسفل، وأوصدت الباب. سرعان ما أظهرت الشّاة نفورها من المنزل؛ وقتما نفضت معظم المطر من صوفها، أنشأت تجوب الإسطبل جيئة وذهابًا، ولما تبيّنت أن لا منفذ للخروج، أخذت تثغو بصوت مرتفعٍ للغاية دوّى صداه في البيت. جرّبت المرأة أن تمنحها شيئًا من كرم الضِّيافة فأخذت لها بعض الماء، لكن النعجة رفضته؛ ثمّ قدمت لها التبن، غير أنها لم تمسّ هذا أيضًا، وجَرَت بعيدًا عنها، وقد استولى عليها الذعر، ووقفت على مسافة منها في الزاوية تنظرُ إليها بعينين مرتابتين، خضراوين في العتمة. ثمّ دقّت الأرض بحافريها الأماميَّين كما لو كانت تهدّد. في آخر الأمر قدّمت لها خُبزًا وسمكًا، ولكن عندما رفضت هذا أيضًا، استسلمت، وواصلت النعجة صياحها الحادّ القلِق.

حلّ الغسق وما زالت تثغو. سَخّنت المرأة بعض العصيدة وأكلتها، وفي هذا الوقت كان قد حلّ الظلام، لم تستطع إرغام نفسها على إخماد النار، كانت الريح باردة جدًا، وكان الماء ينقّط من اثنتين من العوارض الخشبية في السقف، علاوة على ذلك، لم يكن في البيت عيدان ثقاب، وإحساس الإنسان بالأمان يكمنُ في ضوء النار، وبعد ذلك في الجذوة التي لا بد أن تظل متوهجة. قعدت بالقرب من الفرن زمنًا غير يسير، والبابُ مواربٌ بحيث تتمكن من رؤية النار. وفكرت بالتسرية عن نفسها وتدليلها، فصنعت بعض القهوة من هدية أمها. وتناولت معها السُّكر، كان هدية من أمها أيضًا، أكلت خمس كتل من السُّكر بدلًا من واحدة، لأنه كان سُكّرها. شربت قهوتها على مهلٍ، الفنجان تلو الآخر، متفرّسة بالجمرِ بثبات لتبعد عنها الخوف من الليل الذي كان ينتظر فرصته لينسلّ إلى بدنها ويبثّ القشعريرة في عمودها

الفقري. تعمّدت التفكير بأمور سارّة، واستحضار ذكريات قديمة، وتمكنت في بعض اللحظات من الشعور بالارتياح تقريبًا.

صمتت النعجة أخيرًا، وربضت على الأرض. لكن الريح كانت ما تزال تشتدُّ عَصفًا؛ وشيئًا فشيئًا استحال وابل المطر زوابع رعدية، قصفت ألواح النوافذ، وهزّت البيت بدوّاماتها. كان الوقت متأخرًا جدًّا حينما تجرأت المرأة بصعوبة على الابتعاد عن الفرن، وشعرت بأن الظلام من حولها مشحون بالشّرور. جلست مطويّة الساقين وصالبت ذراعيها حول صدرها بشدّة، وشعور مخيف يخالجها بأنه لربما سيصل أحد إلى ذراعيها لو أبقتهما مفرودتين. ولكي تشعر بالطمأنينة حاولت إبقاء عقلها منشغلًا بذكرياتها. كانت جالسة على هذه الشاكلة لبعض الوقت، وحتى إنها أفلحت في نسيان مخاوفها، حينما انتصبت النعجة واقفة على قوائمها، بعد أن سئمت من الربوض، وبنشاطٍ يعقبُ ارتياحًا أطلقت العنان لثغاء أشدّ صخبًا، حادٍّ ومجلجل، من العتمة بالأسفل. كانت كما لو أنها مسّها خوف مفاجئ؛ كما لو أن أحدًا ركلها على قوائمها؛ وبدت لبرهة محدودة كما لو كانت مُطارَدة، اندفعت بهلع من زاوية إلى زاوية، توقفت مرتين وخبطت على الأرض بقائمتها، ونفخت في وجه شخص ما. من عساه يكون؟ لربما لا أحد.

في الأخير استرقت نظرة من فتحة الباب الأرضي وصاحت عليها بالأسفل:

«يا نعجتي الصغيرة، لا تخافي».

بيد أن فؤادها انخلع من شدّة الخوف حينما سمعت صوتها في فراغ الكوخ المظلم. لم تعرف صوتها؛ ما مرّ عليها صوت بهذه الغرابة كلها! تسمّرت واقفة عند الباب الأرضي، وفي رفّة عين باتت جميع توجّساتها من الظلام والويلات المحتومة التي كانت تنتظر في الليل يقينًا مروِّعا. وسَرَت أسفل عمودها الفقري رعدة شلّت حركتها، كما الآلام العنيفة المفرطة: كان شخصٌ ما في الطابق السفلي، شخص يهاجم الشّاة، يحكم قبضته الشريرة على حلقها، شخص يخنق مأمأتها ويرمي بها إلى الجدار -شخص أو شيء- إلى أن صدحت بالثغاء مجددًا، أشدّ رهبة، وأشدّ قنوطًا من أي وقت مضى.

لا لم تجْبن؛ تحسّست بصورة غريزية مزيدًا من العيدان لإضافتها إلى النار. كانت العيدان أملها الوحيد، لهيبها الأزرق المفرقِع، جمراتها المتقدة، يجب ألا تذوي النار في الموقد. «لا، ربما لم يكن شيئًا»، قالت وهي تقحمُ الأغصان بأصابع خَدِرة.

شخص، شيء؛ لربما لا شيء. كانت مصممة على تهدئة نفسها بالتحديق بالوهج الضئيل، بنار بيتها، النار المضطرمة من أجل فكرة الاستقلال، من أجل فكرة الحرية. لا أحد يعود من الموت، وبالأخص كولمكيلي؛ ما من أحد في هذه المروج إلا إله الحرية الرحيم، الإله الذي مجّدَ الإنسان وفضّله على الكلب (ربّما). من يعلم قد تغدو هي أيضًا زوجة وكيل مزرعة، مثل سيدة ميري، بعد ثلاثة وعشرين عامًا؟ الحياة نوع من اليانصيب كما قال ملك الجبل لأبيها - ياللعجوز المسكين، ماذا لو أصيب بالتهاب رئوي في هذا اليانصيب، وهو مستلقٍ في كوخٍ جبلي الليلة، ويبلغ من العمر سبعين عامًا. كلا، لم ترد التفكير بذلك، ينبغي ألا تفكر بأي شيء شرير، فقط بما هو حسنٌ وجميل.

«ماااأ، ااااء».

في ثغاء النعجة كان صوتٌ من الجنون، صوتٌ أجشّ، كأنه حشرجة الموت. حتى إن روزا أخذها العجب وتساءلت إن كان هذا صوت النعجة حقًّا! ما عاد ثغاء، بل عويلًا مكروبًا. هل كان الحضور الشيطاني يخنقها ويسحب منها الروح؟ استمر التدافع والوقوع وتخللته بعض الوقفات، شيء اصطدمَ بالسلّم ثم ارتطمَ بالباب، ارتجَّ كل لوح من ألواح الكوخ، ثمّ كانَ سكونٌ وإرجاء ما عدا قرع العواصف على النوافذ وخفقات قلبها، كانت تأمل بأن الاصطخاب قد انقضى، وبأن النعجة قد هدأت أخيرًا، ولكن ما إن استقرَّ وجيب قلبها حتى صفعت الباب ضربة مفاجئة، تردّد صداها في المنزل، وبدأ الهجوم من جديد، ما بين اندفاع ودهسٍ، وخشخشة وقعقعة، كما لو كان كل شيء ينهار. في البدء ظنّت المرأة أن التطبيل والقرقعة آتيان من الجبل، أو أن مقدمة البيت قد انهارت؛ ثمّ دوّت صرخة بالأسفل وعرفت بهذا بأن النعجة خُنِقت. منتفضة من الهلع، تشبّثت بعمود السرير ودَعَت الله ويسوع، مكررة الاسمين على مضض كَمن يصلّي على فراش موته. في

نهاية المطاف، وبحذر غير متناهٍ، بدأت بإزلاق ملابسها الخارجية، خلعتها ووقفت بملابسها التحتية، لكنها لم تجرؤ على رفعها من مكانها لأنها مع كل حركة كانت تخاطر باستدعاء قوى الظلام الخفيّة. ببطء وحذر شديدين انزلقت تحت أغطية السرير، وسحبتها إلى ما فوق رأسها، وشعرت بشيء من الارتياح فقط عندما كوّمتها فوق نفسها تكويمًا محكمًا بحيث لم يعد يدخل الهواء. رقدت هكذا لوقتٍ طويل، وكانت ما تزال ترتعش وما تزال تشعر بوجعٍ في قلبها؛ حتى الذكريات ما عادت تؤنسها، الفزع أقوى من مجمل سعادة الإنسان. حاولت التفكير بأمل الفجر البعيد، لأن البشر دائمًا ما يبحثون عن مصدر للتعزية؛ ذلك النوع من توخّي العزاء، حتى وإن انقطع الرجاء من أي مَهرب، هو ما يبرهن على أن المرء ما يزال حيًّا.

طويلًا، طويلًا، استلقت مرتجفة من الهلع، قبل أن تغرق في حالة من التشوّش المخدِّر، في غيبوبة متشنّجة فلا هي نائمة ولا هي مستيقظة، بل في رحلةٍ شاقة مُقاوِمة عبر عالم لا أرضَ فيه ولا زمان، حيث استحضرت بجلاءٍ تام أشد الأحداث غرابة من الماضي، والتقت بأناسٍ عرفتهم من قبل، في رؤىً فاقت الطبيعة في وضوحها، ومروّعة لأقصى حدّ في دقة تفاصيلها. وسمعت من جديد التشدّق في صوت نسيته منذ زمن بعيد، صوت لم يكن مهمًّا بالنسبة إليها، ورأت مجدّدًا تجعيدة طويلة منسية في وجهٍ لم يكن يعنيها قطّ. كلّ وجه تجسّدَ لدى خيالها المضطرب حَتَّ في عقلها كما القُرحة الأكّالة. رأت على سبيل المثال وجوه زائريها في صباح اليوم الفائت مع تفاصيل مثيرة للغثيان. تلك الرؤى التي أرعبتها من فرطِ وضوحها ودقّتها سعت بعناد لتأجيج نفسها في دماغها، بحيث لا سبيل إلى طمسها؛ جلسوا في الفجر الرمادي النّاعس بوجوههم الصارمة، مثل أشخاص موتى نتعرف إليهم في الحلم، يأتون إلينا ويتظاهرون بأنهم أحياء، ومع ذلك نحن نعلم في الحلم أنهم موتى لأننا ذهبنا إلى جنازاتهم ذات يوم. كانت ابتساماتهم السّوداوية المغتمّة ابتسامات أشخاص ميتين. أحاديثهم في غاية الكآبة، أحاديث أناس موتى؛ وكانت الوجوه التي أظهروها بعضهم لبعض عبارة عن أقنعة، وغشاوات شبه متجمّدة بسبب رهبة الخراب التي اجتاحتها. لا أحد بكامل عقله يحسبُ أنهم ملّاك أراض ومزارعون. قدّرَ بيارتور ذات

مرة أنّه سيصير وكيل مزرعة في غضون ثلاثة وعشرين عامًا، «ولكن أين سأكون حينئذ؟»، تساءلت روزا. والدها أيضًا حلمَ بأن يصير مالك أرض، وربما وكيل مزرعة. شيّد طاحونة حبوبٍ على كتفِ الغدير، ولكن أين كان يستلقي تلك الليلة؟ كان الليلة مستلقيًا في القَفر، في السبعين من عمره، يعاني من الروماتيزم وآلام في الصدر، والطاحونة واقفة بالقرب من الغدير تكسوها الطحالب. أين عظام السّاق وعظام الحنك[1]، ألعاب الطفولة في نيثوركوت؟ في مرحلة الطفولة كانت ترتجي قطعانًا خيالية، وأبقارًا ذوات لَغدٍ وضروع عامرة، وأفراسًا لعوبًا مع فحولٍ رشيقة، جميعها في المراعي الجبلية الخاصة بها، وحلمت أيضًا بأن تكون ذكية وشاعرة مثل زوجة وكيل المزرعة وأن تسكن في قصرٍ مُنيف. وأين تراها تسكن الآن؟ وأين قطعانها وأين نبوغها؟ في حوزتها شاة واحدة وبالكاد تستطيع الكتابة. حينما كانت طفلة بالقرب من طاحونة أبيها في طور الإنشاء كانت غنية؛ في تلك الأيام كانت تأمل بالأبقار، وتحلمُ بخيول الشِّعر. كان للجدول في مسقط رأسها

1- عظام الساق وعظام الحنك: لعبة العظام (og skel völuskrín / leggur)، من الموروث الآيسلندي: كان الأطفال في آيسلندا قديمًا يحتفظون بصندوق كنز مملوء بعظام سيقان الحيوانات والأصداف البحرية. كانت عظام الساق عادة من الخراف، وكانت تمثل حيوانات المزرعة. وكانت العظام المختلفة ترمز إلى مختلف الحيوانات. عظام العجل ترمز إلى الحصان، وعظام الفكّ ترمز إلى الأبقار، والقرون ترمز إلى الخراف، والأصداف البحرية ترمز إلى الكلاب. وعظام الكاحل لقراءة الطالع. في لعبة الطالع كان الطفل يهزُّ في راحته عظم الكاحل مثل حجر النرد ويرفعه إلى خده بينما يردد:

يا عظمة الحظ، إني أسألك،
وإذا بالحقيقة أخبرتني بالذهب أسعدك،
وبالفضة أرضيك وأبشّرك،
لكن إن كذبت عليّ بالنار أحرقك!

ثم يسأل سؤاله ويرمي العظمة على رقعة مسطحة، فإذا كان الجزء المحدودب إلى الأعلى كان الجواب نعمًا، وإن كان الجزء المقعر للأعلى كان الجواب لا. وفي حال استقرت العظمة على جانبها كان الجواب مجهولًا. وقد استُخدِمت عظام الغنم والماعز كألعاب في جميع أنحاء العالم منذ العصور القديمة. (المترجمة).

ترنيمته. وكان للطاحونة في مهدها، الطاحونة التي لم تَصِر طاحونة قط، كان لها روحها، روحٌ لا شيء في الحياة يُقارن بها. ورأت عظام الحنك وعظام الساق ما تزال ملقاة على ضفّة الجدول بالقرب من أُسسِ الطاحونة، ورأت صدفة بَلح البحر التي عثر والدها عليها بجوار البحر. لقد كانت مغرمة جدًّا بصدفة بلح البحر تلك، كانت كنزًا لا يقدر بثمن دنيوي، ولم يكن مسموحًا لأي من شقيقاتها أو أشقائها باللعب بصدفتها البحرية. – «ماذا يمكن أن يكون قد حصلَ لصدفتي؟» –

«ما..ا..ا..اء!»

أجفلتها الصّيحة الحادّة وأيقظتها على الفور من غيبوبتها. افترضت بأذنيها الناعستين ملاحظة مثيرة للعجب: كانت النعجة قد قُتِلت، لكنها بُعِثت من الموت بعد ثلاث ساعات بمعونة الشيطان. ذلك الصراخ الأجش تحت الأرضيّ لا يمكن أن يصدر عن أي حيوان مولود؛ لقد كان صراخ النفوس المعذبة التي تحدث عنها الكتاب المقدس؛ جميع شياطين وغيلان الأراضي القَفر احتشدت في هذه الشاة الواحدة لتجأر بالصوت: أشباح الذين لا يمكنهم الراحة في قبورهم، والأطفال الذين أُلقي بهم تحت صخرة في جَرَدِ الكتل الصخرية ليموتوا، وأشباح مزارعين سُلِخت حناجرهم للحصول على نقيّ عظامهم، وكاثوليكيين يكرهون الله والمسيح وتتمثل رغبتهم في جرجرة كل امرئ إلى الدّرك الأسفل من جحيمهم الأبدي. على هذا المنوال استمرت الليلة، وطالت واستطالت!

في آخر المطاف استجمعت من الشجاعة ما يكفي للتلصّص من تحت البطانيات، وحينذاك، أضاء الغرفة وميض شاحب. اكتشفت بارتياح فاقَ الوصف بأن الليل قد انقضى تقريبًا، مهما طال الليل، ومهما كان شديد الوطأة وحزينًا، هناك فجر يأتي دومًا في النهاية. كانت الريح قد انخفضت حدّتها، لكن الأمطار استمرت، مشتملة كل قريب وبعيد بقرعها الغزير المطوّل. كانت النعجة ما تزال تثغو. رويدًا رويدًا ازدادت الغرفة ضياء، وشيئًا فشيئًا اعتدل مزاجُ المرأة؛ وهُزِم إعياء الليل المضطرب تدريجيًا من قِبل شجاعة النهار الطّالع. في آخر الأمر عمّ الضياء وانتشر لدرجة أن المرأة ما عادت تشعر بأي خوف من الدابة. لقد كرهتها. لقد كانت عدوّة

لها. كان كل ثغاء جديد مثل الزيت المسكوب على اللهب. ومهما كلّف الأمر، سوف تُسكِت فمها الشرير. انتظرت فقط مزيدًا من الضياء، ومزيدًا من الشجاعة، من ثم لا شيء سيمنعها من مهاجمة الحيوان والقضاء عليه بطريقة ما، وبأية حال. في النهاية لم يعد بوسعها مقاومة الإغراء وَهَبّت من الفراش. حتى إنها لم تكلف نفسها عناء ارتداء ملابسها، لكنها جابت الغرفة بذراعين عاريتين وبصدر شبه عارٍ، وكان وجهها ممتقع اللون قد أعياه السَّهر، وكانت عيناها تلتمعان على نحوٍ جامح. بحثت في غَبش الفجر تحت عارضة السقف باضطراب، وسحبت منجلَ بيارتور، وأخرجته من جرابه المصنوع من الخيش، نظرت إلى الشفرة واختبرتها على شعرها. ثمّ نزلت على السلالم. بدأت الشاة تعدو بذعر من جدار إلى آخر، فأخذت تطاردها، وتعثّرت بأمشاط العشب والحبال المتشابكة التي سقطت خلال معمعة الليل. لكنها لم تكن خائفة، ما من مخاوف خيالية يمكن أن تمنعها من تنفيذ نيِّتها، وبعد بعض المطاردات نجحت بالقبض على الشاة. ثمّ حلّت نهاية الحبل وجرّت الشاة خارج عتبة الباب. قاومت النعجة مقاومة عنيدة، ونفخت الهواء من خياشيمها المنتفخة. جرّتها إلى أطراف الحقل حيث كان يمرّ الجدول ليصبَّ خارجًا في المستنقعات. وهناك ألقتها على ظهرها ورأسها باتجاه التيّار. لفّت الحبل حولَ قوائمها، كانت الدنيا مضيئة بما يكفي ليبصرَ الواحدُ ما يفعله.

شرعت في المهمّة بتأنٍّ ورويّة. ومثلَ جزّارٍ متمرّس فَرَقت الصوف عن حنجرة الشاة، لكن حينذاك استشعرت الدابة موتها الوشيك وارتعشت ارتعاشًا متشنّجًا تحت يديّ المرأة؛ حدّقت بفمٍ فاغر ومنخرين مُتّسعين، وتلوّت في أربطتها باهتياج. لكن في هذه اللحظة كان وخز الضمير والشفقة من أبعد ما يكون عن المرأة. جلست فوق الشاة منفرجة الساقين، واستحوذت على الجسد المتوثّب بين ساقيها إلى أن ثبتته كما ينبغي لإعمال الشفرة في حنجرته. لم تكن شفرة المنجل ملائمة مثل سكين الجزّار، فعلى الرغم من كونها حادة على نحو ما، فإن التحكّم بها كان صعبًا بحيث اقتضى الأمر حذرًا شديدًا لئلا يجرح الواحد نفسه. تعيّن عليها إمساكها بكلتا يديها، وفقدت سيطرتها على رأس الشاة في نَزعِها الأخير. ولكنها لم تسمح لهذه

المشقة بإعاقتها، قطعت الحنجرة ونشرتها جيئة وذهابًا بينما تخضّبت يداها بدفقات ساخنة من الدم، ونفرَ على وجهها أيضًا. شيئًا فشيئًا، ازدادت مقاومة الشاة وهنًا على وَهن، نظرًا لخسارة الدم التي أثرت عليها، وأخيرًا توقفت عن رفع رأسها وظلت مستلقية بلا حراك مع غرغرة في الفم. في النهاية وصلت إلى فقرات الرقبة. غرزت نصل المنجل أعمق فأعمق، وانتفضت الشاة بين ساقيها تحت تأثير تقلّص عضلي لا إرادي، ولم يكن يتحرك فيها شيء الآن سوى الذيل. انفتحت الفقرات وظهر منها بياض النخاع الشوكي. مررت الشفرة عبره مباشرة، ونَدّت عن النعجة رعشة خفيفة واحدة، وبذلك كانت ميتة. فصلت الرأس وتركت جسد الذبيحة ينزف في مجرى النهر؛ وكان القليل من الدم على العشب. قعدت المرأة بجانب الجدول، وبعد أن غسلت وجهها ويديها، مسحت نصل المنجل بالحشائش بعناية. سَرَت فيها رِعدة، وكانت منهكة، بل فاقدة للوعي تقريبًا، ولم تعاود التفكير بما اقترفت يداها، فقط عادت أدراجها إلى المنزل مترنّحة وارتدت ملابسها. ثمّ جلست على السرير. قُضيت رغبتها الحبيسة، وأُشبِعت غريزتها، وبإتمامها ما سبق ذكره تدفق في ضلوعها نعاسٌ مريح في ضوء الفجر الكئيب. وهكذا رجعت إلى الوراء وغاصت في فراشها، سحبت الغطاء على كتفيها العاريتين واستسلمت للنوم.

عندما استيقظت كان النهار مشرقًا. بمَ كانت تحلم؟ مررت يدها على عينيها وجبهتها كي تقطع الخيوط بين النوم واليقظة، لكي تفصل ما بين الحلم والحقيقة. كانت تحلمُ بسيّدة ميري، يبدو أنها فعلت شيئًا من شأنه أن يهزّ النّاحية بأكملها، لقد قطعت حنجرة سيدة ميري! ولكن عندما نظرت من النافذة تذكرت أنها قتلت مجرد نعجة، نعجة لا ذنب لها سوى أنها كانت خائفة على الأقل بقدر خوفها هي نفسها من وحدة الليل ووحشته. ومع ذلك لم يُصِبها أدنى وخزٍ للضمير حيالَ ما فعلته. كل ما شعرت به هو الدهشة. لم تستطع تفهّمَ المرأة التي نهضت من فراشها صباحًا، مُسهّدةً إثر ليلة بيضاء، مسلّحة بمنجلٍ كما الموت. ارتدت ملابسها، وشَبكتْ بالدبّوس شالًا حول رأسها وكتفيها، وكانت امرأة يوم أمس نفسها؛ بيد أن النعجة كانت قد كفّت عن الثُغاء. أدركت على الفور أن كل شيء يعتمد على إخفاء آثار هذه الفِعلة

عن بيارتور. نزلت إلى الغدير، إلى حيث كانت الشاة ملقاة بلا رأس على الضفّة، وركلتها بإصبع قدمها، تلك الشاة المذبوحة. شاةٌ مذبوحة؟! كلّ ليفٍ في جسدها تنبّه واختلجَ إثارة للحدث المترقب، بابتهاجٍ جَشِع، لم تكن جثّة شاة فحسب، بل كانت لحمًا. والآن فهمت أخيرًا ما الذي فعلته؛ لقد قتلت شاة من أجل اللحم الطازج. حلمُ الصيف الطويل، حلمُ الصيف الأسمى والأكثر قداسة، سيتحقق أخيرًا!

امتلأ فمها بالرضاب، وجسدها بالجوع المُغتبِط، وروحها بالتخمة المبهجة المُتنَبئ بها. كل ما كان عليها فعله تحضير الشاة ووضع القِدر على النار. عثرت على مطواتها وشحذتها على حجر الشحذ، ثمَّ شرعت بتقصيب الشاة. ومع أنها لم تضطلع قطّ بدورٍ فعّال في موسمِ الجِزارة في الخريف، فإنها شهدت كثيرًا من حالات ذبح الماشية، ولذلك كانت على دراية بالعملية بصورة عامة. وهكذا استخرجت الأحشاء على قدر معرفتها، وكشطت الشحم، مع الحرص على عدم ثقب المرارة، ثم غسلت الكرش في الجدول. عندما أنجزت معظم العمل، لم تهدر وقتًا، وخَفّتْ إلى المنزل لوضع القدر على النار. حَشَت المريء بالشحم، وَصنعت أكياس السُّجق من الأمعاء، ووضعتها كلها في القِدر بالإضافة إلى القلب والكِلى. وسرعان ما تضوّعت بالبيت رائحة سلقِ أحشاء الذبيحة. وبينما كانت تسلق الأحشاء، أنهت تقطيع الشاة وأخفت آثار الذبح بحيث حتى الغربان لن تتمكن من العثور على شيء. علّقت الأمعاء الغليظة على الباب وكشطتها، ثمّ قطعت الذبيحة ببلطة قديمة، وملّحتها في صندوق.

بحلول هذا الوقت كانت الوجبة جاهزة.

ربّما لم يُقدَّم قطّ على طاولة رفيعة المستوى في أيّ بيت من بيوتات الإقطاعية مثل هذه الوجبة الشهيّة التي جلست إليها امرأة الأراضي البراح في بيتها الريفي المتواضع. من المؤكد، على أقل تقدير، أنه منذ أيام جودموندور الثري والزعماء القدامى لم يكن من طعامٍ مترفٍ يُحدِث مثل هذا الحبور الحار الذي يفوق الوصف في جسمٍ ووجدانٍ آكله؛ كمثل الحبور الذي أحدثه في هذه المرأة المذاق القويّ المملح المدهن للمريء المحشوّ بالشحم، والقلب الشهيّ اللحيم للحيوان الصغير، ولحم الكلى المميز الطريّ والغني

بالألياف الرقيقة، وشرائح السّجق السّميكة المحشوة بالكبد والتي تقطرُ دهنًا وشحمًا عند رفعها من الإناء. احتست مرق اللحم مع الوجبة، وكان كثيفًا سائغًا مَريئًا. أكلت وأكلت كما لو أنها لن تشبع أبدًا. كان هذا أول يوم سعيد في حياتها الزوجية. بعدئذ صنعت من القهوة المهداة إليها من أمها، وتناولت كثيرًا من السُّكر. بعد الوجبة خرّت مرة أخرى في نعاسٍ هنيء. قعدت في البداية بجانب الفرن ويداها في حجرها، ورأسها ينوسُ إلى الأمام، ولكن عندما رأت أنها لم تعد قادرة على سَندِ نفسها، استلقت وأخلدت إلى النوم. وهكذا نامت لساعات.

***

12. رأيٌ طبيّ

عاد بيارتور بأغنامه إلى المنزل في وقتٍ متأخر من اليوم الرابع، وانطلق في صبيحة اليوم التالي برفقة عدد من المزارعين من مختلف الأحياء والمتوجهين إلى السوق في البلدة. كانت نتائج طِراد الماشية مُرضية، وتسنّى له أخذَ قطيعٍ مؤلف من عشرين حملًا. اثنا عشر منها ذهبت على سبيل دفعِ جزء من دينه لوكيل المزرعة مقابل الأرض، وأتاحَ له التاجر مقابل الباقي الحصول على جوالٍ من دقيق الجاودار، وبعض من سمك القدّ المملح، وبضعة أرطال من القمح، والقهوة، والسُّكر، ودقيق الشوفان، بالإضافة إلى قليل من السُّعوط. إلى جانبِ هذه المؤن جلبَ معه إلى البيت فضلة الذبائح، وبعد ذلك تعيّن عليه القيام بثلاث سفرات إضافية إلى البلدة من أجل عَلَف الحصان. أصابَ من النوم أقلّه، ارتحلَ ليلاً ونهارًا، وفضّل القيام بثلاث رحلات عوضًا عن رحلة واحدة يقوم بها المزارع الميسور، لئلا يتغرم أي دينٍ للنقل.

عندما عاد إلى المنزل منهك القوى من السفر ليلًا، مُبتلًّا حتى الجلد من مطر الخريف الغزير، ملطّخًا بالوحل حتى الركبتين من الدروب الزّلقة، لم يستطع ثَني نفسه عن الإعجاب بمظهر زوجته، كانت تبدو يانعة نضرة وبصحة جيدة، بدت مثل اللّفتة، التي تنمو وتربو على خير وجه في الخريف،

ولا بدّ أنها نسيت جميع أشباحها، لأنها كانت قد حرّرت النعجة التي تركها لها لتؤنسها.

إلا أن بيارتور كان مدركًا أن الأعصاب مرض عنيد يمكن أن يندلع بأشكال مختلفة، وكان أيضًا عارفًا بأن درهمَ وقاية خير من قنطار علاج، لذلك لم يَنسها من مراجعة الطبيب. أخرج من جيبه قارورة حبوب دواء كان قد حصل عليها من الطبيب فينسن وناولها لزوجته.

قال: «يفترض أن في هذه الحبوب مقدارًا من القوّة». على ما أعتقد، لم يوفّروا علمهم فيها، كما فعلوا في دواء الكلاب. من المفترض أن تبقي هذه الأقراص كل شيء داخلك في حالة جيدة بحيث لا تحتاجين إلى الخوف من أي مرض. وفيها سائل يقضي على تعكير المزاج بكل أنواعه، وَيَقيكِ من تشبّث الآلام داخلك، ويمنح دمكِ قوّة هائلة».

أخذت زوجته هديته ورازتها في يدها.

سألها: «ماذا في اعتقادك أعطيتهُ لقاءها؟»

وهذا ما لم تحزره زوجته. «برأيك ما الذي قاله فينسن العجوز عندما كنتُ على وشك أن أدفع له؟ الرجل العجوز قال: لن نربكَ أنفسنا بمثل هذه الأشياء البسيطة يا عزيزي بيارتور؛ المرء لا يدقق على قرشٍ أو اثنين مع أعضاء حزبه الواحد. قلتُ له، لمَ؟ لم أتبوأ من قبل مكانة عالية حتى أُحتَسب من جملة أعضاء الحزب نفسه المنتسب إليه الطبيب، وما أنا إلا مزارع صغير في عامه الأول. فقال حينئذ، بالمناسبة يا عزيزي بيارتور، أين وقفنا في الانتخابات الأخيرة؟ فسألته بدوري: أين وقفنا؟ ألا يجدر بعضو في الألثينغي[1] أن يعرف بنفسه حق المعرفة أين وقف؟ وبالنسبة إلي، وقفتُ حينذاك حيث أقف الآن، وإني أراها قمّة العبث أن يَشغل العمال المزارعون وصغار الملّاك أنفسهم بشؤون الدولة، في حين أن أي شخص بمقدوره أن يرى على نحو جليّ أن الحكومة ستظلّ دائمًا في صفّ الكبير، وليس في صف الصغير ضئيل النفوذ، وبأن الصغير لن يجعل نفسه أكبر بمقدار ذرة إذا ما تدخّل في شؤون الكبار».

1- الألثينغي: بالآيسلندية (Alþingi) البرلمان الوطني الآيسلندي، وهو أحد أقدم البرلمانات في العالم؛ أنشئ عام 930 ميلادية.

قال متحدّثًا إليّ حديث رجلٍ إلى رجل: الآن أنت لست على صوابٍ تمامًا يا صديقي. إن الحكومة هي للشعب أولًا وقبل أي شيء آخر، وإذا لم يستخدم المواطنون أصواتهم، وبحكمة، سينتهي بهم المطاف بانتخاب أناسٍ عديمي المسؤولية للسلطة، وهذا أمر ينبغي علينا جميعًا أن نضعه في الحسبان، جميعنا، وأولئك الذين ليس لديهم الكثير للمجيء والذهاب مشمولون أيضًا. وبما أني لم أرد أن أكلف نفسي عناء مجادلة العجوز قلتُ له: «أجل، إنه لأمرٌ عظيم ولا ريب أنك على هذه الدرجة من العِلم يا حضرة الطبيب، ولهذا السبب لطالما اعتقدتُ أننا في هذا الجزء من البلاد محظوظون بوجود عالم مثلك يُمثّلنا في البرلمان!» وفكرتُ: أعطِهِ حقّه، إنه متعلم بما يكفي، العجوز السّاقط، مع الأخذ بعين الاعتبار القفازات الطبية على يديه، وكل ذلك الذهب على نظّارتيه. وأردفتُ بالقول: «ولكن حدث أنني اعتدتُ على الدفع مقابل كل ما أشتريه، فمن وجهة نظري الحرية والاستقلال هي مسألة أن لا يكون المرء مَدينًا لأحد بشيء، وأن يكون سيّد نفسه. ولهذا السبب أسألك، أيها الطبيب، ألّا تتردد بِذكر سعر أقراص دوائك العريقة هاته، لأنني على قناعة بأنها حبوب جيدة ونافعة إذا كانت من يدك».

إلا أن كلامي لم يُجدِ نفعًا، لم يشأ سماع سيرة المال. وقال: «سيضع الواحد منا الآخر في اعتباره في الخريف، وسنظهر في الوقت والزمان المناسبين من أجل التصويت». واستطرد قائلًا: «لأن هذه أوقات عصيبة، عصيبة للغاية، والبرلمان يواجه عديدًا من المشاكل الحرجة، ويتعين على رجال القضاء إيجاد طريقة للخروج من كل هذه الأزمات، وحماية العاملين من الأعباء التي لا تطاق، والكفاح في سبيل استقلال البلاد». ثمّ نهضَ، شيخٌ مهيب جليل بحقّ، وجدير باحترام أي شخص، وربتَ على كتفي قائلًا: «بلّغ زوجتك أطيب التحيات وأخبرها بأني أرسلتُ لها حبوب الدواء هذه كي تجرب. وقل لها إنها من بعض أفضل أنواع الحبوب المصنوعة فيما يتعلق بالأمزجة، كما أنها ناجعة بوجهٍ خاص لتقوية الأعصاب».

***

13. الشّاعرة

في ذلك الخريف قصدَ البيت الصيفي كثيرٌ من الزوّار، ذلك أن الطرق المؤدية إلى البلدة تمرّ عبر الوادي. يوميًا، كانت تتهادى على ضفّتي النهر مواكب طويلة من الخيول المحملة بالأمتعة، وترتقي صعودًا إلى الدروب المرتفعة في طريقها إلى فِيورد، في حين كان مالكوها من أصحاب المزارع يقودون جيادهم في الخلف ببطءٍ وتؤدة، تاركين شؤون القافلة في عُهدة عمّالهم المُستأجَرين. في بعض الأوقات يعود هؤلاء المزارعون من البلدة سُكارى، ويوقظون بيارتور وزوجته في منتصف الليل، يصخبون ويهذرون، ويتحدثون عن الشِّعر ومضاجعة نساء صغيرات في السن. ويصدحون بالهجاء ملء حناجرهم، ويترنمون بالأناشيد الوطنية، والتراتيل الهزلية، ويمضون الليل في مرح إلى أن يتقيأوا على الأرض ويذهبوا للنوم في فراش الزوجين. وكانت أيضًا بعض زوجات المزارعين يحدن عن الطريق الرئيس للزيارة، ويسلكن طريقهن بحذر عبر المستنقعات، على أفراسهن التي تسيرُ رهوًا، فقط ليُقبّلنَ عزيزتهن الصغيرة روزا صاحبة البيت الصيفي. كانت سيدة ميري واحدة من هؤلاء النسوة. كانت هي أيضًا في طريقها نحو البلدة، ممتطية حصانها سوتي، وكانت مكسوّة ببذلة ركوب خيل ذات تنورة فضفاضة بما يكفي لاستيعاب نصف الريف. وقد ارتدت تنورة تحتية مزركشة، وقبعة ركوب، وخمارًا. رفعت خمارها إلى ما فوق أنفها وقبّلت عزيزتها الصغيرة. مَنحت سيّدة ميري روزا شَرف شُرب أربعة أكواب من قهوتها، وبالإذن لها بتفحص مؤونتها وأوضحت لها بأن سمك القد المملح قد يكفي حتى عيد الميلاد، ووجبة الجاودار حتى السنة الجديدة إذا ما استُهلِكا باقتصاد. قالت إن الاستيطان في أرضٍ جديدة، وهي حركة شائعة في البلاد هذه الآونة، لهي حركة ساحرة مفرِحة. إنها روح المستوطنين. وقالت إن ازدهار البلاد في المستقبل يعتمد على هذه الحركة بما لا يقل عما قدّمته في الماضي. كانت هذه الحركة تُدعى مشاريع خاصة، ويمكنها وحدها التغلب على مختلف النزعات السياسية المؤذية، التي أصبحت الآن للأسف أكثر شعبية في المدن الساحلية، والتي تهدف إلى الحط من قيمة الإنسان والهبوط به إلى مستوى

الكلاب، جسديًا وروحيًا. وأضافت أنها تعتبر أولئك الذين غادروا أرضهم إلى المدن أرواحًا تائهة؛ ولا شيء ينتظرهم سوى الفساد. وتساءلت: «أنّى لذي عقلٍ سليم التفكير بالتخلّي عن الزهور الغالية الحبيبة أو الجبال الزرق التي تسمو بقلب الإنسان إلى الجنة؟ وعلى الصعيد الآخر، أولئك الذين يكبحون أنفسهم ويصمدون هم رجال الله الصادقون، إنهم يتكفّلون بالحياة ذاتها، ويتعهدونها بكل ما هو طيب وجميل. على المزارع في واديه يرتكزُ نماء الأمة الأيسلندية ورقيّها، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا».

«نعم»، قالت روزا، «إنه لأمر حسن أن يكون المرء مستقلًا. الحرية أهمّ من كل شيء».

سُرّت الشاعرة أيما سرور لسماع مثل هذا الرأي، كانت تلك طريقة التفكير الصحيحة، ولا يمكن لأبّهة الحياة في المدينة ولا لمظاهرها أن تُقارَن بطريقة التفكير هاته. ههنا كانت امرأة نظرتها الروحية موجهة برصانة إلى أسمى ذرى المثالية، ولم تروّعها الغرائب، فقد عرفت جيّدًا أن قصص الزيارات الشبحية لأراضي المستنقعات هنا ما هي إلا حكايات شعبية خرقاء اختلقها أناس تعساء خوّافون غير مستنيرين عاشوا قبل مئات السنين. قالت إن قهوة امرأة الوادي رائعة حقًّا، ولكن إن كان من شيء تحسدها عليه أكثر فهو غرفة المعيشة الصغيرة هذه حيث جميع الأعمال المنزلية تحت أنظارها؛ بينما هناك فرق كبير في السعي في المنازل الكبيرة، لا أحد يعرف الليالي الطوال المؤرقة التي ترافق المنزل الكبير. كان لديها ما لا يقل عن ثلاث وعشرين حجرة في منزلها، وروزا شاهدة على هذا من أيام خدمتها فيه هي أيضًا، ولديها أكثر من عشرين شخصًا لرعايته، كانوا أشخاصًا من مختلف الأعمار والطِباع، مثلما تقتضي سنّة الحياة، وقالت الشاعرة: «عليها أن تنفق كل دقيقة في الجري على هؤلاء الناس، والانتباه إلى الخدم غير الموثوقين، والحفاظ على العلاقات السلمية والمتناغمة، ومحاولة نشر الضوء والعطر على حياة مجتمعها الصغير». وأضافت: «إن رغد العيش في الريف لا يكمن في امتلاك منزل كبير، وإنما بامتلاك بناء صغير، وفدادينَ بسيطة، ودار متواضعة. ولماذا؟ هذا ما أعتزم إخبارك به يا عزيزتي. إنه مثلما أشار إليه الشاعر الشهير: «نعمة الزواج تخلقُ ملاذًا، والحِمى يتجمّعُ من

كلّ عواصف القدر، ثمّ يبدأ الأطفال قرّة العين بالقدوم، لا للتضييق وإنما لإضفاء مزيد من البهجة. وأنتِ يا عزيزتي متى تتوقعين قدوم طفلك، إن كان يحقّ لي السؤال؟»

هذا السؤال غير المتوقع أوقعَ امرأة الأراضي البراح في ارتباك مفاجئ. طافت نظراتها الشريدة على كل مكان ما عدا الشاعرة، ولم تحِر جوابًا؛ وحينما أقدمت امرأة الوكيل على لمسها، قفزت واقفة على قدميها، كما لو أنها ظنت أن هذه اللمسة أقرب ما تكون إلى الفاحشة، وانسحبت من متناول اليد ثم حملقت فيها بإمعان بعينين جامحتين ملآنتين همجية لا مبرر لها بالقياس إلى عذوبة المحادثة الأخيرة. كان من الصعب التكهن بما وراء هذا اللغز؛ هل كان الخوف؟ أم الكراهية؟ أم إنها مجرد بلبلة لا عاطفة فيها؟ أم كلها في آن واحد؟ ومع ذلك، كان في نظرتها أمر واحد لا تُخطِئه العين، ألا وهو: «لا تلمسيني!». وكانت أيضًا في هاتين العينين الغريبتين نظرة تشي بكبرياء مشفوعة بنشوةِ انتصارٍ مُتمرّدة، نظرة قد تُفَسّر على هذا النحو: «لا تخافي، لن ألتمسَ منكِ مساعدة قط». وأيًا كان التأويل الذي افترضته والدة إنغولفور أرنارسون، فقد خلّفَ فيها أثرًا مزعجًا ولا ريب. غضّت الطرف عن الأمر، وواجهت صعوبة في الانتقال إلى موضوع آخر. وتحاشت النظر في عيني المرأة الشابة من جديد. وعوضًا عن ذلك، نظرت من خلال النافذة، ولكن لسوء الحظ كان الضباب مُغلِّفا الجبال الزرقاء، ولهذا لم يتسنَّ لها الإشارة إلى كيفية شموخ الجبال بقممها إلى العلياء. كانت حينها مرتبكة لدرجة أنها نسيت حتى أن تعرض على امرأة المزارع الصغير دعمها وتأييدها في الحاضر والمستقبل. وكانت النتيجة أن وجدت نفسها تتكلّف القول بأن كل شيء في الحياة يعتمد على معرفة المرء حقيقة نفسه. حكمة واحدة وكانت قد استعادت توازنها من جديد. بالنسبة لها لم يكن عندها شك بأن الزوج وزوجته قد وجدا نفسيهما في الأراضي البراح. «لقد لاحظتُ بأن الفقراء هم دائمًا أكثر سعادة من أولئك الأثرياء المزعومين، الذين هم في الحقيقة، لا وجود لهم. ومن هم الأغنياء أصلًا؟ هم أشخاص لديهم كثير من الأعمال، وإن أخذنا في الاعتبار كل شيء، فهم لا يملكون سوى القلق؛ من ثمّ يغادرون إلى قبورهم فقراء مثل غيرهم، سوى أن لديهم مزيدًا من

المتاعب بشأن سُبل المعيشة، وسعادة حقيقية أقل. ومن جهتي أقول إن كل سِنتٍ نتمكن من توفيره بشقّ الأنفس يذهب أجورًا إلى العمال. منذ ثلاثة أعوام وأنا أحلم بثوب جديد، ولكنني لا أرى أدنى إمكانية لذلك!»

فقالت روزا بعدم اكتراث: «آه يا عزيزتي»..

قالت السيّدة: «هناك الكثيرون ممن يودّ المرء مساعدتهم، ولكن ينبغي على المرء أن يكبح نفسه أكثر مما يتمنّاه خلال هذه الظروف الصعبة».

قالت روزا: «لدينا هنا وفرة من كل شيء».

هذا الردّ أثلجَ صدرَ امرأة الوكيل، ووجدته مُرضيًا للغاية؛ فعلى مثلِ هذه الروح يستندُ استقلال البلاد. وناجتها قائلة: «أنا غير متأكدة يا عزيزتي إن كنتِ على علمٍ بأنّ زوجي لسنوات عديدة لاقى معارضة كبيرة من مجلس الرعية بسبب بيعه لزوجك بيارتور هذه الأرض. كما تعلمين، لقد طمحَ إليها سنة وراء سنة. إلا أنهم أكدّوا في مجلس الرعية أن بيارتور لن يكون قادرًا على إعالة زوجة وعائلة، وأنه من المحتمل أن يكون بين يديهم قريبًا حشد من الأطفال من حقلٍ صغير مهجور، ذلك أنهم أصبحوا معتادين هذه الأيام على وِفادة عائلات بأكملها لإعالتها في الأبرشية. وقدرة الأشخاص القلائل على دفع الضرائب ممن يملكون شيئًا هي دون الصفر؛ وفي هذه الحالة تزداد الضرائب التي تقع على عاتقنا نحن، أي الأشخاص الذين يُسمّون بالموسِرين، تزداد عامًا إثر عام. ثمّ نحو نهاية الشتاء المنصرم بدأوا في البلدة في ميري يتهامسون بشأنك أنتِ وبيارتور، ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى عُقِد اجتماع في مجلس الرعية هناك، وحينها واجهتُ الموقف بجرأة وبسالة، وقلتُ: «لا تخافوا من بيارتور. إن لم تكن ابنة العزيز الشيخ ثورثور نيثوركوت امرأة كفؤًا لكي تحقق ذاتها في الأراضي البراح، وأن تساعد بيارتور أيضًا في العثور على ذاته، حينئذ ثمة شيء وحيد أعرفه حق المعرفة، ألا وهو أنه قد آن الأوان بالنسبة إلي أن أرتجي غوث الأبرشية شخصيًا، وسيكون ذلك في الحين والتوّ. لأنه لو كان في الرعية بأسرها رجل مؤتمن وكادح، فسوف يكون شيخنا الفاضل ثورثور نيثوركوت، ذلك الروح النبيل المسنّ السبّاق دومًا ليكون أول من يدفع ما عليه من ضرائب، يُخيّل

إليّ أني أراه الآن ماثلًا أمامي، كحاله دائمًا كل هذه السنوات عندما يأتي للبحث عن زوجي، وماله في جيبه. يضع قبعته تحت الكرسي ويحلُّ دبوس المشبك على جيب صديرته، ويسحب محفظته الملفوفة بمنديلين، واحد أحمر والآخر أبيض. مثل هؤلاء الناس لا يلتمسون العون من أحد. وبيارتور -الذي أعرفه مثلما أعرف نفسي- قد لا يكون من طلّاب المال، أو جَشعًا في الكسب، أو متملّقًا، لكنه بكل تأكيد شخص مستقيم كل الاستقامة وجدير بالثقة، شخص لا يحتمل فكرة أن يكون مدينًا لأحد. مثل هؤلاء الناس لا يتواجدون في المقاطعة. هؤلاء الأشخاص هم جوهر الحياة الوطنية».

لم تُجِب روزا بأي شيء. كل هذا حدثَ بعد وقتٍ وجيز من لقاء الشاعرة بخادمتها السابقة في ركنٍ من الكوخ، حيث لم تتوقع رؤيتها، في ساعة كان من المفترض أن تكون موضع إدلاء تعليقات كبيرة، ولكن رغم ذلك، لم يَخفَ على روزا أن امرأة الوكيل أصيبت بخيبة أمل إلى حدٍّ ما إزاء عدم الاكتراث الذي أظهرته حيال أخبار الدور، الدور الهام جدًا، الذي أدّته لإقناع المجلس للسماح لبيارتور بشراء الأرض. بعد مدة وجيزة، نهضت الزائرة وبعد تقبيلها محبوبتها شاكرة إياها على قهوتها، أرخت الخمار إلى أسفل ذقنها، وامتطت صهوة حصانها سوتي.

***

14. الوداع

بعد الجولة الثانية من طِراد الماشية ذبحَ بيارتور نعجة كبيرة في السنّ من أجل البيت، وَملّحها في برميل خشبي. وقرر أن هذا اللحم يجب أن يُحفظ على سبيل تغيير نوعية الغذاء للاحتفال بأيام الآحاد والأيام البارزة خلال فصل الشتاء. إلا أنه من حين إلى آخر، قدّمت له روزا في أيام الآحاد شرائح لحمٍ طرية على نحو مذهل، وكان يعلّق بالقول كم هي سائغة ولذيذة، خلافًا للعادة، نِسبة إلى نعجة مُسنّة مستنفدة!

والآن حين لم تظهر الشاة غولبرا ذات العام الواحد في جولة جمع المواشي الثانية بدأ يساوره القلق بشأنها، وقدّر مختلف الافتراضات، استنادًا

إلى فرضيات جمّة، فيما يتعلّق بمصيرها. وفكر بأنها على الأرجح قد ذُعِرت من أسرها وشردت جنوبًا باتجاه الجبال الزرق، متجاوزة نطاق البحث. وسأل زوجته مرارًا متى رأت الشاة آخر مرة، غير أن الردّ الوحيد هو أنها شردت بعيدًا عن الأنظار عبر المستنقعات.

من ثمّ حانت الجولة الثالثة من طِراد الماشية، إلا أن بيارتور صاحب البيت الصيفي استعاد جميع أغنامه ما عدا هذه النعجة الوحيدة. وطفِقَ يشعر بوجود شيء غريب وراء كل ذلك، وأضنى عقله التفكير. إنها القصة القديمة للشاة المفقودة.

قال: «تلكَ الفاخرة الباهرة من بين جميع المخلوقات، اللؤلؤة النفيسة من بين الحيوانات. فكري في سلالة القس غودموندور الغَرّاء المفخّمة، اللحيمة المحترسة، بقرونها الملفوفة، وتلك النظرة المتشككة الصارمة، المستقلة تمامًا عن بني الإنسان. مثل هذه الأغنام كمثل بنات الملوك في الجبال، مميزة للغاية في مظهرها. ومع ذلك ليس التبختر ولا الحذر ما يشتّ بها عن الطريق ويدفعها إلى مسارات ضالة، وإنما العنفوان هو الذي يحدو بها للبحث عن الأفضل وإيجاده».

وعندما كان يخلع ملابسه ليلًا قال: «يا إلهي، أتمنى أن أحلم بنعجتي الصغيرة غولبرا هذه الليلة».

عقّبت زوجته قائلة: «لكنك لا تؤمن بالأحلام يا بيارتور».

فأجاب من فوره بحدّة وامتعاض: «أؤمن بما يعجبني! أؤمن بكل ما يبدو معقولًا وذا معنى، لكني لا أؤمن بالأحلام التي تؤدي بك إلى توتر الأعصاب والحماقات المضحكة للغاية». وأولى زوجته ظهره متضجّرًا.

حينما استيقظ في صباح أحد الأيام كانت أمنيته قد تحققت.

قال: «عندي شعور بأنها ما تزال حيّة تُرزق. أظنُّ أني رأيتها في وادٍ صغير بهيّ، حيث الأعشاب لم تزل خضراء يانعة. اللعنة، فقط لو كان بإمكاني التذكر أين كانت، ذلك أني في الحلم كنتُ واثقًا بأني أعرف ذلك المكان، وبأني قصدته من قبل. ومع أني حاولتُ جاهدًا، لكني بطريقة أو بأخرى لم أتمكن من الصعود إلى التلة لتحديد الاتجاه الذي سأسلكه، مع

أني كنتُ أعلم على وجه اليقين أنها في بقعة ما بالقرب من الينابيع الساخنة جنوب الجبال الزرق. لكنني تعرّفتُ على الشاة. لقد كانت شاتي غولبرا وليست سواها».

«يا عزيزي أنا»، قالت زوجته، وقدّمت لهُ مع الخبز ضِلعًا، من بقايا غداء الأحد، من النعجة التي كان يحلمُ بها.

كان الخريف يتقدم تقدّمًا ملحوظًا؛ وحلّ المطر المتجمّد محل أمطار الخريف المبكرة. كانت التلال مغطاة تقريبًا بالثلوج، وكانت المروج مبقعة، وكان الجبل القريب من المنزل أبيض اللون إلى أسفله وحتى منتصف الانهيارات الصخرية. إلا أن الطقس كان رغم ذلك ما يزال مقبولًا نوعًا ما. كان في الجوار مرعىً وكانت الأغنام ما تزال في الخارج؛ وكان قطيع بيارتور وخراف مزرعة روثسميري ترعى معًا على مسافة بضعة أميال غربًا. في بعض الأيام كانت الشمس تسطع فتذيب الثلوج على الجبل القريب من المنزل، لكن الصقيع بقي على حوائط الوديان الشرقية.

أدلى صاحب البيت الصيفي بملاحظة: «الجو اليوم صافٍ بما يكفي للبحثِ عن صغيرتي غولبرا».

من ثمّ هبطَ الصقيع بشدّة. ذات صباح، كانت أسطح المستنقعات بيضاء اللون بسبب طبقة رقيقة من الجليد، وكانت الأعشاب المنحلّة مكسوة بالصقيع. وقد ظهرت على الجدول المجاور للبيت أيضًا شظايا دقيقة من الجليد، ومن دونها فقاعات صغيرة من الماء تبقبق دونما انقطاع. ياه، كم كان رائقًا صافيًا، جدولهم الصغير، وهو يتدفق بين الرُقاقات الكريستالية! وقفتْ على الضفة محدّقة في جدولها الصغير البارد، ومصغية إلى خريره؛ سينمو طفلها بالقرب من هذا الجدول، مثلما ترعرعت هي بالقرب من جدول بيت ذويها.

«والآن يا حبيبتي»، قال بيارتور، «لُفّي لي كِسرة أتبلّغ بها، تكفي لثلاثة أيام. أفكر في المشي قليلًا عبر المستنقعات إلى الجنوب».

كان ذلك بعد أسبوعين من حلول فصل الشتاء.

«لا تكن أحمق»، قالت روزا، «أنا متأكدة من أن الشاة قد سقطت في مكان أو آخر».

«سقطت؟»، كرر بيارتور بانزعاج كبير. «صغيرتي غولبرا؟ سُلالة القس غودموندور؟ كما لو أنها كانت تعاني من نقص في التغذية، شاتي ذات العام الواحد، لا بدّ أنكِ جُننتِ يا امرأة!»

قالت روزا: «إذن، قد تكون أصيبت بآفة أو وباء».

«كلا، لم تُصب بآفة. كفاكِ هراء».

«ولكن انظر أيّ شهر نحن فيه يا رجل. لا يمكنك التكهن بحالة الطقس الآن».

«أوه، لن تكون المرة الأولى التي أجوب فيها المروج في مثل هذا الوقت من العام، أو حتى بعد هذا الوقت، وكان ذلك من أجل خراف الآخرين. حينها لم يأسَ أحد عليّ، ولم يكن من سبب يحتّم عليهم ذلك».

قالت امرأته متبرمّة: «بالطبع أنت لا تأخذني بعين الاعتبار».

«أوه، الطقس دائمًا جيد في السرير».

«يجب أن تخجل من نفسك لقول مثل هذه الأشياء».

أجابها بعناد: «لا نفع من كلامك هذا الآن. وكما هو مذكور في الكتاب المقدّس، إن فرحة السماء والملأ الأعلى بخروفٍ ضالٍّ عُثِرَ عليه يفوقُ فرحهم بمائة خروفٍ [1] في أحسن أحوالها».

«ولكن ماذا لو كانت ميتة بسبب آفة؟»

أجاب: «لن يرتاح ضميري ويصفو من القلق ما لم أبذل قصارى جهدي لمعرفة ما إذا كانت حية أو ميتة أولًا. ولكن ربما ترغبين في رؤية ضميري يموت من الآفة؟»

«ولكن ماذا لو ألَمَّ بي مرضٌ في غيابك؟»

«أوه، من غير المحتمل أن يستولي عليك المرض، ليس بعد على أية حال».

«وماذا لو فُقِدتَ في عاصفة ثلجية؟»

قال: «والآن يكفي. لقد سئمت من الاستماع إلى ثرثرتك الجنونية هذه.

1- مَثَل الخروف الضّال: إنجيل لوقا (15 :3-7). متى (18: 14-12).

مهما حدث بإمكانك دائمًا طمأنة نفسك بأن الخراف في المراعي المجاورة. حسنًا والآن، أطعمي الكلبة قدر استطاعتها. وصرّي لي في قطعة من القماش شيئًا من البودينغ الأسود[1] وسجق المِعلاق. وبعض القهوة الباردة في قارورة لن تكون فكرة سيئة أيضًا، ويمكن أن تكون ثقيلة قدر الإمكان».

جلست المرأة تفكر فترة من الزمن، ومع أنه كان في مكنتها بتُّ القضية بكلمة واحدة منها، فإنها لم تستخدم هذه السلطة تكبّرًا وغرورًا، وعوضًا عن ذلك عمدت إلى استخدام التهديدات التي كان من شأنها أن تثنيه عن البقاء في المنزل.

«إذا تركتني هنا بمفردي يا بيارتور سأذهب وأمكث مع شخص آخر».

«شخص آخر؟ من المؤكد أنك لن تُدنّي نفسك إلى ذلك المستوى، وأنت امرأة مستقلة؟»

«سأذهب على أية حال».

«لا شك عندي، حالما ركبت رأسك كما البغل الحرون. عِناد الأغنام لا يعتبر شيئًا بالمقارنة مع عناد امرأة».

«أنت تعرف الحالة التي أنا فيها وأنني أنتظر طفلًا».

«أعرفُ أمرًا واحدًا فقط: أن طفلي لا تُتوقّع ولادته إلا إلى ما بعد السنة الجديدة. أما أطفال الآخرين فلا شأن لي بهم».

«أشعر بركلاته منذ زمن طويل، على أية حال».

«ربما، ولكن الأمر لا يعنيني».

ومهما أكثرتْ من الجدال، لم يكن لشيء أن يزحزح بيارتور عمّا اعتزمه قيد أنملة. ارتدى زوجين من الجوارب، وسترتين صوفيتين، وعندما لم تُبدِ زوجته أية علامات على حزم طعامه، قام بالمهمة بنفسه، بينما جلست بالقرب من الفرن موليةً ظهرها له. بالإضافة إلى ذلك، لم يخطر لها الاعتراف بأنها

1- البودينغ الأسود: نوع من أنواع سجق الدم المشهورة في بريطانيا العظمى وإيرلندا وفي أجزاء أخرى من القارة الأوروبية. تُصنع من دم ودهن الخنزير وتضاف إليها الحبوب كالشوفان، والشعير.

أكلت الشّاة. تجوَّل في الأرجاء لبعض الوقت، وتشاغلَ بهذا وتلهّى بذاك، كما لو كان ينتظر أن تعود إلى رشدها، وتمتم بضعة أبيات من الشعر، إلا أنها لـم تعد إلى رشدها وظلّت جالسة بلا حراك.

«حسن»، قالَ في آخر المطاف، «لا يمكنني التسكع هكذا لوقت أطول. لقد تأخرت».

جلست ورأسها متدلٍّ، ولم تزل هامدة بلا حراك.

مرة أخرى تفقّد سيور حذائه، شتمَ قليلًا، ضغط على السقف والعوارض الخشبية ببراجم أصابعه، كما لو كان هنالك خطر يتهدد المنزل بالانهيار، ومن جديد اقتبس بضعة أبيات من الشعر.

قال: «حسنًا، هذا لن يأتي بنتيجة!»

لا جواب، لا حركة.

«إذن، ربما من الأفضل أن أترك الكلبة معك. ففي كل الأحوال لا أظن أن هناك كثيرًا من الأغنام لسوقها».

سكوت.

«إذن سأترك لك الكلبة، ولن تفكري في الخروج وبجعل نفسك عبئًا على الناس. لا تنسي أنك زوجة مالكِ أرض».

صمت مستمر.

ثم صاحَ وقد نفدَ صبره: «يا ألطاف الله! لم بحق الجحيم عليك التصرف ككتلة من لحم الضأن الميْتة؟ كما لو أنه لا وقت يكفي في القبر كي تبقي فمك مغلقًا!»

هبط الدرج مبلبل الخاطر ونادى على الكلبة، ولاحظت على الفور أنه ذاهب إلى مكان ما، وكانت مبتهجة للغاية من احتمالية مرافقته. ومع ذلك، عندما ناداها إلى الداخل، داخَلها شكٌّ وأبَت الانصياع، إذ لا شيء يهمّها أكثر من أن تحبس في الداخل بينما سيّدها في رحلة.

هتفَ بيارتور: «ها هي ذي في الداخل معك. أنتن النساء من الأفضل أن تبقينَ معًا».

وبينما هو يخطو راحت تراوغه وتتملّص منه بجملة من الحركات

السخيفة المتذللة؛ أرخت ذيلها بعض الشيء ولكن ظلت تهزه، وأخذت تدور من حوله، وأرجعت أذنيها إلى الخلف، وَنَبحت. في الأخير، جثمت على العشب المتجمّد، وأنشأت تئنُّ كما الطفل الرضيع، بعدئذ، استسلمت بالكلّية، وانبطحت على بطنها وخطمها في الأرض، وأخذت ترمشُ بعينيها وهي تشاهده يقترب منها. وحينما كان على مقربة منها بعض الشيء، تقلّبت على ظهرها وأنشبت مخالبها مرتجفة. أخذها تحت إبطه، وحملها إلى المنزل، ورفعها من جلد رقبتها عبرَ فتحة الباب الأرضي. استلقت هناك على الأرض، لم تعد تظهر أي عناد، لكنها كانت لم تزل ترتجف.

قال: «هاكِ يا روزا. هي ذي كلبتك. يجدر بك أن تبقيها حبيسة وإلا اقتفت أثري. وداعًا، إذن، يا محبوبتي. وَعِديني بأنكِ لن تُخزيني مع مجلس الرعية اللعين بلجوئك إلى أشخاص آخرين!»

التقفَ صرّة طعامه وعصاه، وَقَبّل زوجته قبل أن يغادر، وقال: «وداعًا، يا زهرتي»...

حينما استشعرت دفء وداعه رقَّ قلبها سريعًا لدرجة أن الدموع فَرَّت من عينيها قبل أن يتسنى لها الوقت للنهوض وَتَقبيله. همست «وداعًا»، ورفعت يدها إلى عينيها ومسحتهما بكمّها. كانت تيتيلا ما تزال مستلقية بجانب الباب الأرضي باسطة الذراعين.

هبطَ درجات السلّم فأصدرت صريرًا، وأوصدَ فتحة الباب الأرضي من ورائه، ثم الباب الخارجي. انطلقَ هرولة عبر المستنقعات، المبيضة من الصقيع، واتجه جنوبًا نحو الأراضي البَراح.

***

15. البحث

عرفَ بيارتور صاحب البيت الصيفي كل فَجٍّ وكل زاويةٍ في مراعي الجبال البعيدة –حيث ما يزال بالإمكان العثور على الأغنام عقب جولات طِراد الماشية الأخيرة– أكثر مما عرفها غالبية الناس. كان قد أمضى طفولته على المنحدرات الشرقية لهذه الهضبة الفسيحة الخَضِرة، وعلى تخومها

الغربية عمِلَ راعيًا طوال سنوات صِباه، وفي إحدى وديانها يعيش الآن بِوصفهِ مالكَ أرض، لذلك كان بِها خبيرًا من الربيع حتى أواخر الشتاء، في شذاها وشدوِ طيورها، في الصقيع والسّكون، ومن خلال رحلات لا تُحصى في البحثِ عن الأغنام التي أدنتهُ منها ووحّدتهُ بها. غير أن للمروج المرتفعة قيمتها عند هذا الرجل بغض النظر عن القيمة العملية والاقتصادية. لقد كانت أمّه الروحية، كنيستهُ، عالمه الأجود والأسنى، كما ينبغي أن يكون المحيط للبحّارة.

حينما كان يسير عبر الأراضي البراح في الأيام الصافية الباردة أواخر الخريف، ويُجيل النظرَ في الفَلاة، في مداها غير المطروق، ويحسُّ بريح الجبال الباردة النقية تنفح وجهه؛ كان إذ ذاك يختبر جوهر القصيدة الوطنية. وكان يشعر بأنه يسمو فوق كينونة المساكن المألوفة والعادية ويتنعّم بالعيش في إحساس الحرية الرائع الذي ربما لا يمكن مقارنته إلا بهوى الموطن مُتمثّلًا بالأغنام ذاتها، التي كانت ستموت على جبالها لو لم تُرجعها الكلاب عنوة إلى حظائر المزارع. في مثل هذه الرحلات الخريفية، حين يمشي من قناة إلى قناة، ومن قمّة إلى قمّة في النّجد المتماوج، كما لو أنه يسلك درب الأبدية ذاتها، لم يكن من شيء يقلق عين الشاعر المزهوّة الجذِلة. لا شيء يُغذّي قريحة الشاعر بقدر ما تُغذّيها العزلة في الرحلات الجبلية الطويلة. بإمكانه ثَمَّ تكرار الكلمات ذاتها وترجيعها لساعات وساعات بلا توقف، إلى أن يتمكن من صوغها في قصيدة. ههنا، لا شيء يُشتّت العقل عن الشِّعر. واليوم، حينما حَيّا صديقه العتيق نسيم المروج لم يسمح لأيّ وخز عاطفي بخصوص فراقه عن روزا بأن يؤخره زمنًا أطول عن الاستمتاع بالحرية الحقيقية للأرض اليباب. لا شيء أكثر إغواء في الخريف من الهروب إلى البراري، بعيدًا بعيدًا، حيث تأتلقُ الجبال الزرق وتزدان بالفتنة أكثر من أي وقت آخر.

هاجرَ المروج معظم الزوّار الصيفيين المجنّحين، باستثناء طائر الطيهوج لم يبرح بعدُ المكانَ إلى المزارع، وظلّ ليكشُطَ الطبقة المتجمّدة من الخثّ محلّقًا على ارتفاع منخفض؛ ينقنقُ بكثرة، ويرمش بعين فضولية. كما أن غالبية طيور البط طارت إلى شاطئ البحر في الأدنى، أو إلى بحيرات أكثر

دفئًا بالقرب من الساحل، لأن البرك الصغيرة في الأراضي البرية تجمّدت بالكامل، وتأطرت حوافّ الأنهار بالجليد. وقد تُرى في بعض الأحيان بعض الغربان، تخفق بأجنحتها في الأرجاء، وتنعب نعيبًا مروعًا، وقد يكون نعيبها هذا غالبًا علامة مشؤومة على أن شاة، محتضرة أو ميتة كانت، ترقد في مكان ما بالجوار. في هذا الحين، كان ما يزال القليل من الثلج، ولكن البقع الخاوية من العشب كانت مغطاة بقشرة رقيقة من الثلج. في أحد الأماكن وثبَ ثعلبٌ إلى ما وراء رابية، وبعد ساعة أو اثنتين اجتاز آثار عدد من حيوان الرّنّة على الثلج.

في ذلك اليوم استطلع بيارتور واديين، تذكر في أحدهما منحدرات مُحتَجبة يُغطيها نبات الخلنج، وفي الوادي الآخر مستنقعات دائمة الخضرة تطوّقُ ينبوعًا يحتفظُ بنفس درجة الحرارة طيلة أوقات السنة. ولكن في كلا المكانين، لم يكن هنالك أيّ مخلوق حيّ في مرمى البصر، ما عدا سربًا من البط البري في بركة مفتوحة متفرّعة عن النهر المتدفق أقصى جنوب الواديين، بالقرب من المستنقعات. حلَّ الغروب وبالكاد تبقى بصيص من ضوء للبحث عن الأغنام، لذلك توجه بيارتور إلى موقع في الجبال الزرقاء حيث كان يعرف مآوي ليليلة مضيافة، وقد نوى أيضًا تفتيش الجبال في صباح الغد، وبالأخص الكائنة في الجنوب، حيث وديان تربتها دافئة، ومن المعروف أن الأغنام تعيش فيها طوال فصل الشتاء دون أي ضرر. أوّل المساء بزغ القمرُ من وراء الأفق، واجتاحَ بضيائه الأزرق جروفَ الأراضي البراح أوّلًا، فَالوديان، جاعلًا السهول المتربة المغطاة بالجليد تلتمعُ كالذهب. كان صمت المروج مثاليًا. في هذا الصمت، في هذا الضياء، في هذا المنظر الطبيعي، كان الإنسان مثاليًا بانسجامه مع نفسه أيضًا.

في الهزيع الأول من الليل وصلَ إلى مَبيته؛ كهفٌ في جبل «ستروتفيل» مُشكَّل من صخور ناتئة. قعدَ في مدخل الكهف، وتناولَ طعامه قبالة القمر. عندما فرغَ من طعامه، ولجَ الكهف، حيث كانت هناك كتلة صخرية كبيرة مسطحة، مُتموضعة فوق حصى كبيرة الحجم، قد استخدمت منذ زمن سحيق مكان استراحة للمسافرين. تمدد بيارتور على الصخرة للنوم، واتخذّ من صرّته وسادة له. عمليًا، كان المسافر الوحيد الذي يزور الكهف سنويًا

وبصورة منتظمة في هذا الموسم، وقد اكتسب مهارة النوم على الكتلة الصخرية دون التأذّي منها بأيّ طقس، كان مولعًا بهذا المكان. حينما نامَ مدّة جيدة، استيقظ مرتعدًا من البرد. كانت هذه الرجفة من سِمات المكان، ولكن لم يكن من الضروري أن يتعكّرَ صفو المرء في حال عرفَ حيلة التخلّص منها. تنطوي هذه الحيلة على النهوض، والإمساك بالكتلة بكلتا الذراعين، وتدويرها إلى أن يستعيد المرء دفئه ثانية. بحسب العرف القديم، يتعين تدوير الكتلة الصخرية ثماني عشرة مرة، ثلاث مرات في الليلة. كانت تعتبر مهمة جسيمة في أي مبيت آخر، ذلك أن وزن الكتلة لا يقلّ عن ربع طن، إلا أن بيارتور اعتبر أن لا شيء طبيعيًا أكثر من لَفّ الكتلة الحجرية أربعًا وخمسين مرة في الليلة، لأنه كان يستمتع باختبار قوّته على الأحجار الكبيرة. في كل مرة كان يدوّرُ فيها الكتلة ثماني عشرة مرة، كان يشعر بالدفء بدرجة كافية للاستلقاء والنوم مرة أخرى، وصرّته تحت رأسه. لكنه عندما أفاق في المرة الرابعة، كان مرتاحًا تمامًا، وكان الصُّبح قد انبلجَ بالفعل. انطلقَ من فوره صوبَ منحدرات الجبال، وبحثَ في عدّة أخاديد. وحينَ سَخُنَ جسمه من المشي، قعد على صخرة وتناول شيئًا من البودينغ الأسود. بعد أن شقّ طريقه عبر الجبال، وصلَ حوالي منتصف النهار إلى مقاطعة «ريكيادلور». في الوديان هنا بقع كثيرة حيث التربة دافئة، والبخار يتصاعد من الرمال، ولكن لا عيون ماء حارّة هنا؛ على مسافة أبعد قطع أرض كبيرة ملطخة بالأحمر والمياه المعدنية، ينحدر نحوهما من سفوح الجبال شرائط من العشب ونبات الخلنج، حيث توجد غالبًا الأغنام الضالة. هذه المرة، على أية حال، لم يكن من شيء ليُرى باستثناء طائر لم يتعرّف إليه بيارتور؛ ارتفعَ من إحدى البقع الحارّة ثمّ طار، من المحتمل أنه طائر الينابيع الحارة.

قرّر آنذاك أن يسلك طريقه شرقًا كي يبحث في بعض الجداول التي تصبُّ في النهر الجليدي (جلاسيير) بالأدنى، من ثمّ يمضي ليلته في كوخ للرعاة بالقرب من النهر، على حدود الأراضي البور الشرقية، على مسافة بعيدة. لم يكن الصقيع شديدًا، لكن السّماء كانت ملبّدة بالغيوم، وبانقضاء النهار، بدأت تثلجُ بغزارة. كانت طريقه على امتداد ضفة نهر جلاسيير الغربية، فعلى الجانب الآخر كانت المراعي البعيدة لبلدة أخرى، ولكونه نهرًا رئيسيًا

وعميقًا ويتدفّقُ بسرعة من منبعه في جلاسيير، نادرًا ما عُرفَ أن الأغنام تعبره من ضفة إلى أخرى. ولكن عند تعرّجات عدّة من النهر تشكلت مسطّحات، ومن فوقها طبقة سابغة من نبات الخَلْنَج المزدهر، وغالبًا ما تتوارى فيها الخراف حتى حلول فصل الشتاء. هدرَ النهرُ متدفقًا بقوّة، عميقًا وداكنًا تحت رذاذ الثلج، وكان لهُ عَجيجٌ يُسمَع على مسافة أميال من حوله. لطالما أرخت الليالي سدولها، ولكن اليوم صار وقت الضوء أقصرَ بازدياد سماكة رذاذ الثلج؛ انهمرَت الثلوج على الأرض نُدَفًا كبيرة، وخلال مدة وجيزة تراكمَ بغزارة تحت الأقدام، بحيث ساء المسيرُ بسرعة. في الثلج، بدا نهر جلاسيير الخِلو من الجليد يتدفّقُ عبرَ القِفار في برودة مضاعفة.

أدركَ بيارتور أن لا جدوى الآن من محاولة إيجاد أي حيوان في هذا الضوء، فالثلجُ يتعاظم غزارة، ووجه البراري اكتسى بالعبوس. بدأ أيضًا يشعر بالقلق على حملانه التي ما زالت في الديار سارحة في العراء وبالخطورة المحتملة إن وصلَ الأمر إلى هبوب عاصفة ثلجية. لكن في الظروف الراهنة، لم تكن فكرة العودة إلى المنزل من فوق الهضبة مغرية للغاية، بما أن الليل كان يبسط رداءه من فوقه، وكان الطقس يتدهور بسرعة، علاوة على ذلك هو نفسه لم يكن مفعمًا بالنشاط بعد تشرّده طوال النهار؛ ولذلك اعتزمَ اغتنام ظرفه قدر المستطاع والتمسّك بِنيّته الأولى بالتوجّه شرقًا بمحاذاة نهر جلاسيير وصولًا إلى كوخ الرُّعاة، لتمضية الليلة هناك.

إلا أنها خاصية من خصائص الحياة المستغرَبة، أن الصدفة الأكثر استبعادًا، لا الخطّة المُحكَمة المدبّرة، قد تُحدّد في بعض الأحيان مكان مبيت الإنسان؛ وهذا ما صار إليه الآن حال صاحب البيت الصيفي بيارتور. وإذ كان على وشكِ اجتياز أحد الأخاديد الكثيرة التي تخترقُ الوادي على طول الطريق وصولًا إلى النهر، أبصرَ بضعة حيوانات على مسافة قريبة من أمامه تتوثّب بِخفّةٍ أسفل مجرىً مائي ومن ثمّ توقفت عند ضفّة النهر. ولاحظ على الفور أنها حيوانات الرنّة، ذَكر وثلاث إناث. تعثّرت الأيائل لبعض الوقت على الضفّة، الذَّكر بجانب النهر والإناث يلتمسنَ وِقاءً في حِماه، قرونها جميعًا مرفوعة في مهبّ العاصفة، وأكفالها في مواجهة بيارتور، لأن الريح كانت تهبُّ من جهة النهر. وقفَ بيارتور في الأخدود، وأخذ يتفرّس في

الحيوانات بضع دقائق. ظلّت تتحرك وتتبادل الأماكن، لكنها أولتهُ ظهورها دائمًا. كانت بهائمَ رائعة، على الأرجح في ريعان الشباب، لذا ليس من عجبٍ أن خطر لبيارتور بأنه في طريق سَعدهِ تلك الليلة، لأنه لن يكون صيدًا هيّنًا إن تمكن من اصطياد واحد منها فقط. تبدّى لهُ الذَّكر على وجه الخصوص أنه سيكون ذبيحة ممتازة، بالنظرِ إلى حجمه، ولم ينسَ أن لحم حيوان الرنّة من أشهى الأطباق التي شرّفت موائد النبلاء على الإطلاق. وشعر بيارتور حتى وإن لم يعثر على النعجة ستكون الرحلة مستحقة للعناء المبذول إذا ما تمكن الآن من الإمساك بواحدٍ من الرنّة. ولكن على فرض أنه اصطادَ الأيل، كيف سيذبحه دون أن يذهب دَمه سُدى؟ فمن دمِ الرنّة يمكن صنع شطيرة لحم من الدرجة الأولى. أفضل خطة، هذا إن أفلحَ في تحقيق غرضه، هي أن يأخذه إلى المنزل حيًّا، وبناء على هذه النيّة التي وجّه نفسهُ إليها، شرعَ يفتّشُ في جيوبه عن تلك الأدوات التي لا غنى للمرء عنها في رحلته، مُدية وبعض الخيوط، ووجدهما كليهما، شِلّة خيوط جيّدة وسكّين جيبه. وفكّرَ: «سأندفعُ نحوه الآن بسرعة وأُنزِلهُ أرضًا. ثمّ سأغرز رأس سِكّيني في مِنخره، وأُسْلِكُ الخيط في الثُّقب، وأقودهُ من الخيط. بهذه الطريقة ينبغي أن أكون قادرًا على سياقته معظم الطريق عبر المروج، أو على الأقل حتى أصل بقعة يسهل تذكُّرها حيثُ يمكنني تقييده والاحتفاظ به إلى أن أنزل إلى المزارع وأجلبُ رجالًا ومعدّات». كان البيت الصيفي طبعًا، ومن غير ريب، على بعدِ مسيرة يومٍ وليلة. حين أتمّ بيارتور خطة الهجوم، انسلّ شبه منحنٍ في الأخدود بالأسفل إلى أن صارَ قبالة حيوانات الرنّة، حيث وقفت على القطاع ما بين النهر والأخدود وقرونها في مهبّ الريح. تسلّلَ بحذرٍ فوق السواقي، وتَسحّبَ بهدوء فوقَ الضفّة، واسترقَ النظرَ عبر الحافّة، وَقدّرَ أنه لا يبعد عن ذَكر الرنّة أكثر من أربعة أمتار. بدأت عضلاته تشتدّ بإثارة الصيد وشعرَ بقدرٍ معين من الخفقان. تسلّق فوقَ الحرف شيئًا فشيئًا، حتى صارَ واقفًا على الضفة؛ وببطء، ببطء شديد داهمَ الأيل، ومشى بموازاته نصفَ خطوة، وفي اللحظة التالية انقضّ عليه، وقبضَ عليه من إحدى شُعبِ قرونه، من الأسفل قربَ رأسه. لدى هجمة الرجل غير المتوقعة، قفزت الحيوانات قفزة مفاجئة، وطوّحت برؤوسها، وانتصبت آذانها، وفرّت الإناث مباشرة؛

ركضت بطيش بمحاذاة النهر عبر رذاذ الثلج. في البدء اعتزمَ الأيل الفرار بينما كان بيارتور متشبثًا برأسه، كما لو أنه لم يُحدِث أي فارق، لكن بيارتور تعلّقَ به ولم يتمكن الحيوان من الإفلات، ومع أنه قذفَ برأسه في الهواء وهزّهُ مِرارًا، فإنه لم يستطع التحرر بهذا أيضًا. سرعانَ ما أحسّ بيارتور بأن تشبّثهُ بالقرن غير مضمون، كان عليه شيء مثل لِحاء الشجر الأملس الذي ظلّ ينزلق من قبضته، وكان الكائن متوفزًا وثّابًا بحيث كان من الصعوبة بمكان تثبيته من أي مكان آخر. ورأى أيضًا، حين جدَّ الجَدّ، أنه يتعيّن عليه التخلّي عن أمله بالقبض على الحيوان من أسفل رقبته بقبضةٍ مصارِعة، بما أن قرونه كانت حادّة للغاية واحتمالية انغرازها في أحشائه ليست جذابة على وجه الخصوص. استمرّ التنازع بينهما حينًا من الوقت، ما بين شد وجذب، تقدّمَ الرنّة تدريجيًا، حتى بلغَ سرعة محتملة وجرّ بيارتور شوطًا بعيدًا باتجاه مجرى النهر. وهناك مرَّت بخاطرِ بيارتور بَغتةً الحيلة التي تعلّمها في الطفولة لاستخدامها مع الأحصنة البرّية: امشِ إلى جانبها، ثمّ اقفز على ظهورها. وقد أفلحت. وفي لمح البصر كان يجلس منفرجَ الساقين على ظهرِ الرنّة، ومتعلّقًا بقرونه. وقال فيما بعد إنه على الرغم من أن هذا النوع من الحيوانات يبدو رشيقًا خفيف الحركة وهو على قوائمه، فإن امتطاء ذكر الرنّة كان هائجًا وعِرًا لم يشهد له مثيلًا من قبل، وفي الواقع، تحتّم عليه التشبّثُ كل الوقت. ولكن لم يكن للسَّفْرة أن تطول. لأن الأيل عندما قفزَ بضعة أطوال مع هذا العبء غير المرغوب به فوق ظهره، أحسّ سريعًا بضرورة اللجوء إلى التدابير اليائسة، ونطَّ نطّة مفاجِئة بزاوية قائمة مع مساره السابق، وانقذفَ مباشرة في النهر الجليدي، وكان من فورهِ يخُضّ المياه التي غمرته.

حسنًا، حسنًا. كان بيارتور قد خرجَ سعيًا وراء شاته الضالة، هذا صحيح تمامًا، ولكن ما يحدث بات شيئًا آخر في طبيعة الرحلة. ههنا كان قابعًا في نهر جلاسيير؛ غارقًا ببساطة حتى الخصر، وليس على صهوة جواد عاديّ، وإنما الجواد الوحيد الذي يُعتبرُ ملائمًا للمغامرات الأكثر شهرة. ولكن أكانَ بيارتور فخورًا بهذا الإنجاز الرومانسي؟ كلا، إطلاقًا. إنه لا يمتلك في اللحظة الراهنة رفاهية التفكير بالسمات المميزة لعمله البطولي أو ندرة حدوثه، إذ كان عليه الحفاظ على توازنه قدر استطاعته فوق ظهر الرنّة. تشبّثَ

بقرونه باستماتة، وكانت ساقاه ملتصقتين بخاصرة الحيوان، يجاهد لالتقاط أنفاسه، ومن أمام عينيه ضباب أسود. جرفت سرعة جريان المياه الحيوان مع التيار لفترة، وبدا لوقت طويل أنه ليس في نيّته بذل أي جهدٍ للرسوّ على اليابسة. في الجانب الآخر من النهر، ظهرت الضفاف السّامقة والحادة على نحو متقطّع عبر الثلج، ولكن على الرغم من دنوِّ الأرض شعرَ بيارتور أنه في وضعٍ يُرثى له، مثله كمثل رجلٍ مُلقى في عرض المحيط على قارب بلا مجاذيف. ما بين آنٍ وآخر كان التيّار يأخذ الأيل، ويجذبه إلى تحت الماء الذي لفرطِ برودته يجعل رأسه يترنّح، ومن ثمّ يبلغُ رقبة الرجل فلا يدري ما الذي سيحدث أوّلًا، ما إذا كان سيفقد وعيه أم أن الأيل سوف يغطس فتكون نهايته. على هذا المنوال حملهما النهر الجليديّ حينًا من الزمن.

***

16. قصيدة البالاد[1]

أخيرًا وبعد طول انتظار بدا الأمر كأنّ الأيل يفكّرُ بالنّزولِ إلى اليابسة. لاحظَ بيارتور فجأة أنهما اقتربا من ضفّة النهر الشرقية، وأنهما الآن على بعد بضع ياردات من التُّخم الجليدي المُسنّن الذي يُشكّل الشاطئ الوحيد. انجرفا مع التيار بمحاذاة الجليد مدّة أطول، ولكن مع ارتفاع الضفاف من الحافة الجليدية في كل مكان بنسبٍ متساوية في الانحدار، أضحت مسألة الهبوط من أكثر المشاريع كراهةً. وعلى الرغم من ذلك شعرَ بيارتور بأن مسلكه الأنسب، إذا ما اقتربَ الأيل من اليابسة بصورة كافية، سيكون باقتناص الفرصة وإلقاء نفسه في الماء، ومن ثمّ محاولة سحب نفسه إلى الأعلى فوق الجليد، لأن البقاء في الماء البارد باتَ أكثر مما يمكنه احتماله. ولقد أدركَ، بالطبع، بأنها ستكون قفزةً قاضيةً لا تنتهي إلا في طريقٍ من طريقين. وأخيرًا أتى وقتٌ سبحَ فيه الأيل بضع ياردات وصارَ على بعد نصفِ

1- البالاد: Ballad قصيدة غنائية من ثلاث مقاطع، وتسمى أيضًا بالقصيدة القصصية أو القصة الشعرية، حيث إنها تتناول واقعة قصة شعبية، وهي أقصر من الملحمة، وتحفظ وتنشد. كما تُعتمد البالاد في مختلف الأنماط الموسيقية وتعود عادة لمؤلفين مجهولين، وتنتقل من جيل إلى جيل.

ذراعٍ من الجليد، تحيّنَ الرجلُ فرصته، وأفلتَ قرون الأيل، ورفعَ نفسه من الماء بمشقّة عظيمة، ثمّ تعلّق حتى منتصف جسمه بالجليد؛ حينذاك افترقَ بيارتور عن الأيل، ولم تقع عينه عليه بعد ذاك، مع كرهٍ أبدي لكل هذا النوع من الحيوانات.

مرّت لحظات، في ذلك الحين ولاحقًا، باغتهُ فيها هاجسٌ بأنّ غزال الرنّة لم يكن إلا الشّيطان كولمكيلي شخصيًّا!

كان الجليد رقيقًا يتكسّر مباشرة تحت ثقلِ الرَّجُل، بحيث كان على وشكِ الانجراف مع شظايا الجليد؛ ولكن بما أن أيامه لم تكن معدودة بعد تمكّن بطريقة ما من التشبّث بالجليد غير المتصدّع، ونجح أيضًا في النهاية في رفع نصفه السفليّ والخروج من الماء. كان يرتجفُ من البرد من رأسه حتى أخمص قدميه، وكانت أسنانه تصطكُّ، ولا توجد غُرزة واحدة في ثيابه جافّة. إلا أنه لم يشعر بالأمان بخاصّة على هذه الحافّة الجليدية الضيقة، وَهَمَّ في هذه اللحظة بمعالجة أمر تسلّق ضفّة النهر. وكانت هذه بحدّ ذاتها مهمّة خطِرة بما فيه الكفاية، لأن الضفّة لم تكن فقط شديدة التحدّر، ولكنها مغطاة أيضًا بالكتل الجليدية المدلّاة والمتشكّلة من ارتفاع منسوب النهر، وهناك ستكون نهاية واحدة فقط للسقطة إذا ما انزلقت اليد أو القدم. ولأنه كانَ مكدودًا بعد عمله البطولي في الماء، استلزمَ منه الأمر وقتًا أطول من المعتاد للصعود إلى الأعلى، ولكن أخيرًا أتت اللحظة التي كان فيها واقفًا فيها سالمًا معافى على الضفّة الشرقية لنهر جلاسيير، في المراعي البعيدة لبلدة أخرى. خلعَ سترته وعصرها، ثمّ تحرك على الثلج ليجفّف نفسه، ولاحظَ أن الثلج دافء بالمقارنة مع المياه الجليدية. على فترات متقطّعة، نهضَ وأرجحَ ذراعيه بقوّة ليتخلّصَ من الارتعاش. بالتأكيد، استغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى أدركَ كامل الإدراك أيّ خديعة أوقعه فيها الأيل بنقله إياه عبرَ النهر الجليدي. في المقام الأول، لقد ضلّله عن المأوى الذي اعتزم المبيت فيه الليلة؛ ألا وهو كوخ الرعاة على ضفة النهر الغربية. كان هذا في الواقع قمّة العبث. وكان الأشدّ وطأة من ذلك أن يجد نفسه فجأة وقد بُدِّلت وجهته إلى الضفّة الغربية للنهر الجليدي، ذلك أن النهر كان يتدفق في الشمال الشرقي، بينما كان اتجاه بيارتور إلى المنزل يقع غرب الشمال الغربي. ولكي يعبر

النهر سيكون مضطرًا للالتفاف في الاتجاه المعاكس للبيت الصيفي، وصولًا إلى معبر النهر في المناطق الزراعية، وكان ذلك لا يقلّ عن عشرين ساعة من السير على الأقدام، حتى وإن كان مشيًا سريعًا، لأن أقرب مزرعة في وادي جلاسيير كانت على بعد خمس عشرة ساعة على الأقل. ورغمَ أنه كان سيسافر ليل نهار فإن هذه المغامرة التي قام بها سوف تؤخره ثماني وأربعين ساعة تقريبًا في طقس كهذا، وحِملانه لم تزل في العراء.

كان مرهقًا وما لهُ حَيْل، وإن كان راغبًا عن الاعتراف بذلك لنفسه، وكانت ملابسه المبتلة حماية رديئة إذا ما اعتزم دفن نفسه في الثلج في هذا الصقيع الصّلد. صارت نُدف الثلج أصغر وأكثر مَضَاء وحِدّة؛ ما إن تتساقط حتى ترفعها الريح العاصفة مجدّدًا، وتتعقبها على الأرض لتتكدّس في أكداس حتى مستوى الركبة، هشّة سُطوحها كما الزَّبد. ظلّت ملابسه الداخلية غير متأثرة بالصقيع طالما كان يتحرّك، ولكن ملابسه الخارجية كانت مجمّدة متيبّسة، وأهداب عينيه ولحيته متصلّبة من الجليد. كانت قد تبقت في حقيبة ظهره قطعة واحدة من سجق البودينغ الأسود، متجمّدة كالحجر، ونصف واحدة أخرى؛ وكان قد أضاعَ عصاه. كان الليل أسود مُدلهمًّا، وتبدّت الظلماء قاسيةً متراصّة بما يكفي لبترِها بسكّين. عصفت الريح من جهة الشرق ودفعت العاصفة الثلجية في وجه الرّجُل مباشرة وبقوّة. مرّة بعد مرّة، تهاوى من حافّة وَخرَّ في حفرةٍ، وغمرته الثلوج الذرورية حتى الفخذ وتطايرت من حوله كما الرماد. كان عزاؤه الوحيد أنه مهما حدث فلن يضيّع طريقه، فعلى يساره نهر جلاسيير بهديرهِ الهائج المتجهّم.

لعنَ وجدّفَ مرارًا وتكرارًا، وكلما ثارَ وزادَ احتدادًا، تزعزعت ساقاه وصارتا أقلّ ثباتًا، ولكن لكي يشحذَ حواسه، أبقى عقله مُثبّتًا على المعارك الشهيرة عالميًا في القوافي. تلا المقاطع الأقوى واحدًا تلو الآخر، مرات ومرات، واسترسل بوجه خاص في وصفِ الأبطال الشياطين، غريمور جيجر وآندري. وفكّرَ، إنه غريمور من يحارب الآن؛ غريمور الأقل جاذبية من بين جميع الشياطين، ذاك العفريت السليط اللسان في هيئة غول عملاق، الذي كان خصمه على الدوام، ولكن الآن سيُوضع حدّ لهذه الخصومة المستَعِرة، فالسّاحة مُهيّأة للصراع الأخير. في تصوّره الذهني تتبّع غريمور

على امتداد سيرته الشيطانية الشنيعة، منذ اللحظة التي لاقته فيها العرّافة *غروا* على الشاطئ، جبانًا وطافحًا بالإغواء والخيانة؛ وراحَ يصِفُ الوحش بكلمات الشاعر، يجعجعُ، ويذرع الأرض بخطاه الواسعة، مشحونًا بالكراهية الشيطانية وبالشعوذة، ينفثُ النيران من فمه ذي التكشيرة العريضة، منيعًا لا تقهره قوة بشرية:

في مستنقعٍ أو هَور عاشَ الوحش؛
البحرُ تحت سلطتهِ:
بلا خجلٍ يعبُّ دماء البشر
ويلتهم لحمهم المتصاعد منه البخار.

الجروف الصخرية تنشطرُ من أمامه
والأنهار تتفجّر سيولًا
بالسِّحرِ يفلقُ الصخرَ
وكان مَكرُهُ عظيمًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم يكن في قلب بيارتور ذرّةٌ من شفقةٍ تجاه هذا العفريت، وبغضّ النظر عن عدد المرات التي تعثّرَ فيها وانطرحَ أرضًا في الوديان، كان ينهض ثانية مُتجاسرًا مِقدامًا، وبغضبٍ مضاعفٍ يشنّ هجومًا آخر، يعضُّ على نواجذه ويلعن الشيطان وفكّيه اللذين يصرّان غيظًا وشرورًا، وكان مُصمّمًا على ألّا يتوقف قبل أن تُطارَد روح غريمور الطالحة إلى الدرك الأسفل في الجحيم، ويخترقه الحديد المحمّى فيرقص مَن في الأرض والبحر احتفاءً بموته.

مرة بعد مرة تخيّل أنه وضع نهاية لغريمور بكلمات الشاعر الخالدة وأرسلهَ إلى الجحيم وقد علا عويله وصراخه، إلا أن العاصفة الثلجية ما فتِئت تهاجمه بضراوة وغضب لا هوادة فيهما حينما بلغَ قمّة الحيد الجبلي التالي؛ خمشت عينيه وجذور لحيته، وعَوَت في أذنيه بِنزعة انتقامية، وحاولت رميهُ بعنفٍ على الأرض. وكان الصراع على أشدّه ولمّا ينته بعد، كان يناضل على

مقربة من أسياد الجحيم نافثي السّم، الذين اجتاحوا الأرضَ محتدمينَ غيظًا فاهتزّت من صدى اندفاعتهم القبّة السماوية:

رفعَ رأسه الدميم عاليًا
وزأرَ بِعداءٍ مُريع..
وبشفاهٍ سالَ اللعاب منها ولطّخها الزبد،
صبَّ لعناتهِ على هواه..

وهكذا دواليك، مرّة بعد مرّة.

لم يسبق أن أفلتَ أسياد الجحيم أولاء من عقوبتهم المستحقة. ولم يتناهَ إلى سمع أحد أن أيًا من هيركور أو جانجو هورلفور أو بيرنوتس قد غُلب في الصِّراع النهائيّ. وبالطريقة ذاتها لا أحد سيكون بمقدوره القول إن بيارتور صاحب البيتِ الصيفي قد هُزِمَ في حربه الكونية مع أشباح الإقليم، مهما تردّى وزَلّت به القدم في هاويةٍ، أو انقلبَ رأسًا على عقب في أخدود، «طالما بقي نَفَسٌ في صدري، لن تصرعني أبدًا، مهما عَصَفت واشتدّت». في آخر الأمر، وقفَ ثابتًا في وجه العاصفة الثلجية، كما لو أنه يتكئُ على جدار؛ دون أن يزحزح أي منهما الآخر أو يدفعه إلى الخلف. حينئذ قرّر أن يؤوي نفسه في الثلج، وطفِقَ يبحث عن بقعة مُستتِرة في أخدودٍ عميق. جوّفَ بِكفّيه كهفًا في الثلج المتراكم، وحرصَ على تهيئته بحيث يتمكن من الجلوس داخله القرفصاء ويكوّم الثلج حتى أعلى الفتحة، لكن الثّلج كان رخوًا خفيفًا فلم يتماسك، ولأن الرجل كان بلا وسيلة، هارَ الكهف مرة أخرى بكلّ بساطة. ولم يكن قد ارتاحَ طويلًا في كومة الثلج حتى بدأ البرد يتغلغل فيه؛ تزحّفَ إلى أطرافه التخشُّبُ والخدَر، وصولًا إلى أعلى فخذه، ولكن كان الأسوأ من ذلك النُّعاس الذي بدأ يتهدّده، وإغواء النوم في الثلج، الأمر الذي يجعل الموت في العاصفة الثلجية جذّابًا مُستحبًّا؛ لا شيء أكثر أهمية من أن تكون قادرًا على تنحية هذه اليد المغوية التي تلوّحُ لكَ بإغراء وفتنة إلى ممالك الدفء والراحة. ولكي ينأى بنفسه عن غَفلَة الثلج وغَياهبِ النسيان، كان ديدنه إلقاء الشِّعر، أو أنّه فضل الغناء ملء صوته بالشعر الخليع الذي علقَ

بذهنه منذ الطفولة، إلا أن أجواء كهذه لم تكن مواتية للغناء، إذ إن صوته ظلَّ متهدّجًا متكسّرًا، وكان النعاسُ ما يزال يلفُّ وعيه بغشاوته، حتى طافت أمام عين خياله صور بشرٍ وأحداث من الحياة ومن قصائد البالاد في آن معًا؛ لحم حصان فوق طبقٍ كبير يتصاعد منه البخار، قطعان من الخراف تثغو في الحقل، بيرنوتس بورنياركابي مُتنكّرًا، بنات رجال دين مُسرِفات يرتدين جواربَ من الحرير الأصلي؛ حتى إنه في آخر المطاف، وبصورة خارج الإدراك، افترضَ شخصية مختلفة، ووجد نفسه في شخصية غريمور النبيل، شقيق أولفار الجبّار، حين وقعت الزيارة إلى حجرة نومه. سرت الأمور على النحو التالي، كان الملك، والد الأخوين، قد اتّخذ لنفسه زوجة شابّة، ومنذ تقدّمت بالملك السنون، باتت حزينة وتعاني من نقصٍ في المتعة في فراش الزوجية، وصارت فريسة للكآبة؛ إلا أنها في آخر الأمر وقعت عينها على ابن الملك، غريمور النبيل الذي امتاز على جميع الرجال في المملكة، وشَغِفت الملكة الشابّة حُبًّا بهذه الشخصية الأميرية البارزة حتى عافت نفسها الأكل ولم تعد تعرف للنوم طعمًا، واعتزمت في النهاية الذهاب إليه ليلًا في مخدعه. وَتحدثت عن الملكِ المسنّ، والده، بأشد العبارات تهكّمًا وسُخرية:

وما نفعُ نَسْغ سَاقٍ ذاوية
لشابة تفور عروقها الريّانة بالدماء؟
أو ما حاجة امرأة برغبةٍ مُتحرّقة
إلى صُلبِ قَصبةٍ مكسورةٍ كهذه؟

إلا أن هذه الزيارة أثارت حفيظة غريمور، ولم يَرق له هذا الحديث المخزي الصّفيق، لكنه تلكّأ بكياسةٍ في التهرب من الموضوع لبعض الوقت. ولكن..

لا طائل اليوم من التمنّع والرفض،
وقد تعطّلت لغة العقل.
وَتمدّدت على الفراش برِقّة وَطراوة،
عازمة على اللهوِ الشّبِق.

وقبل أن يتسنّى لغريمور النبيل الوقت للاستعداد للدفاع عن نفسه، وقعَ هنا الآتي:

بقوّة ضمّتهُ بين ذراعيها،
مُتّقِدة باللّذة الموعودة؛
شَهد العسلِ قُبلاتها،
من حركاتها اللّيّنة ينسكبُ النّعيم.

ولكن في هذه اللحظة تَنبّه النبيل غريمور إلى عِظَم الخطيئة الحاصلة، وانتفضَ واقفًا على قدميه بغضب، وأقبلَ على الطائشة عديمة الحياء:

نهضَ البطلُ على عجل
وصفعها على وجهها بِحدّة
محتقرًا تلك الفعلة المشينة
وطرحها أرضًا بسرعة.

صاحَ البطل غاضبا،
بينما استلقت متجرّدة من الكبرياء:
«شهوانية أنتِ كما الخنزير،
ما أقَلّ الشرف لديك».

«تبًّا لي، إذن!»، صاحَ بيارتور الذي كان واقفًا الآن في الثلج بعد صَدِّ مُداهنات الملكة الداعرة على سريرِ الغواية. هل سبقَ لأبطال الشعر أن أباحوا لأنفسهم الانغماس في حياة البغاء والخلاعة، والجبن في المعارك التي يتصف بها أولئك الذين يعتبرون أعظم الأبطال في حضن امرأة؟

ثمّ لا ينبغي أبدًا أن يقال إن بيارتور صاحب البيت الصيفيّ قد أدار ظهره لخصومه في ميدان المعركة للمضي مع ملكة مومس قذرة. كان غاضبًا منفعلًا آنئذ. تخبّط في الثلجِ بجنون، جاهدَ بكل ما أوتيَ من عزمٍ وقوّة، ولم

يجلس مجددًا حتى انتصرَ على جميع نداءات الجسد التي استصرخت طلبًا للراحة والنوم، وكلّ ما يلحّ من أجل الاستسلام، ويستدرج كل ذي قلب جبان متخاذل. بعدما كافحَ على هذا النحو حينًا من الوقت أقحمَ السجق المجمّد في سرواله، ودفّأهُ على لحمه، وقضمه من قبضته تحت جُنح ظلمة هذه الليلة الشتوية الحالكة، وأكلَ من الثلج المنهمر بغزارة على سبيل التَحلية.

كانت ليلة طويلة ولا ريب. نادرًا ما تلا كلَّ هذا الشِّعر في ليلة واحدة؛ لقد تلا كلَّ أشعار والده، كل قصائد البلاد التي أمكنهُ تذكرها، قرأ كل نصوصه المتناظرة[1]، في كلا الاتجاهين، بثمانية وأربعين وجهًا مختلفًا، وسلسلة كاملة من القصائد الفاحشة، وترتيلة واحدة كان قد تعلمها من والدته، وجميع القصائد التهكمية الساخرة التي عُرفت منذ عصور سحيقة عن وكلاء مزارع، وتجار، وعُمَد القرى والمدن. من آنٍ إلى آخر كان يكابدُ للنهوض من الثلج وينفض نفسه بقوة من رأسه حتى قدميه إلى أن تنقطع أنفاسه.

في الختام تعاظمت مخاوفه من عضة الصقيع وشعر أن مكوثه ساكنًا في هذا المكان لمدة أطول سوف يكون كارثة كبيرة، ولا بد أنه سيكون مُنهكًا مُستنفدًا بحلول الصباح، ثم إنه لم يستسغ فكرة قضاء يوم كامل دون طعام في الثلج الغزير على بعد أميال من أي مكان مأهول، فقرر آنئذ أن يغادر مأواه وليكن ما يكون! وهكذا شقَ طريقه برأسٍ منخفض في وجه العاصفة، إلا أنه حينما بلغَ النتوء أعلى الوادي شقَّ عليه الأمر ولم يتمكن من مواصلة طريقه على هذه الشاكلة، لذا حطَّ أرضًا على يديه وركبتيه وتقدّمَ في العاصفة الثلجية على أربع، زحفَ فوقَ المنحدرات الصخرية والتلال

1- النص المتناظر: ألفاظ وعبارات تُقرأ طردًا وعكسًا. ويطلق عليه السياق المتناظر أو ما لا يستحيل بالانعكاس أو القلب المستوى، وهو نوعٌ من البيان والتلاعب البديع بالكلمات أو بالحروف، قد يكون في الغالب على صورة جمل متناظرة الأحرف والكلمات، وقد يكون أحيانًا على شكل كلمات متناظرة الأحرف تُقرأ في الاتجاهين من اليمين ومن اليسار فلا يتغير معناها مثل كلمة «نون»، و«توت»، وعبارات مثل النص القرآني «ربك فكبر»، وعبارة «سِر فلا كبا بك الفرس»، وقول الحريري في مقامته المغربية: أس أرملاً إذا عرا – وارع إذا المرء أسا ..إلخ.

مثلَ الدابة، وانقلبَ في قاع الوديان مثل الوتد، أعزل لا حول له ولا قوة، مجرّدًا من الأحاسيس.

في الليلة التالية، بعد وقتٍ طويل من وصوله إلى آل برون، أقربَ مزرعة إلى وادي جلاسيير، آوى إلى الفِراش -كانت العاصفة محتدمة بلا هوادة لمدة أربع وعشرين ساعة كاملة- وما حدثَ هو أن ربّة المنزل أفاقت على جلبةٍ عند النافذة، ما بين دقٍّ وأنين ودمدمة. أيقظت زوجها، واستخلصا أن مخلوقًا ذا عقلٍ، يسير على قدميه ولا ريب، يدنو من منزلهما، وإن كان الزوار آخر ما يمكن توقعه في هذه المزرعة النائية في مثل هذا الجو العاصف. أكانَ إنسًا أم شيطانًا؟ تدثّرَ الزوجان بعجلة بالملابس الضرورية، وأسرعا إلى الباب ومعهما المصباح. وحينما فتحا الباب، هوى من العاصفة الثلجية في الخارج كائن يشبه الإنسان من بعض النواحي فقط؛ ترنّحَ في المدخل مدرّعًا بالجليد من قمة الرأس إلى أخمص القدم، وكان الأنف والفم مغطيين بقشرة من الجليد، ثم أتى ليرتاح في وضعية القرفصاء وأسندَ ظهره إلى الجدار وتدلّى رأسه على صدره، كما لو أن الشّبح الشنيع قد استيأسَ من التنكيل به فزجَّ به أخيرًا عبر الباب وانصفقَ على الجدار؛ ثمّ سطعَ نور البيت على هذا الزائر. كان يلهثُ لهاثًا شديدًا، وصدره يعلو ويهبط ويَعنّ، ويبذل جهدًا ليجلو حنجرته ويبصق، وعندما سأله المزارع من يكون ومن أين أتى، همَّ بالنهوض على قدميه مثل حيوان يحاول الوقوف على قائمتيه الخلفيتين، وقدّمَ اسمه: «بيارتور صاحب البيت الصيفيّ».

في هذا الحين كان ابن المزارع قد صحا أيضًا، وحاول بالتعاون مع أبيه مساعدة الزائر في الدخول إلى الحجرة، إلا أنه رفضَ أية مساعدة من هذا القبيل. قال: «سأمشي بنفسي. سأتبع السيدة مع المصباح». تمدّدَ على سرير الابن، ولزمنٍ قصير لم يجب على تساؤلاتهم، لكنه تمتمَ مثل المخمور، وهمهمَ مثل ثورٍ على وشك الخوار. وقالَ أخيرًا:

«أنا عطشان».

جلبت له المرأة طاسًا من الحليب. رفعهُ إلى فمه وشربه، ثمّ ناولها الطّاس

قائلًا: «شكرًا على الشّراب، يا أُمّ». بيديها الدافئتين أذابت الجليد في لحيته وحاجبيه، ثمّ سحبت ملابسه المتجمّدة، وتحسست بأصابع خبيرة عضّة الصقيع. كان الإحساس معدومًا في أصابع اليدين والقدمين، وكان جلده متحرّقًا بالصقيع، لكنه خلافًا لذلك بدا أنه لم يُصب بأذى. عندما ذابت قشرة الجليد، تمدّد عاريًا في سرير الابن الدافئ ونادرًا ما شعرَ بمثل هذا القدر من الارتياح طيلة حياته. بعدما ذهبت الزوجة لتعِدّ له شيئًا من الطعام، جلسَ كل من الأب وابنه إلى جانبه، أعينهما حائرة، كما لو أنهما غير مصدقين هذه الظاهرة ولا يعرفان تمامًا ماذا يقولان. في آخر المطاف كان هو من تكلّم، إذ سألهما من تحت الأغطية بصوت أجشّ:

«هل خرافكم في الداخل؟»

فأجابا بالإيجاب، وسألاه بدورهما كيف حدث أن حطّت به القدم هنا، على الضفة الشرقية لنهر جلاسيير، في طقسٍ قاتل من شأنه إهلاكَ أيّ إنسان؟

«أيّ إنسان؟»، ردّد متذمّرًا، «وبمَ يهمّ البشر؟ لطالما اعتقدتُ أن الحيوانات تأتي أوّلًا».

واستمرّا في سؤاله.

قال موضحًا: «آه، في الواقع، كنتُ أتمشى بمفردي قليلًا. حسنًا، أضعتُ نعجة، فقمتُ بجولة في المرتفعات فقط لأريح بالي». صمتَ هُنيهة، ثم استأنفَ: «كان يومًا عصيبًا للغاية».

قالا: «ولم تكن الليلة الفائتة أيضًا أخفّ وطأة، إعصار بكل معنى الكلمة».

«بلى»، وافقَ بيارتور على قولهما، «لقد كانت الليلة الفائتة عصيبة أيضًا».

أرادا معرفة أين بات ليلته، فأجاب: «في الثلج!». وتملّكهما الفضول بوجه خاص لمعرفة كيف تمكن من اجتياز النهر الجليدي، بيد أنه لم يعطِ أية تفاصيل. وقال بأسىً: «إنه لأمر حسن أن يعثر المرء على خرافه بعد كل هذا».

فقالا لو أنهما في مكانه لما ضايقا نفسيهما بأمر الخراف الليلة، وسيعتبران أنهما محظوظين لكونهما حيث كانا.

أجاب: «من الواضح يا رفاق أنكم عثرتم على طريقكم. ولكنني أقاتل

من أجل استقلالي. عملتُ ثمانية عشر عامًا من أجل قطيع الماشية الضئيل الذي أمتلكه، وإذا ما كان تحت الثلج، فسيكون من الأفضل بالنسبة إلي أن أكون تحت الثلج أنا أيضًا».

ولكن عندما أحضرت له المرأة وجبة الطعام إلى السرير وأكلَ كفايته، استلقى دون مزيدٍ من الكلام وغرق في النوم، وعلا صوت شخيره.

***

17. العودة

عصرَ اليوم الخامس شقَّ بيارتور طريقه بمشقة إلى البيت عبر المستنقعات، في عمق الثلج الذي بلغَ مستوى الركبة. واستبدّ به شعورٌ واحدٌ ألا وهو عدم الرضا عن نفسه، كان خجِلًا من الرحلة المخزية بل الأشدّ خِزيًا في ظنّه، وكان مُتأرجحًا ما بين الخوف والرجاء بما يخصُّ مصير خِرافهِ في المراعي المحلّية؛ والآن، فوقَ ذلك كلّه، لم يكن ولا حتى بصيص ضوء في النافذة ترحيبًا بعودته بعد أن عاد إلى المنزل أخيرًا، وأما البيت فكان مطمورًا في الثلج ولم تُبذَل أية محاولة لإخلاء الباب أو النافذة؛ ولم يخترق الثلجَ ممرٌّ في أي مكان، ولا خيط رفيع من الدخان يتصاعد من المدخنة. زحفَ إلى السطح، وكشطَ الثلج عن النافذة وصاح: «روزا، هل بإمكانك مناولتي مجرفة من خلال الباب؟»

عَوَت الكلبة من الداخل في غرفة المعيشة عواءً مكروبًا مثيرًا للشفقة، وكان هذا هو الردّ الوحيد؛ وحينما عاود المزارع النّداء على زوجته، وثبت الكلبة إلى النافذة من الداخل وخربشت عليها بمخالبها. حينها بدأ يتساءل ما إذا كانت زوجته مريضة، وخالجه القلق حيال ذلك، وشرعَ بإزالة الثلج المتراكم كَمن بهِ مَسّ من جنون. اضطرَ إلى كشط الثلج بيديه، وكان عملًا بطيئًا، لكنه تمكن في النهاية من إخلاء مساحة كافية حول الباب للدخول إلى المنزل.

حينما بلغَ أعلى السلم قفزت عليه الكلبة بجنون، وراحت تنبح بمرارة، كما لو أن أحدًا يدوس على ذيلها بثبات. كان ظلام الشتاء قد هبطَ مبكرًا،

وكان المكان في الداخل حالكَ السواد؛ والنوافذ مغطاة بالثلج؛ فتعيّن عليه أن يتلمّسَ طريقه. ولكن لم يكن قد خطا خطوة كاملة على الأرض حتى اصطدمت قدمه بعائقٍ غير مألوف. شتمَ كعادته كلّما زلت قدمه؛ ما الذي تعثّر من فوقه بحق الشيطان؟

تطلّب الأمر منه وقتًا طويلًا حتى عثر على أعواد الثقاب، وحينما وجدها تبين أن السِّراج فارغ، والذُّبالة محترقة، والزجاجة مسودّة من الدُّخان. ولكن عندما ملأ السِّراج واشتعل الفتيل من جديد، كان من الممكن حتى في هذا الضوء الشّحيح ملاحظة بعض المؤشرات حول ما حدث في البيت الصيفي أثناء غيابه. لقد كانت زوجته. كانت ترقد على الأرض ميتة بدمها المتخثّر. بدا كأنها قامت من سريرها لهدفٍ ما، وكانت ضعيفة خائرة، فلم تتمكن من العودة إلى السرير ثانية، وانهارت إلى جانب السرير؛ وفي يدها منشفة رطبة ملطّخة بالدماء. حالة الجسد تُظهِر بوضوح ما حدث. وحينما نظرَ في الفراش، حيث قفزت الكلبة فجأة، لمحَ من تحت بطنِ الكلبة وجهًا صغيرًا بُنيًا مائلًا إلى الاصفرار، مُتغضّنًا، وله عينان مُغمضتان، مثل عجوز حديث الولادة، وفوق هذا الوجه سَرَت رعشات طفيفة واهنة متشنّجة، ومِن هذا المسكين عاثر الحظ أتى، إن صحّ ما سمعه، أنينٌ خافتٌ متقطّع.

سَعَت الكلبة جاهدةً لبسطِ نفسها قدر المستطاع فوق الجسم الصغير الذي تولّتهُ برعايتها ومنحته الشيء الوحيد الذي تملكه، ألا وهو دِفء جسدها القذر القَمِل الجائع الهزيل. عندما اقترب بيارتور ليلقي نظرة عن كثب، كشّرت عن أسنانها، كما لو أنها أرادت أن تُفهِمه بأنه هذا المولود لا يخصّه. كانت الأم قد لفّت الوليد المسكين بخرقةٍ صوفيّة حالما قطعتِ الحبلَ السُّرّي، ولا بدّ أنها نهضت من سريرها لتسخّنَ بعض الماء كي تغتسل به، فقد كان على الموقد قِدرٌ مليء بالماء، بردَ منذ وقتٍ طويل فوق النار الكابية. سوى أن الرضيع كان متشبّثًا بالحياة من خلال الحرارة التي استمدّها من جسم الحيوان.

رفعَ بيارتور جثّة زوجته من على الأرض، وبعد أن سجّاها على هيكل السرير الخاوي قبالة سريرهما، مسحَ عنها الدماء ما أمكنه. وتطلّب منه فَردُ الجُثمان جُهدًا غير يسير، فقد كانت أطرافها متيبسة بالوضعية التي

كان ملقى بها الجسد؛ وأَبَت الذراعان بعنادٍ أن تتصالبا فوقَ صدرها، ولم تغمض العينان الباهتتان، وبالأخص العين اليمنى، تلك التي فيها حَوَل. إنه عنادها من جديد!

إلا أن ثقة بيارتور بنفسه كانت أقل فيما يخص الآن الشيء الأكثر أهمية، ألا وهو إذكاء شرارة الحياة المتبقية في الرضيع المولود حديثًا. أوقعه ذلك في مأزق ليس بالهيّن، كان الرجل المستقلّ بحاجة إلى أيادٍ متمرّسة، على الأرجح أيادٍ نسائية، هو شخصيًا لم يتجرأ على فعل أي شيء حيال ذلك، هل وجَبَ عليه إذن أن يطلب العون من الآخرين؟ كان آخر ما أكّده على زوجته هو عدم طلب المساعدة من الآخرين، إن الرجل المستقلّ الذي يلجأ إلى الآخرين التماسًا للمعونة يهبُ نفسه لسلطانِ كبير الأبالسةِ وجَبروته؛ واليوم حُكِم عليه بهذا الإذلال نفسه؛ على بيارتور صاحب البيت الصيفيّ؛ لكنه كان عازمًا على دفع أيّ ثمن يُطلَب منه...

***

18. روثسميري

«حسنًا، على الأقل يمكنك التنقل قليلًا هذه الأيام، يا ولد»، قال بيارتور لنفسه في مساء اليوم نفسه بينما كان يطرقُ باب المطبخ في مزرعة روثسميري.

«إذن ها أنت ذا أخيرًا، أليس كذلك؟»، قال العامل الذي وصلَ إلى عتبة الباب؛ حافيًا مرتديًا جوربيه فقط، وبين يديه قطعة من القماش يتصاعد منها البخار، بدا أنه كان يصقلها[1]. كانت الحِرَف المحلّية على قدمٍ وساق. «حَسِبنا أنك مِتّ!»

«أبدًا، على العكس من ذلك»، أجاب بيارتور. «كنتُ على الجبال بحثًا عن شاة».

1- صقل الصوف أو القماش fulling: عبارة عن عملية صقل القماش الخشن أو الصوف الخام وجعله أكثر نعومة ومتانة وتماسكًا، وخاليًا من الشوائب بنقعه بماء فيه صابون أو غير ذلك ثم يدعك كثيرًا ويخبط بالدوس عليه بالأقدام ويشطف بالماء ويُفرد في الهواء الطلق.

«أأنت متأكد أنك بكامل عقلك؟»، سألَ الآخر.

«فقدتُ نعجةً».

«كما لو أنك تركتَ جميع أغنامك الأخرى للتهلُكة في سبيل مطاردة نعجة واحدة عبر الجبال!»

«حسنًا، قد أكون مخطئًا يا صاحبي، ولكن على حدٍّ علمي يُقال في الإنجيل إن نعجة واحدة في أعالي الجبال تساوي أكثر من مائة في الموطن»، قال بيارتور الذي كان مولعًا بهذه السطور التي تذكر الخِراف في الكتاب المقدّس. «وعلاوة على ذلك، المرء لا يعيش بجوار الزعيم المحليّ هباءً إذا ما ساءت الأحوال الجوّية».

وقد تبيّن أن هذا ما حدث بالفعل؛ ذلك أن رعاة روثسميري ساقوا خراف بيارتور وآووها مع قطعانهم ليلةَ هبوب العاصفة، إلا أنهم لم يتلقوا الأمر من وكيل المزرعة لإرجاعها صباح الغد، والتفقد في نفس الوقت فيما إذا كان صاحبها قد قضى نحبه أم لا. «هل عثرت على النعجة؟»

أجابَ بيارتور: «لا، لم يكن أي شيء لَعين ليُرى، في ما خلا طائر الينابيع الحارّة في منطقة الينابيع جنوب الجبل الأزرق. بالمناسبة، هل عُلِفت الحملان، أم ليس بعد؟»

قال العامل: «آه، بلى، لقد تشممت رائحة التبن بضع مرات»، وأفهمَ بيارتور بأن خرافه الجريئة سوف تتعلم مهارات الأكل سريعًا. وبينما كانا يناقشان المسألة، أقبلت غوندي، مدبرة المنزل، إلى الباب، بما أنها تعرّفت على صوت بيارتور، وطلبت منه حينئذ الدخول إلى المطبخ، وسألته إن كان راغبًا بِسُلطانية من العصيدة وضِلع حصان. قشّرَ الثلج عن ملابسه بِمديتهِ، وَنفضَ قبّعته على عِضادة الباب.

كان مطبخًا كبيرًا، يُستعمل غرفةَ معيشة إلى حدٍّ ما، وكان العمال يعملون على دَعكِ القماش، أو منشغلين بِشعر الخيل، وكانت الخادمات منشغلات بالصوف، وكانت الكلاب مُمدّدة على الأرض، جميعهم أصدقاء بيارتور القدامى، بما فيهم الكلاب. كانوا جميعهم يناقشون أمر العاصفة الثلجية غير المتوقعة، وتأثيرها على المواشي. قالت جماعة النساء: «بوسعنا التكهن

بطقس سيئ في كانون الثاني. بما أنه سَاءَ منذ الآن، ولمّا تأتِ بعد الآحاد الأربعة التي تسبق عيد الميلاد[1]. كيف حال روزا؟»

«واه!»، قال بيارتور بفمٍ ممتلئ، «كان الجوّ فظًّا قاسيًا على الجانب الآخر من نهر جلاسيير، سوى أنني شاهدته أشدّ قتامة في أحيان أخرى».

«على الجانب الآخر من نهر جلاسيير؟» تساءل العمّال بدهشة، «أنت لا تحاول إقناعنا بأنك عبرت النهر الجليدي، أليس كذلك؟»

ردّ المزارع: «وَلم لا؟ العديد من الأنهار يمكن اجتيازها، وإن كانت في أعالي المروج. وقد لا نكون كلابَ صيدٍ تركنُ إلى دفء المواقد كمثلِ كثيرين منكم».

صاحت مدبرة المنزل بإشفاق: «هل تقصد إخبارنا بأنك كنت تتسكع في أعالي القفار، والمسكينة روزا في الحال التي قيلَ إنها عليها؟»

«أنا راضٍ عمّا أفعله، يا عزيزتي غونسا»، أجاب بيارتور وعلى وجهه تكشيرة هازئة، «أنا سيّد نفسي هذه الأيام، كما تعلمين، ولا أقدّم تقريرًا عن تصرفاتي لأحد، وبالأخصّ أنت». ثمّ رمى لحم الحصان الذي أُعطِيَ له لواحد من الكلاب بينما كان يحكي، وأردفَ قائلًا: «ولكن بالمناسبة، هل تعتقدين أن سيدتنا الفاضلة قد آوت إلى سريرها؟»

أطلّت السيّدة تمشي بوقار وثقة، رافعة الرأس عامرة الصدر، وَحَدجت بيارتور بنظرة مُستفسِرة عبر نظارتيها اللتين أعملتا طيّات في الوجنتين السمينتين الحمراوين، ثمّ تحوّلت إلى الابتسامة الفاترة، المتحضّرة المثقفة، الأرستقراطية التي على الرغم من المثل العليا والملكة الشعرية قد بنت سورًا عاليًا وعريضًا بينها وبين هؤلاء الذين تعتمد رفاهيتهم اعتمادًا أقلّ على الرومانسية.

شكرها بيارتور بحرارة على العصيدة ولحم الحصان.

«من المؤكد أنك لم ترسل في طلبي كي تشكرني على مِغرفةٍ من العصيدة»، قالت، دون أن تشير إلى لحم الحصان.

«لا، أوه لا، ليس بالضبط»، أجاب بيارتور. «في الحقيقة، أردتُ شيئًا

1- 1 ديسمبر هو أول يوم من الأسابيع الأربعة قبل الميلاد. Advent.

آخر». كان خَجِلًا من السؤال طبعًا، ولكنه تساءل إن كان بمقدورها مساعدته قليلًا في أمرٍ ما، إذا ما تسنّى له أن يتحدّث معها بضع كلمات على انفِراد. «وعلاوة على ذلك، عليّ أن أشكرك وزوجك من أجل أغنامي التي تولّى رجالكم أمرها أثناء غيابي في البحث عن الماشية».

ألمحت الشاعرة بأنه يجب على بيارتور أن يكون على دراية بما يكفي بأحوال البيت هنا، وبأنها لا تشغل بالها أبدًا بأمر الماشية، ولكنها تترك المهمة لمن كان بها خبيرًا.

قال بيارتور: «حسنًا، أعرف ذلك جيّدًا. وفي الحقيقة عقدتُ العزمَ على إحضارها غدًا، آمل فقط أنها لم تأكل الأخضر واليابس من مخزون الوكيل المسكين الليلة، لكنه في حال افتقرَ إلى المورد، باركه الربّ، بإمكانه القدوم إليّ لاحقًا وفي أي وقتٍ من أجل حمولة كلأ للخراف».

قالت الشاعرة: «أُفضِّل أن تخبرني ما أحوال العزيزة روزا».

قال بيارتور: «نعم، كنتُ سأتطرق إلى ذلك. في الواقع، لقد طلبت رؤيتك فقط لأنه لدي ما أخبرك به. لا شيء مهمّ، طبعًا».

رمقته الشاعرة كما لو أنها توقعت بأنه سيطلب منها شيئًا ما، عندئذ غارت الروح داخلها مثل نجمة متلاشية، بعيدًا في فضاء لانهائيّ متجمّد، وكلّ ما تبقى على الأرض ابتسامتها الباردة.

قالت بمزيدٍ من الحزم: «آمل من أجلك بأنه ليس شيئًا لا يجوز لزوجي سماعه».

«آه، لا»، أجاب بيارتور، «الأمر أقلّ شأنًا من أن يزعج الوكيل، باركه الله».

أرشدت السيّدة بيارتور إلى مُعتَكف وكيل مزرعة ميري «جون»، وهو عبارة عن إحدى أصغر الحجرات في هذا المنزل الكبير. منذ أن تخلّى الزوجان عن عادة النوم معاً، منذ مدة طويلة، صارت السيدة تنام في غرفة منفصلة مع ابنتها الصغرى أودور. كانت حجرة الوكيل الصغيرة هذه والأشبه بِعلّية بائسة خصّصتها الأبرشية لرجلٍ معدَم مع قدرٍ ضئيل من المزايا وتُرِكَ ليواجه مصيره، لولا أحد الجدران، الذي كانَ مخفيًّا تمامًا خلفَ أرفف تحمل مجلّدات المعاملات البرلمانية باللون الأسود، وعليها لاصقة بيضاء

دوَّنَ عليها رقم السنة. وكان السرير، المُثبَّت إلى الجدار، على غرار سرير فلّاح معمول من ألواح عشوائية ومغطّى ببطانية رثّة مِن لونٍ واحد. وكانت على الأرض مِبصقة زرقاء مُزجّجة على شكل ساعة رملية؛ ومن فوق السرير رفٌّ صُنِع بفجاجة وقد وضِعت عليه قصعة حساء مُزهّرة، وفنجان ثقيل من الخزَف الصينيّ، وقارورة مرهم للروماتيزم؛ وقبالة أحد الجدران كانت هنالك منضدة متطاولة موضوعة عليها أدوات كتابة من النوعية الرديئة، وكانَ من دونِ النافذة صوانٌ ضخم؛ ومن أمام المنضدة كرسيٌّ ذو ذراعين مُبتذل عتيق وليس له كساء، ومربوط بخيط حيث انبثقت المفاصل. على الجدار عُلِّقت صورة ذات ألون ساطعة للمسيح على الصليب، وصورة أخرى، ساطعة بنفس المقدار، للقيصر نيكولاس[1]، وروزنامة عليها اسم التاجر في «ڤيك».

كان وكيل المزرعة جون مستلقيًا على سريره ويداه تحت رأسه ونظّارته على أرنبة أنفه؛ كان قد وضعَ جانبًا للتوّ الإصدارات الأخيرة من الجرائد. حيّا زائره بِنَخرة مبهمة، وحرص على عدم فتح فمه لكيلا يخسر شيئًا من عصارة التبغ الثمين الذي كان مكوّمًا في فمِهِ حينًا من الوقت. كان من عادته ألا يبصقها بسرعة، وإنما أن يستخلص أكبر قدر ممكن من الفائدة الفعلية من العصارة التي يمتصّها من كل مضغة من التبغ. كانت ملابسه تشبه ملابس المتسول إلى حدٍّ كبير؛ سترة قديمة قبيحة، رُقّعت إلى درجة باتت فيها بلا شكل، ومثبّتة عند الرقبة بدبّوس مَشْبك. وبالإضافة إلى المجموعة المتنوعة من الأوساخ القديمة التي بقّعت السترة، كانت بعض اللطخات الجديدة من الأتربة وعليها خصلات من الصوف، مما يدلّ على أنه عاد لتوّه من زرائب الأغنام. كان بنطاله مهترئًا للغاية بحيث إن القماش الأصلي لم يعد يُمسِك الرُّقع، وقد انحلّت غُرزه. كما أنه ارتدى زوجين من الجوارب الصوفية المصفرّة، غير المصبوغة، وقد عزز الحذاء المهلهل على قدميه والمصنوع من جلد الخيل فرضية عودته مؤخرًا من جولة تفتيش سابغة في الإسطبلات، وكانت الرائحة أقوى دليل على ذلك. في الملابس والمظهر العام كان بيارتور صاحب البيت الصيفيّ أفضل بكثير من وكيل المزرعة هذا، الشبيه بالمتشرّد.

1- القيصر نيكولاس الثاني: أو نيكولا أليكسندروفيتش رومانوف، عُرف في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية باسم القديس نيكولاس، آخر قياصرة روسيا.

ألم يكن إذن شيء منفرد في الرجل؟ ألم يكن ما يميّزه عن منظرِ المزارع المكدود؟ لقد كان ما يميزه بالتأكيد. على الرغم من عِدّة الصعلكة وسيمائها، لا أحد سيداخله الشك وإن من النظرة الأولى، أن هذا الرجل يحكم الآخرين ويُمسك بزمام مصائرهم بقبضة يده. تغضّنت شفتاه حولَ مضغة التبغ كدلالة لا شعورية بأنه لن يصرّح بشيء قبل أن يمتصّ كل الفائدة منها. العينان الصافيتان الرماديتان الحادّتان على نحو مستغرب، سعة الجبين أسفل الشعر القوي الداكن، الذي وَخَطهُ الشيب من الفودين فقط، القَسمات المُكسّمة المتناسقة للذقن والفكّين، البشرة الشاحبة التي تَشي بحياة مقيمة مستقرّة، وأخيرًا وليس آخرًا اليدان الصغيرتان الرشيقتان، ببياضهما الفاقع؛ كانت هذه جميعًا تجلّياتٍ خارجية لشخصية حاسمة، ولطبيعة أشدّ قوة وتعقيدًا من التي توجد عادة في أولئك الذين يتعيّن عليهم الاعتماد على كدحهم لِكسبِ قوتهم الزهيد.

بسطَ بيارتور كفّه لمصافحة مُستَخدِمه السابق، وأعطاه الوكيل كالمعتاد إبهامه وسبّابته، وأطبقَ على الثلاثة الأخرى في راحة يده، دون أن يَفوه بكلمة. على مدار عقدين من الزمن في مزاولة المهنة ابتكرَ بيارتور أسلوبًا خاصًّا به وحده للتعامل مع الوكيل. بُني هذا الأسلوب على موقفٍ دفاعيّ من شاب لا وزن له إزاءَ مُشرفٍ مُستبدٍّ مريب؛ موقف تطوّرَ بالنضج وبمضيّ السِّنين إلى رغبة عارمة لرجلٍ يسعى بإخلاص وبضمير متيقظ لإثبات وجوده مقابل سلطة أعلى، وتحوّل في النهاية إلى اضطهاد للذات، وجهد وتوتر متواصلين؛ تحوّل إلى مناضلٍ لا يبصرُ سوى قضيته الخاصة ويرفضُ مواجهة الشخصية الأقوى على أرضٍ محايدة.

عرضت السيّدة على زائرها الجلوس على الصّوان أسفلَ النافذة، وأبدت ملاحظة مفادها أن لا أحد يمتلك مهارة الجلوس على الكرسيّ ذي الذراعين سوى الوكيل نفسه.

«أفّ!»، هتفَ بيارتور بِسخط، «وأيّ منفعة يعودُ بها الجلوس لأيّ شخص؟! هناك متّسع من الوقت للجلوس حين يحلّ خَرف الشيخوخة. كنتُ أقول لسيدتي، يا جون، إذا حدث أن نفدت ذخيرتك من التبن نحو نهاية الشتاء بسبب إيواء فتيانك لأغنامي ليالي عدّة، حسن، فقط أرسل لي من أجل حمولة من القشّ في الربيع».

رفعَ الوكيل رأسهُ من على الوسادة ببطء وحذرٍ، بحيثُ أبقى على مضغة التبغ بمستوىً يسمح بعدم تسربّها إلى حلقه، أو انسكابها على شفته السُّفلى، ثمَّ انفرجَ فمه عن شقٍّ صغير للغاية، وحدّقَ به باستخفاف لا يخلو من حُلم، وأجابه: «اعتنِ بنفسك، يا فتى».

هذه النبرة المتساهلة والمشحونة بالتعاطف، رغمَ كونها غير محمّلة بالإهانة قطعًا، هبطت بِالغير على نحوٍ مطلق إلى فئة الحثالة الجديرة بالشفقة، ولطالما انعكست على بيارتور كما لو أنها حفّزت فيه نزعة إجرامية. وقد عززت العدوانية في خُلُقِهِ كل هذه الأعوام شغفهُ بالحرية والاستقلال.

«أعتني بنفسي؟، أجل، يمكنك المراهنة بحياتك على ذلك. اتفقنا، سوف أعتني بنفسي. وأنا لا أدين لك بأي شيء حتى الآن يا صديقي، إلا ما تمَّ الاتفاق عليه».

لفتت زوجة وكيل المزرعة انتباه بيارتور إلى حقيقة أنها فهمت منه أن لديه ما يخبرها به وزوجها معًا؛ فهلّا تفضل وأخبرهما على الفور؟ فالوقت قد تأخر.

قعدَ بيارتور على الصّوان، كما طُلِب منه أن يفعل في البداية، وقال: «امـمـم..»، حكّ رأسه قليلًا، وعَبَس.

«الفكرة هي..»، ونظرَ إليها من طرف عينه، كدأبِهِ حينما كان يتوخّى الأناة والحذر. «في الحقيقة، فقدتُ نعجة».

ثمَّ رانَ صمتٌ طويل، تفرّست في أثنائه في بيارتور من خلال نظارتها بنظرات حادّة. وعندما فقدت كلّ أملٍ بمواصلته الكلام، سألت: «حسنًا؟»

أخرجَ قرن السّعوط، ونقفَ خطًّا طويلًا من السّعوط على ظاهر كفّه.

قال: «اسمها غولبرا. في الربيع الماضي أتمّت عامها الأول، ياللدّابة المسكينة، وكانت شاة من الطراز الممتاز. أنجبتها نعجتكم غيللي، كما تعلمون، واحدة من سلالة «القسّ غودموندور»، التي لطالما آمنت بها أشدّ الإيمان، إنها حيوانات فخمة. تركتها في البيت أثناء الجولة الأولى من طِراد الماشية لكي تؤنس زوجتي، ومن ثمّ، كيف حدثَ ذلك اللعنة عليّ إن كنت أعلم، ولكن لا بدّ أنها ضُيِّعت خلال الجولة الثانية من الطِّراد والثالثة

كذلك. لذلك قلتُ لنفسي، إن أفضل ما يمكنك فعله، يا فتى، أن تمشي إلى السّهوب، وتبحث عن نعجتكَ غولبرا هناك، فكثيرة هي الخِراف التي سعيتَ بحثًا عنها في الجبال جنوبًا بعد جولات الطِّراد الأخيرة بمدة طويلة، والتي بالنسبة إلى أشخاص آخرين وقعت في الخريف الماضي على أبعد تقدير، كما بإمكانكما أن تشهدا على ذلك أنتما أيضًا.

كانت زوجة الوكيل ما تزال تحدّق في المزارع بنظرات متفحّصة، غير متيقنة بعد إلى أين سيفضي كل هذا الحديث!

«وهكذا، مضيتُ باتجاه الجنوب، عبرَ المروج»، استأنف كلامه، «ذهبتُ إلى الجبل الأزرق جنوبًا، حتى إنني عبرتُ نهر جلاسيير».

«عبرت النهر الجليدي؟»، سألت السيدة بدهشة.

قال: «نعم. ولم يكن عبور نهر جلاسيير شيئًا يُذكر فقط لو أنني رأيت أي علامة على مخلوقٍ حيّ! ولكن لم يكن هناك ما يُعثر عليه، سوى طائرٍ في الينابيع الحارة جنوب الجبال، طائر ينابيع حارة على ما أعتقد. وأما بالنسبة لأيّ مخلوق يمشي على أربع، أبدًا ولا علامة، ما عدا ذكر غزال رنّة (الذي لا أصنّفه حيوانًا)، وفي رحلتي هذه غبتُ، يمكنكُ القول، أربع ليال وخمسة أيام. وياللعجب، أيّ ترحيب برأيك قد حظيتُ به هذا المساء لدى عودتي إلى المنزل؟»

كان الزوجان إما عاجزين عن حلّ الأحجية أو غير راغبين بإرهاق دماغيهما فيها، حتى إنّ زوجة الوكيل أوعزت إلى بيارتور أن يخبرهما بالجواب على الفور إن كان يظنُّ أن فيه من الأهمية لسماعه.

«حسن، يا سيدتي العزيزة، لأنني أعلم كم أنتِ مغرمة بالشعر سألقي على مسامعك هذه الرباعية البسيطة، لعلّها تنبئكِ عن أمرٍ سيىء حدث لي حينما أجَلْتُ النظر عند فتحة الباب الأرضي في البيت منذ ساعة أو اثنتين».

ثمّ تلا بيارتور هذه الأبيات:

خائفٌ على قطيعه،

شحيح الضوء الذي أبصره، متجمدة أراضيه،

سقطت الزهرة الوحيدة.

أدارَ الوكيل رأسه في تؤدة كي ينظر إلى بيارتور، ورفعَ حاجبيه كما لو أنه يسأل، لكنه كان حريصًا كل الحرص على عدم فصلِ شفتيه خشية أن يسأل أي سؤال عن غير قصد بلسانه. كانت زوجته هي من أبدت الملاحظة الآتية:

«أرجو أنك لا تنوي إبلاغنا بأن مكروهًا حدثَ لروزا!»

قال بيارتور: «نعم، إن كان قد حدث لها شيء فذلك أمرٌ يفوق قدرتي على وصفه. يعتمد ذلك على الطريقة التي تنظرين بها إلى الأمر. لكنها لم تعد تعيش على أرضي، أيًا كانت العقبى».

«عزيزتنا روزا؟»، سألت السيدة باضطراب. «هل تخبرنا بأن روزا ماتت؟ وهي شابة في مقتبل العمر!»

تنشّقَ بيارتور سعوطه بعناية أكبر، ورفعَ رأسه إلى الأعلى وحملقَ بعينين مُخضّلتين بدموع التبغ، وأجاب بكبرياء: «نعم. وماتت وحيدة».

لدى سماعه هذه الأنباء، جلسَ الوكيل في سريره، وأدارَ رجليه وأنزلهما على الأرض، وظلّ قاعدًا على حافة اللوح الخشبي، استمرّ في اجترار مضغة التنباك مدّة قصيرة، متفكرًا في اللحظة المتعجلة لكي يفرغ فمه من العصارة الملحوظة.

«ولكن هذا ليس أسوأ ما في الأمر»، تلفّظَ بيارتور بنبرة فلسفية، «الموت، في النهاية، هو فقط الدَّين الذي يتعيّن علينا جميعًا سداده، وأنتم كذلك أيها الناس ههنا، شئتم أم أبيتم. إنها هذه الحياة المزعومة التي يجدُ كثير من البشر صعوبة كبيرة في مواءمتها مع محفظتهم. وغالبًا ما يطفو على السطح الأمر كما تعلمون، ومن السخف حقًّا إحداث بلبلة حول هوية الأب، وإن كان من الجيد في بعض الحالات معرفة ذلك. في حقيقة الأمر، لم أحضر إلى هنا الليلة بسبب زوجتي، إذ لا أفترضُ أية جدوى من محاولة بعثِ الحياة فيها الآن، وقد أفضت إلى ما أفضت إليه؛ لقد جئتُ من أجل الصغير المسكين البائس المتعلّق بالحياة بخيوط واهية، هناك تحت بطن الكلبة، واعتقدتُ أنه قد يمكنني سؤالك حول بعض المعلومات يا سيدتي العزيزة».

«إلامَ تلمّح أيها الرجل العزيز؟»، سألته السيدة من فورها، وقد استحالت ابتسامتها وعيناها من خلف النظارة جليدًا. انحنى وكيل المزرعة فوق المبصقة وفرّغَ كل العصارة في دفقة واحدة، ثمّ قلبَ المضغة من تحت لسانه

إلى مؤخرة فكّه، ودفعَ نظارته إلى أعلى قصبة أنفه، وأَحدَّ النّظر في الزائر.

«هل لي أن أسأل ما العلومات التي تعتقد أنك تسأل عنها هنا؟»، قالت الشاعرة مستطردة. «إن كنتَ تقول إن زوجتك توفيت على سرير الولادة وإنّ الطفل ما يزال حيًّا، إذن قُلها بوضوح، من دون لفّ ودوران. غالب الظنّ أننا سوف نحاول مساعدتك كما ساعدنا كثيرين غيرك من قبلك، بلا مقابل. إلا أننا نطالب بمطلب وحيد، ألا وهو أنه لا ينبغي لك أنت ولا لأحد سواك القدوم إلى هنا بتلميحات أو إهانات مبطّنة لي أو لعائلتي».

حينما أحسّ الوكيل أن زوجته استلمت دفّة القيادة في هذه المسألة، استرخى وأخذ مكانه بهدوء من جديد وشرعَ يتثاءب، وكانت تلك عادته عندما يصغي إلى محادثة، ولم يكن فمه ممتلئًا بعصارة التنباك؛ في مثل هذه الظروف كان دائمًا نَعِسًا ويطوف بعينيه في كل مكان بملل واضح. وعلى صعيدٍ آخر، لم تهدأ ثائرة امرأته بالكامل إلى أن أزاح بيارتور كل الشكوك، بصورة كاملة وصريحة، حول قدومه بقصد الاستعلام عن أبوّة الطفل في موطنه في البيت الصيفي.

قال معتذرًا: «إن لساني، كما ترين، معتاد على الحديث عن الأغنام أكثر من البشر. وكانت الفكرة ببساطة أن أسألك إن كان من النافع صبّ بعض قطرات من الحليب الدافئ في حَلقِهِ لنرى إن كان سيصمد حتى الصباح. وسأدفع لكِ كل ما تطلبين، بكل تأكيد».

عندما انجلى سوء التفاهم المؤسف هذا بأسره، صرّحت السيدة، وقد عَنت ما قالته، بأن الفرح الأسمى في الحياة بالنسبة إليها يكمنُ في منح يد العون للضعفاء في هذه الأوقات الصعبة، وفي مساندة المستضعفين، ودعمِ صحوة الحياة.

كانَ قلبها كلهُ له، ليسَ في المسرات فقط، وإنما في الأحزان أيضًا.

***

19. الحياة

وكانَ وعدُ امرأة الوكيل صادقًا.

في نفس الليلة، أرسلت مدبّرة منزلها إلى البيت الصيفي في الوادي على ظهر الحصان مع بضع زجاجات من الحليب، وموقد زيتٍ محمول، وثياب مختلفة للمولود الجديد. وطئ بيارتور الثلج من أمام حصانها في حالة مزاجية تسودها قصائد البالاد، متأثرًا بمغامراته في الأيام الأخيرة.

أول شيء ذكرته القابلة لدى دخولها البيت الصيفي هو الرائحة؛ كانت الحظيرة في الأسفل منتنة بسبب بقايا السّمك والجدران الطينية، بينما كانت الحجرة في الأعلى عابقة برائحة الموت ودخان المصباح، كان الفتيل قد جفّ مجددًا، واللهبُ واجفًا مرتعشًا على وشكِ الانطفاء. طالبت مدبرة المنزل بتجديد الهواء. فرشت غطاء فوق الجثمان على هيكل السرير الخاوي. ثمّ التفتت بعد ذلك للاهتمام بالطفل. ولكن الكلبة رفضت تركه، كانت ما تزال تحتضنه وترعاه؛ كما الأم، وقد أضناها الجوع والعطش، ومع ذلك لا أحد يفكر بمكافأة الحيوان على فضائله. حاولت مدبرة المنزل أن تجرّها بعيدًا عن الطفل، لكنها تظاهرت كما لو أنها تحاول عضّها، لذلك اضطر بيارتور إلى رفعها من قفا عنقها ثم رماها إلى أسفل السلّم. ولكن عندما فُحِصَ المولود، لم يُظِهر أية علامات على الحياة. جرّبت المرأة أن تقلبه رأسًا على عقب، وأرجحته في مختلف الاتجاهات، حتى إنها أخذته إلى الباب الخارجي وأدارت وجهه ناحية الريح، ولكن كل ذلك كان بلا طائل؛ بدا أن هذا الكائن المتجعّد، المُحزِن، الذي بُعِثَ به إلى الدنيا، لا مرغوبًا ولا مُرَحَبًا به، قد فقدَ كل رغبة في المطالبة بحقوقه فيها.

إلا أن مدبرة المنزل هذه التي ترمّلت في شبابها، رفضت التصديق بأن الطفل قد يكون ميتًا؛ هي نفسها تعلم معنى أن تكون محصورًا عند هبوب العواصف الثلجية الهوجاء في الوديان. سخنت بعض الماء على موقدها الزيتي، وكانت تلك المرة الثانية التي أُجريت فيها التجهيزات لغسل هذا الرضيع، وسرعان ما أصبح الماء ساخنًا، وحمّمت المرأة الطفل حتى إنها تركته ممدَّدًا مدّة جيدة في الماء الساخن إلى حدٍّ ما، وأرنبة أنفه بارزة فوق الماء. تساءل بيارتور فيما إذا كانت تنوي غَليَ الكائن الصغير؟ ولكن على ما يبدو لم تسمع ما قاله، ولأن الطفل ما يزال لا تظهر عليه علامات الحياة، أخرجته من الماء، وأمسكته من ساقٍ واحدة، وأخذت تؤرجحه في الهواء

رأسًا على عقِب. بدأ بيارتور يشعر بالقلق بعض الشيء، كان حتى هذه اللحظة قد تابع كل شيء باهتمام فائق، لكن ما حدث أخيرًا استنفدَ صبره، وشعر أنه من الأفضل أن يطلب الرحمة من أجل المخلوق التعيس. سألها: «عليك اللعنة، هل تفكرين بخلع وركَ الطفل؟» وإذاك، كما لو أنها كانت غير متنبهة لوجوده من قبل، ردّت عليه غوندي متعجلة وبحدّة: «هذا يكفي. اغرب عن وجهي، ولا تُرني وجهك ههنا ثانية قبل أن يُطلب منك!».

كانت تلك المرة الأولى التي يُطرَد فيها بيارتور من منزله، ولو كانت الظروف غير ذلك لكانَ لديه ما يقوله بالطبع احتجاجًا على هذه الفظاعة، ولكانَ أفهمَ غونسا حقيقة أنه لا يدين لها بِسنتٍ واحد؛ ولكن كما جرى، لا شيء بدا أكثر ترجيحًا من كونه مُنيَ بالهزيمة والإحراج والحَزَن، وأُقصيَ عن المكان بالطريقة المهينة ذاتها التي أُقصيت بها الكلبة، فهبط الدرجَ بهدوء. ولم يدرِ ما هو فاعله في الظلمة في الأسفل ولا من أين يبدأ؛ رجلٌ أعياه التعب ولم يسبق له أن شعرَ في دخيلته بأنه أقلّ استقلالية كمثل هذه الليلة، وشعرَ بأنه لا لزوم له في هذا العالم، حتى إنه شعر أن الأحياء في الواقع فائضون عن الحاجة مقارنة بالموتى. سحبَ لفّة من القشّ، وفرشها على الأرض، واستلقى عليها مثل كلب. على الأقل عادَ المرء إلى منزله على الرغم من كلّ شيء!

صباح اليوم التالي أيقظه بكاء طفل رضيع.

عندما صعد إلى الطابق العلوي وجدَ غوندي جالسة على السرير والرضيع بين ذراعيها، وأكثر من ذلك، حلّت ملابسها حول الصدر كي تشاطرَ الرضيع دفئها، بينما كانت زوجته، والدة الطفل، مستلقية بلا حياة على هيكل السرير في الاتجاه المعاكس. وكانت قد ربطت بضع خصلات من الصوف حول عنق زجاجة وراحت تعلّم الطفل كيف يمتصها. وقفَ بيارتور يراقبُ المنظر بشيء من الحرج؛ مخدوش الحياء، ثم تسرّبت الابتسامة إلى وجهه الملتحي المتأذي بالصقيع، وإلى مقلتيه، المحتقنتين بالدماء عقبَ العاصفة الثلجية.

«ها أنت ترى ابنتكَ في أتمّ عافية وحال!»، قالت غوندي فخورة بإعادتها

المخلوق الصغير إلى الحياة. فقال: «إنها لتبدو كذلك حقًّا! الطفلة الصغيرة المسكينة!» وتعجّبَ من كونها صغيرة ورقيقة إلى هذا الحدّ. ثمّ استطردَ بأسىً، «لا يمكنك التوقع أن يكون الأمر ذا أهمية كبيرة، إذ لَشدّ ما تبدو البشرية مثيرة للرثاء حينما تُبصرُ عينك ماهيتها الحقيقية».

تمتمت المرأة مُناغية الطفلة: «يا حبيبتي الصغيرة. بمَ يفكرُ الأب أن يُسمينا؟»

قال: «حسنًا، سأكون أباها، على أية حال، وسأسمّيها اسمًا جميلًا ليس لسواها».

لم تقل غوندي شيئًا، ناغت الطفلة، وواصلت تلقيمها زجاجة الحليب.

تسمّرَ بيارتور واقفًا، وظلّ يحدق فيهما بمناجاة واضحة بينه وبين نفسه، ثمّ أعلنَ باقتناع عظيم:

«نعم، قُضيَ الأمر»، ولمسَ وجه الطفلة بيده القوية المتّسخة التي تصارعت مع وحوش البلاد الطيفية. «سوفَ يكون اسمها آستا سوليليا».

كان فخورًا بأن هذه المخلوقة الصغيرة التي لا حول لها ولا قوة ليس لها من سندٍ في العالم سواه، وكان عازمًا على مشاركتها المصير الواحد ذاته. «ولا داعي لمزيد من النقاش بعد الآن».

وترتب عليه الكثير من المهام للقيام بها: فالخراف ما زالت في روثسميري، وتحضيرات الجنازة؛ النعش، والكاهن، وحَمَلة التابوت، والسفر إلى البلدة، ووليمة الدفن. «كنتُ أفكر، يا عزيزتي غونسا، أنك قد ترغبين ربما في خلطِ عجينة كعكة الميلاد من أجل الوليمة. وبإمكانك استخدام التوابل، والزبيب، وحتى إن شئت تلك الأشياء السوداء الكبيرة التي تبدو مثل خراء الحصان، وأعتقد أنك تسمينها الخوخ. ولا تفكري في التكلفة؛ سأدفع كل ما يترتب عليّ. وبالطبع، كثيرًا من الفطائر، قدرَ ما يُشبع الجميع وزيادة. وقهوة ثقيلة مركزة، يا امرأة، تكفي لطلي خروف بالكامل كما القطران[1]، لن أحتمل أن يشرب الناس قهوة خفيفة بائتة في جنازة زوجتي.

***

1- القطران أو القار يُستخدم لطلي الأغنام والجمال لحماية جلودها من البرد وبعض الحشرات، ولإنبات الشعر.

20. المهام

باتَ من المُسلَّم به لدى الجميع أن الشّبح قد تنشّطَ في البيت الصيفي، لذلكَ أُرسِلَ إلى غوندي من البيت خادمة لمرافقتها، كما نُسِج حول مِيتة روزا عديد من الأقاصيص الغريبة، وكانت أغربها أبعدها عن الأصل، غير أنها كلّها أجمعت على المُسبِّب، وجميعها طبعًا من نمط الحكايات التي رُويت عن هذه المزرعة المسورة الصغيرة النائية، منذ أزمان غابت عن الذاكرة والتأريخ. وراودَ الناس قلق بالغ على مستقبل المزارع المبتدئ في الأراضي البور، خاصة أن الأحداث اتخذت هذا المنحى في عامه الأول، وبعد عدة أيام تلت، حينما صادفَ مأمور الشرطة بيارتور وسطَ البلدة، ألمحَ للأخير أنه قد يتوفر وظيفة عاملٍ شاغرة في أي وقتٍ الآن، وأشار إلى أن الصعوبات التي من المتوقع أن يواجهها بيارتور عما قريب ستكون عاجلًا أم آجلًا محطّ اهتمام الرعيّة بأكملها؛ ها هو ذا أرملٌ تُرِكَ مع طفلة رضيعة على يديه، ما عساه أن يفعل؟ وقال إنه سمع أن قوم مزرعة روثسميري قد يقتنعون بأمر حضانة الطفلة، من دون الأجور المعتادة حتى، وإن كان الشرط إعادة الأرض إليهم مجانًا. «ولو أنني في مكانك، لقلتُ خيرٌ أنني تخلصت منها في ظل هذه الشروط المتساهلة». بيد أن بيارتور فكّرَ إن كان أهل روثسميري يقدمون له شروطًا متساهلة لقاء أي شيء، فذلك ولا ريب أمر متأخر عن أوانه، وعلى الرغم من ذلك فقد وصلَهُ العرض بطريقة ملتوية. وأعرب بيارتور: «من الجائز أنكم أنتم أعيان مجلس الرعية تسمّونه خلاصًا جيدًا بإرسالكم الأولاد إلى روثسميري لتربيتهم، لكنني لا أسميه خلاصًا جيّدًا «ومع السلامة!». فقد حدث أن ترعرعتُ أنا نفسي عند جماعة روثسميري مدة ثمانية عشرِ عامًا. وطالما أنني أعتبرُ نفسي مواطنًا مستقلاً في هذه البلاد، وبإمكاني التكفُّل بما عليّ تجاه الله والبشر، فقد اعتزمتُ أنني أنا من سوف أربّي أبنائي وليس الروثسميريين».

قال الآخر: «قد يأتي عليكَ زمان تمنعك الأسباب الموجِبة من الاستمرار في تأدية التزاماتك المادية، خاصة إن كنتَ مضطرًا لزراعة جبالك تلك بمعونة نسائية؛ وجميعها من الممكن أن تؤثر على استقلالك المزعوم هذا».

ردّ بيارتور: «لقد تطلّبَ الأمر مني ثمانية عشر عامًا لجمع مدّخراتي ودفع عربون «البيت الصيفي»، ومع أني لم أبتنِ لنفسي قصرًا ملكيًّا من رخامٍ وياقوت أزرق، فقد بنيتُ لنفسي على أية حال قصرًا مُشيّدًا على أساسات ثماني عشرة سنة. وطالما أنني لستُ مدينًا للرعية ولا للتاجر، وأستطيع دفع أقساط الأرض للوكيل، فهو على الأقل قصرٌ يضاهي في جودته أي قصرٍ بنيته أنت أو الوكيل. والآن، دعني أخبركَ بهذا يا صديقي: «لم يسبق لي أن تدخلت بشأن أولاد الوكيل، أو أثرتُ جلبة على اسم من تَسمّوا، ولن أفعل ما حييت، لكنني في المقابل أطالب الوكيل بألّا يحشرَ أنفه في شؤوني وأن يدع أولادي وشأنهم، وأيًا كانت الأسماء التي أنوي تعميدهم بها، فالأمر يعود لي وحدي أنا وبالكامل. وقل له إنني كنتُ أسأل عنه».

كان بيارتور في ذلك اليوم في طريقه إلى «سْتاثر» لرؤية القسّ غودموندور، الرجل الذي يُكِنُّ له احترامًا كبيرًا، أكثر من أي شخصٍ آخر تقريبًا، بسبب سلالة الأغنام الممتازة التي جلبها إلى المقاطعة. أُرشِدَ إلى غرفة تعلوها دوّامة من الدخان، حيث كان القسّ كعادته يذرعُ الأرضَ جيئة وذهابًا، مشغولًا بِعظاتهِ وحسابات مزرعته. قلما عُرفَ عنه التلبُّثُ في مكان واحد، لم يكن لديه الوقت لذلك، ونادرًا ما جلسَ، كان سيد الأسلوب الحاسم البَرِم للرجل المشغول. كان متقدّمًا في السنّ، بدينًا إلى حدٍّ ما، وفي أنفه ووجنتيه زرقةٌ وشحوب. وهو سليل عائلة عريقة في الغرب، كان يتكسب رزقه في الجنوب في سنوات شبابه، غير أنه أمضى معظم حياته هنا وهو الآن يَنعمُ بوضعٍ مريح. وعلى الرغم من كونه فلّاحًا ماهرًا مقتدرًا، فإنه عمدَ دائمًا إلى تسفيه الأمور الدنيوية وقَذعها كلّما خاطبَ أبناء رعيّته، وما عبّرَ قط في أي حديث عن درايته في شؤون الزراعة. ومثل غالبية الناس المثقلين بالمشاغل كان حديثه عادة مقتضبًا للغاية، ويعتقدُ على الدوام أن أيّ كلام يقوله أي شخص آخر ما هو إلا ترّهات. كان قاسيًا صارمًا في أحكامه، ولديه آراء متعنّتة حول كل المواضيع، لكنه يغيرها مباشرة إذا لاقى تأيِيدًا من الآخر. وكان إيمانه ضعيفًا في الطبيعة البشرية، مُتشكّكا في صلاحها؛ ولا يتوسّم الخير في أحدٍ سوى في العائلة الدنماركية الحاكمة، التي حظيت بتقديره العالي نظرًا لِفطنتها ومناقبها الأخلاقية. وكانت الأثيرة لديه «الأميرة

أوغستا»، التي ما زالت لوحتها الشخصية معلّقة في مكتبه رغم موتها منذ سنوات عديدة. لم يكن عنده فكرة كبيرة عن أخلاقيات أبناء رعيته، وغالبًا ما تطرق إلى الموضوع غمزًا ولمزًا وتعريضًا، مما يعني ضمنًا أن عددًا كبيرًا من الآثام المخفية قد ارتُكِبت في المقاطعة خلال سنوات كهنوته؛ ومع ذلك قيلَ عنه دائمًا إنه لا يردُّ قاصدًا قَصَدهُ في محنةٍ أو كرب. كان لا يطيق سماع أحدهم يتحدّث عن أحدٍ بسوءٍ أو بمديحٍ على حدٍّ سواء. وكان حينما يكون بصحبة أناس ضِعاف الإيمان يناقش المسائل الدينية بحماس هائل، ولكنه في حضرة المتدينين كان موقفه موقف سخرية واستخفاف بالمقدّسات. اعتبرَ أبناء رعيّته خُطَبه مفككة وعدوانية، وحتى إنها في بعض الأحيان غير مفهومة بتاتًا، وقلّة من الناس بذلوا جهدهم للعيش وفقًا للتعاليم التي احتوتها.

«أراك متسكّعًا في الأرجاء ها؟»، صاحَ بطريقته المشاكسة النزقة، ومسّ كفَّ بيارتور مصافحًا مسّة رشيقة حينما مرقَ باستعجال من جانبه إلى صدر الغرفة. ونفثَ في طريقه غليونه بقوة، فارتفعت سحائب الدخان من فوق رأسه مثل عصفة من الأتربة تطايرت من حوافر حصان.

فأجاب بيارتور: «لستُ موقنًا أن من عادتي التسكع، لكن ما لا يمكنني إنكاره هو أنني التقيتُ مأمور الشرطة».

«أفّ، مأمور الشرطة!»، غمغمَ القسّ بحنق، ثمّ بصقَ في دلو الفحمِ بازدراء بينما عبرَ مسرعًا نحو الموقد.

فقال بيارتور مستطردًا: «لذا فكّرتُ إطلاع القسّ على الأمر أيضًا، فقط لأرى أيّ الاثنين أكثر تعطّشًا إلى الحرية».

«الحرية؟» كرر القسّ، وتسمّرَ في مكانه، ثمّ أحدَّ بصره في زائره كما لو أنه يطلبُ تفسيرًا للكلام.

«نعم، أعني للفقراء».

«لستُ أدّعي الحرية سواء للفقراء أو للأغنياء»، أجاب القسّ بعجلة، ثمّ تحرّكَ من جديد.

فقال بيارتور: «ما أعنيه، الفرق بيني وبين مجلس الأبرشية هو أنني أقدم

بعض المطالب في سبيل الحصول على الحرية. بينما هم يريدون إبقاء الجميع منبطحين».

«لا حرية إلا حرية الخلاص الحقيقي لربنا يسوع المسيح»، رتّلَ القِسُّ مقولته بطريقة أشبه بثرثرة مملة لبائعٍ نافد الصبر يشرحُ لزبونٍ غير مهم أن البضاعة الوحيدة للبيع لوحة اسمها «القائد الهيسيّ[1]». «وكما ذُكِرَ في العهد القديم»، وأتى باقتباسٍ بلغة أجنبية، ومن ثمّ سأله: «وما هي الحرية؟ نعم كما توقعت، ليس لديك أدنى فكرة عنها أنت بحد ذاتك. ولا يعني ذلك أنه لدي اعتراض على معيشتك بين الأنهار الجليدية؛ على الرحب والسعة بك هناك. كما يُقال في العهد القديم»، ثمَّ استشهد باقتباسٍ آخر بِلُغة غير مفهومة.

«آه، لن أتجادل معك حولَ العبرية، قداستك. لكنني لا أهتم بما يقوله أي أحد، وأعتقد أنني أعرف عن الأغنام خير المعرفة، وأقول إن أكباشكَ كانت لها فائدة عظيمة في هذه الأنحاء».

فأجاب القسّ من فورهِ: «بلى، اللعنة عليها، فائدتها عظيمة على أولئك الذين بطونهم آلهتهم، ويتفاخرون بقدرتهم على البهائم البائسة».

«اممم، على ما أذكر، الخروف يُسمى في الإنجيل حَمَل الربّ».

فأجاب القسّ بانفعال: «أنا لا أنكر أن الحملَ قد أطلق عليه حمل الله في الإنجيل! وأنا لا أزعمُ أن الأغنام لم يخلقها الله، ولكنني أنكرُ حتمًا أن الله فضّلها على أيّ من البهائم الأخرى». وسادت دقيقة من الصمت، ومن ثمّ بصوت ملئه اللوم اللاذع: «ما الجدوى من تعقّب الخراف عبر الجبال والقِفار على أية حال؟ أي منطق في ذلك!»

«حسنًا، ولأقول لك الحقّ، مثلما يتبدّى لي، قداستك، أعتقد في الأساس، إذا ما تحدّثنا حديث رجل لرجل، من القلب مثل الأخوة، كما تعلم، لربما تبين لنا أن آراءنا حول الأغنام لا تختلف تقريبًا بنصفِ ما قد يؤمن به رجل جاهل مثلي. وأودُّ أن أقول لك، جلالتك، إن عملي الرئيس هنا الليلة، الذي فكّرتُ فيه طويلًا وحلمتُ به، هو لمعرفة ما إذا كان بالإمكان إقناعك ببيعي

1- الهيسيون: (The Hessians) إشارة إلى الجنود الألمان الذين استأجرهم البريطانيون للمساعدة في القتال خلال الثورة الأميركية 1765-1783.

كَبشًا فَتيًا مَليحا في الخريف. ومن المحتمل، إن رزقني الله، أن أدفع لكَ ثمنه نقدًا، ولكن على أية حال، إذا ما ساءت الأمور، سيكون عن طريق تحويل إلى حسابي مع التاجر، بمشيئة الله العظيم».

كان بيارتور يحاول بأقصى حذرٍ ممكن أن ينتهجَ سبيلًا وسطًا ما بين مخافة الله وتقديس المال والأنعام[1]، بحيث لا يمنح القس أيّ ثغرة للهجوم. ولكن لا فائدة. رفضَ القسّ غودموندور أن تنطلي عليه الخدعة، وأن ينخرط في اتفاقية مع أي أحد.

«تحويل!»، ردّدَ القسّ بانزعاج. «لن أشارك بأية وثائق ما بين الله والشيطان. بإمكانك الذهاب إلى الوكيل ومساومته».

«نعم، ولكنني أفضّل ألا أتحدث مع من هم أقل شأنًا قبل الرجوع إليك وتسوية الأمر معك».

قال القِسّ: «إن كنتَ راغبًا في شرب القهوة، يجدر بك أن تقول ذلك الآن. ولكن لا يوجد قطرة واحدة من البراندي في المنزل، كان الله في عوني!»

«أوه، لم يسبق أن لفظتُ قهوتي بسبب عدم وجود البراندي فيها. كثيرٌ من المعوزين، كما تعلم، يفتقرون إلى البراندي هذه الأيام».

بعد ذلك مضى القس إلى المطبخ لتفقّد وضع القهوة، وعاد بعد بضع دقائق، مستأنفًا تطوافه بنفس السرعة المفرطة، وظلّ رأسه متواريًا خلفَ سحب الدخان المنفوثة من غليونه.

وقال: «لن تظفر بشيء ههنا سوى التراب يا صديقي. ما لاحظت قطّ أنك فكرت في السعي من أجل خلاصك الروحي. أنت تسلكُ دروبك في قمم

1- في هذا الموضع ذُكِرَ في الكتاب الأصلي مصطلح «مامون»، دلالة على المال وكل ما يملكه الفرد من متاع أو عروض تجارة أو ثروة أو حيوان. أصل كلمة مامون آرامية وتعني المال أو المواشي أو ما يسعى له الإنسان ويخدمه. وقد وردَ ذكر الكلمة على لسان يسوع في إنجيل متى 6: 24 ولوقا 16: 13 بمعنى المال: «لاَ يَقْدِرُ خَادِمٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ (مامون)».

الجبال ساهيًا لاهيًا، ليس في غفلة كاملة فقط، وإنما بقسوة واضحة في القلب أيضًا، ومن ثم تفكر أنك تستطيع القدوم وإخبار المرء بما يصحّ وما لا يصحّ».

واحدة من بنات القس الأنيقات أحضرت قهوة زكيّة الرائحة في إناء برونزي، وأكوابًا وصحونًا من البورسلين موشّاة برسومات يابانية، وطبقين مملوءين بأنواع مختلفة من الكعك والحلوى، مما لذّ منها وطاب، بالإضافة إلى السُّكر والقشدة. ذكّرت بيارتور بلقائهما الأخير في الصيف، وقالت إنها ما تزال تتذكر الأبيات التي نظمها، وألقتها تكريمًا له وتشريفًا، في حين كان القس مصغيًا باستنكار وعبوس، مغمغمًا بينه وبين نفسه.

وقال: «تبًّا! أي شعر لا يمكن ترجمته إلى اللاتينية على الفور هو محض شعر ركيك. والآن انصرفي يا غونا، لا شيء مشترك بينك وبين الرجل».

وما إن أُغلِقَ الباب دون السيدة الشابة حتى انحنى وفتح درجًا من أدراج مكتبه، ثمّ وهو يسعل في سُحب الدخان المتدفقة من غليونه، أخرجَ قارورة من البراندي مملوءة عن آخرها، وباهتياج شديد صبّ نصفَ ليترٍ أو ما يدانيه من البراندي في إناء القهوة، ثم ملأ فنجانين بالمزيج. لزمَ بيارتور الصمت، من باب التقديس للقس والإعجاب بالبراندي في آن معًا. وشرعا في احتساء القهوة. بعد ثلاثة فناجين كان بيارتور متعرّقًا.

«اشرب يا رجل!»، حثّه القسّ على المزيد، «لأيّ غرضٍ برأيك تقدم لك النساء القهوة في هذا الطقس؟»

فأجاب بيارتور بتأدب: «لقد شربتُ ثلاثة حتى الآن».

«طبعًا الأمر حسب الرغبة، لكنني لا أشرب أقل من ثلاثين يوميًا»، ردّ القس، واستمر بإعادة ملء الفناجين وحثّ المزارع على الشرب، إلى أن شرب كل واحد منهما ستة فناجين، وبذلك كان إناء القهوة فارغًا. في هذه الأثناء كان العرق يتصبب من جبهة بيارتور وينساب على صدغيه. حدق بإمعان في التصاوير على الفناجين وأطباقها وتأمّلها مليًّا حينًا من الوقت، ثمّ أتى بالملاحظة الآتية:

«هؤلاء الفتيات الحسناوات كم يبدون أنيقات في أثوابهن وزينتهن»، مشيرًا إلى السيدات اليابانيات على الفناجين، «وأنا متأكد من أنه سيمرُّ وقت قبل أن

تبتسم الفتيات على فناجين البيت الصيفي بهذه الحلاوة والعذوبة». وأضاف، ماسحًا العرق عن وجهه بكمّه: «وهذا يذكّرني، قداستك، بأنني أعيش هذا الآونة حالة من الفوضى والتخبّط، فزوجتي كما أفترض أنك ستدعوها، بما أنك قد باركت زواجنا في الربيع، قد وافاها الأجل منذ بضعة أيام».

فتساءل القسّ بارتياب: «كيف حدث ذلك؟ إن كانت قد ماتت، فما بيدي حيلة، بكل تأكيد».

«لا، يا إله السموات، أعلم ذلك. وما كان هذا المقصد من الكلام»، قال بيارتور مُبرِّئًا القس من أي ذنب في الموضوع. «لقد ماتت ميتة طبيعية، على الأرجح بسبب نزيف في الدم، وأنا أعرف حقّ المعرفة كيف حدث ذلك. ولكن ما الذي حصل لغولبرا النعجة المليحة ذات العام الواحد من السلالة الخاصة بك، والتي ربطتها عند أطراف مزرعتي هذا الخريف، أثناء الجولة الأولى من طِراد الماشية؟ كنتُ قد تركتها مع زوجتي الراحلة، أرأيت، مرافقة لها، حسنًا، إنه لأمر لا يمكنني إدراك كُنهه، ولا سبر غوره!»

قال القس ببرود: «لا أعلم شيئًا عن الموضوع، لستُ سارق أغنام. وَأنفي أيّ ضلوعٍ لي في هذه المسائل».

فردّ بيارتور بعقلانية: «ما أعنيه، هنالك ترتيبات لا بدّ من القيام بها، على الأقل بما يخصّ الزوجة».

«يمكنني تزويدك بامرأة أخرى أثناء انتظارك، امرأة صالحة، طيّعة مُنصاعة مثلَ راهبة، ومطيعة جدًّا. ولكن يوجد امرأة مسنّة برفقتها؛ ثعلبة عجوز متهالكة، وبهذا أكون قد أحطتكَ علمًا بما أنت مقدم عليه؛ وهي تحفظُ مزامير داوود عن ظهر قلب».

«على رسلك، كنتُ أفكر في أن أطلب منك دفنَ هذه أوّلًا»، قال بيارتور برفق وتهذيب.

«آه، يا إلهي، إني ببساطة أشمئز من فكرة دفن البشر».

«أجل، ولكن ما لستَ تدركهُ هو أنني لا أستطيع إيواء أي أحدٍ في المزرعة طالما أنها ممددة هناك. أنت لا تعلم كم الناس حمقى هذه الأيام ويؤمنون بالخرافات».

قال القسّ: «من الأفضل لك إذن أن تردمها حاليًا في قبرٍ مؤقت حتى يحلّ الربيع. أنا بالتأكيد لن أقطَع الجبال في سنّي هذه، وأنا رجل عجوز أبلتهُ السنون؛ أعاني من آلام في الصدر، وربما من أورامٍ في الكبد. ثم إنني لم أعرف أي شيء عن كيفية وفاة زوجتك. أنتم الجبليون الأشقياء تفلحون دومًا في التنصّل من المسؤولية حين وفاة زوجاتكم بالقول إنكم كنتم في البراري تبحثون عن الشِّياه الضّالة. ولكن النساء أيضًا، على حدّ علمي، بحاجة إلى الرعاية كما المواشي. وليس من الصعب عليّ إثبات بعض الحقائق حول مقتل كثير من الناس في هذه المنطقة، رجالًا ونساء على حدٍّ سواء، منذ تجوالي هنا على مدار ثلاثين عامًا من التعاسة والشكوك، وكانت لتثبت الحقيقة قطعًا، ألم أعطف على أبناء رعيتي؟ لو لا أنني بلغتُ من العمر عتيًّا وأمسيتُ من الوَهن بحيث لا أقوى على الإلحاح على حكومة فاسدة منحلّة لا يحرّضها نهب ولا حريق متعمّد ولا جريمة للتحرك واتخاذ إجراءات حاسمة».

«أوه، أعتقد أنك عنيتَ أولئك الذين لقوا حتفهم في ميتات أكثر غرابة من ميتة زوجتي روزا».

«أجل»، تنهّد القس بأسى، «ما أنا إلا عجوز بائس لا حيلة له، على ما أظن، وسقيم حتى الموت».

«كل ما أطلبه منك الذهاب إلى مزرعة روثسميري يوم السبت إن كان الطقس مناسبًا».

ردّ القس، مُستجلِبًا كل الصعوبات الممكنة: «المجرفة في الكنيسة هناك مكسورة، كان الله في عوني. لا يمكنني أن أشهدَ بشيء يخصّ الممات، والحِساب، والحياة الآخرة لأي شخص نُفِذت جنازته بمثل هذه الأداة القديمة الشنيعة. ومن جهة ثانية، هل ستطلب مني إلقاء موعظة؟ لأن في نيتي أن أقول لك قولًا قاطعًا بأنني لا أرى فائدة تُرتجى من إلقاء خطبة على الجثمان في طقسٍ كهذا. لن يستنبط المرء منها شيئًا على كل حال».

أجاب بيارتور: «لا داعي أن تكون مطوّلة، كما تعلم».

«ألا تستطيع الزوجة العجوز في روثسميري إلقاء خطبة لها؟ لقد ألقت

خطبة من أجلها في الربيع الفائت. فلماذا لا تلقي خطبة من أجلها هذا الخريف أيضًا؟»

فقال بيارتور: «الآن، وللأمانة، ليس عندي مانع من إخبار أي شخص كان بأني لا أثق بأي خطاب من قِبل جماعة روثسميري. وأنا على اقتناع تام بأنَّ الأمور كانت ستسري على نحوٍ أفضل لو أنك أنت من قدمتَ المواعظ في الزفاف، ومع ذلك، وبصراحة تامة، لا أؤمن كثيرًا بالخُطَب بشكل عام، لأي غرض كانت، والخُطَب الطويلة منها على وجه الخصوص».

«إن كنتُ سألقي خطابًا على أية حال فسوف يكون خطابًا طويلًا. لأنك ما إن تشرع في الكلام، فلا نهاية لما ينبغي أن يُقال عن الطريقة التي يتصرف بها الناس هذه الآونة الواحد تجاه الآخر، والآخرين ككل».

قال بيارتور: «في الواقع، الأمر يعتمد على تقديرك للموضوع، البعض يعتقد أن خير الكلام ما قلّ ودلَّ فَأصلَح. أمر واحد لسنا بحاجة إلى الجدال بشأنه ألا وهو محتوى الخطاب؛ والكلّ سيان عندي ما لم يكن فيه شيء مُستنكر. الأمر الأهم هو توجيه الخطاب إلى الشخص المناسب، في الوقت المناسب، ومن قبل المرجعية المناسبة، وإلا فسوف يأخذونَ عليكَ مأخذًا ويلمحون إلى أنه ليس باستطاعتك ربّما تحمّل تكلفة الخطاب، ولكن تلك إهانة لن أسمح بها؛ أن يُراق ماء وجهي وأنا رجلٌ مستقل. وزوجتي امرأة مستقلة أيضًا».

«وكم باعتقادك يمكنك أن تدفع مقابل الخطاب؟»

«حسنًا، تلك واحدة من النقاط التي أودُّ تسويتها. فعليًا، أعتقدُ أنك مدين لي بخطبة منذ الربيع المنصرم، وأعتقد أني قد أستطيع الحصول عليها الآن. لن تتحسن جودتها بالتخزين».

«كلا!»، قال القسّ على نحوٍ حاسم، «لن ألقي خطبة على امرأة أمضت في حياتها الزوجية صيفًا واحدًا فقط، ثمّ أسلمت الروح. يمكنك اعتبار نفسكَ محظوظًا لأني لم أُخضِع المسألة للتحقيق والتقصّي. قد توجد طرق ووسائل تسمح لك بالحصول على موعظة زيجتك التالية دون مقابل، ولكن أَن تُبادِل موعظة الجنازة بموعظة الزفاف فذلك ضرب من الاستغلال لن يكون لي شأن فيه».

قال المزارع: «في تصوري، قداستك، قد تُثبِتُ التحقيقات الشاملة حقّي القانوني في الخطبة. وهي وإن لم تشهد الثلاثين، فقد كانت زوجتي، وزوجة صالحة، وزوجة مسيحية».

«إذن كانت مسيحية، ها؟»، هتفَ القسّ بغضب، إذ لم يكن يحتمل سماع شخص يمتدحُ شخصًا آخر.

«حسنًا»، قال بيارتور، مستعدًا للتنازل عن نقطة أو اثنتين لمصلحة الوئام وكسب ودّ القس، «ربما يجدر بي القول إنها كانت مسيحية على طريقتها الخاصة. ولكن كل شيء باعتدال، كما تعلم».

صاحَ القسّ ساخطًا: «اسمح لي بالقول إذن، إن كان الناس في المنطقة قد أصبحوا مسيحيين فجأة، فذلك أمر جديد عليّ كل الجِدّة. في رينجرفيلر كنت تجدُ أقوامًا مسيحيين، نعم أتفق. هناك كنتَ ترى قدّيسًا ونبيًا في كل مزرعة وأخرى، لكني عشتُ هنا في المنفى ثلاثين عامًا ولم أصادف المسيحية الحيّة الحَقة، أو التوبة النصوح الحقيقية إلى الربّ بأي شكلٍ أو لون، كل ما رأيته هو الجرائم الشنيعة، أربع عشرة جريمة وتعرّض للأطفال، إلى جانب جميع الإجهاضات».

قال بيارتور: «هذه أمور لا علم لي بها. لكني أعلم أن زوجتي كانت امرأة صالحة، ولا بد أنها كانت في أعماق قلبها قد آمنت بالله وبالبشرية، وإن لم تجاهر بإيمانها من على أسطح المنازل. وأناشدكَ التحدّث عنها بالخير لا بالسّوء، لأنني أكنّ لها كل الإعجاب والتقدير».

كياسة القسّ منعته من الاعتراض على هذا الثناء على زوجة بسيطة عادية عاشت صيفًا واحدًا فقط ثم ماتت؛ لكنه أشارَ إلى لوحة الأميرة أوغستا[1]، وعلى سحنتهِ مسحة من اللوم والنصح، مُعبِّرة أيّما تعبير، ثمّ قال: «إن أردتَ رؤية صورة امرأة كانت لغيرها مثالًا يُحتذى به كأميرة وزوجة وإنسانة، فها

1- الأميرة أوغستا فريدريكا من بريطانيا العظمى (1737-1813): أميرة بريطانية الميلاد، وأميرة براونشفايغ - فولفنبوتل من خلال الزواج. هي ابنة فريدريك أمير ويلز، وحفيدة جورج الثاني ملك بريطانيا العظمى. وهي شقيقة كارولين ماتيلدا ملكة الدنمارك (منذ سنة 1766 - وإلى 1775) وزوجة كريستيان السابع ملك الدنمارك.

هي ذي معلّقة هناك. ولن يضرّكم التذكّر، أنتم أيها الأقزام الصغار الدنيئون الذين لطالما اعتقدتم أن كبرياءكم تمنعكم من إحناء رؤوسكم القذرة أمام عظمة الروح القُدس، ولو أنكم في مجتمعكم أشدّ وضاعة من الخراف التي تقتلونها بالمجاعة والدودة الشريطية في كل ربيع يهبنا إياه الربّ. أمّا أولاد الملك كريستيان[1] فقد كانوا يُوقَظونَ في السادسة صباحًا من كل يوم، كي يكونوا في خلوة مع مُنقِذهم اليسوع، وما يزالون في صلاة وتضرّع إلى أن يتقيّأ قسيس البلاط بحد ذاته من شدة الجوع. فما قولك في ذلك؟»

لم يستطع بيارتور كبحَ نفسه من الضحك. وقال مُقهقهًا: «هاهاها، هاهاها، الأمر أشبه بقصة الكلب في روثسميري، والشخص الذي لم يستطع أن يكفّ يده عن لحم الخيول، منذ عام أو اثنين».

«إيه»؟ قال القسّ غودموندور بجدية بالغة، ووقفَ في منتصف الغرفة، فاغرًا فمه بحيرةٍ وذهول، ورفع حاجبيه تعجّبًا.

فقالَ بيارتور: «القصّة وما فيها، أنه كان في مزرعة ميري فتىً قد أتى من المدينة؛ شخص معتوه بل خبيث بالأحرى، أزمعَ على مصادقة كل الكلاب واستدراجها من أصحابها الأصليين، وكلبي من ضمنها. وأنا لطالما أحسنتُ التعامل مع الكلاب، كانت كلبتي لمّا تزل جروة صغيرة، وكانت وفيّة وذكية. هاهاها، هاهاها».

فأجاب القسّ بحدّة، وكان لا يزال متسمّرًا في مكانه: «لم أفهم!»

قال بيارتور: «لم أتوقع أنك ستفهم، وحتى أنا لم أفهم ما كان يجري إلى أن بدأت الكلبة تتقيأ قطعًا من لحم الخيول بحجم قبضة اليد، يا رجل. اتبّعَ ذلك الشيطان الصغير الحيلة ذاتها كل الشتاء؛ كان يسرق لحم الخيول من المطبخ لإغواء الكلاب واستمالتها».

قال القسّ: «إلى هنا ويكفي، ما عدت أحتمل المزيد من هذا اللغو، كرمى للسّماء اذهب إلى حال سبيلك!»

أجاب بيارتور برصانة: «نعم، قداستك، لا أحد يمكنه التحكم بأفكاره.

1- الملك كريستيان: أحد ملوك الدنمارك.

آمل أنها لم تؤذِ أحدًا. وأشكرك جزيل الشكر على القهوة. إنها ألذ قهوة تذوقتها منذ أيام كثيرة. وبإمكاننا الاعتماد بعضنا على بعض بخصوص الكبش الفتيّ في الخريف وغيره من الأعمال».

فقال القسّ بورع: «من المأمول أن أكون قد توفيتُ قبل حلول الربيع. ميتًا، ميتًا بسبب هؤلاء الرعاع الفظيعين. وداعًا!»

بيد أن بيارتور لم يكن ميّالًا إلى المغادرة في الوقت الراهن بأي حال من الأحوال. ظلّ على مقربة من القسّ يتلهى ويتباطأ، إلى أن استجمع شجاعته أخيرًا وقال:

«بالمناسبة، حضرة الموقر غودموندور، هل سمعتكَ تقول شيئًا عن امرأة، أو امرأتين بالأحرى، منذ قليل؟»

فَسأله القسّ باغتياظ ونزق: «والآن، ما الذي تسعى إليه؟ هل تريدهما؟ لا داعي للاعتقاد أنني حريص على التخلّص منهما».

«ومن هما على أية حال؟»

«الله وحده يتكفّل بهما برحمته. جئتُ بهما من مروج ساندغيلس على ظهر حصاني، وهما تنتميان إلى الكنيسة الصغيرة البعيدة التابعة لأبرشيّتي، توفي ربّ الأسرة من علّة باطنية، وكل ما كان في حوزتهما سبع عشرة شاة ضامرة هزيلة، وبعض المعدّات المُتكسِّرة، وفَرَسان تبلغان من العمر خمسة وعشرين عامًا، وقد أعطوها لي مساهمةً مقابل إيوائهما عندما جاءتا إلى هنا في الخريف، كان الربّ في عوني. إنهما، بطبيعة الحال، غارقتان في الحزن. فَلَحَ الرجل العجوز أرضه لأربعين عامًا ولم يدّخر فلسًا واحدًا، يا له من ادّخار مُخزٍ!»

قال بيارتور: «ياه! إذن هما تمتلكان قطعة أرض».

قال القس: «بالطبع تمتلكان أرضًا!» ثمّ اندفعَ نحو الباب، وفتحه ثمّ صاح: «أحضروا لي فِينّا والعجوز هالبيرا حالًا! هنا رجل يريد أخذهما».

انقضَت بضع دقائق، ثمّ أطلت من فرجة الباب سيدتان واقتربتا على مهل، كانت الأم تحوك، وقد اعتمرت قلنسوة بنية اللون، ومن ثؤلول في ذقنها نبتت شعيرات، ووجهها عابسٌ معتكرُ، كأي شخصٍ انكفأ على نفسه ثلاثة أعوام وأكثر، لا ترفع بصرها، وإنما أرخت جفنيها وراحت تختلسُ

النظر وهي مُكِبّة على حياكتها، ورأسها مائل؛ وكانت الابنة امرأة في آواخر الثلاثينات من العمر، بُنيتها غير متناسقة، وخاصة من الأسفل، لكنها عوّضت بابتسامتها اللطيفة ما افتقرت إليه الأم من لينٍ ورِقّة.

وقفتا كتفًا بِكتف غير بعيد عن عتبة الباب بحيث كان من المستحيل إغلاق الباب من خلفهما. استمرت المرأة العجوز بالحياكة، وحدّقت الابنة بالرجلين بعينين واسعتين متطلعتين إلى كل شيء. كان لديها على خدّها علامة أرجوانية من تقرّح قديم بسبب البرد، وخفقان واضح في القلب.

قال القسّ: «هنا يقفُ رجلٌ شَهم سوف يخفّف عنا العبء الثقيل. لقد عزمَ على اصطحابكما معه إلى بيته. زوجته مسجّاة في نعشها، كان الله في عونه، وقلبه قَطعًا مُنسحِق من الحزن».

«نعم، أعلم، ياللرجل المسكين»، غمغمت المرأة العجوز عبر صنّارتيها، دونَ أن تنظر إلى الأعلى. بينما نظرت ابنتها إلى الرجل النبيل المحزون بعينين ملؤهما التعاطف القلبي الصادق.

هتفَ بيارتور: «إذن، أليست السيدتان من آل أورثارسيل هما أرملة السيد راغنار وكريمته؟»، ومدّ لهما يده بالتحية وشكرهما من صميم قلبه على استضافتهم القديمة له، إذ مكثَ معهم ليلةً ذات خريف منذ أربع أو خمس سنوات، حينما كان يتعقب بعض الأغنام الشاردة من أجل وكيل المزرعة، ولم تكن المرة الأولى أيضًا. بلى إنه يتذكر راغنار جيّدًا، رجل عبقري؛ لا أحد بوسعه معالجة الخراف المصابة كمثله، كان أهون عليه رؤية أهل بيته لا يتوفّرون على شيء من السُّكّر والقهوة على أن يرى أغنامه من دون مُضغَتِهم[1]. «ألم تكن آذان[2] أغنامه اليُمنى مقطوعة، واليُسرى مثقوبة مرّتين؟ أجل! رمية صائبة لبيارتور! ثم ألم يكن عنده كلب ذو شعر بلون الرمال، حيوان أعجوبة يمكنه الرؤية في العتمة أفضل مما تراه معظم الكلاب في وضح النهار؟ اللعنة علي إن لم يكن ذا بصيرة! ليس كل أحد يحالفه الحظّ ويحظى بحيوان كهذا، أؤكد لكم ذلك».

1- يُرادُ بها مضغة التبغ المستخدمة كنوع من العلاج.
2- علامة على أذن الحيوان لتحديد مالكه.

ثبتَ أنّ كل هذا صحيح. وتهلّلَ وجه فينّا امتنانًا لهذا التفضّل الودود المضمَر في الذاكرة القوية لضيفهم الليلي القديم. كانت هي بحد ذاتها تتذكر تلك المناسبة كما لو أنها ليلة البارحة حين أمضى ليلة في بيت أورثارسيل، كان هوَ هوَ راعي مزرعة روثسميري بشحمهِ ولحمهِ؛ كان قليلًا ما يأتي الناس للمكوث ليلًا، ومن النادر جدًّا وفادة أي شخص من المزارع الكبرى. حينها تهامست الأم وابنتها، فعلًا، وخلصتا إلى أنه ليس من السهل استضافة شخص قادمٍ من «البيت الكبير»، فلا بدّ أنه معتاد على خيرِ الأشياء وأفخرها، فما الذي كان ينبغي القيام به؟ لذا اقترحت هالبيرا صنع كعكِ «سكونز» المخبوز على الجمر، إلا أن ابنتها قالت: «لا، لم يكن ليخطر له ولا حتى في أحلامه أن يسمح للأشياء المخبوزة فوقَ الخثّ[1] العاري أن تمرّ على شفتيه، وهو رجلٌ من روثسميري، أنتِ قطعًا لم تنسي ذلك يا أمّاه، أم أنكِ نسيتِ؟!»

بيد أن المرأة العجوز قالت إنها نسيت كل شيء منذ زمن بعيد؛ وما عادت تذكر شيئًا من الماضي أو الحاضر سوى أيام صِباها وبعض الآيات المقدّسة، فقد استحالت حُطامًا قديمًا شنيعًا، ولولا أن القس الطيب الذي أشفق عليهما حين اقتضت إرادة الله سبحانه وتعالى قبضَ روح المسكين راغنار..

وهنا قاطعها القسّ بضيقِ صدرٍ وتململ: «ألم أخبركما أن الرجل يودُّ أخذكما معه؟ سوف تكونان معه على خير ما يُرام. في الربيع الماضي أسّسَ مزرعة في عقاره الرائع الخاص به، وهو رجل من النوع التقدّمي المتحرر الجديد وله آراء عازمة على وجوب ازدهار هذه الصحراء، مثل الحركة الصاعدة التي يُنتَخب من خلالها دومًا في البرلمان، ويُكتَب عنها في الصحف في ريكياڤيك».

قال بيارتور: «آه، أنا لا أوجع رأسي كثيرًا بما يكتبونه في الصحف في ريكياڤيك، لكني مع ذلك أؤكد أن هنالك مستقبلًا عظيمًا في البيت الصيفي لمن يقدّرون حريتهم، ويريدون أن يكونوا أناسًا مستقلّين».

1- الخثّ: الفحم النباتي. مادة بنية داكنة أو سوداء اللون غير متماسكة تنشأ من التحلل الجزئي وتفكك نباتات المستنقعات من حشائش وأشجار، يمكن اعتبارها مرحلة أولية من مراحل التفحم. يُستخدم الخثّ للوقود والأغراض المنزلية.

من ثمّ قالت المرأة العجوز بصوتها المرتعش المتعب: «في زماني، ما كان الناس ليعتقدوا أن وفاة زوجتك طبيعية، يا بيارتور الطيب. ثم إن قصّة حظيرة حملانك تمتاز بسمعة عجيبة حسبما سمعت».

نفّخَ القسّ بغضبٍ اعتراضًا على الكلام: «أفّ، كانت مزرعة أورثارسيل تعجُّ بشتى أنواع الأشباح أيضًا. ضللتُ طريقي مرتين هناك في الجبال، حدث ذلك في رابعة النهار وفي عزّ حرارة الصيف في كلتا المرتين، لذا كان الله في عوني».

وقالت العجوز موافقة: «بضعة أشخاص من المنازل المجاورة كان لديهم جنّية أحيانًا تبلغهم بحضور أحدٍ ما. لكن جيراننا في المروج كانوا جيرانًا طيبين طوال الأربعين سنة التي عشتها هناك، ويشهد الله على ذلك والناس».

وقالت الابنة معللة: «أمي تقصد أننا لم نكن مسكونين إلا عند وفادة أشخاص بعينهم. ولكن كان لدينا أصدقاء طيبون هناك في الأراضي البراح، وكانوا في الغالب مفيدين جدًّا لنا».

قال القسّ: «أرفضُ التحدّثَ بأمر أي شخص اسمه غير مدوّن في سجل الأبرشية».

فقالت الابنة: «لقد شربنا من أيديهم في أحلامنا كثيرًا من أكواب القهوة اللذيذة، وما كانوا إلا كرماء في السُّكّر».

وأكّدت الأم مقالها على نحوٍ موقر: «امممم، كثيرًا ما تناولنا منهم لقمة طيبة وشربة هنيئة مريئة».

ذرعَ القسّ أرض الغرفة، وشَخَرَ استنكارًا، لكن بيارتور صرّح بأنه لم ينكر يومًا وجود أشياء كثيرة شاذة في الطبيعة. وقال: «أعتقد أنه لا مشكلة في التصديق بوجود الجّان وإن كانت أسماؤهم غير مُدرجة في سجل الأبرشية. إنهم لا يؤذون أحدًا، نعم، بل لعلهم نافعون لكم حتى؛ ولكني أزعمُ أن الإيمان بالأشباح والغيلان ما هو إلا من بقايا البابوية البائدة، ولا يصلح للمسيحي أن يمنحه لحظة واحدة من التفكير». وبهذا كان قد بذل قصارى جهده لإقناع المرأتين بتقبّل وجهة نظره بشأن هذه المواضيع.

***

21. حَمَلَة النعش

في صباح يوم السبت جاء الحَمَلة مع كلابهم مهرولين عبر المستنقعات. كانوا أربعة، جميعهم من المعارف القدامى: ملك الجبل، إينار أونديرنيث الشاعر، ثمّ أولافور يازتدال الصديق العظيم، وأخيرًا والد الفقيدة ثورثور من نيثوركوت. كانوا يمشون فرادى، على مسافة بعيدة بين الواحد والآخر، مثلَ رجالٍ انطلقوا في سفرياتهم كلٌّ إلى وجهته الخاصة التي لا شأن للآخر بها. كان ملك الجبل أول الواصلين، وتقاطرَ الآخرون من بعده الواحد تلو الآخر، وكان ثورثور نيثوركوت آخرهم. كانوا جميعهم مرتدين أفضل ما لديهم من ملابس، وجواربهم مرفوعة إلى ما فوق سافلة سراويلهم.

ما كان بيارتور الرجل الذي يؤوي أحزانه؛ استقبلَ ضيوفه استقبالًا ملكيًا. رفع صوته عاليًا: «تفضلوا إلى القصر يا رجال، البرد قارس اليوم، ولكن ارتاحوا، النساء وضعنَ غلاية القهوة على النار». أخرجوا سكاكينهم وشرعوا بِحفِّ الثلج عن ملابسهم. قالوا إن الطريق كانت عسيرة؛ قاسية في الطلوع، وزلِقة في النزول. الرجل العجوز، متأوهًا ومترددًا في حركاته، اتخذ لنفسه مقعدًا على عتبة الباب، وطقطقت مفاصله كما لو أنها على وشك التهشّم. بدا منكمشًا على نفسه، واجمَ الوجه وحزينًا، وتخللت قشرة من الصقيع لحيته الشعثة المهلهلة، وكان جفناه وزوايا عينيه ملتهبة، وقزحية عينه باهتة مع تقدّم العمر. كان التابوت موضوعًا فوق عُشبٍ مجزوز حديثًا ما بين معالف الأغنام، ومزركشًا بخصلات الصوف التي التصقت صدفةً بالألواح المطلية بالقطران حينما تزاحمت الخراف وخرجت عند الظهيرة للشرب من فجوة متصدّعة في سطح الجدول المتجمّد. ضغطَ الشيخ بيديه المتغضّنتين المزرقتين على التابوت هنا وهناك، كما لو أنه يختبر صلابته، أم أنه كانَ يربت عليه؟ ثمّ بعناية وإحساس فطري بالنظافة والترتيب، التقطَ من على الخشب بعضًا من خصلات الصوف. كان هذا الجزء الخارجي من الإصطبل مخصّصًا من أجل النِّعاج، وكان الجزء الداخلي مقسّمًا إلى حظيرة من أجل الحملان، ومربط للفرس. طغت رائحة بول الحصان على جميع الروائح الأخرى في الإسطبل، لأن قناة التصريف كانت معطّلة.

في الطابق العلوي كانت المرأتان المُعارَتان من روثسميري مُنشغلتين بالطفلة والنار. كانتا قد كشطتا السطح ونظّفتا الأرضية. تركَ الرجال كلابهم في الخارج تعبيرًا عن احترامهم للميتة، ولكن خِلاف ذلك كان تصرفهم هو ذاته كالمعتاد، إذ لم يكن يُسمح لأي عائقٍ أن يحول بينهم وبين نقاشهم المتحمّس حول الطقس، وما كان لمجاملة أو كياسة أن تضبطَ طريقة التفكير المقدّسة بما يخص هذا الموضوع. تنقلت قرون السّعوط من واحدٍ إلى آخر. ناولَ إينار أونديرنيث بيارتور المرثية المعهودة، مكتوبة على ورقة ممزقة، وحدّقَ بيارتور إلى العنوان بوجهٍ مُمتعض؛ مرتابًا سلفًا من فحوى شِعر صديقه، ثم وضعها بلا مبالاة تحت العارضة. مسحَ العجوز نيثوركوت النداوة من عينيه بمنديل السّعوط المبقّع. وحينما استخلصَ الجمعُ أن الريح بدت كأنها تستقر في الجنوب الغربي، قال ثورثور إنه يرى أنها ستبقى هناك حتى فصل الشتاء. وكان ذلك إسهامه الوحيد في الحوار، ذلك أنه وصلَ إلى عمرٍ فقدَ فيه كل ثقته بالطقس، ولم يتبق له في الحياة سوى القليل، ما عدا الطاحونة على كتف النهر في منزله. وهو لم يكن مستاءً من أحد، كان فقط يجد صعوبة في الكلام. وكان كلّما فتح فمه للتلفّظ بكلمة شعر كما لو أنّ أحدًا يمسكه فجأة من خِناقه؛ وبدا كما لو أنه قد ينفجر ضَحِكًا على الفور. لاحت على ملامحه مسحة من البلاهة، كأنما كان وجهه يتشقّق من الداخل، وسوف ينشطر إلى أشلاء بأقل جهدٍ يبذله، حتى وإن كان إبداء ملاحظة تافهة حول الطقس. وضّحَ أولافور يازتدال أن الشتاء القارس أمر يسهل استيعابه بعد صيفٍ هطلت فيه الأمطار؛ لا بدّ أن يكون توازن بين الرطوبة والجفاف في الطبيعة.

ورأى ملك الجبل أنه بالنظر إلى حلول الطقس القاسي باكرًا، فمن المحتم أنه سيعاود الدفء قبل عيد الميلاد، وسوف يكون الجوّ معتدلًا زمنًا طويلًا، مثل الشتاء الذي حلّ قبل ستة أعوام. وكان رأيه إجمالًا أنه سيكون شتاء معتدلًا، وأضاف أن لا داعي للتشاؤم بكل تأكيد، وإن نَشب البرد مخالبه باكرًا.

وقال إينار أونديرنيث إن تنبؤاته عمومًا مَبنيّة على الحدس والأحلام، وعلى الرغم مما قاله ملك الجبل للتو، فإن لديه شعورًا بأنه سوف يكون

شتاء قاسيًا، ومن الأفضل ألا يكونوا كرماء جدًّا بالقشّ. ولكنه كان متيقنًا من أنه سوف يأتي عليهم ربيع لطيف، ذلك أنه رأى في الحلم، على مسافة بعيدة عنه، فتاة شابة حسناء من جنوب البلاد.

فقال بيارتور رافضًا الإصابة بمثل هذا التفاؤل السّقيم: «حسنًا، شخصيًا لا أثق كثيرًا بأحلام النساء هذه، بالكاد يمكنك الاعتماد عليهن في صحوكَ، باركهن الله، فما بالك إن كنّ في منامك؟»

ردّ إينار معترضًا: «ولكن من المؤكد، إن كان بوسعك تأويل الأحلام فقط، أنك ستجد أن النمط الذي تظهر به النساء موثوقًا ويعوّل عليه مثله مثل أي نوع آخر».

«أنت محقٌّ تمامًا»، قاطعتهما مدبّرة المنزل بانفعال كبير، «بالطبع يُعتمد عليهن، ويجدر به أن يخجل من نفسه بسبب الطريقة التي يتحدّث بها، وزوجته ممددة هناك!».

«حسنًا، فلننسَ أمر الأحلام الآن»، اقترح عليهم ملك الجبل الذي كان دومًا على أهبةٍ للتصرف كوسيطٍ بين هذين الشاعرين الفذّين. «إذن، لتحويل المحادثة إلى ما كنا نناقشه في وقت سابق في الريف، وبما أنني تذكرت، أريد من كل شخص أن يعلم أنني استلمتُ في هذه الآونة دواء جديدًا من الطبيب فينسن. وقد أحلْتُ إليه الشكاوى التي تَقدّم بها العديد من وجهاء منطقتنا، وشكواكَ من ضمنها يا بيارتور، وقد كتبَ ملاحظة بكل تأكيد من أجل مستحضر دوائي خاصّ بنا. ووفقًا لما قاله بِعظمة لسانه، فإن المصنّعين يقدّمون ضمانًا مطلقًا بأن المستحضَر سيطهّر الكلاب بصورة شاملة، ليس من الدودة الشريطية فقط، وإنما سيطهر الدم والأعصاب في البدن ككل».

قالوا إنه كان ينبغي القيام بذلك في وقت أبكر؛ كانَ الثعلب بَلوى والدودة الشريطية بَليّة أشدّ. كان لدى الجميع القصة ذاتها ليرووها عن كلابهم، عن كل كلب مُصاب. كان البشر والبهائم في بوتقة الخطر. وطالبوا بأن يسدد ملك الجبل ضربة حاسمة.

فأجابهم: «بالطبع! وسوف تتلقّون مني في القريب العاجل التعميم السنوي الذي يتناول الموضوع. كانت فكرتي هي إدارة المعاملة في نفس تاريخ

الانتخابات البرلمانية، بحيث يمكنكم إحضار كلابكم معكم في طريقكم إلى التصويت وإنجاز جميع المهام في رحلة واحدة. إنها مساعدة للمزارع الصغير، الذي لا يملك من يقدم له خدمات، ويكون مضطرًا للقيام برحلة واحدة فقط».

«ماذا حدثَ بخصوص مساعد طبيب الكلاب؟»، تساءل أولافور يازتدال، الذي ربّما حلُمَ أسوةً بكثيرين غيره بِنيل لقمة العيش والمكَانة من هذا الباب. «ألم تقل في الخريف إن العمدة يفكّر بتعيين مساعد للطبيب في المقاطعة؟»

أجاب ملك الجبل بشيء من الخطورة والوقار: «بلى، لكنّ هنالك أمرًا أو اثنين لا بد من أخذهما في عين الاعتبار أوّلًا. هذه أوقات صعبة، كما تعلم، والبلاد ليست في وضعٍ يسمح لها بزيادة نفقاتها إلى حدٍّ كبير. ومن ناحية أخرى، لطالما اعتقدتُ أن تعيين مساعد هنا في المقاطعة، في حين يُفترض بي أنا تأدية هذه الواجبات، سيكون بمنزلة تمرير لنوعٍ من التصويت على حجب الثقة، ليس عني وعن الطبيب فينسن فقط، ولكن عن الحكومة أيضًا، لأن الحكومة هي التي تزود بالعقاقير. ومن جهة أخرى، سأكونُ فقط سعيدًا جدًّا بتقديم استقالتي في أي وقت. وهذا ما أخبرتُ به العمدة؛ وذلك إما أن أسلّم استقالتي أو أن أقوم بالعمل على مسؤوليتي الخاصة».

فقال أولافور يازتدال الذي لم تكن خيبة أمله كبيرة إلى هذا الحدّ: «حسن، مثلما قلتُ دائمًا؛ لو كان الدواء علميًّا ومدروسًا منذ البداية لما أصيبت الكلاب بالإمساك».

تدخّل الشيخ نيثوركوت في الحوار، وكلّهُ ثقة لا مبرر لها: «أوه، السلطات لن تغشّك!».

فوافقه ملك الجبل القول: «صحيح تمامًا، أنا شخصيًّا أعتبر أن الحكومة التي لدينا في البلاد منذ سنوات قليلة مضت قد خدمت الناس على أفضل وجه. وفي شخص الطبيب حظينا برجل نبيل متفانٍ من أجل المصلحة العامة ليمثّل دائرتنا الانتخابية في البرلمان، رجل على استعداد لبذل قصارى جهده من أجلنا، كطبيب وكإنسان وكعضوٍ في الألثينغي[1]».

1- الألثينغي: بالآيسلندية (Alþingi) البرلمان الوطني الآيسلندي، وهو أحد أقدم البرلمانات في العالم؛ أنشئ عام 930 ميلادية.

ثمّ رانَ صمتٌ لبعض الوقت، وأخذَ المزارعون يدققون النظر بإمعان في راحات أيديهم العريضة القاسية، وقد أحسّوا أن حديثهم يوشك أن يقترب من السياسة.

وفي الأخير أبدى إينار أونديرنيث ملحوظة: «يجدر بي ألا أندهش إن لم ينظر بعض الناس إلى الطبيب نظرة مختلفة إلى حدٍّ ما، وهناك أمر واحد مؤكد وهو أن أولئك الذين لا يتعاملون مع التاجر في فِيورد لن يصوتوا لمصلحة المرشح المقيم في فِيورد».

قال بيارتور: «أظن أننا جميعنا نعرف وكيلنا النجيب الفاضل، لو كانت الحكومة معروضة للبيع لاشتراها، وزادَ عليها نسبة ربح معينة، ثمَّ جالَ بها ليرى إن كان من شخص لُطخة وأحمق بما فيه الكفاية كي يشتريها».

وهنا غمغمت مدبرة المنزل مع نفسها قدّام الفرن: «من المخزي سماع الطريقة التي يتحدث بها عن وليّ نعمته، وتقريبًا، يمكنك القول إنه أبوه بالتبنّي. لا عَجب أن تلاحق المصائب شخصًا كهذا!»

كان من الواضح أن آراء إينار أونديرنيث السياسية ليست بالآراء السليمة، لذلك سارع ملك الجبل مدفوعًا بروح المساعدة ليبيّن له أين أخطأ، وقال: «لا أعتقد يا إينار أنه سبق لك أن حصلتَ على فاتورة من فينسن بكلّ الأدوية التي تناولتها والدتك المسكينة منذ عدة سنوات».

لم يكن في وسع إينار إنكار أنه كان ما يزال مَدينًا للطبيب؛ فقد تسلّمَ منه ما يقارب مئتي قارورة من الدواء.

وأشار ملك الجبل: «نعم، لا يلزمُ الأمر كثيرًا من الأدوية ليصل سعرها إلى سعر البقرة الواحدة».

هذه الملاحظة أسكتت إينار أونديرنيث للحظات، لأنه كان يعرف أن الآخرين لا بدّ أنهم مطّلعون على حقيقة رهنه لبقرتهِ ونصف مواشيه من أجل تسديد دَينهِ للوكيل في مزرعة روثسميري؛ لكنه استأنف أخيرًا بالقول إن البقرة بقرة، والدواء دواء، والحكومة حكومة، وإنه يفكر فعليًا بالبقاء في البيت خلال الانتخابات المقبلة.

ولكن كلما انعطفَ الحديث إلى السياسة، كان انتباه أولافور يازتدال

عرضة للتشتت، لأن اهتماماته كانت منصبّة في اتجاهات أخرى. كانت الرضيعة قد استيقظت الآن وبدأت بالبكاء، لذلك تركت مدبرة المنزل ما كان بين يديها للاعتناء بها. كان أولافور ذا نزعة تستعجبُ أن هذه المخلوقات البشرية الصغيرة، إن صحت تسميتها بالمخلوقات، تأتي إلى هذا العالم لتحل محلّ أولئك الذين احتجبوا سريعًا.

«أتعلمون، إنه لأمر مثير للدهشة، إن أمعنتم التفكير فيه؛ ههنا لديكم جسد جديد وروح جديدة يَطلعان إلى الوجود فجأة؛ ومن أين يأتي الجسد والروح ولماذا هما يأتيان دومًا؟ نعم سألت نفسي السؤال نفسه مرات عديدة، ليلًا ونهارًا. كما لو أنه لم يكن من الطبيعي أكثر أن يعيش الخَلْق أنفسهم في العالم باستمرار؛ حينها كان يمكن أن تكون هناك احتمالية على الأقل لأشخاص عاديين مثلي ومثلك في الوصول في نهاية المطاف إلى وضعٍ مريح ورغيد بعد طول شقاء وكَدّ».

ولكن حتى مدبرة المنزل من روثسميري لم تكن قادرة على حلّ هذه الأحجية، أو أنها لم تكن راغبة بذلك. لذلك أستأنف أولافور يازتدال الكلام:

«ومع ذلك، فإن أغربَ شيء في نظري حول هؤلاء الصغار المعتدّين بأنفسهم، هو ما قيل إنه قد ثبتَ أن الأطفال الحديثي الولادة يمكنهم السباحة من تلقاء أنفسهم بكل تأكيد إذا وضعتهم في الماء. هل جربتها من قبل يا غوندي؟»

كلا، لم تجربها مدبرة المنزل مطلقًا! ونصحَت أولافور يازتدال بفظاظة بألّا يُشيعَ هذا الخبر على نطاق واسع إن كان قد خطر له أصلًا أن يجرّبه على أولاده الذين من صلبه؛ إن تجربة مثل هذه قد تُفسَّر على نحوٍ مختلف.

وقال أولافور إنه لا خطورة كبيرة فيها، وإنه من النوع الذي لا يولي اهتمامًا كبيرًا للعبث مع الأطفال حديثي الولادة. وأضاف قائلًا: «لكن سبقَ أن سنحت لي الفرصة في بعض المرات وقضيتُ على جِراء مولودة حديثًا، وبوسعي إخباركم عنها شيئًا مثيرًا للاهتمام للغاية. قطعت رؤوس الجِراء بمطواة على ضفة النهر هناك في مَسكني، ثمّ رميت بجثثها في النهر، وهنا سؤال واحد أودُّ طرحه عليكم: ماذا فعلت الجثث برأيكم؟ هل تعتقدون أنها طَفَت، أم أنها غرقت؟»

هذا السؤال حوّل انتباه المجلس بعيدًا عن كل الاعتبارات السياسية وعن المعضلة التي فرضها ذانكَ المرشحان، الأول من فِيورد والثاني من ڤيك، على الناخبين المضطربين. المرأتان اعتقدتا أنه من الطبيعي أن تغرق جثث الجِراء، ورأى إينار أنه من الجائز أن تكون قد طَفت على السطح، بينما رجّحَ ملك الجبل النظرية القائلة إنها سوف تطفو تحت الماء.

«أوه، لا!»، صاح أولافور مأخوذًا بنشوة النصر وفخورًا لأنه تمكن من صَرفِ اهتمام الجميع إلى قنوات علمية. «لقد سبحت الجِراء؛ تمامًا مثل كلاب ناضجة مكتملة برأس وبكل شيء، وذلك صحيح مثل جلوسي هنا معكم».

ولكن في تلك اللحظة وصلت القهوة المحبوبة لتضع حدًّا لتلك المناقشة التثقيفية عن الظواهر الغريبة من الطبيعة. كانت قهوة جيدة؛ ولا داعي أن يخجل المرء من قهوة كهذه، مهما كان مستواه الاجتماعي عاليًا. إن قهوة كهذه تجعلك تتعرّق مثل حصان. تفضلوا يا شباب اشربوا، وكانت إلى جانب القهوة أيضًا حلويات لذيذة؛ قطع سميكة من كعكة عيد الميلاد المحشوة بحبات الزبيب الكبيرة، وكعك مقلي دسم، وفطائر غنيّة بالسُّكّر. تفضلوا يا شباب كلوا. انقضّ القوم على هذا الترف بكل سرور وفرح؛ ولتذهب الآراء الشخصية والاهتمامات جميعها إلى الشيطان! شَربوا بِنهمٍ الفنجان تلو الفنجان، دون أن يحدثوا صوتًا ما عدا أصوات التهام الطعام، والقضم والمضغ والقرمشة، وتنشّق الأنوف المعبأة بالتبغ.

قال بيارتور صاحب البيت الصيفيّ: «قد يمضي وقتٌ قصير قبل أن أدعوكم إلى وليمة أخرى».

في الختام كان كل شخصٍ قد أخذ كفايته من الطعام، ومسحَ فمه بكمّه وبظهرِ يده. ثمّ سادَ صمت. لقد كان صمت هذه المناسبة، الصمتُ الذي لا بدّ أن يفرض نفسه عاجلًا أم آجلًا على جميع المآتم، وكان يقطع الصمت أحيانًا صوتُ صقلِ حنجرةٍ كالّذي يتخلّلُ صمت الكنيسة، مشفوعًا مع نظرات محدِّقة في الفراغ.

«هل فكرت بأية مراسم هنا في المنزل؟»

فأتى ردُّ بيارتور: «لا، لم أستطع إقناع راعي أبرشيتنا الحَرون لكي يجرّ نفسه إلى الوادي هنا، وكل ذلك بسبب أطواره الغريبة اللعينة. لكن ذلك لن يُحدِث أي فرق».

فقال الرجل العجوز بنبرة معتذرة: «قد تفضّل والدتها لو أننا أنشدنا أنشودة مليحة أثناء تشييعها إلى مأواها الأخير. لذلك أحضرت معي «تراتيل الآلام[1]»».

سأله بيارتور: «لماذا يا رجل؟ ما الفرق الذي ستحدثه برأيك؟»

فأجاب الشيخ بقنوط: «لقد كانت ابنتنا المسيحية».

وعندما رأى بيارتور مدى إصراره سمح له بالتصرف حسبَ رغبته.

كان بيلسي واقفًا ومُسْرجًا، ومربوطًا إلى دعامة الباب؛ فرس ضخم، ذو رأس طويل، ما بين حين وآخر كانت شفته السفلية ترتعش كأنه يتحدث مع نفسه، وكان يلفُّ أذنيه بالتناوب، وفي عينيه العميقتين المتأمّلتين تنعكس كل أحداث البيت. وكانت الكلبة تئنّ خلف السلّم وتهزُّ بذيلها بين ساقيها غير متزلِّفة إلى أحد.

كانت معظم الخراف قد عادت من الجدول المجاور إلى البيت. عبرت بعضها من جوار الفرس متهزهزة إلى البيت، وبعدما تشمّمت المعالف أصدرت ثغاءً خائب الأمل لأن المعالف لم تُملأ ثانية. وتقاطرت إلى البيت المزيد من الخراف لتواجه خيبة الأمل ذاتها. واحتشدَ البعض الآخر بالقرب من مدخل الباب أو واجهت كلاب الزائرين بتحدٍّ. ساعدت الخراف بمنحِ الجنازة منظر المناصرة والولاء، ومزيدًا من المواساة، وزيادة في الدفء المحبّذ للغاية في يوم كهذا في غمرة ثلوج المستنقعات المتجمّدة، في منتصف أقاصي المروج العالية المغطّاة بالجليد. اصطفَّ القومُ حول التابوت جميعًا. وكشفَ العجوز المنديل عن مجلّد زوجته «تراتيل الألم لِـهلغريمور بيترسون» وراح يبحث عن الورقة التي علّمها بزاوية مطوية.

«ألا يودُّ أحد ذو صوت جميل أن يبدأ؟» مُرِّرَ الكتاب من واحد إلى آخر،

1- تراتيل الألم: مجموعة مؤلفة من خمسين نصًّا شعريًا بقلم القسّ والشاعر الآيسلندي هالغريمور بيتورسون (1614–1674) الذي يعتبر من أبرز من كتب مؤلفات الأدب الروحي اللوثري في آيسلندا.

ولكن على ما يبدو لم يعرف أحد اللحن، فنادرًا ما ذهب أحد منهم إلى الكنيسة، وكانوا قد نسوا كل ألحان التراتيل منذ زمن بعيد. لذلك أخذَ الشيخ الكتاب بنفسه وراح يجرب الوصول إلى النغمة. وإذ ذاك نظرت إليه نعجة وثَغت ثغاء عاليًا ملء حنجرتها. ثمّ بدأ الشيخ ينشدُ لأجل محبوبته. شرعَ يُرتّل من الموضع الذي أُخرِجَ فيه «الفَادي»، الترتيلة الخامسة والعشرين: «كثير من الجراح علّني أرقدُ بسلام»، كان يحفظها كلها عن ظهر قلب، دون النظر إلى الكتاب، إلا أن صوته كان بلا نغمة وأجشّ ولم يستطع الثبوت على نغمة محددة. حتى الرجال من حوله شعروا بأنه لا ينشدُ جيّدًا.

«وهكذا ستقول ملائكة الربّ: انظروا إلى هذا الرجل».

نَصَبَ الحصان أذنيه ثم صَهَل. ومرة بعد مرة عَوت الكلبة عواء مُحزِنًا، كما لو أن أحدًا ما كان يعذبها، ومأمأتِ الشّياه، مثل موكب جنائزي طويل، في الداخل والخارج معًا، لأنها لم تُعطَ أعلافها. غنّى المقطع الأخير بصراخ غير مدوزن: «حقًّا أنك ابن الله[1]».

وانبجست الدموع بلا توقف من الجفنين الملتهبين حتى تخَضّلت اللحية الشعثاء. كان نطقه صعبًا للغاية وبهِ لُثغة أيضًا بسبب أسنانه المفقودة، كان إنشاده أحيانًا عبارة عن رعشة ضعيفة في الحنجرة والفكّين. كان مثلَ أيّ طفلٍ عاجز عن الكلام وقد انتحبَ وقتًا طويلًا. ثمّ عمَّ الصمت المكان.

«أليس من الأفضل أن نتلو الصلاة الربّانية؟»

أمسكَ ملك الجبل الشيخَ من ذراعه لئلا يقع، وهمسَ: «غوندي هنا تريد أن تعرف إذا ما كان من الأفضل أن نردد الصلاة الربانية».

وهكذا نطقَ الشيخ بالصلاة الربانية باكيًا، دون أن يتوقف عن الارتجاف، دون أن يرفعَ رأسه، دون أن يرفع المنديل عن عينيه. أكثر من نصف الكلمات غرقت في شهقات بكائه؛ ولم يكن من السهل فهم ما يقول: «أبانا الذي في السّموات، نعم، البعيد إلى أبعد الحدود ولا أحد يعلم أين تكون، في أي مكان تقريبًا، أعطنا اليوم فقط بضع كِسرات من الخبز كي نأكلها باسمِ مجدك العظيم، واغفر لنا إن لم يكن بوسعنا تأدية ديوننا للتاجر والدائنين، وَجنِّبنا،

1- إنجيل متى الآية 54:27.

في المقام الأول، الوقوع في غواية السعادة، لأن لك المجد والملكوت»، ولعل من الصعب أن نتخيّل المكان الذي اختيرَ بعناية لهذه الصلاة الجذابة، كانت كما لو أن المسيح كتبها لهذه المناسبة.

وقفوا برؤوس مَحنيّة، جميعهم باستثناء بيارتور الذي ما كان ليفكر بأن يحني رأسه لصلاة غير مُقفّاة. رفعوا التابوتَ إلى الخارج. وضعوه على ظهر الحصان وربطوه بالسَّرج، ثم وضعوا يدًا على كل طرف من أطرافه لإبقائه ثابتًا.

سأل العجوز: «هل تحدّثتم إلى الحصان؟»؛ وبما أن ذلك لم يكن قد حدثَ بعد، مسكهُ من أذنه بكلتا يديه وهمسَ فيها، وفقًا للعرف القديم، ذلك أن الأحصنة تفقهُ هذه الأمور:

«أنت تحمل تابوتًا اليوم. أنت تحمل تابوتًا اليوم».

ثمّ تحرك موكب الجنازة.

سارَ ملك الجبل في المقدّمة، وحرصَ قدر الإمكان على السير في البقع الخالية من الثلج، وذلك للتقليل من خطر وقوع الحوادث. قادَ إينار أونديرنيث الحصان، ومشى أولافور وبيارتور عند طرفي التابوت، وهَدَجَ العجوز في الخلف، بِعصاه وقفّازيه الضخمين وإبهاميه المُرفرِفين.

ووقفت المرأتان على عتبة الباب وجهاهما متورّمان من البكاء، وراقبتا الموكب وهو يختفي في دوّامة من الثلوج.

***

22. ثلوج متطايرة

كان المسير فوق التلال بطيئًا، لأنه في كثير من الأحيان كان من المتعذّر إيجاد طريق سالكة مهما انحرفوا عن مسارهم. غرقوا في الثلوج العميقة المتراكمة على سفوح التلال مرارًا وتكرارًا، وكان عليهم البقاء متيقظين طيلة الوقت وإلّا انقلبَ التابوت عن السّرج. لم يصل الجثمان إلى روثسميري حتى وقتٍ متأخر من الأصيل. وقد أوشكَ الغسقُ على الحلول. كان القسّ

قد وصلَ قبلهم بوقتٍ قصير؛ وعلى الرغم من أن وجهه كان غامضًا كلّيًا، فإنه كان من الواضح أنه على عجلة من أمره. كان عدد قليل من الزوار الآخرين أيضًا بانتظار الجنازة والقهوة التي ستعقبها. حُمِلَ التابوت مباشرة إلى الكنيسة امتثالًا لطلب القسّ، وقُرِعت الأجراس. واهيًا كان صوتها، ضعيفًا كان اختراقها لجبروت طبيعة الشتاء المتجمدة. ولم يُعِد قرعها إلى الأذهان سوى صليل لعبة الأطفال.

جاءَ القوم تباعًا من خلال الثلوج المنجرفة مع الريح ودخلوا الكنيسة، مُتهيّبين في مواجهة الموت الذي لا يتبدى مُبرَمًا ولا رجعة عنه كما هو الحال حينما ترنُّ أجراسٌ كهذه بكلِّ عجزٍ في الفضاءات البيضاء الباردة ليومٍ آفِل. لم تأتِ زوجة الوكيل إلى الجنازة، ولا حتى مجرد مُتفرّجة. حتى إنها في يوم شتوي كهذا لم تشعر بأنها على ما يرام؛ أُصيبت بنزلة برد على ما يبدو، وكانت جالسة في منزلها تتنشّق الماء الساخن مع الملح الذي يضمن لها القضاء على أي نزلة برد. ومع ذلك، حضرَ الوكيل بحد ذاته، وهو وإن كانَ قد ارتدى سرواله القديم الذي تهرّأ القماش حولَ رُقعاته، فقد لبسَ على الأقل سترة مختلفة تقديرًا للمناسبة، واتّخذ لنفسه مجلسًا عند مذبح الكنيسة في الصدارة كالعادة، وحرصَ على عدم فتح فمه أثناء تأدية الصلاة. كان بيلسي مربوطًا عند البوابة، وبما أنه لم يكن مسموحًا للكلاب بالدخول بسبب الطقوس، انتظرت عند العتبة، مرتعدة من البرد.

دخلَ القسّ مرتديًا ثوبه الكهنوتي المجعد ورباطًا أبيض حول رقبته لأن المناسبة لم تكن على ذلك القدر من الأهمية ليرتدي الطوق. بدأ بعض المزارعين بالغناء: «أنا حيٌّ وأعلم»، كلٌّ بلحنه الخاص به. كان الرجل العجوز جالسًا في الخلف، وقد كفّ عن البكاء، كما لو أنّ أحاسيسه نَضبت. أثناء الموسيقى أخرجَ القسّ ساعته مرتين أمام التابوت، كأنه لم يكن لديه الوقت لمثل هذه الأشياء. حينما انتهت الموسيقى، ارتدى نظّارتيه، وتلا الصلاة من كتابه القديم المهترئ. كانت صلاة قديمة، كما كان متوقعًا في طقس كهذا، وعلاوة على ذلك، كان صوت الرجل مبحوحًا. بعدئذ، وعوضًا عن المطوّلة التي توعدَّ بها، ألقى موعظة قصيرة، بيّنَ فيها أن الأرواح الشريرة تتربّص بالجنس البشري وَتنصب له الكمائن،

ثمّ شرع بعد ذلك في مناقشة عدم الإيمان بلغةٍ لا تخلو من الهجاء والذمّ. قال إن كثيرًا من الناس أهملوا خالقهم في حين كانوا يطاردون الخراف الخرقاء عبر الجبال. سألَ: «وما هي الخراف؟» ليجيب على سؤاله بنفسه بأن الخراف كانت لعنة كبيرة على الأمة الآيسلندية أكثر مما هي الثعالب والديدان الشريطية معًا. ففي لبوسِ الخروف يتنكرُ ذئبٌ متوحش يُشار إليه أحيانًا في هذه المقاطعة باسم «عفريت ألبوغاستثير»، وكولمكيلي هو اسمه الآخر. يجري الناس خلف الخراف طوال حياتهم ولا يجدونها أبدًا. هذا هو الدرس الذي من الممكن أن نتعلمه اليوم من الفراق الذي أثقل صدورنا».مكتبة سر من قرأ

انتهت الموعظة، واستبقى بضع كلمات للحديث عن سيرة حياة المرأة المتوفاة، ولم يكن من سيرة في الواقع، وإنما دليل على مدى ضآلة أهمية الفرد كما يظهر في سجلات الأبرشية. «وما المرء بوصفهِ فردًا مستقلًّا؟ لا شيء! مجرّد اسم، تاريخٌ ليس إلا. اليوم أنا، وغدًا أنت. لِنتّحد في الصلاة والتضرع إلى الله الذي يسمو فوق الفرد، بينما تتعفن أسماؤنا في السجلات. «لا بكاء، ولا عويل ولا صرير على الأسنان، ولا انفعال، ولا تمزيق لأوتار القلب» - صلاة ربانية ناعسة، وآمين مقتضبة. كان القسّ في تناقضاته لُغزًا بقدر ما كان البلد نفسه؛ فهو محبّ للدين يتعمّد إغاظة أناس لم يفكروا بشيء سوى الكلاب والأغنام، ومربي أغنام خبير بسبب ازدرائه للأغنام، وقسٌّ آيسلندي يتوافق مع الحكايات الشعبية الممتدة منذ آلاف السنين. كان حضوره وحده تأكيدًا مُطمئِنًا بأن كل شيء كما ينبغي له أن يكون.

ثُمّ حُمِلَ التابوت إلى الخارج.

أُنزِلَ في القبر بواسطة حبلين، ومكثَ المشيّعون حول الحافة لمدّة طويلة. ثلاثة مزارعين برؤوس حاسرة أنشدوا في الثلوج المتطايرة مع الريح: «كزهرِ العُشب كذلكَ يُزهِرُ»، كان اليوم أشبه بيومٍ لإحياء ذكرى «هلغريمور بيترسون»، كان يومًا باردًا. وقفت الكلبة بجانب بيارتور وهي تئنّ؛ مُنكسرة كما لو أنها ضُرِبت بالسّياط، وكانت ما تزال ترتجف. نثرَ القسّ حفنة من التراب على النعش بصمت، ثمّ بتلذذ صاحبٍ تنشّق مقدراين وفيرين من

السعوط من الصندوق الذي قدّمهُ له كاتب الأبرشية «ملك الجبل». التقطَ حَمَلَة النعش المجارف بِهمّة وشرعوا في العمل دون هوادة. بينما انسحب الآخرون الواحد في إثر الآخر.

***

23. نيران الصقيع

لم يعد بيارتور إلى منزله حتى اليوم التالي. مشت الكلبة إلى جانبه بخطىً قصيرة محفوفة بالسعادة المرتقبة. من الجميل العودة إلى البيت. وكانت كلما سبقت سيّدها ببضعة أمتار توقفت واستدارت للنظر إليه بعينينٍ مُفعمتين بثقة لا تتزعزع، ثم ترجع إليه في منحنىً كبير. كان توقيرها لسيّدها عظيمًا للغاية لدرجة أنها لم تجرؤ حتى أن تتقدّمه في السّير. إن الكلب يجد في الإنسان الأشياء التي يفتّش عنها. انحنى إلى الأمام في هبّات الثلوج المنهمرة، كان يقودُ بيلسي من لجامه، وما بين حين وآخر يلقي نظرة على كلبته؛ يالها من كائن صغير مسكين، مصابة بالبراغيث والديدان، ولكن أين يمكن العثور على الإخلاص والوفاء إن لم يكن في تينك العينين البُنيّتين؟ حيثُ الولاء الذي لا يقوّضه شيء؟ لا شيء يمكنه إخماد هذا البريق، لا الشقاء ولا سوء الحظ ولا الخزي ولا وخزات الضمير، ياللكلبة الصغيرة البائسة، في عينيها يجب أن يكون بيارتور صاحب البيت الصيفيّ دائمًا الأعلى والأعظم والأفضل والذي لا نظير له. الإنسان يجدُ في عينيّ كلبه الأشياء التي يُنشدها. تبًّا، ولكن بيلسي ثقيل اليوم في سياقته. ومع ذلك فإن على ظهره مخلوقًا حيًّا. مخلوق حيّ؟ ومن يكون؟ إنها السيّدة العجوز من آل أورثارسيل، كانت راكبة على السرج عَرَضًا بأن جعلت رجليها من جانب واحد وظهرها من جانب آخر، مُلتفِعة حتى عينيها بالشّالات والأردية. وكانت أغراضها وأغراض ابنتها متدلّية من السرج. مشت «فينا» في إثرهما؛ في وجهها حُمرة من عضّة الصقيع، مشيتها خرقاء، وتنورتها مثنية إلى ما فوق ركبتيها.

لم يَفه أحد بكلمة. زحفَ الموكبُ الصغير قُدُمًا في اتجاه البيت الصيفي، بشرًا وحيوانات، خمس أرواح. كانت الشمس الحمراء الشاحبة

تعترشُ منحدرات المروج في هذا الصباح الشتوي الشمالي الذي كان في الحقيقة كما المساء. ومع ذلكَ انتصفَ النهار. وشّى الضياءُ بالذهبِ قطعَ الغيوم الحُبلى بالثلج والمنتشرة فوقَ المروج فَبدت مثل محيطٍ لا متناهٍ من النار، مثلَ نيرانٍ مشعّة من الذهب، تدفقت منها ألسنة اللهبِ ودُخان هَفهاف خفيف؛ امتدّت فوقَ المدى الشاسع المتجمّد بأكمله من الشرق إلى الغرب. عبرَ نيران الصقيع الذهبية هذه، التي لا تُقارن في سحرها سوى بأعظم قصائد البالاد وأشدها إتقانًا وتنميقًا؛ سلكوا دربَ العودة إلى الموطن.

استقبلت المرأتان من «مزرعة ميري» الواصلين الجدد بمجاملة غبية مفرطة، وألحّتا في طلبهما للحليب الذي وعدَ بيارتور بجلبه معه عند إيابه، ذلك أنهما اضطرتا إلى إطعام الطفلة الرضيعة عصيدة مُخفّفة في جِراب الرضاعة. وعندما صنعتا القهوة للوافدين الجدد كانت مهمتهما قد انتهت، وشرعتا في لملمة أغراضهما استعدادًا للرحيل. عرضَ عليهما بيارتور مرافقتهما عبر التلال؛ لكنهما رفضتا مع الشكر، وودّعتاهُ هو والمرأتين بنفسِ اللباقة التي استقبلتاهم بها. تُرِكت «فينا» مع الطفلة في حجرها لتعطيها زجاجة الحليب للمرة الأولى. وبدأت الحيزبون الهَرِمة باستكشاف المنزل.

حالما تفقّد بيارتور الماشية؛ مضى إلى فراشه مع أن الوقت كان ما يزال مبكرًا في ذلك الوقت من المساء. لقد شعر بأنه لم يسترح حقًّا منذ الليلة الأخيرة التي أمضاها في المنزل مع روزا. كان سعيدًا لأنه على الأقل قال لها وداعًا قبل أن يغادر. كانت جولة مُجازِفة، ولم يشعر أنه عادَ فعلًا حتى ذلك المساء. منذ رجوعه من البراري كان في كل مرة يضع فيها رأسه على الوسادة لينام، وبمجرّد أن يغفو، كان يشعرُ بعاصفة ثلجية تصفع وجهه فجأة، ويدبُّ في ساقيه خَدرٌ حِسّي، وَيسري إلى فخذيه، وصولًا إلى بطنه. ويفزُّ من نومه مذعورًا، وهو على ثقة بأنه سوفَ يموت في العاصفة إن أسلمَ نفسه للنوم. لهذا السبب كان نومه لاحقًا سيئًا على الدوام. كان يصحو في منتصف الليل وعلى شفتيه قصائد فاحشة، أو هجائية قديمة بذيئة في حق تجّار أو وكلاء مزارع، ويكون على وشكِ القفز من السرير والارتطامِ على نحو عنيف قبل أن يثوب إلى رشده.

ولكن في هذه الليلة شعر أنه لم يعد في خطر.

أُطفِئ المصباح على الجدار بهدف التوفير، ولكن من فوقِ فراش المرأة العجوز انبعثَ وميض خافت من شمعة صغيرة على الرفّ. جلست الأم وابنتها وقتًا طويلًا تتهامسان في بصيص الضوء الآتي من الفتيل المغموس في وعاء الشمع. وما بين حين وآخر كان بالإمكان سماع الخراف من الأسفل وهي تتجشأ، أو بيلسي يُنقّل قدميه في مربطه الضيّق، ويطلقُ شخرة صغيرة في المذود. ومن آنٍ إلى آخرٍ كانت الكلبة تنهضُ حيثُ كانت مستلقية قبالة الجدار تحت الموقد، وتحكُّ نفسها فترتطم قوائمها الخلفية بالجدار أثناء العملية، تتثاءب، ثمّ تتكوّر من جديد. ومن على السرير في الجهة المقابلة كانَ يُسمعُ تنفّسُ الطفلة الخفيض، وأنّةٌ عابرةٌ كما لو أنها على وشك البكاء. إلا أنها لم تبك، وإنما غفت من جديد.

انتهى الهمسُ أخيرًا، وبدأت «فينا» بخلع ملابسها. سمعها وهي تحلُّ أزرار معطفها، بعدئذ خرجت من التنورة. وبشيء من المشقّة سحبت تنّورة ضيقة تحتية إلى ما فوق رأسها. ثمّ دخلت في الفراش إلى جانب الرضيعة، وخلعت بقية ملابسها تحت اللحاف. سمعها وهي تفكُّ مزيدًا من الأزرار، ثمّ تملّصت من ملابسها التحتية. بعد ذلك تمددت، وحكّت نفسها هنا وهناك، وتثاءبت بصخبٍ ونُعاس.

كانت المرأة العجوز ما تزال جالسة في ضوء الشمعة الخافت على حافّة سريرها، وقد اعتمدت بمرفقيها على حجرها ووضعت إصبعًا في لثّتيها الخاليتين من الأسنان. كانت تحدّقُ إلى الأسفل عبر كوّة الباب الأرضي، وتتمتمُ من حينٍ إلى آخر. ذهبت مرّتين إلى الباب الأرضي، وصاحت على شيء ما: «عارٌ عليك!» ثمّ تَفّت. في المرة الثانية وقفت مكانها وأخذت تتأرجح للأمام والخلف حينًا من الوقت، ثمّ نظرت إلى الأسفل وغمغمت:

قُبّحتَ، أيها الثعلب الكاذب،
إليكَ عَن مَسْكني؛
على هذا الباب يقرعُ المسيح،
فانصرف من هنا بِأمرهِ.
تَنحَّ يا كوركر، بِاسمِ المسيح، انصرِف يا كولمكيلي،

بِجاهِ ملائكة الله،
انصرف يا ريجريست،
بِحقِّ يسوع المسيح،
انصرف يا فالديكتوس،
بجاهِ البابا بينديكتوس»...

حينما تلت هذه الصلاة المقدسة القديمة، رسمت إشارة الصليب على نفسها، وقالت: «استودعنا أنفسنا في يدِ الله، ليلة طيبة» ثم أوصدت الباب الأرضي ومضت إلى النوم. وبهذا كانوا جميعهم قد أسلموا أنفسهم لسلطان النوم.

***

الجزء الثاني

براءة من الديون

مكتبة
t.me/soramnqraa

24. صباح شتويّ

رويدًا رويدًا يفتح الشتاء عينه القطبية الشّمالية.

منذ اللحظة التي ترمشُ فيها عينه رمشة ناعسة وحتّى الوقت الذي يفتحُ فيه جفنيه الثقيلين على وسعهما؛ لا تمرّ ساعة تلو ساعة فحسب، لا، بل تمرّ أزمان وأزمان عبرَ رحابة الصّبح التي لا تُقاس، عالمٌ يتبع الآخر، كما في خيالِ إنسان أعمى؛ الواقع يتبع الواقع ليس إلا. والضوء يزداد سطوعًا. بعيدٌ جدًّا اليوم الشتوي في صباحه. وحتى صباحه بعيدٌ عن نفسه. إن أول وميض خافت في الأفق، والإشراق الصريح المكتمل على النافذة أوان الإفطار أشبه ببدايتين مختلفتين؛ بنقطتي انطلاق. ولمّا كان صباحه عن الفجر بعيدًا، فكيف ينبغي أن يكون مساؤه؟ أوقات الضحى والظهيرة والعصر بعيدة مثل بلاد نحلم برؤيتها حينما نكبر؛ والمساء بعيد ولا يُصدَّق كما الموت الذي أُخبرَ عنه البارحة الابن الأصغر، الموت الذي يخطفُ الأطفال الصغار من أمهاتهم، ويجعل القسّ يدفنهم في المدفن الخاص بالوكيل، الموت الذي لا يرجع منه أحد، كما في حكايات الجدة، الموت الذي يستدعيك أنت أيضًا، حينما تكبر كثيرًا حتى ترتدّ طفلًا من جديد.

كان قد سألَ: «إذن، هل وحدهم الأطفال الرضّع من يموتون؟»

لماذا سأل؟

كان ذلك لأن والده البارحة ذهبَ إلى مساكن الريف مع الطفل الصغير الذي مات. حمله في صندوق على ظهره لكي يدفنه القسّ ووكيل المزرعة. حفرَ القسّ حفرة في مدفن الوكيل وأنشدَ أغنية.

سأل الصبي ذو الأعوام السّبعة: «هل سأصير مولودًا صغيرا مرة أخرى؟»

فأجابته أمهُ بَوَهنٍ من على فراش المرض حيث كانت مستلقية؛ أمّه التي تغني له الأغاني الرائعة وتحكي له الكثير عن البلاد الأجنبية: «عندما يتقدّم أي واحدٍ بالعمر كثيرًا يصير مثلَ طفلٍ صغير من جديد».

فسألها الطفل: «ويموت؟»

انقطعَ وترٌ في صدره، إنه أحد أوتار الطفولة الحساسة التي تنقطعُ قبلَ أن يتسنّى للإنسان الوقت الكافي لكي يدرك أنها قادرة على الرنين؛ ولا تُصِدر هذه الأوتار صوتًا بعدئذ، وإنما تغدو مذّاك الحين فصاعدًا مجرّد ذكرى من أيّام مدهشة.

«كلنا نموت».

في اليوم التالي أثار الموضوع ذاته مجدّدًا، ولكن مع جدته هذه المرة:

قال: «أعرف شخصًا لن يموت».

«حقًا يا صغيري؟» تساءلت، وهي تتفرس به باستخفاف، ورأسها مائل إلى جهة واحدة بعض الشيء، كَدأبها كلما نظرت إلى أحد. «ومن يكون يا ترى؟»

«أبي»، أجاب الصبي بحزم. ومع ذلك لم يكن واثقًا تمامًا بأنه لم يرتكب خطأ ما، لأنه ظلّ ينظرُ إلى جدّته بعينين مستفسرتين.

«أوه، سيموت، سيموت بالفعل»، زفرت المرأة العجوز هازئة وبلا رحمة، بشماتة تقريبًا، ثم تمخّطت بشدّة.

ولم يزدد الصبي من هذا الجواب إلّا عِنادًا، فسأل:

«هل تموت ملعقة تحريك الطعام الخشبية يا جدتي؟»

فقالت العجوز غاضبة، كما لو أنها ظنت بأنه يسخر منها: «وهذه ستموت أيضًا!»

«ولكن، يا جدتي، ماذا عن القِدر الأسود؟ هل يموت ذلك؟»

ردّت بحدّة: «هذه سخافة يا ولد! كيف يموت الشيء وهو ميت مسبقًا؟»

قال الصبي الصغير: «ولكن الملعقة الخشبية والقِدر ليسا ميتين، أنا أعرفُ أنهما ليسا ميتين. كثيرًا ما أسمعهما وهما يتحدّثان معًا حينما أصحو في الصباح».

يا له من أحمق! لقد أفشى سرًّا هو وحده من يعلمه، فهو وحده من اكتشفَ خلال مرحلة من مراحل الصباح، الأكثر دهشة ربما، بأن القدور والمقالي وغيرها من أواني المطبخ تُغيّر أشكالها، وتغدو رجالًا ونساء. باكرًا في الصباح، حينما يستيقظ قبل الآخرين بوقت طويل، ويبقى مستلقيًا، كان يسمعُهم وهم يتحدثون بعضهم مع بعض، بهدوء جسيم وكلمات رزينة تليقُ فقط بالأواني المنزلية وحدها. وليس من قبيل الصدفة وحدها أن أشارَ إلى الملعقة الخشبية أوّلًا، ذلك أن الملعقة الخشبية، على كل حال، هي من النوع الأرستقراطي من بين الأواني؛ قلّما تُستخدم، ثمّ أنها تخصّ مرق اللحم، الطبق الأشهى من بين جميع الأطباق، فهي تمضي كل وقتها بوجهٍ عام معلّقة على الحائط بخمولٍ تزيينيّ وبمنتهى النظافة. وعلى الرغم من ذلك، حالما تُنزَل من على الجدار، فإن الدور الذي تلعبه في القِدر جدير بالملاحظة. من أجل هذا السبب كان الصبيّ ينظرُ إلى الملعقة الخشبية نظرة إجلال استثنائية، وكان يشعر بأنه لا أحد يمكنه أن يُشبّهه بها سوى زوجة الوكيل. وأما القِدر الأسود، الذي كان دائمًا مملوءًا حتى الحافة، وفي قاعهِ قشرة صلبة محترقة، ومن تحتهِ كثير من السُّخام، هذا القِدر الأسود لم يكن سوى وكيل مزرعة ميري الذي كان فمه محشوًّا بالتبغ على الدوام. كان من السهل رؤيته وهو يغلي في بعض الأوقات، وكان من المؤكد أن في داخله نارًا، ويستلزم زوجة الوكيل كي تحرّكه لكيلا يفور من الغليان في المناسبات الرسمية. وكانت أشياء الطبخ الأخرى جميعها متشابهة؛ في العتمة تتحول إلى رجال ونساء. بعضها ثريّ ومهم، والبعض الآخر فقير لا قيمة له. كانت السكاكين فلاحين بشعين يخشاهم ويبغضهم، والفناجين سيدات شابات قصيرات وسمينات، لديهن أزهار على مآزرهن، واللائي مع زهورهن يُشعِرنَ الصبي بالخجل؛ وكان يتحاشى لمسَ هؤلاء الناس أثناء الوجبات في ضوء النهار الساطع،

كانَ يتجنّب حتى مجرد النظر إليهم وإن كانت لمحة خاطفة، خشية أن يقرأوا في وجهه كل ما يعرفه عن مغامراتهم. ليلًا؛ كانوا راضين عن أنفسهم واثقين بها أشد الثقة، وفي النهار كانوا غير مرتبين وملطّخين ومُذَلّين مثلَ ضيوف خجلين من ذاتهم؛ يجلسون وينشقون ولا يجرؤون على التحرّك. هو الذي عرفَ الكثير عن حريتهم ليلًا كان يأسى لعبوديّتهم في النهار. كان من بين الأواني إناء مستقل بنفسه عن الليل والنهار، عن حرية الظلام، وعبودية النور؛ إناء طغى على الآخرين ببهائه ورونقه فجعلهم يبدون كأنهم قمامة. تأتّت أهميته من كونه محفوظًا دائمًا بعيدًا عن الأنظار أسفل صندوق الملابس. ولا يراه الأولاد إلا إذا حضر زوّار ذو شأن في عيد الميلاد أو احتفالية أول أيام الصيف، وحتى حينذاك لا يُسمَح لهم بلمسهِ، إذ كان نفيسًا للغاية. إنه طبق الكعك الخاص بأمه الذي كان هدية من امرأة الوكيل. كانَ أجمل طبقٍ في العالم كله. كان عليه صورة بيتٍ بديع شبه متوارٍ خلفَ شجيرات مزهرة. وفي الطريق المؤدية إلى المنزل، كانَ ممرٌّ لطيف متعرج، وعلى جانبيه عشبٌ أخضر وشجيرات مبتسمة. ومن هي التي كانت واقفة في الممر بثوبها الأزرق وقبعتها البيضاء، تحمل الوردَ في يدها، والشمسَ في قلبها؟ كان يعرف جيّدًا من تكون لكنه لم يخبر أحدًا بذلك. لقد كانت ابنة الوكيل، أودور، التي سافرت إلى الخارج في الخريف، وستعود في الربيع مثل الطيور. وكان البيت شبه المختفي خلفَ حديقة من الزهور هو بيت أودور في البلاد البعيدة. ذات يوم لن يكون «نوني» الصبي الصغير الذي ينام في فراش جدّته.

جلسَ لبعض الوقت بجوارها على السرير صامتًا، ومنشغلًا بحياكته. إلا أنه لم يعد بمقدوره البقاء صامتًا.

فقال: «أعرفُ شيئًا»، وأسقطَ الصنانير من يده وهو يحملق في وجه جدته، «أراهنك بأني أعرفُ شيئًا لا يمكن أن يموت أبدًا، أبدًا!»

«وَاه!»

كرر قائلًا: «أبدًا».

«حسن، أخبرني إذن ما هو، يا ولد. أفصِح!»

قال بإصرار وتصميم: «لا، لن أخبر أي مخلوق به».

سحب خيط الصوف مرة أخرى بسبابة يده اليمنى، وصنع منه عقدة استعدادًا للغرزة التالية. قد يفلتُ منه من حينٍ إلى آخر سرٌّ أو اثنان، ولكن كان هناك شيء فوق الحياة والممات، وفوق حرية الظلام، وإذلال النهار. شيء ما لن يخبر به أحدًا. إنه سرُّ طبق الكعك الخاصّ بأمه.

ثمّة أمور تملأ قلب الإنسان بخيبة الأمل أكثر من الاستيقاظ عندما يكون الجميع نائمين، خاصة إن حدث هذا في الصباح الباكر. ليسَ يدرك المرء حتى يصحو من نومه كم تجاوزت أحلامه حدود الواقع. كان كثيرًا ما يحلم الابن الصغير بعشرة سنتات، أو بربع دولار أو حتى ربعين، لكن كان يخسرها كلها حالَ استيقاظه. كانَ في حلمه يحتسي مرق اللحم، ليسَ من زُبدية، ولكن من حوض، ويأكل لحمًا مشحمًا حتى يشرشر الدهن من كوعيه. وكان يلتهمُ قطعًا كبيرة بلا حدّ من كعكة عيد الميلاد من طبق الكعك، قطعًا سميكة للغاية لدرجة أنه كان بإمكانه أن ينشل منها حبات زبيب كبيرة بحجم العين. تلكَ هي الفائدة التي يمكن للنفس البشرية أن تجنيها من أحلامها. ولكن مهما حاول، كان يفشل في النوم والعودة مجددًا إلى أطايب الطعام هذه، أو إلى قطع العملات المعدنية التي كانت في حوزته، والتي كانت دومًا من الفضة، مثل المال الذي يناوله أبوه للوكيل مقابل الأرض، والتي كان ينفقها في أحلامه على الزبيب والبسكويت، بالإضافة إلى سكين الجيب وبعض الخيوط.

كان عادة ما يصحو متضوّرًا من الجوع، وكان يرقدُ وبه توقٌ إلى حُلمه مثلَ كلبٍ متلهف على عظمة أضاعها، ولكنه كان قد حُذِّرَ تحذيرًا صارمًا بألا يوقظَ أحدًا من أجل طلب الخبز؛ وإلا قيّده أبوه في المبنى الخارجي مع «القس غودموندور» الكبش وأخيه الكبش الآخر، اللذين كانا يتناطحان طيلة الليل أحيانًا. كان هذا المنظر من أبغض المشاهد في تصوّره، فهو لم يفزعه حيوان بنصف القدر الذي أفزعه به «القسّ غودموندور». هذا الكبش الذي كَرِه مرأى البشر اتبّع حيلة خبيثة بأن كان يطارد الصبي طيلة أحلامه وعبرها، وكان الصبي يركض بأقصى استطاعته، من حلم إلى آخر، هاربًا بفزع من هذا الوحش، الذي على الرغم من ثقة أبيه بسلالته فإنه كان خارقًا للعادة في

بشاعته، كما تكون كعكة الميلاد ومرق اللحم خارقين للعادة في روعتهما. وبالتالي قد يدخل في حلم المرء أيضًا عنصر من الخطر.

لكي ينسى جوعه الشديد كان يهدأ ويركّز كي يصغي إلى القدور والأواني وهي تعقد اجتماعاتها الليلية في الخزانة وعلى الأرفف. عمّ كانوا يتحدّثون آنئذ؟ ليس من السهل على صبي صغير أن يتتبع خيطَ حديث الكبار؛ كانوا يتكلمون مثل أهل المنطقة في الجوار، كلّ واحد يتنافس مع الآخر للحصول على فرصة للتكلّم بطريقة ما، أو لجذب الانتباه على الأقل، والجميع يتذمّر من الفقراء الذين يعيشون عِيالًا على أبناء الرعية، ومن عِبء كبار السّن الذين لا يبدو أنهم يموتون في سنّ مقبولة. ومن الضرائب هذه الأيام، يا إلهي! كما أنهم يتذمّرون بشدّة من العادات المبذّرة عند الشابات هذه الأيام، ومن هجرة الشباب إلى المدن، ومن الظروف العصيبة، ومن ارتفاع أسعار الذُّرة، ومن الدودة الجديدة التي كانت تهاجم الخراف بدلًا من الدودة الشريطية. ورأت ملعقة تحريك الطعام الخشبية أن كلّ هذه الشرور كانت بسبب قلّة الموسيقى. لقد كان غريبًا كم بدت أدوات المطبخ ناضجة في التعابير التي تستخدمها. ولن تكن قوّة التفكير العقلاني التي أظهروها في محادثتهم هي أكثر ما أدهشَ الصبي، وإنما المعرفة والخبرة وثراء المفردات التي تجلّت فيها؛ أسماء أماكن قَصيّة، زيجات في أجزاء أخرى من البلاد، أشعار بارعة الصياغة، كلمات الشتائم، وأخبار من المدينة. حتى إنهم في بعض الأحيان يتشاجر واحدهم مع الآخر. كان أحدهم يقول إن الأُرغُن في الكنيسة لم يكن جيّدًا بما يكفي، أو إن التعامل مع التاجر في «ڤيك» أفضل من التعامل مع التاجر في «فِيورد»؛ بعضهم كان لديه أطفال غير شرعيين، والبعض الآخر لا يؤمنون بالاستقلال الوطني، وذهب آخرون إلى ما هو أبعد من ذلك بأن قالوا إن من الأفضل مِلء القدر بفضلات الحصان. وأراد بعضهم كتابة شعر على النحو التالي:

إذا ما اشتدّ النزاع يا بحيرة يا رفيقي،
وكنتَ وغدًا تُعارض كلامي؛
إن كافح فلا يجب أن يحزن،
لإنهاء شهرته المزعجة.

بعضهم الآخر يُعجبه أن يكتب:

سيري ريمزي بومزي برامز
فيري ليمزي فيري، كيري سيمزي رومزي رامز،
ريري ديمزي نيري.

واأسفاه، ألم يَطلع النور بعد؟

وبحذرٍ شديد، ولئلّا يستثير أشباح الظلام، رفعَ رأسه واختلسَ النظر من فوقِ حافة السرير.

كلّما دنا الصباح، بات جليًّا أن أدوات المطبخ تستنفد مخزونها من الحكمة تدريجيًّا. وحالما تضاءلَ تحادثهم أصبحت أُذن الصبي أكثر رهافة للأصوات الأخرى. في الأسفل تزاحمت الخراف ووقفت على أقدامها، نخرت قليلًا، وقضت حاجتها بعد الليل. بعض الخراف شبّت على قوائمها الخلفية كي تتشمم بقايا التبن من الليلة الفائتة، أقحمت قرونها في المذاود، أو راحت تدافع بعضها بعضًا. بمجرد أن سمع الخراف تنهض على أقدامها؛ استيقظَ في صدره الأمل.

ولكن من بين جميع إشارات توقيت الصباح، كان شخير أبيه أكثر ما يُعوَّل عليه. في الفجر، عندما يصحو الصبي، كان يشخر شخيرًا متواصلًا مديدًا، وعميقًا عميقًا. هذا النوع من الغطيط، في الواقع، لم يكن منتميًا إلى الصباح بل إلى الليل نفسه. كانت سلسلة الشخير هذه لا علاقة لها بالعالم الذي نعيشه ونستيقظ فيه؛ كانت رحلة مغايرة عبرَ فضاءات مائلة، ومرّات لا تحصى، وأكوانٍ متطرّفة، نعم، قليلة هي القواسم المشتركة ما بين جياد مسيرة الخيالة هذه وبين جياد عالمنا، والأقل منها هو الشبه ما بين المناظر الطبيعية في حياة الشخير والمناظر الطبيعية في حياتنا.

ولكن مع اقتراب الصباح، كان شخير أبيه يفقد صداه تدريجيًّا، وتذوب أنغام الصدر المدوّية في سلّم تصاعدي ببطء؛ تنتقل إلى الحنجرة بدرجات متفاوتة، ومن الحنجرة إلى الأنف والفم، ثمّ إلى الشفتين مع الصفير، وأحيانًا مع نفخة رجراجة؛ مما يعني أن جهة الوصول كانت قريبة، فتتبختر الجياد

بمرح لدى اجتيازها براري الصوت اللانهائية سالمة. وقد امتدَّ الموطن من أمام البصر.

كانت أنفاس الآخرين مجتمعة تفتقر إلى مدى شخير أبيه وعظمته، وكانت علاوة على ذلك غافلة عن الوقت. خُذ تنفّس الجدة على سبيل المثال. من كان يتصوّر من طريقة تنفّسها أنّ الذي كان نائمًا بجانب الصبي كائن حيّ؟ كانت تتنفس تنفّسًا خفيضًا للغاية، وقلّما كانت تتحرك، لدرجة أنه لساعات طويلة لم يكن شيء أكثر ترجيحًا من أنها هَمَدت بالكامل. ولكن لو مال ناحيتها وأصاخَ السمعَ بإمعان؟ كان بإمكانه في بعض الأحيان سماع إشارات تدلّ على الحياة، فمن شفيتها كانت تنبعثُ أحيانًا نفخة باهته. وكان لديها سلوك آخر أيضًا. بعد أن ترقد لساعات بلا حراك مثل جثة هامدة، كانت الحياة تطفو على سطحها مثل الفقاقيع الصغيرة البطيئة التي تعلو على فترات متباعدة من قيعان البرك الراكدة في منطقة المستنقعات. وتتكشف الحياة في همهمات عجيبة، وهمسٍ، وتَشكٍّ؛ في مزامير بغيضة من عالم آخر. ذلك أنها هي أيضًا كان لديها عالمها الخاص الذي يتعذّر على الآخرين فهمه، عالم من الصلوات والتراتيل، تلك الآيات المضجرة الطويلة التي كان والده يكرهها كرهًا شديدًا. عالم الربّ الرحمن الرحيم، عالم الآب الحليم الصبور وأهوال الجحيم. إلا أنها لم تقدّم أي وصفٍ عن هذا العالم، سوى أنها كانت تتمتم بصلاة أكثر غموضًا هي الأخرى. ما من أحد رتّلَ كل هذه التراتيل، وعلِمَ ما علمَ عن مباهج الحياة الأبدية ونعيمها وما إلى ذلك؛ يمكنه أن يكون خِلوًا من الحماس التبشيري كمثل ما كانت عليه جدّته. صحيح أنها علّمته ترديد صلاة «لله أُسلِمُ نفسي وأنام»؛ إلا أن عالم صلاتها ظلَّ منعزلًا عن الواقع البشري على نحوِ محيّرٍ، كمثلِ عالم أبيه من الشخير؛ ولم يتمكن الصبي من تمييز شيء من معالمِ عالمها من خلال الكلمات، ولا من خلال ساكنيه غير الواقعيين. وكانت حياة التراتيل المغايرة تلك كلّما اعتلت شفتي جدّته غير الواعيتين تثيرُ في نفسه الخوفَ ذاته من برك المستنقعات بمياهها الطينية الحامضة، وبأوحالها اللزجة، ونباتاتها الكثيفة المتفرعة والمقززة، وخنافسها المائية.

قبالة سرير الوالدين نامَ الأولاد الثلاثة الكبار؛ هيلغي وغُفيندور عند

رأس السرير، وآستا سوليليا في الأسفل. لأي عالم انتمت كلمات هيلغي في منامه؟ ولأيّ عالمٍ انتمى بكاء آستا سوليليا، وصريرُ أسنانها؟ لغةٌ بلا كلمات أو معنى، ولا يعوزها الغضب الأبله؛ بكاء بلا دموع، بلا نشيج، فقط ألمٌ مُبرحٌ يأتي بلا إنذار ثمَّ يختفي بلا أثر؛ كما لو أن نداءات مخيفة عبرت ضلوعها من عالمٍ إلى آخر كالبرق. لا أحد من هذه العوالم، ولا أحد من هذه الأصوات كان يلاحظُ قوانين اليوم، أو مشاعر العالم الحقيقي.

وأين كانت أمّه في هذه الأصباح الشتوية، حيث لم يكن أحد في البيت، والجميع بعيدون جدًّا؛ كلٌّ في نومهِ، في حين كانت ظلال العوالم الأخرى العامرة بالعجائب تخيّمُ على غرفة المعيشة الصغيرة في البيت الصيفي؟ أكانت نائمة أم مستيقظة؟ هل كانت أنّاتها التي توقظها من عزّ نومها غارقة في شخير أبيه مرة بعد مرة؟ أم كانت يد النِّسيان المُسكِّنة للآلام محرّمة عليها حتى في عالم نومها؟ كان شوقه لطلوع النهار كبيرًا إذ كان مستلقيًا وحده، مُحاطًا بعوالمَ أجنبية غريبة متحجرة القلب، وما كانت تعلم حتى أنه موجود! ومع ذلك كان شوقه إلى ذراعي والدته أعظم.

هناك ليلة مروعة كان سيتذكرها دومًا مهما امتدّ به العمر وطال. لا بدّ أن الواقعة وقعت في وقت مبكرٍ جدًا، نعم، قبلَ أن يبذلَ اليوم الشتوي جهده ليفتح عينه الكليلة، لأن الصبي نفسه كان ما يزال نائمًا، كان ما يزال في الخارج يجوبُ في عوالم أحلامه بعيدًا عن الأرض. كانَ هانئًا ملتذًّا بغيابهِ، ونعاسُ منتصف الليل الثقيل الحلو يغمرُ أعطاف جسمه، لدرجة أنه كان غير راغبٍ بمغادرة نومه، ولكن حانت لحظة شعرَ فيها بوجوبِ الإقلاع عن خمولهِ وبالعودة؛ كانَ هنالك شخصٌ ينادي..

من عساه يكون؟ في البداية كان النداء بعيدًا بعيدًا بحيثُ إنه لم يَسعَ للاستفسار، ولم يمنح الأمر من اهتمامه سوى القليل كما لو أنه خبر من مقاطعة أخرى. ولكن شيئًا فشيئًا صارت الجلبة أقرب؛ آهات وعويل، باتت أقرب فأقرب. صارت الصيحات حادة أكثر فأكثر. لوهلة بدت أنها وصلت إلى قصر روثسميري؛ لكنها لم تتوقف هناك، كانت ما تزال تقتربُ أكثر فأكثر، إلى أن اكتشفَ أخيرًا أنها آتية من الغرفة التي يرقدُ فيها. كانت منبعثة من أمه. في هذا الوقت كان مستيقظًا تمامًا. وكان مستلقيًا بمفرده على فراش جدته.

كانت في الغرفة شمعة مشتعلة. وكانت جدته منحنية فوقَ سرير الوالدين، تهمهمُ، وبيدٍ مرتعشة كانت تجاهدُ في إخراج شيء ما، وكان أبوه على حافة السرير إلى جانب أمه ممسكًا بيدها. كان الأطفال في السرير الآخر قد غطوا رؤوسهم، ولكنهم ما بين حين وآخر يحدّقون؛ من تحت البطانيات تلتمع أحداق متلصصة مذعورة. كانت الأمُّ مريضة بصورة مريعة في هذه الليلة. ازدادت آهات الألم حدّة على حدّة، وبات من المؤلم أكثر سماعها؛ كانت معاناة العالم بأسره، كان الصبي يفكّر بالنهوض ليستفسر عن الأمر، لكنه أحجم عن السؤال فيما بعد، وتكوّم تحت الأغطية. بدأت جدته في معالجة النار في الموقد الصغير، صراعها الذي لا نهاية له، فمنذ أجيال وأجيال وهي تصارع لإضرام النار وتسخين المياه. مرّت بضع دقائق. انحسرَ استيعاب الصبي، وتضاءلَ همسُ أبيه وجدّته؛ تلاشى بعيدًا في مقاطعة أخرى. وهبطَ أبوه بصخبٍ سلالمَ مبنىً بعيد لها صرير، على الأغلب الكنيسة في روثسميري، أو ربما كنيسة أخرى أبعد منها، وأوصدَ الباب الأرضيّ من خلفه، وسَرى مُسرعًا في جوفِ الليل. ولكن ما إن أغلقَ الباب حتى شرعت أمه تصرخُ من جديد، أكثر تألّمًا من ذي قبل؛ ومرة أخرى كما لو أنَّ كفًّا باردة أنشبت مخالبها الحادّة في قلب الصبي. لماذا يتعيّن على أعزّ أحبّاء المرء أن يعانوا أشدّ المعاناة، ولماذا لا يستطيع المرء فِعلَ شيءٍ من أجلهم؟

وعبرت ذهنَ الصبي، لا إراديًا، فكرة أن والده هو المُلام على كل متاعب والدته. كان هو من ينامُ إلى جانبها دومًا، وهو من يظنُّ أنه مالكها وسيّدها. لا بدَّ أن شيئًا في ضميره جعلهُ الليلة مهتمًّا بها إلى هذا الحدّ؛ كانَ قد أمسكَ يدها، الشيء الذي لم يره من قبل! من ثمّ هرعَ إلى مكان ما في الخارج في منتصف الليل، كما لو أنه كان خائفًا.

بعض الأشياء متقلّبة ومتزعزعة للغاية، مثلَ قلب المحِبّ، ومع ذلك يظلّ المكان الوحيد في العالم الذي يجدُ فيه المرء التعاطف. النوم أقوى من الغريزة الأكثر نبلًا في القلب المحبّ. في خضمّ عذاباتها وآلامها المبرحة خَفتَ الضوء، وتلاشت بقبقة قِدر الماء. وتبدّدت فرقعة النار، ونشاط جدّته الصاخب، وتمتمتها وتبرّمها، وتلقّفها للتسابيح المنسيّة؛ جميعها ذابت في أحلامه الخاطفة، ما بين النوم واليقظة، حيث لا مناقير ولا مخالب فيها،

وإنما الأحلام الخالية من العاطفة والمعاناة، أحلام مرحة ومُشتهاة مثلَ حياة الأقزام في الجروف والصخور. وبدأ نعاس منتصف الليل الحلو الثقيل ينساب في جسده مرة أخرى، وشيئًا فشيئًا، مثلَ مئاتٍ من حبات الرمل رشحَ وعيهُ في غياهبِ عالم أحلامه، إلى أن ملأه النسيان والغفلة عن آخره من جديد.

في الأمس، أخذ والده المولود الجديد إلى روثسميري ليدفنه.

إذن، هل عادت لأمه السعادة بعد ذاك؟ وهل كانت مثل الأولاد متصالحة من جديد مع رتابة الأيام الشتائية الطويلة التي لا أفق لها؟ أم إنّ أنّاتها ما تزال غارقة في أعماق القسوة التي لا تشعر بقلب الفرد؟ اجتاحَ الأسى قلوب الأولاد وزالَ بعد فترة وجيزة، لكن معاناة الأم كانت أبدية.

لم يعرف الصبي أن الأسرة نامت كل هذا الوقت كمثل هذا الصباح. كانت الخراف قد نهضت على أقدامها وتزاحمت فيما بينها منذ مدة طويلة، وكان بإمكانه سماعها وهي تتناطح كل بضع دقائق. كان أبوه قد قطعَ أميالًا وأميالًا من الشخير، وكانت الآنية الفخارية صامتة عند اقتراب الصبح، وعلى النافذة فتحَ النهارُ الشتوي عينهُ الزرقاء الشاحبة. هل كانوا خائفين أن يستيقظوا، أم ماذا؟ بدأ ينقر بأظافر يديه نقرًا هادئًا على السطح المائل، الأمر الذي على الرغم من التهديدات لم يستطع كبح نفسه عن القيام به كلما شعر بأن الصباح قد طال أمده أكثر مما ينبغي. وعندما لم يُحِدث ذلك أي تأثير أنشأ يُطلِق أصواتًا قصيرة حادة، أوّلًا مثل فأر صغير، ثم أصواتًا أعلى وأكثر حدّة، مثل زعيق الكلب عندما تدوس على ذَيله، وما زالَ صوته يعلو، مثل صراخ ريحٍ أرضية عبر باب مُشرَع.

«والآن، كفّ عن حماقتك هذه!»

لقد كانت جدّته. أفلحت خطة الصبي إذن! استجمعت العجوز قوتها، وهي تتمتم مع نفسها، وبعد بضع محاولات وجهودٍ فاشلة في النهوض، تمكنت أخيرًا من الخروج من السرير، مع كل الآهات والشهقات التي ترافق هذه المهمة دومًا. ارتدت تنّورتها الخيش ومعطفها القصير. ثمّ بدأت عملية البحث عن عيدان الثقاب. وكان الأمر ينتهي دومًا بالعثور على الأعواد. في

ضوء المصباح الجداري الخافت رآها منحنيةً، حاسرة الرأس فوق الموقد، ورأى بشرتها المتغضنة مثل كتابةٍ رونيّة محفورة على خَشب الماهوغني، ورأى عظام خدّيها البارزة وفمها الغائر وعنقها الهزيل، وخصلات شعرها الرمادي النحيلة؛ وكان خائفًا منها! وخامرهُ شعور بأن ذلك الصباح لن يأتي إلى أن عَصَبت رأسها بالشال الصوفي.

في هذا الحين كانت قد ربطت شالها الصوفي حولَ رأسها. بهذه التحركات المترنّحة والعيون المرتعشة كانَ يستقبل كلّ يومٍ جديد، يستقبلُ عودة الواقع الملموس في ثنايا هذا الوجه الهَرِم المُتكرمِش، الذي برزَ من كِساء الرأسِ مُتبرّمًا مُتمتِمًا، إذ همّت من جديد، بكدٍّ وكدحٍ ومصارعة، في مهمّتها الأزلية بإشعال النار. ومن ثّم، ودون سابق إنذار، بدأ أبوه يهرش جسمه، ويصقلُ حنجرته، ويتنشّق السعوط. ارتدى سرواله. وكان أوان التفكير بِعلْفِ الأغنام.

ها قد جاء أخيرًا الجزء من الصباح الذي ينتمي إلى الواقع. كان من المريح التفكّر بأن شيئًا واحدًا على الأقل لم يتغير من يوم إلى آخر؛ ألا وهو: صراع جدته المستميت مع النار. كانت العيدان أيضًا رطبة دائمًا؛ ومع أنها كَسرت الخثّ إلى أجزاء صغيرة، ووضعت القطع المحتوية على أكبر قدر من الخشب بالقرب من الوقيد، فإنّ النتيجة الوحيدة ولمدة طويلة كانت قرقعة وخشخشة كئيبة، ورائحة مشبعة بالرطوبة، كريهة نفّاذة ومزعجة، تملأ كل زاوية وشقّ، وتَخِزُ أنفَ الواحد وعينيه وخزًا لاذعًا مؤلمًا. وحتى إن وضع الصبي رأسه تحت أغطية السرير، فإن الدخان كان سيصل إلى هناك أيضًا. كانَ لهبُ المصباح الجداري يرتعش ارتعاشًا واهنًا متقطّعًا فوق الفتيل. إلا أن طقوس جدّته التذمُّرية ما كانت لتطول بحيث لا تحمل معها الوعد بالقهوة. مهما كان الدخان كثيفًا أو أزرق، ومهما تغلغل في العيون، والأنف، والحلق، والرئتين عميقًا لكنه لم يكن ليُنسى بكونه نذيرًا لعطرٍ يفعمُ الروح بالتفاؤل والثقة؛ إنه عبقُ حبات البنّ المسحوقة في قاع المياه المغلية التي ينبثقُ بخارها منعطِفًا من فوّهة الإبريق، إنها رائحة القهوة.

كلّما طال زمن إيقاد النار، وأصبحَ الدخان المدوّم في أنحاء الغرفة لاذعًا، طالَ أمد الترقب، وازدادت التوقعات قوّة. ولتمضية الوقت كان على الدوام

يُجري تفحّصًا للسقف، صحيح أنه كان الفحص ذاته كل صباح، وكان علاوة على ذلك يعرفُ نتيجته سلفًا وبدقّة، ومع ذلك كان الفحص محتّمًا كلّ صباح، ما دامت عيناه مفتوحتين. كانت في خشبِ السقف عقدتان تلفتان انتباهه على وجه الخصوص؛ حينما يرقّ الدخان ويسطع الضوء بما يكفي ليتبيّن معالمَ هاتين العقدتين، كانت علامة على أن النار اشتدّت كما ينبغي، وتسخين المياه جارٍ. وما تانكَ العقدتان، إذن؟ كانتا رجلين شقيقين. كلّ منهما لديه عين واحدة في جبينه، ووجه منفوخ ممتلئ، مثل وجه أمّه. كيف حدث أن كانا يشبهان أمّه؟ لأنهما كانا شقيقيها اللذين أبحرا إلى بلادٍ بعيدة، ووجدا كل ما أراداه، منذ زمن بعيد قبل أن يولد.

«ما الأشياء التي يراها الطفل!»، قالت أمّه ذات مرة حينما كان معها بمفرده، وقد أخبرها عن هذا الأمر بسريّة تامة. كانا يتهامسان فيما بينهما بأمور شتّى قد لا يعرفها أحد؛ عن الأغنيات؛ وعن البلاد البعيدة.

قال لها وهو ممسك بيدها وقد قعد على حافة سريرها: «إذا ما ذهبت بعيدًا، بعيدًا، هل بإمكانك الحصول على كل ما ترغبين به؟»

قالت بتعب: «نعم، يا حبيبي».

«وتكونين ما شئتِ أن تكوني؟»

فأجابت بذهنٍ شاردٍ: «نعم».

قال: «عندما يحلّ الربيع، أعتقد أني سأتسلّق قمّة جبلنا، ومعرفة ما إذا كان بإمكاني رؤية البلاد الأخرى».

سكون.

«ماما، ذات مرة في الصيف الماضي رأيتُ الشلال في الوادي يتدفّقُ في الرياح بالعكس. كانت الرياح تُطيّر الماء إلى الخلف من فوق الحافة».

وقالت بعد لأي: «اسمع يا صغيري، حلمت منذ بضع ليال بشيء عنك»

«عني؟»

«حلمتُ بأنّ الجنّية (القزمة[1]) اصطحبتني إلى داخل صخرة كبيرة، وأعطتني

1- يُشار إلى أنه في الأساطير النرويجية (الإسكندنافيه قديمًا) كانت هناك مخلوقات سحرية عملاقة تقطن الغابات والجبال، وقد أطلقَ عليها النرويجيون اسم الأقزام على الرغم من ضخامتها وحجمها الهائل، مع وجود بعض الأنواع الصغيرة منها.

إناء من الحليب، وطلبت مني أن أشربه؛ وحينما فرغت من شربه، قالت لي الجنّية: أحسني معاملة نوني الصغير، لأنه حين يكبر سوف يغنّي للعالم بأسره».

«كيف؟»

«لا أعرف»، قالت أمّه.

ثمّ استراحَ على صدر أمّه حينًا من الزمن، وكان ذاهلًا عن كلّ شيء في الدنيا سوى دقّات قلب أمّه. في الأخير جلسَ وسألها:

«ماما، لماذا سوفَ أغني للعالم كله؟»

ردّت: «إنه حلم».

«هل سأغني للمروج والأراضي البراح؟»

«أجل».

«وللمستنقعات؟»

«أجل».

«وهل سأغنّي للجبال أيضًا؟»

أجابت والدته: «نعم، إن الجنية زعمت ذلك».

فقال متفكّرًا: «إذن، سأغني للناس في كنيسة روثسميري أيضًا، على ما أعتقد».

«وأنا أعتقد كذلك».

وآوى إلى حِجرِ أمه مجددًا، متدثّرًا بسحرِ هذه النبوءة، بفتنةِ الكلمات المجنّحة.

بعد وقتٍ طويل قال: «ماما، هل ستعلمينني كيف أغني للعالم كلّه؟»

أجابته هامسة: «نعم، عندما يأتي الربيع».

وأغمضت عينيها بإعياء.

وهكذا، إن تركَ عينيه تتحوّلان من العُجرتين في خشب السقف، إلى الأطباق في الخزانة وعلى الرفوف، أو إلى الملعقة الخشبية المعلّقة على الجدار والقِدر الموضوعة على الأرض، كل ذلك مع التعابير الغريبة الساذجة التي تتظاهر بها أواني المطبخ في نهارها العاجز، أو إذا ما لفتَ نظره بريق

فناجين «النساء» المنمّقة، الباهظة والهشّة، والخائفة من أن يُضحكَ عليها؛ كان حينذاك يشعرُ بالنبل والشهامة بحيث يَعِدهم بألّا يقصَّ حكاية أيّ منهم على أحد؛ ويغمزُ بإحدى عينيه على سبيل المداراة واللطافة، وينظرُ إليهم بالعين الأخرى فقط. وكان يقول: «أنا أيضًا مختلفٌ تمامًا عمّا أبدو عليه»؛ يقصدُ بذلك الأغاني غير المغنّاة، والبلاد الكبيرة، البعيدة كمجرى الليل والنهار، التي تنتظره.

وهكذا سمعَ أخيرًا من الغلّاية صوت البقبقة الشهير الذي يُعلنُ أن الماء وصلَ إلى حدّ الغليان. بحلول هذا الوقت، يكون الصبي عادة قد تضوّر جوعًا بما فيه الكفاية ليشعر بأنه قادر على تناول أي شيء يضعه تحت أسنانه، ليس الدَّريس فقط، وإنما الخثّ والروث أيضًا. لذا ليس من عجبٍ أنه انتظرَ بتلهُّفٍ وشوق ليعرف ما ستكون عليه شريحته من الخبز؛ ما إذا كانت جدّته قطعتها من منتصف الرغيف، أم إنها أعطته نصف شريحة فقط، وربّما بحافة رقيقة كما الورقة. وكيف كانت ستدهنها؟ هل كانت ستضع عليها فقط قطعة من الشحم وزيت كبد سمك القدّ في المنتصف، بحيث تكون قشرة الخبز جافة كما كانت بالأمس؟ ما كان الصبي يكتفي من هذا الخليط الشهي قط، كان يتركُ في الفم طعمًا حِرِّيفًا، وإن كانَ من حَسَنة تُحتسبُ لجدّته، فهي أنها نادرًا ما كانت بخيلة به، بل كانت على العكس من ذلك تدهنُ منه كميات سخيّة بإبهامها الأيمن. ومع ذلك، كانت ميّالة إلى توفير السُّكّر، وكان لديها عادة مؤسفة بأن تكسر كتلة السُّكّر إلى قطع مختلفة الأحجام، فكان في هذه الحالة يحصل على أصغرِ قطعة بكلّ يُسر! إن التأمّل في هذه المسائل لم يكن قط من دون عناصر الترقّب والقلق.

في هذا الحين بدأت رائحة القهوة تَضوع في الغرفة. كانت هذه لحظة الصباح المقدّسة. في عطرٍ كهذا تُنسى شدائد الدّنيا وضلالها، وتَستلهمُ الروح الإيمان بالمستقبل؛ وبالنظر إلى كل شيء، ربما كان صحيحًا أن هناك أماكنَ بعيدة، وحتى بلادًا أجنبية. في يوم من الأيام، وإن كان ذلك يبدو غير معقول، سيأتي الربيع مع طيوره، وستزيّن أزهاره الصفراء المروج. ومن المرجح جدًّا أن تنهض الأم أيضًا عندما يطول النهار، مثلما فعلت في العام الماضي والعام الذي قبله.

حالما قرَّ البخار المنبجسُ من فوهة إبريق القهوة إلى الداخل، سُمِعت كلمات الصباح الأولى في كوخ المزرعة؛ ألا وهي الديباجة التي تستعين بها جدّته لاستحضار آستا سوليليا من أعماق نومها. هذه الطقوس تكررت صباحًا بعد صباح وفقًا لقاعدة ثابتة رتيبة، ولو أنّ آستا بدت كل صباح غريبة بنفس القدر، وقد حفظها الصبي جيدًا بما يكفي لتذكرها طيلة حياته.

«أيتها السّموات الرحيمة، أيّ مشهدٍ فظيع هذا! نظرةً فقط إليها وهي مستلقية هناك، شبه امرأة راشدة، تغطُّ في نوم عميق في مثلِ هذا الوقت من النهار! متى بحق السّماء سيظهرونَ أدنى درجة من الإحساس!»

أكانت جدّته حمقاء إلى هذا الحدّ حقًا كي تعتقد أنها تستطيع إيقاظ أي أحد بمثلِ تلك التُّرّهة الواهنة المرتعشة؟ كان الأمر بالضبط كما لو أنها تهذرُ بينها وبين نفسها في منتصفِ تراتيلها الصباحية. على أية حال، واصلت آستا سوليليا النوم، رأسها في الزاوية ومائل إلى الخلف، وفمها مفتوح، وذقنها بارزة إلى الأعلى، وقد وضعت يدًا تحت أذنها وأبقت اليد الثانية فوقَ اللحاف نصف مفتوحة كأنما ظنت في منامها أن أحدًا سيأتي ويضع السعادة في راحة يدها. كان قميصها الداخلي مُرقعًا عند تقويرة الرّقبة. بعد بضع لحظات استؤنِفت الديباجة:

«من الواضح تمامًا أن هؤلاء التعساء لا يملكون عقولًا في رؤوسهم. كيف يمكن للواحد أن يحقق منهم أية فائدة، -غالبًا ما تتحدث عن آستا سوليليا بصيغة الجمع- وبالكاد يغطي ظهورهم قميص! (وبصوت أعلى) «سوليليا! صنانيرك بانتظارك يا امرأة! الساعة الآن التاسعة تقريبًا، وعمّا قليل سينتصف النهار!»

بالنسبة إلى الصبي كان مفهوم الجدّة عن الوقت مَعينًا لا ينضبُ من الدهشة والعجب.

سلكت المياه منعطفها الأخّاذ من الإبريق إلى الكيس، محدثة صوتًا ثقيلًا أجوف، وانبعثت منها سحابة من البخار الزكيّ الفوّاح. وما زالت آستا سوليليا نائمة. ولكن بينما كانت القهوة تتصفّى من خلال الكيس، استطردت المرأة العجوز مهمة إيقاظها:

«ستظلّين خاملة وعديمة النفع طيلة حياتك يا آستا سوليليا».

ولكن آستا سوليليا ظلت نائمة.

«لا داعي للاعتقاد أنك سوف تتناولين قهوتك في سريرك مثلَ شخص رفيع الشأن! فتاة في سنّ الثانية عشرة، تقريبًا في الثالثة عشرة، وفي القريب العاجل سوف تُمنحين سرّ التثبيت[1]. سأجعل أباك يجلد ظهرك بالسوط قبل ذلك، يا آنستي».

لكن صلوات الصبح هذه لم يكن لها أي تأثير ملحوظ على آستا سوليليا.

فقط عندما مضت العجوز هالبيرا إلى السرير وهزّتها فتحت الفتاة عينيها. فتحتهما بصعوبة، وكانت أجفانها ترفرف في ذعر وهي تحملقُ بشراسة من حولها. في نهاية المطاف أدركت أين هي، وطفقت تتباكى، بينما أخفت جبهتها بثنية مرفقها.

كانت صبية شاحبة ذات شعر داكن، ولها ذقن بارز منحوت طويل الفكين، وحَوَلٌ طفيف في عين واحدة. وكان حاجباها داكنين وكذا رموشها، غير أن حدقتيها كانتا رماديتين؛ بلونِ الحديد المَفْلول.

كان وجهها الوحيد في المنزل الذي له شكلٌ ولون مميزان، ولهذا السبب كثيرًا ما كان الصبي يُطيل التحديق بأخته كما لو أنّه يتساءل من أين أتت! كانت شاحبة للغاية؛ كان الوجه العبوس الناضج مدموغًا بالقلق والتوجّس، وتقريبًا مع خبرة بالحياة؛ فعلى ما يتذكر الصبي كانت آستا سوليليا أخته الكبرى. ومع أنّ الصدر والكتفين لم يكن لها الشكل الطفولي الناشىء، وقد تجاوزت هذه المرحلة الآن، أو لم تبلغها، كان ينقصها نعومة النضج واستدارته؛ لم تكن طفلة، ولكنها كانت بنفس القدر بعيدة عن كونها امرأة.

قالت الجدّة وهي تضع لها الكوب في أقصى زاوية من الغرفة: «هذه القهوة من أجلك، سوليليا، هذا أقربُ ما يهمّني أن أحمله لك».

1- سرّ التثبيت: أحد أسرار الكنيسة المسيحية السبعة، يعتبر علامة على النضج الروحي، وقد سمي التثبيت لأنه يثبت ويوطد المعمودية. كما يُطلق عليه أيضًا سر مسحة الميرون، والميرون كلمة تعني طيبًا أو دهنًا مقدسًا، حيث يُدهن المؤمن بهذا الزيت المقدس علامة على توطيد علاقته بالكنيسة وثباته في الإيمان.

حكّت البنت رأسها للحظات، تثاءبت وتلمّظت، ثمّ سحبت تنوّرتها التحتية من تحت الوسادة، وارتدتها في دفء الأغطية. أزلقت ساقيها الطويلتين النحيلتين من تحت الأغطية، ودسّت قدميها غير المغسولتين في جوربين صوفيين سميكين، ووضعت كاحلها فوقَ ركبتها دونما خجل، على نحوٍ دفعَ الصبي إلى التمعن في أطرافها غير الناضجة، وقد خلصَ كما المعتاد إلى النتيجة ذاتها بأنه على الرغم من كونها أخته الكبرى، فإنها مع ذلك كانت، حينما يتعلّق الأمر بالبُنية، في مرتبة أدنى بكثير من الإخوة.

ولكن في هذا الحين شارفَ أوان التخمين على النهاية، ففي تلك اللحظة، أحضرت له الجدّة قهوته، وأوقظت شقيقيه الأكبرين. أخيرًا سوف يعلم الصبي من أي جزء من الرغيف قد قُطِعت شريحته، وفيما إذا غطّى الدهن الشريحة كلها حتى الأطراف، وفيما إذا كانت كتلته من السكر كبيرة أم صغيرة. في هذا الوقت كان الضياء منتشرًا على النافذة. مرة أخرى أفلحَ الصباح الشتوي في فتح أجفانه الثقيلة.

والآن بدأ النهار...

***

25. النهار

كانت وجبات الطعام في هذا البيت تؤكل عادة بصمت، وفي جوٍّ احتفاليّ خفيّ يسوده الوقار، كأن طقوسًا مظلمة مهيبة يجري تأديتها. كانوا يجتمعونَ حول طعامهم، ويكبُّ الواحد منهم على الطبقِ فوق ركبتيه بإمعان، ويلتقطُ الحسَك من سمكتهِ بدقّةٍ تليقُ بالسّاعاتي، أو، يرفع الإناء إلى فمهِ، ويعبُّ عصيدته بتركيز كامل. كان من المثير للدهشة مقدار العصيدة التي يزدردها والد الصبي في وقت قصير جدًّا. وكانت المرأة العجوز، تجلس موليه ظهرها للجميع، وتتناول طعامها، بلا سكّين، بالقرب من النار. في وجبة الصباح كانت هناك دومًا عصيدة الشوفان الساخنة، وسجق الدم، وشريحة من الخبز، وبقايا باردة من سمكة يوم أمس المملحة، وقهوة ساخنة تُقدّم مع قطعة من السكّر. كان السكّر المادة الأكثر إثارة للترقب. وكانت الأم، التي

لم يكن لديها شهية عصفور صغير، تُنهِضُ نفسها بمشقة إلى وضعية نصف الجلوس في السرير، وتجلبُ لنفسها بعض الدواء من واحدة من القوارير التي زودها بها عضو مجلس الشعب. كان وجهها كالحًا مترهلًا، وعيناها متسعتين ومحمومتين؛ ولم يكن بإمكانها المضغ بسبب التهاب في فمها. في بعض الأحيان كان الابن الأصغر يشعر أنها قسوة من أبيه الجلوس هكذا قبالتها مباشرة، والتهام كل هذا القدر من العصيدة، في حين كانت تقضم من قطعة السمك لقيمات صغيرة بنفور واضح، وتبتلع الطعام بقشعريرة مثيرة للشفقة. وما كان الأولاد أقلّ اشتهاء لقطعة من اللحم اللذيذة الدسمة كثيرة العصارة، أو لشريحة سميكة من خبز الجاودار مع الدهن مثلما هم حين يفرغون من تناول طعامهم.

كان بيارتور بعد وجبة الصباح يتمدّد على السرير، كعادة طفولية، يشخر بشدة بضع دقائق، ثم ينتفضُ واقفًا بعيني رجلٍ طاردته مخاطر خارقة، ويختفي سعيًا وراء أغنامه. كانَ قد بُنيَ كوخٌ، باتَ هذه الآونة مملوءًا عن آخره، في طرفٍ من أطراف الحقل من أجل النعاج، بينما ما تزال الحملان والخراف ذات العامين تسكنُ تحت السقف ذاته الذي تقيم تحته العائلة. وكان الأخوان الكبيران يضطلعان بمهمة كَنسِ المذاود، وجرف الزّبل بالمشط عن الأرضية، وتنظيف الممرات حول البيت، التي غطاها الثلج المنهمر بعناد مرة بعد أخرى. كان على الخراف اجتياز ثماني عشرة خطوة في الثلج لتسلّق الركام أمام الباب، والقوم من خلفهم، وكان من اللازم أيضًا إحداث شقٍّ في الثلوج المتراكمة إلى ما فوق النافذة للسماح بدخول ضوء النهار.

بعد وجبة الصباح، حينما انصرف الأب والأخوان الأكبر سنًّا لتدبّر أمور الخراف، كان النهار قد بدأ في بيت المزرعة، بدأ بكلّ جدية، بدأ بِطولِهِ، واتّساعه، نهارٌ لا يمكن لأحد التنبؤ بمسائه! كان النور شحيحًا بسبب النافذة الصغيرة وسماكة الثلج. رُتِّب اثنان من الأسرّة؛ بينما استلقت الأم على ثالثهما، بلا حراك، وقد تزامن حبسها كالمعتاد مع سقمها الذي قلّما دام أقلّ من ثلاثة شهور، والذي أوجبَ عليها ملازمة الفراش كلّ شتاء على نحو منتظم. كانت قد ولدت طفلًا وأرسلته إلى الوكيل والقسّ العام

قبل الماضي أيضًا، وفي تلك المرة ظلت طريحة الفراش مدة أربعة أشهر. كانت ما بين حينٍ وآخر تتقلّب إلى جهة جديدة، وكانت تكتمُ أنّاتها وتتحرّك ببطءٍ وحذرٍ شديدين بسبب التقرّحات من ملازمة الفِراش في جسدها. على حافة سريرها، بالقرب من النافذة، كانت آستا سوليليا جالسة، تحيكُ لنفسها صُدريّة. كانت قاعدة على سريرها وقد رجعت إلى الخلف، وقدماها متدليتان من حافة السرير دون أن تطالا الأرض، ولكنها في هذه الوضعية بالطبع كان يتسنى لها إراحة رأسها على الحائط ما بين الفينة والفينة. كانت تسترخي على الحائط من آنٍ إلى آخر، وتغطُّ في النوم.

تناولت الجدّة مغزلها وشرعت في الغزل.

وملأ أزيز عجلة الأيام الطويلة بيت المزرعة؛ كانت عجلة الغَزْل هذه مثل عجلة الزمن التي تحملُ أرواحنا بعيدًا إلى أرضها.

قد يلعب نوني الصغير الآن لبعض الوقت. لذلك ساقَ القرون؛ خرافه، إلى المراعي فوق جميع الأسِرّة، ووضع بعضها أسفل العوارض الخشبية دلالة على قمم الجبال، وإن كانت الخراف في الواقع تتسلّق إلى داخل قمم الجبال، ثم ربطَ عظام الفك؛ أبقاره، بِأرجل الموقد، وهنا يكمن الاختلاف بينه وبين بيارتور صاحب البيت الصيفيّ؛ ذلك أن نوني الصغير امتلكَ عشر أبقار. ثمّ انطلق في أسفار بعيدة ممتطيًا عظام الساق، وحدد اتجاهاته في أصقاع مجهولة، ما وراء المستنقعات والجبال وامتطى جياده إلى الخلجان والمضائق، رحلات طويلة وقاسية، ففي غرفته كانت مسافاتٌ تخطت الحسبان، إذا ما اتبّعت الرحلة القوانين التي هو فقط من يفهمها. وكانت نهايات السرير أيضًا مسارات جبلية خطرة، مكمّلة بوديان، وبأكوام ثلجية، وبالأشباح. وكان عليه في طريقه أن يبيت ليلة في مكان ما (تحت الطاولة بجوار النافذة). ولم تكن مسافات الغرفة تتبدّد إلى أن يحل الربيع، حيث تعاود حدود الواقع ظهورها بذوبان الثلوج، وحينما تبدأ صحة والدته بالتحسّن. كانت هذه المسافات ملغزة للغاية، فعلى الرغم من طول الرحلة، فإن الوجهة من حظيرة أبقاره إلى الباب الأرضي لم تكن تتعدى الشِّبر الواحد.

لدى وصوله إلى المدينة، تحدّث مع التاجر والطبيب. واشترى حِملًا هائلًا من الزبيب. ففي منزله يعيشون حصريًا على مثل هذه الأشياء، زبيبٌ في الصناديق، زبيبٌ في الزكائب، وبالمثل أقماع السُّكّر[1]. كان لدى الطبيب في عيادته من زجاجات الدواء كما للوكيل من الشّياه، خمسمائة أو ما يُدانيها، ولكن الغريب في الأمر أن الصبي لم يَشترِ ولا قطرة واحدة. وعليه فإنه رفضَ وعد الطبيب بالتصويت لمصلحته مقابل الدواء كما فعل والده. لم يصادفه قطّ شيء ذو رائحة كريهة وطعم مرّ كمثل دواء هذا الطبيب. كان مرتابًا في قرارة نفسه بأن هذا الدواء يمنع والدته من التحسّن، حتى إن والده اشتراه للتأكد من أنها لن تنهض من بعده، وأن الطبيب كان طرفًا في المؤامرة. من أجل ذلك كان يكره الطبيب، ورفض التصويت لمثل هذا الرجل في البرلمان. وصوّت لمصلحة التاجر بدلًا من ذلك، من باب الاحترام لِزبيبهِ. والآن استشاط الطبيب غضبًا وهدّد باستدعاء المأمور. ولكن الصبي لم يكن خائفًا على الإطلاق؛ ووعدَ بتسديد ديونه للطبيب وذلك بإعطائه كلبًا عجوزًا، وعظمة كاحل خروف، وقد أشعلَ ذلك مشاجرة عظيمة في فِيورد.

«لم كل هذه الضجة هنا وحقّ الله؟»، تساءلت جدّته؛ بيد أن الصبي لم يردّ في الوقت الراهن، لأن الجدة كانت تنتمي إلى عالم آخر، وإلى برارٍ أخرى. وإذا فاهت بالمزيد، فسوف تهبُّ على الأغلب عاصفة جليدية من الشمال.

«إن لم تتمكن من البقاء هادئًا وعاقلًا فسوف يتعين عليّ أن أذيقك طعم الحزام».

فقال الصبي حينئذ: «جدّتي، أنتِ غير موجودة. أنت مجرّد عاصفة في الجوّ. وأنا في رحلة إلى المدينة».

أجابت الجدّة: «لا تكن سخيفًا إلى هذا الحدّ، يجب أن تخجل من نفسك، صبيٌّ كبير مثلك بتخيّلات حمقاء في منتصف النهار؛ ولا يمكنك الحياكة بعد».

1- قمع السكر: أو رغيف السكر، قالب من السكر مخروطي الشكل، كان الشكل المعتاد الذي يصنّع ويباع به السكر المكرر في أوروبا حتى نهاية القرن التاسع عشر حين أُدخل السكر الخشن والسكر المكعبات.

فَضّ الصبي كل محاوراته مع طبقة النبلاء في فِيورد، وقال:

«ها قد أتاك ما أخبرتك به، إنها تنفجر كما العاصفة»، لوّح الوداع وفرّ عائدًا إلى الموطن بأقصى سرعة، وَحثّ الخطى على طول المسارات المتعرّجة الممتدة على الأرضية صعودًا وهبوطًا. ولكن في منتصف الطريق أدركتهُ جدّته مثلَ عاصفة رعدية انبثقت في الأراضي القفر على حين غفلة، وهكذا مات في الثلج، ووضِع في سرير جدته وأُعطيَت له صنانيره!

لفّ الخيط حولَ إصبعه بفتور، وشرع في الحياكة. إنه الجورب ذاته الذي كان يكافح لصنعه منذ أسبوع كامل، ومع ذلك لم يكن قد بلغ نصفه بعد. بدا الأمر كما لو أن لا شيء يريد إحراز أيّ تقدّم هذه الأيام، كما لو أن الأشياء كانت مصرّة على جرجرة نفسها ببطء قدر الإمكان. ولا يتبيّن المرء نهاية لأيّ شيء، لا نهاية للجورب، لا نهاية لليوم، لا نهاية للحياة في المنزل. وداهمه النعاس على إثر التفكير بهذه الإطالة غير المنتهية. ثم تذكّر فجأة أنه هلكَ في عاصفة فوق المروج.

فقال متثائبًا: «جدتي، أنا شبح».

«أيها الصغير المسكين البائس، أنت لم تسمع شيئًا جيدًا اليوم، أليس كذلك؟»

لا، صحيح تمامًا، وبدأ يفكر في الأمر؛ هو لم يسمع شيئًا جيّدًا اليوم بعد، وأسوأ الأمور قد تحصل إن لم يسمع شيئًا جيّدًا. فغالبًا ما تنغمس جدّته في الأشياء الجيدة التي تنهمكُ في سردها لدرجة أن تنسى توبيخه على حياكته، وبالأخص إذا كان الشيء الذي ترويه جيّدًا بحقّ:

** إن دولشي يوبيلو*[1]
غنّوا بقلوبٍ مبتهجة!
رغبات قلوبنا وَمسرّاتها تكمنُ في مِذود!

1- إن دولشي يوبيلو: (أيها المسيحيون الصالحون ابتهجوا، أو ببهجة حلوة عارمة). ترنيمة عيد ميلاد تقليدية، وهي مزيج من الألمانية واللاتينية تعود أصولها إلى القرون الوسطى، لصاحبها هاينريش سويزيه.

* إن بريزِيبيو

الجوقة السّماوية،

* ألفا إس إيه تو!

* ألفا إس إيه تو!

أنت الألف والياء؛ البداية والنهاية..

* أو جيسو بارفوليه

آه يا يسوع الصغير

روحي تطمئن معك

* أو بوير أوبتيمه

يا خِيرة الأولاد

في مملكتك الحرّة

آه يا أمير المجد

* ترا مي بوستِ تيه!

* ترا مي بوستِ تيه!

خذ بيدي وقُدني

* أو باتريس كاريتاس

يالمحبّة الآب

* أو ناتي لينيتاس

يالرفقِ الابن

تَدنّسنا كثيّرا

* بير نوسترا كريمينا

من فرطِ ذنوبنا

ولكنكَ أُوجِدتَ من أجلنا

وغُفِرت كل الذنوب

* كوليروم غاوديا

يالسعادة الجنة
آه، لقد كنا هناك!
آه، لقد كنا هناك!

وهكذا استمرّت واستمرت التلاوة دونما انقطاع. إن التراتيل لا تبدو طويلة، ولا تترك وقعًا غريبًا في الروح بلغتها وعالمها كما هي عليه في أيام الطفولة! والعكس صحيح في أيام الشيخوخة، حيث تكون الساعات قصيرة جدًّا من أجل التراتيل. في هذه الآيات القديمة المتبتلة، المقدّسة منذ غابر العصور والمخضّلة باللاتينية، التي تعلمتها المرأة العجوز من جدتها، في هذه الآيات يكمنُ عالمها الآخر، إيقاعها المتزامن مع الضغط المنتظم لدوّاسة المغزل هو موسيقاها التي أسلمت نفسها لها إلى أن سَبَحت جدران الغرفة الضيقة إلى آفاق الخلود والأزلية، وكانت جالسة وقد سقطت يداها في حجرها، وكان الخيط مقطوعًا، والعجلة ساكنة. ومع تردد صدى الآيات في روحها وعلى شفتيها؛ بدأت تبحث عن الخيط فوق المغزل، وعندما عثرت عليه في الأخير، مصّت طرف الخيط ومرّرته في أنبوب المغزل وأيقظت الصبي.

وهتفت: «يا إلهي! يا له من منظر بئيس! اليوم مثل شبكة السلمون، والبارحة لم تفلح في قطبة واحدة. اعقد الصوف حول إصبعك مرتين، يا أبله، وإلا فككته كله لك!»

ولكي يجد طريقة للهرب من هذا الانتقاد اليومي الثابت، على الرغم من عدم التصريح بأهدافه على نحوٍ يثير الريبة؛ كان يدير الأمر بطرقٍ عديدة. في بعض الأحيان كان يفلح في مداهنة المرأة العجوز كي تتلو ترتيلة أخرى، وأحيانًا قصة، ولكن كان من الأسلم تحويل انتباهها إلى فضيحة أخرى أفظع من بضع غرزٍ مَرخيّة. واليوم كان محظوظًا. كانت آستا سوليليا مستلقية وظهرها على منحدر السقف، ورأسها متدلٍ إلى الأمام، والصنانير جامدة في حجرها، وكانت مستغرقة في نومٍ عميق.

«جدتي!»، صاح الصبي، مستاء للغاية، «انظري، آستا سوليليا نائمة!»

وهكذا نجح الصبي في تحويل انتباه جدّته عنه إلى آستا سوليليا، ذلك الكائن النائم الذي كان له شكل غريب والذي كان، إن قيلت الحقيقة، نصف إنسان فقط. يا إله السموات الرحيم، يا له من منظر بئيس! ولكن حينما أُيقِظت آستا سوليليا بكل الطقوس المناسبة، بدأ كل شيء ببساطة من جديد؛ بدا اليوم كأنه لم يتقدّم قيد أنملة، كانت والدته تئنُّ بألم أكثر من أي وقت مضى، أو بوير أوبتيميه (يا يسوع يا خيرة الأولاد)، ترا مي بوستِ تيه (خذ بيدي قدني خلفك).

ترا مي بوستِ تيه.

بدأت العجلة تدور مرة أخرى قبل أن يتذكر الصبي أنه كان شبحًا منذ قليل.

قال: «ألا يحصل الأشباح على كل ما يريدون؟»

«أوه، هراء!»

«يمكنهم فعل ما يحلو لهم، أليس كذلك؟»

«واصل حياكتك، أيها المخبول الصغير».

«جدتي، هلّا رويتِ لي قصة عن شبح؟»

«ومن أين لي الوقت لرواية القصص؟»

«فقط شبح واحد».

«أي قصص سأعرف عن الأشباح، وما أنا إلا امرأة هرمة ملازمة للفراش مخذولة الذاكرة؟»

على أية حال، وبعد بضع لحظات، سُمِعت وهي تغمغم بينها وبين نفسها؛ كان الأمر أشبه بزفرات عاصفة سوف تنفجرُ بكلّ قوتها عمّا قليل. كانت جميع قصصها مصبوبة في نفس القالب. في المجاعة التي أعقبت «الانفجار البركاني» أكل الناس قصاصات الجلد، كانوا هزيلين للغاية وقد غزاهم القمل، كانت جدته تتذكر تلك الحقبة. ذات مرة كان هناك مركب شراعي فرنسي، حدثَ هذا عندما كنتُ في الجنوب، تحطّم المركب على الرمال بفعل ريح هوجاء رهيبة، هلكَ طاقم المركب بأكمله على الشاطئ الرملي، وسرق مزارع ثري كل شيء انجرفَ إلى الشاطئ، بما في ذلك برميل

مليء بالمال وبرميل من خمر الكلاريت الفرنسي. عادَ القبطان من الموت والطاهي أيضًا، وطاردا السارق إلى تاسع جيل، وحتى الآن لم يتحرروا منهما، كثيرٌ من القصص تُروى عن ذلك.

قصدَ أَخَوان السوق، أحدهما قفلَ عائدًا إلى منزله في الصباح، وأراد الآخر المكوث يومًا آخر. كان الدرب طويلًا، عبر الجبال. هبّت عاصفة عاتية، ولكن الأخ تمكن من الوصول إلى كوخ. وكان الكوخ يعجُّ بالأشباح. خلال الليل أخذَ الشبح يقرع على الباب والجدران، فسحبَ الأخ بعض الأحجار من على الأرضية وكوّمها إزاء الباب. كان الشبح في الخارج يصرخ صراخًا مرعبًا. في الصباح كان البرد قارسًا، ولكن الثلج كان قد توقف عن الهطول. نحّى الأخ الأحجار جانبًا وفتح الباب. ولكن حالما فتحه، خرّ أخوه على الأرض، متجمدًّا حتى الموت. ثمّ قامَ من الموت وتعقّب أخاه.

مسافات لا حصر لها، وأكوام ثلجية لا قرارة لها، ومنحدرات يتردّى منها الناس إلى حتفهم كالعميان، وأنهار متجمدة يهوي الناس في حُفراتها ويُجرَفون تحت طبقة الجليد وصولًا إلى البحر، يعودون من الموت ثانية، ويقرعون على النوافذ، ويصدحون بالأشعار. وحوش بحرية تهاجم البشر عند سفح الجروف، ويدمرون منازل نساء كنّ فيها بمفردهنّ. يقولون إن العفريت كولمكيلي خالد، وإن الساحرة تعيش في هذه المزرعة وَعقدت حلفًا معه وقتلت الناس. كثير من القصص عن ذلك، قصص لا تُعدُّ ولا تحصى، وفي آخر المطاف دُقَّ عنقها في مدخل كنيسة ميري، في أحد العنصرة، وقُطِّعت أوصالها، «ضيف غونڤور لم يكن في حِرز الله أو في نعمائه، لقد كسرتْ ضلوعي، كسرتْ عظم ساقي، وعظام وركي؛ وإذا ما هاتفني كولمكيلي، فسوفَ يقول، عظام ودم قانٍ، عظام ودم قانٍ، ودودودو –

وفجأة، أخرجَ بيارتور رأسه من فتحة الباب الأرضي، وصاح:

«ضعي إبريق القهوة على النار، هالبيرا، هناك زوار قادمون».

أجابت المرأة العجوز على مضض، بينما كانت تدفع عجلة مغزلها جانبًا في منتصف القصة:

«آه، لا داعي لإخباري. لم ينحرفوا عن طريقهم قط، البعض منهم. ثم إن زمرة من العفاريت كانت هنا صباحًا لتعلن عن قدومهم».

«سوف تساعدكِ سولّا في إعداد بعض الفطائر، وبمقدورك صنع القهوة ثقيلة كما تشائين؛ تكريمًا لرجل لم يأت إلى هنا من قبل، ولكنه خرجَ سعيًا وراء شؤونه. ولا تتلكأ!»

بعد عدة دقائق، برزت من خلال فتحة الباب الأرضي ملامح الوكيل المنحوتة بحدّة، المؤطرة بِشَعره القوي الذي وَخَطه الشيب. كان يرتدي سترة ركوب خيل سميكة ووشاحًا، وحذاء من جلد الفقمة، وجوارب ثلج طويلة مرفوعة إلى ما فوق بنطاله وصولًا إلى الفخذين. كان سوطه مزخرفًا بثلاثة أشرطة فضّية لمّاعة. كان في طريقه إلى المدينة، وقد أحضر معه أحد عمال مزرعته مرافقًا له؛ مدّ إصبعين أو ثلاثًا من أجل التحية وتمتمَ بشيء من خلال لحيته. أخلَت لهُ آستا سوليليا مكانًا للجلوس فوق سرير الأولاد، بينما جلس بيارتور بجانب زوجته. ووصلت إليهم رائحة أول فطيرة.

قال بيارتور بنبرة تشي بالشفقة على الوكيل: «حسن، يا عزيزي جون، إذن أنت ترى ما هو رأي خيولك في الطرقات في هذا الطقس أليس كذلك؟»

«آه، الطرقات مناسبة، لا ضير فيها»، ردَّ الوكيل بنعاس، وهو يربت على لحيته ويتثاءب، في حين كان ينقّل بصره في أرجاء الغرفة.

قال بيارتور الذي كان دومًا على صواب في تعاملاته مع الوكيل: «آه، هذا مضحك. إنني أتذكر وقتًا قلتَ فيه إن المروج خطرة جدًّا على الأحصنة في عمق الثلوج. وبالأخص إذا كنتُ أنا من كان يستخدم الأحصنة. ولكن من الطبيعي أن يعرف المرء أكثر من غيره كيف يسوس خيوله وأيّ جهدٍ تُطيق».

فأجاب الوكيل بطريقة ذات معنى: «ليس من دأبي التسكّع في المروج بلا طائل، وأضف إلى ذلك أنها أحصنتي».

ردَّ بيارتور محتجًّا على هذا التعريض بالقول إن كلًّا من الأغنياء والفقراء على حد سواء لديهم في عقولهم غايات وأهداف، سواء في الموطن أم في البراري، وبوسع الوكيل أن يقول ما يحلو له، ولكن المروج لم تشهد تناقصًا في الثلوج مؤخرًا، مهما كان الثلج في «ميري».

وأجاب الوكيل أن الثلج لم يكن أسوأ مما يُتوقع له أن يكون في منتصف الشتاء. وأخرجَ صندوق تَبغه الفضّي، وقاس قطعة مضغة من التبغ بإصبعه، ثمّ قضمَ من القطعة، وبعد ذلك أعاد المتبقي إلى الصندوق بعناية، وأغلقه بحرص شديد. ثمّ استلقى مجدّدًا على السرير غير خائف من القمل.

قالَ بيارتور بدماثة: «حسنًا يا رجل. وما جديدكَ هذه الأيام؟»

قال الوكيل إن كل شيء كان كالمعتاد معه. ولا يعلم كيف تجري الأمور مع الآخرين.

«لا علامات على الديدان أو الإسهال؟»

سأل الوكيل: «عندي؟»

«أوه، أنت عادة تتحدث عن نفسك أولًا، هذا إن كنتُ قد عرفتك حق المعرفة».

أجاب الوكيل: «الأمر سواء أكان لديهم ديدان أم لا، السعر ذاته يحصل عليه الناس لقاء مواشيهم هذه الأيام. إن الحيوانات البائسة ما هي إلا عبء على كاهل الناس هذه الأيام».

تشكك بيارتور فيما إذا كان الأعيان يعنون ذلك حقًّا عندما يتحدثون عن خرافهم باستخفاف.

ردّ عليه الوكيل من فوره: «يمكنك الارتياب في كلامي قدر ما يحلو لك».

«هل تزيل الثلج من الحقل؟»

ردّ الوكيل: «لا، لم يحدث عندي نقص في التبن بعد».

قال بيارتور: «ولا عندي كذلك».

تمدد الوكيل الآن على السرير في وضعية مريحة، وكان يمتص التبغ على نحو حثيث، وكان قد كوّم في فمه كثيرًا من اللعاب بحيث بدأ يتجنب الجمل الطويلة. تنقّلت العينان شبه المغمضتين من مكان إلى آخر، إلى أن حطّتا أخيرًا على آستا سوليليا التي كانت منهمكة في الطهي.

علّق الوكيل بالقول: «لقد كانت مرّات اضطررت فيها إلى طلب أشياء كنت في أمسّ الحاجة إليها من الآخرين».

«حسن، إنها غلطة زوجتك إذ رفضت أخذ أي شيء مقابل بضع قطرات من الحليب قد جلبتُها لوضعها في عصيدة الأولاد حينما كانوا صغارًا؛ وأنا لا أدين لكَ يا صديقي ببنسٍ واحد بما يخص الأرض، كما يعلم الجميع، وإن استغرق الأمر اثنتي عشرة سنة».

«إنه ليدهشني أنك ما زلت تستخدم أراضي الغير كالسابق تمامًا».

«إيه؟»

«ألم يكن على ظهرك شيء ما عندما أتيت لرؤيتي بالأمس؟ هذه هي المرة الرابعة، إن لم أكن مخطئًا. ما لا يمكنني فهمه إطلاقًا لماذا اشتريت مني أرضًا هنا في الوادي ما دمت تنوي الاستيلاء على مقبرتي أيضًا!»

قال المزارع: «لربما تمكنتم يا أهل روثسميري من هزيمة الموت»، إلا أن الوكيل لم يردّ على هذه السخرية.

سأله: «ماذا سأقول إن التقيت المأمور في المدينة؟»

ردّ بيارتور باحتداد: «قل له إن خروفه ذا الوجه الأسود الذي انتشلته له من المستنقع يوم «منتصف الصيف» الماضي كان مُنتنًا من شدة الأمراض».

كان رد الوكيل الوحيد بأن لاكَ مضغته بضع لحظات ثمّ بصقها كلها دفعة واحدة عند قدمي بيارتور. ثم سأل دون أن يرفع عينه عن آستا سوليليا: «كم تبلغ من العمر فتاتك تلك الآن؟»

«ستصبح في الرابعة عشرة، الطفلة المسكينة. لن أتفاجأ إن كانت قد ولدت في نفس الآونة تقريبًا التي سددتُ فيها الدفعة الأولى للأرض».

«هذا برهان لك على مقدرتك: إنك تزرع منذ أربع عشرة سنة ولا تملك بقرة في المزرعة بعد».

«لو لم تكن دفعات قطعة الأرض هذه حِملًا على عاتقي طوال الاثنتي عشرة سنة؛ لكنتُ بكل تأكيد اشتريتُ بقرة واستأجرت من يساعدني أيضًا. لكن الحاصل هو أنني طيلة حياتي كان لدي اعتقاد بأن الحرية والاستقلال يساويان كل الماشية التي قد يشتريها أي مزارع آخر بالدين».

أطلقَ الوكيل زفرة خافتة.

وسأل: «قل لي ثانية، ماذا قلت اسمها؟»

«آه، اسمها آستا سوليليا».

«وما معنى اسمها بالضبط؟»

«معناه يا صديقي أنها لن تحتاج لأن تعتمد على الآخرين، سواء بالروح أم بالجسد، ما دمتُ على قيد الحياة في هذا الكوخ. والآن من الأفضل أن لا نتحدث عن هذا الموضوع أبدًا يا صاحبي».

بيد أن ازدراء الوكيل لاستقلالية بيارتور كان بلا حدّ، فقال:

«بإمكانك إرسالها لي في مطلع العام؛ زوجتي مولعة إلى حد ما بتعليم الأطفال القراءة وخلافها. وسنتكفل بطعامها شهرًا أو نحو ذلك».

قال بيارتور: «في البيت الصيفي طعام وفير. وقد يكون هذا الهراء المفعم بالعاطفة الذي تسمّونه تعليمًا في ميري أكثر فائدة للأطفال الذين تعترفون بهم أبناءً لكم».

انثنى الوكيل إلى الأمام، وبصقَ دفقة كبيرة من نقيع التبغ أمام قدمي بيارتور، ثمّ مرر يده على جبينه ووجنته بنعاسٍ، وكبح تثاؤبه.

قال بيارتور دون أن ينظر إلى البصقة: «أنا مسؤول عن ناسي، وأنت مسؤول عن ناسك».

أبدى الوكيل ملاحظة: «أرى أن زوجتك تبدو على حالها، كم دفعت لها ثمنًا للدواء هذا العام؟»

«هذه مسألة أخرى تمامًا. لم يخطر لي على بالٍ قطّ أن أنكر أنني ابتُليتُ بسوء الحظ إذ تزوجتُ من امرأتين كلتيهما مُعتلّتين في قلبيهما، وكونها ليست سوى مشيئة الله والحظّ الخبيث، فهي لا تعني أحدًا، وبالأخصّ أنت».

الوكيل الذي لم يكن ينزعج من الأجوبة اللاذعة، بل إنه يحبذ مثل هذا الأسلوب أكثر من غيره، حكّ جسده هناك وهناك، لأن القمل كان قد بدأ يزحف، وقال دون أن يخاطب أحدًا معيّنًا:

«أوه، لا بأس، هذا لا يقلقني. ولكن زوجتي تعتقد أنه ينبغي على الفتاة أن تتلقى بعض التعليم، وقد صدر قانون بشأن الامتحانات الإلزامية. ولا

يعني ذلك أن يرتاب أحد برأيي؛ فأنا أعتقد أن كل هذا العمل التعليمي سيعود بالخراب على الطبقات الدنيا».

«في تلك الحالة، أعتقد أنه من الأفضل لأولئك الذين ينتمون للطبقات الدنيا أن يعلّموا أبناء الطبقات الدنيا، وأن يعلّم الذين ينتمون إلى الطبقات العليا أبناء الطبقات العليا؛ وبلّغ السيّدة خالص أمنياتي».

قال الوكيل: «أنا لا أجني شيئًا إن تعلّم الناس، ولكن هذا ما تريده الحكومة. وبالمناسبة، جماعة النساء هناك في المزرعة غاضبات ويقلن إنه يتوجب عليك أن تشتري بقرة».

«أنا رجل حرّ».

«ماذا ينبغي علي أن أقول في حال استفسر مني المأمور عن هذا الأمر؟»

«قل له إننا نحن سكان المروج نعتمد على أنفسنا ولسنا بحاجة إلى أحد».

«اممم، وغارق في لحودك حتى عنقك».

وقبل أن يجد بيارتور الوقت للتفكير بتعقيبٍ مناسب، اخترقَ الأثير صوتٌ ممطوط ومرتعش من ناحية الموقد:

«مثلما تفضّل سيادته بالقول؛ هذه ليست حياة جديرة بالإنسان. عشتُ في أورثارسيل أربعين سنة وكان لدينا دائمًا بقرة من نوع أو آخر. ولم أكن بحاجة لكي أدعو الله من أجل أي شيء خاص خلال تلك الأربعين سنة».

قال الوكيل كأن شيئًا خطرَ له: «اسمعي، بوسعي أن أشتري لك بقرة ستلدُ عجلًا في الصيف، بقرة جيدة، لا تعطي كثيرًا من الحليب، لكنه يستمر طويلًا».

هل عاد إلى أحابيله مرة أخرى؟ فكّر بيارتور الذي كان يعرفُ الوكيل منذ القِدم؛ لم تكن هذه المجادلة الأولى بينهما، كانت أشبه بخبط أحدهما رأس الآخر بجدار صخري. كان من عادته البدء ثانية من حيث توقف سابقًا، البغل العجوز. في محاولة منه لتقليب رأيه عن أي شيء كان ميئوسًا منه. وكان من الصعب التحديد أكانت تلك الصفة في شخصيته تزعج بيارتور أكثر مما تثير إعجابه. ثم وقع أمر آخر أجّلَ ردَّ بيارتور حينذاك؛ فعلى حين غرّة

بذلت فينّا محاولة لرفع نفسها، ونظرت إلى الرجلين بمقلتين محمومتين، وهمست مُستبشرة:

«أتمنى على الله عزّ وجل أن يهبنا إيّاها»، ثمّ رقدت من جديد.

فقط حينما انقضت هذه التنهيدة وجدَ بيارتور الفرصة للردّ على الوكيل: «لم تكن حريصًا يا صاحبي على عرض بقرة عليّ العام المنصرم، أو العام الذي قبله، حينما لم تكن متيقنًا بعد بأنني سوف أسدّد لك الدفعة الأخيرة من ثمن الأرض».

قدّم له الوكيل عرضًا: «يمكنني إمدادكم بالكَلأ من أجلها أيضًا».

وتنهّدت المرأة مجدّدًا من فراش المرض: «فلتحلّ بركات الله على الرّجُل».

قال بيارتور: «إنك تحصلين على دوائك من الطبيب فينسن يا حبيبتي، لم يحدث أن عانيتِ من نقصٍ في الدواء قطّ».

الوكيل، الذي كان يتمتع نوعًا ما بسمعة محلية كمعالجٍ بالطبّ المثلي[1]، سأل إن كان بوسعه رؤية بعضٍ من الأدوية التي جلبها بيارتور لزوجته من الطبيب فينسن المسؤول الطبي في الناحية وعضو البرلمان. أزاحت فينا الستارة جانبًا من زاوية الخزانة بالقرب من سريرها، وكشفت عن مجموعة كبيرة ومهيبة من زجاجات الدواء من كلّ الأحجام والألوان، مرصوصة في ثلاثة أرفف. معظم الزجاجات كانت فارغة. تناول الوكيل بضعًا منها، أزال السدادات الفلّينية، وتنشّقَ. دُوِّن عليها جميعها نفس الوصفة بخطّ الطبيب الأكاديمي وبأحرف سوداء: «فينا راغنار. يؤخذ ثلاث مرّات يوميًّا على فترات منتظمة. للاستخدام الداخلي». حينما اشتمّ بازدراء محتويات بضع قوارير، أعادها إلى مكانها مع ملحوظة بأنه خمّرَ السُّم فترة طويلة، ذلك العجوز اللعين المحتال.

1- العلاج المثلي (Homeopathy) العلاج المثلي يسمى أحيانًا بالطب التجانسي، وهو نظام علاجي يقع تحت العلاج بالطب البديل، وضع أسس هذا العلاج الطبيب صامويل هانيمان معتمدًا على قوانين أبقراط في الطب الذي يقول "المثل يعالج المثل" مثلًا إن شجر الكينا المعروف له مفعول مزدوج ومتناقض فهو علاج لمرض حمى الملاريا للمصابين فيه، أمّا إذا تناوله الإنسان السليم فإنه يسبب حمى الملاريا.

ولكن في هذا الحين قُدِّمت القهوة، وحثّ بيارتور الوكيل ومرافقه بسخاءٍ على الانقضاض على تلك الأشياء المسمّاة بالفطائر أو أيًّا كان اسمها. كانت المرأة العجوز ما تزال تتمتم بينها وبين نفسها، وتعمل باهتياج وتأفّف حول الموقد، أما آستا سوليليا التي تتبعت كلّ ما قيل، عن الأبقار والتعليم، تسمّرت في مكانها وأخذت تمصّ إصبعها وتحملقُ بكل إكبار إلى الوكيل وهو يقضي على الفطائر التي خبزتها بنفسها. اتّسعت أعين الصبيان وازدادت اتّساعًا بتناقص تلّ الفطائر المرشوش بالسكر فوق الصحن، وتطاولت وجوههم واستطالت بظهورِ أزهار الصحن، وورومانسيته، وفَتاتِهِ من جديد. ألن يتركا ولو قطعة واحدة؟

قال الوكيل: «بالمناسبة، قد يقصد ابني هذا الطريق في الربيع من أجل بعض الأعمال».

قال المزارع: «حقًّا؟ لن أمنع عنه الطريق، سمعتُ أنه أصبح هذه الأيام رجلًا مهمًّا في الجنوب».

فصحّح له الوكيل: «أمين سرّ في جميعة تعاونية».

«آه، أهناك فرق إذن؟»

«لا أعلم إن كنتَ على دراية بأن الصّوف في العام الماضي بلغ سعره ثلاثة أضعاف السعر الذي كانت بروني تدفعه مقابله. ويبدو أن الأرباح التي جناها هذا الخريف من لحم الضأن لم تكن أقل».

قال بيارتور: «بقدر ما يعنيني الأمر، طالما أنني أستطيع أن أدفع لك وللتاجر ما أدين به لكما قانونيًّا، حسن، لا فرق عندي فيما ترونه أنتم طبقة الأشراف مناسبًا لاتّهام بعضكم بعضًا بالسطو أو الاختلاس، الأمر سواء بالنسبة إليّ تمامًا».

علّق الوكيل بالقول: «بلى، جميعكم جبناء، كثير منكم. تَحيونَ وتموتونَ وكلّكم ثقة عمياء بمن يَنهبُكم أكثر».

«لا أدري، ولكن حسبما سمعت يا صاحبي، أنت لا تعطي كثيرًا مقابل ما تشتريه حيًّا. في هذا الخريف فقط كان التاجر يخبرني بأنك تكسبُ فوائد من خمس إلى ثماني كرونات مقابل كل حَمَلٍ تبيعه في ڤيك وذلك ما كان على أكبر تقدير».

الآن، كانت جِبلّة الوكيل من النوع الذي فيما لو كان متهمًا بالسرقة أو حتى بجريمة قتل لكان بمقدوره المحافظة على مظهره الخارجي هادئًا ثابت الجأش، وكان سيبدو بالفعل راضيًا تمامًا. ولكن جريمة واحدة ما كان ليقبل أن يرتبطَ اسمه بها؛ فإذا ما لمّحَ أيّ شخص إلى أنه يكسب مالًا، كان الجليد ينكسر وتنحلّ عقدة لسانه، كان لا يحتمل مثل هذا الافتراء. كان يميل بجسده إلى الأمام، ويفغر فمه عن طوفان من الكلمات، وكانت عضلات وجهه تختلجُ وترتعش من فرط الانفعال، ويتطاير الشرر من عينيه، وكانت تبريراته زاخرة بالمزاعم المبالغ بها، وبالابتسامات المتعارضة. في لحظة واحدة تبدّد كل نعاسه:

«من حسن الحظ، أنني ضليع بإدارة أشغالي أكثر من التاجر في فِيورد. وبوسعي في أي وقت تقديم وثائق تثبتُ أن تعاملاتي في مصلحة الأغنام قد جلبت عليّ من الضرر في السنوات الأخيرة أكثر مما جلبتهُ الثعالب على جميع المزارعين في المقاطعة؛ ولأميال أبعد من ذلك لآخر جيلين أو ثلاثة. لقد سمحتَ للتاجر في فِيورد أن يوهمكَ بأنني أشتري الأغنام في الخريف في سبيل المتعة. ولكن حقيقة الأمر هي أنني حينما أشتري الأغنام من الناس في هذه النواحي، فإنما يندرجُ ذلك في إطار فِعل الخير والإحسان. وما الإحسان؟ يذهبُ الشخص ويورّطُ نفسه في مآزق يفترضُ أنها مسؤولية الفرد الشخصية أوّلًا وأخيرًا، ويسمح لنفسه بأن ينخدع في إنقاذ أقوام من الجوع، أو الديون، أو من إفلاس وشيك، كل ذلك من أجل الضرائب، بدلًا من أن يتركهم يذهبون إلى الأبرشية، ومن الأبرشية إلى المقاطعة، ومن المقاطعة إلى البلاد. ومن ذلكَ كلّه إلى الجحيم. أتراني سألتهم صحبتهم الحلوة؟ لا، لم أطلبها من أحدٍ منهم، ولكنهم يأتون إلي، وأنا دومًا حاضر. يأتي أحدهم ويطلب الحبوب، وآخر يطلب السكر، وثالثهم من أجل التبن، ورابعهم طلبًا للمال، والخامس من أجل السعوط، في حين لا يكون عندي حتى مضغة من التبغ لنفسي. ويأتي سادسهم طلبًا لكل ذلك دفعة واحدة! حتى إن السابع يطالبني بالسعوط المُخلَّط، كأن شُغلي هو أن أخلط السعوط من أجل الناس. وهل تتصوّر شركة بروني أني مصرف للمِنح والهدايا، حيث بإمكان الجميع القدوم وطلب ما يشاؤون مجّانًا؟ ثمّ هل عسايَ أن أسأل،

لماذا لا تحوّل شركة بروني عملها إلى مؤسسة هدايا دائمة؟ لا يا صاحبي، ويمكنك أن تقول لبروني على لساني إنه على مدار العام يأتي إلي طوابير من الرجال المفلسين، رجال نهبهم حتى جلودهم، ثمّ يحظرُ عليهم، كما القتل، أن يطالبوا بمقدار لقمة واحدة لأرتال الأطفال الصغار لديهم المهزولين والمتضورين جوعًا. وبماذا تخرج من هؤلاء الناس في الخريف؟ حفنة عظام مقعقعة مثيرة للشفقة يمكنك رفعها بإصبعك الصغيرة، وبالكاد تستحق أن تكون طعمًا مُسمّما للثعلب».

بعد سورة الغضب هذه نبّشَ الوكيل جيوبه باهتياج بحثًا عن صندوق التبغ، بيد أنه نادرًا ما استأنف مضغه للتبغ قبل أن يهزم خصمه أو يتركه في حال سبيله على أنه حالة ميئوس منها.

وبدلًا من أن يقضم قطعة من التبغ قال: «حانَ الوقت، وقد حان منذ زمن بعيد، لكي يجتمع المزارعونَ، إن توفّر لهم شيء من الشجاعة، وأن يتشاوروا في أمورهم كما هو الحال في أماكن أخرى، وأن يعرفوا مصلحتهم جيّدًا، حتى لا يُضطرّ أفراد ضعفاء مثلي، بإيرادات ضئيلة ومسؤوليات جسيمة، إلى العناية بأشخاص صمّم التاجر على تجويعهم حتى الموت، ومن ثمّ يسمّى سارقًا بسبب آلام هؤلاء الناس».

علّقَ بيارتور: «في وقت من الأوقات كان الناس يقولون إن بكَ علّةً ما، إن نظرتَ في مصالح الناس قبل مصالحكَ الخاصة».

«على أية حال، بإمكانك أن تكون متأكدًا من أمر واحد، وهو أنني بوسعي أن أركّب زجاجة دواء لزوجتك فينا أفضل من ذلك الكافور القمامة الذي تحصل عليه من العجوز فينسن. هو وتولينيس جينسن من ذات الطينة. بحسب معلوماتي الأكيدة لم يفعل شيئًا في البرلمان سوى بناء أرصفة ميناء من أجل التاجر. وقد سبقَ أن تحايلا على الخزينة العامة من أجل إعانات مالية لبناء رصيفين بحريين قد انخفضا إلى مستوى الرمال بفعل الأمواج العالية حال تشييدهما، ولهذا قررا الآن طبعًا استنزاف خزينة الدولة بمئات الآلاف الأخرى من الكرونات لتشييد حائل أمواج ممتدٍّ على مدى البصر كحصنٍ للأرصفة المخرّبة. ومن يسدد ثمن تلك الإنشاءات والأبنية التي يُلقَى بها إلى الأمواج

كأنها نفايات؟ نحن المزارعين، بالطبع، المتوفين حتى العَظم بالضرائب المباشرة وغير المباشرة لخزينة الدولة. كلا، إذا أراد المجتمع الزراعي الآيسلندي ألا يصبح ممسحة أقدام لجبروت التاجر، إذن علينا نحن المزارعين أن نتّحد دفاعًا عن مصالحنا مثلما فعلوا في ثِينغي منذ أكثر من ثلاثين عامًا.

ثمّ نهضَ، وتمطّى، وشرع يلفُّ وشاحه حول عنقه.

توقفَ قدّام آستا سوليليا وقال: «حسن، حسن أيتها الفتاة الصغيرة»؛ وكانت عيناه مليئتين بالدفء، وملامحه المنحوتة قوية للغاية لدرجة أن وَجنتي الطفلة تضرّجتا بحمرة الخجل، وأخذ قلبها يخفقُ بشدّة على ضلوعها، «أعتقد أنني سأعطيك بضع كرونات، الشابات الصغيرات يحببن أحيانًا الحصول على بعض المال لشراء المناديل». وأخرج عملة فضية حقيقية من محفظته وناولها إياها. لطالما كانت تخشى الوكيل، لكن ليس بقدر خوفها منه الآن أبدًا. حتى أن الصِّبية لم ينظروا إليه. ثمّ زرّر سترته.

قال: «مائة وخمسون مقابل البقرة، ولا قرش واحد زيادة، والتبن وفقًا للاتفاق».

***

26. المساء

سرعان ما حلّ أوان الغسق. لم يعد الصبي واثقًا من نفسه بعد أشعار اليوم وقصصه، ما عاد يجرؤ على ترك قدميه متدلّيتين من فوق حافة السرير؛ بل رفعهما وقعدَ متربّعًا خوفًا من قوى العالم الخفية، واستمرّ في الحياكة دون المجازفة بأدنى حركة. كانت جدته وشقيقته واقفتين قبالته وظهرهما له، قد عكفتا على طقوس الطهي بكل انتباه وتركيز. كان الحطب يُفرقعُ بتغيّظٍ، ويملأ الغرفة بدخان كثيف يخلّفُ حرقة في حلقهِ؛ في هذا الدخان تمكثُ أشعار النهار، بكل عواصفها العاتية، وأشباحها ووديانها الضيّقة العميقة. ومع أنه كان بالإمكان سماع صوتِ أخويه من تخوم المزرعة يتشاكسان، فإن ذلك لم يمنحه الارتياح. في هذه الأجواء الخانقة، تغدو الغُرَز مثل الشبكة أكثر وأكثر؛ وكانت سبابته اليسرى قد خَدِرت منذ مدة طويلة بسبب إبقائها بارزة في الهواء. في الغسق تبدّى أن أبعاد الغرفة تتمدد وتزداد، وما من قوّة

أرضية بوسعها تجسيرها الآن. وكانت أمّه الأبعد من كل شيء. حتى قلبها بدا أنه يتلاشى على نحوٍ لا رجعة فيه في أعماق هذا الضباب الذي لا يسبر غوره، والحافل بِشعر الحياة، وشِعر الممات.

كان العشاء مشدودًا مَشوبًا بالتوتر نتيجة الإرهاق والصمت الثقيل. استرق بضعة منهم النظر إلى بيارتور، من ثمَّ بعضهم إلى بعض. بالكاد أصابت آستا سوليليا شيئًا من طعامها. في هذا الحين كانوا قد أكلوا كفايتهم من سمك القدّ المملح، وأتوا على البطاطا كلها، ولم يرغب أحد منهم بالمزيد من عصيدة الصباح المتبقية. ثمّ بدأت آستا سوليليا برفع الأطباق عن الطاولة، كان لها في عينها حَوَلٌ مذهل. تهامسَ الشقيقان الأكبران بشيء خبيث فيما بينهما، وقالت الأم هامسة أيضًا: «أحبّاء قلبي». تناولت المرأة العجوز صنانيرها من على الرفّ، وفي منتصف قصّتها نطقت بهذه الكلمات بصوت عالٍ: «خوري الآن، خوري يا بقرتي بوكولا[1]، إذا كنتِ ما تزالين حيّة في مكان ما».

واستفسرَ بيارتور من على سريره منزعجًا: «ها؟»

«اقتلع شعرة من ذيلي وَضعها على الأرض»، تمتمت المرأة العجوز وهي تحوك، دون أي تعليل. كان صوتها في الصمت أشبه بخشخشة الصقيع. بدأ الولدان يلكمان بعضهما بعضًا بالقرب من الباب الأرضي. وقفت آستا سوليليا فجأة قبالة أبيها وفي يدها طبق، ونظرت إليه بعينها السويّة وقالت:

«أبي، أريد أن أتعلم».

كُسِر حاجز الصمت.

أجاب بيارتور قائلًا: «لم أتلقّ أي تعليم قبل الشتاء الذي مضيتُ فيه إلى القسّ وقرأتُ *ملحمة أورفار أودس*[2] أثناء تدريسي قواعد الدين المسيحي».

1- بوكولا: قصة البقرة بوكولا من الموروث الشعبي الآيسلندي، تعتبر من أشهر قصص الأطفال الشعبية الآيسلندية. تصور طبيعة الحياة في آيسلندا في الماضي، ومعتقدات الآيسلنديين حول الغيلان (الترولات/ Trolls) التي قطنت في الجبال والكهوف.

2- *ملحمة أورفار أودس*: ملحمة أو ساغا آيسلندية شهيرة كُتبت في أواخر القرن الثالث عشر وتحتوي على أغان وأساطير قديمة. تدور الملحمة حولَ قصة البطل الأسطوري *أورفار أودس* ومصرعه بِجُمجمة حِصانه بحسب نبوءة قديمة.

قالت الفتاة بتصميم: «أبي، أريد أن أتعلّم»، وأخفضت رأسها وأطبقت جفنيها، وكان فمها وحنجرتها يرتعشان ارتعاشًا خفيفًا، والصحن الهشّ في يدها.

«حسنًا يا حبيبتي، سوف أهجئ معك في قوافي بيرنوتس».

عضّت على شفتها قليلًا وقالت:

«لا أريد أن أتعلم قوافي بيرنوتس».

قال بيارتور: «هذا غريب! ماذا تريدين أن تتعلمي إذن؟»

«أريد أن أتعلم المسيحية».

«بإمكانك تعلّمها من العجوز هالبيرا».

قالت الفتاة: «كلا، أريد أن أذهب إلى روثسميري كما قال الوكيل».

«ولأي غرض، باعتقادك؟»

«لأتعلم كيف نتعرف إلى الله».

قال بيارتور صاحب البيت الصيفيّ: «كلام فارغ».

«ومع ذلك، أريد أن أذهب إلى روثسميري».

أجاب «أوه، بالتأكيد يا حبيبتي، ولكني قد أُحضِرُ أولاد روثسميري بأسرع ما يمكن على ألّا أسمح لقوم روثسميري أن يحضروا أبنائي».

«أريد أن أذهب إلى روثسميري».

«نعم، حين أموت».

«إلى روثسميري».

«أمك أيضًا أرادت الذهاب إلى روثسميري. ولكنها فضّلت الموت على الاستسلام لنفسها، وقد ماتت؛ كانت هناك امرأة من أجلك. روثسميري هي روثسميري. ذهبتُ إلى هناك عندما كنتُ في الثامنة عشرة، منذ ثلاثين سنة، ولم أسوّي ظهري مذاك؛ ولم ينتهوا مني بعد. والآن يهددونني بفرض بقرة عليّ. ولكن أمك ماتت في هذه الغرفة، دون أن تسمح لأحد بأن يمنحها أي شيء. لقد كانت امرأة مستقلة».

كان بيارتور فخورًا جدًّا بهذه الزوجة، بعد ثلاثة عشر عامًا من وفاتها. كان محبًّا لذكراها وقد نسيَ كل خطاياها. ولكنه عندما شاهدَ كتفي ابنتها

المتفضتَين حينما كانت تنتحبُ فوق الأطباق التي كانت تغسلها؛ تذكر مرة أخرى أن النساء بحاجة إلى الشفقة أكثر من البشر العاديين، وبحاجة إلى المواساة طوال النهار. ثم إن كان فيه موضع حنان وعاطفة على الإطلاق فهو لزلّة الحَوَل في هذه الفتاة ذات الاسم الجميل، التي يحدّق بها أحيانًا في أيام الآحاد، وأحيانًا يحميها من المطر في الصيف، كلاهما دون أن تلاحظ. لذلك أعطى وعدًا بأن يعلمها القراءة غدًا، حتى لا يكون لديهم أي شيء للتشكي منه في روثسميري. «وقد يتسنّى لنا هذا الربيع شراء كتاب *أورڤار أودس* ساغا. ومنديل حتى».

صمت.

«يجب أن تُسلميني ذلك المال يا فتاتي، إنه مال غدّار».

ما من جواب.

«من يدري، قد أشتري لك ملابس جديدة، وأحملها لك ملفوفة في جيب صدر معطفي الرسمي، ولكن عليكِ أن تكبري من الآن وحتى الربيع المقبل».

تمتمت المرأة العجوز وهي تقبّلُ أنبوب المغزل: «خوري، خوري الآن أيتها البقرة».

صاحَ بها بيارتور بحدّة: «لا أريد مثل هذا الهراء على مرأى من الصغار يا هالبيرا!»

«اقتلع شعرة من ذيلي وَضعها على الأرض».

واستمرت دموع آستا سوليليا بالتساقط فوق الأطباق.

قال بيارتور: «كنتُ أفكّرُ، بما أنك قد بلغت هذا العمر، فكّرتُ بأنه آن الأوان كي أعطيكِ شاةً وتصير ملكًا لك. هناك نعجة عسلية العينين، نبتَ الصوف فوقَ منخرها، وهي جميلة مثل فتاتي الصغيرة».

لبضع لحظات ظل واقفًا ينظر بشيء من الإحراج إلى الجسد النحيل الذي كان له صبوتهُ ورغبته الشديدة في وادٍ مغمور بالثلج الكثيف، والذي راح ينتحبُ دون أن يهدأ؛ مضى إليها بعد ذلك وربتَ عليها بشدة بضع دقائق كأنها حيوان؛ هذه الزهرة الصغيرة.

قال لها: «حين يأتي الربيع، سوف أسمح لك بالذهاب معي إلى المدينة.

هذا أفضل بكثير من الذهاب إلى عِزبة ميري؛ يمكنك حينذاك رؤية البحر والعالم في رحلة واحدة». وعندما لمسها بتلك الطريقة لم تعد مُغتمّة، ونسيت كل حزنها، نادرًا ما كان يلمسها. احتضنته وشعرت أنه أعظم قوة في الدنيا. كان هناك مكان هانئ على عنقه ما بين قميصه وجذور لحيته؛ حينما كان ثغرها يرتجفُ ساخنًا مخضّلًا بالدموع، كانت تتوق إلى هذا المكان وعثرت عليه. وهكذا اختفت عدائية الحياة، ربما دفعة واحدة، دقيقة واحدة في الغسق ومضت.

ثمّ أُضيء المصباح.

وعادَ عالم البشر الصغير الذي يتدبّر أمور حياته هناك في غياهب الأراضي المتجمّدة إلى طبيعته. وشرعَ بيارتور في نحتِ قطعة خشب مستعرضة من أجل صنع صندوق للعلف، واختبرها مرارًا وتكرارًا ليتثبت من مقاسها؛ وقد اختلطت بلحيته رقائق الخشب والطحلب، وتردّدَ على شفتيه بيتُ من الشِّعر من حينٍ إلى آخر. كان الصبيان الأكبران يُمشّطان الصوف. كانا مثالًا على الأطباع المتباينة؛ كان الأكبر متجعد الشعر، طويل الأطراف، وكانت شخصيته معقدة غير قابلة للتفسير؛ بينما كان الأصغر ممتلئ الجسم قصيرًا، وكما هو الحال مع الأشخاص العنيدين كانَ مندفعًا وسريع الغضب. كان الأكبر معتادًا على رسم تعابير على وجهه وإغاظة أخيه من خلف ظهر أبيه. وكان في منتصف النهار يتسلل إلى البيت ويخدش الطاولة بمسمار، وفي الأثناء يحملقُ في أمّه بسخافة وعناد، ويدق ركبتيه بعضهما ببعض بينما هو جالس. وكان الأخ الأوسط يندفع من تلقاء نفسه إلى العمل، وما يزال يعمل حتى يقع مغشيًّا عليه من التعب. كانا ما بين مشاكسة وعبث؛ ينغز واحدهما صدر الآخر، حتى انتهى الأمر على الأرجح بالضربات. وأضافت آستا سوليليا صفًّا آخر إلى قميصها الذي تحوكه، كانت فتاة فظة نصف مخلوق بشري، أفّ، وكان هذا وذاك يطالبانها بأمر ما، وأقل حادثة تثيرها وتدفعها إلى الصراخ، لا أحد يحلم بأن يصرخ بالطريقة التي تصرخ بها! في النهاية كفّت عن الصراخ. على السرير الآخر، لم تكن الأم أفضل حالًا اليوم، كان كل شيء على حاله كما البارحة، واليوم الذي قبله. هل عساه الوكيل يتمكن من تركيب دواء يشفيها؟

ومضت العَجَلة تدور وتغزلُ عبر امتداد الزمن.

وأما نوني الصغير فلم يعد يفكر في المساء، وعلى الرغم من قدومه، لم يُقِم له أي اعتبار. العائلة وأواني الطبخ على حد سواء انزلقوا تدريجيًا خارج نطاق حواسه؛ وتمدّدت أبعاد الغرفة وانتشرت خارج حدود احتمالية الحدوث، حيث لا يكون أيّ شيء ممكنًا، وأي شيء يمكن أن يكون أشدّ سخافة من غرفة متوسّعة؟ حتى صوت عجلة الجدة فقدَ خواص القُرب؛ كان صوتها مثل صوت ريح بعيدة بعيدة تصفّر عبرَ صخور مجهولة؛ وَخدّها المحفوف بغطاء الرأس يتبدّد في ضباب لا عقلاني. هل أُرسِلت «سولّا» إلى روثسميري لتتعلم معرفة الله؟ أم أنها حصلت على بقرة؟ كلا، لقد كانت فقط الكلبة عند الباب الأرضي، تتثاءب وتهرشُ نفسها، وتخبط على الحائط قبل أن تتكور على نفسها. كانت أمّه محض ذكرى صامتة لبعض الأغاني العالمية غير الواضحة، أو بعض الأهداف التي تاقَ إليها الطفلُ طيلة النهار وقد طواها النسيان الآن. آه كنا هناك، كنا هناك! الساعة التي احتوت مرمى جميع الرغبات والأمنيات كانت تقترب، على الرغم من عدم تحقق أي منها.

على تلك الشاكلة كان يحلّ المساء، قبل أن يدرك المرء أن النهار الطويل قد ولى وانقضى. كان يأتي مموّهًا، في صورٍ تَضمحلّ وتَمَّحي. وقد تلاشى الصبي خارج الزمن مع الصور الأخرى التي كانت تتلاشى.

فكَّت له جَدّته رِباط حِذائه.

***

27. الأدب

سَاقني الغرامُ ذات مَرّة
إلى غادةٍ جبينها أزهر؛
بِخصلات مُلتفّة من الذّهبِ مُؤطّرُ
خفيضٌ صوتها عَذبُ

فاتنة ألحاظها مُؤتلقة
الرِّقة عهودها والنُّذرُ
كأن شُعاعًا من الشّمسِ
تحت حاجبيها يبرقُ

في الخدِّ لاحت حمرة الدماء
كالثلجِ بحمرة الدم يصطبغُ
لم أحسب أنَ في الحبّ هلاكًا.
الموت سقطَ منذ عهد بعيد حَسِبتهُ.

في الثرى أودعوا حَبَّة القَلبِ
في الثّرى هي مُسجّاة الآن
وما عادت حياتي سوى كَدٍّ مُمِضّ
وحيدًا أمضي الآن.

مع أهزوجة العذراء هذه من قصائد الجومسڤايكينغ استهلّت آستا سوليليا تعليمها. عندما كانت تهجئ المقطع الأول، اتكأ بيارتور إلى الخلف في كرسيّه، بعينين نصف مغمضتين وأنشأ يترنّم. كلّ بيت من الشعر قرأتهُ حفظته عن ظهر قلب، والأنشودة أيضًا، كانت تردد الأبيات بينها وبين نفسها كلما كانت بمفردها. كانت جميع أغاني الحب في قصائد البالاد القصصية هذه موجّهة إلى الفتاة نفسها؛ كان اسمها روزا. لم تستفسر آستا سوليليا قطّ من تكون الفتاة التي قِيلَ فيها كل هذا المديح في الأغاني، لكنها رأتها مع أبيها، وأحبتها معه بلغة القوافي البدائية الصعبة، الأشبه بضربات سكين يائسة في التجاويف المنحوتة في حامل مِغزل جدّتها.

كانت مفاهيمها عن كيفية نظم الشعر وتدويره ملتبسة؛ إذ كانت لا تفرق بين صوت أبيها مترنّمًا والحب الذي سكنَ قلبَ شاعر ماتَ منذ عصر بعيد،

ولكنها كانت تنظرُ إلى انعكاس صورتها في دلو الماء برغبة طفولية منها بأن تجعل نفسها تشبه العذراء المنيرة، التي كانت في بطن الأرض الآن.

ولكن ما إن تحوّلا عن أغاني العذراء إلى قصائد البالاد نفسها حتى باتت العملية أكثر مشقّة. وههنا لم تساعد تفسيرات بيارتور كثيرًا في تبديد الغموض وفي ربط المقاطع القليلة المفهومة معًا؛ تجوّلت القارئة غير المتمرّسة تائهة يائسة في سحابة مُضببة معتمة من الكلمات التي يصعب لفظها، والتعابير المركبة التي بدت مفتقرة إلى أي رابط فيما بينها؛ وكان أبطال الجومسڤايكينغ، ومعاركهم ورحلاتهم البحرية، تفوقُ كثيرًا مخيّلتها الضئيلة. وعندما انعطفَ مسار القصة إلى حيوات الجومسڤايكينغ قرأها أبوها بينه وبين نفسه فقط وضحك، يا إلهي، ما هذا البِغاء! ثمّ أغلقَ الكتاب قائلًا إنه من المؤذي للصغار سماع مثل هذه الأشياء، إنها بذيئة. في آخر الأمر بلغَ بِغاء الجومسڤايكينغ مبلغًا اضطّرا فيه إلى نبذ الكتاب بالكلّية! أخرجَ والدها كتاب قصائد بيرنوتس، إنه أنسب بكثير للصغار.

سألت الفتاة: «لماذا لا يمكنني سماع أي شيء عن البِغاء؟»

«نعم؟!»

«أرغب بشدة أن أسمع عن البِغاء».

«وقِحة!»، ثم صفعها على وجهها، ولم يتحدث إليها لبقية النهار. بعد ذلك لم تعد تتجاسر على الإشارة إلى تلك الأشياء علانية. واحمرّت خجلًا حينما وصلت إلى المقطع في قصائد بيرنوتس حيث زار البطل المتنكر حجرة نوم الأميرة فاستينا، التي كُرِّمت باسمِ «عنقود الفِتنة». قالَ بيرنوتس:

مُذ رأيتكِ يا سيدتي النبيلة
لم يطعَم قلبي الراحة
فإذا ما أحببتكِ فذاك هو الفضل.
أجابتهُ مُتمهّلةً: هاكَ وعدي
الحب عندي لم يكن سوى اسم
إلى أن ألهَبتْ لمستكَ وهجه.

وهناك جلسا طوال الليل، الأميرة والفارس، حتى شروق الشمس. لم تقل آستا سوليليا شيئًا، ولا كلمة، بل حرصت على ألّا ترفع نظرها. ولكن في الأمسيات حين كانت تأوي إلى فراشها، كانت تسحب البطانية إلى ما فوق رأسها، فتختفي غرفة المعيشة الصغيرة في البيت الصيفي من الوجود؛ وتكون بدلًا عنها فاستينا، عنقود الحسن ذات الأصابع الساحرة، جالسة في مخدعها تفكّرُ بالفارس الذي غزا جميع الممالك وبانتظار عودته الآن.

وطالَ انتظارها في بيتها، بعدما اضطر بيرنوتس إلى الفرار من غضب الملك وهامَ على وجهه في «بورني»، حيثُ أُرسِلَ إليه جميع أشرار العالم للقضاء عليه. وجلست وحيدة في مخدعها بينما كان يصارع بمفرده على ساحلٍ بعيد خصومًا لا يُعدّون ولا يُحصَون، واحد ضد الجميع:

وطئ السّاحل مفتول السّاعد
اجتاح خصومه مقدامًا غير هيّاب؛
بيد واحدة أرجح سيفه
وفسخ الأنذال من الرقبة إلى أخمص القدم
بالرمح الدامي استهدفَ ثورليف
اجتازَ الهواء محمّلًا بالثأر
وسريعًا تروّضت الروح المتبجحة
كالوتد له عويل سمّره على الشاطئ.
صارمًا راسخًا خاض بحور الدم
تعامل مع الموت بضربات مخيفة
وقطع الرؤوس حتى لم يبق فيهم من يجابه
ومن حوله ارتفعت أكوام الجثث.

كانَ أبوها مترنّمًا.

استرقت النظر من تحت البطانية، وكان هناك، لا يزال جالسًا على حافة السرير، في حين خلَدَ الجميع إلى النوم، وكان يصلح أداة ما. لا أحد كان

يتحرك، غطّت غرفة المعيشة في نوم عميق؛ كان وحده مستيقظًا، وحده يترنّم بالشعر، كان جالسًا هناك مرتديًا قميصه، بمنكبيه العريضين المرتفعين، وذراعيه المفتولتين وشعره الأجعد. وكان حاجباه كثيفين أشعثين، حادين ناتئين مثل الصخور في الجبل، ولكن فوق ذلك العنق الغليظ مكانٌ هانئ أسفلَ منابت لحيته. راقبته لبعض الوقت من حيث لا يدري، الرجل الأقوى في العالم والشاعر الأعظم، عنده جواب لكل شيء، ويفهم جميع قصائد البالاد، وكان لا يخشى أحدًا ولا يهاب أي شيء، يقارع الجميع على شاطئ بعيد، حرٌّ ومستقل، واحد في وجه الجميع.

«أبي»، همست من تحت البطانية، ذلك أنها كانت مقتنعة بأن بيرنوتس بروني أركابي كان هو ولا أحد سواه، وكان عليها أن تخبره ذلك بكل بساطة. لكنه لم يسمعها.

«أبي»، همست ثانية، ولم تعرف صوتها. ولكن عندما جد الجد، لم تجرؤ على الكلام؛ وحينما نظر إليها، سرت فيها رعدة، في كل جسدها، وانكفأت على نفسها تحت الأغطية وقلبها يخفق بشدة. لربما كان سيصفعها على وجهها مثلما فعل أثناء قراءة الجومسڤايكينغ. كانت محظوظة لأنها لم تخبره.

نزلَ إلى الأسفل لتفقد الأغنام قبل أن يأوي إلى فراشه. عدّت خطواته على السلّم، همهم محدّثًا الخراف، تتبعت كل شيء بانتباه، ثم ارتقى السلم من جديد مُهمهِمًا، كان قلبها ما يزال يدقُّ بشدة.

رغمَ أن الكلمات وحدها لا يمكنها التأثير
في قلبكِ يا سيدتي القَمراء
أعلم أن أغنياتي سوف تكونُ دومًا
من أجلكِ، وسبب سعادتكِ..

عندما اختلست النظر مرة أخرى كان قد أخمدَ المصباح. وسادَت غتمة الليل.

***

28. بقرة البحر[1]

وقعت هذه الأحداث العظيمة في يوم رائق مُضاء بالثلوج الناصعة البياض من بواكير شهر آذار، أحداث لم تكن لتُنسى فيما بعد. أولئك الذين عاشوا مثل هذه التجربة سيتفهمون ما يعنيه الكلام. تناهى إلى الأسماع من جهة الغرب فوق التلال صوت حركة غامضة واسعة النطاق. الفَتَيان، اللذان كانا قد تعرفا إلى القوافي آنئذ؛ زعما بأنه فوجٌ من المحاربين «البيرسيركيرز» الهائجين في طريقهم إلى الانخراط في معركة. في خضمّ رتابة الشتاء هنا كان مجرد مرأى رجل يحمل عصاه ظاهرة لافتة للانتباه. رويدًا رويدًا التفَّت القوات المحاربة وسلكت طريقها إلى الأسفل في الوادي. كل من نوني الصغير وآستا سوليليا تسلّقا إلى قمة الركام الثلجي إزاء الباب. حتى الجدة صعدت بمشقّة الثماني عشرة خطوة في الثلج إلى القمة، ثمّ ظلّلت عينيها بيدها. إنها بقرة!

صاح الصبيان: «نعم، صحيح، إنها بقرة بحر!»

كان بيارتور آخر من انضم إلى المجموعة، متغبّرًا من الكلأ المتعفن مغتاظًا، لا مكان للبقر هنا، ولم يكن ليأخذ التبن من أغنامه بهذه الطريقة ويلقي بها إلى البقرة، ولم يكن راغبًا أيضًا بأخذ الإسطبل من حصانه، الذي كان مَدينًا له أكثر من أي حيوان آخر ما عدا الكلبة، وإعطائه إلى بقرة غريبة! وعندها توارى عن الأنظار ولم يعاود الظهور قبل أن يُطلب حضوره رسميًّا.

وهكذا زحفت البعثة إلى المنزل عبر المستنقعات، ومن خلفها البقرة مع علفها على مزلجة تجرّها الخيول. لقد كانت بقرة البحر!

«نعم، صحيح، إنها بقرة بحر!»، هتفَ الأولاد.

لم تكن كبيرة جدًا، كان من فوق ظهرها وعلى خاصرتيها قطعة من القماش برز منها رأسها الأبيض المرقش بنقاط داكنة، مُندهشًا ومرتابًا، ومن تحت ضرعها رُبِطت خرقة من الصوف لمنع حلماتها من الجرجرة على الثلج؛

1- بقرة البحر: (Sækýr) اسم سلالة من سلالات البقر في آيسلندا؛ تستند التسمية إلى أسطورة قديمة.

كانت غوندي مدبرة المنزل في روثسميري قد اجتازت التلال بنفسها في يوم شتويّ، غير معتادة على السفر وليست مستعدة له. كانت الأنفاس معلّقة في سحب من البخار حول منخري البقرة، في الهواء الذي لم يزل مثلجًا؛ وقد تشكلت قشرة من الجليد على شاربيها. ومما أثار فضولها أكثر الدُّخان المتصاعد من المدخنة ورائحة المنزل؛ نخرت وتَشممت، وحاولت مرة بعد مرة أن تخور، كما لو أنها تلقي التحيّة، إلا أن الرسن كمّمها على نحو محكم.

تعثرت المرأة العجوز قُدمًا على عصاها لملاقاتها. وتمتمت: «بوركت أيها المخلوق ثلاثًا. أهلًا ومرحبًا، وباركـ الله فيها».

نخرت البقرة في وجه المرأة العجوز، كما لو أنها تعرّفت إلى المرأة على الفور، وحاولت الخوار مرارًا ترحيبًا بها.

تمتمت المرأة العجوز من جديد: «مباركـ أيها المخلوق ثلاثًا». كانت تلك الملاحظة الوحيدة التي خطرت لها، هي التي لم يسبق لها أن خاطبت أحدًا بتلك الطريقة الدافئة اللطيفة من قبل. مسّدت خدها الذي كسته قشرة من الجليد، فدمدمت البقرة في أعماق حلقومها. لقد فهمتا بعضهما بعضًا مباشرة. وعلى الرغم من ذلك ظلّت الواصلة الجديدة مأخوذة بغرابة محطة التوقف هذه؛ كانت ما تزال تحركاتها مذعورة، وحوافرها مضطربة؛ كانت ترتعد قليلًا، وتتنفس بصعوبة، وتنخرُ، وتتذمر.

سأل بيارتور الزائرين ماذا يريدون؟ فأجابوا ماذا نريد؟ لقد طُلِب إليهم أن يحضروا له بقرة. ممّن؟ من الوكيل طبعًا!

«عساها اللعنة تحلُّ عليه من بين جميع الناس بسبب هداياه!»، قال بيارتور منددًا بأسلوب ملحمي وكان يهدد بالفعل بشحذ سِكّينه.

أجابه الآخرون: «افعل ما بَدَا لك».

قال بيارتور: «لثلاثين عامًا والوكيل يحاولُ النيل مني والانتقاص مما أفعل، وإن كان يظنُّ أن بقرة واحدة سوفَ تؤدي خدعته الآن، بإمكانكم إخباره بأنه مخطئ». وكانت النتيجة من كل هذا السّجال أن وُضِعت البقرة في إسطبل بيلسي العجوز، وجُلِبَ العشب الجاف لكي يُفرش من تحتها، بينما زُرِبَ الحصان بجوارها في المكان الذي كان سابقًا حظيرة للحملان

الضعيفة. سدّ بيارتور بعناية كل الشقوق التي كان يتأتى منها خطر تسرب الضوء أو الهواء؛ كان قد ربّى أبقارًا قبل هذا اليوم وعرف من التجربة، من تجربة الأجيال منذ ألف سنة، أن البهائم من هذا النوع يجب ألا تكون على تواصل مع العناصر الأساسية، لكي تعطي الحليب.

ولكن عندما كان المراسيل على وشك الرحيل، طلب منهم بيارتور أن يتلبّثوا قليلًا، وبعد أن بحث في السرير بعض الوقت، أخرج في الأخير قفّازًا عتيقًا كان يحتفظ به في مَرتَبة زوجته.

وقال لهم: «سوف تخبرون الوكيل بأنني حتى الآن لا أدين له بشيء يتجاوز ما اتفقنا عليه. إن كان يتوقع أن بوسعه الحجز على أغنامي في الخريف المقبل، فيجدر به أن يعاود التفكير كرّة أخرى. وأدعوكم لتشهدوا بأنه إذا اعتبر أن هذا المبلغ غير كافٍ، فعليه أن يُرحِّل الدابّة في موعد لا يتجاوز الغد؛ وإلا فإني أملك السلطة المطلقة لكي أقرر إن كنتُ سأذبحها ليلة الغد، أم لا».

حسنًا، كان ذلك تصرّفًا باعثًا على الفخر، إن شئت؛ ههنا كان رجل يمكنه، بالنقد الحاضر إن لزم الأمر، أن يباهي ويزهو بحريته واستقلاله في وجه الوكيل أو أي شخص آخر في البلدة. بيد أن الرسل انكمشوا من قبول المال، لا يملكون الصلاحية لقبوله، حتى إنهم لا يعلمون، إن كان الوكيل ينتظر دفع ثمن الدابة المزعومة من قبل بيارتور، لربما سدد ثمنها أصلًا. سُدِّد ثمنها؟ أجل، من مصدر آخر. من مصدر آخر؟

هل هم مجانين؟ وإذن، أكانت هناك مؤامرة وراء كل هذا؟ هل كان، إذن، يعتمد على شخص ما أو غيره في مكان آخر؟ أتراهم حسِبوا في البلدة بأن الفقر من يمنعه من شراء بقرة؟ لا يا رفاق، لم يكن يعوزه السّماد ولا الكعك هنا، وعلاوة على ذلك، كان لديه مال وفير. وكان منافيًا لمبادئه بالطبع أن يؤوي أبقارًا على حساب أغنامه، ولكن إذا ما اقتضت الضرورة بإمكانه شراء أبقار بقدر ما يستطيع أي شخص آخر، ويسدد ثمنها في عين المكان. منذ بداياته وضعَ لنفسه هدفًا بعيد المدى في إدارة مزرعته. كان يعرف حق المعرفة ماذا سيفعل بأمواله. ماذا كان سيفعل بها؟ ماذا؟ إن كانت أوامرك

تقتضي الاستفسار عن ذلك، يمكنك القول إني ربما سأبتني لنفسي قصرًا بها. وسأحفر من حوله بستانًا. وداعًا.

ولكن لم يمض وقت طويل حتى أصبحت هذه البقرة البحرية صديقة عزيزة على قلب الجميع في البيت الصيفي ما عدا بيارتور، والكلبة، والحصان بيلسي. في تلك الأمسية حينما صعدت الجدة درجات السلم بمشقة ومع قليل من الحليب في قاع سطلها، وشرعت في إعطاء كل واحد من الأولاد ملء كوب من الرفاهية التي تشيع الدفء في القلب، وأعطت فينا مقدارًا جيّدًا منه في ماعون، حينذاك كان بالإمكان القول إن حقبة جديدة قد بزغت شمسها على ذلك الوادي الذي تكتنفه المروج. منذ بداية شهر آذار بَدت وتيرة الحياة أسرع على كل الأصعدة؛ لقد أزهر الربيع في هاتيك الأنفس المحصورة التي تعيش هنا محاطة بالصحاري المتجمدة. كفّ الأَخَوان عن مشاحناتهما التي لا تنتهي، وتخلّيا عن جميع الألقاب غير اللائقة والتهديدات بالانتقام. أنهت آستا سوليليا حياكة صدريتها، وبدأت بحياكة لباس تحتي دون أن يداهمها النعاس فجأة، مع كل التدابير والتفاؤل والرؤى المسبقة التي يتطلبها الشروع في هذا الكساء. وانثالت من ذاكرة الجدة تراتيل ألطف، وأسهل للفهم، وخالطتها مفردات لاتينية أقل. وفجأة غدت الأشباح في قصصها أقل إيذاء من قبل؛ وتذكرت جُملة واحدةً شبحًا اشتهر في الجنوب كان ينفذ كل ما يؤمر به شريطة أن يأخذ حصته اليومية ملء كوب من الحليب مثله مثل أي شخص آخر. ولم يعد وصفها لمصير المسافرين التائهين في الثلج مأساويًا للغاية، وروت عن مرّات أُنقِذَ فيها الذين تعثّروا من فوق جروف شديدة الانحدار بعد يومين؛ وهو أمر غير قابل للتصديق كما يبدو، وعاشوا بعدها حتى بلغوا سن الشيخوخة على الرغم من كسور الفخذين أثناء الحوادث. إلا أن الأعجوبة الكبرى هي نهوض سيدة البيت من فراشها قبل مرور أسبوع على قدوم البقرة، وحاولت تحريك أطرافها الراجفة المتوعكة في أرجاء الغرفة بمساعدة الآخرين. وَصار بمقدورها الكلام من جديد، واستفسرت عن الحطب في وقتٍ أبكر بثلاثة أسابيع من نهوضها من فراش مرضها الشتوي العام المنصرم. حتى إنها تساءلت عن الملابس، وعن كل الأشياء التي كانت مفتوقة أو مُهترئة، وهكذا

عثرت على إبر الرتّق وجلست في سريرها وشرعت في رتق الثياب. وفي صباح أحد الأيام كانت قد نهضت ببساطة قبل أي شخص آخر في البيت، وأخذت تُضرم النار بيديها المحترفتين. ذلك الصباح كان الدخان أقل في الغرفة، بدأت العيدان بالطقطقة أبكر من المعتاد، وسخنت القهوة على نحو أسرع. وفي صباح آخر، حينما هبطَ بيارتور إلى الدور السفلي وجدَ زوجته بجانب البقرة؛ كانت تقدم لها علفها وتُهيّئ لها أسباب الراحة، وكانت واقفة الآن إلى جوارها في الزريبة، تفرك لها جسمها وتكلمها.

قال متبرّمًا: «لم أسمع من قبل أنه يتوجب علْف البقرة اللعينة قبل الآخرين»، وشرعَ يعلفُ أغنامه.

منذ ذلك اليوم فصاعدًا أصبحت عادة ثابتة عند فينا النهوض كل صباح وإطعام البقرة. كانت تُحضِر لها الماء أيضًا، وتتأكد دائمًا من كون أرضية حظيرتها جافة ومريحة؛ الأبقار تكون ممتنة لمثل هذا الاهتمام. كانت تحلبها بأصابع مطواعة، وكانت بينهما أحاديث مشتركة مطولة. كان لدى فينا حدسٌ تجاهلتْ من خلالِهِ تجربة الأمّة الممتدة لألف عام، لذلك كانت ما بين حين وآخر تترك الباب مواربًا بضع دقائق، وتنزع سدادة العشب الموضوعة في الفتحة في السقف إذا كان الطقس جيدًا. كان العجوز بيلسي في غاية الاستياء لكونه قريبًا إلى هذا الحد من تلك البقرة البحرية المملّة؛ أصبح قلقًا ثائرًا ولم يكن مستمتعًا بهذه الصحبة في آخر سني حياته؛ كان سيئًا بما فيه الكفاية وجود كبش «القسّ غودموندور» وشقيقه في الحظيرة على الجانب الآخر من مجرى التصريف طوال الليل يتعاركان ويتلاعنان. في بعض الأحيان كان يقف لساعات متصلة وأذناه مُشرئبتان إلى الخلف دلالة على الاحتقار، ويتحيّن الفرصة المناسبة لكي يتمطط فوق الفاصل ويختطف لقمة من قش روثسميري الفاخر في مذود البقرة. وكان عندما يعجز عن النوم ليلًا يعضّها كلما سنحت له الفرصة. لهذا مَسمرت فينا بنفسها عارضة إضافية بينهما.

وقالت بنبرة مفعمة بالحب والإجلال: «إنها تستأهل كل الخير منّا جميعًا».

أجابها بيارتور من فوره: «إذن، آمل أن تكوني مستعدة لدفع أجور رجل

مستأجر ليجزّ لها الكلأ في الخريف. لأني بكل تأكيد لن أقتل أغنامي من أجل تلك العجوز الطفيلية الجشعة!»

«أعلم أن الله سيرزقنا من أجل بقرتنا العزيزة بوكولا»، قالت زوجته وعيناها مغرورقتان بالدموع. وطفقت تربت على البقرة بِرقّة أكثر من ذي قبل، ذلك أن هذه المرأة تعرف الله على طريقتها، وتجدهُ في بقرة، كما هم في الشرق، حيث يتجلّى الربُّ في البقر، والناس يتعبدون الحيوانات المقدّسة.

حلّ عليهم ربيع لطيف هذه السنة؛ وعما قريب ستكون الأرض خالية من الثلوج. بدأ بيارتور يقود أغنامه إلى الخارج عبر المستنقعات، حيثُ تلتمسُ عشب الربيع؛ طلائعه الأولى المشهورة، التي تشفي كل علّة، فقط إن كانت الأغنام تحتملها. لم تكن الخراف بالطبع مفعمة بالحيوية حتى في الربيع المعتدل، وعلى الرغم من كونها هذه السنة في حالة أفضل من المعتاد، فإنه كان قطيعًا بطيئًا متكاسلًا ذاك الذي تتبع بعضه بعضًا بفتور حول المستنقعات، برقاب هزيلة ومأمأة واهية. بَدَت الخراف في أصوافها القذرة صورة بعينها عن الكآبة. طاف بيارتور في الأرجاء استعدادًا لسحبها إذا ما علقت في مكان ما، ولكن هذا العام القليل منها نسبيًّا أظهر أي رغبة للبقاء خاملاً في المستنقعات، حتى وإن كان مُنغرِزًا في المياه حتى عراقيبه. سرعان ما ذابت الثلوج في الأغوار.

سطعت الشمس على أعشاب الشتاء الكالحة الذابلة، على الجدول المتدفّق، على المستنقعات التي ذابت عنها الثلوج، العابقة برائحة النَّماء والانحلال. في مكان ما في النسيم الدافئ كان طائر الزقزاق الذهبي يبثُّ نغماته الربيعية الخجولة، لأصدقائه الأوائل الذين حلّقوا عائدين إلى الموطن من الجنوب. وكان طائر الطيطوي الثرثار يتبع الراعي حتى باب المنزل تقريبًا، يخبره هذه القصة الممتعة، التي لا يتعب منها أبدًا: هي، هي، هي، هي، هي، هي. أخذ نوني الصغير معه إلى المنحدرات عظام الساق، وعظام الحنك، والقرون؛ كان الجدول كبيرًا مثل البحر، كبيرًا لدرجة أن المرء كان يتخيل أن العالم يقع على الضفة الأخرى. بعد يوم أو اثنين كان الجدول قد صَغُر من جديد وذابت كل الثلوج وانثالت من الجبل. هل فقد الجدول سِحره إذن؟ لا، مستحيل. صافيًا ولألاءً تدفّقَ فوقَ الرمل السّاطع

والحصى، وكانَ أبيضَ ما بين ضفّتيه عند أعشابه الذاوية، في كل ربيع يتجدد مرحه الأزلي منذ ألف سنة؛ ويخبر الحكايات الصغيرة، بلسانه الصغير، بانعطافاته الصغيرة، بينما يجلس الصبي على الضفة ويُصغي إلى صوت ألف سنة. الصبي والأبدية، صديقان، السّماء صافية ولا نهاية لها. أجل..

***

29. طبقة الأعيان

تقدّمَ الوكيل عبر سياجِ المزرعة على صهوة حصانه عائدًا من السّاحل. كان على سفرٍ، كما في زيارته السابقة، مصحوبًا بمرافقة، إلا أن مرافقته هذه المرة كانت تتماشى مع شأنه وهيبته؛ ابنه وابنته، كلاهما عادا لتوّهما من الجنوب. إنغولفور أرنارسون، أمين السر في الجمعية التعاونية، والشابة الجميلة المثقفة أودور ذات الاثني عشر ربيعًا. كانوا يفرشون السماد في الحقل، ولكنهم توقفوا عن التسميد، واتكأوا على مجارفهم، وراحوا يحملقون بأعينٍ مندهشة في هذه الأعجوبة. عاد بيارتور إلى المنزل، تاركًا أغنامه والسَّخْلات قليلة الحيلة التي كانت تلدها. رفضت الفتاة أن تنزل عن فرسها وتدوس الوحل، وظلّت جالسة على ظهر الحصان، إلا أن الوكيل ترجّل عن الحصان، على الرغم من الضجر الواضح الذي لاح على محيّاه من أي شيء كان يحدث، كما ترجّل أمين السر الذي كان منتعلًا حذاء ضخمًا عن حصانه أيضًا. حيّا الوكيل الجمع بتحيته المعتادة، باسطًا إصبعين على الأكثر. بيد أن المصافحة كانت بالنسبة إلى إنغولفور أرنارسون مسألة مختلفة للغاية. وما كان إنغلفور أرنارسون الرجل الذي يخجل من الطبقات الدنيا وهو ممثل العالم، لحياة القوة، والامتياز، والإمكانيات غير المحدودة التي قد يتمتع بها أولئك الذين يعيشون على صلة وثيقة بالحكومة. لم يبدِ أي تردد في الشدّ على كفٍّ بيارتور صاحب البيت الصيفيّ أثناء مصافحته؛ حتى إنه تخطى ذلك إلى الصفقِ على كتفه؛ وبدا لوهلة كما لو أنه على وشك معانقته، وتقبيله، ومن يدري ماذا أيضًا! كانت والدته تتجلّى فيه بالطبع. وما كان بأي شكل من الأشكال طالب العِلم القديم الطائش الذي كان مفهومه

عن تمضية أوقات ممتعة يقتضي الفتك بالطيور البريئة الضعيفة التي تحلق فوق المستنقعات يوم الأحد؛ لا، بمضي السنين اكتسبَ سلوكًا رزينًا جادًّا تحلى بروح الجماعة، كما اكتسبَ البدانة اللازمة لأي شخص يرغب أن تكون كلماته مقنعة لدى التجمعات. ولقد تعلّمَ أن يُطعِّمَ إيماءاته بالسلطة والثقة، بأن ينفخَ صدره، ويرفع رأسه عاليًا. ولكن بيارتور صاحب البيت الصيفيّ وهو الذي كان الرجل في عيني آستا سوليليا؛ كانَ تقديره ضئيلًا لمن هم أعلى منه؛ مهما أبدوا اهتمامًا بالمصلحة العامة، وهم في نظره يبدونَ جميعًا مرة واحدة يعانون من نقص غير لائق في الكرامة، ويعانون من التشوهات كذلك، كما لو أن الواحد منهم اكتسبَ فجأة ستّ أصابع، أو ثلاث عيون حتى.

استفسر بيارتور بأدب: «هل لي أن أساعد السيدة الشابة في النزول في حال كانت ساقاها عالقتين في السرج؟» ولكن ما إن فاه بذلك الكلام حتى كانت قد وثبت إلى الأسفل من دون مساعدة، ومشت إلى الأرض المرصوفة بنفسها. كانت ترتدي سروالًا وجزمة لمّاعة تصل إلى الركبة، وكانت تبدو في صحة جيدة وقوية مثل نبتة تنمو على المنحدرات المحجوبة المواجهة للجنوب. وقفت قبالة الباب الواطئ، أنيقة نَضِرة مسافرة إلى الجنوب؛ وقفت على الممر المرصوف الذي أقلّ جودبيارتور جونسون وأولاده، الأحياء منهم والأموات، اثنتي عشرة سنة لإتمام شرائها، وقبل ذلك ثماني عشرة سنة؛ هي التي كان لها بيت على الطريق الصقيل، المؤدي إلى بيت سرمديّ شبه متوارٍ خلف الزهور.

قالت: «شكرًا، شكرًا جزيلًا لكم. لا نريد إزعاجكم بالدخول. أودُّ العودة إلى البيت بأسرع ما يمكن».

بيد أن الوكيل أراد الصعود إلى الطابق العلوي مع سيّد المنزل بضع دقائق، هو وإنغولفور أرادا التحدّث معه بموضوع؛ حظٌّ سيء، هناك دومًا شيء ما. ولكن عندما وصلوا إلى الأعلى بسلام بعد اجتياز الوحول والقذرات في المدخل، جرّبت بشتى الحيل التي خطرت لها أن تمنع جلوسهم على السُّرُر، بسبب القمل، لكن الوكيل رفضَ الانصياع لذلك الهوس الشديد بالنظافة، فلقد ترعرع على القمل. جلس بحذر ولكن بثبات على السرير الذي اعتاد

الجلوس عليه كلما زارَ البيت الصيفي. ووجد إنغولفور أرنارسون جونسون لنفسه مجلسًا على صندوق الملابس، ثمّ أجال بصره في الغرفة برأس مائل ووجه مشعّ كالشمس، ولكن له ابتسامة أمه الباردة. جثمت السيدة الشابة على الطاولة. الوكيل الذي كان غارقًا في تفكير مُتأنٍّ عميق لدرجة أنه لم يجب عن استفسارات بيارتور حول وضع الأغنام وحالة الطقس، جلسَ وشرعَ يفتش في جيوبه بأصابع مرتخية ومرتجفة. اجتاحت وجهه نظرة إخلاص وأمانة رصينة؛ تعبيرٌ بدا متشددًا بجدّيته المفتعلة، وكانت يده مهتزة، خاصة عندما أمسكت بالمال، وارتجفت بوضوح حينما أخرج المحفظة. فتحها ونظرَ فيها، ولكن بطريقة جعل رأسه فيها مائلًا قليلًا إلى الخلف وقد أبرزَ شفته السفلى لكي يحبس مضغة التبغ كلها وهو يتكلم.

«هذه أول فرصة تُتاح لي لإعادة المال الذي أرسلتَهُ ثمنًا للبقرة في الشتاء الماضي. لقد سُدِّد ثمنها من مكان آخر».

«حقًّا؟ من يكون الشخص الذي يعتقد أنه بإمكانه التباهي بإعطائي هدية، أنا بيارتور صاحب البيت الصيفيّ؟ سُدِّد ثمنها من مكان آخر؟ لم أسأل أحدًا أن يسدد عني ديوني، سواء هنا أم في مكان آخر. فليذهب إلى الجحيم أيّ شخص يعتقد أنه له الحق في تسديد ديوني».

قال الوكيل: «تمامًا؛ ولكن دُفِع ثمنها على أية حال».

«لا أقبل الصدقات من أحد، إن كان على الأرض أو في السماء. وإن كان المُخلِّص نفسه فهو لا يملك الامتياز لكي يسدد عني ديوني، وسأمنعه من فعل ذلك».

قال الوكيل: «حسنًا، في الواقع إنه ليس المخلِّص؛ بل المعهد النسائيّ».

قال بيارتور: «كان يجب أن أعرف». وشرع يكيل لهذا المعهد بكل المسبّات التي أسعفه بها لسانه. وقال إنهم ليسوا سوى عصابة من النمّامين المتغطرسين الذين هدفهم الوحيد هو فرض رعايتهم القميئة على الناس الشرفاء وجعلهم دائنين ومتملّقين لهم حتى يتمكنوا من التباهي بذلك لاحقًا على الأرض وفي السماء. واستطردَ بالقول: «ولكن يمكنكم أن تراهنوا بحياتكم على ذلك، بأنني سوف أنحر تلك البقرة العجوز اللعينة،

وسأُصيّرها لحمًا مفرومًا بمجرد أن أعتقد أن الوقت مناسب لفعل ذلك، فهي لا تقدّم شيئًا سوى أنها سحبت شهية الأولاد، وباتوا متثاقلين لا طاقة لهم حتى على الشجار بعضهم مع بعض؛ ناهيك عن الحقيقة بأنها جعلت النساء مشاكسات، وَنَمّت لديهن العناد!»

«نعم ولكن الجميع وسط البلدة يقولون إن عائلتك تبدو أفضل حالًا بكثير منذ وصول البقرة».

إلا أن هذه الملاحظة لم يكن لها تأثير مهدئ كبير على مزاج صاحب مزرعة المروج. ولم تتعاظم شكوكه بمثل هذه السهولة كما حدث عندما أبدى سكّان البلدة اهتمامًا لمصلحته ورفاهيته!

«ثمّ هل لي أن أسأل: هل من سبب يدفعكَ أنت أو أولاء في المعهد النسائي إلى الاهتمام بي وبزوجتي؟ أو بأبنائي؟ طالما أنني لا أدين لك ولا للمعهد النسائي، فسأطالب في المقابل بألا تتدخل في شؤون زوجتي وأولادي لا أنت ولا المعهد النسائي. زوجتي وأبنائي هم لي أنا في الحياة والممات. وهو شأني وحدي، وليس يعنيك ولا يعني عُصبة النمّامين فيما إذا تَبدّوا أولادي بصحة جيدة أم لا. أفضل عندي أن تقفز الروابي في أراضي البيت الصيفي إلى السموات، وأن تغور المستنقعات إلى سابع أرض في الجحيم اللعينة، على أن أتنازل عن استقلاليتي وحقوقي كإنسان».

لم يردّ الوكيل على زوبعة الغضب هذه، وبقيت تعابيره هادئة تمامًا؛ هو بحد ذاته كان رجلًا مستقلًّا على نطاق واسع، وكنتيجة لذلك كان في قرارة نفسه أقلّ إيمانًا من بيارتور، ربما، في حبّ العطف والرحمة، والنزعة المسيحية. أعادَ رزمة النقود إلى محفظته، بنفس الجدّية، والعناية الواضحة، محاولًا التلميح، إذ فعل ذلك، بأن أفضل ما يمكن فعله في تلك الحالة هو إعادة ذلك المبلغ التافه إلى حيث أتى، فأنا بالطبع لن أفرضهُ على أحد. وانتهى عند هذا الحدّ عملٌ خيري كان يمكن أن يكون جميلًا للغاية لولا ذلك. وكان المرء سيظنّ أن الأرستقراطيين في البلدة قد يئسوا الآن من محاولة صنع المعجزات مع هذا المزارع المستقل في الأراضي البور، إلا أن الحال لم يكن كذلك. فلقد مرّر له أمين السر صندوق سعوطه الفضي،

ببطانتِهِ الناعمة، ومحتوياته العِطرية، وقد بدأ آنئذ بالقيام بدورِهِ في مساعدة العامل المستقل في البلاد.

وقال «حسن، يا صديقي القديم، ما زلت تضجّ بالحياة، على ما أرى».

وأُخِذَ السعوطُ حينذاك. وحينما انتهوا ألمحَ أمين السرّ إلى أنه من المحتمل أن بيارتور صاحب البيت الصيفيّ قد توقع حضوره من أجل بعض الأعمال ذات الأهمية الطفيفة.

تساءل بيارتور: «وهل منعت عنك الطريق؟»

باشرَ أمين السرّ بالكلام: «ذات مرة وقعت حركة في أوساط نسّاجي الكشمير، في إنكلترا. إن هذه الحركة تقدّمُ عونًا كبيرًا للمزارعين الفقراء الذين يلتمسونَ الإنصاف من سلب التجار. وقد نجحت هذه الحركة في شق طريقها إلى آيسلندا في القرن الماضي، عندما شكّلَ المزارعون المعدمون في «ثينغي»، بدافع من معاناتهم من جشع التاجر الذي يتعاملون معه، رابطة لشراء اللوازم على نحو مباشر. كانت هذه المؤسسة الشرائية هي أصل الحركة التعاونية في آيسلندا، والآن انتشرت هذه التعاونيات الاستهلاكية تدريجيًا على طول البلاد وعرضها، لكي تضمن للمزارع عوائد مُنصِفة مقابل إنتاجه، وثمنًا مقبولًا للبضائع التي يحتاجها. إن هذه التعاونيات مرجحة لكي تصبح مؤسسات الأعمال الأقوى في البلاد كلها، وبمرور الوقت سوف تجتثّ طبقة التجار عن بكرة أبيها. وقد أصبحَ المزارعون الفقراء في ثينغي الذين حذوا حذو النساجين البريطانيين منارة يهتدي بها المجتمع الآيسلندي الشاب.

«الوضع الآن في هذا الجزء من البلاد، هو أن التاجر في فيورد، الذي يهتم بمصلحته الخاصة فحسب، يعطيكم أنتم أصحاب الحيازات الصغيرة مقابل منتجاتكم أقل ما يراه مناسبًا، ومن ثمّ يبيعكم احتياجاتكم الضرورية بأثمان فاحشة تسلبكم مبالغ مالية ضخمة سنويًا؛ ضخمة جدًّا، في الواقع، وبعد إجراء حساب دقيق، أقدّرُ أن الاختلاس الذي يُمارس على المزارعين المعوزين في الناحية لا بدّ أنه يبلغ سنويًا سعر منزلٍ خرساني جيّد البناء، وفي بعض الأعوام يرقى إلى سعر منزلين، أو على الأقل ما يغطي تكلفة محطة

توليد كهرباء باهظة الثمن، بالإضافة إلى المنزل الواحد». (اعترضَ بيارتور الكلام: «أوه، لا ينبغي أن أتفاجأ إن لم تكن معظم هذه الكهرباء التي تتحدث عنها في مؤخرتك»). «تحشرُ المؤسسة كل هذه الأموال في جيبها الخاص، مع أن نسبة كبيرة منه تذهب إلى المدير نفسه تحت تصنيف نفقات شخصية، وعلى الرغم من أن عائلته تسافر إلى الدنمارك على الدوام بغرض الصحة واللهو والاستمتاع، فإنها ما تزال تخفق في تبذير كل المال الذي نهبته المؤسسة من الناس المعدمين، الذين تدنّى بهم الحال إلى حدّ المجاعة. (قال بيارتور: «أوه، لقد ذهبتَ إلى الدنمارك أنت أيضًا يا إنغي!»).

«وكما يعلم الجميع، مضى المدير وبنى لنفسه قصرًا فخمًا في «فِيورد»، مع برجٍ في الأعلى، كما أنفقَ آلافًا مؤلفة في تحسين مباني المخازن». (بيارتور: «ولماذا إذن لا يبني الشيطان العجوز لنفسه برجًا طالما أنه يرغب ببرج؟») «الآن، بالإضافة إلى كل هذا، وكما هو معروف لدى الجميع، تحدّث الطبيب لمصلحة المؤسسة في البرلمان وأفلح في إقناع القائمين على الخزينة العامة بصبّ الآلاف المؤلفة على المؤسسة كإعانات لتشييد الأرصفة البحرية ومصدّات الأمواج، ويكمنُ السبب وراء ذلك بأن الطبيب يملك حصة كبيرة في الصيد الذي تقوم به المؤسسة في فِيورد».

واستطردَ أمين السر: «ومع أننا نعيش في مقاطعة تشتهر منذ الأزل بميزاتها الطبيعية، ليس بالإمكان الإنكار أننا في المسائل الاجتماعية قد تخلّفنا بونًا شاسعًا عن المقاطعات الأقل ثراء. ولكن حان الوقت الآن، لأن يدركَ الأشخاص الأخيار في الجنوب المحبون للمصلحة العامة، المطّلعون على النقلة التي أحرزها المزارعون في الأقاليم المعزولة، بأنه يجب بذل جهود جادة لإقناعهم بالاحتذاء بالمثال الذي ضربه المزارعون في «ثينغي». يجب إقناعهم باتخاذ إجراءات منظمة ضد عصابة المتآمرين هؤلاء الذين يسلبون الفرد والدولة كلّ سِنتٍ يتسنى لهم وضع يدهم عليه للحفاظ على مشاريعهم الباذخة. وأنتم أيها المزارعون الفقراء تكدحون ليلًا ونهارًا في ممتلكاتكم الصغيرة من دون خرقة لائقة تستر ظهوركم أو طعامٍ كافٍ يُجنّبكم المجاعة التي تتصيدكم في هذا الوقت من كل عام. المال الذي لا ترونه لسنوات متتالية، ما خلا بضعة سنتات عشوائية تأتيكم من يد عدم اليقين

ذاته» -(بيارتور: «يوجد مال وفير في البيت الصيفي»)- «ربما بضع كرونات سنويًا. أنت في قرارة نفسك تعلم أن كلامي صحيح يا بيارتور، لا جدوى من محاولة تلميع هذا الفقر الطاحن بألوان برّاقة. والآن أسألكَ بوصفك رجلًا شريفًا: ما قولكَ في هذه اللصوصية الممارسة على المجتمع بأكمله؟»

بيارتور: «حسن، لكي أكون صريحًا معك تمامًا، ليس من دأبي أبدًا مراقبتكم عندما تبدأون أنتم يا من تُسمون بالطبقة الراقية التراشُقَ بالوحل فيما بينكم؛ فهو ليس مشهدًا سارًّا للغاية. وأنا لا أتدخل في شؤون التاجر؛ مهما كان أسلوب حياته، الأمر لا يعنيني طالما أنه لا شكاوى لدي ضده. كل ما أعرفه، وما يهمني أن أعرفه، أن أحوال أغنامي بخير بعد انقضاء الشتاء، وبأنني لستُ مدينًا بشيء لا لله ولا للإنسان. عندي مال يكفيني وعائلتي، بصورة نسبية، معافاة سليمة كمثلكم قوم روثسميري، الذين لا أعتقد أنكم أكثر خلودًا، أو تبدون أكثر صحة من عائلة التاجر التي كما قلت تُرسل كل عام إلى قارات بعيدة بحثًا عن الأطباء. نحن هنا ساكني الأراضي البور لا يهمنا التبادل مع أي أحد».

«ولكن يا عزيزي بيارتور»...

«أنا لستُ عزيز أحد. اسمي جودبيارتور جونسون، مزارع البيت الصيفي».

قال أمين السر بابتسامته الباردة ورأسه المائل بلا مبالاة متغطرسة: «حسن جدًّا، يا جودبيارتور جونسون. واسمي هو إنغولفور أرنارسون. وكما يوحي اسمي، أنا مستوطن. (بيارتور: «بلى، لقد جربتَ حظكَ في معظم الأشياء في زمانك»). «أريد إعمار هذه المنطقة، وإقناع الآخرين باستعمارها. لقد جوّع الناس أنفسهم وحيواناتهم فيها حتى الموت طيلة ألف عام، ومع هذا ما يزال يتعين استعمارها. دعني أخبرك بهذا: في البلاد حزبان لن يتعايشا بسلام منذ الآن فصاعدًا، وسيكون ما بينهما اختصام وعداوة إلى أن يتوصلا إلى نتيجة. فمن جهة المحافظون والرجعيون الذين يبذلون ما بوسعهم لإبقاء المزارعين مقموعين، وإلى هذا الحزب ينتمي التجار، ومُلّاك القوارب، والموظفون الرسميون كالطبيب. بينما يتكون الحزب الآخر من أولئك الذين يريدون القيام بكل شيء لمساعدة الفلاحين. نريد إعطاء الفلاحين سعرًا منصفًا

مقابل منتجاتهم، وأن نبيعهم احتياجاتهم الضرورية دون فوائد من خلال تأسيس الجمعيات التعاونية؛ ثمّ نريد تزويدهم بالعمالة الرخيصة. ويمكن تحقيق ذلك بواسطة القضاء على الرأسمالية في المدن الساحلية بحيث يضطر العمال للعودة إلى الريف ثانية. وأخيرًا وليس آخرًا يجب توفير المال للفلاحين، وهذا ما سنفعله من خلال إنشاء مصارف زراعية، ستقوم الدولة من خلالها بتسليف المزارعين رأس المال مقابل نسبة منخفضة من الفوائد، كي يتمكنوا من توسيع مبانيهم، وتركيب محطة توليد كهرباء، وشراء معدّات مناسبة للزراعة على نطاق كبير. هذا هو برنامجنا، برنامج المستعمرات الآيسلندية الجديدة. بدأ عصرٌ جديد من الاستعمار حيث يكون فيه المزارع الآيسلندي رجلًا حرًّا على أرض حرّة. سوف نرتقي بالمزارع الآيسلندي إلى مرتبة الشرف والسمعة التي تليق بالطائفة المولودة للمصير الجليل المُتمثّل في مساعدة الخالق نفسه في صراعه مع قوى الظلام».

قال بيارتور وهو يهرش جسمه: «نعم، أظنني سمعتُ تلك الفقرة الأخيرة في مكان ما من قبل».

«ولكن، بحق السماء يا رجل، بالتأكيد أنت تدركُ أننا ندلّك على طريقة لكسب المال، أليس كذلك؟»

كلا، كانت هذه هي النقطة التي لم يستطع بيارتور صاحب البيت الصيفيّ فهمها. فعلى الرغم من أنه حاول جاهدًا فإنه لم يستطع ببساطة استيعاب أن كبار المزارعين وأبناء كبار المزارعين يريدون مساعدته لكسب المال. بإمكانهم تأسيس معاهد نسائية وجمعيات تعاونية من أجلهم قدر ما يشاؤون، ولكن لينتظر العظماء مني إدارة مهماتهم في الساعة التي أطلب فيها منهم الصدقة. «في العادة أنتم الناس الكبار تكسبون المال سواء أكنتم متحدين أم لا، ولكن لو حدث أن مُنيتم بالخسائر، فأنتم تخسرون الآلاف، ولن تفلحوا أبدًا في تملّقي والزجّ بي في أي مجتمع كي تعوضوا خسائركم. هذه أول سنة منذ ثلاثين مضت أكون فيها متحررًا من أبيك هنا؛ من يدري ولكن، مع الوقت، لربما تمكنت من تشييد مبنى خارجي ممتاز للنعاج، وأقسام منفصلة للحِملان؟ لقد زادت ماشيتي، ولم تنقص. وعلى حدّ علمي، لديّ سبعون نعجة ولّادة ومكسوة بالصوف على نحوٍ حسن،

وعشرون نعجة صغيرة تتراوح أعمارها ما بين عام واثنين، وقد كنتُ عازمًا على ألا أرهق نفسي ببقرة، ولو أنه بالطبع لا سبب يمنعني من امتلاك قدر ما أشاء من الأبقار كمثلكم قوم روثسميري في نهاية المطاف، وما من سبب أيضًا يمنعني من تعمير بيت من أجل العائلة، لمجرد المتعة فقط، ولو أنه لا حاجة حقيقية تقتضي ذلك، فمعظم العوارض الخشبية هنا ما زالت سليمة وبحالة جيدة، على الرغم من وجود بعض التسريبات هنا وهناك في دعامة السقف. ولكن أن تُقدّم نفسكَ كفيلًا لِطُغمة من الأشخاص الرفيعي الشأن على سبيل المنافسة مع التاجر الذي لطالما عاملني بإنصاف منذ اليوم الذي امتلكتُ فيه أول شيء لبيعه إياه، منذ أكثر من عشرين سنة....».

«نعم، ولكن يا إلهي، ألا ترى أنه سوف ينتهي بك الحال عالةً على أبناء الأبرشية؟»

حينذاك تأجج بيارتور غضبًا، وثارت ثائرته، وأنشأ يهذي بكلام غير مترابط، وأقسمَ بأنه ولدَ آيسلنديًا حرًّا، و.. و.. وكل تلك الأشياء اللعينة سواء في نظره، و.. وعما قريب سوف يُقطَّع حيًّا إلى أشلاء صغيرة في ممرٍّ كنيسة ميري مثل غونڤور البائِدة، التي لم تستسلم قط سوى أنها لعنتهم جميعًا على كل ما استحقّته، واتضح أن كل شيء أصبح حقيقة. معهد نسائي أم جمعية استهلاكية، لن أُذعِن!»

«كرمى لله، إنغي! فلنذهب إلى المنزل الآن. ألا ترى أنك تتعب نفسك من أجل الرجل بلا طائل؟ سأنطلق بمفردي إن كنت مستمرًّا في هذا السُّخف اللعين!»

كانت ابنة الوكيل قد اكتفت من هذا الترفيه. ولأنها مفتقرة إلى المعاندة التي لدى أبيها وأخيها لم ترَ مسوّغًا لماذا يتماهيان إلى هذا الحدّ في إقناع مزارعٍ في الأراضي البور وإنقاذه، وهما من أصحاب المناصب الرفيعة؟ كما لو أن الرجل ليس له كامل الحرية لأن يكون مجنونًا كما يشاء. لا أحد يعرف كم من الوقت كانا سيجلسان لو لم تقاطعهما.

قال الوكيل لابنه: «هذه الفتاة الصغيرة تدعى آستا سوليليا»، وأشارَ إلى ابنة المزارع التي كانت واقفة في الحقل بيدها مدمّتها، وتحملقُ بهم بنظرات مدهوشة وهم يغادرون على أحصنتهم، «إنها في الثالثة عشرة».

أجابه السكرتير وهو يكبح جماح حصانه لكي ينظر إليها: «عجبًا، لقد نسيت تمامًا. كيف حالك يا آستا سوليليا؟ أرى أنك أصبحت فتاة كبيرة».

سألها الوكيل: «هل اشتريت المنديل بالنقود التي أعطيتك إياها في الشتاء؟»

صاحَ بيارتور من على الرصيف: «النقود التي تتحدث عنها سقطت في بركة قرب المستنقعات هنا. لكننا لم نكترث لذلك المال».

ردّ عليه الوكيل: «نعم، لطالما كنتَ عنيدًا جدًّا وأحمقَ».

نادت ابنة الوكيل من على الطريق: «أوه، عجّلا، لنذهب إلى البيت».

«حسن، حسن، يا آستا سوليليا، لقد كبرتِ وأصبحت صَبية جميلة حقًا. وداعًا. ووداعًا لكم جميعًا».

مع السلامة.

***

30. عن أغنية

بِحكمةٍ تدوزنُ كروانةُ الماء أنشودتها،
محزونة أنثى الزّقزاق تُنادي على محبوبها.
من البحار الجنوبية أتى مدوّمًا بأجنحته؛
وتمايَل النورس الرمادي صائحًا في السماء،

جميع الطيور الشّادية حلّقت عائدة من الجنوب إلى موطنها في المستنقعات والأراضي البور. عشب الشتاء الأبيض الثلجي متوحد مع خضرة المروج، أخضر، كل شي أخضر في الوديان وفي كل مكان على امتداد الغُدران، ونعم، مرّت أيام كثيرة من فصل الربيع، وبات من المؤكد أن الوقت حان للتفكير بإخراج البقرة. تناقشوا في الأمر بضعة أيام، ولكن فِينا أرادت اختيار يومٍ مشرق ودافئ من أجل المناسبة. سرعان ما حلّ يومٌ دافئ مشرق. أُشرِعَ بابُ الحظيرة وحُلَّ وثاق البقرة. غير متزنة على قوائمها،

مترددة، تنفخ وتشخر من منخريها المنتفخين؛ أخرجت رأسها من الباب مع دمدمة الترقب؛ من عتمة الشتاء ورائحته العطنة إلى ضوء الربيع وأريجه الذكيّ. كان التغيير مفاجئًا، احتاجت وقتًا كي تتكيّف. على الرصيف أطلقت البقرة خوارًا عاليًا في الشمس، ثم، بعدما خطت بحذرٍ بضع خطوات، توقفت مرة أخرى كي تشرب في شذى الطقس البديع. حاولت الخوار مجددًا، لكنها بدت كأنها غير قادرة على قول المزيد بسبب الذهول، أكانت تحلم؟ لقد حلمت مرات كثيرة في الظلمة ورائحة حظيرتها بضياء الشمس والمراعي الخضراء، لدرجة أنها بالكاد تصدق أنّ حلمها أصبح حقيقة في النهاية. هبطت إلى أسفل المنحدر المعشوشب في خببٍ هادئ رصين، لكن بعد بضع دقائق لم يعد بوسعها كبح فرحتها أكثر، لقد كانت الحرية حقًّا في النهاية. اندفعت تعدو، مُتيبسة ومُتخبطة بعد حبس الشتاء، لوّحت بذيلها في الهواء، وَعَدت صوب المستنقعات بأقصى سرعة. غافلة عن كل الأبعاد، ركضت بلا هدف في منحنيات ودوائر عشوائية واسعة، وارتفع خوارها عاليًا مُهدِيةً أغنيتها للربيع؛ وركَض الأولاد من خلفها يضحكون ويصيحون إلى أن توقفت أخيرًا في بركة، وانغمرت حتى عراقيبها بالوحل، وأخذت تلهث بشدة. مضى النهار قبل أن تهدأ كما ينبغي لتفكر بالرعي.

سُمحَ للبقرة في الأيام القليلة الأولى البقاء في فناء المنزل تكرّمًا، وإن كان بيارتور يمتعض كلما قضمت قضمة، فعلى الرغم من أن العشب المجفف لن يشكّل أكثر من رباطٍ لعلف البقرة، ولكن كان لا غنى عنه للنعاج قربَ نهاية الشتاء. واستمرّ بالحديث باستخفاف عن الدابة التي اقتحمت منزله وأفسدت كل النسب والمقادير. وحَذت الكلبة حذو سيّدها. كانت في ذلك الحين قد أمست كلبة هرمة ومتحفظة، ولم يكن لها بأية حال حصافة أمها، التي كان بإمكانها استقبال الأطفال الحديثي الولادة ورعايتهم وإعطاؤهم الحياة.

كانت في أغلب الأحيان تتمدد على الأرضية المرصوفة، بعينين ناعستين ومكتئبتين، ولكنها متيقظة دائمًا بما فيه الكفاية لكي تتبع كل حركة تتأتى بها البقرة بنظرات متجهمة. ومن حيث لا يُتوقَع، كانت تتسلل خارجًا إلى فناء البيت، وتتسحب من الخلف، ثم تنتظر الفرصة المواتية كي تغرس أسنانها في سيقان البقرة. وحينئذ كانت البقرة تحاول الدفاع عن نفسها، وتهاجم

بحوافرها أو كانت تستدير منخفضة الرأس وتشرع في مطاردتها، ولكنها تستسلم؛ كانت الكلبة مراوغة للغاية. ثم كانتا تقفان بعضهما في مواجهة بعض، الكلبة بنظرة شزراء، وزمجرة تكشف عن أسنانها، متثائبة ما بين حين وآخر، والبقرة تطوّحُ برأسها، وتدمدم.

«لماذا تلك البقرة اللعينة لا تترك الكلبة المسكينة وشأنها؟»، قال بيارتور الذي كان يدافع عن الكلبة دومًا ضد البقرة.

ازداد بيارتور قلقًا على الأولاد. يومًا بعد يوم أظهروا رغبة أقل بما يسمى فضلة الأسماك، وسمك السلّور المملح، وسمك البولوق، وسمك القدّ، والسجق الحامض من الخريف الفائت، ولذلك شعر أنه من غير اللائق أن تبارك زوجته المخلوق الذي حرمَ الأطفال من شهيتهم الطبيعية للأغذية التي اشتراها من فِيورد بأسعار باهظة.

ثم في أحد الأيام سِيقت البقرة إلى «كورك»، وهو مكان مقابل الجبل، أرض براح ومنخفضات معشوشبة. نبتت بواكير أعشاب الربيع من بين العشب الذابل؛ كانت المستنقعات خضراء، والوادي بأكمله أخضر. لكن البقرة لم تشعر بالسعادة بمفردها في مرعاها، وحاولت الفرار فوقَ التلال. وفي اليوم التالي أُرسِلَ الفتيان الكبيران للاعتناء بها، لكن صحبة كهذه لم تكن مسلّية لها؛ أرادت شقيقاتها في الحظيرة في يوتْيروثسميري، وخارت لساعاتٍ أعلى الوادي باتجاههن. في آخر الأمر فقدت كل مهابتها للصبيين، وولّت هاربة. كانت مطاردة كبيرة. أمسكا بها في خندقٍ في منتصف الطريق عبر التلال، أوثقاها بحبل، وقاداها إلى المنزل. وقفت على الأرض المرصوفة مرهقة وبائسة، كانت أوداجها منتفخة، وأذناها مرتعشتين بيأس، ولم تكفّ عن الشكوى إلى أن خرجت إليها فِينا وربتت عليها وحدّثتها عن الحياة. عندما تكون الحياة نَصَبًا والهروب مستحيلًا، من الجميل أن يكون لدينا صديق يجلب إلينا الطمأنينة والسلام بلمسة يد. بعدئذ اعتزمت فِينا الاعتناء بالبقرة بنفسها. واصطحبت معها نوني الصغير طيلة الوقت. كانت تلك أيامًا طيبة. كانت أيّامًا هادئة رائقة وصَموتًا بالكامل، مثلما تكون أفضل أيام حياة المرء؛ لم تبرح ذاكرة الصبي قط. لا شيء يحدث؛ مجرد أن المرء يعيش ويتنفس ولا يرغب بالمزيد، ولا شيء آخر.

تلك الأيام عندما كانت أغصان الصفصاف تتبرعم في المروج، وعندما تفتّحت أزهار عنبية الأحراج العطرة باللونين الأحمر والأبيض، وطارت النحلة البرية وهي تطنُّ بصوت عالٍ داخل الأجمة النضرة وخارجها. وقد وضعت عصافير الأراضي البور أولى بيوضها، غير أنها لم تفقد الحب في أغنيتها. وتدفقت عبر المروج جداول صغيرة شفافة رائقة، وكان من حولها أراض منخفضة خَضِرة تصلح للبقرة، ثم كانت هناك الصخور التي يعيش فيها الجانّ، وهناك كان أيضًا الجبل الذي تعرشت على منحدراته الخُضرة. غمرت أشعة الشمس المكان لنهار كامل. ثم هبطَ الضباب، واحتجبت أشعة الشمس النهار بطوله على مدار يومين. ازدادَ لون نبات الحزاز إشراقًا، وتضوع العطر واشتدَّ انتشاره، وتخضّل العشب بالندى، وتشكلت شبكات ثمينة من اللآلئ في نبات الخلنج وفوق التربة حيث كانت الأرض خالية من العشب. كان الضباب أبيضَ وهفهافًا، يمكن للمرء تقريبًا أن يلمحَ السماء من فوقه، ولكن الأفق كان على بعد عدة أمتار فقط، هناك أعلى الوادي الصغير. ربا المرج في السماء وتنامى بِشذاه، بخضرته، وبأغنيته؛ كان ذلك كما العَيش في الغَمام. لفّت البقرة لسانها حول العشب، وقضمت منه دونما انقطاع؛ كما أنها تمططت أيضًا إلى أغصان الصفصاف المتدلية فوق الغدير. بينما جلسَ الصبي مع أمه وهي تحوك على حافة الغور، وأصغيا إلى البقرة والعشب والغدير وإلى كل الأشياء.

«ذاتَ مرة كانَ رجلٌ في طريق العودة إلى منزله، في ليلة خريفية ظلماء. كان متعبًا مكدودًا، إذ إنه قاسى من مشاكل مع الوكيل والتاجر، وعلى الأرجح لم يبق له معين الآن سوى معونات الأبرشية. كان عاجزًا عن تسديد ديونه، ورفضَ التاجر إعطاءه أي رصيد دائن إضافي، وهدّد الوكيل بالتخلي عنه. وكان من المحتمل أن يرتئي المجلس البلدي ترحيله، ومن ثم إرسال أولاده إلى هنا وهناك، وفي كل مكان لكي يكابدوا الجوع طوال أيام الأسبوع؛ ويُجلَدوا في أيام الآحاد. كانوا في هذا الوقت ينتظرونه في المنزل، في حين كان عائدًا من البلدة خالي الوفاض؛ كانَ أَبيّ النفس مترفّعًا لدرجة أنه لم يستطع أن يطلب من الآخرين شراء أي شيء من أجله. نعم كانت خطواته متثاقلة. كثيرٌ من الخطوات المتثاقلة شعرت بها هذه البلاد من فوقها ولم يعلم بها أحد. ماذا كان عليه أن يفعل؟

وفجأة أبصرَ ضوءًا بين الصخور.

كان قد مرَّ بهذا الطريق مرّات عدّة، في ضوء النهار وفي العتمة، ولم يتمكن من تعليل ذلك الضوء الذي برقَ من بين الصخور. لذلك ذهبَ باتجاه الضوء، ووجد هناك بيتًا صغيرًا. وفي الباب وقفَ شابٌّ مَليح القَسمات؛ كان مزارعًا من الجنّ. لم يَفُه بالكثير، لكن كل كلماته كانت لطيفة. كان لديه سيماء الجن الدّمِث المتفهم الودود، الجن الذي ليس لديه هموم؛ من الذين يسعون إلى ما هو خيرٌ ويجدونه. قُدِّم لهُ في الصخور قهوة مع كثير من السكر والقشدة، ولم يشعر بنفسه إلا وهو يخبر هذا الشاب اللطيف عن جميع متاعبه. عندما افترقا، قال له المزارع الجني: «حينما تنتبه من نومك غدًا، عليكَ أن تنظر في ممرّ بيتك». مكتبة سر من قرأ

وهكذا انطلقَ المزارع إلى البيت، ثم ذهب إلى النوم هو وعائلته جميعًا. لم يجترئ على إخبارهم بالمشاكل التي واجهها. وفي الصباح حينما نزلَ إلى مدخل البيت، ما الذي رآه برأيك؟ كان المكان بأكمله مكدّسًا بالمؤونات. كانت هنالك جوالق مليئة بالدقيق، وجوالق مملوءة بالسُّكر، وبعض الأسماك الشهية في كيس. لم يذُق الناس في هذا البيت الريفي سمكًا لذيذًا كهذا من قبل. وكانت كذلك جرّة صغيرة من الدبس.

«وفي يوم من الأيام كان صبيٌّ صغير مُتبنى مع بعض الأشخاص الذين عاشوا في واد في الأراضي البور، ولم يكن مسموحًا له بالذهاب إلى الكنيسة، مع أن الجميع كانوا يذهبون إليها. لم يكن له أخ ولا أخت صغيرة أيضًا، لأنهما أُخذا بعيدًا عنه. كان يوم الأحد في فصل الصيف. انطلقوا جميعهم إلى الكنيسة في ملابس الأحد، كلٌّ على حصانه، ووقف على الرصيف الحجري يراقبهم وهم يبتعدون، ويشاهد تطاير هبات الأتربة من حوافر الخيل على الطريق بمحاذاة النهر. ألا تعتقد أنه أخذ على خاطره ولا ريب؟

تجوّل باكيًا، بعيدًا عن المزرعة وصولًا إلى الصخور عند سفح الجبل، وقد تمكّنَ منه الشر الذي يبدو أنه غالبًا ما يسود الحياة بل يحكمها حتى. ولكن ما الذي سمعه برأيك من الصخور عند سفح الجبل؟ يا للعجب، لقد سمعَ أعذب غناء في الوجود! من عساه يكون ذاك الذي غنى بكل تلك

العذوبة والجمال؟ لم يكن غناء منفردًا ولا ثنائيًا، وما كان ثلاثيًا كذلك، ولكن جماعة بأكملها كانت تغني. كانت الصلاة قائمة؛ لم يسمع الصبي من قبل ترنيمة بذلك الجمال. ومن أين كان يأتي الغناء؟ ثم رأى الصبي أن الصخرة السحرية لم تعد صخرة، بل كنيسة، وكانت الكنيسة مكشوفة في ضوء الشمس، وكان الجان قاعدين جميعهم في الكنيسة، وكان القسّ بردائه الكهنوتي الأخضر واقفًا قدّام المذبح. دخل الصبي كنيسة الجنّ. لم يرَ مثل هؤلاء الناس من قبل، نبلاء جدًا وسعداء. كذا تكون الحياة حينما تُعاش في سلام وغناء. عندما انتهت الترنيمة، صعدَ القسّ إلى المنبر وألقى موعظة. لم يسمع الصبي من قبل عظة رائعة ومؤثرة إلى هذا الحد. ولم يسمع مثيلًا لها من بعد. ظل يتذكرها طوال حياته، ويتدبّرها في سرّه ومحاولًا ما استطاع الالتزام بها؛ بيد أنه لم يخبر أحدًا بفكرة الموعظة. يعتقد بعض الناس أنها لا بد أن تكون حول انتصار الخير في حياة الإنسان في نهاية المطاف. بعد ذلك ذهب القسّ إلى المذبح ورتّل بصوتٍ دافئٍ رخيم؛ مختلف تمامًا عن أصوات القساوسة هنا على الأرض. كان كما لو أن يدًا كريمة قد وُضِعت على فؤاده. ثم حينما رُتِّلت الترتيلة الأخيرة، نهض جميع الأشخاص، وغادروا. ونهض الصبي أيضًا، ومضى إلى الخارج، ولكن حينما نظر من حوله، كان الجميع قد اختفى، والكنيسة كذلك. وما كان يمكن رؤية سوى الصخرة السحرية، جرداء وحادّة مثلما كانت دائمًا، وكل ما سمعه هو زقزقة بعض الطيور التي حلقت خارج الشقوق وإليها، من المحتمل أنها كانت ذات الذيول البيضاء. ولم يبصر الصخرة الجنية مفتوحة مرة أخرى. غير أنه احتفظ بذكرى هذا الأحد بذهنه بعد ذاك، وكانت الذكرى سلوانًا له كلما افتقر إلى السعادة التي ينعم بها الآخرون في هذه الحياة؛ وكبرَ ليصير رجلًا مغتبطًا بما يملك، راضيًا كل الرضا».

وبينما كانت تروي قصصها؛ تساقطت على شعرها آلاف اللآلئ الدُرّية النفيسة من السماوات البيضاء المتشحة بالسّديم، حيث كانت الشمس متوارية مثل وعدٍ سارّ. كانت تزمُّ شفتيها بجدية عند نهاية كل قصة، وتقريبًا بتوقير وهيام، كما لو أنها روايات مقدّسة. زَلَّقت حلقات الخيط على صنانيرها بتأنٍّ؛ كانت الطبيعة قُدسيّة محتجبة بالضباب، وتتنفس بهدوء.

كانت صديقتها المفضلة امرأة جنية، وعرفت أيضًا رجلًا جنيًّا؛ شقيق المرأة الجنية، ولكن حدث هذا منذ زمن بعيد، في بيت أهلها في أورثارسيل. قالت متسائلة: «هل أفلتُ قطبة؟»، ثم تنهدت. «آه، حسنًا، لا يهمّ. ما مضى فاتَ. ولن يعود أبدًا»..

ولكن الصبي شعر أن الأمر يهمّ. اقترحَ أن يذهبا إلى أصدقائها، و ن يصبحا من الجن معهم، حينما يكون الأب وآستا سوليليا في فِيورد. قال: «وسوف نأخذ بقرتنا بوكولا معنا».

أجابت بتفكّرٍ: «لا، فات الأوان الآن. من سيعتني بالجدة؟»

كان الجواب فوق استطاعة الصبي، لذلك اكتفى بالتحديق بوجه أمه الذي كان أنبلَ وأسمى من كل الكائنات التي تعيش في العالم، وما من مثيل له في نوره وطيبته، وفي حُسنه وأحزانه. وحينما فكر لاحقًا في تلك الأيام وفي الوجه الذي ران عليها، تملّكه شعورٌ بأنه هو أيضًا، كان كما الجبال الزرقاء محظوظًا بما يكفي كي يحسّ بنقاوة التأمل الديني. استراحَ كيانه، وملأه الشغف، للبهاء الذي وحّد كل المسافات في الجمال والحزن، بحيث لم يعد المرء يرغب في أي شيء؛ فبرغم الشدائد التي لا تُقهر، والرغبات التي لا ترتوي، فإنه شعر بأن الحياة جديرة بالعَيش.

عندما تسكنُ أغنية الكمان
ويأوي العصفور إلى مأواه مُرتجفًا
عندما يكسو الثلج كلّ تلة ورابية
ويحجبُ عن العين الوديان والأنهار

في ردهات الأحلام
أو بعيدًا، في أحراجٍ فسيحة
لطالما أبصرتُ الرجل الذي بدا
كأنّه شَامةٌ في رجالِ آيسلندا

كما اللحن على الوتر
أقامَ معي حينًا تَحفُّنا السَّعادة
ستظلُّ أمنياتي أبدًا
تجلبُ الطمأنينة لتهدئة أحزانه البعيدة

وما زال الوتر يهمسُ أغنيتَه
وقد ينقطع، هدية حبٍّ فقط،
بيد أن أمنياتي ستمنحهُ القوّة
ستؤنسُ وِحدته أينما ارْتحل.

لقد علّمتهُ والدته الغناء. وحينما كبرَ وأصغى إلى أغنية العالم، شعر أنه ما من سعادة يمكن أن تكون أعظم من عودته إلى أغنية أمه. ففي أغنيتها سكنت أثمن أحلام البشرية وأكثرها غموضًا. في تلك الأيام بلغت المروج عنان السماء. والطيور في عليائها أصغت مُنذهِلةً إلى هذه الأغنية؛ أجمل أغنية في الحياة.

***

31. عن العالم

عشية القديس يوحنا المعمدان[1]: أولئك الذين يستحمّون في الندى قد يتمنّون أمنية.

فتيّة ونحيلة، مشت بمحاذاة الينبوع وصولًا إلى المستنقعات، وخاضت بقدميها الحافيتين طين البرك الدافئ. غدًا سوف تذهب إلى المدينة، وتُعاين العالم بنفسها.

1- عَشيّة القديس يوحنا المعمدان: Saint John's Eve ، هي عشية الاحتفال بيوم ذكرى مولد يوحنا المعمدان، في يوم 24 حزيران، الذي يتزامن مع عيد منتصف الصيف في نصف الكرة الشمالي.

لأسابيع ملأت التوقعات أحلام يقظتها بالترقُّب الممتع؛ فمنذ قدوم الوكيل كانت تغفو على وسادة ثَرّة من أحلام اليقظة الوسنانة الزاخرة بِتخيّلات الرحلة الموعودة. في ضوء النهار أو في الأحلام رأت نفسها منطلقة إلى رحلتها مئات المرات، ومؤخرًا باتت غير راغبة في تبديد الوقت بالنوم، لدرجة أنها صارت تستلقي صاحية حتى الصباح الباكر، مُلتذّة بالفرح الآتي. واليوم مرت الساعات كما النسيم البعيد، كانت رؤوس أصابعها خدرة، ووجنتاها ملتهبتين، ولم تكن تسمع ما يُقال من حولها. وقد حاكت لنفسها ملابس داخلية من خيوط ناعمة ذات لون رمادي أزرق، ووضعتها جانبًا من أجل السفرية، وكانت تتأملها في أيام الآحاد فقط. وَحَاكت أيضًا تنورة تحتية مُحلّاة بشريطين من حولها، أحدهما أزرق، والآخر أحمر. منذ بضع ساعات فتحَ أبوها صندوق الملابس، كان الحُقُّ الوحيد في المنزل الذي له قفل، وسحبَ منه ثوبًا مُزهرًا ملفوفًا بِسترته الرسمية. قال: «على الرغم من أنك قد تكونين ظلًّا رقيقًا جدًا بحيث لا يمكنك ملؤه، فإن الوقت قد حانَ لتبدئي بارتداء أفضل فستان لأمك. ابنتي يجب ألا ينقصها أي شيء في الخارج أو من الداخل، في اليوم الذي تخرج فيه إلى العالم».

تضرّجت وجنتاها خجلًا وسرورًا، والتمعت عيناها. كانت لحظة مهيبة. كان الثوب مُتغضّنا بالطبع، وكان نسيجه رخوًا ورقيقًا بتقادمِ عهده، ولكن لم تُصِبه رطوبة ولا عثة. كان مطبوعًا بالنباتات الخصيبة لبلَاد أجنبية، وله كَشاكش كثيرة على الصدر. ومع أن آستا سوليليا قد كبرت بنسبة لا تُصدق في الأشهر القليلة الأخيرة، وبدأ قوامها يأخذ منحنيات الشباب، فإنها كانت ما تزال مراهقة طويلة الساقين، ومن الضآلة بمكان يصعب عليها ملء هذا الثوب. هدلَ فوق كتفيها الناحلتين على نحو فضفاض، وتموّج حول خصرها تموّجًا واسعًا. قال هيلغي: «إنها مثل الفزاعة في المرج في يوتيروتسميري!»، فدفعه أبوه بعيدًا إلى أسفل الدَرج. بغض النظر عن قياسه، فإن الثوب لاقَ بها بشكل رائع.

ألقت بذراعيها حول عنق أبيها امتنانًا، وتحسست المكان عند جوزة حلقه وخبأت رأسها هناك. لقد غدت شفتاها أكثر اكتنازًا. حين ينظر المرء إلى صورتها الجانبية المنعكسة على النافذة، يرى أنها تمتلكُ شفة سفلية

سميكة، وبالأحرى استدارة ساحرة؛ كان فمها قد بدأ يبدو ناضجًا للغاية، الفتاة المسكينة، ووخزت لحيتهُ جفنيها.

تدفق الطين الدافئ من بين أصابع قدميها العاريتين، وأصدر صوتًا عاليًا حينما رفعت كعبيها. الليلة كانت ستستحمّ في الندى، كما لو أنها لم تمتلك جسدًا من قبل. في كل بركة من برك النهر كان طائر فلروب[1] يقدّم لها انحناءة؛ ما من طائر في المستنقعات كلها بمثل سلوكه المهذب ***عشية منتصف الصيف***[2]. كان الوقت ما بعد منتصف الليل، الساعة تدنو ببطء من الواحدة. خيّمت الليلة الربيعية على الوادي بأسره مثل شابة فتية. أعليها أن تأتي أم لا تأتي؟ ترددت، وتسحّبت على أصابعها، وكان النهار. كان الضباب الخفيف من فوق المستنقعات يرتفع مدوّمًا أعلى المنحدرات وينبسط كما الغشاوة، بخَفَرٍ بريء حول خصر الجبل. قبالة لَمعان البحيرة الأبيض، لاحَت صورة حيوان ما، مثل الكالبي[3] في الليالي الوضيئة. كان هناك تجويف أخضر معشوشب على حاشية النهر، يؤدي إليه عبرَ الندى المسار التائه لقدمين غير خبيرتين. كانت الطيور صامتة لبعض الوقت. قعدت على الضفّة وأرهفت السمع. ثم تجردت من ثيابها اليومية البالية الممزقة تحت سماء بمقدورها أن تمحو من الذاكرة حتى شتاءات العمر بأكمله غير المشمسة، إنها سماء عشية منتصف الصيف. إلهة شابة من الليلة المضاءة بنور الشمس، مثالية في عريّها غير الناضج. لا شيء في الحياة فائق الجمال كمثل الليلة التي تسبق الذي لم يحدث بعد، الليلة ونداها. تمنّت أمنيتها، نحيلة وشبه ناضجة في الحشائش شبه النامية ونداها. كانت الروح والجسد واحدًا، وكان الاتحاد نقيًّا تمامًا في الأمنية. ثمّ غسلت شعرها في النهر، وَمَشطته بعناية، حيث جلست وقدماها في الماء وأصابعها مطمورة في رمال القاع. كانت الطيور المائية الغريبة ما تزال تعوم من حولها في تعاريج مدهشة، وتنعطفُ بمهارة من حيث لا

1- الفلروب: طائر سبّاح.
2- عيد منتصف الصيف في نصف الكرة الشمالي، وعادة ما يكون في منتصف حزيران من كل عام.
3- الكالبي: kelpie من أساطير الشعوب الجرمانية الشمالية. الكالبي هو جان بحري، أو روح ماء تتبدى على هيئة بشر أو خيول تحب إغراق من يمتطيها.

تتوقع، ثم تنحني لها دونما سبب على الإطلاق. كما لو أن لا أحد آخر في العالم كله بإمكانه أداء انحناءة غاية في الإتقان كتلك.

بدأت تشعر بالبرد، فَطفِقت تركض على ضفة النهر جيئة وذهابًا، كان مسارها متقاطعًا مثل الشوارع في مدن العالم. كانت خفيفة ومتجردة من شخصها، طالعة لتوّها من الندى كما السّديم نفسه، مبهرة وسط الطبيعة الخضراء الندية لليلة الساطعة الوضاءة. استعادت الدفء بعد الجري في الجوار لبعض الوقت، واستيقظت الطيور وأشرقت السّماء بوميض من الألوان البديعة؛ وفي غضون ساعة من الزمن تلألأت الشمس في دِثار السيدة المبتلّ بالندى، واختفى الندى في الشمس، ندى القدّيس يوحنا المعمدان.

مع أشعة الصبح الأولى، وقبل وقت طويل من ارتفاع شخير الليل بقدر ما تستطيع الحنجرة، نهض بيارتور على عجل من سريره، وتناول قرصةً سريعة من النشوق، وبدأ بارتداء ملابسه. هل تأخرت آستا سوليليا في النوم هذا الصباح، صباح اليوم الموعود الذي ستذهب فيه لرؤية العالم؟ كلا، لا يَقُل ذلك أحد؛ لقد نهضت هي أيضًا، ومسحت من عينيها بقايا الأرق، حين رأته وهو يرتدي ملابسه. ثم خرجَ إلى الحصان. وعندما ذهب أخرجت ملابسها الداخلية الجديدة، وَسَحبتها على الجسد النظيف الذي غسلته للمرة الأولى في الليلة الماضية، الجسد الذي اكتشفته للمرة الأولى، الجسد الذي مُنِحتهُ للتوّ. ارتدت تنّورتها التحتية، وجوربيها الصوفيين الجديدين، وحذاءها الجديد المصنوع من جلد الخراف، وأخيرًا لبست الثوب الفاتن، ذكرى والدتها. تعثرت على الأرض صعودًا وهبوطًا، وخفق قلبها عاليًا بلهفة وفرح الرحيل، بينما كانت زوجة أبيها تُسخن القهوة. كانت الجدة مستيقظة أيضًا، وقد جلست في سريرها واضعة سبابتها في لثتها.

«لا تنسي معطفك يا بنت. ملابسك مريعة للغاية إذا ما هطل المطر».

لقد كان ذلك دأب الجدة. كما لو أن آستا سوليليا سوف تفكر مجرد تفكير بإظهار نفسها في المدينة بمثل هذا اللباس الرثّ القذر.

أجابت الجدة: «أوه، من الممكن أن يهطل في أي لحظة».

قالت آستا سوليليا: «ولكن لا أثر للسحب في السماء».

قالت الجدة: «الطقس الجيد يخدع أذكى الأذكياء. والاستهتار لا تُحمد عواقبه».

ولكن ما من شيء يُشيع في الروح تلك الثقة المطلقة كما هو الصباح الصافي من هذا النوع؛ كانت الشمس مشرقة على الوادي الأخضر، والجبل الأزرق متكئًا على زرقة السماء بِسَكينة حالمة، مثل الأطفال في بيت ثريّ، وجوههم مكرّمة ومستبشرة، كما لو أن لا شيء، لا شيء يمكن أن يُلقي بظلال أخرى على أشعة الشمس الهادئة تحت هذه السماء الأزلية العميقة. كان إخراج معطف قديم ممزق في صباح كهذا بمنزلة فكرة شريرة، وألقت آستا سوليليا تحية الوداع على جدتها الممتعضة.

ثم انطلقت إلى العالم مع أبيها. كانت العربة التي يجرها بيلسي مكدسة بأكياس الصوف، وحينما وصلا إلى الطريق، قال أبوها بإمكانها الركوب في الأعلى بينما هو يقود الحصان في المقدمة. كان صباحًا حلوًا بهيجًا. لم يسبق أن شعرت آستا سوليليا بالنهار فسيحًا وَثرًّا هكذا، وما كانت بهذا القدر من الحرية قط. بعد مضي وقت قصير بدأت تتكشف مناظر جديدة، وشعرت بأنها تركت وراءها شحّ وجودها السابق كله. لم تكن الريح التي هبّت على المروج منعشة يومًا مثل ذلك اليوم في منخريها، ولم تبلغ تغريدة طيور المستنقعات هذه الآفاق البعيدة. الأصداء تغيرت، وكانت الأصوات مختلفة تمامًا. ما عادا يسمعان طيور الوادي القديمة المألوفة، سمعا طيورًا جديدة، طيورًا تغني لمناظر طبيعية أخرى، إنها طيور العالم. اتخذت التلال على طول الطريق شكلًا مختلفًا وغطاء نباتيا آخر، وغيرت الجبال مواضعها وانبثقت أشكال جديدة، بينما انزوت المرتفعات والنتوءات المألوفة على نفسها أو اتخذت شكل تلال مستقلة. تدفقت الجداول في اتجاهات مختلفة، وكان للأحجار مظهر مختلف. ومن الوديان المشجرة فاح عبير أزهار مجهولة باتجاه المسافرين عديمي الخبرة. كانت الدرب وعرة للغاية لدرجة أنها ارتجت وتخضخضت في العربة بلا رحمة، ولكن حواسها كانت مُتَنبّهة لأصغر تفاصيل النهار والمسير؛ للعالم الجديد المبتكر كما صباح اليوم الأول الذي خلق الله فيه العالم.

التفّ الطريق ما بين المجاري المائية إقبالًا وإدبارًا، وتصاعد تدريجيًا إلى

المروج في الأعلى، وفي كل قمة ارتقى إليها المسافران كانا يلتقيان بسلالة جديدة من طيور البراري التي كانت تتبعهما بتغاريد حماسية إلى الجرف التالي حيث المرافقة التي تليها. انقضى نصف النهار قبل أن يصلا إلى الهضبة. هنالك كانت النباتات طفيفة، والنسيم أكثر برودة. انبسطت الأرض البور من أمام ناظري الرحالة، موحشة وكالحة، مع عدد أقل وأقل من الطيور، وبلا جداول. بعيدًا، بعيدًا، التمعَ السطح الأبيض لبحيرة. أعقبَ التموّج تموج آخر، بِذروتهِ الجرداء في مهب الريح، وبِطاحهِ المقفرة المفروشة بالحصى، وبقاعهِ ذات التربة الرقيقة، المجردة من النباتات. كانت هنا وهناك قطع أراض مستوية مكسوة بالقليل من الطحالب، حيث كانت النعاج الجبلية وحملانها تجترّ في أشعة الشمس الصباحية، وولّت هاربة لدى اقترابهما. وَثَبت الفتاة من العربة، وَمشت بجانب أبيها في فستانها المعرّق الواسع، في محاولة منها لتدفئة نفسها. خيّمت العزلة الباردة لهضبة الأراضي البور على عابري السبيل هذين، وكانا صامتين. الرتابة الكئيبة للمشهد الطبيعي بلّدت حواسهما؛ بدأت تشعر بالجوع، وما عادت تُملّي النظر، أو تبتهج بالأشياء التي كانت غريبة عليها.

مرة بعد مرة، انتظرت الفتاة قمة التل القادمة لكي تُنعش عينيها بشيء من الاختلاف، بمشهد متجدد، ولكن كان دائمًا التكرار نفسه المتواصل فيما خلا المياه المتلألئة للبركة التي خلفاها من ورائهما منذ وقت طويل. فقدت كل ترقبها، وسئِمت من توقع أي شيء خاصة عندما انعطفَ الطريق فجأة، وانحدرَ إلى الأسفل على طول وادٍ عميق، مع نهر في الأسفل. وعندما نظرت شرقًا على امتداد الفجوة، متوقعة رؤية تلة أخرى قبالتها، وياللعجب؛ لم يكن شيء لرؤيته؛ كان الأمر كما لو أن العالم بلغ نقطة توقف مفاجئة أمام ناظريها، ليحلّ بدلًا عنه عُمق السماء، وإن كان بدرجة مختلفة من اللون الأزرق. أم تراها السماء كانت مدعومة في الأفق بجدار مشعّ من الزجاج الأزرق المخضرّ؟ بدا أن هذا اللون الأزرق الغريب يتضمن جميع أسرار المسافة، ووقفت للحظة مأخوذة بمنظر الأبدية هذا. كان ذلك كما لو أنها وصلت إلى حافّة العالم.

قالت بصوت ذاهل متردد: «أبي، أين نحن؟»

ردّ بالقول: «لقد اجتزنا الأراضي المقفرة. هذا هو المحيط».

«المحيط!»، رددت في همسٍ مفعم بالرهبة والاندهاش. وراحت تحدّقُ في جهة الشرق، وقد سَرت فيها قشعريرة فرحٍ باردة إذ فكرت بأنها محظوظة بما يكفي لكي تقف على التخوم الشرقية للأراضي البراح، ولكي ترى حيث تنتهي الأرض ويبدأ المحيط، إنه بحر العالم.

في آخر الأمر سألت: «إذن، ألا يوجد شيء على الجانب الآخر؟»

فأجابها أبوها مفتخرًا بقدرته على تفسير هذا المنظر: «الدول الأجنبية على الجانب الآخر. إنها تلك البلدان التي تتحدث عنها الكتب»، وأردف بالقول: «الممالك».

همست همسةً مسحورة: «أجل!»

بعد وقت ليس بالهيّن أدركت مدى حماقة سؤالها، وأنها ربما عرفت من قبل أنه هذا هو المحيط ذاته الذي أبحر فيه الأبطال الشبّان ليفوزوا بالشهرة في القصائد؛ بعيدًا، بعيدًا جدًّا عبر هذا البحر العظيم تقع أراضي المغامرة. لقد مُنيتْ بالحظ السعيد في النظر إلى البحر الذي يدوّمُ حول أراضي الرومانسية؛ الطريق إلى ما لا يمكن تصوّره. وحينما توقفا أعلى أول منحدر في طريقهما إلى الأسفل، كانت قد نسيت جوعها وكانت ما تزال ناظرة إلى البحر في دهشة أفقدتها القدرة على الكلام. حتى في تخيلاتها الأشد جموحًا لم يكن البحر بتلك العظمة والضخامة.

كان الجانب الشرقي من المروج أشد انحدارًا من ذاك الذي في الموطن. سرعان ما كانا ينظران إلى أسطح المحال التجارية في المدينة، وبساتين زراعة الخضروات البنية اللون، مع مساراتها المستقيمة ما بين المساكب. كانت آستا سوليليا قد تخيلت صورًا مذهلة لِفيورد، لكنها لم تكن لتتصور أن العديد من المنازل، كل واحد منها باذخ كما قصر روثسميري، يمكن أن تصطف على التوالي على طول امتداد قصير من الطريق. وكان الدخان المتصاعد من هذه البيوت إلى أعلى سفوح التلال له رائحة حلوة في أنفها، ومختلفًا تمامًا عن الدخان المزعج ذي الرائحة الواخزة التي تنبثق من الخثّ البائس في المنزل في البيت الصيفي. سرعان ما كانا يمران بجوار المنازل

الأولى على منحدر التل، وبدآ يلتقيان بمختلف أصناف السَّابِلة، الرّاجل منهم، والرّاكب، وممّن يقودون العربات. وصادفهما أيضًا بعض الشبّان بملابس أنيقة، كانوا يرتدون ياقات وربطات عنق في اليوم العادي، والسجائر بين شفاههم، وكان أولئك الشبّان باشّين مسرورين في حياتهم لدرجة أنهم نظروا إليها وانفجروا ضاحكين ثم نسوها في خطوتهم التالية.

تساءلت: «من هم هؤلاء الشبان؟»

غير أن أباها، على ما يبدو، لم يكن مثلها منبهرًا للغاية بأولئك الشبّان الأنيقين. فوافاها بالردّ: «إنهم شرذمة من مُدخني السجائر المغفلين». والآن كانا يسيران على طريق معبّدة، وكانت على الجانبين بيوتٌ، وستائر وزهور على النوافذ، أليست مدهشة تلك الأشياء التي تنمو في العالم؟ وهنا، أتت في اتجاههما فتاتان، تتمشيان يدًا بيد، وكلتاهما ترتديان معطفًا وحذاء بأربطة، واعتمرت إحداهما قبعة حمراء، والأخرى قبعة زرقاء، وكانتا كلتاهما متأنقتين للغاية، وظنت من البعيد أنه لا بد أن تكون إحداهما على الأقل ابنة الوكيل أودور، ولكن عندما اقتربتا ظنت أيضًا أن واحدة منهما هي أودور، ولم تستطع تَبيّن ملامحهما، ولكن اتضح أخيرًا أنهما مجرد فتاتين من المدينة، وقد غَالبتا ضحكةً عالية حينما عبرتا بجوارها. بدا أن سكان فِيورد كرماء على نحو استثنائي بضحكهم وسعادتهم.

إلا أن أباها لم يلحظهما حتى. «من هاتان؟»، كرر قولها عندما سألته، «هاتان فاجرتان طبعًا لا حياء في وجهيهما، ولا تصلحان لشيء سوى الاستعراض في الشوارع، بينما تعتاشان من آبائهما مثل الطفيليات».

ازدحمت البيوت وتجاورت أكثر فأكثر، حتى لم يتبق بينها أي مكان لحقل، ناهيك عن بقعة مرعى مقبولة؛ كل ما كان هنالك جنينة صغيرة. احتشد على امتداد الشارع سكان المدينة، والمسافرون، على الخيول وفي العربات، وفي القوارب في البحر. كثيرٌ من الأشياء لفتت نظرها في آن واحد وسرعان ما تعبت من طرح الأسئلة. كان عقلها في دوامة، طافت عبر ذلك كله كأنها في حلم، وعجّل الأغراب من حولها في شتى الاتجاهات دون مصافحة أو كلمة على سبيل التحية. وقبل أن تدرك ما كان يحدث، كانت

واقفة بجانب أبيها قبالة منضدة البيع في دكّان بروني بحد ذاته، وراحت ترنّقُ النظر في جميع البضائع التي يمكن أن يقدمها العالم وحضارته؛ جوارب ناصعة البياض كما الثلج، خمسون معطفًا مطريًّا، أكواب منقوشة بالأزهار، موقد بالزيت، تبوغ المضغ. من خلف منضدة البيع وقف رجال بملابس جميلة ومظهر مهيب، وكانوا يدوّنون أشياء في دفاتر، أو يُرونَ الناس ساعات ذهبية بسلاسل وبسكويت. وقفت حائرة، وثوبها يرفرف فضفاضًا من حولها، جورباها متهدلان حول كاحليها، وحذاؤها ملطخ بالوحل، راحت تحدق مباشرة كما العمياء، وقد تبعثرت كل فطنتها بسبب تلك المشاهد المذهلة. وزن الصوف الذي جلبه بيارتور في شرفة في الخارج، ونظر إلى آستا سوليليا مرتين. وقال إنه لم يتوقع قط أن بيارتور عنده ابنة ستكون عما قريب في سنّ الزواج. ثمّ أردفَ: «فقط امنحها بعض الوقت وستكون ملائمة جدًّا لابني ماغنوس». إلا أن بيارتور قال إن هناك متسعًا من الوقت للتفكير بهذا الأمر. «لن تَتثبت في الكنيسة حتى الربيع المقبل، وما زالت الطريق طويلة من أمامها، فتاتي المسكينة». احمرّ وجه فتاة الوادي خجلاً وحنقًا من هذا الاقتراح غير المتوقع للزواج، وكانت ممتنة جدًّا لأبيها لأنه لم يُقدم على أية ترتيبات، دون مزيد من الاستفسار، ولأنه أعفاها من الأمر بحجة أنها لم تكن سمينة بما يكفي لمثل هذه المواضيع. ولم تضع في الحسبان أن سكان المدينة غالبًا ما يقومون بتصرفات يُعتقد في الريف أنها مفتقرة إلى الرويّة والتفكير.

فيما بعد أُذِنَ لآستا سوليليا بمرافقة أبيها إلى مكتب التاجر. كانت تظن دائمًا أن التاجر يُدعى بروني، ولكن يبدو الآن أن اسمه أكثر جاذبية؛ تولينوس جينسن. وإذ ذاك شعرت كما لو أنها دُعيت في منتصف الصلاة إلى المذبح في كنيسة روثسميري، ولكن لم يكن لذلك الشرف المرموق أي تأثير على أبيها إطلاقًا. ما من شيء في الأرض يمكن أن يثير دهشته. ولا حتى عندما تلقاه تولينوس جينسن بالأحضان، وضمّه إلى صدره في عناق كما المحبين؛ لم يبدِ آنذاك أدنى أثر للدهشة. لا، ولا حتى عناق عظماء العالم كان شيئًا طريفًا بالنسبة لأبيها.

قال ذلك الرجل النبيل المحترم ذو البنية المتينة: «إنه لمن دواعي

سروري رؤية مثل هذا الصديق القديم الموثوق به، وبالأخص في هذه الأوقات الصعبة التي لم يعد فيها أحد يقدّر الصداقة. لا بد أنك سمعت بالاجتماع، بالطبع؟»

أجاب بيارتور: «سمعتُ كلامًا متفرّقًا. لن أقول إنني لم أسمع الشائعات عن مجتمع أعمالهم ذاك. وفي الربيع قدِمَ زوار إلى البيت الصيفي بخصوص المهمة ذاتها. لكنني حتى الآن اتبعت قاعدة بأن أفعل ما يناسبني، أكثر مما يرضي الآخرين، حتى عندما كان الأمر متعلقًا بالثُّنائي من روثسميري».

«معك حق، لقد صار إنغولفور أرنارسون المدير المؤقت لما يُسمّى بالجمعية التعاونية. وصلت شحنتهم المزرية الأولى في باخرة منذ بضعة أيام، وعلى الفور هجرني جميع المزارعين الذين تمكنوا من تحرير أنفسهم، وهرعوا للانضمام إلى الجمعية؛ ولكني أتساءل ما إذا كان الحماس فيهم سيكون هو نفسه خلال عامين أو ثلاثة؛ عندما يشرعون بتسوية ديون الأثرياء على الفقراء، ويحجزون على منازلهم مثلما فعلوا في جمعية هرابسڤيك العام المنصرم؟»

قال بيارتور: «لا أعرف، ولكن طالما أني لا ألهث وراء مكاسب الناس، فأنا بالتأكيد لا أرغب في تعويض خسائر الآخرين».

أكَّد التاجر أن الجمعيات التعاونية لا يمكن أن تؤدي إلى شيء إلا إلى كارثة وطنية؛ مثلها مثل أي شكل آخر من أشكال الاحتكار، هدفها الوحيد هو تدمير المشاريع الخاصة، وحرية الفرد واستقلاليته. «ومن جهة أخرى، مستودعاتنا مفتوحة لك وقتما تشاء، عزيزي بيارتور، بكل ما فيها. ولكن بالمناسبة، ابنتك كبرت وصارت شابة وسيمة الطلعة، ولا ريب!».

قال بيارتور: «أوه، إنها ما تزال فرخًا صغيرًا. حتى إنها لم تنل سرّ التثبيت بعد. ولكنها قوية وجريئة. ويمكنها أن تقرأ. وهي تعرف بضعة أشياء عن الكلاسيكيات. ماذا تعني «*شجرة-الدرع*» يا سولّا؟ هيا فلير التاجر كم تعرفين».

وحينما فسّرت لهُ التعبير المُركّب قال التاجر: «هذا ما أسميه صنيعًا

رائعًا! صدقوني، قلة قليلة من الناس هذه الأيام يعرفون إيدا[1]. يجب أن أخبر صغيرتي سڤانڤيتا بهذا؛ فهي لا تقرأ سوى الدنماركية».

قال بيارتور، رافضًا إظهار إعجابه: «آه، الدنماركية، قد يناسب ذلك البلدان الكبرى، ولكننا نحنُ شعب الأودية نؤمنُ أكثر بعباقرة العصور السابقة، مثل ماغنوس ماغنوسن ماغنوسودس. لن تشهد له آيسلندا مثيلًا مرة أخرى. هيا يا حبيبتي سولّا، أسمعي التاجر واحدة من أناشيده».

أنشأت آستا على الفور ودون تذمّر تتلو مقدمة قصائد برونتوس، وحتى المقطع الثاني عشر منه.

سردت المقاطع جميعها مدلّية رأسها، ووجها مُخضّبٌ بالحمرة حتى منابت شعرها، وجاهدت لالتقاط النَّفس، بينما كانت تُدغِمُ الكلمة بالكلمة التي تليها بسرعة هائلة تعذّر فيها تمييز الكلمات بعضها عن بعض. ولكن في منتصف القراءة لخبطت بين الأبيات، ووقفت لاهثة الأنفاس، وازدادت فزعًا وإرباكًا، إلى أن فقدت قدرتها على الكلام كلّيًا، وشعرت كما لو أن الأرض تبتلعها.

قال التاجر: «رائع! تحفة! هذا ما أسمّيه عبقرية! وانتشلها من الموقف الذي كانت فيه بأن احتضن كفيها بين يديه رأفة بها. وكان متأكدًّا من أن لديها مقومات الشابة الموهوبة على نحو استثنائي، ولذلك اعتزمَ أن ينفحها هديةً عِبارة عن بنسٍ جديد لامع كي تشتري لنفسها منديلًا جميلًا، إذ إن الرغبة في إهداء منديل لكل الناس لهيَ سِمة مميزة من سمات جميع الرجال المحترمين. ثمّ أشرع لهما الباب، ودفعهما خارجًا بكل لطف وكياسة إلى المتجر، الذي في الحقيقة، وضعه قبل قليل رهنَ إشارتهما بكل محتوياته.

انقضت بقيّة اليوم في شراء اللوازم، وفي المهمام المتفرقة. سُمِحَ لآستا سوليليا بشراء منديل، وكان أول منديل لها، وكانت حواشيه مطرّزة بالزهور. وسُمِح لها أيضًا بشراء سلسلة من الخرز الأزرق السّماوي، علقتها مباشرة

1- إيدا: the Prose Edda مجموعة من القصائد (الملاحم) النوردية القديمة، والحكايات المأخوذة من مخطوطين يعودان إلى العصور الوسطى، عُثِرَ عليهما في آيسلندا.

حول عنقها لكي تكون متناغمة مع هذه المدينة الكبيرة. حملت منديلها في يدها، بما أنه لم يكن لديها جيب. ولكن لم يكن هذا كل شيء، قال أبوها: «يبدو أني تذكرتُ أني قد وعدتك منذ مدة قصيرة بشراء ***ملحمة أورڤار أودس***»، وبهذا اتخذَا طريقهما إلى متجر الكتب.

كان الكُتبيُّ رجلًا مسنًّا لم يعد قادرًا على الوقوف دون مساعدة، وكان مضطرًّا للاستناد إلى العكاز أثناء مشيهِ متثاقلًا داخل المتجر. وعلى الرغم من ذلك كان معروفًا بمواكبته لروح العصر. كان متجره يقع أعلى بيت قديم متداعٍ مخفيّ خلفَ مبانٍ أخرى، وهو عبارة عن غرفة صغيرة مفصولة عن بقية العلّية. كانت الطريق إلى الأعلى عبر سلّمٍ مظلم له صرير، وبدا كأنه لن ينتهي أبدًا. كان بائع الكتب مشغولًا بغلي بعضَ السمك الطازج على موقد الزيت؛ وقد ملأ البخار المتصاعد من المقلاة الغرفة، والعديد من الأرفف التي كانت ترزح تحت ثقل كتب الأدب تبددت مثل حزام من الصخور في الضباب. نهضَ من عند مقلاته، وتناول عكازه، ورحبّ بزائريه مصافحةً.

تساءل بيارتور: «هل يمكننا الحصول على الكتب من هنا؟»

ردّ بائع الكتب: «كتب وكتب، الأمر نسبي».

قال بيارتور: «حسنًا، كنتُ أفكر في كتابٍ من أجل ابنتي سولّا هاته. تلك المسكينة بدأت تبحث بين الأغلفة، وأنا كنتُ قد وعدتها في وقت من الأوقات بأن أشتري لها ***ملحمة أورڤار أودس***. طبعًا سأدفع ثمنه على الفور».

«سَل الله الهداية يا رجل! مرّت ثلاثون سنة منذ أن اشتريت آخر نسخة من ***ملحمة أورڤار أودس***. إن البلاد تقوم على أسس ثقافية مختلفة تمامًا هذي الأيام. يمكنني أن أرشح لكما قصة ***مناجم الملك سليمان***[1]، وكل ما يتعلق بالبطل امسلوبوغاز[2]، وبطولاته العظيمة المنفردة، وبرأيي هو لا يقل مثقال ذرة عن أورڤار أودور بطل السّاغا».

«هذا يفوق ما أنا على استعداد لتصديقه. إنه على ما أعتقد واحد من تلك

1- مناجم (كنور) الملك سليمان: رواية شهيرة من تأليف الكاتب الإنكليزي الفيكتوري السير هينري رايدر هاغارد. نُشرت للمرة الأولى عام 1885.

2- أمسلوبوغاز: شخصية في رواية آلان كواترمين للسير هينري رايدر هاغارد. 1887.

السفاسف الحديثة اللعينة. ولا أحد سيقول لي إن الشخص الذي ذكرته الآن بمقدوره مجابهة أورڤار أودور، وهو يبلغ من الطول ثماني أذرع دنماركية».

«ربما، ولكن البلاد بلغت مرحلة في التطور شاءت فيها مواكبة تطورات العصر، وعلينا نحن بائعي الكتب وضع ذلك في عين الاعتبار. من المؤكد يا آنسة سولّا أنك تؤيدين أنه يتعين على المرء التكيّف مع الزمن أليس كذلك؟ اقتربي يا حبيبتي، وألقي نظرة على كتبي العصرية. لدينا هنا رواية عالمية شهيرة حولَ رجلٍ قُتلَ في عربة، وهنا سردٌ علمي عن فساد البابابوية، وكل شيء عن هؤلاء الناس الفاسدين في الخارج، راهبين وراهبات، وعن الحياة المتهتكة التي عاشوها في العصور الوسطى. وهنا يمكنني أن أريك كتابًا جديدًا تمامًا وهو دارجٌ جدًا في وقتنا الحاضر، ألا تعتقدين يا آنستي الصغيرة أننا نرغب في قراءته؟»

ومع أن الرجل كان عجوزًا قد بلغ من العمر أرذله، فإنّ آستا سوليليا احمرّت خجلًا حتى جذور شعرها بسبب اللقب الذي استخدمه في مخاطبتها؛ فهي لم تكن تحلم حتى في مناماتها الأشد جموحًا بأنها سوف تُخاطب يومًا ما بالآنسة سولّا، أو بأن تتشاطر اهتمامات أدبية مع رجل كهذا. وعندما وقعت عينها على عنوان المجلد في الأعلى، اعتراها الذهول لدرجة أن قلبها توقف تقريبًا عن النبض. هذا العمل الغريب والخطير الذي لم تسمعه قط يُذكر باسمه، ولكن الحيوانات في المنزل وقراءاتها في بالادس الجومسڤايكينغ أعطتها تلميحًا عنه؛ «***أسرار الحب، المشورة النافعة بما يخص الارتباط بين الرجل والمرأة***».

ارتباط؟ فكرت الفتاة، مرتعدة من الخوف، كما لو أنها فكرت أن أباها سوف يصفعها على وجهها؛ كيف يمكن أن يكون ارتباطٌ بين رجل وامرأة؟ تمنّت وصلّت ألا يلمح أبوها هذا الكتاب. نادرًا ما أوقظ كتاب فضول فتاة صغيرة بمثل هذا القدر، ونادرًا ما كانت فتاة صغيرة خجولة جدًّا من كتاب. حتى لو لم يكن معها أحد، لما تجرأت أبدًا على طلب مثل هذا الكتاب. ومع أنها أشاحت نظرها بسرعة وتظاهرت بأنها لم تلحظ شيئًا، فإن الكتاب ظلّ يجذبها بقوة لدرجة أنها لم تستطع رؤية أي كتاب آخر في هذا المكان الباهر، ولا بد أن أباها، طبعًا، اختار هذه اللحظة بالذات لملاحظتها، وبطبيعة الحال طاشَ صوابه، كدأبه دومًا عندما ينبثق هذا الموضوع. قال مدمدمًا: «إنه يبدو

مثل تلك القذارة المشؤومة التي تُخمّر من قبل تلك الخنازير اللقيطة في ريكياڤيك لإتلاف قلوب النساء!»

أجابه الكُتُبيّ: «ومع ذلك، هذا ما تريده النساء. بعتُ منه ثلاثين نسخة في السنوات الخمس الأخيرة، وما زال الطلب عليه قائمًا. الجريمة والعلم ليسا كافيين بأي حال من الأحوال. يجب أن يكون في أدبنا مقدار معين من الحب أيضًا. كان أورڤار أودور رجلًا طويل القامة في زمانه، ولكن من سيهتم بقياس طول الحب؟»

كانت النتيجة حتمية؛ انخرطَ بيارتور وبائع الكتب في مماحكة حول روح الأدب المعاصر، والمهارة الفائقة في الآثار الأدبية، بينما تسمرت سوليليا وأخذت تنظرُ في حيرة تامة، إلى أن غلت الماء في مقلاة بائع الكتب. انتهت الزيارة بشراء بيارتور لابنته قصة بياض الثلج والأقزام السبعة.

وحينما وقفا أخيرًا آمنين مطمئنين في بئر السلّم المظلم المتقعقع والمفضي إلى *«أسرار الحبّ»*، قال بيارتور: «لديه سبعة أو ثمانية أبناء حرام، كما يتوقع أي شخص بعد رؤية نوعية الكتب التي يتعامل فيها».

سارَ سيرًا وئيدًا بأكتاف محدودبة، وخطى متعثرة أظهرت عدم اعتياده على المشي فوق الأسطح المستوية. وعجّلت آستا سوليليا من خلفه، نحيلة ومترددة في ثوبها المنتفخ المرفرف، وسلسلة الخرز حول رقبتها، والمنديل في قبضتها المحكمة المتعرقة، محاولة تقليد مشيته، ذلك أنها لم تكن تعرف كيف تمشي على مسؤوليتها الخاصة. وراقبهما الجميع أثناء مرورهما.

في المساء توجّها إلى نُزلٍ لقضاء الليلة. كان مبنى كبيرًا، طابقًا من فوق طابق، مكسوًّا بالحديد المموّج غير المطلي، وله درجات إلى الباب. ويا له من منزل! لم تتوقع آستا سوليليا أنه من الممكن وجود مثل هذا الصخب، والصراخ، والجعجعة، والغناء، وصفق أبواب كهذا، وصلصلة الصحون، وصياح الفتيات، وعواء الكلاب، وكل تلك الشتائم والأَيمَان. لا بد أنه الاحتفال الصاخب الأشهر في العالم. يا إله السماوات، كم يحدث من أمور في هذا المنزل ما بين يوم وليلة فقط! الحياة المتنوعة التي تضمنها هذا الضجيج تركت أثرًا حزينًا في الطفلة المشدوهة، وعزّز شعورها بعزلتها

وضآلتها؛ ووقفت هناك خارج حدود الحياة؛ في نظرها كان هذا البيت الكبير شبيهًا في نمطه بكتاب أسرار الحب، مليئًا بسحرٍ مغوٍ جذاب، ولكنه مُغلق. سعداء من عاشوا هنا في جلبة الحياة الخلّابة، وتمكنوا من المشاركة في مرح المطبخ الهادر. جلست مثل كائن خامٍ غليظ العِشرة على مقعد في زاوية غرفة الطعام، دون أي شكوى على الإطلاق، في حين اختلطَ أبوها مع الرجال الآخرين، كان معظمهم مثله من سكان الأودية. تناقشوا في التجارة، والديدان، وعشب السنة. أمرٌ واحد أراحها؛ وهو أن سكان الريف لم يبتدروها بتلك النظرات الغريبة مثلما فعل سكان المدينة؛ بالكاد نظرَ إليها مخلوق واحد.

كانت متعبة وجائعة، وكان ذهنها متبلّدًا بعد الانطباعات الكثيرة التي اجتمعت في وعيها خلال ذلك النهار بأكمله. حتى إنه لم يكن لديها الهمّة لتسوية الضبَان في إحدى فردتي حذائها الذي انحلّ في منتصف الطريق ووصلَ إلى ما فوق مشط قدمها؛ جلست تحدّق قبالتها، والمنديل في يدها، وكان متّسخًا ومتغضّنًا. بعد ذلك دخلت فتاة ضخمة، ذات بشرة متورّدة، وعينين زرقاوين، وصدر ناهد، كانت أكثر امتلاء واتّساعًا من آستا سوليليا بثلاثة أضعاف؛ فتاة كهذه يمكنها ملء ثوبٍ على أفضل ما يرام. دلفت بطريقة تُحسد عليها خارجة من ضجيج المطبخ، وحاملة طبقًا هائلًا من السمك المتصاعد منه البخار، وطلبت من الجميع الجلوس إلى المائدة. كانت آستا سوليليا نحيلة للغاية ولم تجرؤ على النظر إليها بأكثر من عين واحدة. وبحيوية متّسقة مع جمالها سألت مع من كانت آستا سوليليا، ثم أجلستها بجانب أبيها واستوثقت من أن كل واحد أخذ حصّته، وانحسرت المشاحنة البطولية للضيوف المولعين بالجدل إزاء شرائح السمك السميكة.

فقط حينما كانوا يستعدون للنوم، انطلقت ألسنتهم من جديد. وبدأت المتاجرة والديدان مرة أخرى. ولكي تزداد الأمور سوءًا، دخلَ العنبر مجموعة من الرجال المريبين، وأخذوا يغنون بلا سبب واضح، وبدا أنهم يجدون صعوبة كبيرة في تثبيت أرجلهم على الأرضية الناعمة. كانوا ملطخين بالوحل، وأحداقهم محمرة، وتفوح منهم رائحة أشبه بالخميرة. انتاب آستا سوليليا الفزع على الفور، لأنها أحست أنهم ينظرون إليها بغرابة

بالغة، وبالإضافة إلى ذلك أنشأوا يلمسونها بطريقة غير لائقة، لكن أباها قال إنه لا ينبغي أن تخاف، فهم مجرد سكارى. لكنهم على الرغم من ذلك أصروا على فَعلتهم، وتساءلوا أيضًا من ذاك الذي لديه زوجة في منتهى الصبا والجمال، فقال لهم بيارتور غاضبًا بأن يتركوا الطفلة وشأنها، فهي في الثالثة عشرة من العمر فقط، ولم تنل سر التثبيت بعد. قال الرجال إنه بوسعهم أن يقسموا بأنها كبيرة بما يكفي من أجل رجل، وتقيّأ أحدهم على الأرض. لم يُبدِ أحد أدنى قدر من الاستياء من الواصلين الجدد، واستمر الجدل حول مسائل العمل كما لو أن شيئًا لم يحدث. قَسّمت الآراء المتنازعين إلى فرقتين معتادتين، أشادت الأولى بحماس بأولئك الذين أرادوا صنع كل شيء من أجل مساعدة الفلاحين، بينما انحازت الفرقة الأخرى إلى أولئك الذين فعلوا أي شيء لِذمّهم. زعموا أنه يجب على البلد بأسره إنشاء جمعيات تعاونية استهلاكية على غرار ما فعل المزارعون في «ثينغي» منذ أكثر من ثلاثين عامًا. ومع ذلك شعرت آستا سوليليا أنه كان من المبالغة القول إن التجار كانوا جميعًا مصاصي دماء ولصوصًا؛ نظرًا لأن أباها انتصرَ للتاجر. ولكن شيئًا واحدًا استعصى عليها فهمه، ألا وهو لماذا يجب على أبيها التحدث بالسوء عن إنغولفور أرنارسون، ذلك الرجل الوسيم اللطيف الطيب القلب الذي حيّاها بحرارة بالغة يومًا ما في الربيع. ومن ناحية أخرى، فقد أعطاها والد أمين سرّ الجمعية التعاونية ربعين لمرتين مقابل عدم قيامها بأي شيء على الإطلاق؛ ومع أن التاجر أعطاها بنسًا لامعًا من أجل إلقاء قصائد البالاد، ولكنها ما فتئت تتمنى أن يكف أبوها عن أن يكون عدوانيًّا هكذا مع ابن الوكيل صاحب المظهر النبيل، الذي يريد فِعل كل شيء من أجل المزارعين. تصاعدت حدّة الخلاف أكثر فأكثر، حتى ما عادت تعرف الفتاة من يمكنها أن تحبّ أقل، التاجر أم أمين سر الجمعية التعاونية. حاولت فقط أن تبقى قريبة من أبيها قدر الإمكان. قال أحد المزارعين إن التجار ليسوا لصوصًا فقط إنما سفاحون أيضًا؛ لقد عرفَ كثيرًا من الناس قضوا من الجوع لأن شركة بروني رفضَت منحهم رصيدًا دائنًا، ويمكنه إعطاؤهم قائمة بأسماء الأشخاص في بلدتهِ الذين تضوروا جوعًا حتى الموت لذات السبب، وقد حصل ذلك في الأعوام القليلة

الأخيرة. وعلى صعيدٍ آخر، كانت الجمعيات التعاونية مخازن الفلاحين الخاصة؛ ففيها كان أقل الفلاحين شأنًا يشعر بأنه آمن من الخداع أولًا، ومن الموت جوعًا. وقال آخر إنه ليس المزارعون الصغار من يتحكمون بالجمعيات التعاونية هذه الأيام، كما فعلوا بالأصل في ثينغي؛ وإن كبار الملّاك وضعوا أيديهم على الجمعيات وجعلوها في خدمتهم، وإلا لماذا استبسلَ الوكيل لأجل جمعية؟ هل من أحد ساذج للغاية حتى يحسب أنه ناضل بدافع الاهتمام بأصحاب الحيازات الصغيرة؟ كلا، كان ذلك لأن أعماله الخاصة في ڤيك على شفا الانهيار. جمعية ڤيك التعاونية أفسدته، والآن أراد تعويض خسائره هنا في فيورد. لا، الإنسان البسيط لن يكون أحسن حالًا في ظل الجمعية التعاونية أكثر مما هو في كنف التاجر؛ سوف تكون نفس كومة الديون القديمة وستعاود تراكمها، فقط سيكون الاحتكار مضافًا إليها، اللعنة عليك! ألا تقرأ الصحف أبدًا؟ فقال بيارتور صاحب البيت الصيفيّ من فورهِ: «أنا لستُ مَدينًا لأحد». ولكن كلا المتخاصمين كانا مَدينين، وكل منهما امتلكَ بقرة، كما كان متوقعًا، ولم يكن لديهما من الوقت لإضاعته على رجلٍ مستقلٍ وخالٍ من الديون مثل بيارتور. لم تكن المسألة ما إذا كان ينبغي على المرء أن يكون مدينًا أم لا، ولكن لمن ينبغي أن يكون مدينًا، وتصاعدت حدة التوتر حول هذه القضية أكثر فأكثر، إلى أن قال أحدهم إنك على أية حال لا يمكنك توقع سلامة الرأي من الآخر، وهو العاجزَ حتى عن القيام بواجبه تجاه زوجته. فما كان من الآخر إلا أن نادى على جميع الحاضرين مباشرة كي يكونوا شاهدين على هذه الإهانة، وزاد على ذلك بأن قال إنه من المعلوم للجميع أن زوجة خصمه قد خدعته لمدة اثني عشر عامًا مع أجير مزرعة، ولا يستطيع الادعاء بأن أبناءه من صلبه. قال بيارتور مقاطعًا: «لا، قد شطَطت وغَلوتَ الآن! وتذكر حينما تتفوّه بهذه القذارة أنه يوجد صغار هنا». وإن كانت آستا سوليليا لم تلحظ أي قذارة في الكلام، ولم تكترث إطلاقًا بمن يكون الأطفال الذين قَصَدهم. وسألوه ماذا يظن المكان؟ روضة أطفال أم ماذا، وما الذي كان يفعله هنا أصلًا مع فتاة غير راشدة، وسط رجال كبار راشدين أثناء تناول مواضيع جدية؟ ومن كلمة إلى كلمة؛ عرفوا الوقت الذي كانا فيه معاً بالساعة والدقيقة، والأكثر

من ذلك أنها كانت مرتدية سروالًا داخليًا أحمرَ. ومن ثم لم تعد الكلمات كافية، وكان الحل الوحيد لكمة على الوجه؛ قلتَ سروالًا أحمر، ها؟ حسنًا، وأنا أقول منخارًا أحمر. نعم، وعينًا سوداء! آنئذ بدأت آستا سوليليا تدركُ أن مسائل خطيرة قيد النقاش. فالمحاربون الذين قُتِلوا في البالاد، وكُدِّسوا في أكوام طاولت قمم التلال، كانوا لا شيء بالمقارنة مع مرأى رجلٍ يُضرب في نُزلٍ بسبب سروال داخلي أحمر. لذا في المحصلة كان في النُّزل رجال أشرار. حاول الآخرون التفريق بينهما، وحتى بيارتور عاونهم، ولكنهم هبطوا جميعًا على منتصف الأرضية في كتلة مُتعاركة. ظنت آستا سوليليا أن كل واحد يعترك مع الآخر، وأنهم سوف يقتلون أباها. صرخت وطفقت تبكي كما لو أن قلبها سينكسر. شيئًا فشيئًا تحركت الكتلة نحو الباب، المزيد والمزيد قذفوا بأنفسهم على القمة، وفي آخر المطاف أُلقيَ المُتعادون المتشاحنون خارجًا في الهواء الطلق، حيث بضعة أفراد من الحشد أخذوا على عاتقهم السعي إلى المصالحة وتقديم السعوط لهم. دخل بيارتور مجددًا مع عدة آخرين، وارتعدت الفتاة واستمرت في البكاء على الرغم من جهود أبيها في تهدئتها.

قالت مُنتحِبة: «أبي، أريد الذهاب إلى البيت يا أبي. دعني أعود إلى البيت يا أبي». ولكنه طلبَ من حبيبته الصغيرة التوقف عن النشيج. «الفتيان السخفاء يرفهّون أنفسهم فقط، لقد أسرفوا في الشرب، وفي غضون دقائق قليلة سوف يذرفون الدمع بعضهم على رقاب بعض، لذلك اخلعي ملابسك الآن، لقد ادّخرنا عشرة سنتات باستخدام السرير نفسه».

امتدّت هياكل الأسرّة على طول جدران الغرفة، واشتمل كل هيكل منها على سرير علويّ وسفليّ. تسللت الطفلة إلى أحد الأسرّة السفلية وخلعت عنها الثوب المزهر، لكنها لم تجرؤ على خلع تنورتها التحتية.

واصلَ المُصالحون الكلام، كانوا ما يزالون يتجادلون في أمر المشاجرة وأسبابها، مرة بعد مرة، بصيغٍ شتى ووجهات نظرٍ مختلفة. في آخر الأمر أخذوا يتهامسون في إطار من السرية في منتصف أرضية الحجرة، كان تعداد الخيانات الزوجية الحاصلة مخيفا حقًا. وعلى الرغم من أنها سمعت شيئًا من وشوشاتهم، فإن آستا سوليليا لم تنم ولم تعرف طعمًا للراحة، وكانت ما

تزال مرتجفة تحت الغطاء، كانت على درجة عالية من الانفعال العاطفي بعد أن عاشت «القوافي» بذلك الشكل المبتذل غير المقفّى.

حمدت الله حين لاحت على المجموعة أخيرًا أمارات النعس؛ شرعوا يتمخطون، ويحلّون أحذيتهم، ويخلعون سراويلهم. جلسَ أبوها أيضًا على حافة السرير، وتمخط، وحلّ حذاءه، وخلع بنطاله. أصاخت السمع إلى حركاته بارتقاب، وأحست بأنه استغرق زمنًا طويلًا في التخلص من لباسه. لم تحسب أنها بأمان إلى أن استلقى بجانبها، كما لم يسبق لها أن راودتها رغبة متحرقة نافدة الصبر بالاقتراب منه والالتجاء إليه كما بعد هذا الشجار. كانت ما تزال غير قادرة على التحكم برعشة أطرافها، وما برحت أسنانها تصطك في رأسها. تمنّى الرجال بعضهم لبعض ليلة طيبة بطريقة مسيحية، وصرّت أسِرّتهم بينما هم يستلقون.

قال أبوها: «أفسحي قليلًا يا حبيبتي. لا مكان على الإطلاق في هذه الأشياء اللعينة». ثمّ حاولت أن تحشر نفسها لصق الجدار قدر المستطاع. «نعم هكذا جيد، يا صغيرتي، أديري وجهك إلى الحائط الآن ونامي».

بيد أنها ببساطة لم تستطع إلى النوم سبيلًا. على ما يبدو تسلل بردٌ كثير من الجدار الفاصل، ومن المحتمل أنها كانت بسبب ذلك ترتجف بشدة. وكان الغطاء رقيقًا للغاية، وقد سحبه أبوها عنها كله تقريبًا، كما أن الدفء المنبعث من أبيها أدفأ ظهرها فقط؛ وبذلك استمرت نوبات ارتعاشها مع توقف بسيط. الرجال في الجوار غطّوا في النوم على الفور، وكانوا آنئذ يشخرون شخيرًا عاليًا، لكن هي ما كان لها نوم في البرد المتسرب من الجدار.

مرت الساعات وكانت لم تزل مستيقظة. في آخر الأمر فتحت عينيها. كانت الستائر قد أُسدِلت من فوق النوافذ، وكانت الغرفة غارقة في ظلام دامس، لا بد أن الوقت تجاوز منتصف الليل بكثير، وكانت ركبتاها بارزتين من تحت الغطاء، وكان هنالك تيار هوائي آتٍ على ما يبدو من الحائط فوقها، لم يكن أبوها قد قال لها ليلة سعيدة حتى، مع أنه عرفَ كم كانت خائفة. كان من حولها غرباء ينامون في هذا السكن الغامض الكبير في العالم؛ العالم الذي تطلعت إليه بترقب عظيم خُيّل إليها فيه أن النوم إضاعة للوقت.

والآن، حينما خرجت إلى عالمها المرتقب، وجدت نفسها فجأة خائفة منه للغاية، بحيث إنها مهما حاولت ظلت عاجزة عن النوم من فرط خوفها؛ كانت محاطة من كل جانب برجال أشرار ترتدي زوجاتهم سراويل حمراء. أنّى لها النوم هنا بمفردها، في عالم مشؤوم يصعب تمييزه؟ وحدها؟ لا، لا، لا، لم تكن وحدها. فما دام أبوها معها، فلن تكون أبدًا وحدها، وإن نسيَ أن يقول لها تصبحين على خير؛ كان كافيًا لها أن يكون مستلقيًا بجوارها، أبي العزيز، أبي الحبيب، طفلتك الصغيرة آستا سوليليا بالقرب منك. وألفَت نفسها تفكّرُ في ذلك المكان الأبيض الناعم على رقبته، المكان الكفيل بتبديد المخاوف جميعًا فقط إن وضعت فمها عليه. ولأنهم كانوا جميعًا غارقين في الشخير؛ ولأنه لم يكن بوسعها الإخلاد إلى النوم؛ ولأنها كانت مقرورة؛ وكانت وحيدة جدًّا، وحزينة للغاية وقلقة خارجًا في العالم؛ ومع هذا كانت في منتهى السعادة لأنها حظيت به بجانبها، فهو الأمان بذاته، هو الذي بمقدوره فعل ما يشاء ولا يدين لمخلوق بشيء، هو الذي ليس يدهشهُ شيء، وعنده الجواب لكل شيء؛ إنه ملك البيت الصيفي، والشاعر. بسبب كل ذلك أخذت تستدير ببطء شديد؛ على مهلٍ بحيث لم يَصدر أي صرير، بكلّ بطء حتى إن أحدًا لم يكن بوسعه الانتباه بأنها كانت تتحرك، فقط القليل، القليل جدًّا في كل مرة؛ ثمّ القليل كرّة أخرى. كان الصمتُ مخيّمًا على النُّزل باستثناء غطيط الليل، كما لو كان من عالمٍ آخر، والطيور تصيح فوق المدينة العظيمة؛ وفي الأخير استدارت تمامًا نحو أبيها، كلا لم تكن وحدها في العالم، كانت مستيقظة بجانب صدر أبيها القويّ. قربت رأسها على الوسادة أكثر، إلى أن استقرت شفاهها على عنقه، وعيناها المغمضتين في لحيته. إنه الرجل الذي حارب أشباح الريف، بيدين عاريتين، في الليلة التي ولدت فيها.

ظنت في البداية أنه كان نائمًا ولم ينتبه لشيء. مرت الدقائق. سمعت تنفّسه، وأصغت أيضًا إلى ضربات قلبه القوية العنيفة. بيد أنها أدركت مع الوقت من خلال تحركاته الصغيرة والحذرة اليقِظة بأنه لا يمكن أن يكون نائمًا؛ لقد كان صاحيًا. وخجلت من نفسها، هل سينهض ويضربها، غاضبًا منها، لأنها تجرأت واستدارت بعد أن أمرها باستقبال الجدار؟ وفي يأسها

دَنت منه أكثر واستكنّت بالقرب منه، ولفترة من الوقت استلقيا على هذه الهيئة، وقلباهما متقابلين ويخفقان بقوة. في هذه الآونة استلقت بلا حراك، ووجهها مقابل عُنقه، متظاهرة بالنوم. شيئًا فشيئًا ودون أن تعي ذلك، اقتربت يده منها، لا إراديًا طبعًا؛ فقد فعل هذا كي يغير وضعية نومه قليلًا. كان أحد زريّ سروالها التحتي مفكوكًا بالصُدفة، وفي اللحظة التالية شعرت بيده دافئة وقوية على لحمها.

لم تعرف لذلك الإحساس مثيلًا من قبل. انزاحت عنها كل مخاوفها فجأة. الرعشة التي سرت الآن في جسدها وروحها كانت من نوع مختلف تمامًا عن الرعشة الباردة التي أبقتها مستيقظة طوال الليل، وكان في فمها ما يشبه الشهية العارمة، سوى أنه ليست رؤية الطعام التي أيقظت جوعها، وإنما حركاته! لا شيء، ثم لا شيء يجب أن يفرقهما مرة أخرى؛ وأمسكت جسدهُ بشراسة وولعٍ بكلتي يديها، في سكرة من هذه الأنانية الجسدية الملحّة المتجرّدة، التي مسحت كل شيء من ذاكرتها في لحظة من الزمن. أكانت تلك بهجة الحياة قد وافتها أخيرًا؟

وإذ ذاك؛ وقع الحدث الذي لم تَنسه بعد ذلك قط، حدث ألقى بظلال لا تمّحي على شبابها الناهض، وملأ كأس القسوة والفظاظة والشِّدة حتى فاضت عن آخرها؛ الكأس التي كانت مصيرها بالأصل. في تلك اللحظة التي كانت قد نسيت فيها كل شيء ما عداه، دفعها بعيدًا عنه، ووثبَ من السرير. ولبسَ جوربيه وسرواله على عجل، وعقدَ حذاءه، وارتدى سترته، ومضى خارج الغرفة. أوصدَ الباب من خلفه، وسمعت صوت خطواته في الممشى، ثم فتح البوابة الخارجية وذهب. لقد تُركِت بمفردها وسط الرجال المستغرقين في غطيطهم. استلقت مرهقة هنيهة، وامّحت من عقلها كل الأفكار، ولكنه لم يَعد. رويدًا رويدًا بدأ اللومُ يغزو خاطرها. ماذا فعلت؟ ما الذي حدث؟ لم يكن لديها أدنى فكرة، شعرت فقط أن أمرًا فظيعًا قد حدث، وهو أسوأ مائة مرة مما كان عليه حينما صفعها على وجهها بسبب المقطع الذي لا تجوز قراءته في *البلاد*؛ أمرًا لن يكون قادرًا على مسامحتها عليه بعد ذاك، مهما امتد بها العمر. ما الذي فعلته له؟ ولم كان عليها أن تفعل ما فعلته؟ كيف أمكنها الاشتباه بأن مثل هذه الأمور المروعة وغير المفهومة قد تقبع

وراء شيء طيّب وبريء مثل الإيواء إلى عنقه؟ ماذا دهاها؟ «أبي، أبي، ماذا فعلت لك؟ ألهذا الحدّ أنا سيئة؟» وطفقت دموعها تنهمر، وتنوح بمرارة، ثم دسّت وجهها في الوسادة خشية أن توقظ الرجال من نومهم. ذهب أبوها إلى المنزل، وسوف يطردها إن لحقت به.

ثمّ لم تعد قادرة على البكاء أكثر، وجلست في الفراش، وأجالت النظر حولها بيأس. بلى، لا بدّ أنه تركها، كانت وحيدة ولا حيلة لها في عالم شرير. من سيعطيها شيئًا الآن لتأكله حينما تجوع؟ وخطرَ لها أنه من المحتمل أن يُسمح لها بالبقاء مع والد ماغنوس، أمين المستودع الذي وزن الصوف البارحة. أم هل يتعين عليها أن تستجمع الشجاعة الكافية لكي تقترب من التاجر نفسه؟ وربما كان أمين السّر، ابن جون صاحب مزرعة ميري، الذي تحدّث معها بلطف بالغ ذات مرة على استعداد لإيوائها. أسدلت عليها ثوبها، ولبست حذاءها، ثم لاحظت أن قلادتها قد انقطعت، كان الخرز متناثرًا في جميع أنحاء السرير. لكن الأمر كان سواء بالنسبة لها، فقد فقدت آنئذ كل اهتمامها بخرزاتها بعد أن تخلى عنها أبوها؛ تدمرت حياتها وباتت وحيدة في الحياة.

تسللت نحو الباب بهدوء، وَانسلّت إلى الممر المظلم، وفي غضون لحظات كانت واقفة في الخارج في ضوء الليلة الربيعية، في شوارع المدينة المقفرة. كانت السماء تمطر رذاذًا؛ والضباب حتى منتصف سفوح التلال. لم تعرف كم الوقت، ولكن لا بدّ أنه ما يزال مبكرًا جدًّا؛ لم يكن أحد في الأرجاء، وكان صياح طيور النورس فوق المضيق البحري مختلفًا عن تغريدة أي طائر آخر. هامت في الشارع غافلة دونما تفكير.

ما كانت لتتخيل قط عالمًا عديم الروح كهذا، ومدينة بمثل هذه الوحشة كلها. ما من مخلوق حيّ يُرى، وكان الضباب البارد ومطره الناعم عالقين على الحصى والمنازل. العديد من المنازل كانت خَرِبة. وهناك نوافذ محطّمة في كل مكان. كان الدهان متقشّرًا عن الصفيح المموّج، وفي أماكن مختلفة كانت هنالك صفائح كاملة مخلوعة ولم يُعَد تثبيتها. وكانت الأمطار قد غسلت المِلاط عن شرائح القطران العازلة التي تدلّت من الجدران في مزقٍ كبيرة في أماكن عدة. وفاحت من الأسوار وأوتاد الأسيجة رائحة رؤوس

الأسماكُ وعظامها الزخمة. الأبقار الكئيبة تجترّ في المنحدرات المكشوفة. لا رجال أنيقون، ولا فتيات حِسان. إنّه الخراب.

مشت على غير هدى عبر الشارع الرئيس باتجاه الجبل، كانت ساقاها غير متزنتين، وعقلها خاويًا من الأفكار. بلّل المطر شعرها، وسرعان ما تشبّع ثوبها بالمطر أيضًا، ولكن لم يكن الأمر مهمًّا. ثم تراءى أمامها من خلال الضباب رجلٌ يقود حصانًا. وحينما اقتربَ تبيّنت أنه أباها. كان يجلب الحصان من المرعى.

سألها: «ما الأمر؟ لماذا لستِ في السرير؟». وقفت ساكنة بلا حراك، وعيناها مُسبلتين، ثمّ التفّت وابتعدت عنه دون أن تردّ.

قال: «انتظري هنا، سأذهب وأجلب العربة».

قعدت فوق صخرة على جانب الطريق، والأمطار ما زالت تبلل شعرها وعنقها، ولم تلبث أن خَدِرت أصابعها من البرد. لكنها ظلت حيث كانت، بردانة ونعسانة وجائعة ودائخة. وأخيرًا سمعت صوت صرير العربة في الأثير الليلي الهادئ، ورأت أباها دانيًا مرة أخرى، والحصان مشدودًا إلى العربة.

قال لها: «يمكنك الجلوس في العربة إن شئت».

لكنها آثرت المشي.

ساقَ الحصان على طول الطريق الحادّ المتعرّج أعلى الجبل؛ ومشت الفتاة متعثّرة من خلفه. كلّما ارتقيَا صعودًا، اشتدّ المطر؛ وبحلول الوقت الذي بلغا فيه قمّة الممر الجبلي كان المطر ينهمر بغزارة منتظمة، وكان قد بلل الفتاة حتى الجلد منذ وقت طويل. انثال الماء من شعرها على ظهرها وصدرها. ثمّ تذكرت فجأة المنديل الذي تطلعت إليه زمنًا طويلًا، المنديل الذي تاقَ كبراء العالم لمساعدتها في شرائه. أين كان منديل آستا سوليليا الصغير؟ لقد ضاع. ولكن لا يهم. كان الأمر سواء بالنسبة لها. لا شيء يهمّ. انزلقت في الطريق الموحل، وعندما نهضت على قدميها، كان ثوبها ملطّخًا وممزقًا.

قالَ أبوها: «سأريح الحصان على القمة هنا، ويفضّل أن ننهي ما يجب أن نأكله».

اختفى محيط أمس العظيم بالكامل في سحابة حزينة متجهمة من الضباب والأمطار في الأسفل، وما عاد بالإمكان رؤية شيء من سفح الجبل والسهل بمدينته الكبيرة. ومن أمامهما امتدت البراري ورَبَت في المطر، وأُحتجِبت عن العين. وبدت طريق العودة إلى المنزل والمسافة التي يتعين قطعها باردتين ولا نهاية لهما، وفكرت الفتاة في اغتمام بكل ذلك الوقت الرتيب غير المتناهي الذي كان ينتظرهما.

قعدا على حجر رطب على شفير الوادي. وجلسَ أبوها موليًا ظهره لها، وكيس الطعام بين ركبتيه. أعطاها من فوق كتفه شريحة من الخبز الجاف، وقطعة من السمك؛ بقايا الطعام الذي رُزِمَ صباح أمس. ولكن مع أنها كانت تتضوّر جوعًا قبل بضع دقائق، أحسّت بأنها ليس لديها شهية على الإطلاق الآن، وبأن المطر جعلَ هذا الفُتات القاسي أقل إغراء من أي وقت آخر، ولذا راحت تزدردُ كل لقمة بمشقّة وتقزّز. كان أبوها صامتًا. قعدا ظهرًا الظهر، بينما كان وقع المطر على الصخور من حولهما مكفهرًّا كئيبًا. كان الأكل مُغثيًا، ذلك أنها بعد بضع قضمات اضطرت للنهوض؛ مَشت بضع خطوات إلى الأمام، وقد جاشت نفسها وتهيّأت للقيء. استفرغت اللقيمات التي تمكنت من ابتلاعها، وما زالت تتهوّع إلى أن قاءت قليلًا من العصارة الصفراء.

ثمَّ هَلّت الأرضُ اليَباب.

***

32. طغيان بني البشر

كان الصيف الذي تلا غير مسبوق في ناحية واحدة من نواحيه؛ إذ كانت أول مرة يستأجرُ فيها بيارتور صاحب البيت الصيفيّ يدًا عاملة. وسرعان ما أصبح هذا الحدث البارز تاريخًا مرجعيًا في تاريخ البيت الصيفي، فأي شيء حدثَ سابقًا كان قد وقعَ كذا وكذا قبل الصيف الذي استأجرتُ فيه العجوز السافلة فريثا، وأي شيء حدثَ لاحقًا كانَ كيت وكيت بعد الصيف الذي أتت فيه العجوز فريثا، عليها اللعنة!

ومن تكون فريثا؟

كان السبب وراء حضورها التالي: أما وأنه كانت في المزرعة آنئذ بقرة، فقد استلزم زيادة الأيدي العاملة لِحَشّ العشب الإضافي. ومثلما كان دأب قوم روثسميري وإمعانهم في فرضِ البقرة على بيارتور، كانَ كذلك الإصرار من ذات الجهة التي ألقت آنئذ بعامل إضافي على فلاح البيت الصيفي؛ وإن تمّ ذلك طبعًا بعد إدلاء الأخير بملاحظاته المعتادة حول الشخصيات الأسبق. ثمّ أتت العاملة.

بالطبع كان بالإمكان الاعتماد على الوكيل، الذي امتلك حِسًّا يكفي رعيّة بحالها، في مهمة اختيار شخص يتناسب مع محفظة نقود بيارتور، وهكذا وقع اختياره على عجوز تَعِسة ضئيلة القدّ حدباء، تبيّن أنها امرأة تعيش على معونات أبناء الأبرشية منذ أعوام وأعوام، وكانت علاوة على ذلك ذات لسانٍ بذيء تُطلِقهُ في السُّباب واللعنات، لدرجة أنّه لا أحد كان بوسعه احتمالها لوقتٍ يطول. لم يُعرف عنها قطّ العيش وفق علاقة مُسالمة مع رؤسائها، ولطالما ادّخرت سوء المعاملة الأشدّ سُمّية لمُستخدميها الحاليين. بما أنهم كانوا عادة من الفلاحين، كان لديها مسوّغ كافٍ للانتقاد؛ وكانت تفكّر بصوتٍ عالٍ. كانت تعاني من حالة صحيّة حرجة، وما لم تُزوّد بكميات من الدواء بانتظام لإبقائها على ما يُرام؛ فسوفَ يتحتم أخذها إلى الفراش وملازمتها له. كان الدواء رفاهيتها، وشكلًا معيّنًا من أشكال الترف وتدليل النفس. في البداية كان يتوفر لها هذا الدواء من قبل الطبيب فينسن، وتُقيّد قيمته على حساب الأبرشية، ولكن حانَ وقتٌ استشعر فيه الوكيل أنه ينبغي عليه التدخّل؛ فقد كانت هذه الفواتير المستمرة تُسهِمُ في إهلاك دافعي الضرائب؛ لذا ولأنه خبير في صَنعة الدواء؛ وخاصة عندما كان الفقراء هم المعنيين، شرعَ يحضّر لها الدواء بنفسه. هذه المستحضرات الدوائية، على الرغم من كونها قويّة لدرجة سامّة، فإنها لم تَظهر في فاتورة قطّ، ومع أنه قلّما سلّمها لأصحابها من دون تعليقات مشحونة بالامتعاض والتردّد، فإنه كان كريمًا للغاية بالمعيار بمجرد أن بدأ، ليس أقل من عبوة سعتها ثلاثة جِل[1] في المرة الواحدة، وأحيانًا عبوتين اثنتين. لم تجرِ العادة أن يُدفع لها أية أجور إلا

1- جِل: مقياس حجم سعته حوالي ثمن الليتر.

في ذروة الصيف، ولكن هذا الصيف نسّقَ الوكيل بأن يكون لبيارتور خَيار في نوعية خدماتها، ويجب أن يَدفع لها بضع كرونات أسبوعيًا، نصفها من الصوف. فلقد آمنت بالقدّيس بطرس[1]، وَدَعَتهُ دونما انقطاع.

إلى هذه المزرعة الصغيرة، التي كان لدى نزلائها على ما يبدو القليل ليقولوه بعضهم لبعض، وخاصّة في العلن، أتت العجوز فريثا بمنزلة عنصر جديد. كان من عادة بيارتور مخاطبة زوجته من على الأرضية المعبّدة في الخارج، أو أن ينادي عليها من على عتبة الباب، أو أن يتحدث من حيث لا يتجلّى كما لو أنه يخاطب الكون بأكمله، وكان الأمر دائمًا موضع شكّ فيما إن كانت تسمعه أصلًا من الدور العلويّ. وكان معظم كلامه عمومًا ملاحظات حول الطقس، أو تعليقات على العمل في المزرعة وأوامر غير مباشرة متعلقة بالموضوع ذاته. كانت مواضيعهما المطروحة محايدة بامتياز، ولا فرق إن أجابت عليها أم لم تُجِب. وكان الشقيقان الأكبران يتلاكمان خلسة، ولكن إن رآهما والدهما ضربهما، أحيانًا بالأداة التي أسعفه الحظ أن كانت بمتناول يده. «هيلغي يا شقيّ، دع الصبي وشأنه»، كان هيلغي هو الملام دومًا، وغُفْيندور هو الصبي. وأما الجدّة فقد كانت تجلسُ متأرجحة إلى الأمام والخلف، وتتمتمُ بأشياء بينها وبين نفسها. وكانت عينا آستا سوليليا الناضجتان الفضوليتان تحملقان في الجدار؛ أو في السماء. هي التي عاشت وملء ضلوعها الرغبات والأمنيات لا بدّ أن تختلي مع أفكارها، كمثل بيارتور، الذي ينظمُ أبيات الشعر دون علم أحد، ومن ثم يفاجئ الجميع حين يلقيها على الزائرين.

وما بينَ عشيّة وضحاها اجتاحَ طوفان كلام المرأة البائسة المُعدمة الذي

1- بطرس القديس: (القديس بيتر) بطرس أو سمعان بطرس الذي أطلق عليه المسيح اسم الصخرة، أحد التلاميذ الاثني عشر ويحتلّ مكانة بارزة في أناجيل العهد الجديد وسفر أعمال الرسل. حسب الرواية الرسميّة فهو ابن يوحنا أبي يونا ومن قرية بيت صيدا في شمال الجليل قرب بحيرة طبرية، وهو شقيق أندراوس أحد التلاميذ الاثني عشر أيضًا. نال بطرس تبجيلاً في كنائس متعددة ويعتبر أول باباوات الكنيسة الكاثوليكية، بحسب تقليد مختلف الكنائس يعتقد بأنه قتل صلبًا بيد السلطات الرومانية.

لا يقاوم الدّار ذات الاستقلالية العظيمة، حيث كل فرد فيها مُتّكل على نفسه. قدِمت عبر المستنقعات وهي تتحدّث وصرّتها على ظهرها، وما فتئت تتكلم النهار بطوله دونما توقف إلى أن أمست في الفراش متجردة من ملابسها، وظلّت تحكي بجانب الجدة ونوني الصغير. كان كلامها يشلشل من خلال الأيام مثل دلْفٍ لا شيء يوقفه. كانت تحكي مع نفسها بينما تجرف القشّ في المرج وتجمعه معًا، والصِّبية يقتربون منها خفية ويسترقون السّمع؛ كانت تتناول شؤون البلدة، والزراعة، ومسائل خاصة، وتستعلم عن الأبوّة والزنا، وانتقدت أيضًا المزارعين ملّاك الأراضي وعابت عليهم تجويعهم أغنامهم، ونعتت الرعية المحترمة بالسرّاقين، وتهجّمت على الوكيل، والقسّ، وحتّى العمدة، وشتمت السلطات في مكانٍ لا يرى الآخرون فيه سوى المستنقعات الرطبة، وكانت دومًا على حقّ ومنتصرة في مزاعمها لأن خصومها كانوا على بعد عدة أميال. كانت تطلقُ العنان لوابلٍ من الشتائم واللعنات، مُتشكّية في المقام الأول مما أسمتهُ طُغيان البشرية المُشين. كان استبداد بني البشر هذا مثل شوكة في حلقها، ذلك أنه بغض النظر عما إذا كانت تحدثُ نفسها، أم الآخرين، أم الكلبة، أم الأغنام التي صدفَ أن عبرت العشب المجزوز، أو إن كانت تحاورُ طيور الجو الغرّيدة المجهولة، كانت كل أحاديثها، في النوم واليقظة، متمحورة حول هذا المحور الوحيد. عاشت في ثورة مستمرة ويائسة تمامًا ضدّ هذا الظّلمِ البغيض، من أجل ذلك كانت في عينيها على الدوام نظرة نزقة عتيّة انتقامية؛ نظرة تذكّرُ بعيون حيوان شرير ولكنه غامض غير معهود، كان قد رآه الواحد في منامه؛ لا هيئة له وإنما مرعب في قُربه. أدارت الجدّة ظهرها المنحني للعاصفة المتوالية وانكفأت أعمقَ فأعمق في الصمت المعتّق لذاتها السرية. ووجدت الأم أماكن مناسبة لإقحام كلمات مقتضبة بصوت متعاطف. كان هيلغي يضيّق عينيه مع ابتسامة خبيثة، وفي بعض الأحيان كان يخفي تنّورتها التحتية في الليل، أو يدسُّ الحصى في عصيدتها. وبيارتور الذي كان هو نفسه المتلقي للتهكّم وللكثير من التعليقات اللاذعة المهذارة، ما كان ليُقلل من هيبتهِ ويردُّ على شمطاء مِكثار لعينة كهذه، لذا كان وجههُ كلّه ازدراء كلما مرّ بجوارها، وقد تأسّى غُفيندور بأبيه في هذا التصرف كما في الأشياء الأخرى. ولكن

نوني الصغير أصغى بعينين واسعتين إلى كل ما قالته، محاولًا إيجاد شيء من الترابط والمعنى فيه. وغالبًا ما كان يقفُ قبالتها مباشرة، كيما يتسنى له تفحّص طريقة عمل أعضاء النطق لديها على نحو أفضل، وليس من دون الإعجاب بذلاقة لسانها، وَثراء مفرداتها. كانت حينما تتحدث إليه لا تميّز بينه وبين أي شخص بالغ، ولا تعدّل كلامها ولا تحوّلُ الموضوع إلى آخر يناسبه؛ كانت محاورتها تُنزِلهُ منزلة الرجل.

«وفي يوم من الأيام، في عاصفة ثلجية قويّة في منتصف الشتاء، جلست ملكة بجوار نافذة قصرها، وكانت منهمكة في الخياطة»؛ كان ذلك قبيل ليلة واحدة من حصاد القشّ، وكانت آستا جالسة على الأرضية المرصوفة، تراقبُ باحة المنزل وتقرأ كتابها. قرأته كاملًا خارج البيت، وبعد أن انتهت منه بعد منتصف الليل بقليل، عادت إلى البداية مباشرة. حين أتمت قراءته للمرة الثانية كانت الشمس تبزغ. ولوقتٍ طويل جلست محدّقة في جهة الجنوب عبر المروج، ثمّ سرحت بعيدًا في الكتاب في ذهنها. مرّة بعد مرة مشت على خطى بياض الثلج عبر الجبال السبعة، وعثرت على مأوى لها في بيت الأقزام بعد أن أنقذها طاهٍ. وأخيرًا بعدما تعرّضت لجميع شرور العالم، أتى الأمير الوسيم وأخذها إلى مملكته في تابوت من الزجاج. كان تعاطفها مع بياض الثلج الصغير عميقًا للغاية، في الفرح والألم، في السّراء والضراء، حتى اشتدّ وجيب قلبها وراح صدرها يعلو ويهبط، واغرورقت عيناها بالدموع؛ بيد أنها لم تكن المشاعر المريرة المسحوقة لمن عانى من أذية البشر، وإنما مشاعر شخص يعيش ويموت عن طيب خاطر من أجل الخير الكائن في الحياة. كانت الحكاية الخيالية نابضة بالحياة، حيث إنها رأت الأمير حيًّا يُرزق من خلال دموعها. ورأت نفسها ممددة في تابوت زجاجي، ورجال الملك يحملونها، وتعثّرها، وخروج التفاحة من حلقها؛ واستيقظت، ونظرا بعضهما إلى بعض، وحيّا أحدهما الآخر، وكان ذلك كما لو أنهما يعرفان بعضهما بعضًا منذ الأزل، ثمّ جعلها ملكته، بعد كل ما عانته منذ يوم ولادتها. كانت هذه أول مرة تُفتَتنُ فيها روحها بقوّةِ الشِّعر التي تعرض لنا قَدَر الإنسان بمنتهى الصدق، وبمنتهى التّحنان والتعاطف، وبكل الحبّ لكل ما هو خيّر، بحيث نصير نحن أنفسنا أشخاصًا أفضل، ونتفهّم

الحياة تفهّمًا أكثر اكتمالًا من ذي قبل، ويصبح لدينا الأمل والثقة على الدوام بأن الخير من الممكن دومًا أن يسود حياة الإنسان.

لم يتخلّ بيارتور عن نهجِ العامل المستقلّ، لا بل ما زال يصحو قبل طلوع الفجر، مثلما فعلَ في صيفِهِ الأول. ولحقت به فورًا عامِلتاه الراشدتان، فينا وفريثا، اللتان عملتا بدأب في الصباح على معدة خاوية. فعلت المرأة العجوز ما في وسعها لإذكاء النار، ثم أيقظت الأطفال، الذين كان مسموحًا لهم بالنوم حتى موعد تسخين القهوة. وَجَدت الجدة أن مهمة إيقاظهم في الصيف صعبة كما في الشتاء؛ لم تشهد لهم مثيلًا قطّ! كانت حينما لا يجيبونَ على ديباجاتها، تحاول جرجرتهم من الفراش بكل ما أوتيت من قوة، إلا أن الأمر كان أشبه بشدّ شريط مطاطي؛ حينما تُفلِتُ قبضتها الضعيفة يصبحون أبعد مما سبق؛ وجفونهم ثقيلة مثل الحُزن. حتى حينما يفلحون أخيرًا في التزحف خارج الفراش، وبينما هم منشغلون في سحب جواربهم، كانت أجفانهم ترتخي من جديد، فيفقدون توازنهم ويستلقون إلى الوراء على عرض السرير. وغالبًا ما تعيّن على المرأة العجوز لطم وجوههم بمنشفة صحون مبللة، قبل أن يتمكنوا من فتح تلك الأجفان الغريبة. كانت في كل صباح تقرر مجدّدًا أن لا رجاء منهم أبدًا!

وعندما ينهضون على أقدامهم أخيرًا؛ غالبًا ما كانوا يشعرون بالغثيان الشديد فما يستطيعون ابتلاع القهوة، ولا ازدراد شريحة من الخبز، إذ لم يكن الطعام لذيذًا بالنسبة لهم قبل أن يعملوا لساعة أو نحو ذلك. كانوا يسيرون إلى المستنقعات تباعًا حاملين معهم بعض القهوة في قنّينة للكبار، غير متّزنين على أقدامهم مثل خراف دائخة قد نوقشَ أمرها نقاشًا مستفيضًا؛ كانت أقدامهم ما تزال نائمة، مع وخزات في مفاصل رُكَبهم، شيءٌ أشبه بالدبابيس والإبر، وأجسادهم هَيمانة إلى مزيدٍ من الراحة. كم كان جميلًا الهبوط بين الروابي والأكمات. ما من أحد يمنعهم من السقوط، ولم يكن مهمًّا إن تُرِكوا، أم اضطروا على الفور لاستجماع قوتهم من أجل بذل الجهد اللازم للنهوض، كانت السّقطة مغرية للغاية؛ لحظة في أحضان الراحة الهنيئة. تعبوا تعبًا شديدًا حتى تفصّدت حبات العرق الباردة من جباههم، وفي بعض الأوقات كانوا يقفون في المستنقعات ويميلون إلى الأمام ويحاولون التقيؤ،

بينما يزداد عرقهم برودة، مياه جليدية على جباههم وأفوادهم في منتصف الصيف. القهوة التي أتت ما عادت مستساغة، وإنما شديدة البرودة باهتة في النهاية، وقد ملأ أفواههم سائل غير مألوف. في كثير من الأحيان كان لديهم ألم في الأسنان في الصباح ويمتدُّ طويلًا إلى النهار، أحيانًا اليوم بِطولِهِ، وكان من المذهل عدد الأنواع المختلفة من الطعوم الكريهة التي يشعرون بها في أفواههم.

زوِّدَ كلٌّ من الولدين الأكبرين بمنجل، ولكن كان على نوني الصغير المساعدة بالتجريف، بما يتيح للمرأتين مواصلة عملهما بالمِحَشّة. كان يوم عمل على الأطفال من ست عشرة ساعة، يتوقفون فيها مرتين، واحدة لتناول الوجبة، والثانية لاحتساء القهوة، مع بضع دقائق للنوم تحت السماوات الواسعة في منتصف النهار. عندما تكون السماء صافية يهفو العقل إلى أهداف بعيدة، ويجدُ الراحة في الأمل بأن السنوات القادمة سوفَ تهِبُ بطريقة ما حياة أكثر حرية وأحوالًا أفضل؛ إنها أحلام تعززها أشعة الشمس، التي لطالما كانت عنوان النبالة بالنسبة إلى العبد. ولكن في هذا الصيف، لسوء الحظّ، كانت المرات التي أمكنَ فيها لروّاد الأحلام النهارية العاملين بالمُشط والمنجل من زيارة أراضي الرغبة قليلة في الواقع، فقد حدثَ أن كان هذا الصيف صيفًا مَطيرًا، وما كان لأحد يعمل مبتلًا حتى الجلد في أراض مستنقعية أن يكون قابلًا لنسيان الواقع الآنيّ. لم يكن لدى هؤلاء الأطفال سوى القليل لارتدائه من أجل المطر كما هو الحال معهم من أجل أيام الآحاد، امتلكوا على أقصى تقدير سترة خفيفة رثّة من قماش السكريم، وسروالًا قطنيًا رقيقًا؛ إذ لا يمكن في هذه الظروف الصعبة تحمل نفقات نسج صوفك أو حياكته إلا إذا كان للملابس الداخلية الأكثر ضرورة. كان لدى بيارتور سترة جلدية بلا أكمام اعتاد استخدامها في المناسبات الرسمية مثل اجتماع الرّعاة، وسَوق الماشية في الخريف؛ وكانت الرداء الوحيد المضاد للمطر في المزرعة الجدير بهذا الاسم الكريم، ومع أنه لم يلبسها من أجل العمل أبدًا، بما أنها كانت رمز استقلاليته؛ إلّا أنه أعطاها لآستا سوليليا في بعض المرات حينما تبدّى أنّ الجو سيكون ماطرًا طوال النهار. وكانت آستا سوليليا تتناولها منه دون أن ترفع رأسها، ولا شيء أكثر. ومن الغرابة

بمكان أن كان لدى فريثا العجوز عباءة قديمة سميكة بيتية النَّسج، على الرغم من أنها عاشت على معونات الأبرشية، وكانت تمتلك أيضًا تنورة فضفاضة من قماش الأشرعة. انصبّ مطر هذا الصيف القاسي غزيرًا فوقَ عمال المروج الثلاثة الصغار غير المحميين، وفوق المرأة التي تمضي في كل شتاء ستة عشر أسبوعًا في السرير، وبلل المطر كل خيط من أسمالهم وثيابهم البالية، وأحالَ أغطية رؤوسهم إلى كتلٍ لا شكل لها مشبّعة بالماء، وتدفّق على رقابهم ووجوههم في سواقٍ مصبوغة بالألوان من قبعاتهم. فاضَ على ظهورهم، وصدورهم. هكذا وقفوا في البركِ والمستنقعات، في الماء وفي الوحول، ومن فوقهم الغيوم المحتشدة لا نهاية لها، ومن دونِ المناجل يصفّر العشب الرطيب صفيرًا كئيبًا موحشًا. باتَ المنجل أثقل فأثقل، والساعات أبت أن تمرّ، وبدا أن الساعات ملتصقة بهم بلزوجةٍ مثل ثيابهم المبلولة؛ إنه منتصف الصيف، الطيور صامتة ما خلا الطيطوي، بينما كان ينزلقُ في الأرجاء بنشاط، راحَ ينشدُ شذرات من حكايته المدهشة السرمدية، هِي، هِي، هِي، هِي؛ تلك الطيور المحظوظة مخلوقة بطريقة بحيث لا يعلق الماء على ريشها الناعم السميك. تاه صوت حديث العجوز فريثا في هذا المطر الغزير، ولساعات طويلة لم يسمع الأطفال أي علامة على الحياة بخلاف قرقرة بطونهم، ذلك أنهم لم يكونوا فقط مبتلين بالكامل ومنهكين بلا حدّ، كانوا أيضًا جياعًا، وبلا آمال مطمئنة حولَ إمكانية المشاركة مع الجان.

جبّار هو طغيان بني البشر.

«لا يهمّ كثيرًا إذا ما قتلني، ذلك الشيطان، فالله يخبرك وأي شخص آخر بأنه محكوم عليّ بالفشل سلفًا، ومُستعبدة حتى الممات مائة مرة، وأعيش على إغاثات الأبرشية. لكني لم أبلغ من رداءة الحال مبلغًا لا أملك فيه ما يصدّ عني البَلل، على الرغم من الاحتيال والاستبداد والجريمة. وتذكّر كلامي هذا جيّدًا، يا غلام، وانظر إن لم يخلع الحياة من لُبّ أمك المسكينة من قبل أن يمنحها الربّ صيفًا آخر. ذلك النخّاس اللعين!».

كان ذلك منطوقها. ولا يمكن الإنكار أنه حتى في عزّ الصيف غالبًا ما تكون أمهم بعيدة عن العمل بسبب المرض، وأما بالنسبة إلى الأطفال، فقد امتزجت مفرزات أنوفهم الخضراء مع حبال الماء المنسكبة من وجوههم.

«لكني لا ألوم سوى نفسي على أن سمحتُ لذلك الوكيل الزَّنيم بالإلقاء بي صيفًا بعد صيف إلى هؤلاء الفلاحين القميئين. إنهم الجماعة الأشد بخلا وتقتيرًا الذين لم ترَ عينك مثيلًا لهم في حياتك كلها؛ فقهوتكَ لا لون لها، يومٌ يروح ويوم يجيء، أحياء أو موتى، ولا ينزل في مريئك إلا السمك المملح، هذا في حال لم يكن طعامك سجقهم البائت الذي يحرّق جوفكَ كما النيران المشتعلة بمذاقه الحامز الفاسد. وأما عن مضغة من اللحم في أيام الآحاد، يا يسوع، فَذِكر ذلك وحده جريمة لا تُغتفر».

طغيان البشرية؛ كان مثل تساقط قطرات الماء اللحوح على حجرٍ، وتجويفها له شيئًا فشيئًا، وقد استمرّ هذا التنقيط؛ اسّاقطَ بعناد، اسّاقطَ بلا توقف على أرواح الأطفال.

«كما لو أنني لا أعرف أولاء الحثالة الملاعين أصحاب الحيازات الصغيرة بعد أن أمضيتُ عقودًا خادمة لديهم وخانعة على أعتابهم! ليست أول مرة أراهم فيها وهم يضحّون بالفطِنة القليلة التي يملكونها من أجل أغنامهم التي يأكلها الدود. يمكنك دومًا معرفة الشيطان من ظِلفه! وكلهم يريدون أن يصبحوا أغنياء أيضًا؛ إنهم لا يفتقرون إلى الطموح فيما بينهم. وهم لا يقتاتون من معونات الأبرشية، كلا ليسوا كذلك، فهم أناس مستقلّون. ولكن هل لي أن أسأل أين هي استقلاليتهم؟ أليس معظمها في أحشاء خرافهم حينما يتضورون جوعًا حتى الموت في الربيع من كل سنة؟ هل تساوي حريتهم قيمة الديدان التي تتغذى منذ الأزل وإلى الأبد على أكياس الجلد والعظام التي يسمونها خرافهم؟ ثم دعني أرى مملكتهم، يا غلام، في القهوة عديمة اللون والسمك العَطِن الرائحة في هذا العالم أو الآخر. لا عجب إذن أن يمتصّ كولمكيلي نخاع عفاريتهم الصغار المثيرين للرثاء والذين من المفترض أنهم أجدر بإعالتهم والنهوض بأعبائهم!»

كان الأطفال قد استمعوا إلى هذا الهذر المتواصل، الذي كان للبعض لغوًا ممتعًا لولا أنه مع الوقت ومع التكرار المستمرّ يمكن أن يصبح مصدر إزعاج لا يُطاق؛ وكما قال أبوهم: الأواني الفارغة والفقراء المعدِمون يُحدِثون ضجّة أكبر. كان الأمر أشبه بحالة جديدة من الأعصاب أو علّة قلبية في المزرعة الصغيرة، مزمور من نوع جديد، وقد يعمد أحدهم، مُتجرِّدًا من

أي احترام، إلى التكشير في وجهها في أيام الآحاد. كان الأطفال مُتكيّفين منذ الولادة مع سُلطة الأب المطلقة. وفي الوقت ذاته كان صاحب اليد العُليا في المزرعة ومصدر كل ما يحدث فيها. كان في هذا العالم الصغير مصيرًا ثابتًا غير قابل للتبدّل، وأصل كل بأساء ومحنة، فلا هم بقادرين على السيطرة عليها ولا اتهامه بالمسؤولية، لأن دِكتاتوريته حظرَت عليهم جميع الانتقادات، وجعلَت من المقاومة المدبرة لضوابطه أمرًا غير جائز. ومع ذلك تغذّت في نفوس الصبية منذ مدّة طويلة مشاعر غامضة، وبغضاء صامتة تجاه الأب، كان من أهم أسبابها مرض أمهم الشتائي الطويل، واستمرارها في ولادة الأطفال الذين، باللاشعور ودون أدنى شرارة من تمرد، كانوا يربطونهم به دومًا. ولكن حينما لم يشهد الأسبوع الأخير من حزيران نهاية لهطول الأمطار، حان وقتٌ لم تعد تُعتبر فيه ثرثرة فريثا تخاريفَ بغيضة لعجوز مُعدمة موتورة، ففي النهاية كان في كلامها شيء ينحاز لهم ضد زخات المطر الباردة، ضد الضرب المتواصل للأمطار التي ألصقت الثياب البالية الخشنة بالجلد الفَتيّ الصغير، وطغت على كل مشاعر السعادة في الروح؛ ضدّ الكدّ المضني المتلف لست عشرة ساعة من العمل يوميًا. كان شيئًا جديدًا عليهم السماع عن بؤسهم وعبوديتهم من مصدر ملموس. ففي الثرثرة غير المبالية لدى هذه المرأة العجوز البائسة يكمن الجدال الدائر ضدّ نير الحياة الساحق؛ الذي في هذا المظهر الغريب قد وحّد القوى مع عقلهم الباطن، إلى أن كانت مرحلة لم يعد فيها هيلغي يجد متعة في إغاظتها أو رسم تعابير مستفزة على وجهه أمامها في أيام الآحاد، لا بل على العكس راح يُبدي عجلة أقل من السابق في تلبية أوامر أبيه، وأخذ يكشّرُ في وجهه كثيرًا كما كان يفعل من ورائه سابقًا. وصرّحَ نوني الصغير في المرج بأن ماما مريضة في سريرها اليوم لأن والدنا لن يعطيها معطفًا.

ثمّ ألم يكن من واحة في صحراء الأيام؟ بلى، كان للأيام واحاتها؛ إنها وجبات الطعام، السمك المملح، والعصيدة، والسُّجق الحامض الأسود. في هذه تكمن بهجة الحياة الوحيدة، بما أن البقرة لم تضع عجلها بعد. كان شعاع الأمل الأول في اليوم هو اللحظة التي ينادي فيها والدهم على آستا سوليليا، ويملي عليها الأمر الذي طالَ انتظاره، بأن تذهب إلى البيت وتسلق

السمك. في البداية كان الأمر يبدو كأن تلك اللحظة لن تصل مهما انتظروا، ولكن في النهاية اكتشف الأولاد أنهم كلّما نظروا إلى والدهم بغرض التذكير والرجاء، طال تأجيله في المناداة على آستا سوليليا.

وأخيرًا سوف تهرعُ آستا سوليليا إلى البيت لسلق السمك. ما كانت خطواتها بتلك الخفّة قط، فهي أيضًا انتظرت طويلًا الوقت الذي يجب أن يظنه أبوها مناسبًا للإشارة لها بأنها يمكنها وضع مدمّتها جانبًا في خضم الصراع اليومي القاسي، وأن تذهب إلى المنزل وتشتغل بالنار. بمجرد أن تبدأ النار بالاشتعال كانت تخلع عنها ملابسها المبللة وتجففها بجانب الموقد. وأحيانًا كانت تكسر قطعة صغيرة من السكر كي تحلّي فمها، وحينما تفرغ من وضع السمك في المقلاة، كانت تجلس قبالة النار وتتدفأ.

كانت جدتها المنشغلة بصنانيرها تهمهم التراتيل دون أن ترفع بصرها إلى الأعلى. لكن الفتاة لم تكن تعرف الله ولا حالته النفسية، وإنما كانت تستمتعُ إلى أقصى درجة بهذه الدقائق تحت سقف الكوخ؛ بأمانها وراحة بالها وبالهدوء الناعم العذب الذي يتّصفُ به منتصف الصيف؛ فالتعب والإعياء، والعشب الثقيل، والبرك الموحلة، جميعها نُسيت في اللحظة الراهنة. شيئًا فشيئًا بدأت العصيدة تبقبق وتغلي، وأخذت رائحة السمك المغلي تملأ المكان؛ ومن أمامها توهجت نيران البيت. بيد أن الفِتيان في المرج كفّوا عن الاشتغال بجزّ العشب الآن، فقد فقدوا كل الطاقة في عضلاتهم منذ مدة طويلة، كانوا ببساطة يضربون العشب النديّ بمناجلهم ببلاهة متواصلة، ولا يثيرون سوى دفقة مياه، نتفة من العشب، أو على الأكثر بضع قشّات متكسرة؛ لا بدّ أن آستا سوليليا استسلمت للنوم ونسيت أمرنا جميعًا. كان المشهد بهيجًا حينما تمكنوا أخيرًا من رؤية آستا سوليليا محملة بعلبة الطعام عند تخوم الحقل.

كان الغداء في المروج متعة خالصة، وكان أكثر حلاوة في الانتظار والترقب. سمك القدّ المملح، وخبز الجاودار، والعصيدة الرقيقة، والسجق الحامض الأسود، والمطر الذي ينهمر مدرارًا على هذه الأطباق أثناء انهماكهم في طعامهم. لا يمكن العثور على قائمة طعام ثابتة لا تتغير كهاته في أي مكان. كانت تنبعث من السمك رائحة نفّاذة في المطر، تعلقُ في

الأنوف لساعات بعد ذلك، وفي الملابس وعلى الأيدي. ولا يكون الأولاد أشدّ اشتهاء لمزيد من الطعام كَساعةٍ ينهضون عن وجبتهم تحتَ كومة القشّ.

مهما كانت حالة الطقس، كان بيارتور يغادر الآخرين دومًا عند انتهاء الوجبة. كان يستلقي على حزمة من القشّ واضعًا قبّعته على وجهه، ويغطُّ في النوم فورًا. وما إن يتحرّك في نومه؛ كان يتدحرجُ عن كومة القشّ، وأحيانًا في البركة، فَيصحو في الحال، مما يسرّه ويرضيه كثيرًا. كان يعتقدُ أنه من الضروري للمرء أن ينام أربع دقائق خلال النهار، ولطالما تعكّر مزاجه إن نامَ لوقتٍ أطول. حينما فرغت المرأتان من الطعام مكثتا تحت كومة القشّ التماسًا للدفء. ثم بدأ الارتعاش لأنهما كانتا جالستين على العشب المبتل، وكانتا في ظرفٍ كهذا تنهضان للبحث عن المِدمّة بأيدٍ خدِرة، وبوخزٍ في الأرجل لكأنّه وخز الدبابيس والإبر. فإذا ما لمحهما بيارتور تشتكيان من الرطوبة، كانَ يردُّ عليهما بأن البائسين الأشقياء وحدهم من يعبأون بالرطوبة أو الجفاف. لم يستطع الاستيعاب لم ولدَ هؤلاء الناس. وكانَ سيقول: «لا معنى لرغبتك بأن تكون جافًّا سوى الغرابة بعينها بل الشذوذ. عشتُ مبلّلا أكثر من نصف حياتي، وما كان الأمر في نظري أشد سوءًا من سواه!»

***

33. أحداث كبيرة

ذاتَ أصيل، عندما أوشكَ جَزّ المروج على الانتهاء تقريبًا، والغسقُ قد شارفَ على الهبوط، إذ كانت ساعات النهار تزداد قِصرًا بسرعة، من عساهم رأوا سوى رجل على صهوة حصانه يسلكُ دربًا غير مطروقة، نزولًا من قمة المرج إلى الأرض المنبسطة على الجانب الآخر من البحيرة؟ كانت رحلة استكشافية من نوع معين، بدا جليًّا أنه غريب عن المنطقة، ربما كان مختل العقل! أم كان مُطارَدا من العدالة؟ ماذا حسبَ هذا الشخص أنه فاعل وهو يتجول هكذا بأراضي الغير؟ لربما كانَ عفريتًا. لم يكن بأي حال شخصًا طبيعيًا. حتى بيارتور توقف عن العمل، واتّكأ على ساعد منجله ليراقب الرجل الذي استخفّ كثيرًا بالمسار المطروق. ما الذي كان يبحث عنه

الرجل؟ استكشفَ السهول بالقرب من البحيرة، واستطلعَ البحيرة نفسها، والجوّ كذلك. أتراه عالمًا أجنبيًا؟ أم سمسار أراضٍ من الجنوب؟ أكان يخمّن شيئًا ما؟ على أراضي الآخرين؟ في نهاية المطاف نزع الأمتعة عن ظهر الحصان، وتركهُ طليقًا في المستنقعات على الجانب الآخر من البحيرة، يا له من شيطان! ثم حامَ حول البحيرة، ومشى باتجاههم. وقفوا يراقبونه، غَافلين عن عملهم. أحجية. لغز غامض. هل من شيء أكثر إثارة من غريب في قلب الطبيعة؟ حتى إن الأولاد نَسوا تعبهم الشديد بعد خمس عشرة ساعة من العمل.

لم يبد عليه أنه يشبه الآخرين كثيرًا. كان حاسر الرأس مرتديًا قميصًا بني اللون وكنزة صوفية بلا أكمام؛ ملوّحًا بالشمس، ممشوقًا نحيلًا، حليق الذقن حديثًا، في قوامه انحناءة بسيطة، مشرق الجبين مليح القسمات وله عينان حصيفتان مثلَ أجنبي، «طاب مساؤكم».

«طاب مساؤك»، ردّ عليه الآخرون بحذر.

حينما وصلَ إليهم الزائر قال مستفسرًا: «أهل البيت الصيفي؟»

«يعتمد ذلك كله على كيفية نظرتك إليه»، ردّ بيارتور بنزق على نحو ما، وقد تقدّم بضعَ خطوات والمنجل في يده على أهبة الاستعداد. «لطالما عرفتُ أنها أرضي على أية حال، كائنًا من كنت. ولا أزعمُ أنني أدرك المغزى من التنقيب في أراضي الغير».

لم يبسط الزائر كفّه لتأدية التحية المألوفة، لكنه توقف على بعد عدة خطوات، ورنّق النظر من حوله في الغسق، ثمّ أخرجَ غليونًا وتبغًا بعناية. علّق بالقول: «واد جميل. كأجمل شيء رأيته على الإطلاق».

قال بيارتور: «جميل. هممم، ذلك يتوقف على ما إذا كان الكلأ سيذهب هباء منثورًا أم لا. أنت لم تُرسَل إلى هنا من قِبل أحد، أليس كذلك؟»

«أُرسِلت؟»، لا، لم يُرسَل الزائر من قبل أي أحد، لقد فكر فقط بما أن المكان لطيف للغاية؛ قد يُسمح له بضرب خيمة هناك، على الجانب الآخر من البحيرة.

قال بيارتور: «هذه الأرض.. إن هذه الأرض تصلُ جنوبًا إلى البراري،

وإلى قمم الجبال في الشمال، وإلى منتصف التلال غربًا، وتمتدُّ شرقًا إلى منحدرات مولْدبريكور. كل الأراضي المنخفضة ملكي».

أدلى الزائر ملاحظة مبهمة مفادها أن كل هذه الأرض المنخفضة تشكّلُ حقلًا واحدًا للصيد.

أجاب بيارتور: «سواء أكانت تشكل حقلًا واحدًا للصيد أم لا، فهي ما تزال ملكيتي، وليس بوسعي القول إنه يهمني أن أرى الغرباء يتطفّلون عليها. مضت ثلاثة عشر عامًا منذ أن بدأت بتعمير هذه المزرعة والنهوض بها من الأنقاض، أما بالنسبة لقوم روثسميري فأنا لا أدين لهم ببنسٍ واحد. عندما باشرتُ عملي هنا قيلَ لي إنه يوجد شبح في هذا المكان، لكني لا أخشى الأشباح ولا البشر. كما أنني أملكُ خرافًا جيدة».

تفهّم الزائر وأومأ برأسه: «مشروع خاص».

قال بيارتور: «لا أعلم، وأنا لا أُشِيدُ بنفسي أيضًا. كل ما أعرفه هو أنني لستُ أسوأ حالًا من معظم الأفراد أصحاب المشاريع الخاصة هنا في الجوار، وإن كان لدي من شيء أفضل، ولو كان بسيطًا، فهو أنه ليس عندي عادة توريط نفسي بالديون، الأمر الذي حققته بسهولة من خلال السعي دومًا لإبعاد الطفيليات عن قَشّي، إلى أن فُرِضت عليّ بقرة من جهة معينة في الشتاء المنصرم. ولكنني بطبيعة الحال، لا أعتبر نفسي متساويًا مع الناس الكبار أبدًا، سوى أنني أشعر بأني رجل كبير ومهم بما يكفي من أجل نفسي، ولذلك أرفض السماح بالتدخل في شؤوني، ولا رغبة عندي بالشراكة مع أي أحد».

لكن الزائر بادرَ للتفسير بأنه لم يقصد بالمشاريع الخاصة أن يصبح الجميع بالضرورة من المزارعين الملّاك أو من الأثرياء؛ وعلى أية حال فهو لم يكن مولعًا كثيرًا بالتعامل مع المزارعين الكبار، بل كان يحبّذ أن تنتقل نُحاسيّاته[1] إلى أصحاب الحيازات الصغيرة.

ووثبَ إلى ذهن بيارتور استنتاج مفاجئ بأنه لا بد أن يكون شخصًا ذا طرائق عمل جديدة في رأسه، وصرّح بأنه كان عازمًا على ألا يتعامل مع أحد سوى التاجر الذي يتعامل معه عادة؛ «لقد عملَ الرجل العجوز بتفانٍ وبما

1- قطع نقدية نحاسية.

يملي عليه ضميره ووجدانه أكثر من كثيرين غيره في زمانه، ومع أن جون صاحب مزرعة ميري أسس جمعياته التعاونية ووعدَ بزيادة عندما تتحسن الأحوال، فأنا أتوقع أن الزيادة التي يتحدث عنها ستكون أكثر سماكة من حيث ينهشها هو؛ مع ثلاثمائة وخمسين حَمَلًا له في كل خريف، وزيادة هزيلة لنا نحن الرجال مقابل ثلاثين أو أربعين حَمَلًا فقط للبيع. ثمّ ماذا عن الأعوام العجاف؟ إذا ما انهار كل شيء، فنحن من سيتعيّن عليهم دفع الخسائر، على ما أتوقع؛ وليس خسائرنا نحن فقط، وإنما خسائرهم أيضًا، اللعنة عليهم. لذا، فيما يتعلق بشؤون العمل، يا صديقي»...

بيد أن الزائر سارع ليؤكد لبيارتور بأنه لم يخطر بباله قطّ بأن يقوّض العلاقات الطيبة ما بين المزارع وتاجره، فهو مجرد شاب أحبّ أن يجرب البندقية أو الصنارة والخيط أثناء تواجده في الريف أوان الصيف. «وكما سمعت فأنت لا تولي اهتمامًا كبيرًا للصيد، ففكرت إن كنتَ ستأذن لي بتجربة الصيد، لقاء مقابل مادي»..

قال بيارتور: «لا يوجد ما يستحق اصطياده هنا. الناس العقلاء لا يهدرون وقتهم على القمامة التي ستجدها في البحيرة، وعلى كل حال، فإن أي شيء اصطِيدَ في المستنقعات هنا، سواء كان سمكًا أم دواجن، ما كان لِيفيد أغنامي كثيرًا. قد تكون لأغنام الملّاك الكبار، أو حتى لأبنائهم؛ لديك هناك ابن الوكيل في يوتيروتسميري، على سبيل المثال، ذاك الذي يدعونه الآن أمين السر، والذي نُشِّئ على الديانة الفارسية، وعُيّنَ رئيسًا للجمعية التي أسسها والده؛ هذا الشخص لا يستطيع رؤية كائن يتنفس دون الرغبة بتفجير دماغه، تبًّا له!»

زعقت فريثا من المرج، طائشة حاقدة كدأبها: «استمعوا لهم وهم يذمّونَ كُبراءهم! هؤلاء المجانين المتعجرفون قاطنو المستنقعات الذين يسفّهون الجميع، أقارب وأغرابًا، أحياء وأمواتًا؛ وكل شيء ما عدا القمل الذي يزحف على جلودهم العفِنة».

نفثَ الزائر الدخان في اتجاهها، دون أن يتضح له تمامًا الموقف الذي يتعين عليه اتخاذه في هذا الصدد.

فقال بيارتور درءًا لسوء الفهم، وبطريقة يعتبر فيها الزائر نفسه مخيّرًا في تجديد طلبه: «أوه، لا تشغل بالك بما ينبثق من هناك. إنها واحدة من المعدمين الأشقياء، وهذه ليست أول مرة ينفلتُ فيها لسانها منها».

وأجاب المزارع بعد لأي: «حسنًا، إن لم تكن مضاربًا ولا مخمّنًا للأراضي، ولم تكن مُرسَلًا من قِبل أي شركة، فلا أرى ما يمنعك من نصبِ خيمة بضع ليال، شريطة ألا تسحق العشب كثيرًا من أجلي. لكنني لن أتهاون مع المُضارِبين على أرضي. ولا أعضاء من أي شركة أو جميعة حتى، لأنني أعتبر الجمعيات دمارًا للفرد. وأرضي ليست للبيع، مهما كانت الأحوال، وبالأخص لقاء المال. أنا وعائلتي نعيش هنا من أجل أغنامنا بهدوء وسلام، ولدينا ما يكفينا من كل شيء، طالما أن أغنامنا لديها ما يكفيها من كل شيء. فقط لو كفّت الأمطار عن الهطول لبعض الوقت».

تجلّت الأمور أخيرًا وسويّت الأرض للمفاوضات حينما تمكن الغريب من إقناع بيارتور بأنه ليس مُضاربًا عقاريًا، ولا هو عضو في أي جمعية. كان مجرّد جنوبيّ عادي فقط، من نوعية الأشخاص الذين تراهم في الصيف غالبًا، والذين يأتون لقضاء عطلة في مُعتزَلٍ صافٍ نظيف. أخبره أحدهم أن في المكان تسلية جيدة، لكنه كان قد نسي اسمَ مُخبِره. وقال إنه راغب بالمكوث في الجوار بضعة أيام، وبأن لا شيء ينقصه، إذ كان مزودًا بكل احتياجاته. وبرهانًا على ذلك أخرجَ محفظة جيب منتفخة بالأوراق النقدية، نقود حقيقية في رزمة، بدت صنوَ أوراق البنك، هؤلاء الجنوبيون؛ قالت جماعة إنهم يستخدمون هذه الأشياء في المخبز. على الرغم من ازدراء بيارتور للمال وترفّعه عنه، فإن منظرها جعله غير راغبٍ بإبداء انطباع معيّن. حتى إنه عرض على الرجل مساعدته في خيمته، لكن الزائر رفضَ مع الشكر، وقال إنه بِوسعه تدبّر أمره بنفسه. وغادرهم بتحيات الوداع الروتينية مثلما كان ترحابه، تاركًا خلفه سحابة من الدخان الأزرق تلاشت فوق المرج في هدوء المساء، وأريجًا رائعًا. لم يتحدث إلا قليلًا، وكان غير مبالٍ في سلامه، وقد عرض كثيرًا من المال فما كان من نهاية ولا حدّ لما يمكن أن ينسجه الخيال حولَ رجل كهذا، رجل عظيم، رجل بهيّ ظريف، المدى نفسه في رجلٍ واحد، إنه أمير الحكايا الخيالية؛ وها هو الآن أصبح جارًا لآل البيت

الصيفي. كانت مجاورته مثل نكهة الأحد في منتصف الأسبوع، مثل الوقفة في منتصف المطر الغزير، مثلَ اللون في المساحات الباهتة، خامة للتفكير في غياب العواطف والفتور، تحفيزًا في خضمّ خمول الحياة. تلكَ الليلة حلمت آستا سوليليا تكرارًا بالتفاحة الملفوظة من فمها.

ومن ثمّ في اليوم التالي وضعت البقرة عجلها، وهكذا في غضون أربع وعشرين ساعة حلّ حدثان عظيمان في المروج.كانت خلال الأسابيع الأخيرة القليلة متثاقلة على نحو مريع، يا للمسكينة، وَفِينا الأخبر بحال كهذا، لم تكن لتثق بأحد سواها لإخراجها صباحًا أو إعادتها إلى البيت ليلًا. لا أحد سواها كان مُتمهّلًا معها بما يكفي، وما من أحد كان لديه الصبر لانتظارها ريثما تقتنع بالخروج من باب الزريبة الضيق، حيثُ تحتك خاصرتها بِعارضة الباب من كلا الجانبين. وما كان ليخطر لِفِينا ضربَ هذه الدابة وهي مغمورة بالوحل حتى عراقيبها أمام الكوخ. كانت بوكولا تقفُ بعد كل خطوة تخطوها، تنخر وتدمدم، وتلقي نظرة على المرأة من حين إلى آخر، تهزّ أذنيها، ثم تخور. كانتا تفترقان عادة عند الغور بجانب الجدول، وكانت المرأة تربتُ على لَغدها وتُحدّثها؛ عما قريب سوف يكون لدينا حمل صغير له جبهة مستديرة وأرجل واهنة ضعيفة، طويلة ومتخبّطة، وآمل أن يسير كل شيء على ما يرام معنا، وسوف تريني الليلة، وسوف نهوّن على أنفسنا ونفكر بعضنا ببعض. ثم كانت فينا تسلك درب الإياب إلى المنزل بعد ذلك، وتشرع البقرة تقضم العشب بصوت عالٍ، وفتحات أنفها تتغضّن بمتعة الرفاهية، ذلك أن العشب على امتداد الجداول كان مزدهرًا ريّانًا.

ولكن مساء ذلك اليوم لم تجد فِينا البقرة في مراعيها المعتادة، فاستهجنت الأمر، لأن البقرة في الآونة الأخيرة أظهرت رغبة أقل في التجوّل كونها على وشك الولادة، وكانت قد تخلت منذ وقت طويل عن محاولاتها في الهروب. تنقّلت من تلة إلى تلة، أبعدَ فأبعد على امتداد الجبل، مناديةً: «بوكولا، يا عزيزتي بوكولا». في خاتمة المطاف ردت عليها البقرة من غورٍ صغير معشوشب بمحاذاة الوادي، وأتبعت الردّ بخوارٍ آخر. ثم عثرت عليها. لقد وضعت وليدها. عرفت المرأة في التوّ.

وجدت فِينا صعوبة غير اعتيادية في التعامل معها؛ لم تكن لتسير وكان لا

بدّ من قيادتها، استمرت في الدوران حول العجل، وراحت تتشمّمه وتلعقه وتخور خوارًا رقيقًا لدى كل خطوة، غير مبالية بمنح اهتمامها لأي شيء آخر. لكن فِينا تفهّمت وضعها. حينما يصير لدى البقرة عجلًا، فإن العجل يحول بين الأم وبين الشيء الذي كانت مولعة به. لقد هيمنت على سلوكها عدوانية الأمومة السعيدة، ومَحَت سماته الأكثر تهذيبًا وتحضّرًا. كان الأمر كما لو أن جميع أحلام هذا الكائن قد أضحت حقيقة في يوم واحد، وكما لو أنها لا تبتغي المزيد؛ أمسى تعاطف الآخرين محض خرافة! وبذلك انقضى وقت طويل جدًّا قبل أن تتمكن المرأة من إقناعها بالعودة إلى البيت.

كان الجميع ما خلا بيارتور ينتظرون في الخارج للترحيب بالبقرة وعجلها الوليد. وكان الأطفال قد غادروا الحقلَ بغية لقائهما وتفحّص العجل المرقّط بالرمادي. كانت ملامح سلالة «بقرة البحر» بادية عليه. كان ثورًا صغيرًا، حَيّتهُ آستا سوليليا بقبلة، وراقبت البقرة القبلة وهي تخورُ خوارًا خافتًا. لم تُقدِم الكلبة على عضّ عراقيب البقرة الليلة؛ حتى إنها لم تنبح في وجه البقرة تلك الليلة، وببلاهتها المعتادة، ومع ذيلها المتأرجح بين قائمتيها تراجعت بتأدب مسافة معينة كلما أبدت البقرة علائمَ على مهاجمتها، ونظرت إلى القربى الجديدة بإجلال من على بعد بضع ياردات. كما جرجرت الجدة العجوز نفسها بجانب الجدار مستعينة بعصا مِدمّة مكسورة للتربيت على العجل والبقرة. حتى العجوز فريثا كانت أرق قلبًا من المعتاد. وقالت: «يا حضرة القديس بطرس! باركَ الربُّ المخلوق المسكين».

حينذاك خرجَ بيارتور من المنزل.

وهتفَ: «إذن، يجدر بنا أن نجهزّ السكين».

فصاحت العجوز فريثا: «كما توقعت، المجرم الملعون!»

ولكن زوجة بيارتور اكتفت بالنظر إليه نظرة مستعطِفة، وقالت شبه هامسة بينما عبرت بجانبه على الأرضية المرصوفة: «بيارتور يا عزيزي!». وبذلك قُيّدت البقرة في حظيرتها والعجل بجوارها.

كان ذلك في وقت لاحق من ذلك المساء، حينما أوى الجميع إلى فراشهم، وكانت النساء يناقشن باستمتاع شديد وغبطة أمر الولادة والعجل،

حينما كان الجميع سعداء للغاية بهذا الفرد الجديد في المزرعة، وممتنين أن سارت الأمور على ما يرام مع البقرة، وحينما كان كل شخص يشارك البقرة سعادتها بكل ألفة وحميمية، حينها استأنف بيارتور من حيث توقف سابقًا: «أسوأ ما في الأمر هو أنه لن يتوفر لي الوقت لأخذ الذبيحة إلى المضيق البحري فِيورد قبل نهاية الأسبوع القادم».

في اليوم التالي كان هناك حليب البقرة الأول (اللبأ) بعد الولادة.

كانت الأيام التي تلت أيامًا عظيمة. كان على المرء فقط أن ينظر إلى الكائن الذي كان حينًا من الدهر وحيدًا، وأن يرى إلى خطوتها كم غدت رشيقة حينما تهرول خارج فناء المنزل والعجل إلى جانبها يشبُّ وَيثِبُ دائخًا؛ لم تعد بحاجة إلى سَلوة ولا إلى مداعبات. وكانت تحاول ترك الأطفال من ورائها بأسرع ما تستطيع، ذلك أنهم أُغرِموا بالثور الصغير ولم يتسنّ لهم ملاطفته ومداعبته. بِلا رعاية في حياتها الجديدة؛ راحت تتجول برفقة ابنها بعيدًا بمحاذاة الجبل، حتى كادت تنسى ذاتها، مُعتبرة نفسها مستقلة للغاية عن الجنس البشري، هي مَن كانت مِن قبلُ تجدُ في حماية المرأة ملاذًا لها؛ لا مزيد من التعامل اليوم مع بني البشر! عندما أتت فِينا مساء لاصطحابها إلى المنزل حدقت فيها كأنها تتساءل وما شأنها هي؟ لكن فينا لم تتأذَّ من هذا التصرف إطلاقًا، لأنها عرفت ماذا يعني فرح الأمومة، وكيفَ يسمو بالكائن بفخرٍ فوقَ بني الإنسان، ويجعل من أي شيء آخر أقلّ أهمية. بلى لقد تفهمت فرحها على أتمّ وجه، فعلى الرغم من أن الحليب الذي قدمته البقرة في المساءات كان شحيحًا، فإنها لم تجرؤ على إخبار أحد بذلك خشية أن يأمر بيارتور بزربِ العجلِ خلال النهار؛ لم تحتمل التفكير بأن تفقد البقرة فرحتها باصطحاب ابنها معها إلى المراعي هذه الأيام؛ هي التي كانت وحيدة لفترة طويلة.

صباح الأحد. كانوا عادة ما يمكثون لوقت متأخر في الفراش في أيام الآحاد، أحيانًا يتأخرون في النهوض حتى الساعة التاسعة، جميعهم ما عدا بيارتور، الذي كانت جميع أيامه متشابهة، والذي عادة ما كان يُسمعُ وهو يعبث بشيء أو بآخر في صباح الأحد؛ يصلح المعدات أو شيئًا من هذا القبيل، المسكين. في هذا الصباح بالتحديد أبرزَ رأسه عبر فتحة الباب

الأرضي وسأل إن كان الجميع هنا قد وافته المنية، أم ماذا؟ فتساءلت العجوز فريثا بلهجة حادة غاضبة: «وهل لجبروت بني الإنسان أن ينتشر على أيام الآحاد أيضًا؟»

جهرَ بالقول: «أمعاء العجل ملقاة على الأرضية المرصوفة. أتركُ لكم حرية القرار ما إذا كنتم ستدعونها تنغسل في وحول هذه الأمطار الغزيرة اللعينة. أنا ذاهب بالذبيحة إلى فِيورد».

ذلك اليوم لم تثق الزوجة في البيت الصيفي بنفسها لمبارحة سريرها؛ استلقت إزاء الجدار، ولم تكن تشعر بأنها في حال جيدة. نهضت العجوز هالبيرا، والعجوز فريثا، والأولاد. حينما نزلوا إلى الدور السفلي كانت أحشاء العجل المتصاعد منها البخار مرمية في جرنٍ على الأرضية المرصوفة، وأما بيارتور فكان قد قطعَ شوطًا في طريقه؛ طاويًا المستنقعات على صهوة العجوز بيلسي، حاملًا معه لحم العجل الوليد لفرن التاجر.

«بهذه الطريقة سوف يقتلكم كلكم!» قالت العجوز فريثا، ثمّ أفسحت السبيل لسيلٍ عرمرمٍ من الشتائم الفظيعة بينما تولّت مهمة الأحشاء؛ ووقفَ الأطفال على الرصيف واضعين أصابعهم في أفواههم، وراقبوا وأصغوا.

إنه عجل بوكولا الصغير، جميعهم تذكروا النظرة في عينيه؛ لأنه كان لديه نظرة في عينيه تشبه نظرة المواليد الآخرين. كان قد نظرَ إلى نوني، ونظرَ إلى هيلغي، لقد نظرَ إليهم جميعًا. فقط البارحة كان يقفزُ في أرجاء الحقل، رافعًا قائمتيه الأماميتين معًا في الهواء، من ثم قائمتيه الخلفيتين معًا، في لعبة صغيرة خاصة به. وكانت قمة رأسه مدورة كالكرة؛ فالعجول الصغيرة تبدو هكذا دومًا. قالت آستا سوليليا إنه كان قريبًا جدًّا من كونهِ ثلاثيّ الألوان. وَقد جابَ المنحدرات على امتداد الجبل، أيضًا، وتشمّم رائحة الزعتر البري؛ وحينما أمطرت احتمى بأمه. كان ذلك أحدًا مظلمًا وحزينًا. خارت البقرة في حظيرتها دونما انقطاع، وعندما حاولوا سياقتها إلى المرعى رجعت في الحال؛ وهي تخورُ في الحقل؛ ووقفت على عتبة الباب ثم خارت أثناء دخولها. ردَّد الجبل صيحاتها، ومن عينيها الكبيرتين انهمرت دموعٌ هائلة، الأبقارُ أيضًا تبكي.

لأسبوع كامل لم تجرؤ فِينا على النظر إلى البقرة، وَتعيّن على العجوز

فريثا حَلْبها. ما من شيء بهذه القسوة والتجبّر كما الإنسان. أنّى لنا التبرير لأنفسنا، وبالأخص تجاه الحيوانات البكماء المغفلة من حولنا؟ ولكن دائمًا ما تكون الأيام الأولى هي الأسوأ، وفي التفكير بأن الوقت يجلو كلّ شيءٍ راحةٌ وسلوانٌ، وعلى هذا المقياس؛ الجريمة والحزن ليسا أقلّ شأنًا من الحبّ.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

34. الزائر

مطرٌ سَحوح.

كانت آستا سوليليا مشغولة بالطهي، وقد خلعت ثيابها المبللة، ونشرتها على الفرن الساخن لتجفّ. كان البخار يتصاعد من الملابس، وكانت تقطّع السمك لطهيها في المقلاة، حافية القدمين، في تنورة تحتية عتيقة بالية، وكانت الفقاقيع على وشك الارتفاع حينما تناهى إلى سمعها فجأة صوت حركة في الأسفل؛ فُتِح الباب، وكانَ في الحظائر وقعُ خطوات، ثمّ صَرّ السلّم، وارتفعت درفة الباب الأرضي، ثمّ وثبَ رجلٌ إلى أرض الغرفة وأجال النظر من حوله. كان معتمرًا قبعة مضادة للماء ذات رفرف عريض يغطي الرقبة. وكان معطفه طويلًا ومتينًا، مزوّدًا بالياقات، والرفارف والطيات، والعُرى والأزرار؛ وبذلكَ كانَ المطر الذي يمكنه اختراق معطف كهذا غير موجود. كان مرتديًا حذاء عاليًا مضادًّا للمطر. وكانت عيناه الزرقاوان صافيتين ودودتين. قال: صباح الخير. لم تجرؤ على قول صباح الخير؛ لم تقل شيئًا. في العادة كانت تمدّ يدها بصمت حينما يبتدرها أحد بالتحيّة، لكن الرجل لم يمدّ يده مصافحًا. كانت قد اعتقدت أنه بدا نحيفًا للغاية وأصغر سنًّا في المرة الأولى التي رأته فيها، لكنه في هذه الغرفة الصغيرة وفي معطفه الهائل اتّخذ أبعادًا ضخمة لدرجة أنها خشيت أن يخبط رأسه بالسقف. المرأة العجوز لم تردّ تحيّته هي الأخرى، لكنها توقفت عن الحياكة وَأنعَمت فيهِ النظر ثمّ أنعَمتهُ. كان معه مجموعة من السلمون المرقط مشدودة في سلك، وسلك آخر من الإوز القطبي.

قال: «لحم طازج، على سبيل التغيير!»

والتمعت الأسنان البيضاء في الوجه الرجولي الأسمر مثلَ الحُليّ؛ وكان في صوته رنين غير مألوف.

قالت الجدّة بصوتها الأبحّ الضعيف: «سولّا، ألن تقدّمي للرجل مقعدًا؟»

لكن آستا سوليليا لم تمتلك الجسارة لمنح الرجل مقعدًا، كانت تنورتها التحتية مريعة للغاية، وذراعاها طويلتين فارعتين، ويداها كبيرتين جسيمتين، وقدماها ملطختين بالوحل. لم تتجرأ على النظر إليه، ولا حتى إلى اللون المبهج للسمك الذي كان يحمله. وكانت الأخلاق من الثياب التي كانت ترتديها مرمية هناك على الفرن مقابلَ وجههِ، متبخّرة من الرطوبة. لقد حسِبَ بالطبع أن ليس لديهم ما يأكلونه. ما الذي ينبغي عليها قوله؟ ما كان سيقول الأب؟

قال الزائر وهو يلتقط سكينًا: «لنلقِ بعض السمك في المقلاة». كانت لديه يدان نحليتان سمراوان خاليتان من الأتربة والوسخ، خاليتان من الجلد المتقشّر والمتقرن، ومن الخدوش، يدان تَلاعَبتا بالسكين ببراعة. استخرج أحشاء السمك بسرعة، واضعًا الفضلات في الصحن والسمك في المقلاة. رفعَ السمك عاليًا كيما تتفحصه الجدّة، وقال: «سمكٌ من الدرجة الأولى، وزنه ثلاثة أرطال على الأقل، سمك فاخر».

قالت هالبيرا: «هيه، إنه بالغ الجودة لمن لديه القدرة على تناوله، ربما. ولكن اللحم بالنسبة لإنسان ما قد يكون سمًّا لإنسان آخر. واللحم الطازج، والمياه العذبة على وجه الخصوص، لَهُما أكثر مما أحتمل. وما كان بمقدوري يومًا تناول الأشياء الطازجة بأي كيفية. فهي تتسبب لي بطفح جلدي. إنها ثقيلة للغاية».

واعتقد أن كلامها بعيد عن الصحة؛ وأضاف، «اللحوم الطازجة مفيدة لك».

سألت مستفسرة: «من أين عساه ينحدر الرجل النبيل؟»

أجاب: «من الجنوب».

«نعم، نعم، يا للرجل المسكين»، قالتها بكل التعاطف الذي يُظهره كبار السن عادة لكل شخص يعيش في طرفٍ ناء من البلاد.

واكتفت آستا سوليليا بالوقوف والتحديق فيه بينما كان يُعدّ السمك. كانت يداه ماهرتين جدًّا، الحركات قليلة وواثقة، بدا العمل كأنه يقوم بنفسه، وبتلك السرعة المذهلة. وكانت على شفتيه ابتسامة مع أنه لم يكن يبتسم، كان من الجميل النظر إليه، كان رجلًا حسن المحيّا. ملأ المقلاة حتى الحافة؛ كان رجلًا عظيمًا -يجب ألا يعرف أحد بما حلمت منذ قدوم هذا الرجل إلى الوادي- ثمّ طلبَ الملح.

انتشرت في الغرفة رائحة سلق السّمك الطازج. أخرجَ غليونه وكبسَ فيه التبغ إلى الأسفل قبل أن يشعله. كان للدخان رائحة إكليل المروج[1]، سوى أنها أكثر لذّة؛ في الرائحة الحلوة عالم آخر، وظلّ العطر من بعد أن غادر الزائر حيًّا يتحدث. قال: «يومًا طيّبا لكما»، ثم مضى.

وقد ذهب. أغلقَ الباب من خلفه. هرعت إلى النافذة، ولاحقته ببصرها وهو يجري في المطر المنهمر بمعطفه الهائل، وقلنسوته المطرية. المطر لا يضر شخصًا كهذا إلا بالقدر الضئيل، كم كانت خطوته رشيقة! شعرت الفتاة برأسها يدور دورانًا طفيفًا، وبقلبها يطرق ضلوعها. ظلت عند النافذة حتى زال الخفقان، وتشبّعت بالمطر. ثم تذكرت المرأة العجوز فجأة بأنها أرادت أن تسأله شيئًا ما، لأنها عرفت أنه من الجنوب، لكن وعيها مشوش جدًّا هذه الأيام حتى إنها بالكاد تتذكر أي شيء، عيب عليك يا سولا! لماذا لم تقدمي شيئًا من القهوة للرجل المسكين؟ لكن آستا سوليليا لم تسمع ما قالته، لأنها شعرت بأنها مثيرة للسخرية بذراعيها العاريتين، وبقدميها الحافيتين، بتنورتها التحتية العتيقة، وبساقيها الهزيلتين؛ إنها دميمة!

ذلك المساء، وإذ ألقى بيارتور نظرة عابرة مزدرية على الطيور التي تركها الزائر، قال: «إوز! الدواجن لا تُسمن ولا تُغني من جوع. عليه اللعنة من بين كلّ الناس على هدية كهذه!»

اقترحت زوجته: «يمكننا أن نجرب سلقها».

1- إكليل المروج: أو إكليل بوقيسي أو ملكة المروج، عشبة معمرة من الفصيلة الوردية، تكثر في المروج الرطبة والخنادق وعلى حافات الجداول، وتزهر في الصيف. موطنها الأصلي في معظم أنحاء أوروبا وغرب آسيا.

فقالت العجوز هاليرا: «لقد سمعتُ أنه من المفترض أن تأكل طبقة النبلاء لحم الطيور».

قال بيارتور هازئًا: «نعم، ويفترض أن يأكل الفرنسيون الضفادع»، ولم يذق الإوز قط. ومع هذا، فقد سامح الزائر على السمك والدواجن، وبعد الإفطار في صباح يوم الأحد التالي سُمِع يقول: «كما لو أنكم التقفتم الهدية من يد الغريب وشكرتموه مثل عصبة من المتسولين. ولكن أن يخطر على بالكم بأن ترسلوا للرجل قسطًا من اللبن في صبيحة يوم أحد لَهو بالطبع أعلى بكثير من مخيلتكم!»

وبالنتيجة أُرسِلت آستا سوليليا ونوني الصغير، فسلكا الطريق حول البحيرة مع شيء من اللبن في طست صغير. غسلت وجهها ويديها، ومشطت شعرها. كانتا عيناها، السوية، والأخرى الحولاء، واسعتين جدًّا، داكنتين جدًّا. ارتدت الحذاء المعمول من جلد الغنم، وثوب أمها الميتة. كانت قد غسلته بعد رحلتها إلى المدينة، وأصلحته من حيث تمزّق، لكن لونه باخَ وبهتَ جدًّا، وما عاد جميلًا؛ كان بالأحرى خرقة مزرية. لكن لحسن الحظ أنّ فرح الروح قد أزهر ازهرارًا خلال الأيام العشرة الأخيرة منذ أن وضعت البقرة عجلها، مثلما كان جليًّا على بشرتها.

مشيا عبر المستنقعات والدلو فيما بينهما. كانت آستا سوليليا متوترة للغاية لذا ظلت صامتة طوال الطريق. لمدة ثلاثة أيام حتى ذلك الوقت كان الطقس مقبولًا على فترات متقطعة، وعلى الرغم من أنها كانت فترات قصيرة جدًّا لكي تكون مفيدة، فإنها كانت كافية لترحيل معظم القشّ إلى المنزل. واليوم كانت الشمس ساطعة أيضًا، لكن عشب المستنقعات بدأ يصفرّ، واختفى اللون الأزرق الناعم الذي يمتاز به الربيع منذ مدة طويلة من أشعة الشمس. بدأت طيور الزقزاق تتجمع في أسراب، بينما ربضت طيور الشنقب على العشب في عزلة كئيبة، كأنها تتحسّر على كل ما يحدث. طارت من بين قدميها فجأة مع رفرفة مفاجئة بالأجنحة تثير الفزع؛ ولم يعد من أغنية الآن، فقط أغنية القلب.

لم يَأنسا أية حركة حول الخيمة، وبما أنهما لا فكرة لهما عن كيفية طرقِ

مسكن ليس له باب ولا عِضادة باب، وقفا في حيرة من أمرهما على بعد بضع ياردات. في الأخير استجمعا ما يكفي من الشجاعة للتلصص من تحت الحافة. حينئذ خرجَ الرجل من الكيس المبطن بالفرو، وزجَّ برأسه من غطاء الخيمة، ونظر إليهما بعينين مغمضتين ناعستين.

«أكنتما تبحثان عني؟»

«لا»، قالت آستا سوليليا، ووضعت الطست قدام الخيمة، ثم أمسكت بيد أخيها، ولاذت بالفرار.

فنادى عليهما: «هيه، مرحبًا، ماذا تريدان مني أن أفعل بهذا؟»

صاحَ نوني وقد أطلقَ ساقيه للريح: «هذا حليب».

صرخَ قائلًا: «قِفا!»، وحيث إنهما لم يتجرآ على فعل خلاف ذلك؛ توقفا ونظرا إليه من فوق كتفيهما، كما لو أنهما على أهبة الفرار من جديد إزاء أدنى حركة مريبة، مثل الغزلان الصغيرة.

هتفَ بهما بنبرة مشجّعة: «تعالا!»، لكنهما لم يتجاسرا على المجازفة، وتسمّرا ببساطة وراحا يراقبانه. رفعَ غطاء الطست، وتجرع رشفة صغيرة بحذر، ومسحَ فمه بظهر كفّه، وبصق.

قال: «سأعطيكما مقليّات».

حدّقا فيه قليلًا، ثم جلسا، كلاهما على نفس الرابية، غير عارفين ما تعنيه كلمة مقليات، لكن على استعداد لانتظار ما قد يظهر. شرع الزائر يخرجُ بعض الأغراض ويضعها قدّام الخيمة، حافي القدمين، في قميص وسروال، وفي الأثناء تَتَبعا كل حركة من حركاته بأعين مدهوشة.

نادى عليهما من غير أن يرفع بصره للأعلى: «لا يضير كما الاقتراب قليلًا».

بعد الانتظار لمدة أطول، اهتبلا الفرصة حين أدار ظهره لهما، واقتربا بضع ياردات خلسة. قال إنه بوسعهما الدخول إلى الخيمة إن أحبا، لذا لحقا به إلى الخيمة، أولًا الصبي، ثم الفتاة، ووقفا وظهراهما إلى عمود الخيمة. لم يسبق لهما خوض مثل هذه المغامرة من قبل؛ كانت الخيمة بأسرها عابقة برائحة التبغ، والفواكه، وزيت الشَّعر. رنّقت النظر في ذراعيه، كانتا بُنّيتين

كما القهوة المخلوطة بالقشدة، وراقبته وهو يشعل الموقد الزيتي، ويذوّب بعض الزبدة في المقلاة. كان لديه ثلاث بطات جاهزة للطبخ، وسرعان ما أُضيفت رائحة القلي إلى الروائح الأخرى.

سألهما دون النظر إلى أعلى: «ألا تعرفان أية ألعاب؟»

أجابا: «لا!»

قال: «لا؟ ولم لا؟»

أجابه نوني الصغير، دونما أن يشرح سيرورة فكرته: «علينا القيام بشيء على الدوام».

سأل الرجل: «لأجل ماذا؟»

لم يعرفا.

قال: «إن في لعب الألعاب متعة عظيمة»، بيد أنهما لم يعرفا لمن كان يشير بكلامه هذا؛ سواء أشار إليهما، أم إلى نفسه، أم إلى سكان الناحية. كانت وجنتا الفتاة تتحرقان خوفًا من أن ينظر إليها أو أن يوجه لها أي ملاحظة على نحو خاص.

ثم سأل: «لماذا لا تتصيدون بعض الطيور؟»

قال الصبي: «أبي لا يريدنا أن نفعل ذلك»، دون أن يتذكر أن أباه صرّح برأيه المدروس حول هذا الموضوع.

«ماذا فعلتم بالإوز الذي أعطيتكم إياه في ذلك اليوم؟»

«سلقناه».

«سلقتموه؟ كان عليكم قليه بالزبدة!»

«ليس لدينا أي زبدة».

«لم لا؟»

«أبي لا يريدنا أن نشتري ممخضة لبن».

فقال الرجل مستفسرًا: «ألا يريد والدكم أي شيء؟»

أجاب الصبي: «يريد أغنامًا».

في خاتمة المطاف نظرَ الزائر إلى الطفلين، وكان الأمر كما لو أنه أدرك

لأول مرة أن تلك محادثة، وأنها علاوة على ذلك مشتملة على شيء من المضمون الحقيقي. لقد فوجئ بالأحرى، وقال: «إذن هو يريد أغنامًا»، مع التشديد الثقيل على كلمة «أغنام»، كأنه غير قادر على استيعاب الكلمة في هذا السياق. في هذا الحين، قلَّب الطيور على الجانب الآخر، وتبين أن الجانب الذي كان في الأسفل صار بنيّ اللون، وبينما كان يقلّبها طشطشت الزبدة وطقطقت، وملأ الخيمة دخان كثيف. وقال الرجل محدثًا نفسه: «إذن هو يريد أغنامًا». هزّ رأسه، ولم يزل مع نفسه، ومع أنهما لم يفهما رفضه حقًّا، فإنهما شعرا بأنه لا بد من شيء غير صحيح تمامًا في الرغبة بالحصول على الخراف. وقرر نوني الصغير إخبار شقيقه هيلغي بأنه من المشكوك فيه ما إذا كان هذا الرجل العظيم يتفق تمامًا مع جميع آراء والدهم.

تفرّست فيه ككل، وفي حزامه، وفي أصابع قدميه، في قميصه المصنوع من قماش بني، المفتوح من عند الرقبة، لم تعرف له مثيلًا قط؛ إنه يفعل ما يشاء ولا ريب. كان منزله -كانت قد رأته بعين خيالها، جميلًا مثل الحلم، على طبق الكعك لدى أمها؛ لكن ذلك كان مستحيلًا. ولماذا كان مستحيلًا؟ لأنه كانت هنالك فتاة تقفُ قبالته. أما منزل هذا الرجل فكان واقفًا بمفرده في الغابة، مثل المنزل على الروزنامة البديعة التي داست عليها الخراف في الوحل حينما سقطت من الطابق العلوي منذ عامين- منتصبًا بمفرده في الغابة. لقد عاش هناك وحيدًا. كانت الغرف في بيته أكثر عددًا وأشد جمالًا حتى من تلك الغرف في قصر روثسميري؛ كان لديه أريكة أجمل حتى من أريكة بيت روثسميري؛ كانَ هو من كُتِبَ عنه في قصّة «بياض الثلج».

سألها: «ما اسمكِ؟»، فتوقف النبض بين جنباتها.

«آستا سوليليا»، انفلتت من بين شفتيها بصوت مغتمّ مكروب.

فسألها: «آستا ماذا؟»، بيد أنها لم تمتلك الشجاعة على النطق كرة أخرة.

قال نوني الصغير: «سوليليا».

قال: «يا للروعة!»، وراح يدقق فيها النظر كما لو أنه يتأكد من صحة ما قيل، بينما فكرت هي كم هو فظيع أن تكون تحت وطأة موقف عبثي كهذا! لكنه ابتسم في وجهها، وعذَرَها، وهدّأ من روعها، وكان في عينيه شيء

عذب جدًّا وحميم جدًّا، شيء دمث للغاية؛ وإنه لفي هذا تتوق الروح طويلًا أن ترتاح، منذ الأزل وإلى الأبد. وقد بَصرت ذلك لأول مرة في عينيه، وربما لم تره بعد ذلك قط، وجابهته وأدركته. قال الزائر: «الآن عرفت لماذا الوادي جميل إلى هذا الحدّ».

لم يكن لديها أدنى فكرة عما يجب أن تقول. الوادي جميل؟ لأسابيع تلت أَعملت فِكرها في الأمر. ماذا قصد؟ كثيرًا ما سمعت الناس تتحدث عن صوف جميل، وعن خيوط جميلة، وبالأكثر عن خراف جميلة؛ ولكن الوادي؟ فيم ذلك؟ وما كان الوادي سوى مستنقعات؛ مستنقعات مُشبعة بالماء، حيث يقف المرء مغمورًا حتى كاحليه بمياه البرك ما بين الأكمات والمستنقعات الأشد غورًا، وما الوادي سوى بحيرة راكدة حيث يعيش الجان البحري «الكالبي» بحسب مزاعم بعض الناس، ومزرعة صغيرة مُسيّجة فوق هضبة منخفضة، وجبل تُحيق به الصخور في أعلاه، وقليل من أشعة الشمس. طافت ببصرها في الوادي من حولها، نظرت إلى المستنقعات، حيث على امتداد الصيف شالت القشّ المشبع بالماء، مبتلّة بالكامل وتعيسة؛ وبدا كأن الأيام بلا أصباح ولا أمسية لترقبّها. والآن صار الوادي جميلًا!

الآن عرفتُ لماذا الوادي جميل جدًا. لماذا إذن؟ كلا، ليس لأنها تدعى آستا سوليليا. إن كان الوادي أخّاذًا جميلًا فذلك فقط لأن رجلًا بهيًّا جذابًا قد حطّ فيه!

واستمرت البطات بالأزيز.

اقترح عليهما: «لنذهب إلى الخارج». قعدوا على ضفة البحيرة. كانت الساعة حوالي الثالثة تقريبًا، وقد تخلل الوادي نسيم الصيف الدافئ. تسطّحَ على العشب ناظرًا نحو السماء، وحملقا به، وبأصابع قدميه.

وبينما هو يرنو إلى السماء سألهما: «هل تعرفان أي شيء؟»

فكان جوابهما أن لا!

«هل سبق أن رأيتما شبحًا؟»

«لا!»

وسأل الرجل: «هل من شيء يمكنكما القيام به؟»

عند هذه النقطة شعر الطفلان أنه ربما ليس من التهذيب في شيء الإجابة على كل أسئلته بالنفي، لذلك لم يُنكرا تمامًا أنهما يمكنهما فعل شيء ما. ما الذي بوسع آستا سوليليا القيام به؟ اعتصرت ذهنها بضع دقائق، لكنها اكتشفت أنها بصراحة قد نسيت كل ما يمكنها القيام به.

فقالت: «نوني يمكنه الغناء».

قال الرجل: «إذن، لنسمع غناءك».

ولكن يبدو أن الصبي نسي فجأة كيفية البدء في الغناء!

سألهما الرجل: «كم عدد أصابع قدمي؟»

«عشرة»، أجاب نوني الصغير من فوره، وسرعان ما ندمَ على إجابته المتعجلة، لأنه لم يكلف نفسه عدّها، ومن عساه يضمن بأن رجلًا عظيمًا كهذا ليس لديه إحدى عشرة إصبعًا؟ أدارت آستا سوليليا رأسها جانبًا، طيلة حياتها لم تسمع أحدًا يسأل سؤالًا مضحكًا كهذا، ولم تستطع كبح ابتسامتها على الرغم من محاولاتها الحثيثة. وحينما التفتت من جديد، رأت أن الرجل ينظر إليها نظرة مضحكة فما كان منها إلا أن ضحكت بصوت عالٍ. وخجلت من نفسها كثيرًا. لكن لم يكن الأمر بيدها.

ارتفع الرجل من العشب ليراقبها وهي تضحك، ثم قال بلهجة المنتصر: «آه، كنت أعرف!»

عادت إليها الحياة جميعًا مع الضحك، بنظرة الشقاوة في عينيها، استسلمت، واستحال الوجه وجه فتاة.

ثم كان عليه أن يتفقد البط من جديد. فاحت رائحة القلي إلى الخارج وانتشرت في كل الأرجاء حول الخيمة، وفاض فم الطفلين بالرضاب لدى تفكيرهما بملذّة تناول طعام ذي رائحة محببة كهذه. أحضر الرجل بعض العلب القصديرية المعبأة بالفواكه، ثم فتحها وأفرغها في عبوة، وكان منهمكًا بأطعمته اللذيذة لدرجة أنه لم يكن لديه وقت كاف للطفلين، وكانت آستا سوليليا غاضبة فجأة من أخيها الصغير نوني لتصرفه الغبي والمضجر. قالت له: «لماذا لم تتمكن من الغناء للرجل، أيها الأحمق، وقد سمحت لك بالقدوم معي؟» ولكن في تلك الليلة حينما كانت جالسة في الخارج

على الأرض المرصوفة بمفردها، لامت نفسها بشدّة لأنها لم تظهر الأشياء التي تتقن صنعها. فعلى سبيل المثال، لماذا لم تخبره بقصة «بياض الثلج»، التي كانت تحفظها عن ظهر قلب؟ «ذات مرة أثناء عاصفة ثلجية هائلة»، كانت على وشك البدء. لكن الحقيقة هي أنها شعرت بأنه علىّ الأرجح قد يُسيء فهم قصة كهذه. ومع ذلك، لم تستطع منع نفسها من التفكير بالأشياء التي لم تفعلها، وَأَسِفت على القصة التي لم تُروَ. لم تخبر أحدًا، قعدت فقط محدّقة نحو الخيمة الملتمعة في الغسق على ضفة البحيرة. ثم رأت، بقدر ما أسعفها النظر، رجلًا يمشي غربًا عبر المستنقعات، كما لو أنه في طريقه إلى روثسميري. لقد كان هو.

وحينما قرُبَ وقت النوم في البيت الصيفي، كان يسير غربًا عبر التلال. إلى أين يمكن أن يذهب في وقت متأخر من الليل؟ لم تلحظ ذلك من قبل، ولكن من المحتمل أنه يذهب إلى هناك كل ليلة من دون علمها. لكن ألم يقل إن الوادي جميل؟ ما الذي عناه؟ لا شيء؟ هل قال ذلك لمجرد التسلية، وهي التي كانت متأكدة من أنه عنى الكلمة؟ ثم إن كان الوادي جميلًا، فلماذا إذن يسير مبتعدًا عبر التلال؟ هبط الليل، وأمسى الطقس في غاية البرودة.

لم يروه لمدة يومين، ولكنها سمعته يطلق النار. ثم أتى. كان ذلك عند هبوط الليل مرة أخرى، وكانوا يتأهبون للنوم. لحسن الحظ أنها لم تكن قد خلعت تنورتها التحتية بعد. كان في غليونه ضوء حينما برز برأسه من درفة الباب الأرضي في العتمة وقال مساء الخير. أخرج من جيبه علبة انبعثَ منها الضوء، وكانت النساء واقفات بتنانيرهن التحتية. كان ينفثُ دخان غليونه بقوة؛ فعجّ المكان بِسحُب الدخان الشّذية على الفور.

قال: «سأرحل».

سأله بيارتور: «فيم العجلة؟ لطالما اعتقدت أن أسبوعًا أو اثنين زيادة لا يشكلان فارقًا لكم أنتم الجنوبيين. والمستنقعات مكان جيد مثل أي مكان آخر بالنسبة لك يا صديقي».

«نعم، أنت محق».

استأنف بيارتور بالقول: «لقد أعطيتَ الصغار بالأمس بعض البط للأكل».

قال الضيف: «آه، لا تستوجب الذِّكر».

أجاب بيارتور: «أنت محق تمامًا. إنه طعام مجاعات، لا لبّ له ولا مزِية، من ضمن الأشياء التي أكلتها الناس عقب ثوران البركان[1]. أعتقد أنك عانيت من الجوع نوعًا ما هناك في المستنقعات، ياللشاب المسكين، مثلما كان متوقعًا».

«لا، ازداد وزني».

قال بيارتور: «حسنًا، إننا نفضّل طعامنا مركّزًا أكثر؛ نحبه حامضًا ومالحًا. بالمناسبة، لديك دراية في أمور البناء على ما أتوقع. كنتُ أفكر بالبدء ببناء بيت لي، أرأيت».

هنا ما عادت العجوز فريثا قادرة على تمالك نفسها أكثر، فاعترضت الحديث قائلة: «أنت تبني؟ إيه، آن الآوان لكي تبني شيئًا من الفهم في جمجمتك السميكة. ويجدر بك أن تدهنها أيضًا. من الداخل ومن الخارج!»

نعم، كان قد قرر البناء، ولكن ربما من الحكمة أكثر ألا نتحدث بالمزيد حول الأمر على مسمعٍ من أولئك ناقصي العقل؛ العجائز المعدمين الحاقدين؛ الطفيليات التي تغتذي على المجتمع. ولكن مهما يحصل، فأنت مرحب بك هنا في أرضي في أي وقت، ليلًا أو نهارًا.

شكر الزائر بيارتور على حسن ضيافته، وقال إنه سيعود بكل تأكيد إلى هذا الوادي البهيّ. وأجابه بيارتور، كما في محادثتهما الأولى، بأن جَماله كله يتوقف على القشّ.

ثم هَمّ الزائر بالمصافحة مودِّعًا.

بدا أن المرأة العجوز تقاسي صعوبة في سحب يدها الواهنة من قبضته المودّعة. هي التي كانت قلما تكون راغبة بقول أي شيء لأي شخص، بدت على نحو مستغرب أنها تحاول إخراج شيء من مستراحِهِ في ذهنها؛ كان لديها سؤال صغير تود طرحه عليه. ماذا كان؟

«هل صحّ سمعي بالأمس، هل الرجل النبيل ينحدر من الجنوب؟»

1- إشارة إلى بركان لاكي التصدعي الشهير في جنوب آيسلندا الذي ثار ما بين عامي 1783 و1784 حيث اندلعت حمم بركانية استمرت ثمانية عشر شهرًا، وقد انبثقت منه مواد سامة –امتد تأثيرها على مستوى العالم– قتلت أكثر من خمسين في المائة من الحيوانات مما أدى إلى حصول مجاعة قضى فيها ما يقارب من ربع سكان الجزيرة.

لكي يعفي ضيفه من الإزعاج، أجابها بيارتور بصوت عالٍ: «نعم. بالطبع الرجل من الجنوب. لقد سمعناها جميعنا مائة مرة».

لكن المرأة العجوز قالت إنها ربما أخطأت السمع، فقد كانت حُطامًا باليًا تلك الأيام.

وأيّد بيارتور قولها: «أجل، إن حالتك تسوء يومًا بعد يوم، بإمكان الواحد ملاحظة ذلك».

«كنت أريد أن أسأل السيد الفاضل قبل رحيله، كوني نشأتُ في الجنوب، إذا ما اتّفق أن عرفتَ شيئًا عن أختي أو أنك رأيتها هناك مؤخرًا».

صاح بيارتور: «كلا، كلا، لا تكوني سخيفة إلى هذا الحد، لم يَرها قط».

فسألته العجوز فريثا: «كيف علمت ذلك بحق الشيطان؟»

إلا أن الزائر أراد أن يستفسر أكثر عن الأمر، وقال إنه ليس من المستبعد أن يكون قد رأى شقيقة المرأة العجوز، وسأل ما اسمها؟

سلّط مصباحه المحمول عليها، وحاولت هي أن تنظر إليه بعينين كليلتين رامشتين. كان اسم شقيقتها أودْرون.

«أودرون؟ هل بيتها في ريكياڤيك؟»

كلا، بيتها ليس في ريكياڤيك. لم يكن لديها بيت في أي مكان، في حياتها لم تمتلك بيتًا. «كانت خادمة في ميثالاند لزمن طويل؛ من هنا أتينا».

قاطعها بيارتور قائلًا: «تبًا! كيف تتوقعين منه أن يعرف أناسًا كهؤلاء؟ من عامة الناس!»

«آخر ما سمعته عنها أنها كانت تعمل في خدمة بعض الناس بالقرب من ڤيك في ميردال، وكانت طريحة الفراش بسبب كسرٍ في حوضها. طلبتْ من أحدهم أن يكتب رسالة لي. استلمتُها من ساعي البريد. مرّ أكثر من ثلاثين عامًا مذّاك. كُنا أختين».

صاح بيارتور: «تبًا، لا بد أنها ماتت منذ زمن بعيد».

زمجرت العجوز فريثا، مدافعة عنها: «عيبٌ عليك! نشكر الله أنك لا تحكم الرب والبشر!»

علّل الزائر عدم معرفته بأودرون بإعلامهم بأنه لم يذهب إلى ميثالاند قطّ.

قالت المرأة العجوز: «لقد ارتحلت عن ميثالاند منذ سنين طويلة. ولكنها ظلت في الجنوب».

رد الزائر: «نعم، نعم. هكذا إذن».

علقت المرأة العجوز: «الأخبار تستغرق وقتًا طويلًا كي تنتقل».

وافقَ الزائر على قولها: «نعم».

«لذا كنت أود أن أحمّلك سلامي لها إذا ما التقيتها صدفة، ورجاء أخبرها بأنني بخير والحمد لله، لكنني أتدهور سريعًا، ولستُ على خير ما يرام في النّفْس أو في البَدن، كما ترى. وقل لها إنني فقدتُ راغنار منذ ثلاثة عشر عامًا؛ وإن جميع الصبيان قد سافروا إلى أميركا منذ سنوات. وإنني أعيش الآن مع ابنتي. وهي متزوجة».

هتف بيارتور: «إنه يعرف ذلك».

صافح الزائر المرأة العجوز مودّعًا مرة ثانية، ووعدها بنقل هذه الأخبار إلى أودرون في الجنوب. ثم ألقى تحية الوداع على الآخرين. وودّع آستا سوليليا.

قال وهو يمرُّ بيده على خدّها كما لو أنها طفلة صغيرة: «آستا سوليليا! اسم جميل في وادٍ جميل. أنا متأكد بأني لن أنساه ما حييت».

ظلت متيقظة تدعو الله دون أن تعرف الله، ووعده يدور في ذهنها إلى ما لا نهاية، «لن أنساه ما حييت». أبدًا. تطلّعت إلى الصيف الآتي، حينما يعود من جديد. ومن ثم تسرب إلى قلبها الشكّ. إن كان لن ينسى أبدًا، لماذا سلكَ درب التلال في الليلة قبل الماضية؟

عندما استيقظوا في صباح اليوم التالي كان قد حزمَ خيمته وغادر الوادي. كان المطر شديدًا، والصيف ولّى بعيدًا، وكانَ في المطر ذاك الإيقاع الكئيب الذي يُذكِّر بالشلالات الأزلية ما بين الكواكب. أطبقت الأمطار فوق الريف إطباقًا، وانسابت بسلاسة، مخيّمة على المقاطعة بأكملها، بلا إيقاع أو تصاعد، عارمة في مداها ومَهولة. ظلّت رائحة تبغه الذكيّة في البيت مُدة من الزمن، كانت تشمها كلما عادت إلى البيت لإعداد الطعام. لكنها تلاشت مع مرور الوقت. في النهاية لم يعد للرائحة من أثر.

***

35. البناء

كان الوكيل جون صاحب مزرعة يوتيروثسميري شخصًا اشتهر منذ زمن طويل بقدرته على شراء أغنام بقدر ما يشاء، وبالسعر الذي يناسبه أكثر، في حين تحتم على المزارعين الأقل شأنًا الارتضاء بالدوران حول حبل ديون بروني. كان الوحيد في المقاطعة الذي بإمكانه المجاهرة بكراهية تولينوس جينسن. كان يشتري أغنام الناس ويسوقها شمالًا عبر المروج المرتفعة ويبيعها في ڤيك نظير مبالغ مالية ضخمة، لأنه يمتلك حصة في العمل هناك. ولكن مع مرور الوقت، أخذ وباء الجمعيات التعاونية يتفشى أبعد فأبعد إلى أن أُسِّست جمعية في ڤيك في خاتمة المطاف، ونمت هذه الجمعيه بسرعة كبيرة إلى أن ماتت أشغال ڤيك بسبب هذا المرض الموهِن، وذلك على الرغم من توكيدات الوكيل التي أظهرت مدى خطورة التجمعات التعاونية على الفرد، مهما كان الفرد متمكنًا وقويًا. ومن الطبيعي أن يتخيل المرء الآن أن جون صاحب مزرعة ميري سوف يسعى بأسنانه وأظافره لمهاجمة اتحادات الفلاحين هاته على اعتبار أنها هي من دمّرت تجارته في ڤيك. ولكن ما الذي حدث؟ أرسلَ إلى ابنه أمين السرّ في جنوب البلاد. وأنشأ جمعية في فِيورد بالاشتراك مع إنغولفور أرنارسون جونسون. ولم يجمع في هذه الجمعية كل المزارعين القادرين على سداد ديونهم من المناطق المحيطة فحسب، بمن فيهم الفلاحون الأدنى مرتبة إلى الأشد منهم بؤسًا وإملاقًا، وإنما بدأ بإقراض الناس المال بأية شروط أرادوها حتى يتمكنوا من الخلاص من استعباد شركة بروني لهم، والانضمام إلى جمعيته التعاونية. قال: «يجب أن نقف معًا، نحن المزارعين». هو الذي لطالما وقف بمفرده صار الآن فجأة يريد «أن نقف معًا»! مثل هؤلاء الناس يتقنون ألاعيب المداهنة والتزلّف والتملّق. «إذا كان المجتمع الزراعي الآيسلندي يريد أن يصير شيئًا ما عدا ممسحة أحذية رثة لِسُلطة التاجر فينبغي علينا بذل جهود متضافرة والالتفاف حولَ راية مصالحنا المالية الخاصة. الجمعيات التعاونية تعطي قيمة كاملة لمنتجات الفلاحين وتبيعهم احتياجاتهم الضرورية بسعر التكلفة عمليًا؛ فهي في الواقع ليست مؤسسات تجارية، وإنما مؤسسات خيرية يملكها

المزارعون أنفسهم ويستخدمونها لمنفعتهم الخاصة. الشخص الذي يبيعنا ثلاثين حَمَلًا يحصل على ما يقارب ستين كرونة نسبة ربح إذا ما كانت السوق العالمية مواتية. وسيحصل الرجل الذي يودِع لدينا من ثلاثمائة إلى أربعمائة حَمَل على أرباح تبلغ الألف كرونة. بإمكان أي شخص رؤية مدى أهمية هذه الجمعيات للغني والفقير على حدٍّ سواء. لا أحد يسرق أحدًا.

ولكن بحلول الخريف وصلت رسالة من مدير شركة بروني تُعلِم الجميع دونما استثناء بأنه عاد لتوّه من رحلة في الخارج. في هذه الرحلة كان محظوظًا بأن استطاع تأمين بضائع بأسعار ملائمة على وجه الخصوص، وأبرم اتفاقات تجارية مع دول أجنبية ضَمِنت لعملائه شروطًا استثنائية للغاية في المستقبل؛ مرفقة بقائمة الأسعار. كان يضارب أسعار جمعية إنغولفور أرنارسون على جميع السلع التجارية، ويُزايدُ بالدفع لقاء جميع صنوف المنتوجات. لم يكن التسويق يومًا في فِيورد مربحًا ومجزيًا إلى تلك الدرجة مثلما كان في ذلك الخريف. إذا طبطبَ إنغولفور أرنارسون على ظهورهم، ربتَ تولينوس جينسن على خدودهم. وحينما يخاطب إنغولفور أرنارسون الواحد منهم بصديقي العزيز، ناداه تولينوس جينسن يا حُبّي. وإذا ما انكبَّ إنغولفور أرنارسون على رقابهم معانقًا، كان تولينوس جينسن من يُقبّلهم. تخطت العقلية المسيحية، في العمل، كل حدود اللياقة والسداد. لم يكن أحد يذكر كلمة «دَين». كانت الكماليات باهظة التكلفة تُرمى عليكَ كأنها الكثير من سَقَط المتاع. كانت الطريق ممهدة أمام أي شخص ليصير صاحب أرض خلال عامين. اغتنمَ بيارتور الفرصة واشترى بعض الأخشاب والحديد.

هتف تولينوس جينسن محتضنًا إياه: «بكل سرور، حتى وإن كانت من أجل بيت خرساني من طابقين. وإذا أردت استدانة بعض المال، فعلى الرحب والسعة!»

صاحَ أولاد البيت الصيفي بنشوة الترقب: بناء! جلسوا يخططون له، ويتناقشون ما إذا يجب أن يكون مكوّنًا من طابقين مثل القصر في روثسميري، أو من طابق واحد مثل قصر فيل كينغ، ولكن مع غرفة لاستقبال الضيوف ومطبخ أيضًا. منحت مواد البناء مخيلاتهم أجنحة، ولكن إن تجرؤوا لدرجة سؤال بيارتور، أيّ سؤال، كان الردّ دائمًا مقتضبًا: انشغلوا بعملكم. رسمت

آستا سوليليا مطبخًا كبيرًا، مع فرن له مقصورات عديدة، وأرفف وحوامل من أجل الأواني الخزفية كما في روثسميري تمامًا؛ فلقد شاعت بالطبع آنئذ الأواني الخزفية كلها دفعة واحدة وبكثرة. تطلعت إلى الوقت الذي تعود فيه إلى المنزل في فصل الصيف من أجل الطهي. يُفتح الباب فجأة، وإلى هذا المطبخ الفاتن يلجُ (الزائر) في معطف هائل، له عشر أصابع في قدميه، وبيديه حبلان في واحد أسماك وفي الآخر طيور؛ يبسط لها يده اللطيفة، بعض الناس لديهم أيدٍ كريمة، تتذكرها حتى على فراش الموت. وتفكّرت: «ولكن، إذا ما بنى أبي غرفة لاستقبال الضيوف، من أين لنا باللوحات؟ والأريكة؟»

كانوا منهمكين في نقل حمولات القش الرطبة الأخيرة من المستنقعات إلى المنزل. كانت تحمل له القش بمواظبة وكدٍّ كبيرين في حين كان يقوم هو بالتحزيم. كانت تحبُ العمل بالقرب من أبيها حينما لا يكون أحد غيرها في الجوار، ولا شيء يمكن مقارنته بمديحه. وأخيرًا فرغا من ربط الحزمة الأخيرة. قعدا على كومة قشّ عالية، مبلّلين ملطّخين بالوحل. أخرجَ سعوطه. وأراحت هي يديها الكبيرتين، المنهكتين من العمل في حِجرها، وراحت تحدّق في قدميها اللتين كانتا مغمورتين بالمياه حتى أعلى حذائها. كان لديها جبهة عالية، كلا لم تكن من قرابته تلك الجبهات العالية؛ كان جبينه ضيّقًا وعريضًا. وكان حاجباها متقوسين وداكنين، وتدلان على سلالة مختلفة، كما هي الخطوط الرفيعة الناعمة في الجزء السفلي من الوجه، مع الذقن الرفيع المنحوت، القوي في شكل والمنحني بجمالية متّسقة مع الخد. وتلك الشفة السفلية الناضجة الممتلئة، مع حلاوة اعوجاجها الغريب. ثم نظرت إليه ورأى عينيها. كانت العين المستقيمة صافية على نحو مستغرب، كانت شابة نضرة، سعيدة تقريبًا، وحرة تمامًا. ولكن عينها اليسرى، التي لم تكن ترى الأشياء مباشرة، كانت هذه العين روحًا أخرى، أمّة أخرى تتبع مسارًا مختلفًا؛ احتوَت أشياء لم يُحلَم بها، صبوات هشّة حساسة رهيفة يحدّها الألم ذاته، شوق امرئٍ مُكبّل في أيدي أعدائه؛ لقد كانت عين أمها الحولاء، التي ماتت دون تحقيق الكلام المشتهى، التي عاشت في خوف واختفت، التي تزوّجها ولم يمتلكها قطّ! غضّة كانت وجميلة مثل الزهرة. كان كما لو أنه نظرَ عبر السنين إلى الأيام البعيدة، داهمه التعب فجأة، اجتاح

الخريف وجهه في طرفة عين، أو بالأحرى ذابَ وجهه في طرقات الخريف دون لون أو شكل، غريبًا أمسى، واقفًا في مواجهة حياته...

قالت: «أبي، سيكون الأمر رائعًا حين تبدأ في البناء».

حينذاك لاحظت وجهه، الوجه الذي لم يكن يظهره في ضوء النهار، الذي لم يعرفه أحد أو يُسمح لأحد برؤيته، الذي لم يسجّل أية تعابير حتى في أشدّ أشعاره مهارة وتمكّنًا، وجه الرجل الذي بداخله. كان شِعره من الناحية الفنية معقدًا للغاية بحيث بالكاد يحقق مضمونًا جديرًا بالملاحظة؛ وهكذا كان مع حياته نفسها. من جديد تاقت إلى إلقاء ذراعيها حولَ رقبته، وإلى دفن وجهها في بقعة معينة. نهضَ ومسّد رأس ابنته براحة كفّه الموحلة.

وقال: «يومًا ما سوف يبني أبوك منزلًا كبيرًا من أجل زهرة حياته، ولكن لن يكون ذلك في هذا العام».

ولم يكن ذلك.

اكتفى ذلك الخريف ببناء زريبة للنعاج بِسقفٍ من الحديد المموّج لتحل محلّ السقيفة القديمة التي شيّدها قبل عشر سنوات على ضفة الجدول. حوّلت حظيرة البقرة إلى زريبة للخراف، وأُعِدَّ الطابق الأرضي من المنزل للبقرة والحصان. رُصِفت الأرضية، وصُنِع باب في أحد الجدران الجانبية، بحيث يمكن وضع كومة السماد خلفَ البيت، ولم يعد من ضرورة لإخراج الروث من نفس الباب الذي يستخدمه سكان المنزل.

على الرغم من خيبة أملهم الكبيرة كانت ما تزال هذه التغييرات حدثًا رائعًا للغاية.

أناس جدد في البيت، وبناؤون بارعون شهيرون غيّروا جدران زريبة النعاج بطريقة اتخذت المسارات نمطَ حسك السمك؛ وعمّال نجارة مياومون مع مسطرة تقيس بالقدم، وقلم رصاص، ومنشار، وحسابات ذهنية بصرية؛ امتزجَ عطر الحلاقات الجديدة مع رائحة طين الخريف وأمطاره، محادثات صاخبة أثناء وجبات الطعام؛ عن السعوط الفوّاح، عن الشِّعر، عن التجار والجمعيات التعاونية، الخراف، والخراف مجددًا، وأخبار شيّقة من أحياء لا صلة لها بالموضوع، عبارات مجهولة، مشاجرات، قهوة حلوة.

«منذ قديم الزمان والتجار أوغاد بما فيه الكفاية لكي يقمعوا الفلاحين، بالشراء بالرخص، والبيع بالغالي، وإبقاء فرق السعر في جيوبهم. بوسع أي شخص أن يرى أن التاجر هو أحد أعداء الفلاح اللدودين».

«ومع ذلك، فلقد أنقذوا حياة البعض في الأعوام الصعبة».

«ربما، ولكن إلى أي مدى وصلت محبهتم هذه؟ إلى أي حد يمكن أن يرتفع الدين قبل أن يرفضوا إضافة رطل من الجاودار إلى فاتورتك؟ إن المرء يكاد يذوب خجلًا إن تحتم عليه طلب حفنة من الجاودار لكي تُدوّن على حساب شخص آخر».

«والآن تُقدم لك الجمعيات التعاونية نسبة. إنهم يدفعون لكَ نسبة بالإضافة إلى ما تحصل عليه مقابل منتجاتك، في حال كانت السوق جيدة. متى خطر على بال التجار أن يدفعوا لك نسبة، هل لي أن أسأل؟»

«أوه، إن ذلك أشبه بما حصل مع عصابة روثسميري التي ابتدعت إعطاء نسبة. لن أتفاجأ إن لم تكن هذه النسب التي يتحدثون عنها محض كلام فارغ».

«إنهم يفكرون أيضًا بإحداث بنك ادّخار في فِيْورد، بحيث تعطي أموال الناس فوائد».

«فوائد؟»

«نعم، إنه نوع من تكاثر الأموال إذا ما وضعت في بنك ادّخار. ويقترضه رجل موثوق من بنك الادّخار ويعيده بنسبة فائدة أعلى».

«نعم، لن تأبه جماعة روثسميري إن خسروا ما أقرضوه لهم طالما كان لهم حصة في المال لأنفسهم».

كان بيارتور مخلصًا مع تاجره على الرغم من كل الخصوم، راسخ القناعة بأنه من الأجزى له التعامل مع تولينوس جينسن من أن يتعامل مع الوكيل، وعلى ثقة بأن كل جمعيات روثسميري والبِدع التي يبتدعونها لديها هدف واحد فقط، وهو أن يكسبوا الفوائد ونسب المبيعات على حد سواء.

ولكن فوق التجار والجمعيات جميعًا تقفُ أحلام القلب، وعلى الأخص في الخريف عند حلول المغيب، وغيوم العالم زاخرة بالصور المدهشة. قعدت آستا سوليليا إلى النافذة تراقب الغيوم. كانت زوجة أبيها في الأسفل تُحادث البقرة، تطعمها وتربتُ عليها وتنتظر الوقت الذي تظمأ فيه، بينما قعدت جدتها وقد دلّت قدميها من سريرها أوان الغسق، واضعة أصبعيها في فمها، وبجهد كبير يرتسم فوق شفتيها سطر من ترنيمة، إنها ذلك الكائن العميق الغور الذي على الرغم من أي شيء لديه شقيقة. ومن ثم التمعت من السماوات قارّات بعيدة ذات محيطات متعددة الألوان وسواحل متلونة؛ جُزر ومدن الجنّ. من البحار الخضر البلّورية تسمقُ القصور الأرجوانية الحمراء وتغوص تارة أخرى مع أبراجها، ثمّ يتبدّد المحيط ويستحيل بستان فاكهة مثمرًا خصيبًا تحيطُ به جبال عجيبة ذات قمم حيّة، تميلُ وتتداعى بعضها على بعض إلى أن تتوارى أخيرًا. لم تجلس بجوار النافذة هكذا من قبل. والآن في أطياف الهواء الهاربة حَبكت أفكارها به. هو. تلك البلدان الغريبة بمحيطاتها وأشرعتها المرفرفة، ومدنها وبساتينها المدوّمة في السماوات في ألق خلّاب، كانت جميعها تفكيرًا صامتًا به، استذكارًا مسهبًا لمناسبات لم تكن قط، حلمًا للمستقبل بلا دنيا، بلا أيام. هو؛ هو؛ هو. سمعت البقرة في الأسفل تبتلع الماء، وفي البعيد البعيد تروي لها زوجة أبيها عن حياة الإنسان، والفتاة مصغية إلى همهمة حديثهما البعيد من الغيوم القصية في الأعلى، حيثُ منزلها، حيث كانت مملكتها معه كما في كلمات الأغنية الشعبية الراقصة:

حبيبي يعيش تحتَ سقف بعيد.. بعيد
بجوار مدفأة لا تعرف الأحزان،
لا دمع، لا نأمة ألم مرير تُسمعُ؛
فرحي أبدًا بِحبّي معقودُ.

حبيبي التقيته في غابة خضراء.. خضراء
في روضة ذات بهاء ورواء

بيتهُ المزدان بِالحبور وجدتهُ؛
وفرحي أبدًا بِحبّي معقودُ.

آه قد لا ينتهي ذلك أبدًا؛ وقد يحيا حياة سرمدية في بهاء ألوانه غير المنقطع. وهكذا جلست إلى النافذة ليلة إثر ليلة تراقبُ موسيقى الغيوم الصامتة.

***

36. زهرة وحيدة

كانت مساحة الأرضية في بيت النعاج المبني حديثًا مغرية، وبيارتور، وإن كان يدرك جيدًا أن لديه بقرة ينبغي عليه إطعامها، استسلم بطيشٍ واندفاع لإغواء الاحتفاظ بعدد أكبر من المعتاد من الأغنام ذلك الخريف. كان شاكرًا لتسنّي أي فرصة لإرسالها خارجًا للرعي؛ وقد تكفّل الصِّبية بمهمة مراقبتها في المستنقعات. على الرغم من ولع بيارتور الشديد بالأغنام، وعلى الرغم من تفكيره الدائم فيها، وسمعته الشهيرة بحسن تعامله مع الأغنام، فإن الأمر كان دائمًا موضع مخاطرة ما إذا كانت هذه الحيوانات التي نوقش أمرها كثيرًا ستنجو في الشتاء، ناهيك عن الربيع. قُصّت الأحدوثة ذاتها في كل مكان، ولم يكن الأمر يتطلب شيئًا للإجهاز على خروف في الربيع، وكان هذا هو الحال منذ ألف عام. منذ عصر الاستيطان وتعمير الأرض وهذه المخلوقات البريئة لديها ميل ملحوظ للموت في الربيع.

من جهة أخرى، كانت أحوال العائلة مزدهرة هذا الشتاء، وللمرة الأولى منذ أعوام عدة لم تؤخذ فينا إلى فراشها المعتاد في منتصف الشتاء؛ كان ذلك مطلع شهر آذار قبل أن يظهر عليها أية علامات على الحمل. لطالما كانت تعاني من بعض المتاعب في صدرها، كحال والدتها طبعًا، بسبب ذلك الفُرن المريع ودخانه الدائم، كانتا تسعلان من ساعة إذكاء النار حتى وقت متقدم من النهار، ثم تشرعان في نوبة أخرى عند المساء. ومما زاد الطين بلة وجود رائحة واخزة في البيت من روث البقر وبول الحصان، وهذه الرائحة إضافة إلى الدخان الكريه، تعشقت في صدر فينا وبثّت فيها جميع أنواع المشاعر

المرَضية. واصلت رعاية البقرة بنفسها، ولكن لم يعد مسموحًا لها بإعطائها التبن، لأنها كانت مسرفة للغاية في المؤونة الصغيرة من التبن المحلّي، التي فضّل بيارتور ادّخارها للحملان، وكذا النعاج حين تكون بلا علف. لكنها أطعمتها وَكنست لها المكان، وسَقتها وجرفت الروث إلى الخارج، ساعية دومًا على إبقاء حظيرتها نظيفة قدر الإمكان، ذلك أن الأبقار تشعر بالامتنان لمثل هذه الأشياء. كانت تحكّ جسدها، وتظل معها في الحظيرة وتتحدث إليها ما استطاعت. وكثيرًا ما أعطتها عظام الأسماك التي تمكنت من سرقتها من الكلبة دون أن يلاحظها بيارتور، وكتل العجين أيضًا عند صنع الخُبز. في تلك الآونة عانت البقرة في غالب الأحيان من نوبات الاكتئاب، كانت تخور خوارًا مُتشكيًا على الدوام، وبيأس مديد كأنه لن يكون هناك ربيعٌ آخر. في حالات كهذه كانت المرأة تعرف أن قلبها ينبضُ بالأسى، وتشعر بأن حياتها فارغة وعديمة الجدوى. في مثل هذا الموقف كانت فِينا تنزل إليها في منتصف النهار –هذه المرأة التي لم تنعم إلا بقليل من السكينة وراحة البال– وتربّتُ على لغدها ورأسها، وكانت تقول لها إن قوى الخير سوف تنتصر في حياة الإنسان في النهاية؛ فتهدأ البقرة من جديد وتشرع باجترار مضغتها. فيما العجوز بيلسي، الذي سَئمَ تهرّبه المستمر من هذه الزميلة البلهاء المجترّة، كان ينخر فوق العارضة ببرود. ومع ذلك، فقد تعلّم الأطفال من أمهم حبّ البقرة وإجلالها بسبب الحليب الذي يعزز بهجة النفس، ويولّد علاقات أشد انسجامًا في الأسرة. لكن بيارتور لم يُصِب من الشراب الرديء الذي يحرمُ الواحد من شهيته، ويتسبب له بالإمساك؛ وأعطى فقط الحملان التي لديها إسهال بعض التنباك المغلي مع الحليب.

لماذا! حتى إنهم اكتسبوا لونًا ورديًا في خدودهم، ولاح في عيونهم بريق الشباب السليم المعافى، هؤلاء الأطفال الذين لم يكونوا حتى ذلك الحين سوى بلادة، ونزلات برد مصحوبة بالنشيج والأنين! زالَ كل كسلهم المتعمّد؛ وما عادوا يعانون من تراخيهم القديم التّعِس، أو الفراغ المغموم الذي يُشعِرهم كأن بطونهم منفوخة بالماء والريح. كما تحسّن فهمُ آستا سوليليا للسطور الملتبِسة الغريبة في قصائد (البالاد) أبيها، وتعلّمت تشكيل الحروف على بخار الزجاج، وأحرزت تقدّمًا سريعًا في الحساب الذهني.

وسرعان ما نَمَتْ في هذا الشتاء لدرجة أنها بالكاد تمكنت من ارتداء ثيابها القديمة من دون تمزيعها، لذا قصوا أجزاء من القماش حول حفرة الإبط، وأخاطوا وصلات من القماش في الأكمام والجوانب. كانت في الرابعة عشرة من عمرها الآن، طويلة ناحلة، ذات بشرة مميزة، وصدر ناهد، ومشاعر غريبة، ووعكات صحية ما بين الفينة والأخرى. حتى إنهم اضطُرّوا إلى إضافة شريط عريض إلى أسفل تنورتها بسبب ركبتيها اللتين ظهرتا من تحت الحاشية وأصبحتا صلبتين وَرَبيلتين منذ الصيف الماضي.

أتى القسّ خلال الشتاء وطلب منها أن تقرأ له، وأُعجِب بمهارتها في القراءة؛ كانت قد علّمت أخاها الأكبر القراءة أيضًا؛ ولكن كم تعلّمت من العلوم الدينية؟ وتبيّن أنها لم تتعلم أية علوم دينية على الإطلاق، فقط صلّت لله بضع مرات دون أن تعرفه. قال القسّ: «هذا لا يصحّ، إنه غير شرعي. البنت كبيرة بما يكفي لتكون مثبتة في الكنيسة».

قال بيارتور: «لا أزعمُ بأني أثقُ كثيرًا بالمسيحية المعاصرة الآن، ولكن ذات مرة كان لدينا هنا قسّ جليل. سقيًا لتلك الأيام! من واتاهم الحظّ وعرفوا القس غودموندور سوف يتذكرونه رجلًا عظيمًا حتى يوم مماتهم. ولسوفَ تخلّد سلالة أغنامه اسمه في هذه المقاطعة، ما بقي الزمان».

وهذا القسّ الجديد، أفّ! ما كان قسًّا على الإطلاق، شابّ أصلع، ماذا كان يعرف عن الأغنام؟ ولا يعني هذا أنه لم يكن يبذل ما في وسعه، فقد حرص دومًا على التحدث عن الأغنام، والتظاهر بأنّ لديه ميلًا فطريًا إلى الحيوانات. وما فتئ يقدم نظرية أو سواها من «المجلة الزراعية»، وكان لتوّه يحاول إقناع كل شخص بحيازة كتاب للنعاج، ووضع علامة على الحملان، وكتابة رقم كل حَمَل في الكتاب فيعرفون بذلك سلالة كل حَمَل في الخريف. ويقول إنها لخطيئة مميتة بحقّ الموارد المالية، وبحق النفس والعائلة أيضًا؛ الاحتفاظ في الخريف بأصغر الحِملان لأن ذبائحها لن تعود على المرء بمردود يُذكر، وبالتالي السماح للحثالة الأسوأ بأن تُشكل السلالة المستقبلية. وأشياء من هذا القبيل.

قال بيارتور: «لم يتناقش القس غودموندور مع أي شخص في شؤون

الأغنام. وما اقتنى كتاب نعاج قطّ، ولا أي كتاب آخر، ما خلا كتابه العبري. لكنه كان رغم ذلك رجلًا عظيمًا مع الأغنام. وكان رجاله يقسمون بأنه يميز علامات حافر من آخر. لن نرى له مثيلًا في هذه المقاطعة مرة أخرى».

اتفقوا في آخر الأمر أنه يجب السماح لآستا سوليليا الانتظار سنة كاملة من أجل أخيها هيلغي. لكن القسّ أصرَّ أن عليهما كليهما الذهاب إلى القرية في الشتاء المقبل، قبل تثبيتهما في الكنيسة، وذلك كي يتعلما أساسيات المعرفة الدينية، والمواد الأخرى التي ينصّ عليها القانون لنيل سر التثبيت؛ ألا وهي الجغرافيا، وعلم الحيوان، والتاريخ الآيسلندي.

«بالمناسبة، هل قلت جغرافيا؟ إنهما يعرفان كل بوصة في الوادي، وكل جرف صخري، وكل رابية، وكل منعطف في الجدول؛ ومهما كان الطقس، لا يتوهان إن حاولا. وبالنسبة لعلم الحيوان، هما يعرفان كل خروف في المكان؛ لقد ترعرعا مع الحيوانات وعرفا كثيرًا عنها مثلهما مثل أي شخص آخر. وأما التاريخ الآيسلندي، «من كان غريمور آلغر يا آستا؟»، أجابت آستا سوليليا على استحياء: «عدوّ غونغو هرولفر». بيارتور: «مضبوط! عَرفت من أول مرة. وإلى أين ذهب بعد مقتله؟» أجابت آستا سوليليا ووجهها مُدلّى على صدرها خجلًا: «إلى الجحيم».

قال بيارتور مقهقهًا بصوت عال: «هناك ترى ما حدث له على أية حال!» وأردفَ بعد ذلك بقليل: «مع السلامة، أيها القس تيودور، وانتبه لنفسك واعتن بها!»

كان ذلك في مطلع آذار، وكان بيارتور في واحدة من رحلاته المتكررة إلى المستنقعات ليسوق الخراف إلى المنزل. كان الطقس متقلّبًا للغاية معظم النهار؛ زخات ثلوج رطبة على فترات معتدلة مع شروق للشمس حتى. كان الصبيان يتناوبون على مراقبة الأغنام. وبينما كان يجمعها، لاحظ المزارع فجأة أن إحدى نعاجه، وبالاسم هاتيا، لاحظَ أنها كانت تنزف من رأسها بغزارة. في بادىء الأمر ظن أن قرنها مكسور، ولكن لدى الفحص عن قرب اكتشفَ أن النعجة، من بين كل الأشياء، مشقوقة الأذنين وفي مراعيهِ الخاصة! أدهشهُ الاكتشاف كثيرًا، كما هو متوقع. تلمّس الأذنين الداميتين

بحذر، محاولًا تبيّن نوع العلامة التي كانت وما المخادعة الجارية، لكن الأذنين كانتا مُبتّكتين على نحو أخرق بل مقطوعتين بوحشية، وعلى الرغم من أنه استبانَ بعض أوجه الشبه مع العلامات والوسوم التقليدية، فإنه لم يستطع التثبت من مراد هذه الفعلة. كانت الحادثة استثنائية أكثر من كونها عرضية، ما دعاه للتأمل والتفكير. لدى وصوله إلى البيت استفسر بعناية ما إذا كان قد شوهدَ أي شخص بالوادي في ذلك اليوم، إلا أن الإجابة كانت في كل حالة قاطعة ومحددة؛ بأن لا أحد!

إذا كان صحيحًا أنه لم يكن أحد في الأرجاء، فهذه أول مرة يحدث فيها أي شيء في الوادي هنا خلال كل هذه السنين، ثم أنبأهم بِخبر العلامة.

انبرى هيلغي بملاحظة غير مسوّغة:

«أظن أنني لمحتُ شخصًا يقود حصانه في البحيرة أثناء هطول المطر».

«في البحيرة؟ هل أنت مجنون يا ولد؟ ما لون حصانه؟»

ردّ الصبي: «لم أستطع رؤيته بوضوح، لم يبدُ مثل حصان على الإطلاق».

«فإذن، مثل من بدا ذلك الرجل برأيك أيها الأحمق الصغير؟»

«لم أستطع تمييزه، كان يقود حصانه في المطر الغزير، أفهمت؟ لم يكن يبدو كرجلٍ على الإطلاق!»

«كيف كان شكله إذن؟»

إلا أن الصبي لم يستطع أن يقول، فقد كان شيئًا أشبه بالصرة، شيء تدحرج خلال المطر المنهمر وفرّ إلى البحيرة.

جلس بيارتور مثقلًا بأفكاره. جميعهم جلسوا مثقلين بالأفكار. وهمهمت المرأة العجوز بهذا وذاك عبر صنانيرها، نذير شؤم، يجدر بكم أن تكونوا متيقظين في الربيع. جميعنا لاحظنا شيئًا أو اثنين في هذا الكوخ، والناس كلها تعرف بشكلٍ أو بآخر بأن الشبح لم يمت بعد، ولكن أن تؤخذ نعجة في وضح النهار وتُقَطَّع أذناها..

كان للأيام التي أعقبت ذلك؛ الأيام المعتدلة ذات النسائم الدافئة، والأمطار الربيعية، والثلوج الذائبة فوق الأراضي المنخفضة، كان لها عظيم

الأثر في تبديد الكآبة التي تسببت بها هذه الواقعة. لاحَ الوادي قمحيّ اللون بأعشابه الذاوية، واكتست منخفضاته بالخضرة سريعًا، وانتشر اللون على امتداد الأرض. غدا النهر حرًّا وتكسر الجليد فوق البحيرة؛ وقفت فينا في مدخل الباب لتستشعر خفّة النسيم. كانت غربان المزرعة قد طارت.

أخذ نوني الصغير عظام الخراف للعب بها على التل. كان هو من أتى ذات يوم بنبأ الهندباء المزهرة على جدار البيت. حدث نادر في الوادي المنعزل في ذلك الوقت من السنة. استدار الأطفال وأمهم حول البيت لمعاينة نبتة الهندباء الصغيرة التي بسطت بتلاتها بشجاعة وسعادة في شمس الشتاء، تلك البتلات الغضّة الفتية! زهرة أبدية صغيرة. طويلًا طويلًا حدقوا بإعجاب وتقديس في هذه الصديقة الجديدة، بشيرة الصيف في عمق الشتاء، كانت مرحة للغاية وفاتنة. بخشوعٍ صامت، مثل جماعة من المؤمنين يلمسون عظام قدّيس، تلمّسوها بأناملهم. «لستِ وحدك، نحن أيضًا هنا، نحن أيضًا نكافح للعيش». كان ذلك اليوم مشرقًا. تلاشت هواجس الشتاء جميعًا في يوم واحد. ذلك السطوع الذي لم تخالطه غيمة انبسطَ على الروح بلا حدّ مثلما امتدَّ على قنطرة السماء؛ كان يومًا من أسعد أيام حياتهم، وظلوا يتذكرونه أمَدَ العمر. ثم سُمع صوت طائر الزقزاق، وكان لصيحة الزقزاق الأولى رنين مذهل، خجول وممتن في نفس الوقت، مبهر كما التحية الأولى عقب خطر جسيم، وهو مع ذلك متفجرٌ بفرحٍ ساكن مطمئن.

الفتاة التي لم تفقه أي شيء في المسيحية عَبرَ الشتاء روحها أيضًا. أتراها لم تشعر بالقلق في الأحوال الجوية السيئة وفي ظلمة الشتاء الطويل؟ بلى، لقد كانت قلقة غالبًا. كانوا جميعهم قلقين. كانت الليالي طويلة جدًّا. والنهار لم يكن نهارًا قط. يعيش المرء من أجل الربيع، ومع ذلك لا يؤمن المرء بالربيع حتى يأتي. هندباء واحدة، طائر زقزاق واحد، وبدا كما لو أن كل شيء آتٍ، كل ما ينتظره المرء حتى مماته. سرعان ما تغدو المستنقعات خضراء، وتَضجّ بالحياة، مثلما كانت في العام السالف، وطائر الفلروب سيسوّي ريشه بلطفٍ ودعة على أسطح البحيرات العميقة. والشلال الصغير أعلى الجبل سوفَ يتدفق عكسيًا في النسيم تحت أشعة الشمس. وهو، وهو الذي أتى من بعيد.

حلَّ يوم الجمعة العظيمة، أطول أيام السنة. لقد ظنوا أن شخصًا ما صُلبَ في ذلك اليوم، يسوع أو بطرس القديس، لكنهم بخلاف ذلك كان لديهم أفكار مبهمة حول كيفية صَلب الناس، لأنهم لم يروا صليبًا قط، فما بالك بالمصلوبين، ولم يأبهوا كثيرًا برؤيتهم أو عدم رؤيتهم ولم يطرحوا أية أسئلة؛ كان الريف يغلي بالشائعات القديمة. ولكن في ذلك اليوم من كل الأيام طبعًا يجب أن يسوء الطقس؛ إذ بدأ يتجمد، وحينما هبط المساء هبّت رياح شديدة واحتشدت الغيوم في السماء. وبحلول وقت النوم بدأت ندف الثلج تَهمي. كان بيارتور صاحب البيت الصيفيّ غائم الوجه في ذلك المساء أيضًا، وفي حوالي منتصف الليل، بعدما خلع بنطاله وحذاءه، نزل إلى الأسفل ليتفقد الجوّ. كانت الريح تعصف بشدة والثلج متراكمًا بعمق بوصة واحدة تقريبًا. بحلول الصباح كانَ عويل عاصفة ثلجية عنيفة وفي الجوّ لسعة صقيع.

كان بيارتور أقلّ من عثر على مادة للفرح في الطقس اللطيف الذي انقضى، غادرته آيات الربيع دون أن تحرك به شيئًا، لم يكن الرجل الذي يؤمن كثيرًا بتفتّح زهرة، أو شدوِ طائر. والحقيقة هي أنه على الرغم من جودة الطقس الاستثنائية، فإن أغنامه لم تكن بحال جيدة، كانت نوعية التبن رديئة للغاية في إثر صيف العام الماضي الرطب، وقلّة الثلج أغوته لرعي أغنامه في العراء أكثر مما كان يناسبها. لكن أزعجته حقيقة واحدة أكثر من أي شيء آخر؛ مرارًا وتكرارًا أظهرت أغنامه علامات على دودة الرئة، مع جميع الأعراض المصاحبة لها من سعال، وفتور، وإسهال كريه الرائحة. كان الأمر كما لو أن الأغنام تأكل دون فائدة، بعض النعاج باتت خاملة هامدة الهِمّة، لدرجة أنه قلق بشأنها وكان يفكر بأخذها إلى المنزل وإطعامها من قشّ الحقل، وحتى من الطعام المطبوخ. الآن والطقس يُنبىء بعاصفة عيد الفصح، الله وحده يعلم كم ستدوم. كانت الخراف قد اعتادت على المكوث في العراء، وشرعت في قضم عشب الربيع في المستنقعات؛ والآن تحتم عليها أن تُزرَب من جديد. عودة إلى البؤس إلى أجل غير معلوم.

كانت عاصفة ثلجية قوية لا تُصدّق، واحدة من تلك العواصف الهوجاء الغريبة حينما غنّى الجبل من فوق البيت كأن الغيلان التي سكنته جُنّت وأخرجت طبولها. بقيت الكلبة تئنّ حولَ درفة الباب الأرضي، مرتعدة

الأطراف. كان صباح عيد الفصح من الأصباح النادرة نسبيًا حينما تلت العجوز هالبيرا ترنيمة العاصفة من البداية وحتى النهاية، بينما كان الأطفال متزاحمين تحت أغطية السرير مثل جيش مهزوم. ترنيمة خارقة للعادة عن العاصفة والممسوس قد عاشت في أذهانهم بوصفها الشعر الأشد كراهة في العالم أجمع: ثمّ جاء رجل مجنون، من الأرواح الشريرة المعذبة، عاريًا، هائجًا، جامحًا، ممسوسًا. ظلّ بطل ترنيمة العاصفة الفظيع يطاردهم في أحلامهم زمنًا طويلًا بعد انتهاء العاصفة. في الأيام اللاحقة كثيرًا ما كان التفكير المفاجئ به يسلبهم البهجة كلها في الأجواء الصيفية، كان من حيث لا يتوقعون يتحرر من عقاله في ذاكرتهم مثل الجريمة، حتى حينما بدأوا يعيشون في راحة بعد ذلك بسنوات.

بقوّة رهيبة تلك اليدان المسعورتان
انتزعتا سلاسل الأسر بقوّة وفي الحال.
ثمّ هجّ إلى الصحارى طَرِبًا جَذِلًا؛
الرجل المجنون ما عاد حبيسًا في أي مكان!

كَمَنَ منتظرًا في الطرقات المهجورة.
أوان الغسق، تثبّت وهجةُ القاتل
على عابرٍ غافلِ الخَطو،
بالقرب من مخبئه!

عندما أحست المرأة العجوز بأنها مرغمة على إنشاد هذه الترنيمة كان ذلك رمزًا بأن جميع القوى الشريرة فوق الأرض وفي باطنها قد تحرّرت من أغلالها. انصرفت بحواسها بعيدًا عن العالم، وجلست متأرجحة ببطء إلى الأمام وإلى الوراء، بيديها المعقودتين المثبتتين فوق صدرها الضامر، صوتها مثل صوت الشفرة وهي تخترق اللحم الحيّ بخشونة. ليس للشتاء سطوة أكبر من أيام الربيع هذه! في رعب صامت تنبض هذه القلوب الجزعة خالية من الديون في مواجهة القوى المتجهّمة التي طوّقت المزرعة الصغيرة

المستقلة. حلّت الأم سيور حذائها واندسّت تحت اللحاف من جديد، صبيحة عيد الفصح.

***

37. المعركة

خمسة أيام على هبوب العاصفة الثلجية..

كان ببساطة أمرًا غير قابل للتصديق إلى أي درجة تراجعت فيها حال الأغنام في مدة زمنية قصيرة. ولكونه من المتعذر إقناعهم بلمس القش المتعفن في الحقول الخارجية، فإن البديل الوحيد هو علفهم من القشّ المنزلي، الذي كان حتى هذا الحين محفوظًا من أجل البقرة والحِملان. وحتّام سيدوم العشب المجفف إذا ما أصبح العلف الوحيد للماشية بأكملها؟ لم يكن قد تبقى من الكومة سوى قدمين أو ثلاثة. بالطبع كان يجب وضع النعاج بعين الاعتبار أولًا. ولكن في المقابل كان من غير المجدي حرمان البقرة من تبنها المجفف ووضعها على الآخر العفِن؛ رفضت النظر إليه، ودمدمت بعبوس فوق مَعْلفها الممتلئ، وأمسى إنتاجها من الحليب أقلّ فأقلّ. في مستقبل قاتمٍ متقلّب، كانت ستفقد قدرتها على الوقوف على قوائمها قبل وقتٍ طويلٍ من ذهابها إلى المراعي المتوقعة لها، ربما في منتصف الصيف على أبعد تقدير. كان من الوارد أيضًا، على أية حال، فقط لو تحسّن الجو وذابت الثلوج على الأرض، بأن يتمكن من إبقاء النعاج على قيد الحياة مع حفنة من القش المنزلي الذي ما زال لديه. لذلك ظلّ الصراع من أجل القوت ما بين البقرة والنعاج، ومع كل يوم إضافي أصبح من الواضح أكثر فأكثر أن أحد الفريقين فقط يمكنه النجاة. هذه هي الآثار الخطيرة التي قد تُحدِثها العواصف الثلجية الربيعية على مزرعة صغيرة في بطن الوادي. لا عجب أن تفقد الروح بهجتها، وأن يتضاءل الأمل في قلوب الناس، وبأن يبارح النوم المضاجع من انقباضٍ في الصّدر. حتى أجمل الذكريات تفقد بريقها ورونقها مثل عملة فضّية لامعة تلتقط الصدأ فقط لأنها ضاعت. شاهد الأطفال الأربعة أباهم وهو

يصحو كل صباح، متجهم الوجه مؤرّقًا؛ ورأوا وجه أمهم متورّمًا من بكاء الليل الصامت.

كانت ما تزال تنزلُ إلى البقرة لتربت عليها وتواسيها. وكانت تقول لها: «لن يطول الوقت قبل أن ينتهي كل هذا، سرعان ما ستعود أشعة الشمس مرة أخرى لكلينا، وسيذوب الثلج؛ ثم ستنزل الأغنام إلى المستنقعات، وسيكون لدينا مقدار وفير من القش الهنيء مجددًا. وسوف ينمو العشب الأخضر وسيأتي نوني الصغير مع أمه للجلوس بالقرب من بقرتها العزيزة بوكولا أعلى الجبل. والطيور -الطيور؟- لا. خذلتها الكلمات عند هذه النقطة، ومضت تربِتُ على البقرة في صمت فقط، فعلى الرغم من أن الطيور قد تغني في فصل الصيف، فإن البقرة ما زالت تئن فوق التبن العفِن، والتبن بقي في المذود لم يُمسّ. والموسيقى، لا راحة في الموسيقى لمن يقف وجهًا لوجه إزاء الموت في الربيع. مسّدتها بخوف وفزع. في آخر الأمر شرعت البقرة في الخوار.

شيئًا فشيئًا هدأت عاصفة الفصح هذه مثلها مثل أي عاصفة أخرى. وبزغت الشمس. ذابت الثلوج بسرعة كبيرة في ضوء الشمس الأطول. لكن البرد القارس ظلّ في الجوّ، وكان الصقيع قاسيًا في الليل. بدأ بيارتور بسوقِ قطيعه إلى المستنقعات من جديد، لكن العشب الصغير النامي كان إما ذابلًا من رؤوسه أو ميتًا بالكامل، كانت المنخفضات المستنقعية سوداء حينما ظهرت من الثلج المتجمد. العديد من النعاج باتت ضعيفة واهنة القوى في هذه الآونة لدرجة أنه واجه صعوبة في قيادتها؛ بعضها لم يكن بالإمكان تحريكها إطلاقًا. لدى عبورها جدول المنزل استغرق الأمر منها زمنًا طويلًا في تسلق الضفة على الجانب الآخر؛ ومع أنها بالكاد تصل إلى الركبة، فإنها أفلحت ربّما في رفع الجزء الأمامي، بينما ظل الجزء الخلفي معلّقًا، ووقفت متأرجحة نصفها في الداخل والنصف الآخر في الخارج. حينما رفعها بيارتور، راحت تتهاوى على الضفة وتسترخي عليها، وبمجرد هبوطها، كان من الصعب عليها إبداء أي رغبة في مزيد من الحركة. كان يمسكها من قرونها ويحاول رفعها على أرجلها، فكانت تنهض جزئيًا ثم ما تلبث أن تكبو على ركبها، وهو نمط من السير الذي عُرِف منذ أيام التوطّن

الأولى باسم التعكّز. عندما تعكّزت الخراف بضع دقائق، تراخت من جديد. في المستنقعات بالأسفل سرعان ما كانت تعلق في الحفر. وإذا ما انغرزت قوائمها إلى ما فوق عراقيبها، لا تبذل أي مجهود إضافي. كانت الغربان قد عادت إلى المستنقعات، منتظرة فرصتها لتنقر حفرة في ظهورها، كي تمزّق أحشاءها حيّة، ولكي تقتلع عيونها. في أحد الأيام، كانت ثلاث من الأغنام خاملة عند أطراف الحقل؛ ومع أن الكلبة نبحت من حولها وراحت تعضها فإنها لم تتحرك، رمشت بعيونها قليلًا فقط. أخرج بيارتور مديته؛ فرقَ الصوف حول رقابها وحزَّ حناجرها، ثم دفنها.

معظم الشياه أصيبت بدودة الرئة. فصلَ بيارتور عدّة منها وراح يعلفها في الداخل، لكنها بالكاد نظرت إلى التبن. في الأصباح تكون واحدة أو أكثر عاجزة عن الحركة أو ميتة بالفعل. طلب من زوجته أن تعجن عجينة من دقيق الجاودار؛ بعض الخراف أكلتها، وبعضها رفضتها. كان دقيق الجاودار يتناقص، وعلى هذا المنوال لن يدوم طويلًا وإن كانت العائلة تقتصد في الخبز. كان في كل مساء يحاول إغواء الأغنام للعودة إلى المنزل بالمشي إلى الخلف ومعه كتلة من العجين ممدودة باتجاهها، ويسمح لها بقضمها عند كل خطوة، لكنه كان عملًا بطيئًا للغاية، وكان من الممكن استدراجها بواحدة من هذه الوسائل لمرة واحدة فقط، وفي لمح البصر، تكون متمدّدة. فعل الأطفال ما بوسعهم لمساعدته في هذه الطريقة المبتكرة لجمع القطيع. بلى، فرقٌ كبير بين الشاة في فصل الصيف، ذلك المخلوق المتغطرس، فخر المراعي الجبلية، ملكة المروج، بينما تتبختر بزهوٍ واعتزاز في سفوح التلال، تنخر بحذر من أعلى التلة، أو تختلس النظر هازئة من بين الأغصان الرفيعة؛ والصورة الهزلية المأساوية التي يراها المرء في المستنقعات في الربيع. حزّ حناجر المزيد والمزيد.

ومع ذلك، كان ما يزال عدد كبير من النعاج يحتفظ بقوته على نحو جيد ويتغذى بشهية جيدة. ومن أجله، كان عليه أن يفعل كل ما هو ممكن، وألا يدّخر شيئًا من القشّ المخزّن ما بقي منه نصلًا واحدًا. وهكذا تقلّصت الكومة يومًا إثر يوم، وازدادت البقرة هزالًا يومًا بعد يوم، وقلّ حليبها أكثر فأكثر.

كان مردودها بعيدًا عن الحد الكافي للعائلة، مع أنهم عودوا أنفسهم

على تناول وجبة واحدة في اليوم، وهو أمر غير طبيعي في الربيع بأي حال. جاعوا بشرًا وحيوانات. في آخر المطاف انهمكت فِينا في نَحتِ قطعة من الخشب على شكل مقبض مهدب من طرف واحد بخيوط خشنة. حملقَ الأطفال في هذا الاختراع بعيون مندهشة. تساءلوا: «ماذا يفترض أن يكون هذا الشيء؟». أجابت فينا مفسرة: «إنها مِخفقة. ذات مرة كانت هناك امرأة فقيرة للغاية. فجاء إليها المسيح وعلمها أن تصنع مِخفقة وأن تخفق الحليب حتى يكثر». وضعت فينا شيئًا من المنفحة في القطرات القليلة التي ما يزال من الممكن عصرها من البقرة، ثمّ خَفقتها في القدر، وفي لحظات قليلة زاد حجم الحليب كثيرًا لدرجة أنه ملأ القدر حتى حافّته؛ لا أحد يعلم كم كان سيربو لو أنها استمرت في التحريك. حصل الأطفال على الحليب المخفوق للشرب وكانوا جميعهم معجبين جدًّا بالمسيح.

ثم ذات مساء قالت فِينا:

«بيارتور، عليك الذهاب إلى البلدة، لتنظرَ إن كان بإمكانك الحصول على بعض القش من أحد ما».

قلّما كان المزارع يفتح فمه في البيت هذه الأيام، وحينما يتكلم، يكون كلامه عبارة عن أوامر فظّة مثل ربّانٍ في خطرٍ مهلك في عرض البحر، ولكنّ هذا الطلب جعله يثبُ كما لو وخِزَ بحدّ سكين. «أنا؟ في البلدة؟ لا ديون لي على أحد لأجمعها في البلدة».

«ولكن، يا عزيزي بيارتور، البقرة توشك أن تجفّ، ومن المريع رؤيتها جائعة. المخلوقة المسكينة تضعفُ وتضمحل أمام عينيّ!»

أجاب: «هذا ليس من شأني، ليس في نيتي أن أكونَ مَدينًا لأحد في البلدة. نحن أناس مستقلون. أنا لا أدين لأحد. أنا رجل حرّ أعيش على أرضي».

قالت زوجته معترضة: «هناك الكثير لنشكر بوكولا المسكينة عليه».

قال: «نعم، أعرف هذا، وربما سيكون لدينا المزيد لنشكرها عليه قبل أن تنتهي. وبالأخص إذا تمكّنتْ من قتل كل ما تبقى من خِرافي».

توسّلت فينا: «فقط إن توفر حوالي حزمة من العشب المجفف الجيد».

«ما من قوة بين السماء والأرض تجعلني أخون أغنامي من أجل بقرة.

تطلّب مني الأمر ثمانية عشر عامًا من الكد والعمل لتجميع ماشيتي. وعملتُ اثنتي عشرة سنة أخرى لتسديد كامل ثمن الأرض. أغنامي جعلتني إنسانًا مستقلًّا، ولن أنحني لأحد أبدًا. وأن أجعل الناس تقول عني إني سلكتُ درب الشِّحاذة من أجل التبنِ في الربيع لهو وصمة عار لن أحتملها أبدًا. وأما بالنسبة إلى البقرة، التي فُرِضت عليّ من قبل الوكيل والمعهد النسائي لحرمان الصغار من شهيتهم وسرقة خرافي أفضل ما لدينا من قشّ؛ بشأنها سأفعل شيئًا واحدًا. وسوف يتمّ».

قالت فينا بصوت لا نبرة فيه وهي تحدّق في وجهه لتشتيت الانتباه عن المسافة غير السالكة التي تفصل بين إنسانين: «بيارتور، إن كنت تنوي قتل البقرة، اقتلني أولًا».

***

38. موت في الربيع

الطقس ذاته، ما من علامة على التحسّن، سمواتٌ مخيفة، زخات مطر متكررة. البيت كلهُ فاحَ برائحة الروث المملوء بِالديدان النتنة، باتت الديدان أكثر فتكًا وضراوة، اختلطت قعقعة سُعال النِّعاج مع أنين البقرة. تلوّت الديدان خارج مناخرها، وتدلَّت مثل الخيوط من القيح حول أنوفها. في كل صباح ترقد بضعة منها مُدَاسة في الوحل، أحيانا ما تزال تتنفس تنفسًا خافتًا ضعيفًا، يذبحها، ويجرها إلى قبر من العشب، يمسح سكّينه على الطحالب، ويشتم.

خمس وعشرون من الأغنام ماتت، جميعها من تربيته الخاصة. كان يعرف سلالة كل واحدة، وكان قادرًا على تمييزها منذ يوم ولادتها، كانت صورة كل واحدة محفورة في ذهنه بعمق مثل ملامح صديق مقرّب، المظهر والشخصية على حد سواء. ما وراء ذكرياته عن هذه الحيوانات رأى مرور الكثير من المواسم؛ تذكرها صحيحة معافاة لها صوف كثيف وهي تنزل من الجبال في أيام الخريف، مزهوة بأبنائها المرحة المفعمة بالحيوية؛ تذكرها في الربيع وهي تلعق حملانها، حديثة الولادة لا حول لها ولا قوة، في وادٍ

صغير خضير. كان لكل شاة من الشياه مميزاتها الخاصة، ومزاجها الخاص. تذكر بدقة كيف كان قرنا كل واحدة، الصوف المنفوش على إحداهن، الصوف المرقط بالرمادي على الأخرى، والثالثة المُبقّعة بالأصفر؛ كانت إحداهن خجولًا ومنكمشة على نفسها مثل أكثر العذراوات حياءً، وأخرى قد تَشبُّ على الجدران بصفاقة أو تسبح في أنهار يتعذر اجتيازها، وثالثة يعجبها أن تنسلّ في الوهاد.. ثم كان عليه أن يحزّ حناجرها!

خرجت الديدان متلوّية من جذوعها النازفة، كانت رئاتها مثقّبة مثل جيفة متعفنة. هرينيا، سكيلا، سكيسا، والأخريات. كانت هذه المخلوقات القوة الدافعة لوجوده، وداعمه الأقوى.

خمس وعشرون. أيّهنَ ستكون التالية؟

ثلوج كثيفة، لا فرصة للسماح للأغنام بأن ترعى في الخارج اليوم، ثلاث نعاج حُكم عليها بالموت هذا الصباح؛ كوبا، لافا، سنورا. لم تُنطَق كلمة في المنزل، طُرِحَ آخر ما تبقى من القشّ، رفضت البقرة الوقوف على أقدامها. بتقدم النهار، صارت فترات انقطاع المطر أقصر فأقصر إلى أن هبّت عاصفة ثلجية أخرى. كانت العتمة مخيّمة على النافذة الصغيرة، وقد نفثَ الدخان إلى المدخنة في الأسفل ليضيف إزعاجه إلى نتانة الروث الملوّث في الطابق السفلي، كان التنفس شبه مستحيل.

وفي أماكن أخرى في العالم كان قصرٌ وبستان.

ثمّ هل نسيَ العالم هذه المزرعة الصغيرة المأهولة في الوادي؟ هل تخلّى عنها جملة وتفصيلًا، بقلوبها المهمومة الهلِعة، ببطولاتها غير المدوّنة، غير الموثّقة في الكتب؟ لا، آه، لا. كان في الباب زوّار، نخير أحصنة في العاصفة متحفزة للانطلاق، وأصوات غريبة؛ انفراج مفاجئ للعقل من خوفه المحتقن الأبكم، سرور غير متوقع للإنسان والكلب.

من خلال فتحة الباب الأرضي ظهرت فتاة علِقت عليها ندف الثلج وقد برزت منحنيات جسدها المكتنزة من سروال ركوب الخيل الضيّق القصير، ولاح من عينيها الزرقاوين الرماديتين الرضا والثقة بالنفس، وكان خدّها الوضّاح متورّدًا من الريح. نفضت الثلج من ملابسها إلى الأسفل عبر الفتحة،

وكشفت في ضحكة عن أسنانها السليمة، وشتمت قليلًا، ها ها ها. التمع في يدها سوط ركوب الخيل باهظ الثمن في محيط لم يكن فيه قطعة واحدة تجلب أكثر من سنت واحد، إنها أودور ابنة جون صاحب مزرعة ميري. لحقَ بها مرافقها، وهو أحد رجال الوكيل، إلى الدور العلوي. كان يوصلها إلى فِيورد لكي تستقل غدًا باخرة البريد جنوبًا، إلى ريكياڤيك ومناخ أكثر سعادة.

صاحَ بيارتور: «عزيزتي السيدة الصغيرة، كيف جرى أنك في الأرجاء!»، وربتَ على ردفها بلباقة. «ما زلت تغتذين على شحوم الأرض على ما أرى. اصنعوا لها قهوة جيدة وثقيلة ولا تقتصدوا في السُّكر. لم تترعرع على غُسَالة الصحون، بارك الله الرأس الصغير المحبوب الذي كان بالكاد يصل إلى خاصرتي حينما تزوجتُ للمرة الأولى».

اصطفّ الأطفال كتفًا بكتف، وراحوا يتفرّسون فيها بإعجاب، مُنبهرين أيمّا انبهارٍ بحجمها، وثقتها بنفسها، وبطول مسافة الرحلة التي قطعتها، والطريقة الخبيرة التي تشتمُ فيها؛ وفي هذا الحين كانت قد فرغت من تنفيض ثيابها من الثلج، وكانت واقفة هناك مثل نبتة يانعة خصيبة قد انحنت من ثقلِ أزهارها المتفتحة حديثًا، وعما قريب ستمنح البذور.

كلا، الانطلاق عبر المروج في هذا الجو كان لا يُعقل، إن عاصفة ثلجية كهذه ستكون نهاية أي امرأة؛ لذا تحتّم عليها المكوث هنا إلى حين انقشاع العاصفة. بحثت من حولها عن مقعد، لكن البطانيات على الأسرّة جميعها كانت منفّرة على حد سواء. لم تشأ إقلاق راحتهم قط، وطمحت بأن يتحسن الجو قبل المساء، واستفسرت بتأدب عن أحوال الأغنام.

«في نهاية شباط الماضي كان في الوادي هنا شخص مجهول، وأقدم على شقّ أذني إحدى أغنامي. ولكن على ما أتصور، هذا الخبر لا قيمة له بالمقارنة بما تودين إبلاغنا عنه من منطقتك».

نعم، كانت هناك أخبار مُحزنة من البلدة، وأكد المرافق، نعم أخبار محزنة. فقدَ أولافور يازتدال حوالي أربعين من أغنامه على الرغم من جميع علومه، وخسر إينار أونديرنيث ما يفوق الثلاثين، وإن كان من المحتمل أن يحظوا بمراعٍ أشدّ خضرة في العالم الآخر. لم يُفصِح ثورير غيلتايغ

عن عدد الأغنام التي فقدها بعد أن ذهبت ابنته الصغرى أيضًا وأنجبت ابن حرام (اعترضت ابنة الوكيل الحديث: لماذا لا يتزوجن الرجال على نحو لائق؟)، لكن بيارتور قال كما تزرع تحصد، وضحِك. ثم أردف: «الخطأ كله خطأ الأبقار، ينتهي بها الحال بانتزاع روح الإنسان وأكلها، تلك الطفيليات اللعينة؛ إن بطونها لا قيعان لها مثل البحر الأبيض المتوسط». وتابع رجل الوكيل، لم تكن الأمور بالغة السوء مع فيل كينغ على أية حال، وفي ميري كانوا يعطونها العجين أيضًا، لكن البعض منها كان فاتر الهمة للغاية، كما هو الحال في الربيع، وكان عليهم قطع حنجرة من حين إلى آخر.

نعم، كان بيارتور يعرف ذلك جيدًا؛ كانت عادة قديمة في ميري. سجق أسود واحد أو أكثر في وقت الذبح لم يكن يشكّل فارقًا كبيرًا بالنسبة إلى الوكيل طالما أن خيوله المسرجة[1] تحصل على تغذية جيدة.

أبت العاصفة الثلجية أن تَخمد، وَأمست الفتاة مُبلبلة قلِقة. مرارًا وتكرارًا نزلت إلى الطابق السفلي للنظر إلى الخارج؛ عصفَ الثلجُ مباشرة عبر الباب، في وجهها مباشرة؛ لا تكون العواصف الثلجية قارسة إلى هذا الحدّ كما هي في الربيع. سبّت ولعنت لبعض الوقت، ثمّ توقفت عن ذلك وعادت إلى رشدها، ثمّ انخرطت في نوبة هستيرية، وبلغت ذروتها في فقدانها السيطرة على نفسها. قالت باكية: «أخي إنغولفور ينتظرني الليلة. من المؤكد أنه سيعتقد أني ضعت في التلال. يا إلهي، إذا فاتتني تلك السفينة!»

«آه، ستنحسر العاصفة الليلة لا محالة».

«يا إلهي الرحيم، لو فاتتني تلك السفينة!»

«إنها تخفّ قليلًا الآن».

«كان الله في عوني إن أخفقت باللحاق بتلك السفينة!»

«أوه، ستكون هناك سفينة أخرى».

«ولكن إذا فاتتني هذه السفينة!»

«ستظلّ ريكيافيك في مكانها حتى وإن فاتتكِ سفينة وركبتِ أخرى».

1- حصان خفيف الوزن يُحتفظ به للركوب فقط.

أجابت بإصرار: «نعم، ولكن يجب أن أذهب في هذه السفينة. حتى لو متّ في التلال. يجب أن أذهب إلى ريكياڤيك يوم السبت».

فيمَ كل هذه العجلة؟

لم تجب؛ استولى عليها اليأس. اشتكت من أنها كانت على وشك الاختناق، ورفضت أن تأكل أو تشرب. لكنها بقيت هناك تلك الليلة رغمَ الرائحة الكريهة؛ لم يكن من مكان آخر للذهاب إليه. لم تخلع ملابسها، إلا أنها استلقت على بعض الصناديق بعد أن لفّت نفسها بواحد من أغطية حصانها القماشية. لم تقبل النوم على السرير. خلال الليل سُمِعت تنهداتها وأنينها؛ مرة بعد مرة انسلّت على السلّم في العتمة ومضت إلى الخارج. تساءل بيارتور: هل تريد مبولة؟ كلا، كانت تتفقد الطقس فقط. وتقيأتْ. كان عليها أن تصل إلى ريكياڤيك بحلول يوم السبت.

تلك الليلة كان النوم شحيحًا بالنسبة للجميع في الكوخ. ما الذي كانت تسعى وراءه في ريكياڤيك؟ من عساه يكون الذي كانت ذاهبة للقائه؟ ألم يكن لآستا سوليليا جبين عال وحاجبان متقوسان بالكامل مثلما كان لديها؟ وما عادت آستا سوليليا نحيلة، كانت أيضًا فتاة شابة مفعمة بالحنين واليأس. كان بيته يقفُ وحيدًا في الغابة، وليس مع فتاة أمامه، كما هو الحال في طبق الكعك الخاص بالأم، وإنما بمفرده مثل البيت المرسوم في التقويم الذي هوى إلى الطابق السفلي في العام قبل الماضي، وداستهُ حوافر الأغنام في الوحل. لقد حصلت عليه أولًا، لقد حلّ ضيفًا على أرضهم، وليس أرضها. إلهي العزيز، ما الأحلام التي حلمت بها طيلة الشتاء وحتى الموت الأحمر في الربيع؛ هي أيضًا كانت مستلقية وهي مستيقظة هذه الليلة وتتمنى بشغف أكثر من أي وقت مضى، أكثر شغفًا من أي وقت مضى! البعض يُتركون جالسين في موت الربيع، والبعض الآخر في طريقهم إلى الجنوب.

استيقظت آستا سوليليا في وقت مبكر من صباح اليوم التالي بعد غفوة قصيرة على صوت ضحك فرح واضح؛ خمدت العاصفة، وكانت ابنة الوكيل سعيدة، وتلتهم شطائرها بنهمٍ، وكان لديها متسع من الوقت للحاق بالسفينة. زعمَ مرافقها، وكان محقًا في زعمه، بأن التوقعات لم تكن مطمئنة

إلى ذلك الحد، لكن ابنة الوكيل ضحكت وقالت ما يهم ذلك وحقّ الجحيم، وقد استعادت حيويتها في الشتم والتجديف، وخرجت إلى حيث الأحصنة، ونادت على مرافقها على فترات متقطعة: «أوه، تعال إلى هنا، ألم يحن الوقت لكي نذهب؟»

غير أنه كان منشغلًا في الطابق العلوي في شرب القهوة مع العائلة. وقال: «يالهذه الضجة اللعينة التي تُحدِثها!»

«إنها في مزاج سيئ الآن، باركها الله».

قال المرافق وهو يبتلع قهوته بصوت مرتفع: «صحيح! هؤلاء النساء جميعهن يتوترن حينما يصبحن على وشك الزواج».

سأل بيارتور: «هل أنا مخطئ، أم إنها تسمن في ذلك الاتجاه؟»

«لا يتطلب الأمر أكثر من نظرة واحدة لرؤيته».

قال بيارتور: «على ما أعتقد، شخص ما أو آخر عَبرَ ذلك الطريق».

«ها! هل تعتقد أنهم جربوا صنانير صيدهم على أرضك فقط، هؤلاء الأبطال التعاونيون من الجنوب؟»

ردّ المزارع: «أوه! إذن كان واحدًا من تلك العصابة، أيضًا، الخنزير! كان يجب أن أعرف».

ولكنه مع ذلك دلّ ضيوفه على الطريق قدر المستطاع.

الريح باردة جدًّا، من المحتمل أن يكون هناك المزيد من الثلج في الأفق. إلى الجحيم جميعًا.

«ألم يحن الوقت بعد لكي ينهض هؤلاء الشياطين الصغار الكسالى من السرير؟» تناول من الأعلى سكينتيّ جزار موضوعتين في قطعة من الخيش، أخرجهما من الصرّة ووضعهما على السرير بجانبه، ثم أخذ مِشحذا من على الرف، تفلَ؛ مزّق صخب شحذ السكين الأثير بمخالبه.

«هيلغي، انهض يا ولد، أنا أريدك».

نهض الفتى من السرير عابسًا، ارتدى سرواله، وهمّ بالبحث عن بقية أغراضه. واصلَ بيارتور سنّ السكين. استرق بقية الأطفال النظر من تحت البطانيات. ظلّ يشحذ السكين لبعض الوقت، ثمّ اقتلع شعرة من رأسه،

واختبرَ النصل. بعد ذلك أخرج مفك براغ صدئًا من صندوق الأدوات، مسحه على ساق سرواله، ثمّ سَنّه.

«ألم تلبس ثيابك بعد أيها الصبي؟»

«ماذا يجب أن أفعل؟»

«ماذا يجب أن تفعل؟ عليك أن تفعل أي شيء لعين أقوله لك. انزل!»

دفعَ الصبي من أمامه إلى الطابق السفلي بينما حملقت فِينا في زوجها بعينين مذعورتين وهو واقف بجانب الباب الأرضي وفي كل يدٍ سكين. أتراها هذه المرأة المنهكة التي آمنت بالنصر الختامي للخير والتي صنعت مخفقة بحسب تعاليم يسوع المسيح، أتراها حسبت أنها تستطيع فعل أي شيء لإزاحة هذه الإرادة المتعنّتة غير القابلة للهزيمة التي بُنيت عليها حرية الأمة واستقلاليتها منذ ألف سنة؟ ألف سنة آيسلندية. ألقت بذراعيها حول رقبة زوجها وهو واقف بالقرب من فتحة الباب الأرضي ويحمل سكينًا في كل يد. ناحت قائلة: «كما لو أنك تقتلني أنا يا بيارتور. ما عدت أحتمل أكثر رؤية الأطفال يتضورون جوعًا. واختلجت من رأسها إلى قدمها وهي تبكي. زهرة أبدية وحيدة مع دموع مرتجفة. ولكن بهزّة واحدة من كتفيه رماها بعيدًا عنه، وراقبته وهو يهبط السلالم بعينيه المحمومتين ثم يختفي.

لمدة من الوقت لم يُسمع شيء سوى تحركات صامتة. حَلّ طرف الحبل، وصنع من نهايته رسنًا، ثمّ نُخِست البقرة على أقدامها، وكانت ميتة أكثر منها حية، فراحت تئنّ من المجهود. فكّ حبل الحظيرة؛ ثم خارت خوارًا مثيرًا للشفقة عبرَ باب البيت المشرع.

بالنسبة إلى فينا سيدة البيت الصيفيّ، تلك المرأة الصموت المُحِبّة للأغاني، المرأة التي أنجبت عدة أبناء من أجل استقلالية البلاد والموت، كانت هذه اللحظة بمنزلة النهاية لكل شيء. كانت طيّبة الخُلق. كان لها أصدقاء من الجن. لكن قلبها لطالما نبض في فزع. الحياة؟ كان الأمر كما لو أن الحياة في هذه اللحظة تسعى مرة أخرى إلى مَنبتها. خارت ركبتاها وفي صمت مُطبق انهارت بين ذراعيّ هالبيرا؛ انجرفت إلى حضن أمّها الضامر مثل غُبارٍ تافِه.

***

الكتاب الثاني

الجزء الأول

الأوقات الصعبة

39. على الرصيف

عندما يكونُ هناك موتٌ في الربيع، ينقضي الصيف بجنازة، والروح؛ الروح؟ أية أفكار تؤوي الروح، في خريفٍ جديد، في مُستهلّ الشتاء؟

قال الأخُ الأكبر بينما هو قاعد على الأرضية المرصوفة قبالة البيت عند الغسق: «وإذا حدثَ أن كان شتاء طويل، لو حدث أن كان شتاء من النوع الذي يتمدّد ويستمر في التمدد ويدور ثم يدور في دائرة من هناك، بلا معنى، مثل كلب يركض في دوائر لأن أحدًا يمسكه من ذيله؛ ومن ثم تستمر في الدوران، تدور وتدور، في نفس الدائرة دومًا، إلى أن يستحيل إيقافها في النهاية، مهما حاول المرء أن يفعل؛ ماذا بعد؟»

وأجاب على سؤاله بنفسه: «لا شيء يمكن أن يحدث».

الأخ الأصغر: «لا يمكن أن يكون هناك شتاء طويل كهذا. لأنه لو حدث مثل هذا الشتاء –مائة عام مثلًا– أنا عن نفسي سأصعد إلى الجبال وأعيش في بيت هناك».

«لماذا؟»

«لأرى إن كان بمقدوري مشاهدة البلدان».

«أية بلدان؟»

«البلدان التي أخبرتني عنها أمي، قبل أن تموت».

«ليس هناك أية بلدان».

«بلى، أقول لك هناك بلدان. في فصل الربيع غالبًا ما رأيتُ الشلال يتدفق إلى الخلف فوق القمة».

بالطبع لم يكن الأخ الأكبر يحبذ الإجابة بعقلانية على شيء مُناف للعقلانية تمامًا، ومن الواضحِ أنه نابع من عالم الأمنيات، لكنه اكتفى بعد وقفة بالاستمرار من حيث كفَّ عن الكلام.

قال: «ولكن لنفترض أن هناك جنازة طويلة، يعني على فرض أنه هناك جنازة طويلة إلى درجة أن موعظة القس تستمر من تلقاء نفسها، مثل تسرب الماء، قطرة بعد قطرة، كما تعلم، وافترض أنها لم تنته قط. لنفترض أنه قال مائة وخمسين آمين واحدة تلو أخرى. لنفترض أنه استمر في قول آمين لمائة وخمسين سنة. ماذا سيحصل حينئذ؟»

«لا يمكن أن تكون جنازة طويلة كهذه. سوف ينهض الناس ويمشون».

«ولكن التابوت أيها الأحمق. هل سينهض ويمشي هو أيضًا؟»

أجاب الأخ الأصغر: «سيأخذ الناس التابوت معهم».

«هل أنت معتوه يا رجل؟ هل تعتقد أن أحدًا سيكون لديه الجرأة كي يرفع التابوت ويأخذه معه قبل أن يقول القسّ آمين للمرة الأخيرة؟»

«عندما دُفِنت أمي، ظل القس يتحدث ويتحدث؛ أعرف، لكنه توقف في النهاية. وحينما اشتهى كوبًا من القهوة توقف من تلقاء نفسه. كنتُ أعرف أنه سيتوقف في وقت ما».

تحرّك الأخ الأكبر مقتربًا من أخيه الصغير حيث كانا يجلسان على الأرضية المرصوفة ووضع يده على كتفه مثل الحامي: «ما زلتَ صغيرًا جدًا يا نوني، لا يُتوقع منك أن تفهم».

ردّ نوني الصغير معترضًا: «ولكنني أفهم»، ولم يحتمل يد أخيه الحامية على كتفه. «أفهم كل ما تفهمه، وزيادة!»

قال الآخر: «حسن، إذن، بما أنك ذكي للغاية، ما الجنازة؟»

تفكّر الأخ الأصغر قليلًا، لأنه كان عازمًا على إعطاء الجواب الصحيح،

ثمّ تأمل وقتًا أطول، ولمّا يجد الإجابة الشافية تمامًا، ثم في آخر الأمر تدبّر وتبصّر كثيرًا لدرجة أنه بحياته كلها لن يجد إجابة معقولة لهذا السؤال البسيط، لذا كان على الأخ الأكبر أن يجيب على السؤال بنفسه. فقال:

«الجنازة هي جنازة، أيها الأحمق».

وكان نوني الصغير شبه متفاجئ من نفسه، إذ ما كان ينبغي أن يَحدث معه هكذا، والإجابة غاية في الوضوح.

ثمّ استأنف الأخ الأكبر قائلًا:

«ولا ينتهي الأمر بعدئذ. مع أن الناس يرحلون؛ ومع أن القس يقول آمين للمرة الأخيرة؛ وعلى الرغم من تدفق الشلال إلى الخلف أعلى الجبل، كما قلت إنه فعل في الربيع الماضي، وهو في الواقع غير صحيح، لأنه ليس هناك شلال بإمكانه التدفق إلى الخلف أعلى الجبل. ولا ينتهي الأمر أبدًا، أبدًا منذ ذلك الحين فصاعدًا. وهل تعرف لماذا؟»

«لا تكن سخيفًا، أيها المخبول الكبير».

«ذلك لأن الجثة لا تعود إلى الحياة أبدًا».

«أوه، لماذا تحب أن تضايقني دومًا، ألا يمكنك أن تدعني وشأني»، وابتعد الأخ الأصغر قليلًا.

«هل أنت خائف؟»

«لا».

ازدادت عتمة الغسق أكثر فأكثر على الرصيف، صار الجو شديد البرودة، وتراكمت في الأفق كتلة داكنة من الغيوم؛ ربما كان قدومها لغرضٍ ما، كانت الجدة تتوقع قمرًا جديدًا.

«اسمع يا نوني، هل تريد مني أن أخبرك شيئًا؟»

قال الصبي الصغير: «لا، لا داعي لأن تزعج نفسك».

«إذا جلسنا على البلاط هنا لمائة سنة، وربما مائة وخمسين سنة، وكان الظلام قد بدأ يهبط كما هو الآن، وكان أبي يَعلِف الخراف نفسها، من القشّ نفسه، من الحزمة نفسها، و» ....

«لو كان أبي في المنزل لضربكما بشدة على الجلوس هنا والتفوّه بالترهات مثل البلهاء، في حين أنكما تعلمان أنه يجب عليكما الاشتغال بشيء ما على الدوام»، لقد كان الأخ الأوسط غُڤيندور، الذي تسلل إلى المحاورة الصوفية مثل لصٍّ في الليل.

ولكن على نحو لا يُصدق كما بدا، كان الأخ الذي فَهِم أقلّ هو من أخذ على عاتقه الدفاع عن الذي تحدث أكثر، وسأل الأخ الأوسط بحدّة: «هل تحدّث معك أحد؟»، وأضاف الأكبر: «لا أحد أبله إلى هذا الحد كي يتحدث معك». لم يفهم شقيقهما غُڤيندور الروح أبدًا، في حين تجادلا دومًا وبِسرية حول أحلامهما ويأسهما. الاختلاف في وجهة النظر وحّد بينهما ضد الآخر، الذي فكر فقط في الاشتغال بشيء ما.

ردَّ غُڤيندور: «يا! اسألا أبي وسوف يخبركما بأن فيّ من الرجولة أكثر مما فيكما كليكما معًا».

«من يهتم؟ نحن من كانت أمي تحبه أكثر».

«يعجبني هذا، حينما لم يكن في أعينكما أثر دمعة واحدة عندما دُفِنت، ولا في عين واحد منكما، وقالت العجوز غونا من ميري إنه من العار رؤيتكما. أمكما تُدفن وأنتما جالسان هناك تحدقان في القسّ بفمٍ فاغر مثل زوجين من العجول».

«هل تعتقد إذن أننا سنُحابي أبانا بالبكاء والنواح؟ لا، هذا مستبعد جدًا. نحن لا نستسلم أيضًا؛ نحن جومسڤايكينغ أيضًا. أنت من يبكي وينوح. نحن نجدّف».

فقط حينما اشتعلت شرارة الجدال، أطلّت آستا سوليليا برأسها من مدخل الباب، وأمعنت النظر في الغسق باتجاه الطريق، وهي تجفف يديها ذاتي الأصابع الطويلة المتقاطر منها الماء بتنورتها البالية. «يا أولاد، ألم تلمحوا له أثرًا بعد؟»

«من تقصدين؟»

«من برأيكم أقصد؟ أظهِروا شيئًا من الإحساس لمرة واحدة في حياتكم!»

«هل تعتقدين أنه ميت، أم ماذا؟»

«ها! لا أعرف ما الذي حملك على التحدث عن أبيك بتلك الطريقة المخجِلة».

غُڤيندور: «نعم، ما من شيء يرغبانه أكثر من رؤيته ميتًا حتى لا يضطرا إلى الاستمرار في فعل شيء ما، ثم يتسنى لهما أن يستلقيا على الأرضية المرصوفة هنا مثل الكلاب ويثرثران طيلة اليوم».

نوني الصغير: «حسنًا، سوف نذهب بعيدًا ونسافر حول العالم بأسرهِ متى نشاء، ونترككم جميعًا هنا».

آستا سوليليا: «ياه، كرمى للسماء ابتعدا من هنا إلى عالمكما، وعاجلًا غير آجل! لا أحد سوف يحسدكما! قالت هذا لأنها عرفت العالم عن تجربة شخصية. ثمّ استدارت وَدَلفت إلى الداخل من جديد.

وهكذا تُرِكا قاعدين على البلاط وحدهما كما كانا من قبل.

حينما طالَ أمد الصمت، قال هيلغي أخيرًا: «هي الأخرى كانت تنوح».

نوني: «نعم، وما زالت تبكي وتنوح. كانت تنتحب في الليلة قبل الماضية. وكانت تنتحب أيضًا مرة أخرى في الليلة الماضية. لا أحد يفكر في البكاء بقدرِ نِصف ما بكت آستا سوليليا».

«هل تعرف يا نوني؟ ليس لديها الحق في البكاء. لم يكن لديها أي علاقة بأمنا حتى. وبالتالي لا علاقة بينها وبين أي شخص آخر هنا».

«نعم، لا علاقة بينها وبين أي شخص آخر».

«يمكنك أن تعرف هذا جيدًا من عينها أيضًا. عينها حولاء».

«أجل إنها حولاء».

«ومع أنها تظن نفسها أنها كبيرة، وتستطيع التسلط على كل من حولها فقط لأن صدرها بدأ ينتفخ من كلا الجانبين مثل امرأة، فإنها في الواقع ليست كبيرة على الإطلاق، وليس بوسعها التحكم بأي أحد، مثلما رأيت في الليلة السابقة عندما كانت في الفراش. ولكن احترس من أن تسمعك؛ لأن لديها عادة إصغاء سيئة، وتُباغتك بِلكمةٍ من حيث لا تتوقع».

«لا يهمني. هي السبب في موت أمي. حصلت على معطفِ في حين لم

تتمكن أمي من الحصول على معطف، وكان يُسمح لها بالعودة إلى البيت مرتين يوميًا، بينما توجب على أمي مواصلة العمل في الحقول مع أنها كانت مريضة».

«هل تتذكر يا نوني حينما سقطت أمي بين ذراعي الجدة ولم تستطع الوقوف ثانية؟ هل تتذكر كيف ارتجف جسمها كله؟»

مرة أخرى لم يجرؤ الصبي الصغير على الإجابة.

الصبي الأكبر: «كان ذلك في اليوم الذي قُتِلت فيه بوكولا».

صمت.

«هل لاحظت أن بعض الناس موتى على الرغم من كونهم أحياء؟ ألم ترَ هذا من قبل في عيون بعض الأشخاص الذين يأتون إلى هنا؟ أنا أرى ذلك على الفور؛ عليهم فقط أن ينظروا إلي وأراه، من دون أن ينظروا حتى. اليوم الذي سقطت فيه أمي بين ذراعي جدتي كان يوم موتها، لم تبقَ على قيد الحياة قط بعد ذلك. هل تذكر كيف نظرت إلينا تلك الليلة؟»

«أوه، اخرس يا هيلغي. لماذا تصرّ دومًا على مضايقتي؟»

«كل شيء تنبأت به العجوز فريثا منذ بضع سنوات أصبح حقيقة، على الرغم من جنونها. قالت، طغيان الإنسان، بهذه الطريقة سوف يقتلكم جميعًا».

ثم مضى الأخ الأكبر في حديثه. قال إن بعض الناس لديهم مَلَكة بمعرفة تصاريف القدر. تتجه بصائرهم نحو كل ما هو غامض، وحتى إلى ما هو أشدّ غموضًا، ويستشعرون تلك الأبعاد المهيبة المفتوحة ما وراء الحياة وما وراء الكون، المشهد الذي حجبه الله عن الأعين البشرية الفانية. في مواجهة هذه القوى، وهذه الرؤية. وقفَ الأخ الأصغر عاجزًا وجاهلًا، هو من أضمرَ أمنية، بل أمنيات. قال: «هيلغي، أتمنى لو أنني كنتُ أكبر»، لأنه بواسطة أمنياته والأمنيات التي حَبَتهُ بها أمّه كان يحاول تفادي أحكام القدر، ومما هو وراء القدر. نعم، من الرائع أن يكون لديك أجنحة وأن تحلّق فوق القضاء والقدر مثل الطيور المحلّقة فوق السياج الكبير في يوتيروتسميري؛ نعم، وفوق الهاتف حتى، ولكنه مهما حاول كان دائمًا مثل حيوان مزرعة، بأربع أرجل وبلا أجنحة، وكان أخوه من حوله مثل سياج هائل من الأسلاك المتشابكة

الشائكة؛ بإمكانه إطالة أمد الغروب على الأرض المرصوفة بِـآمين لا نهاية لها. وعلى الرغم من أن الفتى بدّل مقعده على الرصيف وجلس على البلاطة التالية، لكن ذلك لم يُجدِ نفعًا، لأن هنالك أتت آمين أخرى أيضًا أكثر إطالة، آمين ذات صِلة أكبر بالدّفنِ والقبور.

قال أخيرًا، إذ راودته فكرة رائعة للتوّ: «اسمع يا هيلغي، لماذا لا نهرب؟ أنت تتذكر الطفل المتبنى في جيل الذي هرب. لقد هرب. هرب على طول الطريق إلى ڤايل».

أخبره هيلغي: «كان والده ووالدته يعيشان في ڤيك، وعندما نزل من التلال آوياه. ولكن نحن؛ من سيؤوينا؟ وأين؟ لا أحد. ولا مكان».

مرة أخرى الأرضية المرصوفة قبالة البيت، وعتمة الغسق أمست أشد كثافة، وخاصة على الأخ الأصغر الذي لم يكن محظوظًا للاعتزاز بأحلام وردية والتغني بها، وحينما لم يعد بوسعه الاحتمال أكثر، جرّب اقتراحًا آخر، فقال: «حينما كانت أمي شابة كوّنت صداقة قوية مع بعض الأشخاص من الجان؛ كان ذلك حينما كانت تعيش في أورثارسيل. لقد أخبرتني بهذا عندما كنا نذهب معًا إلى سفوح التلال في العام الماضي لمراقبة بوكولا. وكانت تقرأ شعرًا. وفي مرة من ذات المرات، عندما كنتُ صغيرًا، أخبر الجن أمي بأنني عندما أكبر سوف أغني الأغنيات –ولم يجرؤ على ائتمان أخيه على سرّه بأنه سوف يغني للعالم بأسره، خشية أن يستهزئ شقيقه بطموحه الخجول هذا؛ إذ إن أخلص أمنيات الروح كمثلِ أعمق أحزانها– واكتفى بالقول: «سوف أغني للناس في كنيسة يوتيروثسميري».

«اسمع يا نوني، ألم تعرف بعد أنهم يخبرونكَ بمختلف الأمور عندما تكون صغيرًا؟ ولماذا يخبرونك بهذه الأمور؟ فقط لأنك صغير. لقد أخبرتني بالأمور ذاتها. قالت، هناك أقوام من الجان، وهم يعيشون ما وراء الطقس الجيد والعواصف؛ وما وراء أشعة الشمس، في أشعة شمس أخرى. وما وراء الأيام. ثم أنجبت مولودًا ومات، واستلقت مريضة لأسابيع وأسابيع، وفي كل مرة تتنفس فيها، كنتُ أسمع كم كان النّفَسُ يؤلمها، وفي بعض الأحيان أستلقي مستيقظًا في الليل وأصغي إلى أنفاسها الأليمة. في الليل كنتُ أخرج،

في بعض الأحيان يكون الثلج متساقطًا، وعلى الرغم من عدم معرفة أحد بالأمر، كنتُ أذهب إلى كل صخرة على امتداد الجبل بأكمله، وأهمسُ في الصخور كلها، وأُزيل الثلوج عن بعض منها حتى تسمعني على نحو أفضل، وأطلب من كل صخرة أن تساعدها، مثل الصخور التي ساعدت الناس في قصصها. في إحدى الليالي سألت لها العون من عشر صخور، أنا متأكد من أني طلبته من ثلاثين صخرة، لأنني قلت في نفسي إنه إن لم يكن في هذه الصخرة أيّ من الجن، من المحتمل أن يكون في الصخرة التالية. وكنتُ واثقًا من أنهم إن كان لهم وجود على الإطلاق فسوف يساعدونها. وربما سوف يساعدوننا جميعًا. إلى أن ماتت. ثم ماتت. قل لي لماذا لم يساعدوها؟ أنت يا من تعتقد أنك تعرف كل شيء! أجل، أعرف أنك لا تستطيع إخباري. أعلم أنني يجب أن أخبرك بنفسي لماذا لم يساعدوها. ذلك لأنه لا وجود لأيّ جان. لا في هذه الصخرة ولا في تلك الصخرة؛ ولا في أي صخرة. لقد روت علينا أمي هذه القصص لأننا كنا صغارًا فقط، ولأنها كانت على نِيّاتها».

صاح نوني مجروحًا متألمًا وفي صوته شيء من الانتحاب: «أنت كاذب!»

واستأنف الآخر: «وحينما كبرتُ، كنتُ غالبًا أصعدُ إلى العلية في وقت الغداء، وتكون مستلقية على فراشها مريضة، وكنتُ أفكر في سؤالها إن كانت القصص التي روتها عليّ صحيحة. لكني لم أسألها قط. لأنها لو كانت صحيحة، فسوف يقدم لها الجان يد العون. ولنا جميعًا. وإن لم تكن صحيحة، حسنًا، لم أشأ أن تعتقد أنني كبرت. ثم كان يأتي أبي ويطردني إلى الخارج».

«أنت كذاب، كذاب، كذاب»، صاح نوني الصغير باكيًا، وانبطحَ على أخيه بقبضتين مضمومتين كحجة ملموسة على وجود عالم آخر وأفضل.

سأل الأخ الأكبر، غير متزعزع منطقيًا، بعد أن كفّ الآخر عن لكمهِ: «نوني، هل تتذكر ترنيمة العاصفة؟ نوني، أتعرف؟»

أجاب الأخ الأصغر: «لا، دعني وشأني، إنه لمن المضحك أنه لا يمكنك أبدًا ترك الواحد في سلام».

«هل لاحظت أنه كلما حصل شيء تقول جدتي نعم كنتُ أعرف، أو تقول

إن القادم أسوأ، كان هناك شيء مدنّس هنا هذا الصباح؟ وهي دائمًا على نفس الوتيرة في مشاعرها، مهما حدث. فلا هي مبتهجة، ولا هي حزينة. هل تذكر ماذا فعلت حينما تُوفيت أمي، وأعدّت آستا سوليليا الجثمان؟ قبّلت الجثمان وقالت: ولستُ أستغرب».

فأجاب الأخ الأصغر بنبرة رتيبة، كان كلامه اعتباطيًّا: «ذلك لأنها ستبلغ المائة من عمرها عما قريب».

ولكن ولا بهذه الطريقة حتى سُمِحَ له بأن يكون على حقّ!

قال الأخ الأكبر: «لا، ذلك لأنها مستبصرة بكل شيء. إنها تعرف كلّ ما بين السماء والأرض. ألا تذكر الرجل المخبول في ترنيمة العاصفة، وكيف تلبّسَ الحيوانات؟ من يستوعب جدتي يفهم كل شيء».

قال نوني الصغير: «لم تغنِّ أمي أية ترانيم، وأبي يقول لا يوجد مسيحيون».

قال الآخر: «ربما لا يوجد، لكن الرجل المجنون في ترنيمة العاصفة موجود بالفعل، وهو كولمكيلي ولا أحد سواه، كما أقول لك. وكيف أعرف؟ أعرف لأنني رأيته بأمّ عيني. متى؟ غالبًا. هل تذكر تلك الليلة من آذار العام الماضي، على سبيل المثال، حينما كان أبي يعيد الأغنام إلى المنزل؟ أنت تتذكر أنه وجد إحداها مقطّعة الأذنين؟ حسنًا لقد شهدتُ الحادثة بنفسي. رأيته بأمّ عيني وهو ينبثقُ من عاصفة من المطر، وينقضّ على إحدى الأغنام ويفعل شيئًا لها. لم أعرف في ذلك الوقت من هو أو ماذا يكون، ولكن حدث ما حدث. لقد كان هو».

تساءل الصبي الصغير ببلاهة: «هل كان هو؟»

«والربيع ما قبل الفائت، حينما كانت تموت الخراف، كان ذلك لأنه فعل لها شيئًا من قبل. وماتت بعد ذلك مَاحلة جافّة. فعلها كولمكيلي، كولمكيلي، الذي قُتِل سبع مرات، ولكنه كان يعود إلى الحياة في كل مرة، ويعيث فسادًا في المزرعة. لقد عاث فسادًا في المزرعة وخرّبها سبع مرات، كما في وسع أي أحد إخبارك. أنا أراه كل يوم».

صاحَ الصبي الصغير: «أنت كذاب، لم ترَ أحدًا»، وَهمّ مرة أخرى بلكمِ أخيه، هذه المرة شبه باكٍ.

وأردفَ الآخر: «وهل تعلم لـمَ أراه؟» وقبضَ على معصمي نوني الصغير، واحتجزهما بسرعة بينما همسَ في وجهه: «لأنني أنا أيضًا ميت. انظر إلي يا نوني، انظر إلي مليًّا، انظر في عينيّ. ترى شخصًا ميتًا».

ضدّان متكاملان، تناقضات أبدية في هيئة بشرية؛ في خريف جديد، في مستهلّ الشتاء، في الغسق؛ امّحت حدود العالم والمتخيّل؛ قمرٌ جديد لاحَ من خلف السُّحب.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

40. الجرذان

الآحاد الأربعة قبل عيد الميلاد.

خرجَ بيارتور إلى بيت النعاج. كان الثلج متجمّدًا ومتصلّبًا هنا وهناك، ولم يكن من احتمالية للرعي. كانت الجدة قد شنّت بأصابع خَدرة حربها غير المنقطعة مع نار الشتاء العنيدة، بينما استلقى الأطفال محتشدين في الدخان، نائمين أو مستيقظين تمامًا مثل العام المنصرم والعام الذي قبله، مُصغين أو غير مُصغين إلى الفرقعة الواهية للحطب في الموقد؛ وقبل أن تعمد الجدة إلى أولى محاولاتها غير المثمرة لإيقاظ آستا سوليليا، كان نوني الصغير يحاول على نحو عبثي أكثر التركيز على شيء من الممكن أن يحدث بعض الوقت على الأقل، بطريقة ما، في مكان ما، وكان من المأمول حدوثه في حضور شخص أو آخر. في السنة المنقضية كانوا جميعهم يعيشون هنا في ملاذٍ من الكَرب والعذاب، في تنفّسٍ موجع بات صامتًا الآن كَصمتِ وتر الكمان في القصيدة. رحلَ الألم الذي أسبغَ علينا من حُبّه جميعًا ومنح أرواحنا الحياة، ذهبَ العذابُ الذي يَهِب الحياة حتى للأشياء الجامدة الموَات داخل الروح؛ ومنذ مدة طويلة انكسرَ طبق الكعك المشجّر.

ثمّ فجأة، وقبل اشتداد النار بوقت طويل، وقبل بوادر غليان الماء بزمن أطول، صعد الأب السلالم يستشيط غضبًا. اندفعَ بسرعة عبر الغرفة، والتقفَ سكاكين الذبح، وأخرجها من لفّة الخيش.

فقالت الجدة: «وَيْ! يبدو أن شيئًا آخر سوف يُذبح».

زعقَ قائلًا: «هيا انهضوا، أنتم يا أولاد». جرّ الأطفال من الفراش، والفولاذ اللامع في يده. «من الأفضل أن تأتوا معي إلى الحظائر، وتروا علامات ما حدث، حتى تتمكنوا من إجابة جدتكم!»

ردّت المرأة العجوز: «أوه، لا حاجة لأحد في التساؤل أو الاستغراب رغم ما يقع هنا، الأمور متوقعة».

في الحظائر صفوف نحيلة هذا الشتاء. الأقوى تنجو. والرديئة ترحل، كما كان أولافور يازتدال يُردّد كثيرًا، على أمل إدخال السّلوى على نفسه وعلى نفوس الآخرين بمبدأ علمي؛ حتى الأجانب كرّروه في الصحف مرات لا تحصى. وكانت الخراف الواقفة على معالف بيارتور صاحب البيت الصيفيّ في ذلك الشتاء خرافًا حسنة وعلى ما يُرام، كانت خرافًا جميلة، وكان المزارع مولعًا بها على قلّتها، مثلما كان كَلِفًا بالقطيع بأكمله. لم يكن من عادته رثاء ما فقد. بعض الناس يفعلون ذلك، لكن بيارتور صاحب البيت الصيفيّ كان يعتقد أنه يجب على الإنسان مواساة نفسه بما يملك؛ أو بالأحرى بما بقي لديه؛ بعدما فقد ما كان لديه. وليست الديدان المصيبة الأسوأ التي من الممكن أن تحلّ على مُزارع الأراضي البور، وإنما القوى الخفية التي لا يمكن لجْمها حتى مع توافر محصول جيد من القشّ. كانت المرأة العجوز محقّة حين قالت إن القادم أسوأ. كانت القوى الخفية في ذلك الحين تعمل عملها.

في ذلك الصباح كان ينزل على السلم في حظيرة النعاج من أجل القشّ، وما الذي وجده هناك محشورًا بين درجات السلّم؟ في هذا المكان الذي لا يُعقَل وجد إحدى نعاجه، ميتة، ومُداسة بالأرجل، ومحشوة بين درجات السلم مثل خِرقة بالية، عمودها الفقري متهشم، وقرنها مَلويّ حول حافة السلّم. أطلق العنان لكل الشتائم التي تمكّن لسانه من التلفّظ بها في وقت قصير، وسحب النعجة من بين الدرجات، وألقاها على ركام ثلجي في الخارج، ثم استدعى الأولاد. والآن كان واقفًا وَبصرهُ على الشاة الميتة في الأسفل، وكان والأولاد واقفين ينظرون إليها أيضًا، وقد أخذهم العجب جميعًا، في ضوء الصباح الرمادي. كان مثلجًا ولكنه غائم كئيب. بعض الأيام تكون غبية بشكل غريب حينما ينظر إليهم الأبُ متسائلًا؛ فيبدون غير قادرين

على الإتيان بإجابة، في حين تكون باقي الأيام ذكية وبوسعها تقديم إجابات لكل شيء. فكّر غُفيندور بأن الشاة كانت تحاول التسلل إلى حظيرة التبن وعلِقت بإحكام. قال له هيلغي: «أحمق!»

أمسكَ نوني الصغير قبضة بيد أخيه الأكبر ثم أفلتها. كانت أسنان آستا سوليليا تصطك. قال لها بيارتور: «أنت لا تشبهين أمك. لم تكن تقفزُ فَزِعة من التفاهات مثل امرأة عجوز على القِدر». لكنها قالت إنها لم تكن خائفة، فمن المُيُوعة أن تخاف، كانت تشعر بالبرد فقط.

خيّمَ شبح هذا العمل الوحشي مدة يومين فوق المزرعة. ثمّ أتى زوّار من مساكن البلدة، كانوا أشخاصًا مسالمين ولم يكشفوا عن أسمائهم، لكن بيارتور لم يكن في مزاجٍ رائق، وصرّح بأنه قدّم لهم قهوة الطفيليات هذه بيدٍ ممتعضة. فعليًا لم يكن من الصواب تشجيع مثل هؤلاء الناس على القدوم إلى المكان وتقديم القهوة لهم، مثل هؤلاء الناس يجب أن تُقدّم لهم الزُبالة. من شبه المؤكد أنهم كانوا من نسل المجرمين، وبالأخص من سارقي الأغنام؛ لم يحدث أن وطِئ هؤلاء الحثالى أولاد الزّنى أرض البيت الصيفي من قبل. ماذا حدث؟ أجابهم بالقول: «إن كنتم قد أُرسِلتم إلى هنا للسؤال عن ذلك يا فتيان، يمكنكم القول إنكم لم تَقِفوا على الحقيقة». وهكذا انطلقَ الزوار عائدين إلى موطنهم، مثلما جاءوا.

في صباحٍ اليوم الثالث، لدى دخوله إلى حظيرة الحِملان، اصطدمَ رأسه بشيء متدلٍ من السقف. قال في نفسه: «اللعنة!»، وشرع يشتم من فوره. لقد كان واحدًا من أجود حِملانه، والحبل يلفّ عنقه. قطع الحبل وأنزل الدّابة، ثم تفحص الحبل عن كثب، لكنه لم يكن واحدًا مِن حِباله. فكّر: «لا يمكن أن يكون هذا من صنيع إنسان»، لم يستطع التصور أن هناك إنسانًا حقيرًا لدرجة التفكير في شنق شاة. لدى معاينة الثلج حول الحظيرة، وجدهُ صلبًا، متجمّدًا ومتجلّدًا، ولا آثار عليه؛ وكان يجب أن يحصل هذا له، لبيارتور صاحب البيت الصيفيّ من بين جميع الناس! رجل لم يؤمن حتى بالروح؛ فما بالك بالشياطين والأشباح! لكنه في هذه المرة استخفّ بالحادثة في البيت، قائلًا إنه اضطر إلى تعليق حَمَلٍ كان قد أكلَ الصوف. لا ينبغي لأحد، وبالأخصّ أولاده، أن يجد شرخًا في درع الشكّ الذي منحه منذ البداية ثباتًا أخلاقيًا

وتجلّدًا أكثر مما امتلكه الأشخاص الآخرون. ومع ذلك، عندما انفردَ بنفسه، ما انفكّت الأحداث في الأيام القليلة الماضية تقتاتُ على عَقلِهِ. كان يقف محدّقًا في الأغنام، عابسًا ومُتمتمًا بينه وبين نفسه، اللعنة وتبًّا! فكّر مائة مرة ومرة. ولم يستطع الانهماك في أي عمل، سواء في البيت أو خارجه. في آخر المطاف، قال لآستا سوليليا: «أعطني زوجين إضافيين من الجوارب النظيفة. أفكر في التمشّي صوب المساكن في البلدة».

«المساكن؟»

«نعم»، أجاب، «أعتقد أنه في زريبة الأغنام جرذانًا». أضاف ذلك على سبيل التوضيح، بطريقة اعتذارية، مثل شخص مصاب بالسرطان ويدّعي أنه مجرّد نتفة مَغص.

تساءل أبناء المقاطعة في دهشة: «جرذان؟ ومن أين أتت هذه الجرذان؟ من المؤكد أنها مجرد فئران».

وجد جاريه أولافور يازتدال وإينار أونديرنيث، يتكهنان في بعض الأمور ويتناولان السعوط عند الغروب، على جري العادة في الأوقات التي تسبق رأس السنة، لذا تناولَ بيارتور السعوط أيضًا وشاركهما التنبؤات. قالا إنه من غير الممكن أن يكون جرذًا، ورد بيارتور بأنه من وجهة نظره لا فرق كبيرًا بين الجرذ والفأر. وقال إينار إن رأيه كان بطبيعة الحال متواضعًا، ولكنه لطالما عرف أن الجرذ يعتبر جرذًا والفأر فأرًا. وأضاف بالقول: «وبما أنني تذكرت من الأفضل أن أعطيك هذه الأبيات القليلة التي كتبتها في الخريف، عندما انتهى ضغط العمل في تيبيس الكَلأ. كتبتُ قصيدة تذكارية من أجل زوجتك الأولى. لذا فكرتُ أنني قد أكتبُ واحدة من أجل زوجتك الثانية أيضًا. كانتا امرأتين ممتازتين، كلتاهما لا تُقدَّران بثمن، أجل، مُبهَمة طُرُق الربّ[1]». ومع ذلك، أكد أولافور، أنه إذا كان فأرًا، وأنه كان يهاجم الأغنام، فَهناك علاج قديم أثبتته الخبرة العملية بما لا يدعُ مجالًا للشّك، على الرغم من أنه ربما لم يندرج في الوثائق العلمية بعد، فعلى سبيل المثال، إن قَرَضَت الفأرة كاهلَ الشّاة، وتمكنتَ من أخذها في راحةِ يدك، وفركتَها

1- اقتباس من رسالة بولس الرسول إلى رومية، الإصحاح الحادي عشر، آية 33.

على الجرح بحيث تخرُج الأمعاء وتمتزجُ مع الجرح؛ فمن المفترض أن يلتئم الجرح.

وكان ردّ بيارتور على إينار: «بإمكانك الاحتفاظ بقصائدك التذكارية. لا وقت عندي للترانيم، سواء للأحياء أم للموتى، ولم يسبق أن كان لدي وقت لها، كما اعتقدتُ أنك تعرف منذ سنوات. لم تُكتَب ترانيم من أجل الجومسڤايكينغ، ومع ذلك اكتسبوا شهرة واسعة، وإن لم تخنّي الذاكرة، فلقد أُخِذَ بثأر جريتير[1] في مايكلاجارد في الجنوب دون أية ترانيم، ومع ذلك أُعتِبرَ أعظم رجل في آيسلندا. لذلك لا أرى أي سبب، لمجرد أن امرأتين قابلتا وجه ربهما، أن يتوجب على الناس كتابة أشياء دينية عنهما. لم أكن يومًا مشغوفًا بالدين، أو بأي شيء روحاني. ولكن إن قبل أحدكما بيعي قطًّا فسأعتبره معروفًا؛ وبإمكانه أن يكون شرسًا كما يحلو له.

عاد إلى المنزل في المساء، ومعه قطّ في كيس. أفرغ الكيس على الأرض في الخارج، وتساءل الأطفال، ما هذا، وقال إن هذا قطّ، وكان في ذلك المساء فرحٌ وابتهاج، في حين اجتاحت القصة الريف مثلَ تَغيّرٍ في الطقس، وقال الجميع: جرذٌ في البيت الصيفيّ! بالقرب من فتحة الباب الأرضي وقف القط مخططًا باللون الرمادي، مرتابًا، وراح ينقل عينيه في الأرجاء بحذر، مع بؤبؤين ضخمين متسعين ومخلب منشوب، وأخذ يموء في بؤس تام، مع عدم إظهار علامات على فقدانه شجاعته. قد تُصدِر القطط الضوضاء الأكثر حزنًا في آيسلندا كلها، لكن لا أحد سمع باستسلام قطّ، القطط لا تستسلم أبدًا. قال بيارتور: «انظروا فقط كيف أنه هو والكلبة لم

1- جريتير: بطل الساغا الآيسلندية جريتيرس ساغا، أو ملحمة جريتير المغوار (1320)؛ واحدة من أفضل الملاحم الآيسلندية. تستند ميزة هذه الملحمة (الساغا) إلى الشخصية المعقدة والإشكالية لبطلها الخارج على القانون والمولع بالقتال جريتير أسموندارسن، وعلى دمجها الماهر في سرد عديد من الأنماط الفولكلورية. تروي الملحمة حياة طريد العدالة جريتير الذي عُرف بمهارته وذكائه، وقد أمضى سنوات طوالًا في أعمال الشجاعة في النرويج، ولدى عودته إلى آيسلندا ينقذ الناس من شبح يدمر الريف، وقد أنزل به لعنة الخوف من الظلام، وهذا ما يبرر التماسه الدائم لمراكز التجمع البشري. يمضي جريتير عشرين سنة دون أن يُقبض عليه إلى أن يُقتل أخيرًا على يد أحد خصومه بالاستعانة بالشعوذة، من ثمّ يثأر له أخوه غير الشقيق.

ينسجما». وفي الخارج أسفل الحائط بدأ يتساءل إن لم يكن من الجنون أن جلب القط معه».

نعم، لقد كان في البيت قطّ. أحيانًا كان يجلسُ على حافة الباب الأرضي في النهار، يصغي بانتباه مشدود إلى نباح الكلبة الحاد في الأسفل، ذلك أن الكلبة كانت غاضبة جدًا من وجود قط في البيت. كان الشعر على ظهرها ينتصب إذا ما عرفت أنه قريب منها في أي مكان، وكانت تشرع في النباح على الفور. إذا صعدت إلى الطابق العلوي، يقفز القط إلى النافذة، كي يستريح فوق حافة سرير الجدة، حيث يتمكن من تثبيت نفسه على إفريز الشباك، ثم يراقب الكلبة بانتباه لبعض الوقت، من ثمّ تتضيق الحدقتان، وتنغلق العينان بطريقة فلسفية. وحينما تذهب الكلبة، يقز القط إلى الأسفل على سرير المرأة العجوز، وبعد أن ينظف نفسه بعناية فائقة، كان ينخفض لينام ورأسه بين قائمتيه الخلفيتين. لم تناده المرأة العجوز سوى بِرجْس القطّة، وفضلات القطّة، ومع ذلك كان يفضل البقاء معها أكثر من البقية، لأنه كان يُقدِّر القلب والتصرفات لا المفردات. لم يُعرف عنها إيذاء أي حيوان. من الغريب الحبّ الكبير الذي تكنّه القطط لكبار السن. أتراها تُقدِّر هذا الافتقار إلى الابتكار، والثراء بالأمان، وهما الفضيلة الرئيسة للشيخوخة؛ أم أنهما تَفهّما اللون الرماديّ بعضهما لبعض، الشيء الذي يكمن ما وراء المسيحية وما وراء الروح؟

***

41. الخدّ الأيسر

حسنًا، ما الحظ الذي حظيَ به هذا القط الحثالة للحيلولة دون وقوع المزيد من المصائب على المزرعة المنعزلة في الوادي؟

قبيل حلول وقت النوم أخذه بيارتور تحت ذراعه، وانطلق به إلى حظيرة النعاج. على أية حال، لم تكن ثقته بالقط على أكمل وجه، وبدلًا من الذهاب مباشرة إلى السرير، مكثَ وقتًا أطول من المعتاد، متشاغلًا ببعض الأعمال الصغيرة لمدة طويلة بعد نوم المرأة العجوز والأولاد. كانت آستا

سوليليا آخر من أوى إلى السرير. قامت ببعض الأمور، بالقرب من الفرن، حتى ساعة متأخرة، شطفت أولًا بعض أغراضها، وأصلحتها، ثم اغتسلت وتهندمت قليلًا؛ لقد بلغت سنّ تمشيط الشعر. في بعض الأحيان، كانت تسخن لنفسها بعض الماء، وتغسل قدميها وساقيها إلى ما فوق الركبتين، وعنقها، وإلى أسفل ظهرها قليلًا، وصدرها، ولم يستطع منعها من ذلك، لأن سَورَة الماء هذه تتجلى في الجنس الأنثوي في عمر معين وتدوم بضع سنوات. إنه الشباب، إنها الزهرة؛ أليسَ العشب يمتصّ الندى أثناء نموّه؟ ثم بعد أعوام قليلة يتوقفن عن الاغتسال؛ حينما يبدأ الأطفال بالقدوم. أخمدَ النور من ناحيته في الدور العلوي، واستلقى على السرير، متثائبًا، وتوسّد يديه، ولكن دونما رغبة في النوم. كانت ما تزال تغتسل وتمشّط شعرها في وميض الشمعة، واقفة في تنورتها التحتية مع قطعة مرآة قديمة مسنودة قبالتها. أنزلت الأشرطة من فوق كتفيها، وغسلت نفسها هناك، وتحت الإبطين، الفتاة المسكينة، لقد صارت بنتًا كبيرة الآن، وليس بيدها حيلة. على أية حال، كانت آستا سوليليا مدركة جيدًا أنّه ينظر إليها، وكانت ستغتسل على نحو أفضل بكثير لو أنه لم يكن ينظر إليها، فلو أنها غسلت نفسها جيدًا ورآها، لكان ذلك من قلة الأدب. من الغريب كم كانت دؤوبة على إقناعه بأنها لم تكن قط تفكر بأي شيء فاحش، بأي شيء غير سليم؛ ولماذا؟ كان ذلك لأنها عانقته، ولاذت بصدره في العالم بالخارج عندما كانت صغيرة، ولأنها لم تكن قادرة على نسيان الحادثة. كانت قبل وفاة زوجة أبيها تتضرج خجلًا في كثير من الأحيان حينما تفكر بالحادثة، ولكن منذ ذلك الحين صار يعتريها بعض الخوف في كل مرة تقريبًا خطرت لها هذه الذكرى. غريب كيف تستمرُ زلّات عفا عليها الزمن من أيام الطفولة الغافلة في غزو العقل، مع أنه فعليًّا لم يحدث أي شيء على الإطلاق؛ كانت خائفة فقط في العالم الخارجي لأنها كانت صغيرة للغاية، وهو دفعها جانبًا وذهب. وهنا يندلع الخوف في جسدها، وحول قلبها، خوف من شيء لم تفهمه. هذا الفزع مما لا يمكن فهمه ظلّ في جسدها يحترق احتراقًا بطيئًا داخنًا بلا لهب، ولكنها حينما تبدأ في التفكير بهذا الشيء، تضطرم الحرائق داخلها، على الرغم من أنها لم تكن عازمة على التفكير في الأمر على الإطلاق. في بعض الأحيان

يطاردها في أحلامها، متّخذًا شكل وحوش وأشباح شنيعة، أو أناس أشرار؛ أو شفا هاوية حيث لا تجد منفذًا لا أعلى ولا أسفل؛ أو، الأسوأ من ذلك كله، الأكوام الغامضة تمامًا من القذارات التي كان عليها حملها، والتي كانت تكبر وتتعاظم كلما أسرعت في حملها. ولماذا كانت سيئة السلوك؟ لماذا لم تكن على صواب؟ لم تقصد أي شيء خاطئ، كان الأمر ببساطة أنها كانت غير قادرة على مساعدة نفسها لأنها شعرت بتعاسة شديدة؛ وهكذا مرارًا وتكرارًا، ومن ثمّ، لا، لن تخلع تنورتها التحتية في حضور أحد، وبالأخص أبوها.

وحدّق في خدها الأيسر في وميض الشمعة وبالتأكيد لم يكن لديه أدنى فكرة عن المشاعر التي كانت تعذّب روحها؛ ولكنه رأى أنه كان خدها الأيسر، روحها اليسرى؛ هاتيك الروح العتيقة التعيسة المنكوبة التي كانت أكبر من الفتاة نفسها بألف سنة؛ روح من عصر آخر برؤية خبيثة مائلة، ورغبات هشة، وملامح تذكر المرء باليمين المقدّسة وبالكراهية القاتلة. الشّفة السُّفلية الممتلئة، التي تبدو ثنيتها من الجهة اليمنى حلوة محببة إلى النفس، بدت من هذا الجانب معوجّة مع كشرة. من المستحيل أن تكون طفلة في الخامسة عشرة من عمرها؛ بدت صورتها الجانبية، عند النظر إليها من هذا الجانب، كأنها تنمُّ عن خسارة كاملة، ولربما عن العمى أيضًا، العمى الذي عاشَ، مع ذلك، في انسجام بغيض مع عالمه الخاص، دون المطالبة بعالم آخر أو أفضل، والذي وهِبَ ازدراء للموت يستشعر جميع الرزايا ويحتملها.

قال: «اسمعي يا بنت». وفكّر: «هل أصبتُ في عقلي أم ماذا؟» قفزت الفتاة من الرعب لسماع صوته، وسحبت الشرائط بسرعة على كتفيها ثانية. حملقت به في فزع، مع خفقان في عينيها، تبتلع ريقها بصعوبة لأخذ النفس، ماذا فعلت؟ ولكن على ما يبدو أرادها فقط أن تستدير على كرسيها، إنه يفضل الجانب الأيمن من الناس، كان قد قال شيئًا مشابهًا لوالدتها عندما كان يركض خلفها، الجانب الأيمن، يا فتاتي، أنت تبدين من خدك الأيسر كأنك مُستبدَلة، وذلك يزداد وضوحًا دائمًا، هكذا تمامًا، نعم. واحترسي ألا تُصابي بالبرد مع كل هذا الاغتسال. ليس من الصحي رشّ الماء كثيرًا ما لم يكن ضروريا يا فتاة، لم يسبق لي قط أن أسرفتُ باستخدام الماء. وكوّمي

الفحم لئلا تنطفئ النار من أجل جدّتك في الصباح، لقد أمست المهمة بالنسبة لها شاقة هذه الأيام، وما هي إلا امرأة عجوز هرمة.

بعد ذلك بقليل نهض وخرج.

تَفقّد الحظائر كيما يتأكد من أن كل شيء كما ينبغي أن يكون. وكان كل شيء كما ينبغي أن يكون. التمعت عينا القط الخضراوان تارة في الطرف الآخر من المذود، وتارة في الأعلى على العوارض الخشبية، على العموم كانا يزدريان بعضهما بعضًا، فقد كان بيارتور يُفضّل الكلاب. عندما عاد مرة ثانية كانت آستا قد ذهبت إلى الفراش؛ أوه حسنًا، فتاة مسكينة، طالما أنها تُبقي نفسها دافئة. على الرغم من القط، شعرَ بأن الأغنام ضعيفة بما يكفي للنهوض مرتين كل ليلة، وأحيانًا ثلاثًا. كان يقصد زريبة النعاج ويبصق في كل الجهات؛ السماء متلألئة بالنجوم، والكلبة تنبح في الهواء. بخلاف ذلك، بدا أن الناس نائمون كالمعتاد ويحلمون كالمعتاد، أحيانًا بدولار فضي، وأحيانًا بعشرة سنتات فقط، وأحيانًا بالمحيط نفسه، وفي بعض الأحيان يحلمون بلمحة بعيدة فقط على البحيرة الصغيرة.

***

42. التخاطب مع قوى عُليا

تبدّل الطقس بعد منتصف كانون الأول، تساقَطت الثلوج الكثيفة بهدوء ولكن بثبات، يومًا بعد يوم؛ فيما عدا ذلك لا شيء، ولا طبعة قدمٍ يمكن رؤيتها. الثلج بطقسه الهادئ هو الشيء الأكثر تكتمًا من بين الأشياء التي تهطل من السماء؛ ينظرُ المرء إلى تيّاره في الخارج كما الأعمى، كما لو أنه مقطوع عن كل شيء، كما لو أن الواحد ما عاد موجودًا. قال بيارتور، جيد، طالما أن لا شيء يحدث، بعض الناس يتذمرون من الرتابة، مثل هذه الشكاوى هي علامات على عدم النضج، أصحاب العقول الراجحة لا يُحِبون حدوث الأشياء. بالنسبة إلى الحيوانات، قلة منها بالطبع لديها هذه القدرة على الرتابة مثل التي لدى القطّ، ففي حين تراكمَ الثلج على النافذة، مُغطّيًا اللوح الزجاجي مثل صوف ممشط ضارب إلى الزرقة، أغلق القطّ

عينيه في وقار طريف وخُبث ناعم. وأخيرًا كفّ الثلج عن الهطول. وأشرقت السماء، لكن الصقيع صار أقسى؛ وجرفت الرياحُ الباردةُ العاصفةُ الثلجَ وصيرتهُ في أكوامٍ عميقة. ومع ذلك، هذا الشتاء لم يكن هناك نقص في القشّ، ولا داعي للخوف من العوامل الطبيعية هذا الشتاء. ولكن ماذا عن الأمور الخارقة للطبيعة؟ هل من دليل؟ لا ليس في الوقت الراهن. وبدا أن الشعور بانعدام الأمان الذي دفع بالمزارع للذهاب إلى البلدة بحثًا عن قط قد تضاءل مرة أخرى. داعبَ الحيوان من الرأس وحتى الذيل، وإن كان مرة واحدة وفي عجالة، وقال: «انتبهوا من أن يشتبك القط والكلبة معًا». ومع ذلك حينما كان يفكر بالأمر بعقلانية، لم يكن يستوعب كيف خطر له أن يكون للقطّ أي سلطة على القوى الخارقة للطبيعة. وبكل الأحوال، ما عاد ينهض في الليل لمراقبة حظيرة النعاج.

لكن قوى الوجود غير الملموسة لم تكن على أسوأ صورة بعد، على الرغم من القطط. كانوا بانتظار حلول الصقيع طبعًا، لأنهم يكرهون ترك آثار خطاهم على الثلج. كان ذلك في وقت مبكر من صباح يوم من الأيام حين قصدَ بيارتور بيت النعاج على جري عادته. فتح الباب، وبعد إيقاد الشمعة، أجال البصر من حوله، ليواجه أحد أفظع المشاهد التي رآها لسوء حظه؛ كانت عشرة من نعاجه ممددة على الأرض ميتة أو في صراع مع الموت، بعضها على الأرض، وبعضها في المعالف. كانت قد ذُبِحت بطريقة وحشية للغاية، بعضها سُلِخت نصف حناجرها، بعضها دُقّت في رؤوسها مسامير صدئة، والبعض رؤوسها مُعنَّفة كأنها ضُرِبت بهراوة. كان مشهد ذبحٍ يَحار المرء في وصفه، الأمر الذي كان ربما واحدًا من الأسباب التي منعت جودبيارتور جونسون من الحديث عنه عندما طُرِح الموضوع للنقاش في الأيام التالية. لم يتلق صدمة كتلك في حياته. خلعَ قبعته ومزّقها، وخدشَ رأسه بكلتا يديه بأقصى ما استطاع، ثمّ جذبَ الجثة تلو الجثة، وتفحّصَ إصاباتها، وأجهز على التي ما زالت تتنفس. حينما استدار على عقبيه، أطبق قبضتيه بشدة، وسبَّ وبصق في كل اتجاه. تحدى الشيطان كولمكيلي والفاسقة غونڤور أن يخرجا للقتال. نادى عليهما في لغة وثنية ومسيحية على حد سواء، بأن يبرزا إلى الميدان لمواجهته، كلاهما معًا، واختار المنحدر قبالة المزرعة أرضًا له؛ ماذا

بوسع الرجل أن يفعل، ما عساه يقول؟ وطالبَ بان تُظِهر قوى الوجود السرية شيئًا من الرجولة، وتخرج إلى العراء. من المؤكد أنهم لن يتواروا خلف تخوم الوجود إن أرادوا الحفاظ على آخر ذرة من الكرامة لديهم. وصاحَ، ملوّحًا بقبضتيه في وجه الطبيعة المتجمّد، وعاليًا في السماء: «من السهل جدًا القتل والتدمير حينما يكون الناس نيامًا». في آخر المطاف لم يعد باستطاعته العثور على كلمات قوية بما فيه الكفاية فصرخ صُراخًا حادًّا، والكلبة صرخت أيضًا. لقد كان تجديفًا بحتًا؛ لكنه لم يستفد شيئًا. كان الوميض الأزرق الخافت في الشرق بطيئًا باهتًا. ثمّ بدأ يتساءل إن كان لا يتّبع المسار الخاطئ بالسبّ على الوحوش، لأنه تذكر قصة قديمة عن عفاريت تترعرع وتزدهر على مثل هذا. ولكن ما الذي على الرجل قوله؟ وفكّر، التراتيل. أكان عليه ربما أن يطلب من هالبيرا جرجرة نفسها إلى هنا كي تنشد ترتيلة؟ أو أن يُحضِر الكاهن ويتضرع إلى المسيح بالعبرية؟ لا، بالطبع، إنه بيارتور صاحب البيت الصيفيّ، لا إيمان لديه في الدين، الناس المستقلون لا حاجة بهم للدين، كان نِدًّا لأي شبح. من جهة أخرى، كان قد سمع قصصًا قديمة تقول إن الأشباح تؤمن باللاهوت، وتُذعِنُ لسلطان أسماء المسيح المنطوقة بألسنة قديمة مشهورة، رغم أن الأمل كان ضئيلًا، طبعًا، في أن القسّ تيودور، ذلك المراهق الأصلع، سيكون قادرًا على فعل الكثير في سبيل تأديب الشياطين، الذين أرسلهم كهنة الماضي الأشاوس إلى الجحيم مرارًا وتكرارًا دون جدوى، على الرغم من خشونة ألفاظهم في تعاويذ طرد الأرواح الشريرة.

وقفَ الأطفال في الخارج على كومة من الثلج كانت قد انجرفت قبالة زريبة النعاج، وحملقوا في أبيهم بصمت وهو يضع رؤوس الأغنام المذبوحة على الحائط. كان نوني الصغير من وجد شيئًا ليقوله في آخر الأمر.

قال: «أبي، كثيرًا ما يرى هيلغي شيئًا حول البيت».

اعتدلَ بيارتور في وقفته والسكين الدامية في يده، وسأل: «ماذا؟»

أجاب هيلغي: «لا شيء، إنه يكذب!»

«أوه، أنا؟ ألا تتذكر ما قلته لي ذات ليلة منذ مدة، عندما كان أبي في البلدة، وكنا جالسين على البلاط هناك نتحدث عن الشلال؟»

مشى بيارتور إلى حيث ابنه الكبير والسكين في يده، وطالبه بتفاصيل صريحة وبعبارات لا لبَس فيها حولَ ما رآه. لكن الصبي زعم بأنه لم يرَ شيئًا. ثمّ أمسكه بيارتور من كتفيه، وهزّه هزًّا عنيفًا وقال له إنه يُصعّب الأمر على نفسه، عندئذ دبّ الهلع في قلب الصبي واعترفَ بأنه كان يرى من حين إلى آخر فتىً ما، أو رجلًا من طراز قديم، مع أنه في بعض الأحيان كان لديه ضفائر رمادية مثل امرأة عجوز.

«أين رأيته؟»

«كنتُ أراه أحيانًا يجري من حظيرة النعاج باتجاه المنزل. وكثيرًا ما حاولت الإمساك به».

«لماذا لم تخبرني عنه من قبل؟»

«عرفت أنه لن يصدقني أحد».

«إلى أين ذهب؟»

«كان يركض».

ازداد بيارتور إصرارًا، وطالب بوصفٍ مفصل لهذا الرياضي الغامض، إلا أن إجابات الصبي صارت أكثر تطرّفًا وغرابة، أحيانًا كان للرجل لحية، وأحيانًا أخرى ضفائر، وأخيرًا كان يرتدي تنورة!»

سأل بيارتور: «تنورة؟ تنورة من أي نوع؟»

«تنورة حمراء اللون. وكان مرتديا شيئًا حول عنقه».

«حول عنقه؟ ماذا كان حول عنقه؟»

«لا أعرف حقًا ما شكل الشيء. أظن أنه يشبه طوق القسّ».

«طوق القسّ! أيها المهبول اللعين!»، صاحَ بيارتور وقد فقد أعصابه، وناولَ ابنه صفعة على فكّه كادت تُطيح بِهِ أرضًا. «قصصكَ لا تساوي فِلسًا صَدِئًا».

إن الظواهر الخارقة للطبيعة بغيضة لهذا السبب: فبعد أن تختزل كل المعلومات المنظمة من حول الإنسان إلى فوضى، المعلومات التي تُشكل الأساس الذي يقف عليه، تترك النفس طافية في منتصف الهواء، حيث لا

تنتمي الانتماء الصحيح. ولا يجرؤ المرء بعد ذاك على استخلاص أي استنتاج، وإن كان من أقصى المنطق السليم، لأن كل الحدود، حتى تلك بين الأضداد، هي في حالة تقلّبٍ دائم. الموت لم يعد الموت، ولا الحياة حياة، كما يزعم إينار أونديرنيث الذي يصنّف كل شيء في مجموعته المناسبة، مثلما يفعل المرء عندما يقوم بفرز البطاقات في يده، لأن قوى الوجود قد انفجرت دون سابق إنذار فوق هذا العالم الإنساني، وصيّرت كلّ شيء طافيًا، مثل قشّ سبتمبر في أمطار الخريف. يرى بعض الناس أن الظواهر الخارقة ناجمة عن رغبة الربّ لتذكير البشر فقط بأنه أكثر حكمة منهم. ما كان رأي بيارتور صاحب البيت الصيفيّ؟ هل كان سيسمح للخوارق بأن تُحاصره في الزاوية؟ أم كان سيقصد الآخرين طلبًا للمشورة؟ أو أن يلعنَ في سرّه، وينتظر المخلوقات الممسوخة من عوالم أخرى حتى تذبح كل ماشيته، وتُحيل المزرعة خرابًا كما كانت في عام 1750؟

كان المساء هادئًا، لذلك لم يكن في عجلة من أمره لإعادة الأغنام إلى الداخل. بذهن شارد، هامَ بعيدًا عن المزرعة، متحدّثًا إلى نفسه، ويوجه الشتائم إلى قوى عليا، وربما لم ينتبه إلى أين كانت قدماه تقودانه. ثم فجأة بدأ الطريق يصير أقسى. لقد بلغَ أبعد مما أدرك وكان الآن يصعد حيد الجبل، ربما كان ذاهبًا لرؤية إينار والآخرين. قمرٌ ذهبي جديد انعكست صورته بتباهٍ على صفحة الثلج المتجمد بشدة، وكان الغسق مُتّشحًا بظلال داكنة من اللون الأزرق أكثر فأكثر. كثير من الناس يقولون إن أجمل أجزاء اليوم أوان حلول الغسق. وهناك في المناظر الطبيعية الشتوية الهادئة، في أعلى نقطة من الحافة الجبلية، بالقرب من شفير الوادي، ينتصب ركام حجارة قبر الشبح، وقد غطى الظل أحد جانبيه، بينما تجلى الآخر تحت ضوء القمر الشاحب ما بين النهار والمساء، في براءة ساحرة تقريبًا، وفي صفاء شِبه مهيب. لكن بيارتور كان يشعر بأنه بعيد عن ذلك السّحر، إذ إنه بزيادة سرعته، اندفع إلى أعلى المنحدر مثل ثور هائج يتحدّى بعض تعساء الحظ ممن اعتزموا أن يُنطَحوا حتى الموت. ومع ذلك، لم يهاجم ركام الحجارة مباشرة؛ بل اقتلع حجرًا من بين الحصى، ووقف لبعض الوقت ممسكًا به خلفَ ظهره. وقال: «إذن ههنا ترقدان كلاكما»، مُحملقًا بكراهية،

وحقد دفين في البقعة المدفونين فيها. ضربَ بقدمهِ على وجهيهما. لكن لم يبدر من أحدهما أي ردّ.

ومع ذلك، خاطبهما وقتًا طويلًا. قال إنه لم يعد تحت تأثير أي وهمٍ بخصوص نواياهما. واتهمهما اتهامًا جليًّا بائنًا بقتل زوجتيه وأبنائه، والآن، وصلَ الأمر إلى الخِراف. قال «استمرا. فقط استمرا إن كنتما تجرؤان. ولكني لن أسمح لأحد بلعب دور الطاغية عليّ. أسقطا الجبل فوق المزرعة، إن كانت لديكما الجرأة، ولكني هنا سأقف ما دام لدي نَفَس لأسحبه. ما من أحد، وبالأخص أنتما، سوف يُخضعني».

لا إجابة، سوى أن نجوم السماء الصغيرة ابتسمت بعيونها الذهبية الغريبة على هذا الإنسان الفاني وأعدائه.

ثمّ قال: «هأنذا معي حجر». ولوّح في وجهيهما بالحجر الذي التقطه من بين الحصى. «هأنذا معي حجر. تعتقدان أنني سوف أعطيكما هذا الحجر. تقولان، لا بد أنه خائف الآن لأنه يقف هناك وبيده حجر. أنتما تقولان لقد جلب لنا حجرًا في الأخير لأنه خشي أن يخسر ابنته آستا سوليليا مثلما فقد زوجتيه. لكني أقول، ها أنا واقف هنا، بيارتور صاحب البيت الصيفيّ، رجل مستقل في أرضه، آيسلندي مستقل من يوم الاستيطان وحتى هذه الساعة واللحظة. قد تُهيلان الجبلَ عليّ. ولكن لن أعطيكما حجرًا».

دلالة على عدم استهابتهِ لهما ألقى الحجر في الوادي، وسُمِع صوت صداه عاليًا أثناء ارتطامه على القمم المُستدقّة في الأسفل، وانبعثت من القاع أصوات قديمة قلقة، كما لو أن الغول وعائلته استيقظوا من نوم دام عصورًا في استفسار مفاجئ مذهول. لم يكن بيارتور أبعد ما يكون عن التماس معونة أحد مثلما كان في هذه اللحظة حينما كان قد ردّ اعتباره وسوّى حسابه معهما. ولم يكن يومًا مُصمّما هكذا على الوقوف بمفرده، دونما مؤازرة من أحد، في وجه وحوش البلاد، وإتمام الصراع بمفرده حتى نهايته المرّة.

استدار على عقبيه، وحثّ الخُطى عائدًا إلى واديه.

***

43. إلى المَشي!

لكن سكان البلدة عرّجوا على البيت الصيفيّ في طريق عودتهم من المدينة، ودَروا بالأخبار من الأطفال. وطاروا بالبشرى إلى البلدة، ولم يَطُل الزمان بقصّة الشبح حتى سَعت على قدميها سَعيًا. وقوبِلت بالترحاب الحارّ من قِبل الصغير والكبير على حد سواء في ظل انعدام الحماس العاطفي؛ وهي السّمة الأشهر في أيام منتصف الشتاء القصيرة. كان كل شخص على استعداد تام للتصديق والاقتناع بتطواف الأشباح، بينما كانوا أكثر ارتيابًا حينما استفسروا عن توثّب الجرذان، ذلك أن نفس الإنسان تميل إلى ما لا يمكن تصديقه، وتُشكّك في المعقول.

وما هو إلا وقت قصير حتى بدأ عدد الزوار بالازدياد. وعلى الرغم مما يبدو عليه الموقف من غرابة، نادرًا ما يُظهر الناس مثل هذه الحماسة كما يفعلون عندما يبحثون عن إثبات لقصة شبح؛ فالنّفس تجمع كل الأشياء من هذا النوع إلى حضنها المتعطش. وصرّح بيارتور أنه من دأب ساكني الوديان طبعًا أن تُزبد أفواههم من الإثارة، ويتهافتون سِراعًا وراء الشبح، ولكن لديهم بالطبع كامل الإذن بالجري وراء القصة بأية طريقة ترضيهم. أما هو شخصيًا فلم يكن لديه الوقت للإجابة على أيّ من هراءاتهم حول الأشباح، وكان لديه شيء واحد فقط لإخبارهم به، وهو أن قطّه اللعين ذهبَ وأخافَ الأغنام ليلًا، فجُنّ جنونها من الفزع، وتراكضت نحو الجدران والمعالف، فكُسِرت أعناقها، أو تخوزقت بمسامير صدئة.

من ناحية أخرى، كان الأولاد مُتلهفين لاستقبال الزوار وتسليتهم، والوقوف خارجًا قبالة الحائط والثرثرة عن الأشباح باستمرار. للمرة الأولى في حياتهم كانوا أشخاصًا مهمّين، ولهم جمهور راغب، وحتى سيّدة ميري أرسلت إلى آستا سوليليا بعض القهوة والسُّكر من وراء ظهر بيارتور، وكذلك أرسلت لها كتابًا اسمه «الحياة البسيطة» لمؤلف أجنبي يمتاز بموهبة وعبقرية أدبية. علاوة على ذلك، ذاعَ أن الأولاد قد رأوا الشبح فعلًا وتحدّثوا إليه. كان على الأكبر والأصغر، تحديدًا، الخروج إلى حظيرة النعاج، وإغلاق الباب من خلفهما، وسيظهر الشبح. كان بمقدورهما رؤية عينيه تَبِصّان في العتمة،

لكنهما لم يتمكنا قط من فَهمِ ما يقوله جيدًا، لأنه كان يتحدث بِلثغةٍ مريعة، ويَخِنّ كثيرًا. ومع ذلك، فلقد أفلحَ في إبلاغ الكثير: بعد أن سئمَ منذ مدة طويلة من الصمت والإهمال، فقد كان عازمًا على إثبات حضوره مجددًا، ولن يُحسِن التصرف ما لم يُعامَل باحترام لائق، ويُفضّل بالأغاني والخُطب الدينية، والصلوات كذلك، ويُحبّذ صلوات الدفن. كما قصد حظيرة النعاج عددٌ من الزائرين كي يرتلوا سطرًا أو اثنين من ترنيمة أو ليغمغموا شيئًا من الصلاة الربانية. وانشغلت يدا آستا سوليليا كلّيا بِصبّ القهوة. مزيدًا من الزوار، قال الشبح، أرسلوا مزيدًا من الزوار غدًا. من الواضح أنه لم يكن إلهًا مزيّفًا، بل إلهًا حقيقيًا صلى للناس وقال: أعطنا اليوم صلاتنا اليومية. ثم يشعر لدى ذلك بحالٍ أفضل.

كانت المقاطعة تغلي بالشائعات الأكثر فظاعة عن هذا العفريت الذي امتطى الأسقف في مروج الوادي، وشوهدَ في رابعة النهار وهو يهرول صعودًا إلى أعلى أسقف القش ثم نزولًا، وهو الوقت الذي يتلفّظ به بالتهديدات الشنيعة التي سوف تحلّ ما لم يحصل على صلاته. المزرعة الصغيرة التي لم تثر انتباه أحد حتى اليوم أضحت فجأة الموضوع الوحيد للمحادثة في مقاطعة بأكملها، وحتى في مقاطعات أخرى. بشر وكلاب لم يُسمع عنهم عبروا الأرض المرصوفة، وحتى إنهم غزوا غرفة المعيشة. وما كان لأحد أن يمزح ويقوم بتدوين قصص هذا الشبح، ومختلف وجهات النظر، والتأويلات اللّاهوتية والفلسفية مجتمعة، وإلا كانت المحصلة بِطول الكتاب المقدّس.

في هذا، كما في الديانات الأخرى، كانت هناك طوائف وشيع مختلفة. بعض الناس كانوا مقتنعين بأنه تجلٍ، تساءلت طائفة أخرى وَما التجلّي؟ وأكّدت طائفة ثالثة، في مواجهة كل الحقائق، أن الأغنام قَتلت نفسها. بعض الأشخاص قالوا إن الشبح كان بحجم الغول، والبعض قالوا إنه بالحجم الطبيعي فقط، بينما ادّعى آخرون بأنه قصير وممتلئ الجسم. وقدّم أشخاص مختلفون دليلًا تاريخيًا على أنه مذكر، وآخرون كان لديهم بالمثل دليل دامغ على أنه مؤنث، وأخيرًا كانَ من طوّر نظرية مفيدة وجديرة بالملاحظة بأنه ليس بالمذكر ولا بالمؤنث.

في آخر المطاف، ذهب شخص كان ودودًا مع قاطني البيت الصيفيّ لرؤية

القسّ بشأن هذا الأمر، فقد سَرت شائعة بأن الشبح اعتزمَ تدمير المزرعة في عيد الميلاد، أحد الأشخاص علمَ بهذا عن طريق الصبية الذين كانوا على تواصل دائم مع الشبح. فهل سيكون القسّ بهذا اللطف بحيث يزور البيت الصيفيّ، ويُجري طقسًا مقدّسًا صغيرًا لمعرفة إن كان هذا الشيطان سيمتثل لأمر الربّ؟ سُرَّ القسّ كثيرًا بأنه أخيرًا نشأت حالة ذكّرت رعيّته الغافلة الفاترة بوجود الربّ، هو نفسه لم يكن يجرؤ على ذكر اسم الله خارج المنبر أو بمحض إرادته منذ أن تعايش مع فكرة أن أي شيء روحاني يزعجهم أو يجعلهم ببساطة يضحكون.

وهكذا كانت أمسيةٌ ازدحمَت فيها المزرعة لدرجة أن المرء يحسب أنه سَتُقام وليمة في الفناء. كان الجو هادئًا صقيعيًا، والنجوم متلألئة، والقمر شبه مكتمل. وصلَ حشدٌ كبير من الشباب وكانوا واقفين على الثلج مثلَ البلهاء، ملتذّين بالرعب المتوتر الذي سادَ الليلة بضوئها الأزرق القوي. وقُدِّمت لهم التسلية من قبل شاب مرح من فِيورد كان يعمل مساعدًا شتويًا في إحدى مزارع البلدة. كان يعرف كل الإيقاعات الحديثة التي يرقص عليها الناس هذه الأيام في فِيورد، وحاول آخرون الانضمام إليه لإبعاد مخاوفهم. ولكن كان في الجمعِ آخرون كذلك غير أولاء الباحثين عن الإثارة فقط؛ كان هنالك رجالٌ من ذوي النضج والخبرة، معارف قدامى وموثوقون، من بينهم ملك الجبل الذي ربح في الانتخابات في المجلس المحلي منذ عامين، ولذلك كان دومًا مزدحمًا بالمسؤولية التي أثقلت كاهل إدارة الأبرشية في هذه الأوقات الصعبة. كما أُقنِعَ القسّ، ذاك الشاب الأصلع المصاب بالأكزيما على يديه، بالظهور وكان يُلاحظ الآن أن الوقت حانَ لإقامة عروض الأكباش في المقاطعة، والحصول على خبير من الجنوب للإشراف على الترتيبات. واستشهد بأحدث كلمات المعرفة حول هذا الموضوع من المجلة الزراعية. عدة أشخاص جذبوا الصبيَّين جانبًا لسؤالهما عن الشبح، وعن مظهره وكلامه، لكن بيارتور كان مكفهر المزاج عابسًا وبالكاد تقبّل تحيات زوّاره. فهو لم يدعُ أحدًا، ووقف يتمتمُ شذرات من القوافي من خلال لحيته.

ظلّ الضيوف لبعض الوقت يتسكعون بتكاسلٍ من مجموعة إلى أخرى،

على الثلج في الخارج أو في المدخل، برفقة ظلّ الليل، وكثير منهم كانوا على علم بأنه ليس مُرحبًا بهم كثيرًا، إلى أن هتفَ في آخر الأمر العجوز هرولاغور كيلدور، وهو شخصٌ كادحٌ منفتح، لم يكن يحتمل رؤية أحد يضيع الوقت سُدى: «حسن يا فتيان، ألم يحن الوقت للتفكير في المشي؟»

إذن كان من المقرر أن تكون واحدة من تلك الصلوات المسماة بصلوات المشي حول مباني المزرعة التي تطورت الآن بمضي الوقت إلى طقوس محدّدة، وأعطت اللغة مصطلح: «إلى المشي».

«نعم»، وافقَ الآخرون بمهابة وخشوع، حان الوقت للمشي. أُرسِل في طلب الصبيان واستُدعيَ الشباب، ذلك أن بعضهم بدأ بالمشي بمحاذاة الجبل على هواهم، بما أن الليل بظلاله الزرق الطافِية كانَ مغويًا وساحرًا، ليس من أجل الشبح فقط، وإنما للحُبّ أيضًا. أقبل الصّبية بأعين متّسعة، والقسّ الذي كان يحاول تناسي القوى الغامضة في نقاش محموم متعلّق بالنظريات العلمية في المجلة الزراعية، التقطَ أنفاسه بصعوبة، وأجاب على استدعاء هرولاغور: «نعم، باسم الله».

جاء كل من ملك الجبل، وإينار أونديرنيث، وأولافور يازتدال في موكب واحد، وأيديهم مشبوكة خلف ظهورهم، لكلّ منهم تعبيره الخاص، كلٌّ في لحيته تِبن، الكلاب من أمامهم ومن خلفهم، واعينَ على نحو حماسيّ لهيبة وأهمية المناسبة. أشخاص كثر عرضوا على الفتيات المساعدة، وكانت وجوه الفتيات مضرجة بالحمرة في حضرة الأشباح، وإن كان بيارتور يعتقد أنهن يرمينَ إلى شيء آخر، أرأيت.

أعاد هرولاغور كيلدور القول: «حسنًا، والآن، أنتم يا أولاد، ادخلوا بسرعة إلى الأكواخ واسألوا بأي طريق يجب أن نمشي». كان من الأسلم أن يستفسروا أوّلًا، لأنه في بعض الأحيان جعلهم الشبح يسيرون حول الأكواخ في اتجاه مسار الشمس، وأحيانًا عكس ذلك. أخذ هيلغي بيد أخيه ومشيا على رؤوس أصابعهما باتجاه الباب، لا أحد لديه الإذن لمقابلة الشبح إلّا هما. بعد إزاحة المزلاج، اختلسا النظر باحتراس. همسَ الصبي الأكبر ملوّحا بالابتعاد للزائرين الفضوليين: «ششش، لا تقتربوا أكثر!». هرعت الأغنام في

ذُعرٍ غير طبيعي إلى أبعد طرف من الحظائر نصف الفارغة. وشرعت سيدة في منتصف العمر من المساكن في البلدة بالغناء: «المجد لله». وانضمّ إليها عدة أشخاص آخرين. لكن هرولاغور كيلدور قال إنه سيكون هناك متّسعٌ من الوقت للغناء حينما يبدأون بالمشي. أدارَ هذه المسألة مثلما يدير أية مهمة حساسة في عمله وتتطلب روتينًا معيّنًا. فجأة قفزوا جميعهم، لأن الصَّبيين طُوِّحا إلى الخلف خارج الحظيرة وتدحرجا على الجليد رأسًا على عقب كما لو أنهما قُذِفا بفعل فاعل. وصاحا بينما هما ما زالا يتدحرجان: «كتاب الترانيم، كتاب الترانيم!» أمر الشبح بأن يطوفوا تسعة أشواط حول الحظيرة وأن ينشدوا تسعة مقاطع شعرية.

قال إينار أونديرنيث بتزمّت: «أعتقد أنه يقصد آيات».

أيًّا كان غَرضهُ فقد انطلق الموكب الآن. همهمَ كبار السن الترنيمة بأفضل ما بوسعهم، والكلاب عَوَت أيضًا، لكن صغار السن لم يعرفوا الترنيمة وكانوا يفكرون بترانيم أخرى، وكانت أيضًا عصرات صغيرة مُستَرَقة بينما ظلال القمر الزرقاء تطفو بعضها على بعض. وقفَ بيارتور بمعزلٍ عن البقية، مناديًا على كلبته في حال انخرطت في عراك. بعد برهة من الزمن، بات واضحًا أن الأشخاص الأصغر سنًّا لم يكلفوا أنفسهم عناء القيام بكل الدورات؛ انفصلت مجموعة صغيرة وتجولت بمفردها على طول سفح الجبل للاستماع مجددًا إلى أحدث نغمة رقص في فِيورد من فم المغني: «تَمايلوا والتفّوا في بَكرات، بِخفّةٍ تَمايلوا، وَارقصوا رقصةَ الريل واللانسر[1]».

ثمّ قفزَ رجلان جَسوران إلى حظيرة النعاج دون إذن، لرؤية الشبح. لكنهما لم يمكثا هناك طويلًا. بالكاد تَخطّيا العتبة حينما رأيا عينين تَقدحان شَررًا تُحدِّقان بهما من الزاوية بالقرب من باب مَخزن التبن، في أقصى نهاية المذود. كان منظرًا مروّعًا مثل عينيّ العبد الميت في «ملحمة جريتيرس»؛ عندما يتقدم هذان الرجلان في السن سوف يقصّان على جيل جديد عن تلك الليلة منذ زمن بعيد حينما نظرا في شبابهما في عينيّ الأسطورة الآيسلندية.

1- اللانسر والريل: reel dance–lancer dance من الرقصات الشعبية الرباعية الحماسية، يُعتقد أن أصولهما إيرلندية وإسكتلندية.

كما أنه لم يكن مشهدًا صامتًا، فلقد رافقه ضجيج جهنّمي، أكثر رعبًا من أي مخلوق آيسلندي، ولا يُذكّر سوى بِصَريفٍ جنونيّ لبابٍ عتيق لا بل ضارب في القِدم. وِفقًا للقسّ الذي ألقى بنفسه نظرة خاطفة على الحظائر، كانَ ذلك صوت مخلوق حُكِمَ عليه باليأس الأبدي خارجَ بوابات السماوات، وكان الوهج الأصفر المخضرّ هو وهج العينين اللتين لم تبصرا أنوار الجنة ولن تبصراها؛ ولذلك انتهز الفرصة لتقديم صلاة قد تفتح أبواب السماء لنا؛ علّنا نرى نورها. وفي تلك اللحظة، عَامَ القمرُ بغضب خلفَ كوكبةٍ من الغيوم، وتحوّل العالم الثلجي الأزرق الممتقع في آن معًا إلى عُجمةٍ وغموض أكثر شحوبًا من قبل. تلاشت معالم الريف؛ حتى الناس بحد ذاتهم تراءوا غير حقيقيين أحدهم في عين الآخر، بينما هم واقفون في ظلال هذه الساعة العجيبة من الليل التي تخطت كل حدود المعقول. وتحسسوا لا إراديًا بعضهم أيادي بعض، خشية أن يكونوا وحدهم، ما الذي كان من الممكن فعله أكثر من ذلك؟ وهكذا وقفوا أياديهم متشابكة ومرتعشين بينما القمر يتوارى في عتمة أعمق فأعمق. كانوا بحاجة إلى القهوة، كانوا يشعرون بالبرد.

***

44. عن الروح

نعم، اقترحَ أحدهم احتساء القهوة، ووافق الجميع على الاقتراح، كانت الطقوس الدينية الآن تنفضُّ من تلقاء نفسها. المزيد والمزيد من الأشخاص غير المدعوّين صعدوا السلالم؛ وبدا أن الريف بأكمله قد نَزل ببيت بيارتور. سرعان ما أخذت الأرضية تصرّ على نحو خطر، لذا أمر أحد الأشخاص صغار السن بالمغادرة، ماذا كانوا يفعلون هنا بحق الشيطان على أية حال؟ ليس هذا الوقت ولا المكان الملائمين لصراخ الريفيات، أو من أجل ذلك الشأن، لأي شكل من أشكال الموسيقى؛ إذا أرادوا القهوة بإمكانهم انتظارها في الطابق السفلي في الإسطبل. أُوصِدَ الباب الأرضي من خلفهم. رتّبَ الرجال أنفسهم في صفوف على الأسِرّة، وتَراصّوا بأقصى ما في وسعهم، بينما ساعدت النساء في تسريع إيقاد النار.

قالت إحداهن: «هذه هي، حسنًا، على ما أعتقد».

أجابت الأخرى موافقة: «نعم، هذه هي».

وقالت ثالثة: «غلاية ماء كبيرة».

كان الزوار ما يزالون تحت تأثير الظاهرة الغامضة، وبالتالي كانوا يواجهون صعوبة في توجيه عقولهم مباشرة للنظر في شؤون مادية. باستثناء هرولاغور كيلدور. هذا المِقدام لم يكن يصنّف الظواهر وفقًا لأصلها، ولكنه يأخذ كل شيء، طبيعيًا كان أم خارقًا، تمامًا كما يأتي، ثم يوليه الاهتمام الذي يعتقد أنه يستحقه.

استهلّ بالقول: «حسنًا، يا سيدي القسّ، عندي، كما يعلم الجميع، زوجان من الخراف الذكور الفتية المليحة لم أتمكن من إرغام نفسي على إخصائهما في الخريف. ربّما هو انتحار تربية مثل هذه الدواب الغالية الثمن فقط بناء على التخمين والتأمل، ولكن ما كنتُ أفكر فيه هو أنني من الممكن أن أحصل على سعر مناسب إن كان بالإمكان إقناع أحد ما من المجلة الزراعية لإلقاء نظرة عليهما وكتابة مقال عنهما في أماكن أعلى في الجنوب».

«أنت محقّ!» وافقَ القسّ على كلامه، سعيدًا لأنه أفلحَ في الأخير في إقناع فرد واحد على الأقل بدرايتِهِ بالأغنام ورغبته بتنشئة سلالة جيدة. وأنشأ في الحال يشرح لمستمعيه النتائج، مثلما وردت في المجلة الزراعية لعروض الأكباش التي أُقيمت في الغرب، خاصة فيما يتعلق بالخراف فوق العامين.

وملك الجبل الذي على الرغم من تمكنه من التسلل إلى مجلس الرعية، لم يصبح مزارعًا كبيرًا، وإنما مزارع من الطبقة المتوسطة فقط عاشَ لأكثر من عام في حالة تشويش ذهني كبير بسبب المنافسة ما بين التاجر والجمعية التعاونية، لأنه عندما يكون هنالك متنافسان قويان يتنازعان فيما بينهما فمن الضروري أن يكون لديك الصبر للانتظار ورؤية ما سوف يُسفِر عنه النزاع؛ واعتبر أيضًا أنه من الأهمية بمكان في هذه الأوقات العصيبة أن يدرك عامّة الناس ضرورة تحسين المواشي. وأضاف: «ولكن، أودُّ التوضيح أني لم أكن يومًا مؤمنًا خالص الإيمان بالماشية السمينة كمؤشر في حدّ ذاته، كما يبدو عليه الحال مع صديقنا الطيب القسّ. في رأيي، فقد ثبتَ عدة مرات في

الأعوام الصعبة، كما في العام الماضي، أن خروفكم السمين ليس لديه قوة المقاومة في ساعة الشدة، على عكس ما يريد لنا عديد من الرجال الوجهاء أن نعتقد. من ناحية أخرى، فإن خروفكم الصلد المتين في العراء، خروف روثسميري على سبيل المثال، ولا أحد يجرؤ على القول بتاتًا إنه يفتقر إلى اللحم، مثل هذا الخروف يبدو في نظري دائمًا القمّة في تربية الأغنام، نموذجًا لما يجب أن يكون عليه الخروف الجيد. وهو في نظري السلالة التي يمكن الوثوق بها إلى أقصى حدود الثقة في السنوات السِّمان والعجاف على حدٍّ سواء، على الأقل طالما أنه لم تظهر سلالة أخرى وأفضل».

والآن، كان قد مضى بضعة أيام فقط على إجراء التقييمات الرسمية للممتلكات، وبما أن ملك الجبل دخل في الحوار، تبادر إلى ذهن أولافور يازتدال أنها قد تكون فكرة جيدة أن يستفسر منه عن حظّ الأشخاص ذوي الإمكانيات القليلة من الضرائب ذلك الشتاء؛ ذلك أن أولافور يازتدال صوّت لمصلحة ملك الجبل في زمانه، نظرًا لوثوقهِ بإحساسه العميق بالمسؤولية، ولاعتقاده أنه سيفي بوعوده التي قطعها على نفسه، وبالأخص مع أصحاب الحيازات الصغيرة، تمامًا مثلما طمحَ في ذلك الزمان إلى الحصول على رزق إضافي يسير من خلال عمله مساعد ضابط كلاب، واتّكلَ على ملك الجبل في هذا الأمر أيضًا.

ردَّ ملك الجبل برصانة: «نعم، الضرائب. آسف لقول هذا يا صديقي أولافور، لكن مجلس الرعية ليس لجنة ترفيه هذه الأيام. كلّ من الوكيل جون من ميري ومجلس المقاطعة والحكومة سوف يشهدون بأن تقييم ضرائب الرعية ليس لعبة في أوقات عسيرة كهذه، عندما تحتدم المنافسة والإتجار بجميع مجالات الحياة داخل المنطقة وخارجها ولا أحد يعرف بحقّ أي طرف ستكون له اليد العليا. من الصعب التكهن ما إذا كان مدير شركة بروني سيأخذ الرجال المفلسين بل الأسوأ من المفلسين تحت جناحه، أو ما إذا كان المجمع التعاوني سيأخذ أصحاب الحيازات الصغيرة الذين كَدّهم عبء الدين الرهيب بين ذراعيه. أو ما إذا كان جون ميري، هذا الرجل الأكثر حماسة للمصلحة العامة، دعامة الدولة الشهم النبيل، سيكون الملاذ الأخير للمجتمع وفيه خلاصه. أو ثالثًا، أو حتى رابعًا، ما إذا كانت

الأبرشية نفسها، على الرغم من أنها تعثرت طويلًا في عجزٍ لا نهاية له، ستضطر إلى إغاثة العامّة».

أجاب أولافور دونَ أن يظهر خيبة الأمل الكبيرة في عضو مجلس الرعية الذي كان قد صوت لمصلحته: «نعم، هذا ما كنتُ أقوله دائمًا. إن حياة الإنسان قصيرة جدًّا بحيث إن الناس العاديين ببساطة لا طاقة لهم على أن يولدوا. ولكني ما زلت أصرّ على أنه لو كان المجتمع علميًّا منذ البداية، وإن كان هنالك بالتالي تناسب معقول ما بين مقدار عمل الواحد وكميات المستلزمات التي سيعطيها له التاجر مقابل منتجاته حينما يذهب إلى المدينة، وإذا ما استطاع المرء إبقاء سقف لائق فوق رأسه قبل أن يتعفن أولاده بالسلّ، اللعنة، ماذا كنتُ أريد أن أقول؟ لا أرى أية احتمالية في تسديد ديوني، وإن ظللتُ كل حياتي أنحت الصخر على هذه الشاكلة ثلاثة آلاف سنة قادمة!»

ولكن عند هذه اللحظة تدخل إينار أونديرنيث للقول إنه يأمل أن يعذروه إن كان قد شعر بأن حديثًا من هذا النوع غير روحيّ إلى حدّ ما في مثل هذه الساعة المهيبة؛ حين انتهكت قوى غامضة حيواتهم بطريقة فريدة من نوعها. ثم استطردَ متسائلًا: «هل نحن إذن عاجزون بالكلّية؟ عن نسيان حياة الجوع والديون والسلّ، مهما أنذرنا الربّ، في هذه اللحظة الحرِجة؟»

سارعَ أولافور إلى الردّ: «لم أبدأ الحديث، لذلك لا تلمني. بوسع أي شخص إخبارك بأني رجل على استعداد لتنحية كل التوافه جانبًا، والتركيز على أمور جادّة؛ ولكن ليس من السهل التحدّث بثقة، أو عن وعيٍ وخبرة، وأنت فقير وضئيل لدرجة أنك معزول تمامًا عن كل التواصل الثقافي مع العالم الخارجي، وإضافة إلى ذلك حينما يكون عليك أن تعاني نفس الظروف المنزلية التي أعانيها، الأولاد مصابون بالسلّ كما يعلم الجميع، وزوجتي في رمقها الأخير تقريبًا، ولا يعني ذلك أن لها علاقة بالمسألة. مرت عشر سنوات فقط منذ اضطررتُ إلى الاستقالة من رابطة الوطنيين، التجمّع الوحيد الذي تمكنت من الارتباط به. وما يُسمى بنادي القراءة الذي كان لدينا هنا في وقتٍ من الأوقات قبل أن يسوء حاله ويغدو الخراب مآله. يزعم بعض الناس أن الجرذان غَزَته. ولا أعلم إن كان هذا صحيحًا، إلا أن الحقيقة التي لا جدال فيها هي أن لا أحد تجرأ على فتح الخزائن على مدى السنوات الخمس

الماضية، لذلك شخصيًا لا أعرف كيف يمكن للمرء أن يكون قادرًا على قول أي شيء منطقي في هذا الجزء من البلاد، والأمور على ما هي عليه الآن».

وشعر إينار أونديرنيث أنه يجب علينا في تلك الحالة الاستفادة من اللحظة الراهنة، فنحن الآن بصحبة رجال مثقفين، القسّ على سبيل المثال، «والقسّ، إن كنتُ أعرفه حق المعرفة، لهوَ رجل نبيل وسوف يتجاوز بسهولة عن قلة تعلّمي، على الرغم من الحقيقة أن القسّ غودموندور تقدّست ذكراه مضى إلى قبره دون أن يغفر لي جهلي. لكن السؤال الذي أردتُ أن أسأله هو: كيف يحدث أن بعض الأرواح لا تحظى بالسلام أبدًا، سواء على المرتفعات، أو على سطح الأرض، أو في أعماق المحيطات؟»

«علامَ، أعتقد لأن فيها شيطانًا»، ردّ كروسي جيل بسرعة، قبل أن يقرّ قرار القسّ على جواب مناسب بوقت طويل. عدة آخرون تضاربت آراؤهم، على الرغم من عدم تسليط الضوء كثيرًا على المسألة، وأشار أولافور يازتدال إلى كتاب، كان عبارة عن عدة صفحات حصل عليها صديقه ذات مرة غُلّفت بها بعض الكؤوس، نُفي فيها نفيًا قاطعًا، وفقًا للأدلة التي أوردها علماء أجانب، بأن الشر موجود».

قال ملك الجبل: «حقًا، يا أولافور، حقًا، هذا زعمٌ ما كنتُ لأحلم قط بأن أُبديه، على الأقل في الظروف الراهنة. من ناحيتي اعتقدتُ دائمًا أن الخير والشر كليهما موجودان، وكما دأبت سيدة ميري على التأكيد، وهي سيدة على درجة عالية من التعليم كما يعرف الجميع، في الخطابات العامة والخاصة على حدّ سواء، على أنه يقال إن الإيمان بالخير والشر هو جزء من الدين الفارسي أيضًا. ومن ناحية أخرى، أنا أعتبر أن قوى العالم غير المرئية ليست خيّرة تقريبًا في غاياتها الرئيسة كما يُشاع عنها عادة، وربما هي ليست على تلك الدرجة من الشر أيضًا. ألا تعتقد أنها على الأرجح ما بينَ بين يا أولافور؟»

في هذا الحين كان القسّ قد أخذ وقته في تقليب الأمر على أوجهه، وأشارَ إلى أنه كان متماشيًا أكثر مع الفِكر الحديث، كما ألمح بالفعل خلال الموكب، وذلك بالاعتقاد أنهم كانوا هنا يتعاملون مع أرواح شقية أُخرِجت من عالم إلى آخر مثل الخارجين عن القانون.

إلا إينار أونديرنيث كان لديه ما يفوق صَبرهُ الآن!

صاحَ: «كلا ، قداستك. ههنا لا أخشى أن أقول لك، وعلى مسؤوليتي وبما يمليه عليّ ضميري، إنك شطحتَ بأفكارك بعيدًا. قد يكون صحيحًا أن القسّ الراحل غودموندور لم يكن ودودًا قط معي، وأنه لم يولِ سوى اهتمام ضئيل أو أنه لم يهتمّ بالمرة بالأبيات الدينية البسيطة التي كتبتها، ليسَ في سبيل الثناء أو الشهرة، ولكن التماسًا للعزاء الروحيّ؛ وعلى الرغم من صرامته الشديدة تجاه الأشخاص غير المتعلمين، لكن لم يكن لأحد أن ينتابه شكّ بما يخص عقيدته؛ لم يكن الشخص الذي يعطي أذنه لأي نوع من السفسفة لمجرد الاعتقاد بأنها معاصرة، ومن المؤكد أنه كان آخر شخص يدنّسُ شفتيه بالتصريح بأن الشيطان ومبعوثيه ما كانوا سوى أرواح شقيّة. ومع العلم أنه كان يملك أكباشًا وخرافًا سمينة، إلا أنه ما خلطَ قطّ بين أشياء غير مترابطة؛ ولقد عرفَ بمن كان يؤمن، وهو ربما أكثر مما يُقال في حقّكم أنتم يا معشر رجال الدين الشباب الذين تؤمنون بكل شيء طالما أنه مستجدّ».

ثم تعيّن حينذاك على القسّ تيودور إقناع إينار بأن اللاهوتيين الجدد يعرفون بمن يؤمنون أيضًا، على رغم أنهم ربما صاغوا أفكارهم على نحو مختلف عن اللاهوتيين القدامى».

فسأله إينار، وقد ازدادت جرأته تدريجيًا: «هل لي إذن أن أسألك سؤالًا واحدًا؟ هل تؤمن بكل ما يُقال في الإنجيل، في العهدين القديم والجديد على حدّ سواء؟»

القسّ: «يمكنك أن تطمئن يا إينار، فأنا أؤمن بكل شيء في كلا العهدين. أؤمن بالعهد الجديد. وأؤمن بالعهد القديم كذلك».

إينار أونديرنيث: «هل يمكنني إذن أن أطرح عليك سؤالًا آخر؟ هل تؤمن، على سبيل المثال، بأن يسوع، ابن الله، أقامَ لعازر[1] من الموت بعد أن بدأ يُنتِن في القبر؟»

1- القديس لعازر: ويعرف أيضًا بـ«لعازر ذي الأيام الأربعة»، من بيت عنيا من أورشليم، وتسمى اليوم العازرية نسبة إلى إقامة لعازر من الموت. وفقًا لرواية الإنجيل، في اليوم الرابع من دفن لعازر، الذي أحبه يسوع كثيرًا، توسلت شقيقتاه مريم ومرثا إلى يسوع لإحياء أخيهما، ففعل.

فكّر القسّ تيودور للحظة، ومسح العرق عن جبينه، وقال في النهاية باقتناع كبير:

«نعم، أؤمن بأن يسوع، ابن الله، قد أقامَ لعازر من الموت بعد رقاده ثلاثة أيام على الأقل في القبر. لكنني بطبيعة الحال أرى أنه لم يُنتِن كثيرًا حقًّا خلال تلك الفترة».

فصاح أولافور بنبرته الحادة المهمهمة: «وما يهم إن كان المسكين قد بدأ يُنتِن أم لا! كان يجدر بنا الفهم أن الفكرة الرئيسة هو أنه عاد إلى الحياة مجددًا. على أية حال، وبما أن القسّ في صحبتنا، ونحن بانتظار القهوة، ولا أظن أني سأنام قبل طلوع الفجر بأي حال، أودُّ الاستفادة من الفرصة مثلي مثل إينار، وأن أسأل القسّ سؤالًا صغيرًا. ما هي آراؤكَ حول الروح بالضبط أيها القسّ تيودور؟»

هزّ القسّ رأسه بابتسامة مكروبة ملتوية، ثم قال إنه إجمالًا ليس لديه آراء خاصة عن الروح، فقط الآراء القديمة الجيدة، الروح نعم الروح، الروح خالدة بطريقة ما، وإذا لم تكن خالدة، حسنًا، فهي ليس روحًا.

قال أولافور غير مقتنع بتاتًا بهذه الإجابة: «أوه، أعرف هذا مسبقًا! ذلك بالضبط ما أخبروا به جون آراسون[1] قبل أن يقطعوا رأسه. سوف أخبركَ بشيء حصلتُ عليه من صحيفة جنوبية موثوقة أعارني إياها صديقي السنة الماضية، وهو أنهم يعتقدون أنه ليس من المستغرب هذه الأيام أن تدخل الأرواح الأثاث في بيوت الناس ذوي المكانة الرفيعة في ريكياڤيك».

العجوز أولافور الطيب، هكذا هو دائمًا، لا نهاية للكلام الفارغ الذي سوف يصدقه طالما رآه مطبوعًا!

بعض المزارعين هزوا رؤوسهم وضحكوا.

هتفَ قائلًا: «نعم، اضحكوا. اضحكوا إن شئتم. ولكن هل يمكنكم الإشارة إلى حالة واحدة أوردتُ فيها أي إدعاء دون أن أذكر أفضل مرجعية ممكنة له؟ بالطبع الأرواح تدخل في أثاث الشخصيات الشهيرة

1- جون آراسون (1550-1484): أسقف وشاعر كاثوليكي آيسلندي، أُعدِمَ في نضاله ضد فرض الإصلاح البروتستانتي في آيسلندا.

في ريكياڤيك؛ وهذا صحيح مثل جلوسي هنا. المضحك فيكم أيها الناس ههنا أنكم ترفضون تصديق أي شيء يحدث على بعد أكثر من مائة ياردة من باب حظيرة أبقاركم؛ ولا تؤمنون بأمرٍ وحيد، روحيًّا كان أم ماديًّا، باستثناء ما ترونه أو ما لا ترونه في حظائر أبقاركم البائسة».

كان القسّ ميّالًا إلى تأييد مزاعم أولافور. قال بنبرة معتذرة، ومما يدعو إلى الأسف، أن رجالًا بارزين لاحظوا ولا ريب بعض الأشياء الغريبة على أثاثهم مؤخرًا، ولكن ما إذا كان من الصحيح القول إن الأرواح هي السبب وراء ذلك، فتلك مسألة أخرى تمامًا. تشير بعض المراجع إلى أنها قد تكون أرواحًا تائهة حُرمت من رؤية نور السماء.

قال أولافور متحمّسًا: «أودُّ الآن سؤال القسّ عن شيء واحد. ما الروح؟ إذا قطعت رأس حيوان ألا تخرجُ الروح من رأس عموده الفقري، وترفرفُ عاليًا إلى السماء مثل الطيّر؟ أم إن الروح مثل الفطيرة التي بإمكانك طويها وابتلاعها مرة أخرى مثلما فعل بيارني الأفّاك حسبما اعتقدوا؟ كم روحًا لدى الإنسان الواحد؟ هل ماتَ ليعازر مرة ثانية؟ وكيف حدثَ أن تلك الأرواح، أو أيًّا كان اسمها، تتصرف بأدب مع المسؤولين المهمين في ريكياڤيك، بينما تؤذي المزارعين الفقراء في الوديان وتقضّ مضاجعهم؟»

ولكن في هذه اللحظة بالذات، عندما بدأت الروح تتجذر في المحادثة بقوة، برزَ رأس سيد المنزل عبر فتحة الباب الأرضي، وأجال بصره في الغرفة المزدحمة من حوله. كان مشهدًا لا يرضيه كثيرًا على ما يبدو. وبضربة واحدة بترَ المعضلة العلمية التي طرحها للتو صديقه القديم أولافور يازتدال أمام المجلس. وقال: «أنا ذاهب إلى الفراش الآن. وعائلتي كذلك. ليس لدينا الصبر في عيد الميلاد هذا للإصغاء إلى مزيد من الترهات عن الروح. وإن أردتم لاحقًا الزعيق بمزيد من التراتيل، فإذن هل لي أن أطلب إليكم الذهاب إلى مكان آخر والزعيق هناك. لقد أرسلتُ في طلب السُّلطات. وهي من ستعثر على الشخص المذنب وتقتص منه. وحينما تغادرون من هنا الليلة، آمل أن تنظروا إلى هذه الزيارة كأنها لم تحدث مطلقًا. اذهبي بالغلّاية يا حبيبتي سولا. أنا لا أعرف هؤلاء الناس، كما أنهم لم يأتوا لرؤيتي».

لم يعترف بأعزّ أصدقائه تلك الليلة؛ ودفعهم إلى الباب. وحتى هم لم يتعرفوا على صديقهم القديم، أو بالأحرى البغضاء الفتاكة المتحجرة في عيني الرجل الذي دخل في اللحظة التي غاب فيها عنهم المنطق الطبيعي، وكان هو، هذا الرجل، الذي بدا فجأة كأنه فهمَ كل شيء، ولم يطلب الآن سوى السلطات. ومثلَ لصوص حجرة المؤن قُبِض عليهم متلبسين بالجرم المشهود، تزحّفوا على السلالم، الأصدقاء القدامى والجدد على حد سواء، الواحد تلو الآخر، مغمغمين متخبّطين قد اعتراهم الخجل، نسوا حتى كلمات الوداع، وتفرّقوا على الدروب المفروشة بالثلج في الخارج، كلٌّ في اتجاه. كان القمر قد غاب؛ ولم يتبق من سحر، ولا قهوة، ولا أي شيء.

ومن عَجبٍ أن هذه الليلة قلّما سُمِع ذِكرها في المقاطعة فيما بعد. سقطت على الفور من التاريخ بالطريقة نفسها التي سقطت فيها قصة حيوان الرنّة الذي امتطاه جودبيارتور جونسون ذات مرة عبر نهر جلاسيير الجليدي في الأراضي القفر. في الأيام التالية، حين تقابل الرجال بِلحاهم المغطاة بالطحالب، صدفة في البيت أو في الخارج، نظروا بعضهم إلى بعض نظرة خاطفة مُحرَجة، مثل صبي وفتاة تماديا جدًّا في ليلتهما السابقة، ولكنهما عقدا العزم على عدم تكرار ما حصل مطلقًا. وحتى بعد سنوات عديدة، ظلت هذه الليلة مثل بقعة تعيسة في الريف؛ سكنت في قاع لاوعيهم مثل نزوة مَرَضية، مثقلة بالعار والشعور بالذنب؛ الظلال الوامضة والمرتعشة، عينا الأسطورة، والترنّم التجديفيّ بالترانيم، والقهوة التي لم تأت، والروح؛ وبيارتور صاحب البيت الصيفيّ الذي أنكرَ أصدقاءه حين تجمعوا لمهاجمة عدوّه، كولمكيلي.

***

45. العدالة

مع هذا الانتصار لمصلحة جودبيارتور جونسون كانت النهاية، في الوقت الحاضر على الأقل، لجميع الأنشطة الشبحية على المروج. وباعتباره الرجل الذي قتلَ الخراف المصابة بالديدان في الربيع، وضعَ حدًّا كذلكَ لكل من

الدين والفلسفة في الليلة التي دفعَ فيها سكان البلدة إلى الباب وأمر أولاده بالنوم. بعض الناس قالوا إنه شنق القط أيضًا. إن ظنّ الشبح بأن بيارتور سوف يجبنُ ويتملّكه اليأس، ويتخلى عن مبادئه، ويبحث عن منزلٍ جديد بسبب الكارثة الثانية التي حلّت بأغنامه، إذن فقد خابَ رجاؤه. تغرّم الشيطان كل متاعبه من أجل لا شيء، ظلّ بيارتور صامدًا كالصخرة. وعلى الرغم من تكبده خسارة عظيمة في المعركة، بيد أن المزارع تعلّم ألا يتراجع عن شبرٍ واحدٍ من الأرض. ما أعقب ذلك الآن هو مجرد تبعات الأحداث التي وقعت من قبل.

كان أوان الانقلاب الشتوي؛ النهار الأقصر في السنة. تلبّدت السماء بالغيوم خلال الصباح، مع سحب منخفضة، حبلى بالثلج وموشكة على الهطول، معلّقة عند منتصف المنحدرات الجبلية. ما من بصيص باهر يضيء الروح أو المشهد الطبيعي؛ كانت فترة الظهيرة قصيرة جدًا، ما لبثت أن حلّت حتى انقضت، ومع ذلك كم من الظلمة احتاجت لتغلّفها! وكان من المتوقع قدوم مأمور الشرطة قريبًا. لم يُعطِ المزارع لأحد أوامر بالعمل لهذا اليوم؛ كان كما لو أنه يرغب في انتظار قرار السلطات من كان سيد المكان هنا، هو أم كولمكيلي؛ ولكن مع ذلك لحق به غيفيندور الصغير إلى الخارج بصحبة الكلبة حينما مضى لإطعام خِرافه القليلة المتبقية. جلس الصبي الكبير بجوار النافذة، يقرع ركبتيه بعضهما ببعض، ويحدق بصمت في رسمٍ قديم خُدِشَ على الطاولة. لم يتحدث حتى عند التحدث إليه، فضلًا عن تقصيره في الغَزْل على المغزل، ونوني الصغير، الذي كان جالسًا للحياكة بجانب جدته، نظرَ إليه، وعرف ما علّته بطريقة خفية لا يمكن تفسيرها؛ أبعد من الكلمات والصور، فمضى إليه مواسيًا.

قال: «هيلغي، لا تقلق. ليس بوسع المأمور فعل أي شيء بما يخص الأشباح».

وعندما لم يجب الأخ الأكبر بشيء، عاود نوني الصغير الجلوس بجانب جدته. ما من قصة؛ ولا ترنيمة؛ فقط همهمة غير ذات أهمية، ولا يستطيع أحد فهمها.

في الوقت الحالي وصل الوكيل من أعلى البلاد للقاء مأمور الشرطة من أدنى البلاد، وذلك لإجراء تحقيق قضائي. ولكن حتى الآن لم يظهر للمأمور أثر، وإنما بدأ الثلج ينهمر، وكان الوكيل مُستاء وشتّامًا ولا وقت لديه لمثل هذا الهراء، وكان من المشكوك فيه للغاية ما إذا كان ذاك المأمور العجوز اللعين سيعرض جثّته الثمينة للمخاطرة باجتياز المروج في هذا الطقس، فالجامعيون يزحفون إلى فراشهم بمجرد أن يروا رذاذ الثلج. استلقى الوكيل على سرير الأبوين؛ كان مرتديًا جوارب الثلج الطويلة، ونادى على آستا سوليليا كي تساعده في خلعهما. لم يكونا في مزاج طيب، لا الزائر ولا المزارع؛ قال الأول لمضيفِهِ بينما كان يبحث عن صندوق تبغه في ملابسه: أنت دائمًا في ورطة أو مأزق من نوع ما، إن لم تكن زوجة ميتة وخرافًا تتضور جوعًا، فهي عفاريت متفشية وشياطين هائجة! فردّ المزارع بالقول، فأما بخصوص الموت والشياطين يا صاحبي، فأنا لم أسأل أحدًا القدوم إلى هنا ليجأر بالصلوات والترهات الروحانية في منتصف الليل، جاعلين من أنفسهم سخرية لله وللبشر، وعارًا أبديًا على الرعية كلها. كل ما أطلبه هو العدالة التي تحِقّ لكل إنسان حرّ في بلد حرّ. كل عام تتقدم إلي السلطات بطلب لدفع الضرائب، ولكن هذه أول مرة أتقدم إلى السلطات بطلب من أجل أي شيء، لذلك أعتقد أني لا أدين لهم بشيء، ولا داعي لتعليقاتك هذه عليّ.

قال الوكيل وهو يُعدّل بلسانه مضغة التبغ في فمه: «اسمع، يجب أن تبيع لي هذه البؤرة القميئة، وأن تعود لمساعدتي مرة أخرى».

ولكن بعد الاضطرابات الانفعالية في الأيام الأخيرة القليلة قرر بيارتور مقابلة كل شيء باتّزان، ولم يكن مسموحًا للوكيل بإغاظته. فأجابه برأفة: «نعم أيها العجوز، لديك دومًا نكاتك الصغيرة، ألست كذلك؟»

الوكيل: «لا أعرف لماذا تُكبّد نفسك عناء الاحتفاظ بهذا المشروع الرديء بعد الآن. زوجتاك ماتتا، خرافك ماتت، وصغارك ماتوا، وأسوأ من الموت. ما معنى كل هذا بحق الجحيم؟ وها هي المسكينة سولبورت أو أيًا ما كنت تسميها، امرأة ناضجة تقريبًا، غير متمدنة ولا متعلمة دينيًا، أمّية، ولم تُتَّخذ أي خطوة بعد لتثبيتها في الكنيسة».

علّق بيارتور قائلًا: «هذا أمر جديد؛ رغبتكَ بأن يتنصّر الناس. ربما شعرت أنك قد بلغت عمرًا يكون من الأفضل فيه أن تستعد لأي شيء».

رد الوكيل: «لا تقلق نفسك بشأن ذلك. لطالما حافظتُ على مسيحيتي نُصب عينيّ، وأطالب الآخرين أيضًا بأن يكون لديهم المسيحية اللازمة لإدخالهم في سيادة القانون. لطالما كان لديّ صورة للمسيح معلقة في غرفتي، كانت قد تركتها لي أمي. اعترض بيارتور الكلام: أجل وصورة للقيصر الروسي، وأود إعلامك بأن القيصر الروسي هو صاحب سيادة ومحترم للغاية، حَكم رعاياه دومًا على خير وجه، وهم على الأقل ليسوا عصابة من الكفرة المتعنّتين الذين يستحضرون الأشباح والوحوش فوق رؤوسهم بالطريقة التي تفعلها أنت».

ردّ بيارتور هازئًا: «ها؟ لم يُعتبر جريتير أسموندارسن بطلًا دينيًا في زمانه، ومع ذلك أُخِذَ بثأره على امتداد الجنوب في مايكلاجارد، وأُشيد به بوصفه أعظم رجل حظيت به آيسلندا على الإطلاق لهذا السبب بالذات».

وبدلًا من التنازل والإجابة على هذه السخافة التي لا صلة لها بالموضوع، أخرج الوكيل مضغة التبغ من فمه، وأظهر نيّته في الاستلقاء لبعض الوقت، سيكون لدي المزيد لأقوله لك عندما أفيق، ورفع ساقيه إلى السرير، وأدار وجهه ناحية الحائط.

«اخلطي مزيجًا لخَبز بعض الكعك على الخثّ من أجل السلطات، يا حبيبتي سولّا»، قال بيارتور ذلك أثناء التفاته لرؤية أشغاله، وصار الثلج أشد غزارة تدريجيًا، ومضى النهار شيئًا فشيئًا، مع الثلج الكثيف، والوكيل النائم، والمأمور المُنتَظر.

إن الميزة الأسوأ في منتصف الشتاء ليس ظلامه. بل ربّما أسوأ ما فيه هو أنه لا ينبغي أن يزداد إظلامًا بما يكفي لكي ينسى المرء اللانهائية التي يُعدُّ رمزًا لها، اللانهائية التي لا تشبه في الواقع سوى العدالة نفسها؛ والتي تملأ العالم، مثل العدالة، وهي مثل العدالة، لا ترحم ولا هوادة فيها. إن منتصف الشتاء والعدالة صِنوان، ولسوفَ يدركُ المرء على نحو أفضل في الربيع، عندما تشرق الشمس، بأن كلاهما مبعثَ بلاء وشرّ. اليوم هو أقصر

أيّام السنة. وربما سيكون أولئك الذين تمكنوا من البقاء على قيد الحياة اليوم آمنين، لنأمل ذلك. اليوم هو يوم العدالة أيضًا، والأناس البسطاء في المزرعة الصغيرة بانتظار العدالة التي تملأ العالم، وهي خالية من التمييز والفَهم. إنه الأب من أرسل في طلب العدالة. هو من يُعِدُّ القشّ لخرافه، العدالة في صفّه، الخراف هي خراف العدالة؛ وعلى الرغم من أن الأم ووريت الثرى، والصغار دُسّوا في المقبرة، ومع ذلك العدالة في الخراف وفي الخراف وحدها. سواء أكان هو من أحب الأحلام والروح، أو من ارتكزت آماله على الثورة والتمرد، العدالة معادية لكليهما، لأنه لم يكن لديهما الفطنة لهزيمتها، ولأن العدالة غبية بطبعها، وشريرة، لا شيء يضاهي شرها؛ يحتاج المرء فقط للاستماع إلى الوكيل وهو نائم لإدراك ذلك، يحتاج المرء فقط أن يشمّ رائحة الكعك الذي يُخبَز من أجل العدالة وشُرطتها. والابن البكر في البيت الصيفيّ أوصدَ الباب من خلفه.

كان الوكيل ما يزال نائمًا، ويشخر بصوت عالٍ؛ قد يظن المرء أن هذا الرجل المسن ذا الوجه القوي المنحوت لم ينم طيلة حياته! بُنيتي سولّا ألا يوجد لديك قطعة من لحم الصدر يُسكِت بها الوكيل جوعه حينما يصحو؟ ذلك أنه لم يكن من داعٍ للاقتصاد باللحم في البيت الصيفيّ هذا الشتاء، فكل برميل وكل صوان كانَ طافحًا بهذا الطعام الشهي، الذي لم يرض أحد أن يشتريه لأنه لحمٌ ميت. اللعنة على اللحم الميت، بالطبع لم يكن لحمًا ميتًا، لم يكن من علّة في اللحم، باستثناء العلامة التي دمغته بها الخرافة والجهل. على أية حال، سنترك الآن السلطات تقرر. ولكن أين هيلغي؟

صحيح، أين هيلغي؟ ألم يكن في غرفة المعيشة قبل بضع دقائق؟ آه، لن يتأخر، اليوم دوره في تنظيف إسطبل الحصان. ما من علامة على استيقاظ الوكيل؛ حسنًا هذا ليس من شأننا، أعتقد أنه بإمكانه النوم قدر ما يحلو له، هذا البُوم العجوز. كان الأمر قد انتهى عند هذا الحدّ، إذ لم يضع المأمور قدمًا في المروج في هذا الطقس، الثلج يتهاطل كثيفًا كالحساء، ولا يمكنك رؤية يدك أمام وجهك. إذا نظرت إلى الخارج عند الباب من خلال انهمار الثلوج، ستظن أن العالم تلاشى، لا أثر لِحدٍّ أو لون، ولم يبق عالم، قد يكون المرء أعمى أو أنه يخرّ في نوم عميق.

إلى أين من الممكن أن يصل الصبي؟ غُفْيندور، يا ولدي، انزل وألق نظرة سريعة في الخارج. بالكاد يستطيع الوصول إلى الحظائر. ثمّ بلغوا وقتًا ما عادوا يطيقون فيه الاحتمال أكثر، وخرجَ بيارتور بنفسه للبحث عن الصبي. استيقظَ الوكيل متثائبًا أشعثَ الشعر.

قال الوكيل: «إيهِ؟»

قالت آستا سوليليا: «هيلغي، لا نعلم ما الذي حصل له».

فتساءل الوكيل الذي لم يكن يعرف أحدًا بهذا الاسم في هذا المنزل: «هيلغي؟»

أجابت آستا سوليليا: «نعم، أخي هيلغي».

قال: «أوه، أخي هيلغي»، مرتبكًا من أثر النوم، ومن البحث عن تبغه، واستطرد بالقول: «اسمعي يا صغيرتي، ينبغي أن تخبري بيارتور بأنه يجب عليه بيع المزرعة. بإمكانك القدوم إلينا متى شئتِ، لست بحاجة لطلب الإذن من أحد. لديكِ فَمُ أمي».

قالت الفتاة: «ماذا؟»

«لا بد أنك في الخامسة عشرة أو نحوًا من ذلك الآن».

نعم بلغت الخامسة عشرة من عمرها قبل أكثر من شهر مضى.

«نعم، إنه لأمر معيب، ولكن ما الذي يمكن أن يفعله الواحد؟ كان يجب علينا أن نأخذك على الفور. لكن ماذا كنتُ سأقول مرة أخرى، هل رأيت معك قطعة من السمك، يا بنت؟»

«لا، لحم».

«أجل، بالطبع، اللحم هو الأكثر توافرًا في البيت الصيفيّ في عيد الميلاد الحالي».

قالت: «صنعتُ لك بعض الفطائر المحلّاة».

«أوه، سُحقًا للفطائر. ما عادت معدتي تحتمل مثل هذه الأصناف. سوف أمضغ قطعة من اللحم عوضًا عنها. كما لو أن مأمور الشرطة عمل بي مقلبًا بأن جعلني آتي إلى هنا، بينما هو يشخر في سريره، اللعنة عليه. لا أعرف كيف سأبتعد كثيرًا عن هذا المكان الليلة».

بيد أن أذني آستا سوليليا كانتا بعيدتين جدّا عن المحادثة، لأنها لم تعرف ما الذي دها هيلغي. داهمها فجأة هاجس غامض كان أقرب إلى الفزع نوعًا ما، حتى إنها أهملت احتياجات الوكيل وعجّلت في النزول على السلم وخرجت في العاصفة الثلجية. إذن تُرِك الوكيل جالسًا وحده في الطابقِ العلوي مع المرأة العجوز والأخ الأصغر، للنظر في تَبغِهِ، وَتمسيدِ وَحكّ نفسه، والتثاؤب. مرّ الوقت، وشعر بلا شك أنه يجب أن يقول شيئًا.

بدأ بالكلام: «حسنًا، حسنًا يا بيرا، ما قولك بكل هذا الهراء اللعين؟»

سألت: «ماذا؟»

«ألا تعتقدين أن كل الأمور تسري على نحو جنونيّ تمامًا في السماء والأرض، أيتها العجوز بيرا؟»

وعلى الرغم من أنه خاطب المرأة العجوز بنبرة بعيدة جدًا عن كونها غير ودية، فإنه لم يبدُ عليه أنه ينتظر منها جوابًا باهتمام كبير، ذلك أنه أتبع سؤاله بسلسلة من التثاؤبات الهائلة.

«آه، لا أعتقد أن لدي كثيرًا لأفكر به أو أقوله إطلاقًا، سوى أنني كنتُ أعلمُ دائمًا أن هذا الأمر سيحدث في وقت من الأوقات. أو ما هو أسوأ. ودعني أقول لك، ليست ملائكة الله هي التي تحوم حول هذا الكوخ بأي حال من الأحوال. لم يحدث ذلك قطّ. ولن يحدث أبدًا».

قال الوكيل مؤيدًا كلامها: «كلا، لم يحدث ذلك، ولن يكون أبدًا. وهل عندك أي اعتراض بأن يكون لديك مدخنة في ركنٍ وجدت من أجلك في مزرعة جميلة في الريف في حال استنهضَ المأمور هِمّته كما يجب لإخلاء بيارتور من هنا بأمر من القانون؟»

«آه، لا أعتقد أنه سيكون لدي ما أقوله ضد السلطات، مهما قررتْ أن تفعل، وعلى أي حال لا يهمّ كثيرًا ما يحدث لي. فكما يعلم الوكيل، عشتُ أنا والمسكين راغنار أربعين سنة في أورثارسيل، ولم يحدث شيء طوال كل تلك المدة. وجيراننا في المروج هناك كانوا جيرانًا طيبين. ولكن هنا يبدو كأن شيئًا ما لا بدّ أن يحدث دائمًا طوال الوقت. لا يعني ذلك أني قصدت أن أي شيء قد حدث على الإطلاق بغير ما أرادته العناية الإلهية، فعلى

سبيل المثال، يؤذن لي بالعيش، إن استطعتَ أن تدعوها حياة، بينما تُستدعى ابنتي المسكينة بعيدًا عن منزلها وموطنها في أول شعاع شمس من موسم تحضير القش، ناهيك عن خسارة الأغنام الربيع الفائت، والآن هذا التفشي الأخير للشيطنة».

قال الوكيل مُقِرًّا: «بلى، تفشٍّ مريع للشيطنة».

همهمت المرأة العجوز بينها وبين نفسها لبعض الوقت.

«ماذا؟» تساءل الوكيل.

«ماذا؟» تساءلت المرأة العجوز.

قال الوكيل: «نعم، أعني ما رأيك بالحادثة هذه؛ ما يسمى بالأعمال الشيطانية».

أجابت: «حسنًا، أما وأن الوكيل قد تَلطّف وَتكرّم وسألني، هل لي أن أخبرك، يا عزيزي جون، بأنه في زماني جرت العادة، وكانت في الغالب مُجدية مع الناس، أن تُرشّ هذه الكائنات الهائجة ببولٍ آسِنٍ، وبذلك كانت الشياطين تولّي هاربة من هذا النقيع بعدما باءت جميع الوسائل الأخرى بالفشل، بيد أن صاحب البيت هنا لا يقبل بأي شيء له علاقة بالدين المسيحي، إنه شخص غريب للغاية، بيارتور هذا، كل ما هو مقدّس مرفوض ومثير للسخرية ومُداس، كما هو الحال مع كل شيء آخر في هذه الأيام».

«بالضبط»، وافق الوكيل، «ذلك المغفّل العنيد، لا يمكن سحبه ولا دفعه. ولطالما كان كذلك. ينبغي أن يؤخذ الأطفال بعيدًا عنه وأن يستقروا في مزرعة جميلة، بقوة القانون إن لزم الأمر. وأما بالنسبة لنا، يا جدّة، أنا واثق بأن ماركوس جونسون جيل سوف يرأف بنا ونحن على هذه الحال، إنه يرعى عندي كبار السن منذ أكثر من عشرين سنة حتى الآن. إنه رجلٌ مسالم، لم أعهده قط يرفعُ يده على كبار السن».

تمتمت المرأة العجوز: «سأكون آخر من يتشكى بشأن أي شيء. وعلى أية حال فأنا أعرف أن خالقي سوف يُقدِّر لي ما يشاء، وأنا لا شيء على الإطلاق، كما يمكن لأي شخص أن يرى، وعلى الرغم من أني لا أبدو غير قادرة على الموت، لكني بالكاد أستطيع القول إني على قيد الحياة. في بعض

الأحيان يستلزم الأمر مني وقتًا طويلًا لأعرف من أنا. لكن ما يطمئنني هو أن أعرف بأن نوني الصغير هنا في مكان ما بقربي، لأنه طفلٌ واعدٌ قولًا وفعلًا، ولا يستحق التجوّل بين الغرباء؛ إنه ينام في الزاوية هنا بجانبي منذ أن كان في الحفّاظات».

«نعم، سأذكر هذا للمأمور، في حال اتُّخِذت خطوات لبيع هذا المكان».

«سيخبر الوكيل المأمور بما يراه مناسبًا بالطبع، كما فعل دائمًا بلا شك. ولكن إن تسنى لي الاختيار، فسوف أختار أورثارسيل طبعًا، بدلًا من أي مكان آخر. ولكن لم يكن من عادتي مطلقًا توقع أي شيء خاصّ، ولا حتى عندما كنتُ أصغر سنًّا. كما أنني لم أكن أخشى أي شيء، سواء الإنسان أو الشيطان. وإن كانت مشيئة الخالق تقتضي فناء هذه المزرعة للأبد، حسنًا، فهو ليس سوى ما توقعه الجميع؛ يعرف الجميع أي نوع من الأمكنة هذا. وفيما يتعلق بي، يا حضرة الوكيل، فأنا لا أكترث بهذا على الإطلاق، وأنا كما أنا صمّاء بكماء، كما أنا بالتأكيد؛ ولا يمكنني القول إنه بقيت لي أصابع، جميعها ميتة، انظر. وصدري ذَهبَ أيضًا. لكنها كانت بهيّة للغاية، أوقات غروب الشمس في أورثارسيل».

حدّقَ بها الوكيل لبعض الوقت في ارتباكٍ تام. ماذا يفعل المرء بكيان كهذا، ما عاد كيانًا في الواقع، وبحسب روايتها الخاصة، لا ميتًا ولا حيًا؟ أنّى له إطالة هذه المحادثة أكثر؟ لذا ربّت على فكّيه، وتثاءب، ثمّ قضمَ قضمة تبغ. وسألها بتلطّف: «ألا تريدين مضغة تبغ، يا صديقتي العجوز؟»

لمدة طويلة لم تسمع ولم تفهم إلامَ كان يشير، ولكنها أدركت في الأخير أنه يقصد التبغ. وأضاف بالقول: «لكي تنعشك». فإنها رفضت عرضه بكياسة. وقالت: «لا يا عزيزي لا، لم أكن يومًا بحاجة إلى التبغ إطلاقًا. والسبب هو أنني أعلم أن الرب يدبّرُ الأمور كلّها حسبما يُرضيه».

***

46. الخدّ الأيمن

آثار أقدام صبيّ لا تأخذ وقتًا طويلًا حتى تختفي في الثلج؛ في الثلج

المتساقط باطّراد في أقصر أيام السنة، وفي أطول ليلة؛ سرعان ما تختفي بمجرد أن تتشكل. ومن جديد تسربلت المروج باللون الأبيض المنساق مع الريح. وَما مِن شبح، ما خلا الشّبح الوحيد الذي سَكنَ قلبَ صبيٍّ مَا لهُ أمٌّ إلى أن تلاشت آثار خطاه.

ما أخبار سلامة الروح في اليوم الذي تلا الليلة الأطول؟

لم تكن هذه بحال من الأحوال أول مرة ينغلقُ فيها القلب والأراضي البراح على هذا الحِمل الثقيل من الخوف، الأمر الذي يجعل السعادة ظاهرةً جديرة بالملاحظة للغاية. ولكن، من جهة أخرى، كان اللحم وفيرًا، لحوم أكثر مما يمكن لأي شخص أن يتذكر، لحوم في قصعات مدورة وصناديق مربعة، لحوم ميتة في رأي القرية، ولكن اللعنة، لم يكن لحمًا ميتًا على الإطلاق، على الرغم من أنه لم يَشتره أحد، فاضطر الناس لتناوله بأنفسهم، وكانَ مثل أي لحم عيد ميلاد آخر، من شاة سمينة.كان هذا شيئًا جديدًا على هذه المزرعة، حيث كانت تؤكل النعاج الكبيرة القاسية في الأعياد. كان الجميع الآن خدودهم متورّدة، رؤوسهم ثقيلة، ويعرجون من ألمٍ في المعدة؛ لحم على الفطور، لحم بين الوجبات، حساء أكثر من العصيدة، مرق أكثر من الماء، وعندما يكون الكلب عاجزًا عن الحركة من الإفراط في تناول الطعام، فما الذي تشتهيه روح الإنسان أكثر؟

والآن، بدأ عيد الميلاد بكلّ طقوسه.

ذلك المساء، حينما وضعت المرأة العجوز صنانيرها جانبًا قبل النوم بوقت طويل، وقالت لآستا سوليليا: «والآن إذن، يا فتاتي، ستكونين قادرة على الاغتسال». حينذاك، وحينذاك فقط بدأ عيد الميلاد. لقد ظنت بالتأكيد أن سوليليا لم تغتسل قط إلا في تلك الأمسية المحددة، وأنها لن تغتسل حتى في ذلك الحين لو لم تؤمر بذلك. هي نفسها تخلّت عن الاغتسال منذ زمن بعيد، إضافة إلى ذلك، ما عاد الناس يعتقدون بالبول الآسِن، لأيّ غرضٍ مهما كان.

ولكن هل كان هذا كل شيء في عيد الميلاد؟ لا، فقد أخرجت الجدة العجوز منديلها تلك الليلة أيضًا. فكّت شالها القديم الرثّ، وربطت

المنديل حول رأسها. كان من مخلفات الاحتكار[1]، الجزء الأوسط منه ما يزال سليمًا، قطعة قماش حريرية سوداء انتقلت من الجدة إلى الجدة، صار أملس على مرّ القرون من ملامسة الأيدي الهرمة المعروقة، جزء من جزء من ثروات العالم، أو على الأقل إثبات على وجودهم الفعلي.

لكن ذلك لم يكن كل شيء. حينما ارتدت المرأة العجوز منديلها، شرعت في إخراج خِلال الأذن الخاص بها. كان الخِلال الأذنيّ رمز الحضارة العالمية في الأراضي البور. وكان كما المنديل إرثًا عمره قرون عديدة، مُصاغًا من الفضة الباهظة الثمن، اسودّ لونه في الحزوز بمرور الزمن، وكان صقيلًا مع وجود تآكلات على الحواف المتقوّسة. في هذا الوقت أخذت تنقب أذنيها، مع كل الهمهمات وتقطيبات الوجه المرافقة لتلك المهمة، قد يدخل عيد الميلاد بكلّ جدية، لأنه عندها فقط انتهى التكريس.

في هذه المناسبة أمر بيارتور بسلق ساق نعجة كاملة. سرعان ما سُلِقت ساق النعجة. تفحصها المُزارِع بينما كانت موضوعة في الوعاء الذي أمامه، لحيمة وزكية الرائحة، شعر أنه من المستحيل عدم التعبير عن إعجابه على الرغم من كل ما حدث مؤخرًا. علّق بحماس: «يا إلهي! يا له من عيد ميلاد رائع!»

لم يسبق للأطفال أن سمعوه يذكر عيد الميلاد باعتباره شيئًا مميزًا، ومع ذلك ها هو الآن يقول ليست نعاج الجميع بإمكانها إظهار ساق رائعة أوان عيد الميلاد. مضغوا طعامهم بصمت، بوجوه مُتجهمة فاترة، بقي منهم الآن ثلاثة فقط، وهؤلاء الذين تبقوا ما فتئوا يُفكرون في اختفاء شقيقهم الأكبر في الثلج، وكيف بحث عنه الناس دون جدوى في اليومين الأخيرين. لكن بيارتور صاحب البيت الصيفيّ ما فكّر قط بأي شيء فقده، بمجرّد التأكد أنه فقده، ولم يكن راضيًا عن الأولاد لعدم إظهارهم أي علامات على البهجة في عيد الميلاد من بين كل الأوقات. على هذا النحو اقترب موعد النوم، وَسادت ليلة عيد الميلاد بآلام المعدة، وبنومها المضطرب؛ أو دموعها الصامتة.

1- يُراد به الاحتكار التجاري الدنماركي الآيسلندي، وهو الاحتكار الذي مارسه التجار الدنماركيون في آيسلندا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث كانت آيسلندا خلال هذه الحقبة إقليمًا تحت سيطرة التاج الدنماركي.

مع أن الوقت تجاوز ميعاد النوم، إلا أن آستا سوليليا مضت في تمشيط شعرها، وتسخين الماء، والتجوّل في وميض الشمعة. راح يراقبها من فراشه بعد وقتٍ طويل من استلقاء الآخرين للنوم؛ سخنَ ماؤها شيئًا فشيئًا في هدوء ليلة عيد الميلاد هذه. كانت حريصة على عدم النظر في اتجاهه. أكان ذلك لأنها فتاة سيئة؟ آه! لماذا عليها أن تعود مرة أخرى للتفكير بهذا الأمر؟ ومع ذلك طفا إلى سطح عقلها هذا الشتاء، ودائمًا ما ربطته بموت أمها، كما لو أنها شعرت بأنها متواطئة، وبأن اللوم يقع عليها لأن الأب لم يشترِ لها دواء كافيًا، وبأنه لم يجلب لها معطفًا، ومع ذلك، لم يكن في دخيلتها خبثٌ في تلك الليلة في العالم بالخارج عندما كانت صغيرة، كانت غير قادرة على التحكم في نفسها فقط. حتى عندما كان كل شيء هادئًا ومسالمًا، كما في ليلة عيد الميلاد هذه، في منتصف اليوم الشتوي القصير من العام، اجتاحها الخوف من هذه الفكرة؛ الخوفُ من الخوفِ من شيءٍ لم يكن شيئًا في الحقيقة، الخوفُ من أنها لم يُغفر لها بعد، من أن أحدًا لم يكن مستعدًا لأن يغفر لها شيئًا ما، والخوف من أن شيئًا مروّعًا للغاية وغير منطوق سيبقى بينها وبينه، بينها وبين هذا الشيء. من المحتمل أن كليهما كانا يجاهدان الأمر ذاته، دون أن يفهماه، كلٌّ بروحه، هو قويّ، وهي ضعيفة. نعم، بالتأكيد كان بينهما محيط لا يمكن اجتيازه. كانت حياته شعرًا معقدًا لا يتماشى مع وجودها الأبكم غير الموزون؛ مع قوة احتماله وهشاشتها. حتى عندما فُقِد أخوها الذي عاش هنا في هذا البيت وتنفس فيه قبل بضع ليال، حتى في ذلك الحين أمرهم جميعًا بأن يصمتوا؛ بكت طوال الليل بينما هو نائم، ربما ليس بسبب حزنها الشديد على أخيها فحسب، بل بسبب الظلمة الشديدة التي اختفى في غياهِبها، ولأنها شعرت أيضًا بتأثّر عميق إزاء فكرة مسامحتها له على سوء معاملته لها في غالب الوقت حينما كانا أختًا وأخًا. لكن أباها، أنّى لهما أن يفهما بعضهما بعضًا، هو وهي، من نامَ بينما كانت تبكي؟ وكيف يكونان مُبرّأين من كل ذَنبٍ أحدهما حِيال الآخر ما لم يفهما بعضهما بعضًا؟ ولو أنها كانت ستخلع عن جسدها كل غرزة وخيط، وتغسل نفسها ثم تغسل نفسها، وتغتسل، مرة بعد أخرى إلى ما لا نهاية، فلن تُفلح أبدًا في غسل ظلِّ الذنب الغامض وغير المفهوم الكائن بينهما، ذاك الظل الذي يغشي على

الجسد والروح. وبينما كانت سابحة في أفكارها كان هو مُسنِدًا رأسه على عمود السرير، يتأمّل باندهاش كيف يتراقصُ البُخار والأظلّة بلا كللٍ حولَ هذا القوام الفتيّ.

كان لديها خدّ أيمن من نوع مختلف عن أي ساعة في النهار. تراوحت أفكارها ما بين الترقب والفزع، مثل سماوات صيفية تُجلّل الأرض بِطقسها الحيّ النّشِط، ببقع ضوء الشمس الهاربة، والظلال العابرة. مثل هذا الخدّ هو في الواقع أشبه بالكائن الحيّ، عاجزٌ في حساسيتِهِ المفرطة لما يَكمن في الداخل وفي الخارج. كان الأمر كما لو أن عروق حياته مكشوفة، كما لو أن بُنيته روح واحدة مُتصلة ليس بوسعها احتمال الشرّ، ومواجهة أمر آخر ربّما. الترقّب هو ما يحمي روحًا كهذه، وليست السّعادة نفسها. أين ستكون هذه الفتاة لو لم يكن خدّها الأيسر الشرير لمساعدتها؟

ناداها وأمرها بالإصغاء. كلّا، لم تُخطِئ السّمع. وقفت وعبرت الغرفة نحوه. أراد منها الجلوس لدقيقة. نعم، أراد مفاتحتها بموضوع صغير، بما أنها بلغت سنوات التعقل. لم تنبس بكلمة. ثم، ودون سابق إنذار:

«سأرحل بعد عيد الميلاد، وسأتركك في البيت. ولن أعود حتى عيد الفصح تقريبًا».

نظرت إليه بعينين واسعتين مُتسائلتين، وقد تكدّرت ملامحها.

ثم مضى مُستطرِدًا: «لقد فقدتُ خرافًا كثيرة. وكما قال أودين[1]: الخرافُ تموت».

قالت نعم، وكانت تفكر في قول الكثير؛ بأنها أملت هي وإخوتها بمساعدته في الحصول على مزيد من الخراف، لكنه كان ذاهبًا بعيدًا، ووجدت نفسها غير قادرة على قول أي شيء.

استأنف القول: «أنا لا أتذمر على الإطلاق، لستُ بأي حال من الأحوال

1- أودين أو أودِن: كبير الآلهة في الميثولوجيا النوردية، وزعيم آلهة الآسر. يُدعى بأبي الآلهة. تربط الأساطير النوردية أودين بالحكمة والشفاء والموت والملكية والمشنقة والمعرفة والتنبؤ والحرب والمعركة والنصر والسحر والشعر والهيجان والأبجدية الرونية، وتصوره على أنه زوج فريغ.

أول من عانى من الخسارة في هذا البلد. وأقول كما يقول المثل: ماتت الزوجة الصالحة، الآن صار الفراش أوسع! ما يهمُّ يا بُنيّتي هو أنني لم أمت بعد، ليس بعد. ولا يعني ذلك أن الأمر سواء بالنسبة لي إن مت. ولكني سأقف ما دامَ هناك شيء أقف عليه».

نظرت إليه وقد اشتدّ وجيبُ قلبها، وعرفت أنه يتحدث عن أمور جدية الآن، على الرغم من أنها لم تستطع فهمه؛ إنسانان يواجهان صعوبة في فهم بعضهما بعضًا، ما من شيء مأساويّ أكثر من إنسانين.

«قلتُ لكِ السنة الماضية، يا فتاتي الصغيرة، أم كان ذلك في السنة التي قبلها؟ قلتُ إنني مع الوقت سوف أبني بيتًا. وقد قلتُ ما قلته».

سألته بوجه خالٍ من التعبير: «بيت؟»، لأنها نسيت الأمر برمّته.

قال: «نعم، بيت، سأُريهم»، وأضاف بنبرة أخفّ حدة وهو يلمس كتفها بكفّه: «حينما يكون للمرء زهرة في حياته، يبني بيتًا».

كان لها شعر كستنائي مُنساب على نحوٍ طبيعي في تموّجات، وحاجبان متقوسان في قوسي استفهام، ورموش مرويّة بدموع غزيرة. نظر مرة جديدة إلى خدّها، وتمعّنَ في حركة الحياة في عروقهِ الدقيقة، ثمّ تَنهدت بِحزن: «هل سترحل بعيدًا؟»

أجاب: «أفكر في جعلك مسؤولة عن كل شيء، في الداخل وفي الخارج. وغدًا سوف أشرح لك ولغُفيندور كلّ ما يتعلّق بِعلْف الأغنام».

ثمّ طَفِقت تبكي، لأن الفزع كان يتعاظم في قلبها جِبالًا. كانت في يأسٍ مُطلق، واستسلمت لتلك القوة الشهوانية الغريبة التي تتغلغل في الروح والجسد لحظة اليأس التام. لم تكن تعلم ما هي تقول، لأن اليأس هو من كان يتكلم في باطنها؛ هو اليأس من قال إنه لا يهم إذا ما مرضت وماتت مثل أمها في أقصر الأيام في منتصف الشتاء والأنهار الجليدية تكسو المروج، ياه، وأتمنى أن لا يُحييني الله كي أعيش لحظة واحدة سعيدة، والذنب ذنبي أن ماتت أُمي الحاضنة، لأني لم أحبها بما يكفي، ولكن أخي الصغير المسكين هيلغي، كان مولعًا بها لدرجة أنه كان يفكر بها ليلًا ونهارًا، وسمعته يقول على الرصيف إنه ميت، وكان ينبغي أن أكون أنا التي تاهت في الظلام وماتت

في الثلج على المروج، آه أنا متأكدة أنه من الخير لي أن أكون ميتة، لأنك إذا تركتني، يا أبي، ما من أحد ليساعدني. استمرت هكذا بعض الوقت، وعانقته وهي تبكي، ورأسها يهتّز على صدره في قنوط.

للمرة الأولى تاهت من المُزارع كلماته، لأنه بالنسبة له لم يكن من شيء إشكالي وغير مفهوم على الإطلاق من المنطق الذي ولدت منه الدموع! كان يكره الدموع، لطالما كرهها، لم يفهمها قطّ، وفي بعض الأحيان كان يفقد السيطرة على أعصابه بسببها. بيد أنه شعر الآن بأنه لا يستطيع توبيخ زهرة حياته هذه، ذلك التكوين البريء، الماء والشباب رفيقان متلازمان، وعلاوة على ذلك كانت ليلة عيد الميلاد. لذلك ألمحَ فقط بأنها قد نسيت مرة أخرى وعده ببناء منزل لها؛ كان هذا في الخريف الذي تلا وجود فريثا هنا، اللعنة عليها!

ولكن بدا أنها غير آبهة أبدًا بالعيش في منزل، نعم، لربما أرادت ذلك في مرة من المرات، منذ سنوات وسنوات، ولكن ليس الآن، كان هذا الكوخ جيدًا بما فيه الكفاية بالنسبة لها، فقط إن كنت ستبقى مع حبيبتك سولّا، فقط إن لم تترك صغيرتك آستا سوليليا. إن بقيتُ هنا وحدي يا أبي، كل ما يهدد هذا المكان، كل ما قد يحدث... مكتبة سر من قرأ

لكنه قاطع كلامها وأكّد لها أنه لن يقع أي مكروه، وأن لا شيء يتوعّد المكان؛ بلى، كان مُتيقنًا تمام اليقين من هذا. وقد عرف ماذا عَنت، عَنت شبحًا، ولكن كما كان يقول للكلب دائمًا، الإنسان يجد ما يبحث عنه، ومن يُفكر بالشبح يجد شبحًا بالتأكيد. كان قد قرر الذهاب والعمل بجدّ ليؤمن المال اللازم لشراء مزيد من الأغنام في الخريف. ستكون هذه أول مرة في حياته سوف يعمل فيها من أجل المال، سيحصل على عملٍ لدى شركة بروني شريطة أن لا يكون تولينوس جينسن قد أفلس. إضافة إلى ذلك، كانت هناك فرصة لعدم ترك الأطفال بمفردهم، لأنه كان يعرف شخصًا في فِيورد بإمكانه الاستعانة به بهذا الخصوص؛ إلا أنه توقف عند هذا الحدّ، تجنبًا للإغراق في الوعود. هيا يا فتاة، ابتهجي قليلًا، كانت والدتك مئات المرات بمفردها حينما ماتت هنا في الدور العلوي في الأيام الخوالي، وأنا لا أفهم لماذا يتعين على المرء الأسف إن هو تَأبى حياة يحياها وأشاح بوجهه عنها، يا فتاتي،

فعلى الأقل لديه فرصة ضئيلة لانتشال نفسه مما هو فيه. وفي القبر متّسع من الوقت للتذمر والشكوى! لذلك جفّفي وجهك الآن، يا صغيرتي، واستعدّي للذهاب إلى النوم.

انتهى النقاش عند هذا الحد. كان هو من نام أولًا. عادت إلى النار برأس مُطأطَأ. كانت حنجرتها مخنوقة بالبكاء، إلا أن ذلك لم يحدث فارقًا، وعلى الرغم من كونها متحدّثة نبيهة ولها لسان من ذهب، فإن الثرثرة الإضافية كانت ستذهب سدى، كان قد استلقى وَسَحب الأغطية فوقه، والثلوج على النافذة زرقاء. لم يحدث صقيع، كان في الغرفة دفء، والماء يغلي في القِدر، والبخار، والظلال الضخمة، وضوء ضئيل، وليلة عيد الميلاد. لم يكن من سلطة باستطاعتها زعزعة قراراته، سواء سُلطة القوّة أو المحبّة. وأن يكون لك أبٌ مثل هذا فذلك ليس مجرد لعبة أطفال، ومع ذلك فهي لا تتمنى أبًا سواه أبدًا، أبدًا. كانت في تلك الحالة الذّابلة عديمة الحيوية التي تستولي على البدن عقب البكاء الحارّ، كما هو حال الماء حينما يتبخر بعد الغليان الكثير ويمكثُ في الجوّ. شَهقت ونَشقت، رويدًا رويدًا جفّت الدموع من مآقيها. حتى عذاب روحها تبخّر. خلعت جوربيها، ثم تنورتها التحتية، وضعت ملابسها ساهمةً القطعة فوق القطعة على المقعد قبالتها، دون أن تنظر يمنة أو يسرة، كل ما ستفعله من الآن فصاعدًا له ما يبرره. وقفت فوق الماء الذي يتصاعد منه البخار طويلًا، ومثلَ نبتة متدلّية انعكسَ خيال ثدييها الكاعبين في وميض الشمعة الخافت في ليلة عيد الميلاد، في ظلال البخار المرفرفة؛ شفتاها متورمتان من البكاء، رموشها مثقلة بالملح.

***

47. أو بوير أوبتيميه(*) (يا خِيرة الأولاد)

بطريقته الخاصة، البؤس لا يقلّ عن المرح الصاخب بتنوع أشكاله وأهميته؛ حيثما تكمن شرارة الحياة في العالم، وهؤلاء الأطفال الذين لأسباب غامضة ما يزالون أحياء في المروج عانوا كثيرًا من ظواهره الجَلل، ليس أثناء الأعياد فقط، ولكن ما بين الأعياد أيضًا. ومما يثري بالخبرة

والمعلومات دومًا وفاة الأم في شعاع الشمس الأول من موسم إعداد القشّ، وحينما يغادر الأب بعيدًا بعد اختفاء الأخ الأكبر، فتلك أيضًا تجربة من نوع خاص للغاية، نوع جديد من البؤس، تمامًا كما في القصفِ واللهو الصاخب، حيث يُقال إن الناس يميزون ما بين الأغنية والرقص. خسارة صغيرة تستعير قوّتها من الخسارة الأكبر، وهكذا، بعد رحيل والدهم، تمثلت حقيقة فقدانهم لأمهم مثل دائن أتى مجعجعًا مطالبًا بحصّته من الذاكرة؛ وفي عمق الشتاء، يعود إلى مخيلة الأطفال من جديد ذلك اليوم الصيفي حينما كانت أمهم مسجّاة على نعشٍ في حظيرة الخراف في الخارج، ما بين نباتات الفِطر السّام في الظهيرة، ومع ذلك واصلت الشمس إشراقها. نعم، واستمرت الذبابة الزرقاء في الطنين في شعاع الشمس عند إفريز النافذة، غير متأثرة بحقيقة أن عذاب الحياة المحبب ما عاد الآن في الكوخ، وأن صمت الموت الذي ساد الطابق العلوي، لا علاقة له بصمت القلب؛ تلك الحشرة المحبة للغناء التي تقصر نفسها على نغمة وحيدة. واليوم تعود هذه الأغنية، هذا العالم الآخر، النغمة الثابتة التي لا تتبدل، مفرغة من الحب ونائية؛ اليوم تتردد في أذهانهم مجددًا هذه الأغنية، إذ النافذة مطمورة بالثلج العميق. فكروا بها كلٌّ على حدة، دون أن ينظروا بعضهم إلى بعض، السماء والجبال الجليدية مشتعلة في الأفق في منتصف النهار، وقمة جبل بلوفيل متوهجة بالأبيض في الصقيع المتّقد. وحياتهم، التي كانت من قبل بلا جدران محمية، أمست آنئذ فجأة دون دِعامة، مثل سقف منهار. الخروف الواقف في قدسية بالحفرة بجوار الجدول، يثغو محدّقًا في التلال المتجمدة، ليس بإمكانه أن يمنح أبناء البشر فضائل عقليته. لذلك حينما فرغ الصبيّان من تقديم آخر دفعة من العلف للماشية لليوم، جلسا على كومة الثلج، دون أن يفهم أحدهما الآخر، وحدّقا في التلال نفسها بقدر قليل من الطاقة. من الصعب عدم السماح لك بالاستراحة لوقت قليل، إلا أن الأكثر صعوبة العيش دونما أن يكون أحد ليوجهك وأن يقول لك ماذا تفعل؛ لأنه في حالة كهذه كيف للمرء أن يستمر في فعل شيء ما؟ ثم تذكر الأخ الأصغر جدته فجأة، هي التي تعرف كل شيء فقط إن أمكن الواحد أن يفهم ماذا تقول، وقال لأخيه الأكبر إنه كلما حدث شيء فهي تعرفه مسبقًا، وتواصل حياكتها.

قال غُڤيندور: «نعم، الأمر سهل بما فيه الكفاية إن كنت قد بلغت المائة من العمر، ولا تحتاج إلى القيام بأي شيء سوى الحياكة. لكن ماذا عنا نحن؟ كيف سنتدبر أمورنا؟»

فكر نوني الصغير وفكر، ثم أجاب في آخر المطاف:

«التبغ هو ما نحتاجه».

«تبغ؟» سألَ غُڤيندور؛ بعيدًا عن فهمِ هذا النوع من المنطق.

«أجل، تبغ. ذاك الذي لا يعرف خالقه يحتاج إلى التبغ. لقد سمعت جدتي تقول هذا حينما كانت تتحدث مع الوكيل».

سألَ غُڤيندور: «الخالق؟ ما الخالق؟ أواثق أنت عما تتحدث؟»

قال نوني الصغير مفسّرًا: «ما أعنيه، إذا مضغت التبغ فلا حاجة لأن تقلق إذا لم يرتّب لك الخالق أمورك حسبما يُرضيه».

غُڤيندور: «ها قد بدأت تتحدث مثلما كان هيلغي يتحدث. يجدر بك بدلًا من ذلك التفكير كيف سنكبر ذات يوم، وكيف سوف نساعد أبانا في مضاعفة الماشية، والبدء بالزراعة على صعيد واسع مثل قوم روثسميري، وكيف سنربي الأبقار، ونبني المنازل. وأشياء أخرى كثيرة».

أجاب نوني الصغير: «نعم، لقد فكرت بهذا كلّه وكثيرًا. لكن يجب أن ننتظر طويلًا. وأحيانًا أفكر في الذهاب بعيدًا، إذا لم يحدث شيء خلال مائة عام مثلًا. لأنه لا بد من أن يكون بالإمكان الهروب، حتى وإن قال هيلغي إنه ما من سبيل. ولكن إن لم يحدث شيء، وتعذر الهرب لسنوات وسنوات وسنوات، فمن المؤكد أن هناك شيئًا ممكنًا في وقت أو في آخر، حينها من الممكن ألا تقلق إن لم تكبر على الفور، أو إن لم يزدد عدد الماشية إطلاقًا، إو إن لم تشرع بامتلاك الأبقار. ما عليك سوى أن تمضغ التبغ».

غير راغب بالاستماع إلى مزيد من هذا الهراء، مشى غُڤيندور بعيدًا في صمت. ويوم آخر جرجر ذيوله على الثلج الهائل، وعلى قلوب القوم الصغيرة المتخوفة، إلى أن وقف الفتيَان مرة أخرى على كوم الثلج ذاته في اليوم التالي، يشاهدان منظرًا طبيعيًا لم تكن فيه بقعة أرض عارية يمكن رؤيتها. ثم كان غُڤيندور من بادر بالحديث بلا مقدمات:

«اسمع يا نوني، هل سرقت التبغ الخاص بالخراف المتبقي من السنة الماضية؟ من المفترض أنه في الصندوق الخشبي في المدخل».

نوني: «قلتَ البارحة إنك لا تريد التبغ. ما الذي جعلك تريده اليوم؟»

غُڤيندور: «سلّمه على الفور، وإلا أوسعتك ضربًا!»

تبعَ ذلك مشاجرة خفيفة على الثلج، إلى أن سحب الأخ الأكبر من سروال الأصغر لفّة من تبغ المضغ المتعفن. «هل تعتقد أني سأتركك تلتهم كل هذا بمفردك، أيها الأكول التافه؟»

استُعيد السلام أخيرًا، وبعد شمّ التبغ، ولعقه، وتذوقه بلسانيهما، اتفقا على تقاسمه بطريقة أخوية، على ألا يأكلا أكثر من مضغة واحدة يوميًا حتى نفاد الكمية. لاحقًا في ذلك اليوم بدآ يشعران بتوعك رهيب. صعدا السلّم إلى الطابق العلوي حَبوًا مع آلام في البطن، ودوخة، وإقياء، واضطرت آستا سوليليا إلى تبديل ملابسهما ووضعهما في السرير؛ وعلى الرغم من مضايقتها لهما وإلحاحها الشديد بالأسئلة، ما كانا ليقتنعا بالبوح بأمر المهدّئ الذي ينبغي تعاطيه إذا ما خشي المرء من أن الربّ لا يرتبّ الأمور كما يشاء!»

وآستا سوليليا، التي جلست كي تمشّط الصوف، أنّى لها نسيان أمسيات الغد التي تجعل الليلة طويلة جدًا؟ حاولت التفكير بقرقعة درجات السلم البارحة صباحًا حينما نزل الأب للمرة الأخيرة؛ وكيف خشخشت اللقيمات في فم العجوز بيلسي حينما رمى اللجام حوله، ووضع قدمه في الرِّكاب، وقعد منفرج الساقين على أمتعته، وكيف صرَّ الثلج المتجمد تحت حوافر الحصان لدى انطلاقهما. أجبرت عقلها على التركيز في هذه المغادرة أطول فترة ممكنة، كما لو كانت في الجزء الأول من القصة، حتى تكون قادرة على تشجيع نفسها أكثر بفكرة عودته في عيد الفصح؛ وربما سيكون عيد فصحٍ أخضر مثلما أتى عيد ميلاد أبيض، وهكذا، بعد عدد لا يحصى من الأمسيات، تسمع جلجلة طقم الفرس في الخارج، وفي هذا الوقت ينزع اللجام، ومن جديد تَصرّ درجات السلم، وتبصرُ وجهه ومِنكبيه القويين أعلى فتحة الباب الأرضي، لقد أتى أخيرًا. تخطّت الزمن إلى هذه الرؤية المستقبلية على طول أمسيات لا عدّ لها ولا حصر. ولكن عندما تحين اللحظة الحاسمة، تجد

نفسها غير قادرة على فعلها؛ لا تستطيع رفع نفسها بما يكفي عاليًا في الهواء. وقفت بمفردها في مواجهة الأمسيات الكثيرة التي لم تأت بعد، مثل أفواج من الموتى يحتشدون في روح حية واحدة. إن روح الإنسان بحاجة إلى قليل من السلوان والعزاء في كل يوم إذا ما أرادت البقاء على قيد الحياة، ولكن لم يكن من عزاء للعثور عليه.

«حينما ينتهي هذا العيد يا جدتي ما العيد الذي يليه؟»

«ها؟» سألت الجدة، «ماذا تتوقعين الآتي؟ لا أعتقد أن القادم كثير، لا شيء كثير، يجب أن أقول بالفعل. لحسن الحظّ».

«ولكن من المحتم أن شيئًا ما سيحدث تاليًا، يا جدتي، بعد انتهاء السنة الجديدة، أعني عيدًا ما أو آخر». وأضافت بالقول بينها وبين نفسها، دون أن تجرؤ على رفع صوتها: «شيء قريب من عيد الفصح».

«أوه، لا أظن أن هناك مناسبة ذات احتفالية كبيرة على الطريق، ما عدا أنه بعد حلول السنة الجديدة لديك عيد الليلة الثانية عشرة[1]، ولكن هذا ليس عيدًا كبيرًا جدًا. كلا، لا أعتقد أن على الطريق أعيادًا كبيرة».

نعم، إنها الليلة الثانية عشرة ما كانت تبحث عنه، للتوقع يُفضل نسيان أمسيات أيام الأسبوع المضجرة التي لا نهاية لها، واستخدام الأعياد فقط كنقاط انطلاق إلى المستقبل. «نعم، الليلة الثانية عشرة، وماذا بعد؟»

«ثمّ سوف نتجه نحو ثوري[2]».

فكرت الفتاة على نحوٍ كئيب ثورن (شوكة بالعربية)، لأن الكلمة ذكّرتها بالعواصف الثلجية الكبيرة والذوبان المفاجئ للثلوج. الأمران اللذان يأتيان بالتناوب ولذلك هما بلا هدف، ذوبان الثلوج الذي يتحول إلى صقيع،

1- الليلة الثانية عشرة، أو عيد الغطاس، أو عيد العماد أو عيد الظهور الإلهي، وهو عيد يحتفل به المسيحيون في السادس من كانون الثاني من كل عام إحياء لذكرى معمودية المسيح في نهر الأردن على يد يوحنا المعمدان.

2- ثوري: (Þorri – Thorri) التسمية الآيسلندية لتجسيد الصقيع أو الشتاء في الأسطورة النوردية، وهو أيضًا اسم الشهر الرابع من فصل الشتاء (من منتصف يناير إلى منتصف فبراير) في الروزنامة الآيسلندية.

والصقيع الذي يتحول إلى ذوبان، أبدية تلو أبدية. «لا يا جدتي، ليس ثوري، ليس هو أبدًا، لقد قصدت الأعياد. الأعياد!»

«في زماني، كنا نُحيط علمًا بالطقس في يوم بطرس وبولس[1]، وفي عيد كاندلماس[2]، ولكن في تلك الأيام بالطبع كانت ما تزال عادات قديمة متبقية».

بيد أن آستا سوليليا كانت تتطلع إلى أربعاء الرماد[3]، فعلى ما تتذكر أن أربعاء الرماد هو قمة قد ينحدر منها عيد الفصح، ولكن الآن على ما يبدو شهور تسبق كل هذا أولًا، شهر ثوري وكل شهر غوا، ومن ثم سيحين صيام الأسابيع التسعة. صوم الأسابيع التسعة؟ تسعة أسابيع؟ من عساه ينجو من ذلك؟ ومع هذا، تشجعت من جديد، وعبرت عن أملها بأنه عندما ينتهي صيام الأسابيع التسعة في آخر الأمر، فلن يكون أربعاء الرماد بعيدًا جدًا.

«أوه، لطالما اعتقدتُ أن ثلاثاء المرافع[4] يأتي أولاً».

«لكن من المؤكد يا جدتي أن أربعاء الرماد لا بد أن يأتي في وقت من الأوقات، وحينها لن يطول حلول عيد الفصح».

أمالت المرأة العجوز رأسها إلى الوراء، ونظرت بارتياب إلى صنانيرها في الأسفل، وأجابت: «في زماني، كان أربعاء الرماد يتبعه دومًا الصوم».

«ما الصوم؟»

«عجبًا! الصّوم الطويل، يا امرأة، الصوم الكبير. هل سمعتم من قبل

1- عيد استشهاد القديسين بولس وبطرس الرسول، يوافق 29 حزيران من كل عام.
2- عيد كاندلماس أو عيد تطهير مريم العذراء يحتفل به في الثاني من فبراير من كل عام.
3- أربعاء الرماد: يعتبر أول يوم من زمن الصوم المسيحي ويرمز إلى التوبة.
4- الثلاثاء البدين أو ثلاثاء المرافع أو ثلاثاء الاعتراف أو يوم البان كيك: Shrove Tuesday مناسبة سنوية تحل يوم الثلاثاء الذي يسبق يوم أربعاء الرماد، ورغم أن هذه المناسبة سميت بسبب أهميتها الدينية (لأنه في الماضي كانت هذه المناسبة دينية بحتة وكان يتعين على المسيحيين القيام بفرض الاعتراف قبل البدء بالصوم) إلا أنها تتميز بشكل رئيس بالاحتفال والأكل بشراهة، إذ إن هذا اليوم هو اليوم الأخير قبل الصوم الكبير طبقا للعقيدة المسيحية.

بجهل كهذا! عمرها ما يقارب ستة عشر عامًا وتظن أن عيد الفصح يأتي مباشرةً بعد يوم الرماد! في وقتي كان الناس يعتبرونك مغفلة بالفعل إن لم تعرفي الصوم الكبير وكل الاحتفاليات المهمة فيه، أيام الصوم والصلاة، على سبيل المثال، وعيد البِشارة[1]».

فقالت الفتاة في لحظة إلهام مفاجئ: «ومع ذلك فأنا أعرف الجمعة العظيمة[2]، وستحين في وقت ما أليس كذلك؟»

أجابت الجدة: «على ما أظن عيد القديس ماغنوس[3] سوف يأتي أوّلاً، وخميس الأسرار[4]أيضًا».

وقد أتى هذا على محاولة الفتاة لتسليط الضوء على عيد الفصح، فاستسلمت. ضلّت تمامًا في صحاري التقويم، وفقدت كل إحساس بالاتجاهات، وتعرّق الصوف فجأة بين أصابعها، وباتت كل خصلة كتلة متشابكة لن تستطيع تمشيطها أبدًا. لماذا لا يستطيع هؤلاء الناس الشباب إراحة أنفسهم بالتفكير بأن كل شيء يمرّ بطريقة ما أو بأخرى، بما يُرضي الخالق؟

1- عيد البِشارة (25 آذار): هو إحياء لذكرى زيارة الملاك جبريل لمريم العذراء التي بشرها فيها بأنها ستكون أم يسوع المسيح، وهو أول الأعياد المسيحية من حيث الترتيب فلولا البشارة وحلول عيسى في بطن العذراء ما كانت بقية الأعياد، لذلك يسمى رأس الأعياد أو نبع الأعياد أو أصل الأعياد.

2- الجمعة العظيمة: وتعرف بعدة أسماء أخرى منها جمعة الآلام أو جُمُعَةُ الصَّلَبُوتِ هو يوم احتفال ديني بارز في المسيحية وعطلة رسمية في معظم دول العالم، يتم من خلاله استذكار صلب يسوع وموته. تعتبر جزءًا من الاحتفالات بعيد القيامة وتكون في يوم الجمعة السابقة له. من الأسماء الأخرى التي تعرف بها هذه المناسبة هي الجمعة السوداء والجمعة الجيدة والجمعة المقدسة والجمعة الحزينة وجمعة عيد الفصح.

3- ذكرى القديس ماغنوس(16/ أبريل): أو ماغنوس الشهيد (1080-1115)، هو ماغنوس إيرليندسون، إيرل أوركني.

4- خميس الأسرار (1/ أبريل): ويعرف أيضًا بالخميس المقدس وخميس العهد وهو يوم مسيحي مقدس يسبق عيد الفصح، وهو ذكرى العشاء الأخير ليسوع المسيح مع تلاميذه، وهو اليوم الذي غسل فيه يسوع أرجل تلاميذه وعظهم بأن يحبوا بعضهم بعضًا كما أحبهم وترك لهم وصيته.

وفي تعاطف مفاجئ قالت الجدة: «أوه، إن حظك ليس معمولًا من الأعياد الكبرى فقط، يا بُنيّتي. أتذكر في عيد من أعياد العنصرة[1]، على سبيل المثال، أن أبي المسكين أخرج البقرة كيما تتناول بضع وريقات من العشب الذابل التي انبثقت من الجليد. ولم يكن أمرًا مستهجنًا في زماني أن تهبّ العواصف الثلجية حتى في منتصف الصيف[2] نفسه!»

***

48. أوقاتٌ أفضل

صلصلة طقم فَرس؟ فرقعة حوافر على الجليد؟ أليس هذا بيلسي ينخرُ في العتمة بالخارج على الجليد؟ بلى بالطبع، إنه هو. سرعان ما نزلوا على السلالم، وخرجوا إلى الدهليز الثلجي، صعودًا إلى قارعة الطريق؛ هل من أحد هناك؟

تناهى إلى أسماعهم صوت هامس في الظلام بقربهم: «الحمد لله، إذن عثر المخلوق المبارك على بيته أخيرًا. أنا هنا. اقتربوا».

وحينما دنا الأطفال منه، وجدوا رجلًا واقفًا على الركام الثلجي. صافحوا يده الباردة ترحيبًا به. كان كل طرف مبتهجًا بالقدر ذاته لمعرفة وجود الطرف الآخر.

تساءل الزائر: «أليس للمنزل باب؟»

فكان جوابهم: «لا، ولكن هناك فجوة في أسفل الركام الثلجي».

قال الزائر: «هلّا دللتموني إلى الفجوة في الحال من فضلكم. أخشى أنني مريض. ما زلت لا أعلم كيف لم أتجمد حتى الموت على الأراضي البور. واجهتُ عاصفة مروّعة».

بينما ساقَ غُڤيندور بيلسي إلى الإسطبل، اصطحب بقية الأطفال ضيفهم عبر ركام الثلج، وأرشدوه كيف يزحف من فوق عتبة الباب. قال متشكيًا: «لا

1- أحد العنصرة (23 آذار): عيد مسيحي يحل في الأسبوع السابع بعد عيد الفصح. ويحيي ذكرى حلول الروح القدس على تلاميذ المسيح بعد صعود يسوع بعشرة أيام.
2- منتصف الصيف: الانقلاب الصيفي ما بين 19 و25 حزيران.

تسرعوا كثيرًا. علي أن أمشي باستعانة العصا كما ترون». ثم صعد الدرج، وحيّا المرأة العجوز، ووقف على الأرضية بالقرب من فتحة الباب الأرضي مرتجفًا منحني القامة. كان مجهزًا تجهيزًا سيئًا من أجل السفر عبر الجبال، من الواضح أنه كان من سكان المدن. قال إنه يعتقد بأنه أصيب بعضّة صقيع، مع التهاب رئويّ طفيف. لاحقًا فكر الأطفال كم كان مضحكًا أن الرجل بدا عجوزًا هرمًا أول مرة رأوه بها في الكوخ، وقد لاحَ فيما بعد في أوج الشباب وعنفوانه. لم تفلت أيّ حركة من حركاته، ولا أيّ زرّ من ثيابه كلها من حواسهم الجشعة التي كانت متعطّشة للغاية لأي حدثٍ في ذلك العالم القَفر الموحش؛ الذي لم تكن فيه بقعة أرض جرداء يمكن رؤيتها. نعم، حتى إنه كان منتعلًا حذاء جلديًا لمّاعًا، كان رجلًا نبيلًا بالفعل. كانت الجدّة أول من استعادت اتّزانها بما يكفي لتستفسر من الرجل عن مسقط رأسه، وقال إنه من الساحل.

فأتى ردّها: «نعم، مثلما توقعت، يا للرجل المسكين. سولّا يا بنت، هيا ساعديه في حلّ حذائه وجوربيه إن أراد خلع ملابسه الخارجية الآن، ثمّ عجلي بتسخين مشروب دافئ من أجله. هل يمكننا السؤال ما إذا كنت تودُّ قضاء الليلة هنا؟»

نعم، لم يكن راحلًا، وهمس بالقول: لُحِسن الحظّ أيضًا. بلى، قالَ كل شيءٍ همسًا وبِثقة، وشعرت آستا سوليليا ببساطة أنه يجب عدم السماح له بالذهاب أبعد من ذلك. أمُلت ودَعَت بأن لا يكون مصابًا بالتهاب رئويّ، كانت تخشى ألّا تعرف كيف تعتني به. شعرت بأن مسؤوليتها كبيرة، لأنها كانت مسؤولة عن كل شيء داخل البيت وخارجه، وكانت هذه أول مرة تستقبل فيها زائرًا. آه، فقط لو كانت تعرف ماذا تصنع من أجله، ماذا تقدّم له، كيف تمرِّضه، ماذا تقول له! ولكن في النهاية كان هو من كسرَ الصمت، وهمسَ بالقول، ليختم الحديث عند هذا الحدّ: «لقد أرسلني إلى هنا جودبيارتور جونسون، الذي على الرغم من أنه نسيَ ذِكرها بصراحة، أرسل لكم بكل تأكيد أطيب أُمنياته لكم جميعًا. أنا المعلم الذي سيبقى معكم حتى نهاية الربيع. لا أصدق هذا من جهتي، إلا أن الأمر صحيح مع ذلك».

خلعَ معطفه الرثّ، ثم خلع فردة من حذائه، وأبقى على الأخرى؛ كانت

فردة حذائه الثانية جامدة، متخشبة، وخالية تمامًا من أي سِمة حية، كلّها كما لو أنها متجمّدة بالكامل، وكانت على وشك سؤاله إن كان لا يجب عليها أن تسحب له الحذاء وتتفحص قدمه، حينما خطرَ في بالها بأنه ليس من المناسب ربما أن تهتم فتاة شابة بقدمِ رجُل، على الرغم من وجود سببٍ مقنع بالاشتباه في أن القدم متجمّدة. استلقى بعدئذ على سرير الوالدين وطلب من آستا سوليليا تغطيته، ولم يسبق لها أن غطّت رجلًا من قبل، وطفق قلبها يتوثّبُ بين ضلوعها، بيد أنها رغم ذلك دسّته في السرير، مثلما يُدسُّ الأطفال الصغار في أسرّتهم، وأحكمت تغطيته حتى الذقن، ولكن ليس فوق الحذاء على قدمه اليمنى، التي لم يسحبها أصلًا تحت الأغطية. ظلّت بارزة من أسفل السرير، بلا حراك، وبات من الصعب تدريجيًا معرفة الخطوات التي يتعين على المرء أن يتخذها تجاهها. كان لديه جبين مرتفع وشعر كثيف منبثق من أعلى جبهته في خصلات متشابكة أكثر منها مجعّدة، وكان له وجه مألوف، ذو خطوط عميقة، صارت أكثر جاذبية بتعافي الجلد من البرد الذي تعرض له. عندما كانت تغطّيه، لاحظت أنه كان مرتديًا قميصًا بنيّ اللون، نعم مرة أخرى أتى زائرٌ للإقامة على أرضهم، وكان قد أتى بثقة وجعل من الطابق العلوي هنا مسكنًا له. لن يعلم أحد بالأمر، ولن تدعو أي أحد طوال فصل الشتاء، وبذلك لن ينتشر الخبر، ولن يكون هناك خطرٌ في أخذه منها كما حصل بالزائر الآخر منذ مدة طويلة عندما كانت صغيرة.

سألت الجدة: «وكيف تسير الأمور هناك في الساحل؟» ولكن عوضًا عن سرد الأنباء أنشأ يتحدث عن متاهة القدر غير المفهومة التي أرسلت رجلًا بصحّته في رحلة خطرةٍ للغاية في عُمقِ الشتاء، بعد سُكناه لعشرات السنين في الدفء الأنيس لمدن العالم الصاخبة، والمنعّمة بدفء المواقد.

«نعم بالتأكيد»، قالت المرأة العجوز، «لكنني سمعتُ بأن ما يُسمى بالمدافئ ليست كما يُفترض بها أن تكون. لم تقع عيني على مدفأة طيلة حياتي. ومع ذلك لم أشتكِ من علة قطّ، على الأقل حينما كان بالإمكان تسميتي بأنني حيّة، باستثناء إصابتي بطفح جلديّ ذات ليلة عندما كنتُ في سنّ الخامسة عشرة، ومع ذلك لم تكن حالتي مريعة لدرجة عدم قدرتي على النهوض صباح اليوم التالي، والتوجّه إلى عملي. كان سبب ذلك الطفح

بعض السمك الطازج الذي كان الأطفال يصطادونه في البحيرات هناك؛ في الجنوب حيث ترعرعتُ».

لمدة من الوقت لم يردّ الرجل بشيء، وإنما راح يتأمّل بِصمت في التاريخ الطبي المذهل لهذه الإنسانة الهرمة، التي من غير أن تبصرَ مدفأة طيلة حياتها، لم تَشكُ من علّة منذ خمس وستين سنة خَلَت. بعد التدبر والتفكر أجابَ في خاتمة المطاف بأنه ربما نار مواقد الحضارة العالمية هي نفسها النيران التي غذَّت بؤس القلب الذي لا ينطفئ، وهو أيضًا سؤال مفتوح، أيتها العجوز، ما إذا كان الجسم أفضل حالًا في بيئة أكثر برودة من تلك التي تولدها ألسنة اللهب المتأججة في مواقد الحضارة. صحيح أن العالم يتمتع بجمال ظاهري عظيم حينما يكون في أبهى صوره، كما في بساتين كاليفورنيا بأنهارها الجارية، أو جادّات منطقة البحر الأبيض المتوسط المشجّرة بالنخيل المُذهّب بخيوط الشمس، إلا أن توهج القلب من الداخل يزداد بريقًا كلما سَطعت عليه ماسات الإبداع. من أجل ذلك، يا سيدتي القديرة، أحببتُ دومًا الإبداع، وحاولت دائمًا أن أستخلص منه كل ما استطعت استخلاصه.

«نعم»، أجابت المرأة المسنّة التي أساءت فهم الكلمات القليلة التي استطاعت سماعها من حديث الحكمة الذي فاه به المعلم، وأضافت: «ولذلك لا أستطيع أن أفهم ببساطة ماذا قصد بيارتور بإرسال أناس محترمين إلى هنا في مثل هذا الجوّ، بينما يفرّ هو بنفسه من المكان!»

همسَ الضيف بوداعة: «لا تخافي عليّ يا سيدتي، حان الوقت الذي يجب أن أستريح فيه لفترة من شَرَر القدّيس إلمو[1] في الحياة المتمدنة. مكثتُ في العالم الكبير في الخارج لعشرات السنين، وحدّقتُ في محيط الحياة البشرية ردحًا طويلًا من الزمن. عندما يكون الإنسان قد عانى ما عانيت، فإنه يبدأ بالاشتياق إلى عالم صغيرٍ خلف الجبال، إلى حياة بسيطة ومسالمة كالتي يجدها هنا في هذه العلّية؛ ولكن لسوء الحظّ ليس بإمكان كل واحد الهروب

1- شرر القديس إلمو: St.Elomo's Fire، عبارة عن تفريغ كهربائي مستمر يظهر في الجو على هيئة نار مشتعلة تبثّ وهجًا مضيئًا يُرى في الليل، ينبعث هذا الوهج الناري المضيء من الأجسام المرتفعة عن سطح الأرض مثل صواري السفن، ومانعات الصواعق ودوارات الريح، أو من الطائرات.

من ذلك العالم الكبير، فالعالم غير مستعد لإعتاقِ فريسته. ظننتُ أنني سأهلكُ في الجبال، مثل أولئك البشر الذين تحدثتْ عنهم الكتب، والذين هربوا من أعدائهم لتتلقّفهم أيادي أعداءٍ أشدّ ضراوة، وكما يُقال، من حَمَاوة المقلاة إلى حرِّ النَّار؛ وشعرتُ بأن أقلّ ما أنتظره هو مرض فتّاك. ولكن الآن بعد أن خَطَت هذه البِكر الممشوقة كأنها نبتة الحياة البشرية المُزهِرة، وبيدها القهوة، أشعرُ بأن في العمر فسحة للعيش. كلا يا سيدتي العجوز، الإنسان ليس محرومًا بالمجمل، وإنما قد لا يجود عليه الحظّ السعيد بابتسامة أخرى قبل أن يموت».

جلسَ بامتنان للترحيب بالقهوة وبنبتة الحياة البشرية المزهرة الهيفاء، بيد أن القدم التي في الحذاء ظلّت بارزة من حافة السرير متبلّدة الحسّ مثلما كانت. راح الصبيان يحدّقان مسحورين بهذا الطرف المميز، الذي مع عصا المشي، سيبقى بالنسبة لهما الرمز الأكثر تأكيدًا لنبالة الرجل التي لا يرقى إليها شكّ. نعم، وقد وضعت السُّكر على الدهن الذي قدمته له على خبز الجاودار، الأمر الذي لم تكن تفعله لأحد، إلا لنفسها أحيانًا وخُفيةً، وهو أعلى مستوى من الرفاهية حصلت عليه، هذه الأعجوبة من الجمال والموهبة. قال إنه لم يذق طعامًا أطيب من هذا على الإطلاق، وأضاف، الشكر لله أنه ما تزال فتيات يتضرجن بحمرة الخجل، إذ إنها كانت تحمرّ خجلًا كلما شكرها على شيء. كيف يمكن أن يكون شاكرًا حقًّا لفتاة نحيلة في فستان باهت اللون، ممزق عند أحد المرفقين، هو من حدّق كثيرًا في محيط الإنسانية؟ يا لتواضع الناس العظماء! ومع كل كلمة شكر كانت تزداد إصرارًا وعزيمة على فعل كل شيء لإرضائه، هذا الرجل الذي ارتحلَ عبر الجبال المكسوّة بالثلج مجتازًا الطريق بأكمله من بساتين كاليفورنيا وخرير أنهارها، وجادات منطقة البحر الأبيض المتوسط المفروشة بأشجار النخيل المذهبة بأشعة الشمس، لكي يعلّمهم كثيرًا من الأشياء النافعة. هي التي كانت لزمن طويل تتهيّب فكرة الاستيقاظ صارت الآن تتطلّع للنهوض قبل الجميع صباحًا كي تصنع له الفطائر من أجل فطوره. صحيح أنه لم يكن له وجه بشوش بطبيعته، وهو أمر لم يكن متوقعًا، كونهُ ضيفًا شتويًا وليس صيفيًا، ولكن كان لديه عينان حكيمتان جدّيتان مفعمتان بالودِّ والمرح الصافي؛ عينان تتفرّسان بها

في تفهّم مِمراح، تتبّصران عميقًا في جسدها وروحها، عينان تبدوان قادرتين على حلّ جميع آفات الروح والجسد، العينان اللتان يفكر بهما المرء عندما يكون حزينًا، وهو عارف أنهما سوف تكونان في عونه. لا أبدًا، هي ما عادت خجلة منه بعد الآن، وإن كانت ما تزال تحمرُّ خجلًا قليلًا؛ حتى إنها توفرت لديها الشجاعة لسؤاله عن أبيها.

قال: «نعم يا عزيزتي، ذاك الرجل، إنه محارب ڤايكينغ أصيل؛ ولكن عليه أن يُثبِت بأنه لديه ابنة صغيرة فاتحة اللون ذات شعر كستنائي، وأكثر مما تصورتُ على الإطلاق».

قالت المرأة العجوز: «آمل أن مدير شركة بروني تمكن من منحه عملًا للقيام به».

وكان جواب الزائر: «لا، لم يحصل. ولّت تلك الأيام. أيام السلطة الأوتوقراطية[1] والاحتكار لم تعد موجودة في تلك الناحية. لقد غدونا وأخيرًا ناضجين بما فيه الكفاية لكي نستمتع بالبركات التي تنطوي عليها الديموقراطية».

قالت المرأة العجوز: «يا للعجب!»

وَاستأنف الزّائر: «إن إنغولفور أرنارسون هو من يُحسب له حساب الآن، أولئك الذين يَسمنون على حساب الأرامل واليتامى تلقّوا جزاءهم العادل في النهاية. انظري، حلّ عصر أفضل لتخفيف همومنا وأحزاننا، ولتحدّي الأخطاء القديمة بكل جرأة. وتعالت صيحات العدالة من أجل الفقراء وأولاء المضطهدين منذ الأيام الغابرة؛ إنه عصر حرّ طليق، قويّ وعظيم، كما يُقال في كتاب «نشيد للقرن الجديد»، انتقلت السُّلطة إلى أيدي أولئك الذين يُواصلون التجارة على أسس سليمة. تولينوس جينسن غادر على متن

1- الأوتوقراطية: autocracy السلطة المستبدة. وهو مصطلح يقصد به نظام الحكم الذي تكون فيه السلطة مركّزة في يد فرد واحد يمتلك وحدَه كل السلطة التي لا يحدّها شيء، وهذا لا يعني دائماً غياب القوانين والدساتير في هذا النظام، ولكن يعني بالأساس قدرة الحاكم الأوتوقراطي (الفرد) من الناحية الواقعية، على تخطي القوانين والدساتير في حالة وجودها استناداً إلى عدم وجود آلية مستقلة في النظام قادرة على أن تفرض القوانين فتجبره على احترامها.

آخرِ سفينة قبل عيد الميلاد. وناضلنا نحنُ من أجل المثُل التجارية لإنغولفور أرنارسون، وها قد فزنا. هذا الشاب الذي عادَ إلى آيسلندا مُستلهمًا من المثل التجارية لخبراء الاقتصاد الإنسانيين في العالم، والذي مضى قُدُمًا في تحطيم أصفاد الديون المصنوعة من قبل سُلطة التاجر، مانحًا القروض حتى لأولئك الذين حُرموا لسنوات عديدة من أوقيّة من دقيق الجاودار على حسابهم الخاص. لقد أنزلناه مكانة منيعة. أعرفُ رجلًا كثير العِيال رقيق الحَال، لا يمكنهُ تحمل نفقة أي شيء لأن كل ميوله متّجهة نحو الأدب والتعلّم الأجنبي؛ أرسلَ لهُ إنغولفور أرنارسون في خريف العام برميلًا خشبيًّا صغيرًا مملوءًا بلحم الضأن المملح، بالإضافة إلى صندوق كبير من المنتجات الغذائية. ما رأيك بهذا؟ علاوة على ذلك، منحه فرصة عمل لمدة أسبوعين في المسلخ، بينما كان عديد من الأبطال المحليين عاطلين عن العمل، وما من شيء ليفعلوه سوى التسكّع على ناصية الشارع، وتحريك ألسنتهم، كل ذلك لأنهم يؤمنون بالاستبدادية والقمع، ولأنهم ظنّوا أن خَلَاصهم يكمن في العلقة التي تمتص دماءهم. نعم يا سيدتي العجوز، إن إنغولفور أرنارسون رجل عظيم نابغة باستطاعته لفّ العالم بأجمعه حول إصبعه، محبٌّ للخير محسنٌ تخلّى عن منصبه، الذي كان على اتصال وثيق بالحكومة، لدرجة أنه قد يخاطر بحياته وسمعته من أجل المُستصغَرين والمهمَلين. لأنهم غير مَعنيين بما يكتبون في الصحف حول أي شخص يُجنّدُ نفسه لمناصرة المطحونين ومساعدتهم. ولكن على الرغم من ذلك تمكنّا من إسكانه في سكن «بروني». وعندما رأيته آخر مرة؛ كان جودبيارتور جونسون صاحب البيت الصيفيّ ينقل أثاث إنغولفور أرنارسون إلى «منزل البرج». وفهمتُ أنه عندما انتهى من تلك المهمة كان موعودًا بالحصول على وظيفة أمين مستودع لدى الجمعية التعاونيّة».

قالت المرأة العجوز: «نعم، أعلم، يذهب واحدٌ ويأتي آخر، كما هو الحال منذ الأزل. كثير من الناس يتحدثون بالسّوء عن التجار، وصحيح ما يُقال إن الرزق المنظور يصعبُ صَونه. يعتقدُ الناس دومًا أن الجديد هو الأفضل، والأخير هو الأسوأ. لقد عاصرتُ تجّارًا كثيرين، باركك الله».

أدركَ المعلم أن لا جدوى من الخوض في تفاصيل أكثر مع مُسِنّة متهدِّمة،

فأنهى هذا الجزء من الحديث بالقول إن شمس العدالة، وإن تأخرت، سوف تشرق في النهاية. وفي جُعبة الآتي أيّام أفضل لنا جميعًا.

نعم في جعبة الآتي أيام أفضل لنا جميعًا. صدحت لازمتهُ هذه بفرحٍ مباغتٍ عبرَ موسيقى الشتاء الحزينة، وشاعَ دفؤها في القلوب الشتوية المقرورة، المسحوقة تحت وطأة قوانين التقويم الصلب، وهكذا، ما عادت الأعياد مُرتجاة إلى أبعد حدٍّ، وكفّ التبغ عن كونه التعويض المرَجّح عن خالقٍ لا يفقهه أيّ منهم. ثمّ شرع يحلّ أحزمته. وسمحَ للأطفال بالوقوف في شبه دائرة على مسافة يسيرة منه.

أولًا سحبَ من أعلى الكيس حاجياته الخاصة، أمتعته الخاصة، تلك الممتلكات التي تربط المرء بالحياة بأمتن الروابط، أو تجعلها أكثر احتمالًا بالنسبة له. وما كانت تلك الممتلكات؟ قميصًا مرقّعًا، وجوربًا منفردًا، رُتِق مرارًا وتكرارًا. قلّب هذين الكنزين بين أصابعه بجديّة خَفيّة كما لو أنهما يمتلكان مزيّة صوفية، ثمّ دسّهما تحت وسادته المستقبلية دون أن ينبس ببنت شفة. راقب الأطفال هذين الشيئين وهما يختفيان تحت الوسادة دلالة على الكيفية التي يكشف بها الناس العظماء أنفسهم في أشياء صغيرة. بعد ذلك أخرج الأغراض المتعلقة بالأطفال أنفسهم؛ المواد التعليمية التي أحضرها لهم بحكم منصبه. لمسَ هذه الرزم المستطيلة الشكل بحنان وقال: «الآن، إذن، يا أطفال، في هذه الرزم تكمن حكمة العالم». وتبين أن الحال كذلك فعلًا.

ظهرت من الرزم كُتبٌ عطِرة جديدة، غُلِّفَ كلٌّ منها بورق لامع ملوّن، ورُبِطَ بخيوط بيضاء؛ كتبٌ بجميع ألوان قوس قزح مع صور في داخلها وخارجها، زاخرة بأروع القراءات، كان أحد الكتب عن أنواع من الحيوانات المجهولة، وَآخر عن ملوك موتى وأناس عاديين، وكتاب ثالث عن بلاد أجنبية، ورابع حول السِّحر الغريب للأعداد، والخامس عن المسيحية التي طالَ انتظارها في آيسلندا. كل شيء، كل شيء تتعطّش إليه الروح، فوج بعد فوج من الأنباء العجيبة لرفع الروح إلى مستويات أعلى، ولطرد كآبة الوحشة المتشعبة من حياة البشر. نعم، في جعبة الآتي أيام أفضل لنا جميعًا!

سُمِح لهم بلمس كلّ كتاب لمسًا طفيفًا، ولكن فقط برؤوس أصابعهم

هذه الليلة، الأدب لا يحتمل الأيادي القذرة، ينبغي أوّلًا تدعيم كل مجلّد بالورق، يجب ألّا تتسخ أغلفة الكتب، وألّا تتمزّق ظهورها، فالكتب هي أثمن ما تملكه الأمة، لقد حافظت الكتب على حياة الأمة أثناء الاحتكار والوباء والثوران البركاني، ناهيك عن أطنان الثلوج التي غطت على نطاق واسع المساكن المتناثرة في البلاد، في الجزء الأكبر من كل العام، منذ ألف سنة. وهذا ما عرفهُ والدكم حق المعرفة، على الرغم من تعنّته وصلابته. ومن أجل ذلك أرسل إليكم رجلًا مميزًا مع هذه الكتب، والآن يجب أن نتعلم كيف نتعامل مع الكتب برقّة ولطف؛ وفكّر الأطفال بأبيهم بامتنان أوشكوا على الغرق به، هو من غادرهم ولكنه لم يَنْسَهم. إذن بعد كل شيء كان أبوهم أعظم أب، ولم تتمالك آستا سوليليا نفسها، وقالت للصبيين أرأيتما، لا أحد لديه أب كمثل أبينا، الذي أرسل لنا رجلًا مميّزًا ليعلّمنا كلّ شيء!

تساءل نوني الصغير: «هل تخبرك الكتب عن البلدان؟»

«نعم يا صغيري، عن البلدان الجديدة والقديمة؛ وعن الأراضي الجديدة التي تنبثق من المحيطات مثلَ عذراوات فتيّة، وتغمرُ أصدافها النفيسة، وشعابها المرجانية الملوّنة بضياء الصيف الأوّل، وعن الأراضي القديمة بغاباتها العطرة، وَحفيف أوراقها الهادئ الوديع، عن قلاعٍ مشيدة منذ آلاف السنين، تسموُ من الجبال الزرقاء في ضوء القمر الرومانيّ، وعن مدن الشمس البيضاء التي تفتح أذرعها على محيطات خضراء ساكنة. تلفّها أشعة الشمس المتراقصة أبدًا. نعم، كما قالت شقيقتك، ليس كل أحد يواتيه الحظ ليتعلّم عن دول العالم العظمى من قِبل شخصٍ في عينِ المكان».

تسلّوا بالكتب لبعض الوقت، ولكن كان عليهم ألا يشاهدوا الصور في جلسة واحدة، فقط صورة واحدة من كل كتاب لهذه الليلة؛ صورة روما على سبيل المثال، التي هي تقريبًا بحجم الجبل فوقَ الكوخ هنا، والزرافة، ذات الرقبة الفارعة التي إذا وقفت في ممر باب الكوخ، لَبرز رأسها من المدخنة، فيما لو كان في المكان مدخنة. وماذا تظنون، انتهت الأمسية، انتهت بسرعة لا تخطر على بَال بَشر. غُلِّفت الكتب بأوراقها بعناية مرة أخرى؛ لا، لا مزيد الليلة، كان جوابه حين فكروا في طرحِ مئات الأسئلة. كان منهكًا وأرادَ النوم، ولم يجرؤوا على الإفراط في إنفاقِ حكمته.

وقفَ الفَتَيان قبالته بإجلال بينما كان يخلع ملابسه، وراحا يراقبان طريقته في خلع الملابس، ولكن آستا سوليليا أدارت ظهرها واجتازت الغرفة نحو جدّتها. وضع عصاه بجانبه على السرير، وغطّاها بالملابس، لربما كان للعصا روح. في آخر الأمر شرع يفك الحذاء عن قدمه اليمنى. بدا كأن كل لحظة تكلّفهُ مجهودًا هائلًا. أحيانًا كان يُذكّر المرء بالوكيل، وأحيانًا ببائع الكتب، وإن على نحو ضئيل؛ آه، أي هراء هذا، غالبًا ما كان يسعل سُعالًا عاليًا في منديله، كان كل شيء شاهدًا على حقيقة أنه شخص فذّ وفريد من نوعه. وماذا ظهر في النهاية من هذا الحذاء الأيمن الجامد؟ قدم! ولكنها لم تكن قدمًا عادية؛ قدمًا مخلوقة مثل أقدامنا، بيضاء أو على الأقل ذات بشرة فاتحة اللون وعليها بعض الشَّعر الصغير. كانت بالأحرى قدمًا استثنائية، مُنتجًا من ورشة النِّجارة ذا لون بنيّ داكن ومصقولًا للغاية، دون لحمٍ أو دم! حينذاك لم يعد بإمكان نوني الصغير كبح مشاعره فَصاح: «أوه! تعالي وانظري إلى قدم الرجل يا سولّا!» إلا أن آستا سوليليا لم ترغب بالطبع النظر إلى قدم الرجل، إذ إن هذه الفكرة آذت، بحكم الطبيعة، حشمتها. وأجابت من غير أن تستدير: «من المعيب أن تتصرف بهذه الطريقة!» ولكن في صباح اليوم التالي، حينما كانوا في الخارج في الحظائر، لم يسعها إلا أن تسأل شقيقيها عن قدمه من أيّ نوع هي، وما إن كان أي شيء غريب فيها. وتناقشوا في أمر هذه القدم من كل زاوية ممكنة، مرة بعد مرة، بعد أن انتهوا من علْف الأغنام، ثم تناقشوا في أمر الرجل بالمجمل؛ يا له من شخص رائع، وأي نشوة تنتظرهم في تدريسه لهم، وكم من معارف ستكون في حوزتهم عندما ينتهي من تدريسهم في الربيع. كان بالنسبة لهم موضوعًا للنقاش لا ينضب كلما كانوا بمفردهم، كان كل شيء عنه مُنفردًا يكتنفهُ الغموض، كلّ شيء؛ من صوته الهامس إلى قدمِهِ الشبيهة بقطعةٍ خشبيّةٍ منحوتة، دونما استثناء العصا التي كان يُسمح لها بالمبيت معه، كما لو أنها تملك روحًا. كان أطفال «البيت الصيفيّ» محظوظين حقًّا بالحصول على مثل هذا الرجل. ثمّ إنهم توصلوا إلى فكرة أنه هو من صادرَ البيت البرجيّ من مدير شركة بروني وأعطاه لإنغولفور أرنارسون كيما يتسنّى للفقراء الحصول على أوقيّة من دقيق الجاودار على حسابهم الخاصّ. ولكن أليس من الغريب أن يرتدي

الرجال ذوو المظاهر الحسنة الوقورة، القادمون من أصقاع كبيرة مبهمة؛ قمصانًا بُنّية فاتحة اللون؟

الآن كان يرقدُ في غرفتهم الصغيرة، هو الذي رأى بلدانًا جديدة وقديمة تستحمّ صباحًا في الشعاع الأول من شروق الشمس، وفي ضياء القمر في العالم بالخارج، والكثير الكثير. لو كان بإمكان المرء فقط أن يتذكر ما قاله وأن يُعيده، لكن لا أحد يمتلك مثل هذا اللسان الذَّرِب الفصيح. نعم، وكان يرقد هناك بتلك النظرة الجادة الحصيفة في مُقلتيه، وكان قد جذب الأغطية حتى عنقه، وكان يستريح بجانبهم، تحت سقفهم، بعد رحلة محفوفة بالمخاطر عبر الأراضي البور، وكل ذلك من أجلهم، هو الذي ترعرع في البساتين وحفيف أشجارها؛ آه، ألا ليت كان بإمكاننا مُكافأته وإظهار مدى تقديرنا له! تلك الليلة حينما خلدَ الأطفال إلى النوم شعروا أنه بإمكانهم العيش بسهولة مائة سنة من دون تبغ، مثل جدّتهم، ومن دون أن يَنتابهم السَّأم من خلع ملابس الجسد ذاته ليلة بعد ليلة، وتلبيسه من جديد في صباح اليوم التالي. فأن تكون قادرًا على التطلّع إلى الغدِ بشوقِ المنتظِر المستبشر لهو الحظّ السعيد حقًّا.

همسَ: «نعم، هذه مملكة القلوب البريئة. من الغريب أن القدر ما زال يخبئ لي هذا، وبالأخص أن المرء قد شهِدَ عروض العالم المبهرجة في أماكن عظيمة، مثلما فعلتُ. ثمّ تنهّدَ وأردفَ: «بلى، بلى، لقد جابتْ قدمي أراضي قصيّة، وتسلّقتْ منحدرات حادّة من الشِّقاق والخصومة، في عوالم مكتظّة بالبشر تسودها الأنانية، حيث لا تجد أجنحة الروح البشرية الخفّاقة الراحة؛ وطافت قدمي حيثُ برد العزلة الجليديّ يخيّم فوقَ الرقاع الطحلبية على امتداد الحياة اليومية، دونما براءة أو سكينة؛ دونما حبّ. آستا سوليليا يا عزيزتي، أتساءل إن كان بالإمكان أن تجودي عليّ بلطفكِ بتركِ رشفة من القهوة هنا بجانبي، في حال أرّقتني مشاعري الليلة. لكني أشعرُ بأن قلبي لن تثور مواجعه هذه الليلة».

ذهبَ الفتَيان إلى النوم، وأُخمِدَ المصباح الجداري. كان الضوء الوحيد المتبقي هو وميض الشمعة الصغيرة المشتعلة فوقَ رفّ الجدّة. نعم، ثمّ تذكرت الفتاة أنها لم تغتسل منذ رحيل أبيها، لذلك اغتسلت قليلًا ومشطت

شعرها على عجل، خفية، قبل أن تخلع ملابسها. ثمّ أتت إلى الغرفة مجددًا إلى حيث سريرها، أمست الآن الشريك الوحيد لغُڤيندور الصغير في السرير، أصدرَ ثوبها صَريفًا شاكيًا حينما شدّتهُ خارج رأسها، في الواقع لم يكن آنئذ سوى قطعة قماش بالية، وصارَ ضيّقًا عليها. لم تجرؤ على خلع تنورتها التحتية خشية أن يراها المعلّم؛ وبدلًا من ذلك انزلقت خلسة بجانب أخيها في السرير المقابل لسرير المعلم. وفي اللحظة ذاتها أطفأت الجدّة الشمعة.

«ليلة سعيدة»، همسَ المعلم في الظلام. إلا أن آستا سوليليا لم تعرف كيف تجيب على هذه اللباقة، وبدأ قلبها يدق بشدّة، ولكن بعد هنيهة من التفكير، ردت عليه همسًا: «أجل».

كان الضيف يشخر منذ زمن طويل، بينما استلقى الأطفال مستيقظين في أسرتهم، وما يزال عبير الكتب يملأ أنوفهم، مستشعرين لذّة هذه الحقبة الجديدة التي عرفوا أنها أشرقت على حياتهم. بيد أن تصوّراتهم ذابت تدريجيًا في تَبلبلٍ هانئ، وانزلقت رويدًا رويدًا في عالمٍ مرنٍ، عالم قد يكون أكثر أصالة من بين جميع العوالم، على الرغم من انعدام المنطق تقريبًا في مكنوناته؛ وخاصة عندما تبرز أعناق الحيوانات من قمة المداخن، والجبل يستحيلُ كنيسة مسيحية جميلة لها أدراج معتمة ذات صرير، تؤدي إلى البرج. كان اسمها آستا سوليليا، واعتزمت الصعود إلى أعلى البرج. في البدء، كانت محترسة للغاية ووجِلة، ولكن ما إن شرعت في الصعود تعيّن عليها المضي قدمًا، أعلى فأعلى. وظلت الأدراج تَصرُّ وتَصرّ. كانت خائفة للغاية لأنها كانت تعلم أن أباها في مكان ما خلفها. عجّلت أسرع فأسرع؛ يجب أن تصل إلى القمّة أوّلًا. كانت في خاتمة المطاف مقطوعة الأنفاس، وفي منتهى الفزع، ولكن كان من المثير صعود السلالم المظلمة بمفردها، والتسلّق إلى أعلى البرج، الطريق كله، كله، لا لن يعرف أحد. ثمّ ضاقَ الدَّرج، واصطدمت بالجدران وأحدثت أصواتًا راحت تعلو وتعلو، ثمّ صار خوفها أقوى من فرحها؛ أوه، لماذا كان عليها الدخول إلى هذه الكنيسة المسيحية في البداية، عوضًا عن المكوث باطمئنان في الخارج، حيث لا أحد يخشى أي شيء، والآن سوف يُدركها أبوها سريعًا، وسوف يصفعها على وجهها إن أمسك بها. أخيرًا لمحت بصيصًا من الضوء فوقها، بابًا تُرك

مواربًا، ساعة البرج، ووجهًا في الباب يراقبها بينما تقترب. أيّ وجه؟ وجه الفرح؟ لا لا لا كان وجهًا مختلفًا كلّيًّا، كان وجه بائع الكتب الدميم الشرير العجوز الذي كان لديه جميع الأوغاد الأشرار القبيحين؛ وكان هو من يقترب منها في خطى عرجاء متعكّزًا على عصاه، ومرتديًا قميصًا بنيّ اللون، من أين حصل هذا الرجل العجوز القبيح على قميصه البنيّ؟ إذن كان هو من ينتظرها وكتابه في يده:

«ههنا بإمكاني أن أريكِ كتابًا جديدًا عمليًّا والأكثر رواجًا هذه الأيام. فقط ألقي نظرة يا آنستي الصغيرة، ألا تعتقدين أنك تودّين قراءته؟»

أفاقت مفزوعةً، غارقة في عرقها، يداها تقطران عرقًا، مرتعدة في قبضة ارتعاش خارجٍ عن السيطرة، وهو السّمة المميزة للأحلام السيئة، التي بعد إفسادها نوم ليلة بأكملها، يمكن أن تُشبع كل لحظة من اليوم التالي بإرهاقٍ شديد من الحياة.

سمعت نهاية صرختها المذعورة عندما فتحت عينيها، وقفزت في السرير، لاهثة تلتقط أنفاسها. سمعت قلبها يطرقُ بقوّة مثل مطرقة ثقيلة تهوي على حديد مُحمّى. مررت يدًا رطبة فوق جبينها. لا، لا، لا، ما من خطر، لقد كان كابوسًا فقط. فعلى بعد أقل من ياردتين كان يستلقي الضيف الذي أتى ليحمل لهم أوقاتًا أفضل وكي يرفع حيواتهم إلى مستويات أعلى؛ وفي الصباح سوف تُعِدّ له الفطائر المحلّاة حتى يشعر بالتحسن. شيئًا فشيئًا تبخّر رعبها، بينما كانت تصغي إليه نائمًا وتتمنى له الخير. نعم، هناك أوقات أفضل قادمة لنا جميعًا. ثمّ استلقت مجدّدًا.

***

49. الشِّعر

وَأشرقَت أنوار المعرفة.

إن الخصائص المميزة للثقافة العالمية ليست مُقتصرة ببساطة على الزّرافة ومدينة روما، مثلما تخيّل الأطفال في الليلة الأولى، وإنما الفيل أيضًا ودولة الدنمارك، إلى جانب أشياء أخرى كثيرة. حسنًا، كل يوم

كان يجلب معه حيوانًا وبلدًا جديدين، وملوكًا وآلهة جُددًا، وحِصّته من تلك الأعداد الصغيرة الصعبة التي تبدو أنّ لا أهمية لها، لكنها مع ذلك تتمتع بالحيوية وبقيمة خاصة بها، ومن الممكن جمعها أو طرح رقم من الآخر، حسب الرغبة. وأخيرًا، الشِّعر، الأقوى من أيّ بلد، الشِّعر بِقُصورهِ الوَضيئة. الروح تحلِّقُ فوق كلّ شيء، وتبصرُ الأنوار السّماوية، مثلَ نَسرٍ في دِهليز الرّيح.

في الصباحات في حظيرة النعاج؛ غالبًا ما حاولوا إيجاد حلٍّ للغز: لماذا بعد كل هذا الاستهتار والطيش الذي حكم العالم، تعيّن أن يأتي إليهم رجلٌ، ليس فقط على دراية بما تحتويه الكتب، ولكنه رأى بأمّ عينه العالم الموصوف في الطباعة، وعلاوة على ذلك سافرَ عبره سيرًا على الأقدام. ولم يرَ المدن وحدائق الحيوان فحسب، بل تجوّل أيضًا في الغابات حيث يعثر المرء على السعادة، أو السلام على الأقل، وهو يعلم الكلمات التي تلائم مقصورات الروح المقفولة، كما المفاتيح، ويفتحها!

بينما كان غُفْيندور الصغير قانعًا بالتأمّل في تلك الحيوانات التي تقع في مرتبة أعلى في سلم الشرف من الخراف، أو يحاول ضربَ عدد الحملان بالنعاج، أو طرح الألواح التي في السقف من الألواح التي في الأرضية، كان نوني الصغير يفكر دونما انقطاع ببلدانه، وشعر بأنه قد حصل أخيرًا على إثبات دامغ على وجودها الفعليّ، وبناء عليه يمكنه رفض النظرية القائلة إن تلك البلدان ما هي إلا ثرثرة أناس طيّبين أرادوا بها الترفيه عن أطفال صغار. لكنّ آستا سوليليا كانت تحلّق على أجنحة الشِّعر في تلك الأفلاك التي شعرت بها كما لو أنها همهمة بعيدة في إحدى ليالي ربيع السنة الماضية، عندما كانت تقرأ عن بنت صغيرة سافرت عبر الجبال السبعة؛ وفجأة صارت الهمهمة البعيدة أغنية في أسماعها، ووجدت روحها هنا للمرة الأولى أصلها ومَحتِدها؛ السعادة، القدر، الحزن، فَهِمتها جميعًا، وعدة أشياء أخرى. عندما يرى المرءُ نبتة مُزهرة في البريّة انبثقت من بين آلاف الصخور، هزيلة وضعيفة، وقد وجدها بالصدفة، يتساءل: لماذا على الحياة أن تتفجّر دومًا من مكان ما؟ أينبغي للمرء أن يقتلع هذه النبتة وينظّف بها غليونه؟ لا، لأن هذه النبتة تتأمل أيضًا في الحياة، بحدودها ولا محدوديتها، وتعيشُ في حبّ

الخير خلفَ مئات الآلاف من الأحجار، مثلي ومثلك؛ ارويها بمحبة وحنان، ولكن لا تقتلعيها، فلربما كانت آستا سوليليا الصغيرة.

كانت قد تلقّت في وقت مُبكرٍ شيئًا من التعليم في فهم لغة قصائد البالاد المعقدة، وهذا التدريب الأولي أفادها في هذه الآونة. ولكن كان هذا الاختلاف: كانت قصص البالاد توحي بالأراضي القاحلة، لا زرع فيها ولا نَبت، ولكنها ممتلئة بالحجارة، بينما كان الشِّعر الحديث حافلًا بزهور الروح المغتبطة، وعطرها الشجيّ الحزين. قرأ المعلّم الشِّعر بطريقة مختلفة كليًا عن طريقة أبيها؛ فبدلًا من التركيز بشكل رئيس على القافية، وبالأخص على القوافي الداخلية، كان هذا الرجل يهمس قصائده ببلاغة معسولة آسرة، لأنه فقهَ أسرار الشعراء أنفسهم، بحيث كلّ جماد في الغرفة له سرّ، فإذا مررت يدك على ألواح السرير الباردة، سيبدو الخشب ناعمًا ودافئًا، كما لو أن داخله قلبًا حيًّا ينبض. كما أنه عرف الكلمات التي حاولت أن تقرأها في الغيوم عندما وقعت في الحب لأول مرّة، لكنها كانت مجرّد فتاة صغيرة حينها، كما أدركت الآن، وكان من الطبيعي ألّا تفهم الغيوم، هي التي بحثت فيها عن شيء لم يكن موجودًا بالأصل. ذاك الذي أتى للصيد على أرضهم في تلك الأيام، لم يكن يعرف القصائد، لم يكن ليفهم الشِّعر، أثمن ما في حياة الإنسان. والفكرة أنّه على الرغم من زواج أودور ابنة الوكيل جون منه؛ فإنها لن تسمع من شفتيه قصيدة واحدة قد ملأتها بنشوة عارمة! صحيح أنه ابتسم، وإن لم يبتسم، فإن عينيه كانتا تفتقران إلى البريق في لونهما، وكان في صوتهِ حِيلٌ سِريّة لرجلٍ يفهم الشِّعر، ويهمسهُ بطريقة تسري على إثرها قشعريرة دامعة في جسدها المُصغي، وتكتسبُ الجمادات روحًا.

قد يظنّ المرء أن أكثر ما يحرك مشاعر فتاة صغيرة في مزرعة منعزلة هو سماع قصيدة تحكي عن الفضيلة، أو التضحية على الأقل؛ عن أرواح عِظام عاشت في حالة من إنكار الذات، أو أخذت على عاتقها القيام بمهام بطولية من أجل أشياء جديرة بالتضحية، الوطن الأم مثلًا، على غرار ما وجدت نفسها قادرة على فعله تلك الليلة على رصيف المدينة في الربيع الماضي. لكن لم يكن ذلك النوع من الشعر ما يستهويها، ليس ذلك أبدًا. كان أكثر ما يلامس قلبها من القصائد، ويغمرها بعاطفةٍ ساميةٍ، حتى تشعر أنه بوسعها احتواء كل

شيء، هي تلك القصائد التي تروي أحزان الذين لم تتحقق أحلامهم، وعن عذوبة ذلك الحزن. عن السفينة التي هُجِرت على شطآن الخريف، بلا دَفّة ولا صارية، وما عادت تُستخدم؛ عن العصفور بلا مأوى ينكمش مُنحنيًا، في الخريف أيضًا، مدفوعًا من قِبل العاصفة، بائسًا بلا ريش، عن القيثارة تتدلّى من الحائط مرتجفة، تنوح بصمتٍ على موت مالكها؛ كان كل هذا شِعرها المفضّل، وكانت تستوعبه. وعلى الرغم من حقيقة أن «أغنية كولما[1] في البراري» لم تكن مُقفّاة في أي مكان، فإنها حفظتها عن ظهر قلب دون أن تشعر. كما يمكن للمرء أن يتخيل، كان شعرها المفضل يتطرّق إلى تلاقي حِبٍّ بحِبّه في الأراضي البراح، وما إن تكون في سريرها في الأمسيات حتى تشدو في قلبها سطورًا تحكي عن الوقت الذي يجتمع فيه الحب بالأراضي البراح ليلًا، الحبّ والأراضي البَراح، وسرعان ما تنهمر الدموع على خدّيها، وكانت تشعرُ بأنها لا تبكي من أجل كولما وحدها، وليس من أجل نفسها فقط، بل تبكي مع العالم كلّه بنشوة الحبّ:

آه، فَلتبزغ أيها القمر،
من خلفِ الغيوم!
أشرقي من سمواتكِ أيتها النّجمات!
أيتها الأنوار الهادية،
دُلّيني إلى حُبي
حيثُ ينام بمفرده.

مكتبة
t.me/soramnqraa

على رسلكِ،
أيتها الرّيح الهادِرة!
هَدِّئي من تياراتك المتعجلة!
فلتسمحي لأغنيتي

1- أغنية كولما: من مجموعة قصائد أوسيان: أغاني سيلمى، التي ترجمها عن الغيلية الكاتب والشاعر الإسكتلندي جيمس ماكفيرسن (1736-1796).

بالتردّد على تلّ العواصف،
وَدَعي حبيبي يُصغي إليّ.

وكانت تدفن وجهها في الوسادة كي تكتم صوت بُكائها، لئلا يكتشف أحد أنها كانت تبكي بسبب «أوسيان[1]»، لن يخطر ببال أحد أن ينتحب مثلما تنتحب آستا سوليليا! ولكن لماذا كانت تبكي على هذه القصيدة؟ ذلك لأنها كانت تدرك ما الحب وما البراري أيضًا، مثل أوسيان، فمن يعرف البراري لا بدّ أنه يعرف الحب، ومن يفهم الحبّ فهو يفهم البراري.

والصيّاد بجوار نهر المسيسيبي. ذات مرة كان رجل. كانَ صيّادًا، ومن المحقق أنه جابَ أصقاع المعمورة. يُقال في القصيدة إنه ولِدَ في حقل جميل في فرنسا. «هناكَ عاشَ والداي النبيلان». تنافس الوالدان في بذل الجهد لإرضائه بكل ما هو مفيد ومُفرِح. في طفولته قرأ الزهور في مروج نهر السّين. في باريس، بصخبها السّاحر، كانَ مهده. عاشَ بين إخوة مُحبّين، وكان له رفقاء في اللعب، وكانت الفتيات ومن بينهن غانيات، أجمل من آستا سوليليا آلاف المرّات:

بَتولُ حَوراءُ العَين أتذكّرُها
بِدفء ابتسامةِ الحبّ المولودة على الشَّفتين.

ومع ذلك، لم يجد السّعادة التي حلُمَ بها، ولا الطُّمأنينة التي رَامَها، ولقد فَهِمته، وأحبّته من أجل هذا السبب بالذات، لأنه لم يستطع العثور على السّعادة ولا الطمأنينة؛ أحبّتهُ من سويداء قلبها لأنه ولّى هاربًا. واليوم، جلسَ على الشّواطئ المشجّرة حيث تدفّق نهر المسيسيبي:

1- أوسيان: Ossian هو الراوي والمؤلف المزعوم لمجموعة من القصائد الملحمية التي نشرها وترجمها عن اللغة الغيلية الإسكتلندية الشاعر ورجل السياسة الإسكتلندي جيمس ماكفيرسن (1736-1796) تحت عنوان قصائد أوسيان. رغم اختلاف النقاد آنئذ حول أصالة العمل، مع الافتراض بأنه هو من ألّفه بنفسه، فإنه كان له أثر كبير في نمو الحركة الرومانسية والإحياء الغاليكي، كما اُعتِبر أنجح تزوير أدبي في التاريخ الحديث. وقيل إن حِرفة ماكفيرسن بوصفه مُحتالًا لغويًا ليس لها معنى من دون مهارته الأدبية.

حيثُ يخطو الذّئبُ بِخفّة في ظِلال الغابة،
وَيفرُّ الأيل الكَليل من الصيّاد؛
حيثُ يَتسلّل قدُمًا في غارةٍ قاتلة
النّمرُ المُخيف مُتسلّقًا الأشجار.

لطالما فَهِمت الشِّعر وَغيره من الأشياء بطريقتها الخاصة. على سبيل المثال، مضت إلى فراشها ذات ليلة. وتظاهرت بالنوم، كما تفعل دومًا حينما تصير في السرير، لكنها لم تكن نائمة. كانت تنتظر الجدّة العجوز كي تطفئ شمعتها. ومرت الدقائق. ومن ثمّ رأت من طرف عينها رجلًا جالسًا على السرير، واضعًا ذقنه على كفّه معتمدًا عليها. تفرّست في عظام الوجنة المنحوتة بِحدّة، والحاجب الأشعث فوقَ النظرة المتفحّصة الماكرة، التي حملت في لحظات أخرى كل التلاعب الشّعري السّاحر بالضوء واللون، ورأت أيضًا حنجرته عارية حتى ياقة قميصه المفتوحة، واستمر في التحديق والتفكير كما في القصيدة:

عبر الوادي والروابي والبحر الشديد البرودة
هِمتُ بعيدًا عن ملاعب الطفولة
لكنّ السَّكينة دومًا تزوغُ مني
حتى في سُكونِ هذه الغابات المنعزلة

ومن فوق رأسه تحوّلت عوارض السقف الخشبية بِصريرِ مساميرها إلى غابةٍ ذات شَجر وحفيف، تجولُ بها الغزلان والفهود، وأما عاصفة «غوا» التي تجرف الثلوج وتجعلها في أكوام عالية؛ هي هدير فيضان نهر المسيسيبي، وذاك الذي فرَّ من مدن العالم الجميلة يقعدُ هنا الآن، يُجيلُ بِبصره على حياته السابقة:

زهرة الشَّباب المتحمّس تلاشت الآن،
وذَبلت الحياة، مثلَ أوراقِ الشّجر في صقيع الشتاء؛

الشَّعر القاتِم تبقّعَ بجليدِ العُمر،
وتبدّدت شُهرة الأيام الخوالي المكتسبة بِشقّ الأنفُس.

لا. لم يكن أكثر ما أحبّته الأبطال ولا التضحيات ولا الفضائل؛ وإنما الشِّعر الذي يتحدث عن الأحلام التي أُنجِزت بلا طائل أو أنها لم تتحقق قط؛ عن السّعادة التي تأتي مثل الضّيف أو قد لا تأتي أبدًا، كيف أتت وَأفَلت، أو كيف لم تأتِ قط. لقد رأت هذا الرجل وفهمته، ليس فهمًا موضوعيًّا، بل بطريقتها الخاصة؛ بألوان الشِّعر البرّاقة، والغابات في الخلفيّة، بينما تخلّلَ كلَّ شيء هديرُ أقوى وأعمق نهرٍ في العالم.

***

50. الله

والآن لنتحدّث عن الله.

لمدّة عامين أو أكثر تَاقت هي والآخرون لمعرفة الله، لِيعرفوا أين هو وما الذي يفكّر به وما إذا كان يحكم العالم في الواقع.

والآن صار متاحًا في كوخ المزرعة كتابان، قصص الكتاب المقدّس وكتاب التعليم المسيحي، اللذان يتناولان موضوع الإله حصريًا، وكان إلى جانبهما أيضًا معلّم يُتوقَّع أنه يعرف كل الصفات الرئيسة على الأقلّ لهذا الكائن المميّز الذي يعيش مُمجّدًا فوق جميع الكائنات الأخرى. أثارت اهتمامهم على الفور قصّة خلق الله للكون، وإن لم يتلقوا جوابًا لماذا خلقه. ووجدوا صعوبة في فَهم الخطيئة، أو طريقة ولوجها إلى الدّنيا، إذ إن الأمرَ كان مُلغزًا في نظرهم بالكامل؛ لماذا تملّكت المرأة رغبة مُتحرّقة للحصول على تفاحة، في حين لم يكن لديهم فكرة عن الخصائص المغرية للتفاح واعتقدوا أنها نوع من البطاطس. ولكن ما أَشكلَ عليهم أكثر قصّة الطوفان النّاجم عن أربعين يومًا وليلة من المطر المتصل. فهنا على أراضي المستنقعات كانت سنوات أمطرت فيها السماء لمئتي يوم وليلة، دون أن يصحو الجوّ تقريبًا، ولكن لم يحدث أيّ طوفان. وحينما بدأوا يَسألون

معلمهم على نحو حثيث عن هذا اللغز أجابهم بما لا يخلو من شيء من الغضب: «حسنًا، لستُ جازمًا بذلك في أي حال من الأحوال». يُذكر في الإنجيل أن الرب جاء مرة وبرفقته اثنانِ من الملائكة، لزيارة رجل مشهور في أحد البلاد، إلا أن السّرد كان في منتهى الغموض من نواحٍ أخرى؛ كيف كان شكل الله؟ «أوه، أتوقع أن له لحية»، أجابَ المعلّم من دون اقتناع كبير، كان قد استلقى على السرير بلا حراك منذ بعض الوقت، مُتوسّدًا يديه تحت رأسه، وكان يحدّق في السقف بانهماك جَليّ. ثمّ خطر لنوني الصغير أن يسأل عما إذا كان الله يرتدي ملابس، أم أنه كانَ عاريًا؟ فصاحت به آستا سوليليا: «ألا تخجل من نفسك؟» فيما بعد أرسلَ إلينا ابنه المولود الوحيد، ذلك الإنسان الصالح الذي قصَّ القصص، وظهرت على يديه المعجزات، وبطريقة أو أخرى ربط الأطفال بين هذه الرواية وأولافور يازتدال الذي لم يجنِ من اهتمامه بالأمور الغامضة احترامًا كبيرًا، ولم تترك أنباء هذه الأمثال والمعجزات أدنى أثر في الأطفال كما لو أنها أخبار من بلد بعيد للغاية لم يسمع به أحد من قبل. حتى نوني الصغير، الذي كان حبّه للبلاد أمرًا مؤكدًا لا جدال فيه، لم يَتمنّ الذهاب إلى هناك. ومنذ ذلك الحين، كلما همّوا في مناقشة هذا الأمر، عَمَدَ المعلّم إلى تغيير الموضوع، وتصوّر الأطفال لا إراديًا فكرة أنه شيء غير لائق إلى حدّ ما. عملية الصلب أثّرت بهم بوصفها شيئًا فظيعًا على نحو مهول، وإن لم يكن لديهم فكرة عن الصليب؛ وَربطوا ذلك لا إراديًا بما حدث في عيد الميلاد الفائت، أمرٌ قد لا يُذكر، وينتمي فقط إلى الأحلام الأشد رعبًا، شيء يجعل المرء يستيقظ في الليل متعرّقًا، حينما ينام في وضعية غير مريحة، أو لدى وجود كتلة تحته؛ فينظر إلى الشبّاك، ويأمل ببزوغ الضوء عما قريب. أغلقت آستا سوليليا الكتاب وَقد سَرت رِعدة في أوصالها؛ شعرت أن كل ذلك كان مروّعًا، وتمنّت ألا يقرأ أخوها نوني شيئًا عنه حتى يكبر، فقد كان شديد الحساسية. ووضعت الكتاب على الرفّ. لم يتعلّموا شيئًا عن قيامة يسوع أو صعوده. ولم يكن الله بعيدًا عنهم مثلما كان عند قراءتهم هذا الكتاب. أُصيبت آستا سوليليا بخيبة أمل كبيرة بالربّ. ومع ذلك فهو لم يختفِ تمامًا عن ناظريها إلى أن بدأت بقراءة كتاب التعليم المسيحي. كانت مغمومة بائسة ومستغرقة بالأفكار حول الأمر برمّته. مرّة

بعد مرة سَعتْ إلى إيقاظِهِ من الموت، وتوجيه أسئلة خرقاء إلى معلمها. لكن كل محاولة من محاولاتها كانت تنتهي بهزيمة أخرى للربّ.

سألته ذات يوم: «هل جرّبت يومًا أن تصلّي لله؟»

تردد في الإجابة زمنًا غير يسير، ولكن تبيّن بعدَ لأيٍ أنه صلّى لله. «من أجل أي شيء؟» ودون أن يرفع بصره إلى الأعلى، أجابها بثقة بأنه صلّى لله لعلّه يأذن له بالاحتفاظ بِقدمِهِ؛ كان حينها راقدًا في المستشفى. ثم بُتِرت قدمه بعد ذلك.

آستا سوليليا: «أظنّ أن الرجل يبدو جذّابًا للغاية بقدمٍ مثل قدمك».

وانتهى الحديث عن الله لذلك اليوم.

وفي المرّة الثانية:

«يُقال إن الله خَيِّرٌ بلا حدود. هل هو خَيِّرٌ بلا حدود أيضًا حتى عندما يكون المرء في مأزق؟»

المعلّم: «بالتأكيد».

آستا سوليليا: «في هذه الحالة لا يمكنه أن يكون سعيدًا إلى ما لانهاية».

هو: «أعلم ذلك يا عزيزتي»، ثمّ نفدَ صبره بغتة! «هذا محض هراء، ولا كلمة فيه صحيحة. وهو مَعنيّ بالأشخاص الرقيقين والعصابيين!»

آستا سوليليا: «أبي صلدٌ صَعب المراس».

قال المعلم: «نعم، إنه رجل صعب».

ومرة أخرى اختفى الربّ من الحوار.

في اليوم الثالث: «صحوتُ باكرًا هذا الصباح، وبمجرّد أن فتحتُ عينيّ، رحت أفكرُ في الله، وأدركتُ فجأة أنه لا بدّ أن يكون موجودًا. إذ كيف لأي شيء أن يكون موجودًا إن لم يكن الله في حيّز الوجود؟»

بعد مداولات مطوّلة همسَ المعلّم: «أجل، من المحتمل أن شيئًا ما موجود. لكننا لا نعلم ما هو».

نقطة انتهى.

اليوم الرابع: «فإذن لماذا سمحَ الله للخطيئة بأن تدخل الدنيا؟»

في البداية، بدا كأن المعلّم لم يسمع هذا السؤال، استلقى مدة وجيزة

محملقًا أمامه في الفراغ، كما لو كان في شِبه غيبوبة، الأمر الذي يحدث على نحو متكرر في كل يوم هذه الآونة؛ ثمّ قامَ في النهاية على نحوٍ مفاجئ، وحملقَ في الفتاة مليًّا بعينين واسعتين، وكرّر متسائلًا: الخطيئة؟ ثمّ أخذتهُ نوبة من السُّعال، سُعال عميق مكبوت مُتحشرج؛ احتقنَ وجههُ، وانتفختْ أوداجهُ، واغرورقت عيناه بالدموع. وحينما انتهت نوبة السُّعال أخيرًا، جفّف عينيه، وهمسَ منقطع الأنفاس، «الخطيئة هي أثمن هِبة من الله».

ظلّت آستا سوليليا محدّقة في معلمها، بعينيها السليمة والحولاء، بيد أنها لم تجرؤ على طرح مزيدٍ من الأسئلة، لأنها كانت خائفة من النتيجة غير المتوقعة التي سوف تتمخّض عن النقاش في علم اللاهوت، وعلاوة على هذا، كان نَفَس المعلّم ضيّقًا على نحو استثنائي اليوم. نهضت، ووضعت كتاب التعليم المسيحي بجانب قصص الكتاب المقدّس بكلّ هدوء.

همس المعلم: «إنه لأمر محتوم تمامًا»؛ غير أنها لم تتجرأ حتى على سؤاله ما الأمرُ المحتوم، لأنها فكرت، بأنه من الأفضل عدم معرفة المحتوم قبل وقوعه، ولربما هناك أمر لا مفرّ منه أكثر من أي شيء آخر: وجهتا النظر اللتان تصطرعان في سبيل التفوّق على ذات الإنسان إلى أن تُهزمَ إحداهما، وهما أشبه بالنمر والأيل المتربّصان في الغابة حولَ الصيّاد.

في وقت مبكر من ذلك المساء كتب رسالة بخطٍّ نيّق، كانت تحفة فنّية من الخط المزخرف، ثم وضعها في ظرف، عَنونها باسم الدكتور فينسن، ثم ختمها.

عندما دخل الصَّبيان قال: «غُڤيندور يا ولدي، إذا رأيت أحدًا متجّهًا إلى فِيورد غدًا، فقط اسأله إن كان بإمكانه إيصال رسالتي هذه إلى الدكتور فينسن، إنها من أجل سُعالي».

في ذلك المساء سمِعته يتنهد بشدّة، ويتثاءب، ويتمتم من حين لآخر، كلمات ممدودة «نعم»، «آه يا إلهي»، أو «آه»، أو مجرد «آآ»، وأحيانًا كان يهمسُ لنفسه همسًا يائسًا: «هذا ليس جيّدًا على الإطلاق»، أو: «ما الفرق الذي يشكله على أية حال؟»

وحين سمعت هذا خشيت أنه ضاق ذرعًا بهذا الكوخ الصغير ذي

السقف الواطئ، وأنه اكتشف أن هذا المكان ليس مملكة سعادته المنشودة، ولربما ليس مملكة البراءة أيضًا، كما تخيّل في بادئ الأمر. كانت خائفة من مونولوجه هذا أكثر من سُعاله، إذ إنها نشأت في محيط فيه سُعال، كانت زوجة أبيها تسعل، وجدّتها تسعل ليلًا ونهارًا. ومما حَزّ في نفسها حقًا هو أنه لم يعد سعيدًا معهم، ومن الممكن أنه يودُّ مغادرتهم والخروج إلى العالم.

وسألته، مثلما كانت تسأل زوجة أبيها غالب الأحيان: «ألا تريد شُربة ماء؟»، لقد كبرت على عادة تقديم الماء لمن لا يشعرون بأنهم على ما يرام، الماء البارد يساعد قليلًا. لكنه ردَّ بِـلا مديدة. وظلّت تحدق به من حيث يدري، منزعجة للغاية من فكرة عدم قدرتها على فعل أي شيء من أجله، لدرجة أنها لم تستطع القيام بأي عملٍ آخر، آه يا إلهي، إذا تركهم ورحل بعيدًا! حاولت أن تفعل له كل ما بوسعها، قدّمت له دومًا أفضل قطعة من اللحم على الغداء، قدّمت له القهوة ست مرات أو ما يصل إلى ثماني مرات في اليوم، ونتيجة لذلك لن يتبقى عندها قهوة عما قريب، وبدا أن لا شيء يفيد، قلّتْ قراءته للقصائد أكثر فأكثر، أمسى أقلّ ميلًا إلى التوسع في تفاصيل الحضارات البشرية، ووجد أنه من الصعوبة بمكان التخلّص من أفكاره الكئيبة أكثر فأكثر. تمنّت كثيرًا أن تقول كلامًا مريحًا، فعلى الرغم من صغر سنّها، فإنها عرفت من تجربتها الشخصية ما قد تواجهه النفس ويعتملُ فيها سرًّا، وكيف بإمكان كلمة طيبة واحدة أن تزيح عنها الغيوم المحتشدة، لكنها لم تمتلك الشجاعة لقول أيّ شيء، سوى أنها كانت تُدير رأسها كلما فاضت مقلتاها بالدموع.

في اليوم التالي جرجرت الجدة العجوز نفسها إلى سريره، وقالت: «لا يبدو أن صحتك تتحسّن يا فتاي»، ذلك أنها من خلال تجربتها الطويلة لم تسمع برجل يستلقي في سريره ويداه تحت رأسه، يحدّق في السقف طوال اليوم، إلا إذا كان مرضه شديدًا بالفعل. للحظة حملقَ بذعرٍ في الوجه الهَرِم، الذي لم يحمل شيئًا من الأمل سوى أنه احتملَ كلّ شيء. وأردفت: «لربما ليس لدى الفتى المسكين تبغ». إلا أنه لم يُرِد تبغًا، هزَّ رأسه وأشارَ لها بيدِهِ أَن ابتعدي. وهمسَ: «اقعدي ثانية أيتها المرأة العجوز».

في اليوم الأول من إرسال الرسالة بدأ يتساءل: «ألم تلمحوا أحدًا قادمًا من المدينة؟ إذا رأيتم أحدًا قادمًا من المدينة عجِّلوا إليه واسألوه إن كان قد حصلَ على دواء من أجل سُعالي من الطبيب فينسن».

وبمرور الأيام، كان يسأل أكثر فأكثر، أحيانًا خمس أو ست مرات في اليوم، مثل طفلٍ صغير. ساهمت آستا سوليليا في هذه الحملة الاستطلاعية، وخرجت إلى الطريق المغطى بالثلج مرات عدة في اليوم، مُظلِّلة عينيها بِكفّها؛ متفحصة البِقاع لرؤية إن كانت ستلمح أي شخص آتٍ من المدينة. وأرسلت أخويها المرة تلو المرة لاستيقاف الناس، ولكن ما من أحد حملَ شيئًا للمعلم.

وأخيرًا أتى اليوم الذي كانت تخافه منذ علِمت باكتئابه. كانت قد أحضرت له قهوته، وطلب منها الجلوس على السرير بجانبه. شربَ قهوته. ثمّ ناولها الكوب الفارغ. قعدت والكوب في حِجرها، غير عارفة أتذهب أم تبقى، فقد كانت تلك أول مرة يَطلب منها الجلوس بجانبه، ولم تجرؤ على المغادرة ما لم يأمرها بذلك، فهو المعلّم. ثمّ قال: «إن لم يصلني شيء من فينسن غدًا، فإذن عليّ الذهاب بنفسي».

لو أنه شخص آخر، لكان لها الحق في رفع بصرها إلى الأعلى، ولنظرت إليه بعينين كبيرتين متسائلتين، ولارتسمت علامات الابتئاس على وجهها. إلا أنها لم ترفع بصرها إلى أعلى، لم يكن لديها الحقّ لفعل ذلك. وبدلًا من رفع جفنيها أسبلت رموشها، وحدّقت بالكوب في حجرها، صامتة خجلى. وتفرّسَ الرجل فيها كلها؛ كيف احتجبت خطوط الصّبا والغضاضة في جسدها تحت ثيابها المهترئة الباهتة؛ وخاطبَ بُنيانها حواسّه ببلاغةٍ طَغَت على كِسائه الرثّ، تمامًا مثل النبتة الرقيقة التي أنبتها الله خلفَ العديد من الكتل والأنهار الجليدية، وتُرِكت منسيّة، مَدينةً بسحرها لمئات الآلاف من الصخور، في البراري المترامية الأطراف. في آخر الأمر لمسها مثل رجلٍ كُتِبَ عليه أن يلمسَ زهرة نبتت بمفردها بين مئات آلاف الصخور. مرّر يده بِرقّة فوق كتفيها وظهرها، وأخيرًا استقرت راحة كفّه على ردفيها؛ ولكن لأجزاء من الثانية فقط. وحين سحبَ يده بعيدًا، وليس قبل ذلك، رفعت بصرها إلى الأعلى. كان في عينيها نظرة استفسار ممزوجة بالخوف

والخجل والعجز، مثل عينيّ طفلٍ صُفِعَ ثم أُعطيَ قطعة حلوى، في آنٍ معًا. هَزّت رأسها بغتةً، وأغمضت عينيها بسرعة، ثم فتحتهما. وضعَ راحة يده الرطبة على ظهر يدها وحاول النظرَ في عينيها. كان غريبًا كيف تنظر إلى الواحد دونَ أن يمسّ البؤبؤ الجفن السفلي؛ وما يزال المرء ينظر في عينيها حتى يعجز عن إدراك نفسه. شيء ما تحرك في حنجرتها، كما لو أنها كانت تحاول البلع. نهضت على عجل، في محاولة منها للإفلات من اليد التي حطّت على ظهر يدها.

كما لو أنها ربما لم تكن تعرف منذ البداية أن لا شيء له هنا. هذا الكوخ ذو السقف الواطئ في الثلج؛ آه، لماذا كان عليه أن يأتي، هو أيضًا؟ لماذا احتاجَ إلى البقاء هنا وطلب رعايتها له كل يوم، كالطفل يتّكلُ على أمه، حتى صار آخر ما تفكر به كل ليلة هو ماذا يمكن أن تصنع له في صباح اليوم التالي، ثم يرحل؟ ما الذي كانت ستفكر فيه عندما يرحل؟

***

51. وقتٌ للتّمَني

عندما صعدَ نوني الصغير السُّلم مدفوعًا بالبهجة، وبيدهِ زجاجة الدواء للمعلم، بالكاد تمكنت آستا سوليليا من التحكم في فرحتها، كما يمكن التصور. نظرت إليه وتعابير السعادة على وجهها، وصَفّقت بيديها لا إراديًا. لكن لمرة واحدة فقط. لأنها حينما نظرت إليه كان ما تبدّى على محياه ليس البهجة، وإنما كان همجيًا ويحدق بجشع. انتزعَ الزجاجة من يد الصبي، تفحص الملصق بعناية، ووثبَ من السرير بشحنة من الطاقة أكبر مما رأته من قبل. دسّ الزجاجة تحت وسادته، وسأل إن كان العشاء سيجهز عما قليل. وضعت آستا سوليليا مزيدًا من الحطب أسفل القدر.

بمضيّ وقت لا بأس به سألته على استحياء إن كانوا قد أرسلوا له الدواء الصحيح، لأنها شعرت أن مستقبلهم بأكمله متوقف على هذا الدواء. وإذا كان قد استلمَ الدواء الخطأ، فعندئذ سيكون الحال كأنما لم يحصل على الدواء مطلقًا. لكن المعلم أجاب بأنهم لن ينشغلوا بالكتب الليلة، وسينامون

مبكرًا. فقالت آستا سوليليا، سوف نذهب مُبكرًا إلى الفراش لكي يستفيد المعلم من دوائه.

وهكذا خلدوا إلى النوم أبكر من المعتاد، ما خلا أن المرأة العجوز قعدت وراحت تحوك في وميض الشمعة، مرددة ما بين حينٍ وآخر همهمات تافهة، إلى أن حان ميعاد نومها. وأخيرًا أطفأت هي أيضًا شمعتها، واستلقت. وبمرور الوقت كانت آستا سوليليا نائمة وتحلم. كانت أحلامها قد اكتسبت الصفات التي تجعل من النوم صديقًا مُرحَّبًا به؛ والآن مرة أخرى، في رسمٍ لامعٍ منقطع النظير، رأت المناظر الطبيعية المشجّرة على أوراق التقويم القديم، الذي تَمزّق منذ زمن بعيد إلى مِزق تحت حوافر الخِراف، كانت خضراء ناضرة، نعم، كانت ما تزال المناظر الطبيعية لأفضل أحلامها. وفي أنفها كان عِطر الزعتر البريّ النفّاذ، مثلما يعبق في الجبل أحيانًا في فصل الصيف، وبالأخص في وقت مبكر من صباح أيام الآحاد، عندما كان ندى الليل يزول بسرعة قبل طلوع الشمس في يوم العطلة. طافت بتكاسل عبر هذا المنظر الطبيعي، مثل طيرٍ يحوم ثابت الجناح فوق جروف الجبل الحادة، في هذا الحلم لم يكن مَا يستدعي الخوف؛ ما من أحد يرزح تحت عبء أيّة بلوى، كانت سعيدة. وما هو أكثر من ذلك، لم يكن أحد يطاردها؛ صحية جدًّا الأحلام التي قد يحلم بها الأشخاص أحيانًا في مرحلة الشباب. ثم خُيّل إليها بينما كانت تتحرك بانسيابية أنها سمعت الأرض هامسة تحت قدميها، أو تحت جناحيها، كأن الجبل بالصخور المحيطة بها كان يستعدّ لهمسِ قصيدة شديدة الإغراء تحت أجنحتها؛ ثم استيقظت. لم تعرف كم مضى عليها من الوقت وهي نائمة، لكن الحلم كان حلوًا، وفي البداية كانت دقات قلبها خالية من الخوف رغم أنها فتحت عينيها على ظلام دامس. وفعلًا انبعثَ هَمسٌ من مكان ما، لم يكن مجرد حلم. نعم، لقد كان شِعرًا. وكان هنا في الغرفة. كان هوَ. كان يلقي الشِّعر. لماذا كان مستيقظًا في سريره في منتصف الليل يقرأ الشعر؟ رفعت رأسها وسَعلت سَعلة خفيفة، مُستفسِرة، ثمّ همسَ بمقطع كاملٍ زيادة.

قال: «إنه أنا».

سألته: «ألم تستطع النوم؟»

واكتفى بالجواب:
رَهيفة نقيّة
زهرةُ النّدى،
ليّنة ناعِمة،
وعلى نحوٍ جامح
تؤجّجُ الرغبة بالقوّةِ،
الملتهبة الآن بالخمر،
لأن أجعلكِ
يا عذراء الجبلِ، مِلكي،
الآن، بعد أن وَهَبت الطبيعة
قلبَ آدم علامةً جديدة.

سألت: «ما ذاك الذي تتلوه؟»

«قصيدة قديمة».

«ألا ينبغي علينا النهوض إذن؟»، قالت مُستفسرة، ظنًّا منها أنه ربما يريد منهم أن يبدأوا بدروسهم.

أجاب: «الوقتُ ليلٌ»، ثم تابع قراءة القصيدة، هامسًا، وَأحسّت بأنه يهمس بالقصيدة لها هي، كما لو أنه كان يخاطبها بها هي على وجه الخصوص، بدت كأنها قصيدة من نوع غريب، لم تسمع لها مثيلًا من قبل. كان يهمس بها بطريقة توحي كأن لها علاقة بها، كما لو أن الأمر يتعلق بها مباشرة وبصورة حميمة. احمرّت خجلًا في العتمة ولم يكن لديها أدنى فكرة ما هي قائلة أو فاعلة، وخاصة أن الوقت بعد منتصف الليل، فمن المفترض أن الشِّعر يُقرأ نهارًا وبصوت عالٍ، وأن يتدبّره المرء بصمتٍ خلال الليل. ولكن كيف كان على فتاة صغيرة أن تفهم شِعرًا يُهمس لِأُذنها هي فقط، وفي منتصف الليل؟ أكان بإمكانها أخذه على نحو غير شخصي، مثل شِعر النهار؟

قلّما

أعي خواطري الصّاخبة المتطلّبة.
وها هي ذي بجنونٍ تضطَرِم
في أُتون الشّهوة
فتُمسِي
ضَالّة، مَحمومة، جَريئة
حينما أُبصِرُ حُسنكِ،
وقوامكِ الحُلو الفَتّان
لأنني أحسبكِ أكثر بهاءً
من عِجل هارون الذهبيّ[1].

لا، من المؤكد أنه كان يقوله لنفسه. كان مدركًا بالتأكيد أنها أصغر من أن تفهم مثل هذه الأشعار الغريبة؛ فعلى الرغم من أنها تقدم له القهوة غالبًا، والفطائر المحلّاة أحيانًا، فذلك لأنها مجرد فتاة صغيرة، وبالتالي لم يكن هناك فائدة من توجيه مثل هذه الأشياء لها مباشرة؛ ومع أنها تشعر أحيانًا أنها فتاةٌ كبيرة بالفعل، فإنها لم تُعلِم أي شخص بهذا. فضلًا عن ذلك، لم يخطر لها قطّ أنه من الجائز لأي أحد أن يتكلم عن عِجلٍ فيما يتعلق بالحُبّ! وإن كان عِجلًا ذهبيًّا! لا، لا يمكن أن تكون قصيدة جادّة، ومن الواضح أنه لا يمكن أن تكون هي من يشير إليها. ما عساها أن تقول؟

الأجمل
صحبتكِ من بين جميع العذارى،
لطيفة وحكيمة،
والأندر

1- العِجل الذهبيّ: صنمٌ صنعه بنو إسرائيل عندما صعد موسى إلى جبل الطور (سيناء) ليناجي ربه ويأخذ الشريعة منه، وعندما أبطأ في النزول عمد رجل يُدعى السّامريّ إلى صناعة عِجل من الذهب لعبادته، وهذا بحسب القصص القرآني. أما التوراة فهي تنسبُ صناعة العجل إلى هارون شقيق موسى. تُعرف الحادثة بالعبرية باسم خطيئة العجل.

سيمفونية لسانكِ العذبة،
ونظرة عينيك النَّديّتين.

لا، رُحماك يا رب، ذلك الشِّعر الغريب لا يمكن أن يكون موجهًا إليها. من غير المنطقي التلميح بأنها نديّة العينين، ومن الأكثر سخفًا نَعتها بجميلة العذارى! لا بدّ أن هذا الشِّعر قد كُتِبَ منذ مائة سنة من قبل شاعر آخر. لم تكن قط بصحبة فتيات أخريات، كانت مثلَ نبتة وحيدة نبتت من بين الصخور في البراري، لكنها كانت على يقين تام بأن فتيات العالم تفوّقن عليها بمراحل. وعلى أية حال لم تكن فتاة كبيرة بعد، كانت مجرد طفلة. أم إنها كبرت بطريقة ما؟ مع أنها حرصت على إبقاء الأمر سرًّا؟ يا إله السماوات، ماذا سيقول أبي لو عَلم بهذا؟ هي التي لم تَنلْ سر التّثبيت في الكنيسة بعد! ومع كل مقطع من المقاطع كان قلبها يشتد قلقًا واضطرابًا؛ وعما قريب لن يكون باستطاعتها تحمل سماع المزيد!

كيف عساني
أتغنّى بمديحِ هذه العذراء
وإلهامي مُفتقرٌ
إلى الكلمات والمهارة
التي تبعث الحياة في العبارات الملونة.
أيا سِحرًا أذاب إرادتي.

لماذا نطقَ كلماته بتلك النبرة التي يستخدمها المرء فقط حينما يهمس بكلمات سرّية لا يصحّ أن يسمعها أحد آخر؟ أليسَ يعلم أن هناك حدودًا لما يجوز أن تسمعه فتاة صغيرة، لم يعرف أحد أنها كبرت، في منتصف الليل دون أن تفقد السيطرة على نفسها أو أن يغمى عليها، ومن المحتمل أن تموت؟ هو من يمكنه الحصول منها على أي شيء يرغب به، هو من يعرف شِعر العالم، وقصته بناء على تجربته الخاصة. ألن يكون راحمًا لها في عجزها؟ وَثبتْ من السرير مُشوّشة جزوعة، تلمّست بحثًا عن عيدان الثّقاب، وأنارت

المصباح. ثم لاحظت أنها نسيت تنورتها التحتية أيضًا، كانت مرعوبة للغاية مُشتتة الفكر. أدخلتها في رأسها بعنف وأنزلتها فوق وركيها؛ وكان في الغرفة ضوء، ويا إله السماوات، لو أنه كان يراها.

تَتغلغلين
في روحيَ المُتنهِّدة
بِحُسنكِ المتبرعِم العَطِر،
بِسحركِ المُحتجِب
أيا صَفوة الهِبات!

وأخيرًا أزاحت شعرها عن وجهها بهزّة من رأسها ونظرت إليه في فزع.

نعم لقد تحسّن. شعرَ بأنه على أفضل حال لدرجة أنه نهض من سريره في منتصف الليل. كان آنئذ قاعدًا على حافة اللوح؛ وجهه أحمر وعيناه متوهجتان، وبدا أن الخطوط التي حفرت في وجهه بعمق في السابق قد تلاشت فجأة، حتى إنه لاحَ مثل فتىً في سن المراهقة لا أكثر. وسطعَ من وجهه مرحٌ طفوليّ، جلسَ هناك والدواء على ركبتيه، وراح يبتسم في وجه الفتاة وبالضوء الذي أنارته بارتياح. أوقظ الضوء الصبيين أيضًا، وجلسا لمعاينة هذه السعادة المُستَجَدة.

هل أصبح على ما يرام إذن؟ نعم، كان في حالة جيدة. بل أكثر من جيدة. كان مسرورًا. في قمة السرور. وأضاف: «وجيّدٌ كذلك، الأمور كلها طيبة، ولماذا؟» لوّح بدوائه في وجه الكون. «لأن الليلة لا معاناة لأحد. لقد شطبتها جميعها. ولن يكون في المستقبل مزيد من المشقّة لأحد، ولا أمراض. أنا من يحكم الليلة. لا مزيد من الحزن للقلوب الواجفة، لا أطفال شِبه عُراة في أكواخٍ مُظلمة في بُقعة تَغور فيها الغُدران بالرّمال، لا مزيد من الدّيدان في الأغنام التي تجترّ بِسلامٍ في الوديان، لا مزيد من الأحمالِ القاسية على ظهور الخيول النبيلة لدى الأُناس المستقلين؛ وإنما بساتين غنّاء على امتداد صحاري خطّ الاستواء الرملية، وأمنيات عيد الميلاد القلبيّة الخالصة ما بين الصياد والأيل والنمر على ضفاف المسيسيبي. كل ما يشتهيه القلب

أعطيكم إيّاه؛ تعالوا إليّ، يا أولاد، واختاروا بُلدانكم. هذا وقت التمنّي من أجلكم جميعًا!»

لمدة طويلة لم يتمكن الأطفال، الذين كانوا نصف نائمين، من التمييز بين سعادته الجديدة والشِّعر الذي علمهم إيّاه. لكن أذهانهم صَفَت باستمراره بالكلام. نهضَ الفَتيان من سريرهما وقَدِما للمشاركة في خلاص الكون. أخذهما إليه، وأقعدهُما على السرير بجانبه، واضعًا ذراعيه على أكتافهما، وضمهما إلى صدره مُقتبِسًا أجمل الأشعار.

أتى وقتُ التمنّي مباغتًا مثل صاعقةٍ مُدويّة من السماء، في البداية لم يعرف الأطفال ما يفعلون به. وليست بأية حال من الأحوال المرة الأولى التي يقف فيها الناس معقودي الألسن في حضور وقت التمنّي؛ بالإضافة إلى ذلك، قلّة من الناس يستوعبون وقت التمنّي أوان حلوله، على الرغم من أنها قد تكون اللحظة الوحيدة التي انتظروها طويلًا، بل ربما كانت مُتوقعة. حتى نوني الصغير، الذي لطالما آمنَ بالأُمنيات، والذي كان صغيرهم، حتى هوَ تردد حينما حانت السّاعة. وَظنّت آستا سوليليا أن الأمر كلّه شِعر، فقط في صورة جديدة. بقدر ما يبدو هذا غريبًا؛ كان غُڤيندور -المادّي- هو أول من حدّد وجهته، أوّل من أدركَ أن اللحظة المقدّسة قد حانت. كان في مَنطِقهِ على غِرار هرولاغور كلدور الذي يأخذ الأمور على نحو صارمٍ بالترتيب الذي تأتي به، دون التقصّي عن أصلها أو عن طبيعتها. كان أول من تمنّى أمنية.

قال: «أمنيتي هي أن تحظى خراف أبي بشتاء جيد. وأن يكسب مالًا كثيرًا قبل حلول عيد الفصح. وأن يشتري مزيدًا من الخراف في الخريف المقبل».

أجاب المعلم: «يا صديقي!» وَقبّلهُ، «لا بدّ أن تتحقق أمنيتك. النعاج التي تجتر بسلام في الوديان والحبلى بالتوائم سوف تعود إلى الحظيرة بأجود أنواع الحِملان في الناحية. وسوف تزداد الماشية هنا والمستحقات المالية في فِيورد بنسبٍ متساوية. وينبغي أن يؤسس طريقًا معبدًا بالأسفلت مصقولًا كالمرآة ممتدًّا من الحضارة العالمية إلى هنا، وعلى طول الطريق سوف تتدحرج عملات فضية ضخمة مثل العربات في موكب لا نهاية له. وهنا على

التلّة سوف يسمقُ مثل القصور في الحكايا الخيالية بيت حجريٌّ من طابقين، مُضاء بأقوى ضوء كهربائي يمكن أن يوفره العلم الحديث».

هكذا كانت الأمنية الأولى، والكيفية التي جرى بها المصادقة عليها والتّعجيل بها. ومع أن نوني الصغير أدرك أن هذه اللحظة لا تعدو أن تكون مجرّد حُلم، فإنه ليس من الحكمة في شيء أن يدع الفرصة تنزلق من بين أصابعه في حال لم تكن اللحظة حلمًا، بالطريقةِ ذاتها التي يعترف بها الناس بوجود الله على فراش الموت في حال ثَبُت في آخر الأمر أنه يوجد إله بالفعل! وما الذي ارتضى به قولًا في هذه اللحظة حينما تبدّى أن الأقدار بَسَطت كامل إرادتها عندَ قدميه؟ في دماء بعض الناس تتولد أمنية واحدة، وهم أبناء السّعادة، فالحياة كبيرة بما يكفي من أجل أمنية واحدة وليس اثنتين. في خِضمّ معاناتها زرعت أمه في صدره هذه الأمنية الوحيدة: تَمنّى بلدانًا أخرى.

سأل المعلّم: «أية بلاد؟»

قال: «بلاد فيها غابات، بلد يشبه البلد الذي ينساب فيه نهر المسيسيبي، كما وردَ في القصيدة. حيث يعيش الأيل والنمر في الغابة. أرغبُ ببلاد من هذا النوع».

قال المعلم: «أحضِر لي قلمًا وحبرًا وورقة».

انحنى فوق الطاولة وكتبَ بخطّ كبير مُنساب. بَقبقَ الحِبر من القلم. راقبه الفتى بعينين مندهشتين وهو يكتب، ولمّا يتيقن بعد ما إذا كان الأمر كله حلمًا أم أنه مستيقظ حقًّا، ما إذا كان الأمر تسلية وشِعرًا أو ما إذا كانت هناك بالفعل دقائق تحسمُ مصير جميع الدقائق الأخرى في الحياة وتمنحها غايةً.

قال المعلم وهو يناوله الورقة بتلويحةٍ وقورة: «هاك، أرسل الرسالة إلى المضيق البحري «فِيورد» في أقرب فرصة ممكنة. إنها رسالة الأمل الخاصة بك، وسوف تتحقق أمنيتك».

حملقَ الصبي في العنوان بجنون؛ كان عنوان سيّدة تحمل اسمًا أجنبيًا، تصل عن طريق المأمور، لا مزيد من التوضيح قبل أن يرجع إلى السرير، وضعَ الرسالة على الرفّ فوق جدته، ثم قرصَ شَحمة أُذنه. من المؤكد أن

ذلك كله حلم، وربما لن يكون للرسالة من أثر في الصباح. وعندما نهض في الصباح كان أول ما فعله هو أن تَحسّسَ مكان الرسالة على الرّف، وماذا تعتقد؟ كانت على الرفّ رسالة معنونة بخط كبير إلى سيدة أجنبية، بواسطة المأمور. وراقبَ الطريق بحثًا عن أناس مُتّجهين إلى فِيورد وطلب منهم توصيل رسالته.

والآن أُنجِزت الأمنية الثانية، وحان وقتُ الثالثة. أخبر الصبيين أنه بوسعهما الآن العودة إلى السرير. فعاد الصبيان إلى السرير. حالما استلقيا وَأغمضا عينيهما من جديد، مدَّ يدهُ نحو المصباح، وَأخمده، ثمّ أخذَ آستا سوليليا.

***

52. المحتوم

كان ذلك فظيعًا حقًّا.

لن يحدث مجدّدًا أي شيء بهذه الفظاعة أبدًا، أبدًا!

أَيْ ربّ، الخَطايا السّوداء
تُثقلُ كاهِلَ ابنتكَ المُخزية البائِسة،
متروكة هي الآن للشّر
عالقة في شَرَكِ الشيطان.

آلام الجحيم مِشجَب لروحي العاجزة،
غارقةٌ أنا في غَياهب الهمّ والبَلوى
لا مناصَ أُبصِرهُ من العارِ والخطيئة،
لا دربَ تقتفيهِ خُطايَ الذّاهبة.

وقفت آستا سوليليا بالقرب من الفرن في الصباح الباكر، مُصغيةً إلى هذه الترنيمة من خلفها. كانت يداها يدَي فتاة، ذات بشرة خشنة ضاربة إلى

الزرقة، وراحتين عريضتين، وعظام رفيعة، ومفاصل قويّة. كانت البراجم كبيرة لكن الأصابع طويلة؛ عظم الإبهام بارز، وعظم الرسغ مكتمل النموّ. ألقت أغصان الخلنج السوداء فوق الشّبك، فقد أزالت الرماد. فرقعت أغصان البتولا القزمية النحيلة الغضيرة بتجهّمٍ عندما وضعت فوقها الشعلة، وغطّتها على الفور بكتلٍ جافة من الروث؛ نفخت عصفة من الرياح في المدخنة، فامتلأت الغرفة بالدّخان. نعم، صارت بنتًا كبيرة الآن، هي من كانت تُشعل النار هذه الأيام، ولا سبيل للرجوع.

كان ذلك في وقت مبكر من شهر مارس، وقد بدأ يلوح في النافذة ضوء رمادي باكرًا من كلّ صباح. إلا أن الجوّ كان شديد البرودة. كان الجوّ باردًا على الأخص بعد الليلة الفائتة. أصابتها الرجفة وَصرّت على أسنانها مرات عديدة. كان شعرها غير مرتّب، وإحدى ضفيرتيها مفكوكة، ولم يمسّ المشط شعرها بعد. وكان ثوبها الضيق البالي، الذي نسيت إنزاله على جنبيها، عالقًا في ثَنيَات فضفاضة فوق وركيها، فكانت كلما انحنت إلى الأسفل أبانت مأبضي[1] ركبتيها، كان في قواميهما غِلظةٌ بالمقارنة مع الركبتين النحيفتين الطفوليتين غير مكتملتي النمو، كبيرين تقريبًا، مقارنة بالانحناء الحادّ للفخذين في الأعلى، وربلتي الساق الناضجتين بالأسفل. كما نسيت أيضًا ارتداء تنورتها التحتية، ما الذي حدث لتنورتها التحتية؟ ولم ترفع جوربيها حتى، كانا مُعلّقين في تغضنات سميكة حول كاحليها، ولكن لا يهمّ. بدت كأنها نمت فجأة على نحو غير طبيعي، هي التي كانت دومًا هزيلة على نحو غير طبيعي! شعرت كأنها سمكة مقطوعة من الوسط ومفتوحة، نعم، بِسكّين، سكّين مسنونة. كانت كتلة من الألم من الرأس إلى أخمص القدم، وكانت كلّ حركة تكلّفها وخزة في مكان ما، وليس كأنها مقطوعة فقط، بل ممزقة إربًا ومسحوقة أيضًا. لم تكن تشتهي شيئًا سوى التسلل إلى تحت اللحاف والاستلقاء بسكون تام لأيام عدة، دون أن يزعجها أحد، مجرد النوم والنوم، والموت حتى. كان كل ما حصلت عليه من النوم مجرد غفوة قصيرة قَلِقة، فقط قبيل الفجر، وأفاقت منها في فزع. لا، أبدًا، لا يمكن أن يحدث شيء فظيع مثل هذا أبدًا، لا، ولا أي شيء مثله!

1- المَأبِضُ: باطِن الرُّكْبَة والمَرْفِق.

كان همها الوحيد هو تجنُّب النظر إلى جدّتها خلفها، ومع ذلك استطاعت رؤيتها من مؤخرة رأسها، حيث جلست وراحت تتهزهز إلى الأمام والوراء والحياكة في حجرها، رأسها مرتعش، ووجهها طلسم «رونيٌّ» محفور. وكانت عيناها ترمشان بِوهنٍ تحت الجفنين الثقيلين المزرقّين، ومع ذلك كانت ترى كل شيء وتعرف كل شيء، وترمز إلى تلك الواقعة ما بين الله والشيطان التي تبرز عندما تشارف الليلة التي أتت بالأحلام والغابات على الانتهاء. صَحَت من فردوس وقت التمنّي على ترانيم الجدّة العتيقة؛ قبلَ بزوغ فجر اليوم على الدم حتى، وقبل وقتٍ طويل من اشتعال نيران الحياة اليومية المحايدة الباعثة على الطمأنينة، كانت هناك ترنيمة تُتلى حيثُ السّعادة المُنحسرة مَضروبة بعذابٍ فيّاضٍ طَاغٍ، مثلما تُضرَب الألف بالمليون، كان ذلك كما لو أن الحياة حدثت كلها في ليلة واحدة. شعرت كما لو أنها مذبوحة. كان جسدها مثل لحمٍ مفروم نازف، أبدًا، أبدًا....

بالوجومِ والأَسى أُترِعَ النهار
الذي لم يجلِب معه عونًا منك،
ولا تطهيرًا لذنوبي الغفيرة،
ولا إشارةً من رَحمةٍ وتَحنان.

وإنني أُصلّي من أجل يدِ الموت الكالحة،
وإن كنتُ أخشى التفكيرَ به.
فانهِ يا إلهي يوميَ الحَزين،
وخُذني إلى نَعشِي.

حاولتْ كَتم الكحّة التي استولت عليها في الدخان المتكاثف، لئلا توقظ أحدًا. فقط لو أن لا أحد منهم يستيقظ، لو أنهم يظلون نائمين جميعًا، ولا يَلْحظونها، ولا يتحدثون إليها أبدًا. لو أن الصُّبح لا ينفلِق، لو أن الماء بقي هكذا إلى الأبد، نصف باردٍ فوق نارٍ نصف مشتعلة؛ لأنها كانت على يقين بأنها تغيرت، وكل شخص سيراها سوف يُصاب بالفزع، ولن يتعرّف

إليها، وسوف يدفعها عنه. إخوتها ما عادوا إخوتها، أو بالأحرى ما عادت أختهم. لقد عرفت منذ زمن بعيد أنها بطبيعة مختلفة عنهم، وحسدتهم مذ كانوا صغارًا، وأدركت تفوقهم الغامض عليها منذ البداية. والآن وصل الأمر إلى هذا الحدّ، كان عليها أن تدفع مقابلَ مَا لم تحصل عليه. لا شيء من هذا القبيل يمكن أن يحدث لهم. والصعوبات التي سوف يواجهونها في فهم مصيرها فصلتها عنهم إلى أبد الآبدين. لا، لا أحد في العالم سوف يقدر على فهم ما حدث لها، وقفت وحدها؛ خارج العالم بأكمله، كان من الصعب تقويم ما حدث، وفي هذه العزلة سوف تموت. دُمِّر كل تواصل مع أفراد أسرتها، باتت منتمية إلى حياة أخرى. كان كلّ شيء على ما هو عليه من قبل، سوى أنها كانت على خلاف ذلك؛ ولم يحدث شيء لأحد ما عداها. من الآن فصاعدًا سيكون اليوم غريبًا عليها، كل يوم، كل الأيام، وأكثر من غريب، مشكلة غير قابلة للحل، متاهة، فوضى. لو أُتيحَ لها فقط الوقوف فوق هذا الماء غير المغلي حتى ينفد الزمن، دون التعرض لمخاطرة إيقاظ الجماعة مما كانت معزولة عنه، الأواصر التي قطعتها، الاتحاد الذي كسرته، تعيش أو بالأحرى غير حية على الحد الفاصل ما بين الوجود والعدم، بجانب نيران شبه باردة وفرقعة أغصان البتولا فيها، في فجر رماديّ مبهم، دون البحث عن أي تفسير لتجربة الليل، كأنها ذكرى غامضة عن طائر منفّرٍ لا اسم له، ذي منقار جشع، قد رأوه مرة مرفرفًا فوق المستنقعات، ولم يلمحوه بعد ذلك قط.

ثم في اللحظة التالية بدأت تطالب نفسها بتفسير لما حدث. ماذا حدث؟ وفوق كل شيء آخر، ما الذي فعلته؟ لا، هي لم تفعل أي شيء. لقد ابتهجت بفرحهِ، سرى بها شعورٌ غريب، فمالت نحوه طواعية لأن شعورًا غامضًا عَبَر جسدها كتيّارٍ في منتصف الليل حين أطفأ الضوء، وهل يمكنها مقاومة الشعور إن اعتراها؟ ولماذا يعترينا شعورٌ غير مألوف؟ إنها الحياة، لا أحد يمكنه الوقوف في وجه الحياة، في طريق شخص يعيش. أكان ذاك مُحرّمًا، أم ماذا؟ نعم، فإذن لماذا يولد الإنسان؟ لماذا تحتّمَ أن تظل شرارة الحياة فيها عندما كانت مستلقية تحت بطن الكلبة؟ كلبة دافئة وكانت بالتأكيد قذرة، وربما مملوءة بالديدان. لماذا لم يأخذ أبوها الكلبة معه حينما مضى إلى

الجبال بحثًا عن الأغنام؟ لا، هي لم تفعل شيئًا، ولا أي شيء! منذ الوقت الذي رقدت فيه تحت بطن الكلبة وحتى هذا الصباح. كل ما حدث هو مرور تيّار مجهول عبر جسدها..

ومع ذلك، تركته يفعل ذلك، لماذا سمحت له؟ لماذا لم تفكر بأبيها بدلًا من مطاوعته؟ أبي؛ كان التفكير به أشبه بألم مرير يخترق قلبها مباشرة. لا، لا، يجب ألا يعرف بالأمر أبدًا، هو من ائتمنها على كل شيء، داخل المنزل وخارجه، ألم يأتمنها على نفسها أوّلًا وقبل كل شيء؟ هو من ضمّها إلى صدره في ثانيةٍ مباغتةٍ هنا في العلية، كانت زهرة حياته. رحلَ بعيدًا وفي نِيّته بناء منزل لها، وهبطَ السلالم، وقد أقسمت أنه لن يكون لها أبٌ آخر غيره. أوصدَ الباب من خلفه، كأنه أغلق قلبها من بعده عندما غادر، وبكت حين مضى بعيدًا، وقد لا يأتي أحد إلى هناك، ولم يعلم أحد ببكائها، والآن سوف يعود في عيد الفصح، كيف ستنظر في وجهه؟ والآن غشيت صدرها نوبة بكاء متشنج. ولم تستطع السيطرة على نفسها مهما حاولت، تدفقت الدموع من خلال أصابعها لتختلط مع الماء في القِدر، وضغطت بمرفقيها على جنبيها كي توقف اختلاج صدرها، بيد أن البكاء أيضًا عنصر مستقل في صدر الإنسان، تيّار شعوري آخر، والبكاء أيضًا يتحكم به عالم آخر، والإنسان يقف عاجزًا أمام دموعه ولا يستطيع الهرب ولا يستطيع ولا يستطيع؛ وكان الأمر ذاته ليلة البارحة، عندما طوّقها بذراعيه وكان كل منهما بجانب الآخر، ولا شيء يفصل بينهما، وظنت أنّه الفرح، ونسيت أباها وكلّ شيء، وما زال شيء داخلها يقول لها أن اهربي، اهربي، بيد أنها لم تستطع الهروب، لم تستطع الهروب، لم تستطع. لا يمكن للمرء الإفلات، هكذا هي الحياة. ووقفت باكية فوق النار الخامدة التي كانت قد أضرمتها.

بِضجرٍ، بِضجرٍ.. يحلّ مُتباطئًا
الفجرُ الذي لا يحملُ منكَ الأمل؛
وكئيبًا، موحشًا يتجرجرُ
الصباح غير المضاء بالرأفة.

مشى موكب الفلسفة المقدسة ذو النبرة الرتيبة هذا بتثاقلٍ خلف ظهرها مثل رتلٍ من الأشباح التائبين عن الخطايا، بينما هاجمها الشيطان من الجناح المفتوح؛ الذات العليا المعادية التي تدين الطبيعة البشرية على أسس مسيحية. وأخيرًا لم يعد باستطاعتها تحمل المزيد من ذلك. كانت مدفوعة إلى اليأس المطلق دَفعًا، ففي النهاية هناك حدود لمقدار الأخلاق المسيحية التي يمكن أن تتحملها الطبيعة البشرية. فرّت من جدتها مذعورة ووقفت عند سرير المعلم، كما لو أن ذراعيه ملتجأ أكيد. لمست وجنته في خوف ورهبة، ثم وضعت راحة كفها الباردة تحت ياقة قميصة المفتوحة. وبدلًا من حمايتها، ندّت عنه في نومه آهة تعيسة، ثم استدار صوب الجدار؛ فسقط عنه اللحاف، وكان عاريًا، وكانت تنورتها التحتية مكومة هناك بالقرب منه. انتشلتها، وألقت عليه الغطاء، في حركة خاطفة مذعورة؛ لم ترَ رجلًا عاريًا من قبل، ولحسن الحظ أنها لم تره الآن، لأن الضوء كان ما يزال رماديًا في النافذة، وماذا فعلت؟ من كان هذا الرجل؟

كان ضوء النهار مكتملًا تقريبًا حينما عادت من حظيرة النعاج مع أخويها. الخروج في رياح الشتاء النقية جعلها في حالٍ أفضل؛ مجهودها مع الأغنام والعلف أدخل على نفسها راحة مؤقتة، لكنها لم تجرؤ على النظر في وجه أخويها، وتعمّدت الإشاحة بوجهها لئلّا يَستغرباه إن نظرا إليه. كان ما يزال مستلقيًا في السرير، وما يزال في مواجهة الحائط؛ أصغت ولكنها لم تسمع أنفاسه. كانت مشحونة بالهواجس، وظنت أنه قد يكون ميتًا. همست: «ألا ترغب بشرب شيء ما؟ القهوة ساخنة». لكنه لم يكن ميتًا في النهاية. استيقظ وفتح عينيه، وامتلأت بالبهجة لاستيقاظه على الرغم من أنه لم يُجِب بأكثر من أنّات مريرة، وأمُلت أن يشعر بتحسّن عما قريب. جلبت له قهوته، وساعدته على الجلوس. كان وجهه ممتقعًا سقيمًا، غير حليق، لحيته طويلة، شعره أشعث، ولم ينظر إليها. قعدت على سريره، دون أن يدعوها، ومررت مشطًا خلال شعره. وهمست، كأنما في ثقة: «تفضل قهوتك». ثم واصلت تمشيط شعره، نعم، تمشيط شعره، كان الأمر غير مفهوم تمامًا، ومع ذلك فعلته على نحو عفوي ودونما تفكير. حتى إنها اقتربت منه أكثر، وأمسكته بينما كانت تعدّل الوسائد ليسند ظهره؛

فعلت ذلك كله كأمر طبيعي، ذهب الخجل كليًا. سألته إن كان يشعر بأي ألم، وأين موقع هذا الألم. ثم هل يرغبُ بشيء محدد؟ وما همّ ما حدث لها طالما أنه هو بخير؟

همسَ وهو يحتسي قهوته: «أنا في حكم الموتى». ثمَّ أردف: «دعيني وشأني. أنا لا أستحق».

لم يشكرها على تمشيط شعره، ولم يشكرها على أخذ الكوب الفارغ. عاود الاستلقاء، وتنهّد بمرارة، وَدثّرته بعناية كبيرة، وكان حلقها جافًا، وقلبها يخفق بشدّة كما لو أنه لن يتوقف، ومع ذلك ما زال لا ينظر إليها، ولا حتى يكلمها كلمة لطيفة، ولا همسة. لكنه حين رقد هكذا لبعض الوقت، وبينما كانت هي قاعدة قبالته تنظر إليه بعطف وإخلاص، أبصرت شفتيه تتحركان، وسمعته يهمس: «يا إلهي القدير ساعدني. اغفر لي يا ربّ السموات».

ظلّت قاعدة على طرف سريره، غير قادرة على انتزاع نفسها من عذابه، وأصغت إلى حسرته ونواحه وزفراته. كان الدواء منتهيًا، الزجاجة فارغة. في خاتمة المطاف، لم يبق شيء سوى رحمة الله.

في ذلك اليوم تبوأ الله في الكوخ منزلة على جانب كبير من الأهمية. بدا كأن كل شخص استوعبه وعرفه، كلٌّ بطريقته. وهذا ما كان عليه. مع تقدّم النهار، تخطّى المعلم الجدة بسرعةٍ في تأدية الصلاة؛ كانت صلواته صلوات غير مقفاة وسرعان ما تفوقت على تلاوات الجدة النمطية. مرارًا وتكرارًا جلس في سريره، وأخذ يحدق أمامه في الفراغ، بعينين واسعتين يائستين، ويمسح العرق عن جبهته ويتنهد: «يا إلهي، أنا تائه. يا الله، ما الذي فعلته؟» أو: «إن شئت أن تسحقني بقدميك، يا رب، إذن فلتسحقني إلى أشلاء الآن، على الفور».

عرضت عليه الفتاة الشابة ماء للشرب، كانت ما تزال لديها فكرة غير منطقية بأن الماء البارد لديه القدرة على شفاء الروح والجسد. ارتشفَ قليلًا من الماء البارد، ثم استلقى من جديد متأوّهًا. تمنّت أن ينام. إلا أنه نهض فجأة وصاح: «ما الذي فعلته؟» في هذه المرة لم تقدم له الماء البارد، وإنما مالت نحوه وهمست: «لم تفعل أي شيء»، وأضافت، بِرقّة أكثر، مباشرة في

أذنه: «لا أمانع أنك فعلتها. وإن كانت خطأ، فإذن أنا الملامة. لكنها لم تكن خطأً على الإطلاق. ولم تؤذني ولو قليلًا. وبإمكانك فعلها متى شئت، ولن أُعلِم أبي بالأمر أبدًا. الله ليس بالسوء الذي تعتقده».

وضعت ذراعيها حولَ رقبته، وضغطت خدها على وجهه، وكلما ازدادت إصرارًا على اللحاق به إلى أطراف الأرض، ازداد عمق تعاسته، ونسيانها لنفسها. لم يترك يدها حينما استلقى من جديد، عذبة هي اليد التي تُطمئِن وتخفف الألم. راح يحدق بعينين نصف مغمضتين بالوجه المُخلِص من فوقه؛ شيئًا فشيئًا شاعَت الطمأنينة في حناياه.

***

53. عندما يكون للمرء زهرة

قضى الليل ماشيًا.

كان قد انطلقَ في منتصف الليل، وبحلول الفجر كان يدنو من التخوم الغربية للمروج العليا. كان ذلك في صباح باردٍ من أسبوع الآلام[1]. رويدًا رويدًا انتشر الضياء، شيئًا فشيئًا كان الليل يزول بألف خطوة وراءه، بألف فكرة في ارتباك جامح، كما الأرق من أعماق الليل حتى انبلاج الفجر. عما قريب سوف يمدُّ الفجر ضياءه البارد الموشى بالظلال على بقاع الأراضي البور المتجمدة، على المرتفعات الحجرية الناتئة من الثلوج، على ممرات الجياد الوعرة المكسوة بالجليد، وسوف يَطليها بالذَّهب. والآن، مرة أخرى طافت نظراته على الأرض التي سدّد ثمنها والتي اشتراها منذ زمن طويل، بينما حيّاها في الغبش قبل طلوع الشمس؛ قبل أسبوعين من أول أيام الصيف، بعد أسبوعين من الاعتدال الربيعي. كانت المستنقعات ما تزال مكسوّة بالجليد، لا أثر للذوبان على البحيرة، والمروج في الجنوب مغطاة بالأبيض؛ وقد سَمَقَ منها الجبل الأزرق في مظهرٍ صوفيّ ليس له أية صلة مع جوهر الأرض؛ أو

1- أسبوع الآلام أو الأسبوع المقدس: Holy Week (من 28 آذار وحتى 3 نيسان) هو الأسبوع بعد الصوم الكبير (55 يومًا) والذي يسبق عيد الفصح. يحتفل به المسيحيون بدخول يسوع القدس وسر التناول وصلب يسوع وموته ثم القيامة من الأموات.

مع روح الأرض. هناك انتصبت مزرعة الرجل الصغيرة، بالبناء الذي عليها، أسفل صدع الجبل، والثلج الموطوء في كل الأرجاء، وأثر مياه السيل محدّد بخيطين من الجليد في مجرى الماء بالأعلى. من حيث وقف كان بالإمكان رؤية حدّ السقف تحت غطاء الثلج بوضوح. وضع أحماله على التلة، واتكأ على ركام حجارةٍ وضِعَ علامةً لتحديد الطريق، وتأمّل أرضه، الأرض التي احتوت أُمّته الصغيرة؛ وتلك الزهرة التي ذكرها عن غير قصد خلال الشتاء إلى رجلٍ غريبٍ تمامًا! وقف هناك مثل جيشٍ زحفَ إلى بلادٍ أخرى كي يَشنّ حربًا مستميتة، وها هو يعود الآن بانتصار في روحه؛ ومؤنٍ من المدينة، والأهم من ذلك كله المال في المجمع التعاوني.

في هذا العالم تحدث أشياء لا تُصدّق بين الاحتفاليات الكبرى. ودومًا ما يكون تأثير هذه الأحداث على مُزارع الوادي مدمّرًا بنفس القدر، إذ إن مساعد الله هذا، الذي وهِبَ قدرًا ضئيلًا من النبوءة، نَسيَ أن يفترض أن الأرض يمكن أن تستدير تمامًا وتنقلب رأسًا على عقب على سطح البحر دون سابق إنذار ودون طلب الإذن منه، في أي وقت من عيد الميلاد وحتى عيد الفصح. لم يكن أحد مثل بيارتور صاحب البيت الصيفيّ في إخلاصه لتاجره. قلة من هم أقلّ استعدادًا لحسد الأنوار المتلألئة من منزل يعلوه برج. ألم يكن هو القائل على الدوام إنه لا فرق عندي إن كان يعيش في برجٍ امتصّ من عظام الفقراء طالما أنه يعاملني بإنصاف، ذلك النذل العجوز؟ كان هذا معتقده فلا المنطق ولا التهديدات ولا الوعود يمكن لها أن تبدله مثقال ذرّة. ثمّ ماذا؟ على الرغم من قوة إيمان جودبيارتور جونسون، انتهى الأمر إلى أن التاجر لم يعد موجودًا. انتهى، تلاشى مثل الدخان، الدكان خاوٍ، دفاتر الحسابات ضاعت، البيت البرجي بِيعَ لمصلحة الدائنين. بتلك الطريقة، في يوم من الأيام، نُسِفت الأسس التي بنى عليها المُزارع حياته، عمالقة التجارة المقتدرون الذين وقفوا بقدمٍ في آيسلندا والثانية في القارة بأكملها، رآهم ذات يوم يُمسَحون كالبصاق. الرصيد الدائن الخاص ببيارتور صاحب البيت الصيفيّ فُقِد، ولم يتبقَ من يجيبه عنه. هكذا كانت الأوضاع السائدة في ذلك الشتاء، عندما جاء بيارتور إلى فِيورد بحثًا عن عمل؛ كان مدير بروني قد رحلَ بعد إعلان إفلاسه، وفي جيبه أموال الرجل. بعد نكبته في الأغنام

والخسائر التي تسببت بها الأشباح، وقفَ مفلسًا على ناصية الطريق كالأبله. من المؤكد أن الرب والبشر لا يمكنهم فعل أكثر مما فعلوه في سبيل سلب ممتلكات هذا الفرد المستقل؛ ومما زاد الطين بلة أنه لا يوجد أحد يمكنه أن يضربه، ولا أحد ليلعب معه دور الشيطان، أو على الأقل لا يوجد من سيأخذ الأمر على محمل الجد إذا أخبره بصراحة عن رأيه به، وكيف يفكر فيه.

ومع ذلك، ذهب إلى مأمور الشرطة، وقال له مزمجرًا: «أين هي عدالتك الرائعة بحق الشيطان؟ إن كانت ستدع بعض الأشخاص يسلّون أنفسهم بِسلب الروح من رجل بينما لديه شؤون أخرى يفكر فيها، أو لربما يبذل كل ما في وسعه لمحاربة شبح؟ ولأي شيء السلطات وجدت إن لم تتمكن من العثور على أموالي وإعادتها لي؟ خَشيتَ القدوم في عيد الميلاد بسبب رذاذ خفيف، وبسببك أنت خسرتُ ابني الكبير؛ ذُعِرَ وضَلّ في العاصفة، بينما كنتَ منهمكًا بتدفئة مؤخرتك في البيت هنا. حتى الوكيل أتى، على الرغم مما هو عليه من خِسّة، والدور دورك الآن لكي تُظهِر شيئًا من الشجاعة، اللعنة عليك، وتحصّل لي أموالي بموجب القانون!»

إلا أن مأمور الشرطة دافع عن تولينوس جينسن: «لقد فشل المشروع يا رجل، لا يوجد أدنى فرصة لأي شخص برؤية بنس واحد، على الأقل لمدة سنوات وسنوات قادمة. ما بيدي حيلة على الإطلاق، وليس بوسعي فعل أي شيء. ولقد عيّن الملك شخصًا للتحقيق في القضية برمّتها. يستحيل فعل أي شيء عندما تعلن شركة إفلاسها. عليك أن تحاول فهم الظروف مجتمعة: لمدة سنوات يخسر بروني المال، وفي نهاية المطاف سرقت الجمعية التعاونية جميع عملائه منه. ها قد عرفت القصة كلها باختصار. كان لدى الرجال أمثالك فرص كثيرة لتصفية الحساب في الوقت المناسب، لذا لا تلوموا سوى أنفسكم إن تمسكتم به حتى آلت القضية بأكملها إلى الخراب، بدلًا من الالتحاق بالجمعية التعاونية في الوقت المناسب».

قال بيارتور: «في الوقت المناسب؟ المزعجُ هو ألا يملك المرء العقل لِسلخِ حناجر هؤلاء الأنذال في الوقت المناسب».

ردّ عليه المأمور: «لا تلوموا إلا أنفسكم».

«نعم، وفي الحقيقة نحن في غاية الطيبة لأننا لا نخنق كل أولئك اللصوص الحقراء هؤلاء عند الولادة».

«من تقصد باللصوص الحقراء؟»

«من؟ هو والذين أنت حريص على التمسّك بهم. ولا يعني هذا أني أعتبرك أحسن منهم كثيرًا، فأنتم عُصبة من الموظفين معسولي اللسان الأوغاد؛ تتشبّثون بأذيالهم في السراء والضراء، لكن لا تجرؤون على تحريك قَدمٍ في المرتفعات أثناء المطر الخفيف، وإن كانت حياة إنسان على المحكّ».

«اسمعني يا بيارتور، هلّا جلست حتى نتمكن من مناقشة الأمور بهدوء وعقلانية؟»

«سأجلس متى ناسبني ذلك».

«إذن، هل لي أن أقدم لك قرصة من السعوط؟»

«أنت حرٌّ في ما تقدم، وأنا حرٌّ في ما أقبل».

وعِندَ الطبيب فينسن:

«لطالما عُرِفَ تولينوس جينسن بأمانته ونزاهته يا بيارتور. أنا أعرفه جيّدًا بنفسي. وهو لم يخادع أحدًا على حد علمي. هو من نُصِبَ عليه، وليس هو الذي نصب. بدأت مشاكله عندما بدأ المزارعون يُعطون آذانهم لديماغوجية رؤساء الجمعيات التعاونية وتشدقاتهم. أنت تعلم، لا أحد يمكنه تحصين نفسه ضد هذا النوع من الأشياء. المزارعون هم من خدعوا بروني».

وألحّ بيارتور: «نعم، وأريد نقودي رغم ذلك. كنتَ العضو الممثل لبروني في البرلمان، وكنت أنت من أصوت لك دائمًا منذ امتلكت الحقّ للتصويت أول مرة، ولم برأيك كنتُ أصوّت لك؟ هل تعتقد أني فعلت ذلك من أجل عينيك، اللعنة عليك؟ إن لم أسترجع نقودي فالشيطان هو من سيصوّت لك. وإن كنتَ بصفتك عضوًا في البرلمان يفترض بك الوقوف جانبًا وإخباري أنه من القانوني أن يُسلَب المرء ممتلكاته، فأنا ضد الحكومة. أنا ضد الحكومة».

«اسمع يا صديقي بيارتور، أنا رجل عجوز الآن، وقد حان الوقت للتقاعد

فيما يتعلق بالسياسة. ولكن لأننا كنا دومًا صديقين مقربين، ومن المؤيدين المخلصين لنفس الحزب، هل لي أن أعرض عليك كأسًا من براندي الذُّرة الأصلي؟»

«لا يمكنك أن تعرض علي أي شيء سوى ممتلكاتي الخاصة».

«هذه أوقات صعبة يا عزيزي بيارتور. جميع البلدان في الخارج تقاسي أزمة حادة. خسائرنا في آيسلندا لا شيء بالمقارنة مع خسائرهم في أميركا».

«يستغرق الأمر عادة وقتًا طويلًا لمعرفة بعض الأشخاص، لكني أرى أنك واحد آخر من نفس صنف السلطات اللعين، طُفيليّ على السرّاق واللصوص».

«آه، أعتقد أنني بذلت ما في وسعي دومًا من أجل الناس يا بيارتور، بصفتي عضوًا في البرلمان وموظفًا طبيًّا. وفواتيري، كما يمكنك التذكر، لم تكن صعبة أبدًا على أنصاري. سنة بعد سنة خسرت المئات والمئات على الأدوية التي كنتُ أعطيها للناس. وعلى ما يبدو لا أحد منهم وخزهُ ضميره رغم أنهم نسوا أن يدفعوا لي. بيد أني لم أشتكِ قطّ».

«إن لم تخنّي ذاكرتي، دفع لك «بروني» من رصيدي مقابل السّم الذي كنتَ تعدّه لزوجتيّ. وكلتاهما وافاهما الأجل دون مراسم عزاء حتى. لن أندهش إن كنتَ قد قتلتهما كلتيهما!»

«أوه، على رسلك، يا بيارتور! هذا ليس قولًا لطيفًا تقوله لأحد. ربما سيكون حظك جيّدًا مع هؤلاء الأشخاص الجدد، أولاء أصحاب الجمعية التعاونية المنهمكين الآن في تنظيف كل شيء يظهر في طريقهم».

«إن عصابة روثسميري لا يمكن أن تكون أسوأ منكم يا جماعة بروني. لقد اعتقدتُ هذا مرة من المرات، لكنني لا أعتقد ذلك الآن».

تحدّثوا معه كما لو كان طفلًا عنيدًا، ومن جديد وقفَ في الشارع مثل الأبله. لم يتبقَ الآن سوى جماعة روثسميري. أوصِدَ كل ملاذٍ وملجأ ما عدا حضن إنغولفور أرنارسون العطوف.

حتى ذلك الحين، كان هذا الرجل يسعى إلى التعبير عن قناعاته بتثبيت أجنحة على كتفي تولينوس جينسن، وطلاء إنغولفور أرنارسون بالأسود.

لثلاثين عامًا وهو يفني نفسه من أجل آل روثسميري، أوّلًا بوصفهِ عاملًا، ثمّ بِصفته مُشتريًا للأرض، وقد أبصرَ حرّيته في التغيير المتضمن عدم إنهاك نفسه إلى الأبد من أجل نفس السارق. ثمّ ذهب بروني واختفى ومعه نقوده، تاركًا إيّاه متخبّطًا في الجَهالة والشّك. في النهاية لا فرق بين اللصوص؛ سواء أكانوا يعيشون في الساحل أم في الريف، جميعهم من تلطيخِ فرشاةٍ واحدة. لكن نقطة وحيدة تُحتَسب لجماعة روثسميري؛ وهي أنهم لم يفروا إلى أماكن قصية ونقوده في جيوبهم. وعلى أية حال حرية بني البشر واستقلاليتهم لم تُبنيا على تولينوس جينسن. ولا يمكن أن يكون إنغولفور أرنارسون أسوأ من بروني. وبالطبع، لم يكن منَ الممكن الإنكار، أنها ستكون ضربة قاصمة للنفس أن يلجأ المرء في النهاية إلى المجمع التعاوني، بعد خيبة الأمل في الحرية التي بُنيت على تولينوس جينسن. أم أنه سوف يكتشف، بعد كل ما قيل وفُعِل، أن الحرية معتمدة في الواقع على جماعة روثسميري؛ الحرية الحقيقية التي تجعل من العامل المنفرد في واديه رجلًا مستقلًّا؟

«آه، الرجل المستقل، وأخيرًا أتيتَ وبحثتَ عنا هنا في الجمعية».

قال بيارتور معتذرًا: «لم يكن ذلك من باب الكياسة».

«لا يا صديقي، أعرف هذا. لم تأخذ بنصيحتي، وأصررتَ على البقاء مع بروني إلى أن كانت النهاية الأليمة، وأعتقد أنه يتعين عليك الآن دفع الغرامة. ولكن ماذا في ذلك؛ على الأقل أنا لا أضمر لك نيّة سيئة. كيف حالكم جميعًا في البيت الصيفيّ ؟»

«كيف حالنا؟ أنا لا أجيب على هذا النوع من الأسئلة. لا أرى أن مصلحتنا تهمّ أحدًا. خسرت كثيرًا من الأغنام، لكن هذا بالطبع هو فقط ما تعيّن على البلد بأسره الصراع معه منذ أن استوطن في بداية الأمر. أنتم آل روثسميري فقدتم الخراف أيضًا، في كل ربيع تفقدون الخراف. خرافي صمدت على نحو أفضل من خرافكم في الشتاء المنقضي».

«نعم، لكنني كنت أشير في الحقيقة إلى الأحداث الغامضة التي وقعت على أرضك منذ عهدٍ قريب، وفقدتَ صبيًّا»...

«نعم، فقدتُ ولدي».

«أحدهم كان يقول إن كولمكيلي أنشبَ مخالبه من جديد».
«كولمكيلي؟ أوه، بالطبع، أليس له علاقة بالدين الفارسي؟»
«حسنًا، انس الأمر. كيف يمكننا مساعدتك؟»

أجاب بيارتور: «لا شيء، لقد سُرِقت. أريد عملًا. أنا لا أطلب من أي شخص أن يفعل أي شيء من أجلي. لكنني مستعد للعمل لدى الآخرين، مقابل أجرة».

«نعم يا بيارتور، يا صاحبي القديم، كل شيء أخبرتك به السنة الماضية تحقق. ولكن لا حيلة لي إن كنت لا تصدقني. في البلد حزبان، أولئك الذين يسعون إلى نهب المزارعين، وأولئك الذين يهدفون إلى إنماء رفاهيتهم الاقتصادية، والارتقاء بهم إلى مرتبة الشرف والاحترام. لقد آمنتَ بمن سبقنا، وأين نقف نحن الآن؟ نحن الذين نرغب في حكم البلاد من أجل مصلحة الشعب، وحدنا الباقون».

«أجل، تابع يا عزيزي إنغي، تابع. لكن أنا لا أؤمن بشيء، وبالكلام قبل أي شيء آخر. من أجل ذلك لم أسألك هِبةً ولا أُعطيات. وأنا لا أشتكي من أي شيء أيضًا. ربما كان علي البقاء حيث كنت مع كل ما تبقى من خرافي، وسيزعمُ زاعمٌ بأنّ لا شيء ينقصني حقًا؛ مرّ عامان فقط مذ بنيتُ مساكن جديدة لماشيتي. وإن كنت تظنُّ أن ما أبتغيه هو منزل يعلوه برج، يمكنني أن أخبرك الآن بأنك مخطئ، يا إنغي، لأنني ما حسدتُ قط الذين يسكنون في منازل برجيّة»، واستطردَ بالقول: «ولكن عندما يكون لدى الرجل زهرة في حياته»...

ثم بدا كأنه شعر بأنه أسهبَ في الكلام، فلم يُكمل جُملته.

***

54. أيام الربيع

سُرعان ما انجلى الثلجُ عن الأراضي المنخفضة، وكان ذلك من مصلحة النعاج التي بدأت تتغذى على الأعشاب في المستنقعات. في أوقات وجبات الطعام، عندما يؤوب الأب وولداه من العمل، يكون طعامهم

جاهزًا وموضوعًا على المائدة. ولكن أين هي آستا سوليليا؟ عند النهر تغسل الجوارب أو ما شابه ذلك، أو تُعنى بالغسيل المنشور على الحبل في الخارج، أو تعجن الخبز في المدخل بالأسفل؛ قلّما كانت تُرى في الطابق العلوي عندما يكون أي شخص فيه، وفي الليل تأوي إلى فراشها بعد أن ينام الجميع، وهي إن كانت تغتسل كل هذه الأيام فلم يكن يراها أحد تفعل ذلك. وحالما تمسي في السرير كانت ترفع الأغطية إلى ما فوق رأسها وترقد ساكنة بلا حراك مثل الفأرة. وفجأة اعتادت خفض رأسها، كما لو أنها تريد إخفاء وجهها. رموش طويلة تغطي مقلتين لا تنظران إلى أحد على وجه التحديد. إذا خاطبها أبوها ترد عليه بجملة مقتضبة، ثم تنسلّ بعيدًا بأسرع ما يمكن. كان قد اعتاد منها أن تنظر إليه بعينين ملؤهما التساؤل، بعينين واسعتين بريئتين، ويردُّ عليها بالصمت؛ والآن انقلبت الآية، صارَ هو ينظرُ إليها بعينين متسائلتين، فتلوذُ هي بالصمت.

ربما لم يكن الأمر مستجدًّا على الرغم من أنه لا أحد في الكوخ كان يعلم بما يفكر الآخر، ومن المحتمل أن يكون هذا الوضع في مصلحة الجميع. وقد يميل المرء للاعتقاد أن أرواح الجميع في الكوخ مصبوبة في قالب واحد، لكن هذا بعيد عن الحقيقة، لأن ما من مكان يضمُّ أرواحًا متنوعة في طبيعتها كمثل هذا الكوخ الصغير. الشقيقان مثلًا، متى فهمَ أحدهما الآخر؟ غُڤيندور الذي طمح إلى تحقيق إنجاز واقعي في مكان محدد، ونوني الذي تاقَ إلى تحقيق الأحلام في مكان بعيد غير محدد. سطوع الشمس وذوبان الثلوج، الجليد يذوب في المجرى، والشّلال يفيض؛ حدّقَ الصبي الصغير في الربيع مسحورًا، هبَّ نسيمٌ من جهة الجنوب، وطيّرَ الشلال إلى الجبل في الخلف، فقال له الصبي الأكبر أن أكمِل عملك وكفاكَ تحديقًا في الفراغ! كانا في الفناء منهمكين في تسميد الأرض. هذا الشلال في الوادي ورياحه الجنوبية، يمكن لروحٍ بشرية كاملة أن تجد رمزها في خاصية صغيرة في الطبيعة، وأن تتشكل بها، كان قد ناقش أمه بهذا الأمر وتفهّمته وأخبرتهُ حلمًا. والآن ليس هناك من يفهمه، لكنه يعيش على هذا الحلم، وعلى أمنياتها. كان يمشي وحده كلّما تَسنّى له ذلك. في قلبه حزنٌ غنائيّ مقيم، واشتياق غريب مدموغ بالأسى؛ عندما كان يرعى الأغنام كان يغني أجزاء من أغنيات لم يسمعها من

قبل. نعم كانت في صدرهِ آلة رائعة، وعلى الرغم من أنه لم يستطع العزف عليها بنفسه، فإنه لعبَ بأوتارها واستمع إلى هذه النغمة أو تلك في بواكير الربيع، غالبًا والدموع في عينيه، وكانت عيناه عميقتين وحزينتين وصافيتين كما الغدير، ومثل الفضة الراسية عميقًا عميقًا في قاع الغدير، فضّة في الغدير.

ورغم الجوّ المعتدل، لم يكن على التلال سوى قليل من اللون الأخضر حتى الآن، وبما أنه لا يمكن استبعاد هبوب عواصف مفاجئة، لم يكن لدى المزارع رغبة كبيرة بالسماح لأغنامه في التجوال بعيدًا في المروج المرتفعة. فتّش عيون الماء في المروج الشاسعة جنوبًا وشرقًا مرات عديدة، وطارد كل الأغنام التي تمكن من إيجادها إلى الأراضي المنخفضة. كلما كان الصمتُ في البيت خانقًا أكثر استطابَ نضارة الربيع وكثافته السّاحرة، وشذا ذوبان الثلوج التي قد ذابت منها، والفضاء المضاء بنور الشمس ووعد الأبدية؛ فالمروج تقفُ في رابطة لا انفصام لها مع الأبدية. شيئًا فشيئًا تراجع الثلج أمام الشمس، وسريعًا عبقَ في الأثير أريج الخَلنج والعشب الذاوي وبواكير نِصال العشب المنبثقة من أكوام الثلج على المنحدرات. تنقّلت النعاج ما بين التجاويف والوهاد، وراحت تقضم كلّ ما تجده فوق الثلج. ولكن من حيث لا يُتوقع منها، كانت تفرّ هاربةً وتنطلق باتجاه الأخدود أو التجويف، وتعدو مسرعة في الريح بأقصى استطاعتها، في فضاء لا محدود، في الأبدية؛ فالخراف تحبُّ الأبدية أيضًا وتؤمن بها.

لعدّة أيام شوهدَ غرابٌ يرفرفُ فوقَ مجرى الماء. فمشى على طول القاع ليرى إن كانت هناك فريسة يترصدها الطائر. كان النهر فيّاضًا، لكن ليس عاليًا كما السابق. فجأة وقفت الكلبة وراحت تنبحُ فوقَ شيءٍ جرفهُ النهر إلى الحصى. حامَ الغرابُ ناعبًا فوق مسيل الماء. كان آخر شيء توقعه بيارتور هو العثور على أي شيء ميت هنا، إذ إنه لم يفقد خرافًا في ذلك الربيع، وعلى أية حال، ولحسن حظه، لم يكن ذلك جيفة، بل جثمانًا. كانت جثة صبيّ نحيل. كانت قد سقطت فوق الصخور في وقت من أوقات الشتاء، وظلت ممدّدة في الركام الثلجي إلى أن ذابت الثلوج، وحملها النهر أثناء الفيضان، ثمّ ألقى بها على الحصى هنا عندما انخفض منسوب المياه. لا، لم تكن تشبه أي كائن بشري. كانت عظمة الأنف مجرّدة، والفمُ يبتسمُ نحو السماء بلا شفتين،

وكانت العينان مقلوعتين؛ والخرق الملتصقة بالبدن منتنة للغاية لدرجة أن العفونة اخترقت العظام؛ ومن ثمّ بالطبع كانت الطيور الجارحة منهمكة بها، من أجل كل تلك الأسباب مجتمعة كان المشهد مروّعًا شنيعًا. جَسَّ الرجل الجثة مرة أو مرتين بعصاه، وأمر الكلبة بالسكوت، وغمغم: «يحصدُ المرء كما زرع». تناول قرصة وافرة من السعوط. واستأنفت الكلبة النباح.

قال: «من الأفضل أن تكفي عن هذا الهذر. أنت لا تفهمين مثل هذه الأمور. بعض الناس يريدون إلقاء اللوم على كولمكيلي، لكن على الأرجح أن كل واحد منّا يحمل مصيره في جوفه».

ومع ذلك، وجد صعوبة في إعفاء كولمكيلي من تدخله في مصير الإنسان، فعلى الرغم من أنه كان متأكدًا تمامًا من أن قصة كولمكيلي غير صحيحة، أو حتى أنها محض كذبة، كانت أوقاتٌ بدت فيها هذه القصة ذاتها متضمنة للحقيقة أكثر من أي حقيقة أخرى. يوجد في البراري شيطان أو ما شابهه يأكل البشر. آه، حسنًا، كان عليه فعل شيء من أجل الجثّة، بما أنه وجدها، وهذا بأسرع ما يمكن، لأن النعاج ولّت هاربة وصارت خارج الأخدود الآن. كان مرتديًا قفازين سميكين متينين، وكانا جديدين تقريبًا، خلع القفاز من يده اليمنى ورماه إلى الجثمان، لأنه يعتبر من الفظاظة أن يترك المرء جثمانًا وَجده دون أن يقدم له بعض الخدمات الصغيرة أوّلًا. بعد بضع لحظات كان يقف على حافة الأخدود؛ وكان ما توقع؛ كانت النعاج في قطيع واحد. وظهرت الخراف المتقدّمة عند خط الأفق وهي تتسابق عبر قمة طيّة بعيدة في المروج، كانت متجهة نحو الجبال الزرق. وركض في إثرها، مغتبطًا لامتلاكه مثل هذه الخراف، التي تتوق مثل الزاهدين إلى العزلة في البراري اللامتناهية في وقتٍ مبكر من الربيع.

ذلك المساء، قال لها وهو يرمي إليها القفاز: «هالبيرا، حيكي لي قفّازًا مماثلًا لهذا المُفرَد».

فسألته المرأة العجوز، إذ إنها لم تعهد المزارع قد أضاع قفّازًا من قبل: «أهلًا، أين القفاز الآخر؟»

«أوه، لن نصدع رؤوسنا بهذا الأمر أيتها العجوز».

«لا»، قالت له، وقد أمالت رأسها المرتعش بعيدًا عنه، على جري عادتها عندما تنظر إلى أي أحد؛ ولم يكن من داع لطرح مزيد من الأسئلة، لا حاجة للسؤال.

***

55. الأخت الكبرى

ثم أتت عواصف كبيرة محملة بالأمطار وبدت كأنها تملأ العالم بأسره، وتدفقت مئات من الينابيع الموسمية على جنبات الجبل، جارفةً معها ثلوج الشتاء إلى البحر. عندما شوهدت الشمس بعد ذلك، لم يكن في الوادي ثلج، كانت التلال خضراء، والحقل مفروشًا بأزهار الحوذان، والنسائم غضّة عليلة. ارتفع منسوب الماء في الجدول بالقرب من المنزل وَفاض، ثمّ جَزَرَ دون أن يلاحظه الصبي الأصغر. مرّ عامٌ واحد فقط، وما عاد يقف بالقرب من جدول المنزل. كان يقفُ عند تخوم الحقل والمجرفة في يده، يبسط السّماد على التربة متشتّتًا، مثل المعتوه، هو الذي وعده الجان بأراضٍ أفضل في الحلم. الأراضي التي قرّبتها إليه كُتبُ الشتاء قد ابتعدت مع الربيع، وتلاشت عبر الآفاق فصارت أبعد من ذي قبل. كان عليه فقط أن ينظر إلى آستا سوليليا لكي يدرك كم كان من المتعذر الوصول إلى تلك البلاد التي انعكست صورتها على صفحة السماء ذات مرة بسبب بياض الشتاء والتي لا أرض لها. ومع ذلك تأبى النفس التخلّي عن النضال. فالربيع، بطيوره من خلف الجبال الزرق، بنسائمه، وسمائه؛ الربيع يناديه ويناديه. في كل مرة يخرجُ فيها من الباب الواطئ، ويضع قدمه على الأرض المرصوفة يناديه. ويستمر في النداء. وهو يُصغي. وينهضُ في صدره الشوقُ الأسوَان، والتعاطف الحزين مع الحياة. كان قد أنصتَ إلى صمتها طوال الربيع، وحتى منذ غادر المعلم في عيد الفصح. ولكن لم يكن يعلم أنها تبكي إلا ذات يوم. كان يوم أحد. من حيث كان يقف في فناء المنزل رآها مستلقية في حفرة خضراء. فذهب إليها. لم تتحرك، لأنها لم تسمع صوت اقترابه. وعندما وافاها رأى كتفيها ترتجفان. كانت تبكي، ووجهها مدفون

في العشب. كان يعي تمامًا أنه على الرغم من كونها أختهما الكبرى فإنها كائن أقل شأنًا منه ومن أخيه، وشعر على الفور بالشفقة عليها. هو نفسه نادرًا ما كان يبكي تلك الآونة، بالكاد كان يبكي منذ الصيف الماضي، عما قريب سيغدو صبيًّا كبيرًا. في آخر الأمر نطق اسمها. ذُعِرت، ثم نهضت ومسحت دموعها بحاشية ثوبها. إلا أن النتيجة الوحيدة كانت أن فاضت دموعها مِدرارًا.

سألها: «لماذا تبكين؟»

أجابت مع نشقة: «لا شيء».

قال: «هل أضعتِ شيئًا؟»

قالت: «نعم».

«ما هو؟»

«لا شيء».

قال: «يجب ألا تبكي».

أجابت: «أنا لا أبكي»، وواصلت البكاء.

«هل أساء أبي معاملتك؟»

«نعم».

«ماذا قال لكِ؟»

«لا شيء».

«هل ضربكِ؟»

«نعم، مرة واحدة. كان ذلك منذ زمن طويل. لكن مضى وقت طويل. لا يهم. لقد نسيت كل شيء عنها. لا، لم يضربني مطلقًا».

سألها: «هل هو شيء ترغبينه بشدة؟»

فأجابت بجشع تقريبًا، وهي لاهثة، تلتقط أنفاسها: «نعم، ثم أوغلت في بكاءٍ عريض».

سألَ: «ماذا؟»

«لا أعرف!» وَبَكت في يأس.

«لا داعي للخوف من إخباري يا سولّا العزيزة. لربما تمكنت من إحضاره لك عندما أكبر».

«لن تفهم. أنت صغير جدًّا. لا أحد يفهم. أنا لا أفهم ذلك بنفسي؛ ليلًا ونهارًا».

«هل هو بسبب الطريقة التي خُلقتِ بها؟»، سألها هذا السؤال مليئًا بالتعاطف والوعي بأن المحاورة بدأت تدنو من أسرار جسم الإنسان الأكثر حميمية، التي من المعتاد عدم ذكرها أبدًا، من المحتمل أنه أخطأ، بيد أن الكلمات انزلقت من لسانه قبل أن يدرك ذلك.

بعد قليل من التفكير تنهدت وقالت بتعاسة: «نعم».

همسَ حينئذ وربتَ على خدها، مُصمّمًا على مواساتها: «لا يهم يا عزيزتي سولّا. لا أحد بحاجة لمعرفة ذلك. لن أخبر أحدًا. وسوف أطلب من غُڤيندور ألا يُخبر أحدًا بالأمر».

«أنت تعرف إذن؟»، سألته وأبعدت القماش عن عينيها وحدقت في عينيه مباشرة. «أنت تعرف؟»

«كلا يا عزيزتي سولّا، أنا لا أعرف شيئًا. ولم أعِر الأمر اهتمامًا؛ إنه لا يهم. وعلى أية حال لا أحد له حيلة به. وعندما أصير رجلًا كبيرًا، من المحتمل أن أبني بيتًا في بلدٍ آخر، وحينها يمكنك القدوم والعيش معي، ويمكنك أكل البطاطس».

«بطاطس؟ ما حاجتي إلى البطاطس؟»

قال لها مفسّرًا: «كما هو مذكور في قصص الكتاب المقدس».

«لا يوجد أية بطاطس في قصص الكتاب المقدس».

قال: «أعني الشيء الذي أكلته المرأة في قصص الإنجيل».

قالت وهي تحملقُ في الفراغ بمقلتين متورّمتين من الدمع: «لا أريد أي شيء في قصص الإنجيل. الله عدوّ الروح».

ثم سألها بغتة: «ماذا تمنيت في الشتاء يا سولا، حينما منحنا المعلم جميعًا أمنية؟»

أولّا تفرست به بتمعن، وقد ظهر الحَوَل في عينها أكثر وضوحًا من أي

وقت مضى بسبب بكائها؛ ثم أرخت جفنيها وراحت تقتلعُ الحشائش من المرج. ثم قالت: «يجب ألا تخبر أحدًا».

«لا، لن أخبر أحدًا، ماذا كانت الأمنية حينذاك؟»

«كانت الحُبّ!»، ثمّ انفجرت بالبكاء من جديد، وراحت المرة تلو المرة تقول من خِضّم انتحابها: «الحُبّ، الحُبّ، الحُبّ!»

فسألها: «ماذا تقصدين؟»

ألقت بنفسها على الأرض من جديد في كومة، وكانت كتفاها ترتعشان من فرط البكاء مثلما كانت تفعل عندما أتى إليها قبل بضع دقائق، ثم قالت نائحةً: «أتمنى أن أموت. أموت. أموت».

لم يعرف ماذا يقول في وجه حزنٍ كهذا. جلس صامتًا بجانب أخته في خُضرة الربيع الحديثة العهد؛ وبدأت الأوتار المخفية في صدره تهتزُّ وتُحدِث صوتًا.

كانت تلك المرة الأولى التي يَطّلع فيها على متاهة النفس البشرية. كان أبعد ما يكون عن فهم ما رآه. ولكن ما كان له قيمة أكبر هو أنه شعر بأخته وشاطرها المعاناة. في سنوات لم تكن قد أتت بَعد أحيا هذه الذكرى في أُغنية. إنّ معرفة عجز الروح والصراع ما بين قطبين ليسا مصدر إلهام أجمل أغنية في العالم. إن مصدر إلهام الأغنية الأعظم هو التعاطف. التعاطف مع آستا سوليليا على الأرض.

***

56. الصبيّ والبلدان

إن الشيء الجدير بالملاحظة بأحلام الإنسان هو أنها جميعها تتحقق؛ هذا هو الحال دومًا، وإن كان لا أحد يهتم بالاعتراف بذلك. ومن سمات سلوك الإنسان أنه لا يتفاجأ على الأقل عندما تغدو أحلامه حقيقة، كما لو أنه لم يتوقع شيئًا آخر. إن الهدف المنشود والإصرار على الوصول إليه هما شقيقان، وكلاهما يغفوان في القلب ذاته.

حدث ذلك في اليوم السابق لعيد الصعود[1]. في هذا الوقت من السنة كثير من الناس يسلكون طريقهم عبر الوادي، وإن كانت قلّة منهم تغادر الطريق العام وتطرق دربَ المزرعة الصغيرة. ولكن في هذا اليوم، غادرَ رجل الطريق العام وزارَ المزرعة الصغيرة. وما كان شخصًا مميّزًا بأي حال من الأحوال. ولم يكن في مظهره سِمة منفردة على الإطلاق، وربما لا لزوم للوظيفة التي يؤديها في الحياة إطلاقًا؛ على الأقل لم يكن من شيء يمكن للمرء أن يُشير إليه على نحو قاطع ويقول: «هذه هي وظيفته»، اللهم إلا تسليمه لتلك الرسالة الوحيدة. في سنوات لاحقة، عندما حاول جودبيارتور جونسون استحضاره إلى الذاكرة، كان دومًا يرفض إظهار شكله. بعبارة أخرى، كان مثل مئات الأشياء العادية التي لا يلاحظها المرء لأنها عادية جدًّا. ببساطة سلّم بيارتور صاحب البيت الصيفيّ هذه الرسالة الصغيرة الوحيدة، قال وداعًا، ومضى.

حسنًا، كان أمرًا نادرًا وفريدًا من نوعه تقريبًا أن يتلقّى بيارتور صاحب البيت الصيفيّ رسالة؛ باستثناء فواتير الضرائب، فالناس المستقلون لا يتلقون الرسائل؛ مثل هذه الأشياء هي لمن يعتمدون على الآخرين بدلًا من الاعتماد على أنفسهم. قرأ العنوان جهرًا مرّتين، وقلّب الرسالة في مختلف الاتجاهات، ودقق فيها على الوجهين. اقترب الصَّبيان من أبيهما خلسة عندما فتح الرسالة. أمسكها على مسافة قصيرة منه، قليلًا على جانب واحد، عقد حاجبيه، وأمالَ رأسه إلى الوراء. ثمّ قرأها مرة أخرى. ثمّ حكّ رأسه بحذرٍ وصار من الصعب أكثر التكهن بمضمون الرسالة. وأخيرًا قرأها للمرة الثالثة، ودسّها في جيبه، ومضى في حال سبيله. لا أحد عرف الأخبار التي تحتويها.

أمسية منيرة مع غيوم ريشية فوقَ المستنقعات الخضراء. وطيور الحياة الشادية من فرط سعادتها ضجّت بأغنية بُعيدَ المغيب، بلى، كيفَ كان الربيع ينبجسُ من كل شيء ويغمرُ أكثر فأكثر كل نهارٍ وكل مساء! ومن جديد كان بيارتور متوجهًا إلى الوادي ليبحث عن شاة كانت على وشك الولادة اليوم، ومع أنه قد حان وقت النوم فإنه نادى على ابنه الأصغر.

1- عيد الصعود: أو خميس الصعود أو السلاق، عيد مسيحي يحتفل فيه بذكرى صعود يسوع إلى السماء بعد أربعين يومًا من عيد القيامة.

غُڤيندور: «سوف آتي معك يا أبي لكي يتمكن نوني الصغير من الذهاب إلى النوم».

الأب: «قلتُ إن جون الصغير هو من سيأتي معي. اذهب أنت إلى النوم. وسوف أتذكر أن أوقظك في وقتٍ أبكر في الصباح».

انطلق الأب نحو المستنقعات بخطىً واسعة، ونطَّ الصبي من خلفه، وثبَ من كتلة عشب إلى كتلة أخرى. وصلا إلى الأراضي المنبسطة على امتداد النهر، حيث نمت زهرة البيقية البنفسجية النحيلة وطالت على نحو ملحوظ، وشَقّتْ «عشبة الزبدة» طريقها إلى الأعلى بأجراسها الزرق، وكانت هناك زهرات الماء أيضًا. وكان البطّ المستريح بسلام على برك النهر الرمادية الساكنة قد انتهى من بناء أعشاشه. كما تَبِعَ طير الطيطوي الثرثار المزارع، وأخذ يثرثر بمرحٍ قصّته المدهشة والطويلة؛ على الرغم من أنه عندما يستمع المرء إلى قصته يشعر أحيانًا أن موضوعها محدود للغاية بالقياس إلى قصة مطولة! فقط: هِي، هِي، هِي، منذ ألف عام! ولكن في يوم من الأيام، وربما في قارة بعيدة، سوف تعود هذه القصة إلى ذهن الواحد ويكتشف أنها أكثر جمالًا وسحرًا من معظم القصص الأخرى، وربما القصة الأكثر إمتاعًا في العالم كلّه؛ ويودُّ المرء لو يسمعها بعد مماته أيضًا، بحيث يتجول حول المستنقعات في ليلة، الليلة التي تسبق عيد الصعود بعد موته، ويصغي إلى هذه القصة المذهلة؛ نعم هذه القصة وليس سواها. عثرا على النعجة في السهول وكانت قد وضعت وليدها. عظيم! أمسك بيارتور الحمل ووضع له علامة. اقتربت النعجة، فأمسكها وتحسس ضرعها ليرى إن أدرّت الحليب، وكانت تدرّ الحليب. غدًا هو يوم الصعود وستذهب سولّا الصغيرة إلى الريف، وتذهب إلى الكاهن لمدة أسبوع، وسوف يجري تثبيتها في الكنيسة يوم عيد العنصرة[1]. «من المحتمل أن تهطل الأمطار عند شروق الشمس، سيكون ذلك نافعًا للعشب كثيرًا»؛ قال الأب بينما قعدَ على كومة من الخلنج بجوار النهر، وأمعن النظر في جريانه السلس وهو يمر من أمامه، ثم رنا إلى

1- عيد العنصرة أو عيد الخمسين: عيد مسيحي يُحتفل به بعد عيد القيامة بخمسين يومًا، وفي اليوم العاشر من عيد الصعود. ويقصد به حلول الروح القدس على تلاميذ المسيح بعد صعود يسوع بعشرة أيام بحسب رواية سفر أعمال الرسل.

بطتين على الضفة المقابلة؛ وإلى طائري فلروب[1] يعومان جيئة وذهابًا، مع انحناءات متراقصة. الصبي قعد أيضًا وحدق في الطيور، كان كل شيء هادئًا وديعًا، متواضعًا بسيطًا، كان الأمر كما لو أن المستنقعات أرادت التكفير عن كل شيء. هذا الوادي بمروجه البراح استطاع تغيير وجهه وإظهار نفسه في أي هيئة كانت. وبذلك كانت المروج تودع عزيزها الذي كان أعظم من جميع الآيسلنديين الآخرين، كانت تودّعه للمرة الأخيرة.

قال الأب: «حسنٌ يا جون». كان قد بدأ فجأة يدعوه جون. لم ينظر إليه وإنما نظرَ إلى النهر المتدفق. «أظن أنني أود إخبارك بأمر قبل العودة إلى المنزل».

خيم الصمت على المكان.

ثمّ استطردَ: «هنالك امرأة في الساحل في فِيورد، أنا لا أعرفها أبدًا، ولكن الآن بعد أن فكرت بالموضوع تذكرت أنني سمعت بها مرة أو اثنتين. يُقال إنها من أقرباء العمدة، ولكن هذا لا يعنيني. على أية حال، هي لا تعيش هنا، إنها تعيش في العالم الغربي، الذي يسميه بعض الناس أميركا؛ إنها قارة أخرى».

قال الصبي: «أعرف هذا».

قال الأب: «أوه، أنت تعرف هذا حقًا؟»

ردّ الصبي: «لقد تعلمت ذلك».

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال الأب: «نعم، بالطبع، ولكن كرمى للسماء، لا تضع في ذهنك أنه يجب عليك تصديق كلّ ما تتعلمه. قد يكون صحيحًا، كما يزعم بعض الناس، بأن هناك مَراعٍ أفضل من مراعي هذا البلد، ولكن عندما يقولون لك إنه بالإمكان ترك الأغنام طوال فصل الشتاء في الخارج كي ترعى، فأنت حينذاك تعرف أنها ليست سوى كذبة، مثل كثير من الثرثرة حول تغذية الماشية في أميركا. ولكن يُفترض وجود كثير من المهن وأنواع التجارة هناك، وبعضها يبدو مناسبًا جدًّا للشباب الراغبين في أن يكونوا أناسًا مستقلين».

1- الفلروب أو المخطاف أو علعال: من الطيور المائية يتبع فصيلة دجاج الأرض، من رتبة الزقزاقيات.

قال الصبي: «نعم، وهناك نهر أيضًا».

«نهر؟ نعم هناك أنهار في كثير من الأماكن».

«ومدن».

«أف! تلك المدن! يجدر بك ألا تصدق كل ما يخبرونك به عن المدن. ومع ذلك، لقد طُلِب من هذه المرأة أن تأخذكَ معها إلى أميركا. فهمت أن خالكَ أرسلَ المال، ويريد منك الإقامة معه، فيمكنك بذلك تعلّم مهنة ما. سوف تستقلّ الباخرة صباح يوم السبت. لطالما فكرت أمك في صنع شيء منك، لذا ربما من الأفضل أن تذهب».

لم يقل الصبي شيئًا.

«سوف آخذك إلى فِيورد غدًا مساء»، وقال الأب مستطردًا، «هذا إن شئتَ أنت الذهاب».

رانَ الصمت.

«هل تريد الذهاب؟»

«نعم»، قال الصبي، وانفجر بالبكاء.

«حسنًا»، قال الأب مستعدًّا للنهوض، «سُوّيَ الأمر إذن. لقد سألتك لأنني ببساطة أعتبر أنه يجب على الإنسان اتخاذ قراراته بنفسه وأن لا يتبع شيئًا سوى رغباته الخاصة».

عندما عاد الأب وابنه إلى البيت كان الجميع نيامًا.

بدّل نوني الصغير ملابسه بصمت واستلقى بجانب جدته. وما زال في الأثير عالقًا شدو الطيور المغرّدة عند المستنقعات. أم أنه كان ربما صَدى أغرودة الطيور بقيَ في روحه غير راغب بالصمت خلال ما تبقى من هذه الليلة الربيعية الهادئة؟ كان صوتًا لم يبرح روحه قط بعد ذاك، مهما ابتعد في أسفاره ومهما تألّقت وزَهَت القاعات التي أُستقبِلَ فيها لاحقًا؛ هاتيك المستنقعات بطيورها الآيسلندية، في ليلة ربيعية قصيرة.

نعم، بتلك الرقّة، بتلك الرزانة، طلع الفجر الربيعي على مروجهِ بعد شتائها. ومن أمامه امتدت أراض جديدة انبثقت من المحيط مثل عذراوات فَتيّات، وغسلت أصدافها النفيسة وشعابها المرجانية بألفِ لونٍ ولون في

شعاع الصيف الأول؛ أو أراض عتيقة بغاباتها الشذية، ومدن ذات أشعة الشمس البيضاء التي تفتح أذرعها على محيطات خضراء ساكنة، حفيف أشجار بساتين كاليفورنيا، وشوارع أشجار النخيل المذهبة بأشعة الشمس في منطقة البحر الأبيض المتوسط؛ المسيسيبي وضفافه حيثُ يتخذ الأيل والنمر مأوى لهما في الغابات. وهو نفسه سوف يُغنّي للعالم بأسره.

إذن من المؤكد أنه كانَ سعيدًا، من المؤكد أنه كانَ ملآن بنشوة عظيمة، عندما استلقى تحت النافذة الصغيرة على سافلة سرير جدته، ومساحات الكون بُسطت أمامه بلا حد؟ المدى غير المحدود الذي ولدَ من أجله. لا، سادَ روحه الهدوء، هدوء الليلة الربيعية وسكونها. سوى أنه لم يكن باستطاعته النوم. شعر كأنه لم يعد راغبًا بالنوم، وبأن الحياة أمست منذ الآن فصاعدًا ليلة ربيعية باقية إلى الأبد. بعد كل العواصف التي عاشها، رغم حداثة سنه. ولّت الأيام التي قيل له فيها إنه لا يوجد بلاد خلف الجبال، ذهبت الليالي التي كانت فيها القدور والمقالي تلقي الخطب من على الرفوف والخزائن كي تبدد ضجر الحياة والفراغ المرعب؛ والشخير، تلك الرحلات الغريبة فوق سهوبٍ مائلة، ووقت لا سبيل إلى قياسه؛ أية رحلات؟ إنه هو من كان على وشك القيام برحلة.

لا، إنه لا يحتمل فكرة إغلاق عينيه، وإنما ظل مستلقيًا وراح يحدق في السقف، في العُقدة بالخشب التي أطلق عليها مرة اسم رجل، وإن كان بعينٍ واحدة. وقد تماهى في الأمر وجعل هذه العقدة أحد أقربائه، والآن قريبه هذا أرسل له مالًا، على ذلك النحو صار كلّ شيء حقيقة. كل ما اختلقهُ يتحققُ واقعًا. وسرعانَ ما يحلّ فجر اليوم الذي يجد فيه نفسه تحت رحمة الواقع الذي ابتكره؛ ويرثي الأيام التي كانت فيها حياته شبه خالية من الواقع، شبه باطلة، حينما نُسِجت الأوهام الخاملة المُسالِمة حول عُجرةٍ في السّقف. كانت عينه في هذه الليلة الأولى عين حِداد. فكّرَ، أمّي، وتذكرها تلك التي كانت أنبل مخلوق في العالم؛ تذكر الأنّات التي زرعت الحزن في صدره، الحزن الذي منذ ذلك الحين فصاعدًا سوف يتبعه طيلة حياته، ويصبغ كل أغنية من أغنياته. كلا، لن تأتي الساعة التي سوف ينساها فيها، وإن كانت في غابات بلاد أفضل، أو تلك الأيام التي كانت فيها البراري والسماوات على صورة واحدة. ولم تأتِ قط. شعرَ كأنه ينظرُ إلى الخلف على حياة رائعة،

عبر المحيطات والبلدان، على مرِّ سنوات وفصول، ويرى أمامه من جديد الغرفةَ الصغيرة حيثُ استمعَ إلى أنّاتها في عتمة الليل وسأل: هل هي نائمة أم مستيقظة؟ وفي غابات البلاد الأفضل ستكون هذه الغرفة الصغيرة.

«حسنًا يا صغيري»، قالت جدّته في اليوم التالي بينما جلست بيدين عاطلتين عن العمل، وهو أمر نادر بالنسبة لها، وحدقت به بعينين شبه مغمضتين، ورأسها شبه مائل عنه تقريبًا، وإصبع بين لثّتيها، «عِش رجبًا ترَ عجبًا!»

تلألأت شمس الأصيل عبر النافذة وسقط الشعاع على الأرض مفعمًا بذرات الغبار. كانت آستا سوليليا جالسة إلى جوار النافذة تُصلِح ملابس نوني الصغير قبل ذهابها إلى روثسميري؛ لم يكن عنده ملابسَ يوم الأحد. ولكن كان عنده جوربان وقفازان جديدان من حياكة جدته، كما صنعت له آستا سوليليا حذاء جديدًا من جلد الخروف كي يسافر به إلى أميركا. ثم تذكر فجأة أنه انتوى ذات مرة، على سبيل التسلية، عدّ التجاعيد في وجه جدته. لكنه اكتشفَ الآن أنه لم يعد راغبًا في عدّها. كان ذاهبًا دون أن يحصيها، بيد أن تلك التجاعيد بقيت قريبة في مكان ما في روحه، جميعها، كل واحدة منها. وقف بجانب سريرها لآخر مرة، وهو يُجيل النظر من حوله. نظرَ إلى الآجرّ المتدلي من بين العوارض الخشبية والمتعفن عند المفاصل، وإلى السِّكينتين الملفوفتين بالكتّان، والسُّرر ببطانياتها الممزقة ذات اللون الطبيعي؛ إلى خشبها الملتمع جرّاء خمسة عشر عامًا من الاحتكاك البشري؛ إلى الأرضية، المنظفة دونما كثير اهتمام، التي تهتزُّ تحت ثقل قدم المرء؛ إلى النافذة الأمامية بلوح زجاجي مكسور والآخر مكتمل، إلى القشّ الذي طال على نحو شاذ من عتبة النافذة في الخارج، إلى طرفٍ من المستنقع، إلى حلقةٍ رقراقة من الجدول، إلى فرن العائلة الصغير، حيث اشتعلت نيران المنزل خلال كل تلك السنوات، وكان من فوقه إناءٌ غُسلَ بشكل سيئ وكانت فيه بقايا عصيدة باردة، الإناء الذي كان يعرفه حق المعرفة، ونظرَ إلى آستا سوليليا. كان قد تحدّث إليها في الوهدة المخضوضرة، بيد أنه لم يجرؤ على الحديث معها مرة ثانية. يا للأخت الكبيرة المسكينة، لقد تعرّفت على الحُبّ، ومن أجل ذلك تمنّت الموت. نعم، الحب؛ كان الحب مروّعًا، واقشعرّ جسمه من فكرة تركها وحيدة، وحيدة في الحب، لكن لم يكن بإمكانه فعل شيء

لمساعدتها. كان قد حصل على رسالة بخصوص مصيره، لكن لم يكن من رسالة لها. ماتت أمها قبل أن تتمنى لها أمنية، وكانت الأمنيات الوحيدة التي تلقتها وهي طفلة في المهد أمنيات كلبة مصابة بالديدان؛ وخلال ذلك الشتاء، عند وقت التمنّي، طلبت الحبّ، الذي كان بالتأكيد أفظع الأشياء في الوجود؛ آستا سوليليا، يجب أن أذهب، في الحبّ لا يمكن لأحد مساعدة أحد، لا أحد سوى المرء وحده. والآن أنتِ ذاهبة إلى روثسميري لمقابلة الكاهن ولتثبيتك في الكنيسة، أما أنا فقد أُرسِلت إليّ رسالة!

نَبَشت المرأة العجوز تحت وسادتها وسحبت صرّة صغيرة. كانت معمولة من خرق قديمة مهملة، منسوجة ومحبوكة، وكانت ملفوفة بإحكام الواحدة فوق الأخرى. وبدأت تحلّها بأصابع خدرة ويدين مرتجفتين.

عندما وصلت إلى قلب هذا اللغز أخيرًا سألته: «أمازلتَ هنا أيها الولد الشقي؟»

ردّ الصبي: «نعم يا جدتي».

وما عساه أن يكون في الصرة سوى كنزيها الخاصين بها، الشيئين الوحيدين القيّمين اللذين امتلكتهما: المنديل، والخِلال الأُذنيّ. كانت ستعطيه هذين الكنزين عند الوداع، هو من نام في الزاوية هناك بالقرب منها منذ كانَ رضيعًا في الحفّاظات. لم يكن في وسعها تقديم المزيد.

قالت: «أوه، ليست بالهدية التي يمكنك تقديمها لأحد، ولكن يمكنك ربط هذه القماشة حول رقبتك في أيام الاحتفال عندما يكون الطقس جيّدًا. ويقال إن خِلال الأذن هذا امتلكته العائلة منذ زمن طويل».

لم تُنشَد أية ترانيم، ولم تذكر اليسوع أو كِيريَّة[1]، ولم تُحذِّره من الخطيئة. ولم تطلب منه أن يذكرها عند أبنائها في أميركا؛ لم تكن قادرة قط على

1- كِيريّة المُختارة: السيدة المسيحية التي وُجِّهت إليها رسالة يوحنا الرسول الثانية (الكتاب المقدس – العهد الجديد). اختلفت الأقوال حول كِيريّة فقد تكون سيدة، أو جماعة معينة من جماعات المسيحيين، أو كنيسة. (رسالة يوحنا الرسول الثانية 1: 1): اَلشَّيْخُ، إِلَى كِيرِيَّةَ الْمُخْتَارَةِ، وَإِلَى أَوْلاَدِهَا الَّذِينَ أَنَا أُحِبُّهُمْ بِالْحَقِّ، وَلَسْتُ أَنَا فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا جَمِيعُ الَّذِينَ قَدْ عَرَفُوا الْحَقَّ.

استشعار القربى التي امتدت إلى أبعد من ميثالاند في الجنوب. كما أنها لم تسأل عن نوني الصغير في أي مناسبة بعد رحيله.

قالت ووجهها الهرِم المتجعد مرتجف أكثر من المعتاد: «شيئان أريد منك تذكرهما عندما تذهب، أوصيكَ بألا تكون متغطرسًا مع أولئك الذين يَشغلون منزلة متواضعة في الحياة. وألا تُسيء معاملة حيوان، أبدًا».

قالت آستا سوليليا: «قلْ شكرًا لجدتك يا نوني، لقد أعطتكَ الشيء الوحيد الذي تملكه».

وضعَ يديه في يديها وَشكرها بصمت، لأنه لم يعرف كلمات تعبّر عن امتنانه لهديةٍ كهذه؛ كانت تمنحهُ أفقر عيد ميلاد في الأمّة لكي تُدخِل على قلبه البهجة وهو خارج إلى العالم، وَعلِم أنها منذ الآن فصاعدًا لن تحتفل بعيد الميلاد.

***

57. سيّدة ميري تَتكبّد الهزيمة

يوم السّبت السابق لأَحد العنصرة عادت آستا سوليليا من روثسميري، على أمل أن تكون قد تعلمت مسيحيّتها، لأنه كان من المفترض أن تنال سرّ التثبيت غدًا. ولكن لماذا عادت اليوم؟ ألم يرتب بيارتور الأمور مع السيدة في البلدة كي تخيط لها ثوبًا ودفع لها مقدّمًا؟ يقينًا تَقرّر عودة الفتاة عند انتهاء مراسم التثبيت، مساء أحد العنصرة، أليس كذلك؟ ما وراءها؟ لقد عادت إلى البيت يوم السبت قبل حلول أحد العنصرة، في وقت متأخر من العصر. وقد وقع الأمر كما التالي:

عبر المستنقعات، جاءت امرأة في تنورة هائلة الحجم كان بالإمكان أن تتسع لنصف سكان المنطقة، ممتطيةً حصانًا قويًا أغبرَ شقّ طريقه برشاقة بين بُقع المستنقع. لا لم يكن حصان جرٍّ عجوزًا متثاقلًا، لقد كانَ «سورلي» حصان آل روثسميري بحوافره المفعمة بالحماس وجِيدِهِ المقوس. من خلفها كانت آستا سوليليا تَثِبُ من كتلة عشبٍ إلى أخرى، منكسة الرأس، وعيناها لا تنظران يمنة ولا يسرة، فقط خطوة واحدة في كل مرة. وكانت تبكي.

بيارتور، باذخًا كدأبه في حسن الوفادة، هرعَ إلى سياج المزرعة وخرجَ إلى المستنقعات، حيث رحّب بها ترحيبًا ملكيًّا. أمسكَ بالعِنان بالقرب من رأس الحصان، وسلك الدرب الأكثر جفافًا إلى سور المزرعة، واستدار ما بين الحين والآخر لإلقاء بعض التعليقات الهزلية على سيدة ميري، من قبيل الغراب الأبيض مشهد نادر في هذه الأرجاء، وما إلى ذلك، وحينما بلغوا الأرضية المرصوفة ساعدها في النزول عن الحصان. قال: «ما زالت البركة تَنضحُ من مُحيّاها يومًا بعد يوم، باركها الله!» ذلك أنها كانت بدينة ومهيبة الطلعة مثل البابا تمامًا. «غُڤيندور يا ولدي، خُذ فرس السيّدة ليرعى عند تخوم حقلي بينما نُجهز لها القهوة. اصعدي إلى الأعلى يا حبيبتي سولّا، وتفقدي إن تبقت في النار شرارة من حياة، علمًا أننا لم نضرمها كثيرًا منذ مغادرتك، سلقنا قليلًا من السمك يوم الأحد يكفينا الأسبوع كله. لكن ما الذي دهاك يا طفلتي؟ تبدين كئيبة مخلوعة الفؤاد كما لو أنك لستِ بصحبة شاعرة آيسلندا!»

لم تُعطِ أباها جوابًا، وإنما انحنت لتتفادى عتبة الباب، واختفت في الداخل، منكسرة القلب. على الرصيف بقي بيارتور وزوجة الوكيل، للاستفاضة بالحديث عن شعر واقتصاد الربيع الآيسلندي الذي رآه كلاهما في الوادي، كلٌّ على طريقته الخاصة.

سأل بيارتور: «لا بدّ أن الرجل العجوز على خير ما يُرام بولادة حِملانه أليس كذلك؟ نعم، أنا أعتقد ذلك. ولا بد أن الخراف في حال جيدة إلى حدٍّ ما بالنسبة إلى عامل أخرق مثله أليس كذلك؟ نعم، فعلاً ليس جديدًا بالنسبة له خسارة كثير من الماشية، المسكين، لكن لحسن الحظ لديه ما يكفي. وكيف حال العشب أهو جيد؟ نعم إنه ينمو جيدًا هنا أيضًا. وعدد قليل من الثعالب والهوَام لهذا الربيع، صحيح؟ جيد، جيد. الحال نفسه هنا. لا شيء لهم هنا لالتهامه، لا شياه ميتة في هذا العنوان. لا أقول حتى إنني رأيتُ نورسًا أسود الظَّهر، فما بالك بالثعلب، وإن كنتُ قد سمعتُ صوت غُراب في الأخدود هناك. وهل الديدان أقل تفشّيًا من المعتاد عند الرجل العجوز؟ أفّ، أفّ، يا له من أمر مؤسف. لا أثر لدودة واحدة هنا، ولا حتى دودة بطن عادية، وقد تمّت ولادة الحملان على أحسن وجه، ويفترض أن تنتهي اليوم

إن كانت العجوز «كابا» دقيقة في مواعيدها كسابق عهدها. إنها نعجة قديمة عندي وأنا مولع بها على نحو خاص. يتوقع أن تضع حَمْلَها اليوم. باركها الله، وكونها في خواتيم حملها فقد فكرتُ بالنزول إليها في المستنقعات في الجنوب لأرى كيف تسير أمورها. تريدين إخباري بضع كلمات؟ إيهِ؟ وماذا تعتقدين بحق الشيطان أننا نفعل هنا الآن إن لم نكن نتحدث بضع كلمات معًا؟ خلف المنزل؟ باتجاه الجبل؟ هذا شيء جديد تمامًا. إنها ليست المرة الأولى التي تعرض فيها عليّ سيادتها أن تتوارى معي خلف الأجمة! على الرغم من أن أداء المرء قد يكون مُتخشِّبًا قليلًا في الآونة الأخيرة!

ولكن السيّدة لم تكن في مزاج مواتٍ للمزاح، ولملمت تنورتها في قبضتها لئلا تدوس على حاشيتها، وانعطفت حول الزاوية ثم مشت بجوار النهر باتجاه الجبل. اقترحت أن يقعدا على تلة من التلال الصغيرة بجانب النهر.

«اسمعي يا بطلتي يا ذات النّسب الرفيع، لطالما عرفتُ أن من امتيازاتي أنا، وليس امتيازاتك، تقديم مكان للجلوس لضيوفي على ممتلكاتي الخاصة»، قال هذا مستأنفًا ظرافته السابقة، بيد أن هذه النُكتة قُوبِلت بصلابة شأنها شأن الأخريات. ثُم قعدا. رَبَتت على أعشاب التلة على نحوٍ فنيّ وعاطفيّ، وراحت تُمسّدها للخلف والأمام بيدها اللائقة بسيدة محترمة بليغة، صغيرة مدملجة ولها غمازات عند البراجِم. ولكن، أية مؤامرة تافهة كانت ترسمُ تلك البقّاقة العجوز آنئذ؟ من المؤكد أنها لم تكن تحاول مخادعة الرجل كي تَسلبه مزرعته الصغيرة، أليس كذلك؟ وبالتأكيد لم يعد موضوع تفتيت المنزل ضمن المخطط الآن؟ من عساه أن يتكهن بمناوراتهم الخسيسة؟ لذا تناول شيئًا من السعوط. وسألها: «هل لي أن أعرض على سيادتها قرصة من السعوط بينما تستعيد أنفاسها؟» لكن السّيدة لم تُحبّ السعوط، ولا حتى النُكات.

في خاتمة المطاف قالت: «بيارتور، لا أدري إن كنت قد لاحظت أن تعابير وجه ابنتك بالكاد شعّت منه سعادة البنات عندما عادت إلى المنزل قبل بضع دقائق».

قال بيارتور: «ربما فكرتْ أنه من المضحك أنكِ لم تضعي فرسًا عجوزًا

تحتها في الرحلة. ولكن من المحتمل أن جميع الأفراس كانت في العمل تحمل الخثّ، باستثناء الخيول المسرجة. ولا يعني ذلك أن الأمر يهمّنا. لطالما سِرتُ أنا وعائلتي على الأقدام».

«حسنًا، في حقيقة الأمر، أُحضِرَ لها حصانًا، لكنها رفضته. الطفلة المسكينة لها عقلها الخاص. لقد ورِثت عنادها منك».

قال بيارتور: «لربما أخفقوا في زرع مسيحيّتهم فيها. يبدو كأن القسّ الأحمق قال لها شيئًا. وهي ليست معتادة على أن يقول لها الناس أشياء كثيرة. ففي البيت هنا سلام وهدوء على الدوام كما ترين. وأما بالنسبة للدّين بحد ذاته، فلا أزعم أني كنت مُشجّعًا لها على مثل هذه الدراسات، ولأقول الحقيقة، لطالما أحسستُ أن هذه المسيحية ما هي إلا مصدر إزعاج في المجتمع، على الرغم من أن القسّ الراحل غودموندور كان بالطبع خبيرًا كبيرًا في تربية الأغنام. لكنني أراهن على أنها لا تمتلك موهبة في فَهمِ الدين على وجه الخصوص، إلا أن ابنتنا العزيزة سولّا تتمتع بقدرة استيعاب مثل أي شابة نالت سرّ التثبيت في الكنيسة في الوقت المناسب. وبودّي لو أرى من في سنها من الشباب ولديهم نفس براعتها في الأدب الكلاسيكي. ومع أن معظم هؤلاء الأطفال يذوبون في الدموع بمجرد انتقادهم على خطأ ما، ولكن ذلك ليس سببًا لوجود أية آثار جانبية خطيرة».

«لا»، قالت الشاعرة، «ليست العلة في معرفِتها الدينية. إن ما فيها مدعاة للرثاء أكثر، يؤسفنِي قول ذلك».

ومضت تمسّدُ العشبَ على تلة الرجل بهاتيك الضربات الفنّية، مشفوعة بتفكيرٍ عميق. ثم قال بيارتور: «لا أعرف إن كنتُ قد قلتُ لكِ إن النعجة المربوطة معي على طول الزمان، في السّراء والضّراء، مولودة من أحد أكباش القسّ الراحل غودموندور. وهي تبدو هذه المرة بدينة في عَجُزها على نحو ملحوظ، وإن كانت ضلوعها خالية من اللحم. أخشى بعض الشيء إن كانت حاملًا بتوأم، ففي هذه الحالة سوف تستغرق وقتًا طويلًا في وضعهما، لذا كنتُ أفكر في السير إلى آخر الوادي قبل حلول الليل، فقد اقترب أوان ولادتها».

قالت المرأة: «أجل يا بيارتور، لن أؤخرك أكثر الآن».

ثمّ حانت القصّة. «بدأ الأمر كله عندما قرّرت غوندي، التي لطالما اعتبرت، لسبب خاص بها، أنّ لها حِصّة في آستا سوليليا الصغيرة، قررت أن تنام بجانبها خلال الأيام القليلة التي سوف تقضيها معنا في روثسميري. حسنًا، منذ الليلة الأولى لاحظت شيئًا من الكآبة تغشّت روح الطفلة، كأن شيئًا يهيمنُ على فِكرها؛ في الحقيقة كانت قلقة مضطربة البال لدرجة أنها كانت تستغرق زمنًا طويلًا للإدلاء بإجابة معقولة إذا ما خاطبها أحد. وعندما كانتا في الفراش بدأت غوندي تلاحظ أنها تبكي في وسادتها. وأحيانًا كانت تبكي كثيرًا في الليل».

هنا، توقفت زوجة الوكيل عن الكلام للحظات، ولكنها استمرت في مباركة العشب بأصابعها الفَنّية. كانت مع ذلك متأثرة للغاية، ولكن كان عليها أن تتنفس. كان تَنفُسّها من ذلك النوع الذي يَتّسم به الأشخاص البدناء.

«فإذن؟»، قال بيارتور بعد طول انتظار، ذلك أنه لم يكن يعرف كيف يُقدِّر الصمت الفنّي. «هل في الأمر بدعة أن تكون الدموع لدى هؤلاء الشباب حاضرة على الفور وخاصة إن كانوا من الإناث؟ تمامًا مثلما قلتُ مرارًا وتكرارًا للكلبة ولزوجتيّ: الجنس الأنثوي أكثر إثارة للشفقة من الجنس البشري».

«في أول ليلتين أو الثلاث الأولى رفضت الفتاة أن تخبرنا بما يُثقل كاهلها».

قال بيارتور: «نعم، لماذا يجب على الأشخاص الذين تربوا على الاستقلالية أن يَصِفوا للناس ماذا يدور في أذهانهم؟ إن العقل مثل دوّارة الرياح[1]؛ ومثلها يميل إلى لكز مؤشر الاتجاه كلّ خمس دقائق».

«كانت تائهة وشاردة في اليوم الذي ظننا فيه أنها غير سعيدة بمحيطها الجديد، وليس بإمكانها تحمّل صحبة الآخرين. كما تعذّرَ إقناعها باللعب مع الأطفال الآخرين. (بيارتور: «نعم ربما كانت أكثر عقلانية من أن ترتدي حذاءها للخروج من أجل ذلك الصفع والقفزِ الأخرق»). ثم بدأت نوني تلاحظ في

1- دوّارة الرياح: جسم معدني على شكل ديك يُستخدم لتحديد اتّجاه الرياح.

الصباح أنها لم تكن على ما يرام بأي حال من الأحوال. كانت تعيسة ومتراخية وسقيمة بينما كانت ترتدي ملابسها». (بيارتور: «لحم الحصان لا يمكن أن يناسبها».) «إن كنا نقدم لضيوفنا لحم الحصان للأكل يا بيارتور فهذه أول مرة أسمع بها. في الواقع، تناول الأطفال في الليلة السابقة يخنة لحم وخضروات لذيذة، وَظنّت مدبرة المنزل أنها ربما أفرطت في الأكل، لأنها بدت أحيانًا نهمة في تناول طعامها على نحو مُستغرب. ولكن عندما تكرر ذلك يومًا بعد يوم، لم تستطع غوندي من درءِ ظنونها، وبدأت بإيلاء مزيدٍ من الانتباه إلى شكل الفتاة عندما كانتا تأويان إلى النوم ليلًا. لقد صدمها على الفور أن الفتاة نمت نموًّا متقدّمًا بالنسبة إلى سنّها، كان شكلها شكل امرأة مكتملة النموّ تقريبًا، بالإضافة إلى هذا، وكما لاحظنا جميعًا من فورنا، وإن لم نعطِ الأمر كثيرًا من التفكير، فقد صارت سمينة بصورة غير طبيعية حول الخصر بالنسبة إلى فتاة كانت نحيلة للغاية. لذا في الليلة الفائتة سألتها غوندي إن كان بإمكانها فحصها قليلًا، قائلة إنها تعتقد بوجود علة ما في معدتها. حينذاك اكتشفت مدبرة المنزل الأمر مباشرة بالطبع، ووجهت إليها الاتهام. في البداية لم تعترف الطفلة بشيء. كان هذا هو الوقت الذي استدعتني فيه مدبرة المنزل. وبالطبع لاحظتُ على الفور ما المشكلة. وقلت للفتاة إنه من غير المجدي أبدًا كتمان الأمر عنا. إنها حامل. مرّت أربعة أشهر تقريبًا على حملها».

حملقَ بيارتور في المرأة بعينين أشبه بعينيّ حصان سمِعَ قعقعة مزعجة من خلفه، فاشرأبّت أُذناه، ورفعَ رأسه، وأوشكَ على الجُفول. ثمّ وثبَ بيارتور على قدميه وتراجع خطوة إلى الخلف، غير قادر في البداية على إيجاد أية هيئة مناسبة لتلقي هذا الخبر. في الأخير ضحك ضحكة خرقاء، في الفضاء، ثمّ قال: «حامل؟ ابنتي سولّا؟ لا، أنت لا تحاولين خداعي هذه المرة يا سيدتي العزيزة!»

قالت المرأة: «حسن جدًا، إذن، في هذه الحالة ستكون هذه أول مرة أهرع فيها إلى جيراني بالأكاذيب والقال والقيل يا بيارتور. وظننتُ أني أستحق منك أكثر من اتهامي بالزّورِ والبُهتان. لطالما تمنّيتُ لك الخير. لكم جميعًا. كان قلبي وبيتي مفتوحين لكم دومًا يا أهل الريف. وكنتُ المتحدّثة باسمِ كل ما هو نبيل في الحياة الريفية. ونظرتُ إلى عمل الفلاح على أنه

عمل مقدّس. وفي الوقت ذاته نظرتُ إلى أحزان الفلاح على أنها أحزاني الخاصة، وهزائمه هزائمي. ولم تَغِب عن بالي قطّ حقيقة أن عزيمة مزارع الوادي العتيدة هي الرافعة التي ترتقي بالأمة إلى أسمى المراتب». («نعم أمة الروثسميري»، اعترض بيارتور الكلام غاضبًا، «لكن أمة روثسميري لم تكن يومًا أمّتي، وإن سُحِقتُ تحتكم ثلاثين عامًا وفي آخر الأمر أُجبِرتُ على الانضمام إلى مجتمعكم التعاونيّ»). «لا بأس يا بيارتور، آراؤك تخصّك وحدك، ولكن بإمكاني إخبارك هذا؛ إنه في كل لحظة كان مجلس الرعية على شفا تقويض منزلك كنتُ أدافع عنكَ بثبات وأقول: «إن المزارع الآيسلندي هو شريان حياة الأمة منذ ألف سنة؛ اتركوا بيارتور وشأنه، بيد أني الآن وصلتُ إلى نقطة تعيّن عليّ فيها الاعتراف بأني هُزِمتُ. منذ خمس عشرة سنة وأنا أحاول الوقوف في صفّكم بينما الرعية واقفة وقلبها في فمها؛ في البدء ماتت المسكينة روزا تلك الميتة المروّعة، ثم مات صغارك عامًا بعد عام، إما عند ولادتهم، أو في ملابس القِماط، وعامًا بعد عام تأتي بمواليدك لدفنهم في مدفننا الصغير، ثم ماتت زوجتك الثانية في العام الفائت، والجميع يعرف ما الذي قضى عليها، وأخيرًا الأحداث الغريبة التي وقعت على أرضك هنا خلال الشتاء وضياع ابنك الأكبر. ومع ذلك لم أسحب يدي الحامية عنكم قطّ. ولكن الآن لم يعد بوسعي فعل المزيد. أن تهربَ من كل فظائع الشتاء المنصرم وترسل إلى بيتك صعلوكًا رذيلًا، سكّيرًا سيئ السُّمعة وخِرّيج سجون، ليس فقيرًا وعالة على الرعية مع حشد من الأطفال فحسب، بل وتالِفًا من السُّلّ؛ ويكون هذا السّافل هو من انتقيته لرعاية أطفالك، لرعاية آستا سوليليا المرأة الشابة الناضجة..

«والآن اسمعيني، اللعنة عليك، هذا يكفي منك، نعم، اذهبي إلى الجحيم، أنتِ لست على أرضكِ هنا، أنتِ هنا على أرضي أنا. وإن كنتِ قد أتيتِ إلى هنا اليوم من أجل آستا سوليليا، دعيني أقول لك إنك تأخرت خمسة عشر عامًا في القدوم. ألصقتِها بي عندما كانت مستلقية في رحمِ أمها، اللعنة عليك، وهي إن كانت طفلتي، فهذا فقط لأنك تخلّيت عنها للموت، وَبِعتِني أرضًا حتى تموت على أي أرضٍ ما عدا أرضك. هل تحسبين أنني لم أكن أعرف منذ البداية أنكم أنتم الروثسميريين من خَلفتّم هذه الطفلة التي ولِدت في

الكوخ هنا في الأيام التي امتطيتُ فيها الشيطان فوق النهر الجليدي ولم أُقتَل؟ وإن اعتزمتِ الجلوس هناك وإخباري أنك ما كذبتِ قط، فسوف أقول إنك كذبت يوم زفافي، عندما وقفتِ في الخيمة في بيت نيثوركوت مع كثيرٍ من الخيالات الحديثة والدّين الأجنبي على شفتيكِ بعد أن ألقيتِ عليّ ابنة السّفاح الخاص بابنك كي تنقذي سمعة عائلة روثسميري. وإن كنتِ قد أتيت إلى هنا لمحاسبتي وتوبيخي لأن آستا سوليليا حبلى، سأقول حينها إن هذا شيء لا علاقة لي به على الإطلاق، في المقام الأول لأنني لم أجعلها حبلى، وثانيًا لأنني لستُ مرتبطًا بها بأي حال من الأحوال، وبالتالي فأنا لستُ مسؤولًا عنها. أنت من على صلةٍ بها ولذلك أنت مسؤولة عنها. أنتم قوم روثسميري أنجبتموها ثم تخلّيتم عنها. لا صِلة تربطها بي. ودعيني أقول لكِ مرة واحدة وإلى الأبد إنه في المستقبل يمكنك الذهاب إلى الجحيم مع أولاد الزنى خاصتكِ، وبمقدوركِ تسميَتهم بالأسماء التي تريدينها، وسواء كانت حبلى أم لا فهو شأنك بالكامل، من الآن فصاعدًا هي غير موجودة بالنسبة لي».

قالت المرأة بلطف بينما كانت تقتلع الحشائش من تلّة الرجل: «بيارتور يا صديقي، ينبغي أن نضبط أعصابنا وأن نناقش ما حصلَ مثل أناس عاقلين راشدين. في الواقع، لقد خطرَ لي أنها خلال وقت الحمل ستكون في موضع ترحيب لإيجاد مأوى عندنا»..

لم يعد من شأني اللعين سواء أمنحتِ أولادك المأوى أم كنت ستعرّضينهم للموت. لا أعرف أفضل من أنني قمتُ بواجبي عندما تهرّبتِ أنتِ من واجبكِ. عندما رقدت طفلتكِ تحت بطن الكلبة، وكنتِ قد تخلّيت عنها وتركتها عرضة للموت، أخذتُ طفلتكِ ومنحتها المأوى، وجعلتها زهرة حياتي لمدة خمس عشرة سنة؛ لكني الآن أقول إنني اكتفيتُ، وإذا ما أتيت لإجباري على البيع وطردي من منزلي وموطني، فافعلي ذلك إن تجرّأتِ وإن ظننت أن لديك السلطة القانونية لذلك. ولكني آمركِ بأن تذهبي في داهية مع أولادك في المستقبل، واتركيني بسلام مع أطفالي، وهذا كل ما بيننا من كلام، وسأنزلُ الآن إلى الوادي لأرى ما إذا كانت نعجتي قد ولدت أم لا».

بهذه الكلمات نهضَ مُزارِع الوادي ومضى بعيدًا بتثاقل، بمحاذاة النهر، باتجاه الجنوب عبر المستنقعات، ولم تُقَل كلمة وداع أخرى. انضمت إليه

الكلبة. ولم ينظر من حوله. تُرِكت الشاعرة جالسة حيث كانت، مُبلبلة ذاهلة، وأرض الرجل من تحت يدها. حدّقت وراءه في حيرة؛ كان مثل جيشٍ لا يُقهر. وكانت هي من تجرعت الهزيمة.

***

58. هذه أنا

انقضى المساء قبل وقتٍ طويل من عودته إلى البيت. كانت العودة مَهمّة مطولة للغاية، بما أنه قادَ نعجتين من أمامه؛ النعجة التي وضعت والأخرى التي ما تزال حبلى. النعجة الأم التي كانت قد أنجبت حملًا واحدًا وكان ضرعها ممتلئًا باللبن، وكانت النعجة الثانية هي العجوز كابا. كان حملها ضخمًا على نحو مثير للريبة بالنسبة إلى نعجة عجوز هزيلة، ونظرًا لأن ضرعها كان جافًا عمليًا لم يكن هناك احتمال أن تكون قادرة على إرضاع اثنين. كان سَوْقها مهمّة شيطانية، اللعنة إن استمرت بالسير في الاتجاه الصحيح! كانت الكلبة بَرِمة نافدة الصّبر وتعيّن على الرجل مناداتها طيلة الوقت كي تكفّ عن مهاجمة النعاج، على المرء ألّا يُسلّط الكلاب عليها، أبدًا لا يُسلّط الكلاب على النعاج في الربيع. شَردت النعجة الأمّ مع حَمَلها في الاتجاه المعاكس. وحين تمكّن أخيرًا من تغيير مسارها، كانت العجوز «كابا» قد استدارت أيضًا. لذلك كان عليه الاستدارة وإحضار «كابا». ولم يمضِ وقت طويل حتى انتهزت النعجة الأخرى الفرصة، فانطلقت بأقصى سرعة، ورأسها في الهواء، في اتّجاه مُغاير تمامًا. سارَ الأمر على هذا المنوال، ومن أجل هذا السبب تأخر المزارع كثيرًا في العودة إلى البيت. لكنه شقَّ طريقه في النهاية، ذلك أنه كان أشدّ عنادًا من النعجتين معًا؛ كان قد تعلّم كثيرًا من الأغنام في أيّامه فأنّى لهُ أن يستسلم لها؟ وقفت الأغنام أخيرًا عند تخوم المزرعة؛ وكان مضطّرا آنذاك إلى إدخال الأم وحَلْبها. لم يكن في المنزل أية علامة على وجود حياة به، ربما كانوا جميعهم نيامًا، لكنه كان يكره إيقاظهم وطلب المساعدة، ومضى يركض حول النعجة. ركضت النعجة في دوائر غير منتهية؛ وركض الرجل أيضًا في دوائر لا نهاية لها؛ لفترة من الوقت بدا عِناد كل طرف من الطرفين لا يُغلَب، لكن في النهاية

أذعنت النعجة وانساقت مع الرجل إلى الحظائر. نَقَزَ الحَمَل بخفّة حول الأرضية المرصوفة وحديقة الخضروات؛ ووثبَ إلى السطح وَثغا. ثم قفزَ من على السطح، ثم إلى جدار الحديقة وثغا. ركضَ باتجاه الجبل ثم نزولًا على امتداد الجدول. أمسكَ بيارتور النعجة وثبّتَ رأسها بين ساقيه، ثم حَلَبها في وعاء، ومع أنها تخبّطت كَمَن بهِ مسّ من الجنون، فإنه تمكن من الحصول منها على ثلث ليترٍ أو أكثر من الحليب. وعندما أفلتها ذهبت مُمأمئة إلى حَمَلها الذي ردّ عليها بالمثل. كانت العجوز «كابا» ترعى عند أطراف المزرعة؛ وكانت راضية تمامًا الآن. كانت الليلة مُضيئة، لكنها ليست لطيفة على الإطلاق؛ زخّات مطر فوق المستنقعات، وضباب فوق الجبال. وكانت الطيور صامتة منذ ساعة ما خلا طائر «السّامك» الذي راح ينوحُ على فترات متباعدة في الجنوب بجوار البحيرة.

لدى دخوله إلى البيت رأى شيئًا جالسًا على الصُّوان في المدخل. لم يتحرك. ومع ذلك كانَ كائنًا بشريًا. كانت قد بدلت ملابسها وارتدت ثوبها العتيق المفتوق عند المرفقين، وكانت جالسة ويداها في حِجرها، يدا المرأة الناضجتان بعظامهما الطويلة ومفاصل الإبهام الغريبة. كانت ربلتا ساقيها بدينتين، وكان ردفاها ممتلئين جدًّا بالنسبة إلى فتاة في سنّها؛ كان من السهل رؤية أنها امرأة مكتملة النموّ. كانت حفيدة سيدة ميري. لم ترفع بصرها إلى الأعلى عندما تَزحّف عبر الباب، ولم تحرك يديها في حِجرها. أكانت نائمة وهي متكومة ورأسها متدل على صدرها؟ أم كانت خائفة من النظر إلى أعلى حتى لا تلتقي عيناها بعينيه؟

صَفَعها فَانْكمشت مرتعدة وضغطت بإحدى يديها على الحائط كيلا تقع، أغمضت عينيها ورفعت يدها لدرء ضربة أخرى، وأخفت وجهها في ثنية مرفقها. لكنه لم يضربها مجدّدًا.

قال: «خذي هذا، من أجل الذي جلبتهِ لأرضي، الأرض التي اشتريتها. ولكن لحسن الحظ لا توجد قطرة من دمي في عروقك، وبالتالي سأطلب منك تنشئة أولاد الزنى في بيوت أولئك الذين هم أقرب إليهم مني أنا».

قالت وهي تلتقط أنفاسها: «نعم يا أبي». ووقفت ومرفقها أمام وجهها، وابتعدت عنه نحو الباب: «أنا ذاهبة»..

اجتاز المدخل، صعد السلّم، دخل إلى العلّية، وأوصدَ الباب الأرضي خلفه.

نعم، حسنًا فعلَ أنه ضربها وطردها؛ كانت ضربته أفضل من التفكير بالآتي، والآن هي تعرف ما ينتظرها، وماذا خلّفت وراءها. صفعته هذه رفعت عن قلبها حملًا ثقيلًا كالرصاص، كانت نوعًا من «التثبيت الكَنَسيّ»، والآن أصبحت حرّة، لقد كان هذا سرّ التثبيت الخاص بها. وقفت على الرصيف وعاينت ليلة الحياة الربيعية من أمامها، مثل شخص على وشكِ القفز على وادٍ محفوف بالمخاطر لكي ينجو بحياته؛ بقلبٍ تسارعت نبضاته، بالتأكيد، لكن دون بكاء... كلا، لم تكن الليلة دافئة بل باردة. كانت هطولات المطر فوق المروج مثل جدران داكنة بُنيت هنا وهناك، وكانت متحركة. نظرت ناحية الشرق ولكن ليس ناحية الغرب. نعم، لقد هَزمت الشّكَ والخوف وطردتهما من جسدها وروحها، والآن باتت تعلم موقعها منه؛ كلاهما الآن بات يعلم موقعه من الآخر؛ وكأنها أدركت بالوحي، وشعرت أنها لم تكن بحاجة لأن يخبرها بأنه لم تكن تسري في عروقها قطرة واحدة من دمه، وكانت الصفعة التي وجّهها إليها حين الفراق هي لحظة الحقيقة في حياة كل منهما. حتى تلك اللحظة كانت حياة كل منهما، في علاقتهما بعضهما ببعض، حياة زائفة، حياة أكاذيب. عاشت معه بين يدي «ترول»، ظنًّا منها أنها هي أيضًا «ترول». وفي لمح البصر كانت تقف خارج منزله آنئذ، وتكتشفُ أنها ليست من جنس الترول. في لحظة قصيرة واحدة تحررت من هذا الترول. كانت مجرّد كائن بشريّ، وربّما أميرة مثل «بياض الثلج» والبنات الأخريات في القصص الخيالية، ولم يتبق لديها الآن ما تشكره عليه. إلى بعيد.

حينما بلغت المستنقعات، أدركت أنها كانت ترتدي حذاء رقيقًا مقطّعًا وقد تبلّل بالماء؛ وثوبها القديم بِثقوبهِ عند المرفقين، ولا شيء على رأسها. هل يمكن لفتاة الوادي هذه الرثّة الملطّخة بالوحل أن تغدو أميرة حقًّا، كما يُقال في القصص؟ لا، لا يهم رغم أنها كانت مبتلّة. لم تنظر إلى المزرعة وراءها. وأخيرًا صارت حرّة، مثل أميرة الحكايات، وانطلقت لتجدَ من أحبّته؛ كانت هذه حكاية فتاة الوادي التي أسهبت بأحلامها. كانت مُنتمية له وحده. وسوف تسكن معه كل حياتها. ولن تتركه أبدًا، أبدًا. كان بيته الوضيء

في مرجٍ على البحر، ورأت السفن الرائحة والغادية. وهما أيضًا سوف يذهبان بعيدًا على متن السفينة في يوم من الأيام. سيذهبان إلى بلاد كائنة ما وراء البحار، فهو يملك أراضي هناك أيضًا، أراضي فيها شوارع مشجرة بالنخيل الموشّى بأشعة الشمس الذهبية. نعم، نعم، نعم. ستمشي كل الليل وحتى الصباح الباكر، ولا يهم إن مشت حافية القدمين، سوف يعطيها حذاء جديدًا. ولن يطول بها المطال حتى تعثر على بيته المضيء في المروج بجانب البحر. ستقرع بابه، قبل أن ينهض من نومِهِ، وسيسمع أن أحدًا يطرق الباب. فيسأل: «من في الباب؟» وتجيب: «هذه أنا».

غنّى قلبها فرحًا وهي تعبر المستنقعات، لم تكن لتعتقد أن خطواتها لم تزل بتلك الخفّة، طارت، وقلبها بين ضلوعها حَلّق. طارت لكي تلتقي بالسعادة والحرية والحبّ. كانت الفتاة الفقيرة التي سوف تصبح أميرة، لا، هي لا تخصّ أحدًا سواه. سمعت صوته الهامس مرة بعد مرة وهو يسأل: «من في الباب؟» ومرة بعد مرة تجيب: «هذه أنا».

بخطىً رشيقة سلكت الدرب المتعرّج المفضي إلى أعالي المروج. ما عادت قط الطفلة الحالمة، التي اغتسلت للتوّ بندى «ليلة القدّيس يوحنا» الغامضة المُتخيّلة؛ الآن باتت تعرفُ من تكون، وإلى أين هي ذاهبة. كانت امرأة عاشقة، قد أحرقت كل الجسور من خلفها، وها هي تلجأ الآن إلى حبيبها. كان هذا حقيقة. كان هذا هو الحب والأراضي البراح. من الآن فصاعدًا كلُّ ما سيحدث في حياتها سيكون حقيقة.

الحبُّ والأراضي البراح؛ كانت الثلوج ما تزال متراكمة في الوهاد العميقة، وكانت الأرض من تحت الثلوج موحلة. عَصَفت في وجهها ريحٌ باردة قاسية. سرعان ما أصبح حذاؤها عديم الفائدة، وآلمتها قدماها بشدة. شعرت بالعطش فشربت من بركة بجانب ركام ثلجي، وكان طعمها سيئًا. ثم شعرت بالجوع. ثم التعب. ثم شعرت بالنعاس. وفجأة صارت وسط زخّات شديدة البرودة، كانَ مطرًا متجمّدًا، ولم تستطع الرؤية على مسافة ياردة من أمامها، وفي بضع ثوان كانت غارقة بالماء. داهمها شعور بالخوف. فالأراضي البور مخيفة أيضًا. ربما كانت هي الحياة نفسها. ومضت في ذهنها فجأة فكرة أخيها هيلغي الذي ضاعَ في الأراضي البراح ولم يُعثر له

على أثر. كثير من الناس يلقون حتفهم في الأراضي البراح. أبوها لم يلق حتفه في الأراضي البراح، لكنها تذكرت فجأة أنه ليس أباها، بل «ترول». ولذلك السبب لم يكن يخاف أيضًا. هي من كانت خائفة، وهي من قد تلقى حتفها. الرعب بدّد الجوع ورغبتها بالنوم جميعًا، وبدأت تتساءل عمّا إذا كان من الأكثر حكمة، بعدما قيل ما قيل ووصلت الأمور إلى ما وصلت إليه، لو أنها رَمت ذراعيها حول عنقه لمّا ضربها، وطلبت منه الرحمة. حاولت تناسي هَلَعها والتفكير ببيته المضيء بجوار البحر؛ أي بيت؟ ألم يكن البيت الذي ذكره كوخًا متهالكًا قاتمًا يقع على لسان بحريّ، ومعه العديد من الأطفال الجياع؟ لا، كان بكل تأكيد بيتًا مشرقًا في مرج بالقرب من البحر؛ بيته المشرق في السماء والأرض. عما قريب تُشرق الشمس، وسوف تقف عند ذلك الباب في أشعة شمس الصباح، وسيكون في البحر سُفنٌ، وسوف ينادي ويسأل: «من هناك؟» ولكن في تلك اللحظة أبصرت على مسافة بعيدة التماعة بحيرة جبلية صغيرة في الأرض البراح. كانت زخات المطر على وشك الانقطاع، ولا بد أن تلك البحيرة هي بحيرة الأحلام غير السارة، آه، لماذا يتعين على المرء أن يحلمَ بمثل هذه البحيرة الكئيبة عندما يكون بائسًا وتعيسًا، بدلًا من الحلم بالمحيط نفسه؟ إذن كانت هذه هي كل المسافة التي قطعتها؛ الهائمة الوحيدة وراء الأمل بقدمها المُتقرِّحة، وامتدَّت من أمامها أميال وأميال كي تقطعها. شربت مزيدًا من المياه من إحدى البرك، ووقفت بصعوبة، من ثمّ تناهى إلى سمعها صوت محبوبها وهو ينادي عليها من بيته الوضّاء ويسألها: «من هناك؟» وهي تجيب للمرة الألف وتقول: «هذه أنا!»

في تلك الليلة لم يخلع بيارتور صاحب البيت الصيفيّ ملابسه، لكنه خرج على فترات متقطعة كل ساعة ليتفقد النعجتين اللتين تركهما في فناء المنزل مساء البارحة. في الساعة الواحدة ليلًا كانت العجوز كابا قد استلقت على الأرض وكانت تجتّر، لكن النعجة الطائشة الأخرى شردت باتجاه الجبل وكانت الآن تحت الصخور. ومع ذلك، كانت مستلقية وكان حَمَلها مستلقيًا بجانبها. سادَ الهدوء كلّ شيء؛ كانت طيور الصباح الأولى قد أنشأت تغرّد، لكن معظمها كانت ما تزال صامتة.

نعم، مثلما اعتقدَ تمامًا، كانت العجوز كابا على وشك الولادة. في الصباح

الباكر وضعت ثلاثة حِملان، وكانت هذه المخلوقات الصغيرة المسكينة تصارع للنهوض على أقدامها والوصول إلى ضرعها، بينما وقفت هي وراحت تلعق صغارها في آخر الحقل. إنه لجهدٌ محمود أن تلد نعجة متقدمة في العمر ثلاثة مواليد، هذه النعجة العجوز خاضت غمار عديد من الظروف مع بيارتور، الديدان والمجاعة والأشباح، والآن تلدُ للحياة حملانها الثلاثة كما لو أن شيئًا لم يحدث. كان ممتنًا لحظّه السعيد لأنه سمح لها بالاستفادة من صفاتها كقائدة ولم يذبحها في الخريف الماضي. وبهذا الشكل أظهرت عرفانها بالجميل، هذه المخلوقة المسكينة. شكّلت التوائم الثلاثة فارقًا كبيرًا في الوقت الذي كان فيه رصيد بيارتور من الماشية مُستَنزفًا أيّما استنزاف. لكن ضرعها كان شحيحًا باللبن، الدابة المسكينة، تقدمت بها السّن كثيرًا. دَفّأ الحليب الذي احتفظ به من المساء السابق وحمل الحِملان تحت ذراعه إلى الرصيف عند البيت. وَتبِعته النعجة تثغو ثغاءً قلقًا، فالحيوانات لا تثق بالإنسان، حتى عندما يتمنى لها الخير. قعدَ على البلاط والحملان بين ركبتيه وبدأ ينقط الحليب في أفواهها بواسطة ريشة كبيرة. يا إله السّماوات، كم هي صغيرة تلك الأفواه! ليس في الحياة ما هو جدير بالتفاخر والتبجّح خاصة عندما ينظر إليها الإنسان بعينٍ متدبّرة. وقفت النعجة على العشب على بعد بضعة أمتار، وراحت تراقبه بارتياب. كانت دائمًا شاة خجولة ولم تعتمد على الإنسان قط، طبعًا كانت من سلالة القسّ غودموندور. ولكنها عندما رأت ما فعل الرجل دَنت منه أكثر فأكثر، وثبّتت عليه عينيها الكبيرتين الذكيتين بلونيهما الأصفر والأسود، المفعمتين بتوتّر الأمومة. ربّما ليس للتعاطف أبجدية، ولكن من المأمول أن ينتصر في سائر أنحاء العالم يومًا ما. قد لا تكون هذه الأراضي البراح لافتة للنظر بأي حال من الأحوال، وقد لا تكون المزرعة الصغيرة القائمة عليها استثنائية بأي شكل من الأشكال، ورغم ذلك حدثت أشياء مذهلة بين الحين والآخر في هذه الأرض بمروجها الشاسعة؛ حيث الإنسان والحيوان يفهمان بعضهما بعضًا. حدثَ ذلك صباح يوم «أحد العنصرة». أتت الشّاة إليه حيث كان قاعدًا وحِملانها بين ذراعيه، تشمّمت بِمودّة وجهه ذا الملامح القاسية، ومَأمَأت قليلًا بالقرب من لحيته بِنَفَسها الدافىء، كما لو أنها تُعبّرُ لهُ عن امتنانها.

***

الجزء الثاني

سنوات الازدهار

59. عندما أُطلِق الرصاص على فرديناند[1]

ربما كان ما يُسمى بالحرب العالمية الأولى أفخم نعمة أرسلها الله إلينا منذ الحروب النابليونية؛ فقد أنقذت الأمة من عواقب الانفجار البركانيّ العظيم، ونهضت بحضارتنا من الأنقاض مع زيادة الطلب على الأسماك وزيت الحوت، نعم، هذه الحرب الجميلة، وعسى العليّ القدير أن يمنحنا حربًا أخرى على ذات القدر من الجمال في أقرب وقت ممكن. اندلعت هذه الحرب بإطلاق النار على أجنبي تافه وضيع، رجل يُدعى فرديناند أو شيئاً من هذا القبيل، وقد أُخِذ مقتل هذا الفرديناند على محمل الجدّ كثيرًا من قبل عديد من المواطنين العدائيين الذين استمروا في تقطيع بعضهم بعضًا إربًا إربًا مثل الشّحمِ في الجُرن، لأربعة أعوام متتالية وأكثر. وفي العلّية الصغيرة في البيت الصيفيّ ، حيث في «لقاء الرّعاة» اجتمع من جديد أولئك المحاربون الصّناديد الذين خاضوا صراعًا مستمرًا طيلة حياتهم أشدّ ضراوة من أي حرب عالمية بكثير، وقضية أكثر خطورة من إطلاق النار على فرديناند بكثير، كانت هذه الحرب موضوع النقاش.

1- فرانز فرديناند (1863-1914) : أرشيدوق النمسا فرانز فرديناند الذي أدى اغتياله في سَرايِيفو بالبوسنة في 28 يونيو 1914 إلى الملابسات التي أسفرت عن إعلان النمسا الحرب ضد صربيا، الأمر الذي أدى إلى سلسلة من المواجهات التي دفعت جميع القوى العظمى في أوروبا إلى خوض ما أصبح يُعرف بالحرب العالمية الأولى.

تساءل بيارتور: «ولكن ألا تعتقدون أنه كان يجب أن يكونوا سعداء بالتخلّص من ابن الحرام ذاك؟»

أجاب إينار أوندرليث: «حسنًا، ليس عندي ما أقوله حيالَ ذلك، لكن يُعتقدُ أنه كان ملكًا لبلاد صغيرة، لا أتذكر اسمها، لكني لا أقول إنه كان الرجل الأفضل لمنصبه. نحن الآيسلنديين لا نُكنُّ احترامًا كبيرًا للملوك، ربما باستثناء ملك الجبل، إذ إن الجميع سواسية أمام الله. وطالما أنه بإمكان المزارع أن يدعو نفسه إنسانًا مستقلًّا وليس عبدًا لغيره، فيستطيع أن يُسمّي نفسه ملكًا. لكنّ هناك شيئًا واحدًا على الأقل مؤكدًا بخصوص فرديناند أو أيًّا كان اسمه: لقد كان بعدَ كل شيء إنسانًا ضعيفًا. ولا أعتقد أنه من المسيحية بمكان ذِكره بالسّوء. الإنسان يظلّ إنسانًا».

قال كروسي جيل: «حسن، بصرف النظر عن هذا الرجل واسمه، ومهما كان، ما لم أفهمه قط حول هذه المسألة لماذا تعين على الآخرين الشروع في النزاع فقط لأن هذا اللقيط فرديناند أُطلِق عليه الرصاص!»

أجابه بيارتور «أوه، فليتشاجروا، اللعنة عليهم. كل ما آمله هو أن يداوموا على نزاعهم لأطول فترة ممكنة. إنهم لا يولون أدنى اهتمام لما يأكلونه الآن ذلك أنهم وجهًا لوجه مع وقائع الحياة. سوف يأكلون أي شيء الآن. سوف يشترون منك أي شيء. الأسعار ملتهبة في كل مكان. وعما قريب سوف يبتاعون منكم الروث من أكوام قاذوراتكم. وكل ما أرتجيه أن يستمروا في تفجير بعضهم لأدمغة بعض طالما أن أقوامًا آخرين بوسعهم الاستفادة من أفعالهم. يجب أن يكون كثير من الأشخاص في الخارج. ولا أحد سوف يفتقدهم».

فقال إينار أوندرليث على نحو دفاعيّ، فَدومًا ما رأى بيارتور عنيفًا مبالغًا في تعابيره، سواء في النَّثر أم في الشِّعر: «أوه، في الحرب مُثُلٌ عليا أيضًا، وإن كانت غير ملحوظة بوجه خاص». وقال مستطردًا: «أنت بوصفكَ من المتحمّسين لقصائد البالاد القديمة يجدر بك أن تعرف أن وراء كلّ قتال يكمن دومًا مثلٌ أسمى، وإن كل هذا المثل الأسمى لا يظهر كبيرًا وجليًّا في عيون الرجال الذين لديهم أشياء أكثر جدية للتفكير بها».

«مثل أعلى؟»، تساءل بيارتور ولم يفهم الكلمة.

فقال إينار مُفسّرًا: «حسنًا، يعني مغزىً».

«هاه! أنت أول شخص أسمعه يقول إن في حروبهم هذه الأيام أي مغزى. إنهم محض مجانين وسذّج وبسيطين. الأمر مختلف تمامًا عما كان عليه في سالف الأزمان، عندما كان أبطالك يُبحرون إلى أماكن بعيدة في الكرة المعمورة لخاطرِ امرأة منقطعة النظير، أو من أجل أي شيء آخر اعتبروه زهرة في حيواتهم. لكن هذا ليس هو الحال في الوقت الحاضر. إنهم في هذه الأيام يقاتلون لمجرّد الغباء والعِناد. ولكن مثلما قلتُ سابقًا، الغباء أمر حسن طالما بإمكان الأشخاص الآخرين الاستفادة منه».

قال ملك الجبل: «قد يكون في كلامك وجهة نظر معقولة يا بيارتور، إلا أن ذلك يحدو بنا إلى دراسة الحرب من وجهة نظر مختلفة. ما يجب أن ندركه هو أن هذه الحرب العالمية ليست مصحوبة بالخيرات الوافرة فحسب، مثل الأموال الإضافية التي نكسبها نحنُ المزارعين الآن على جميع منتجاتنا، بل مصحوبة أيضًا بأضرار جسيمة ومختلف أنواع الصعاب في البلاد التي شُنّت بها، مثل الكاتدرائية التي دُمِّرت في فرنسا، وهي صرحٌ عظيم قائم هناك منذ ما يزيد على مائة عام».

بصقَ بيارتور بازدراء، وصاح: «بم يهمني وحق الجحيم إذا دمروا الكاتدرائية في فرنسا؟ إنهم موضع ترحيب كبير بالنسبة لي. بإمكانهم قصفَ كنيسة روتسميري نفسها وأبقى غير مُبالٍ».

قال ملك الجبل: «للأسف، ليست الكاتدرائية وحدها. يُقال إنهم لا يفكرون مرتين بشأن تدمير مُدنٍ بأكملها، فكّر فقط، على سبيل المثال، بكمية الذهب والمجوهرات وحدها التي سوفَ تنعطبُ إذا ما سُوّيت مدينة كبرى بالأرض، لندن أو باريس مثلًا. فكّر بكل قصورهم الفارهة تلك. وجميع المكتبات».

«حسن، إنهم لا يدمّرون ذهبي ومجوهراتي. وهم لا ينسفون قصوري. وأما بالنسبة للمكتبات، فقد أخبروني بأن الدود والفئران منهمكة في التهام المكتبة المحلية هنا منذ عشرة أعوام. ولم يتطلب الأمر حربًا».

«فإذن ماذا عن جميع التماثيل القيّمة التي سوف تتهشّم في حال نُسفت مدينة من المدن؟»

«تماثيل؟ وما التماثيل بحق الجحيم؟ ومتى رأيت تمثالًا أنت؟»

كان ملك الجبل بطيئًا في الإجابة، لأنه في الواقع لم يرَ تمثالًا حقيقيًّا طيلة حياته، لا أحد منهم كان يعرف ما هو التمثال على وجه الدقة، ما عدا سيّدة ميري سُمِعت مرة وهي تتحدث عن تمثال ما، وابنة ثورير غيلتايغ الكبرى اشترت كلبًا صينيًا صغيرًا من الخَزف منذ سنوات عديدة. «نعم، على سيرة الصين، تذكرتُ»...

فقاطعه بيارتور الذي لم يعد آسِفًا على شيء: «أوه، ألا ليتهم يباشرون في سحق حثالة مثل الصين، التي هي لا شيء سوى توليفة عَفِنة من الغش والاحتيال. لا أفهم لماذا يجب عليّ أن أقلق إذا اضطرت زمرة من الأجانب إلى الشرب في طاسات عادية أو في أكواب مَطليّة بالمينا. لقد فعلت ذلك طيلة حياتي وكنتُ دومًا على خير ما يُرام».

قال ثورير غيلتايغ: «الآن، إن كنتُ سأعطيك رأيي، يجب أن أقول إن هذه الحرب شُنّت أساسًا لمنح الفرصة للرعاع الفاسقين لغزو بلاد الآخرين، واغتصاب جميع النساء الأجنبيات. سمعتُ من رجلٍ سافرَ إلى الخارج لبعض الوقت بأن خنازير الجنود والجنرالات هؤلاء هم من أشدّ الوحوش التي دبّت على وجه الأرض عُهرًا وفُجورًا. ولا جدوى من تكرار بعض القصص التي سمعتها عن هؤلاء الزناة العسكريين، إذ لا أحد هنا في آيسلندا سوف يصدّقها. عندي ثلاث بنات، ولا أقول مزيدًا عن هذا، وليس خطأي كيف سارت الأمور، لكني كثيرًا ما شكرتُ حظي في الآونة الأخيرة لأنه ما من ضباط فرنسيين – ألمانيين اقتحموا الوطن لكي يمارسوا مناوراتهم الشنيعة على بناتنا البريئات».

وردَّ عليه بيارتور: «يمكنهن دومًا الوقوع في كثير من المشاكل دون حاجة إلى الضباط. ومن منطلق خبرتي بالنساء لا بدّ من القول إن معظمهن يرغبنَ بالتعرّض للاغتصاب، إلى حدٍّ ما. ربما لا يحببن سماع الصدق، لكني أعتقدُ أنني دنوت من الحقيقة جدًّا، لسوء الحظّ!»

ومع ذلك، شعرَ ثورير غيلتايغ أن في القول قسوة على البنات المسكينات، وفكّر، بما لا يخلو من عاطفة، بمصائر بناته الثلاث. ثمّ قال: «كثيرٌ من البنات سوف يكنّ في حالٍ أفضل فقط إن استطعن مقاومة المُكر والدهاء مثلما يحتملن القوّة».

قال بيارتور: «شخصيًّا، لا أرى فرقًا كبيرًا ما بين المكر والقوّة طالما أن الغاية نفسها».

لم يُساهِم إينار في هذه الجزئية من المحادثة. فزوجته وابنته الوحيدة قضتا نحبهما بالسلّ، لذلك لم يكن في منزله أي مسألة تتعلق بالمكر أو القوة. إلا أنه انخرطَ في الحوار مجدّدًا بأن قال: «ولكني أتفقُ مع سيدنا الفاضل ملك الجبل في هذا الرأي، بأنك إذا نظرت إلى الحرب عينًا على المثل العليا التي تكمن وراءها، وعينًا أخرى على كل أولئك الآلاف من الرجال والنساء الذين سُلِبت أرواحهم أو بُتِرت أطرافهم، حينها لا يسعك إلا أن تتساءل عما إذا كان من الأفضل إيلاء مزيد من الاهتمام لحفظِ أرواح الناس بدلًا من تحقيق مجموعة من المُثُل العليا. لأنه إن لم تكن المثل تهدف إلى تحسين مصير البشرية على وجه الأرض، وإنما إلى ذبح البشر بالملايين، فقد يتساءل المرء عما إذا كان من الجدير بالثناء أكثر أن تكون خالية تمامًا من المُثُل، على الرغم من أن حياة كهذه من الطبيعي أن تكون فارغة للغاية. لأنه إن لم تكن المُثُل حياة، والحياة ليست مُثُلًا، فما المُثُل، وما الحياة؟»

قال بيارتور: «حسنًا، إن أرادوها بتلك الطريقة فلا يلومون إلا أنفسهم. من المؤكد أن أي شخص يريد الحرب يجب أن يكون مستعدًا لأن يُقتل. لماذا لا يستطيعون أن يكونوا أغبياء كما يحلو لهم؟ وبما أن الخنازير يمكنها تكبد عناء الذهاب إلى الورطة بنفسها والخوض في تقتيل بعضها بعضًا، بدافع من حماقة أو من مُثُل عليا، فالأمر سواء بالنسبة لي، سأكون آخر من يحزن عليهم على ظهر الأرض. إلى الجحيم على بكرة أبيهم. كل ما أقوله هو ما يلي: ليستمرّوا في حربهم حتى يوم القيامة، طالما أن أسعار اللحم والصوف في ازدياد».

وتساءل كروسي جيل: «ماذا لو لم يبقَ أحد منهم في النهاية؟»

«عجبًا! في تلك الحالة سوف نجهّز قاربًا يسعنا جميعًا يا رفاق، ثم نبحرُ جنوبًا إلى القارّة، ونَتبيّن كيف ينطلقون إلى المراعي في تلك الأنحاء، بلى، ستكون فرصة ممتازة للاكتشاف ما إذا كانت هناك أية احتمالات للزراعة الجيدة. ولن يكون الأمر دُعابة لو أن أحفاد ثورير غيلتاغ انتهى بهم المطاف في صنع تيجان من زهر الهندباء على أطلال مدينة لندن، بعد أن تُحطّم نفاياتهم الصينية اللعينة إلى شظايا؛ نعم وتماثيلهم. وحتّى أنا قد أشرع بحفرِ حديقة من الخضار لنفسي على السهول حيثُ تكون باريس قد أمست والأرض سواء، ها ها ها!»

ملك الجبل: «قد تكون مُحِقًّا بالقول، يا بيارتور، إن الحرب نشأت من لا شيء سوى الغباء المطلق، لكني شخصيًّا أميل إلى الاتفاقِ مع إينار عندما قال إن مقولتك هذه هي مبالغة في الحقيقة. على الأقل أشكُّ في ما إذا كان يحقُّ لنا، أنا وأنت، من نتنعّمُ بكل خيرات الازدهار المتزايدة بسبب الحرب؛ لا أدري إن كان لنا الحقُّ في تسميتها بكل تلك الأسماء الرعناء. ولكن من جهة أخرى، أنا على قناعة بأن إينار تجاوز الصّواب أيضًا عندما قال إن الحرب انبثقت من مثل أسمى محدد. وأودُّ التنويه بأني لا أتحدث عن هذه المسألة بصفتي عضوًا في المجلس الرعويّ، لأن هذه الحرب لا تهمّ مجلس الرعية في حدّ ذاته. لكن، إن كنتُ سأعطيك رأيي الشخصي الخاص بشأن هذه الحرب، وهو في نظري مجرد نوع من الخلاف، يجب أن أقول إن هذا الخلاف، مثل معظم الخلافات الأخرى، وهو في الأول والأخير وليد سوء فَهم. هذه الحرب بقدر ما استطعتُ استبيانها، قد شُنّت بصورة أساسية بين بلدين، فرنسا وألمانيا كما يُطلق عليهما، على الرغم من أن إنجلترا تلعب دورًا مهمًّا بطبيعة الحال، وبالأخص في البحر، حيث تمتلكُ مجموعة هائلة من السفن الحربية الممتازة التي من شأنها أن تكون مفخرة لأي بلد إذا ما استُثمِرت في أغراض نافعة. حسنًا، في يوم من أيام الصيف، بعد فترة وجيزة على اندلاع الحرب، حدث أن أتيحت لي الفرصة لزيارة المسؤول الطبي في المنطقة بما يخص بعض الشؤون الصغيرة المرتبطة بأدوية الحيوانات، وبينما كنا جالسين لتناول كوب من القهوة أحضرَ أكثر الكتب الأجنبية المثيرة للاهتمام، وأطلعني على بعض الصور لهاتين الدولتين، فرنسا وألمانيا. وأودُّ

أن أوضح أني تمعّنتُ في الصور بحسبما سمحت لي الظروف. وتوصلتُ إلى نتيجة، عقب تمحيصٍ مُستفيض ومقارنة دقيقة بين الصور، بأنه لا فرق جوهريًا بين ألمانيا وفرنسا على الإطلاق! وأن كلًا منهما في الواقع نفس البلد، ولا حتى ممر مائي بينهما، ناهيك عن مضيق بحري. كلٌّ من البلدين فيه غابات وجبال، وكلاهما لديه حقول ذرة، وكلا البلدين فيه مدن. من المستحيل رؤية أية فوارق بين المناظر الطبيعية على الأقل. أما بالنسبة إلى سكان هذين البلدين، فأنا لا أخشى الإفصاح بأنهم ليسوا في مناظرهم أكثر بلاهة ولا لؤمًا من أي شعوب أخرى، وبالطبع لا يتبدون أغبياء الطلعة في بلدٍ أكثر من البلد الآخر. بالحكم من خلال الصور، يبدون أشخاصًا عاديين جدًا، ما عدا أن الألمان يبالغون في قصّ شعورهم في حين أن العديد من الفرنسيين ملتزمون بالعادات القديمة المتمثّلة بإطالة اللحى، تمامًا كما في مقاطعتنا على سبيل المثال، حيث يفضّل البعض الإبقاء على شَعره قصيرًا بينما يفضّلُ آخرون إعفاء اللّحى. في حقيقة الأمر، أتصوّر أن كلًّا من الفرنسيين والألمان هم صنف عادي من البشر؛ بمعنى أنهم أشخاص من نوع مسالم مؤدّب كمثلِ كثيرين هنا في الجوار مثلًا. من أجل ذلك توصلت إلى قناعة شخصية، وأنا على استعداد للإقرار به علنًا إن لزم الأمر، بأن الخلاف السابق الذِّكر ما بين هؤلاء الناس ناجم عن سوء فهم. وأن السبب في ذلك هو أن كل واحد منهم يعتقد أنه أفضل من الآخر، في حين أنه في الواقع ليس بينهم فرق حقيقي اللهم إلا بعض الاختلافات البسيطة في طريقة تسريح شعورهم. كلّ شعب من الشعبين يزعمُ أن بلده أكثر قُدسيّة من بلد الآخر بطريقة ما، على الرغم من الحقيقة الجازمة أن فرنسا وألمانيا هما نفس البلد تمامًا، ولا يمكن لأحد يتمتع بكامل قواه العقلية رؤية أي فارق بينهما. ولكن رغم ذلك، إنها لمسألة خطيرة دومًا أن ينحاز المرء إلى طرفٍ واحد عندما يتقاتل اثنان، والأكثر منطقية هو الحفاظ على علاقة طيبة مع كلا الطرفين وعدم التحدث بسوء عن أيّ منهما. ومن جهتي أقول إنني سأنتظر بفارغ الصبر حتى يفوز أحدهما، وليسَ مهمًّا في نظري الفائز، طالما أن طرفًا سيفوز، لأنه حينئذ ستكون احتمالية أكبر في دمج البلدين وجعلهما في بلد واحد، حتى لا ينشأ في المستقبل خلاف لكونهما بلدين مختلفين».

لم يكن أولافور يازتدال شغوفًا بمناقشة الأمور بالمعرفة السطحية التي تخدش القشرة فقط دون المِساس بالنّواة، فقد كان يتمتع بعقلٍ يستهويه التوغل في الأسباب العميقة، ويعجبه بشكل خاص التحقق في الجوانب غير المفهومة والأوجه التي لا يمكن تفسيرها لأية مسألة. انتظر بفارغ الصبر أن يستهلّ الكلام، وعندما فرغ ملك الجبل من حديثه أخيرًا، جهر بصوتِهِ الحادّ واستعجلَ بالكلام ما أمكنه لكي يحقق الاستفادة القصوى من المدة الزمنية القصيرة التي كان يعرف من تجربته السابقة أنها لم تكن سوى معين شحيح في كل محادثة. قال: «عندما يقتل عشرة ملايين إنسان بعضهم بعضًا. أنا شخصيًا لا أبالي إن كان ذلك دون سبب على الإطلاق، أو بسبب مُختالٍ شَكِسٍ مثل ذلك الفتى فرديناند. وكما قال بيارتور: لماذا لا يُتركون وشأنهم مع غبائهم؟ حسنًا، رؤية معتوه فيه شيء من الطرافة، كما يعرفُ كل من رأى واحدًا؛ فكّهُ بارزٌ فوق كتفيه واللعاب يسيل منه، ولكن ما الذي يمكن قوله عن عشرة ملايين معتوه؟ فلنتخيل أن هؤلاء العشرة ملايين من البلهاء يقتلون بعضهم بعضًا، ربما بسبب مغرور مشاكس، أو بلا سبب على الإطلاق، الأمر لا يهمّني. ودعونا نحسبها رياضيًا، ونفرض أن كل خمسة ملايين من كل حزب قُتِلوا، وخمسة ضرب اثنين هي عشرة، كما يعلم الجميع. لنفترض الآن أن كل هؤلاء الحمقى ذهبوا إلى الجنة، لأني وإن كنتُ مؤمنًا بالجحيم فلا أتمنى الشر لأي أحد لدرجة إرساله إلى الجحيم. لنفترض أيضًا أنهم سيلتقون في الجنة في اليوم ذاته الذي اقتتلوا فيه على الأرض، ولا يعنيني إن كان بسبب البلاهة، فهو أمر لا يؤثر على السؤال المطروح، كما قلتُ آنفًا، إذن الجريمة جريمة مثلما يقول إينار أوندرليث. والآن، ها هي ثلاثة أسئلة أفكر فيها ليل نهار، وأعتزم طرحها عليكم، بما أن الفرصة مواتية. أوّلًا، هل يُغفر لهم في السماء اقتتالهم بعضهم مع بعض؟ ولا يهمني إن كان ذلك بسبب سَفَاهة أو خِفّة عقل. في المقام الثاني، هل يشكرون بعضهم بعضًا بأن قتل واحدهم الآخر فساعده بالعبور إلى الجنة؟ أم، في المقام الثالث، هل يستمرون في قتالهم في السماء بحماقة غير منقوصة؟ وإذا ما قتل أحدهم الآخر من جديد أين سيكون مثواهم آنئذ؟ هل سيحين في النهاية وقت يمسي فيه الكون بأسره بالغ الصِّغر فلا يستوعب الناس الذين يقتتلون برعونةٍ

وبلادة، دونما سبب إلى مالا نهاية؟ أتوقع أني سأكونُ رمادًا في المعابد قبل أن أهتدي إلى إجابة على هذا التساؤل، كما هو الحال مع ما تبقى من أسئلة».

***

60. مسألة إيمان

وهكذا، استمرّت الحرب العالمية جالبة معها الرخاء الاقتصادي المتنامي على الأرض وسَاكنيها. طال أمدها لأربع سنوات مُربِحة وأكثر من ذلك، وكلما استطالت زادَ الرضا الذي أثارته في قلوب المجتمع. صلّى الطيبون جميعهم وتمنّوا أن تدوم هذه الحرب إلى يوم الدّين. كثيرون منهم، وبالأخص البسطاء أصحاب الطويّة السليمة، ما كانوا يدعونها سوى بالحرب المباركة، لأن أسعار البضائع الآيسلندية كانت ما تزال بارتفاع في الخارج، وفي القارة كانت دول بأكملها تتحارب –من ضمن جملة أسباب– من أجل شرف استيراد البضائع الآيسلندية. هؤلاء المحاربون الموهوبون ولكن الفرديون الذين كانوا حتى هذا الحين مقتنعين بغضّ الطرف عن آيسلندا المنكوبة بالمجاعة والعبودية والتجار وكل بلاء يمكن تخيّله، أصبحوا الآن، في غمضة عين، يتكأكأون ويتدافعون لشراء صادراتنا ولمساعدتنا بالمضيّ قُدُمًا على دربِ الثروة وصفاء العيش. اضطلع عديد من المزارعين المستأجرين بمهمة شراء الأراضي التي في حوزتهم من مالكيها، وأولئك الذين قبل اندلاع الأعمال العدائية كانوا قد اجترحوا الصعاب والمخاطر للحصول على مزارعهم الخاصة بدأوا يفكرون الآن بتجديد منازلهم. والذين كانوا مديونين حصلوا على فرصٍ لتحمّل ديونٍ أكبر، بينما ابتسمت البنوك بعذوبة مفرطة في الإغواء لأولئك الذين ما كانوا مَدينين بشيء، ولكن من المحتمل أن يطلبوا قروضًا للتوسّعات! وطَفِق الناس يزرعون على نطاق أوسع، وزادوا مواشيهم، حتى إن بعض الناس أرسلوا أولادهم للتعلّم. في بعض المنازل كان يُرى ما لا يقلّ عن أربعة كلاب صينية منحوتة بالأحجام الكبيرة، والآلات الموسيقية حتى، كانت النساء يتمشّين في الأرجاء وقد

تحلّينَ بكلّ أنواع خواتم التومباك[1]. كما اقتنى أشخاص كثر معاطف وجزمات «ويلينغتون[2]»، وملابس كانت في السابق محظورة على الطبقة العاملة. كما شرعت الحكومة في برنامج ضخم من الأشغال العامة.

ومُنِح أولئك الذين حالفهم الحظ السعيد بالحصول على ممثل مثاليّ نشيط مثل إنغولفور أرنارسون في مجلس الشعب بطرقات وجسور عبرَ أقضيتهم. وشُيّدَ طريق سريع من المضيق البحري «فِيورد» إلى وادي بيارتور صاحب البيت الصيفيّ ، وصولًا إلى الدُّور في الريف حول مزرعة روثسميري؛ وسرعان ما دوّت العربات الأوتوماتيكية على امتداد هذا الطريق بسرعة لا يستوعبها العقل، وراحت تُفزع خيول الجميع فتجفل هاربة من تحتهم.

وهكذا، في هذا التمرّغ بالمال والرخاء المبهج اللذين انفجرا كالفيضان على المنازل المتناثرة في البلد، كان من المؤسف أن البعض كما اتضح قد فقدوا حصافتهم وحُسن التقدير، إذ تبدّى جلّيًا أن المقتنيات كانت تُشترى بأسعار عالية بشكل يبعث على السخرية، فكانت الرغبة بالبناء تتعدى حدود التعقّل، وكثرٌ من الأطفال رجعوا إلى البيوت من مدارسهم سواء المتعلّمون على عجلٍ أم الأكثر تعليمًا. ومع ذلك حافظ بعض الأشخاص على رشدهم، وأخذوا كل شيء بأكبر قدرٍ من الهدوء. هؤلاء الأشخاص لم يغيروا شيئًا في أسلوب معيشتهم، ولم يشتروا كلابًا صينية أيضًا. ولم ينفقوا شيئًا على تعليم أبنائهم، بل ضاعفوا مواشيهم بصورة مطّردة، وحسّنوا دُورهم ومزارعهم باعتدال، وواظبوا على الركض بهدوء نحو أهدافهم التي وضعهوها لأنفسهم. كان بيارتور صاحب البيت الصيفيّ أحد هؤلاء الناس. لم يكن أكثر ولعًا من سابق عهده بالكماليات التي لا داعي لها، بيد أنه مع مرور كل سنة كان ينفق مزيدًا من الأموال في استئجار العمال وشراء الأغنام. مرّ عليه

1- التومباك: Tombac / Tombak معدن عتيق عالي الجودة مؤلف من النحاس بالدرجة الأولى مضافًا إليه الزنك والرصاص.

2- ويلينغتون: أحذية ويلينغتون تُعرف في بريطانيا اختصارًا بـ«ويليز»، وهي جزمة مطرية من المشمع أو المطاط أو جلد العجل المصقول اللامع يتخطى أعلاها الركبة.

زمنٌ استندَ في تقويمه وجدولة مواعيده على وصول عاهرة عجوز اسمها فريثا، وكانت محنة مروعة مثلها مثلَ أي شيء له علاقة بحيازة بقرة، لكن تلك الأيام انتهت الآن؛ في وقتٍ ليس يُذكر بلغ عدد مواشيه مائتين وخمسين شاة، وبقرتين، وثلاثة خيول، واستأجر يدًا عاملة، ذكورًا وإناثًا، في الصيف، ومدبّرة منزل وقطيعًا في الشتاء. علاوة على ذلك، لكي يتمكن من إيواء كل هؤلاء الناس الجدد كان عليه توضيب الإسطبل القديم أسفل غرفة المعيشة، وفي المكان الذي كانت فيه فجوة في الحائط لإخراج الروث، كانت فيه الآن نافذة صغيرة بأربعة ألواح. كما يقول المثل، القليل يصنع الكثير، وكان هذا هو النماء المؤكد والموثوق الذي يستمر دونما انقلاب ثورة تدويم، دونما صخب، كما لو كان بحدّ ذاته التطور السليم. الرجل نفسه ظلّ على حاله لم يتغير. لم يسمح لنفسه برفاهية أكبر في أسلوب حياته من التمدّد على كومة من القشّ لمدة أربع دقائق خلال النهار، على أمل أن يتدحرج عنها سريعًا، ويُفضّل في البِركة. وقد طالب عمالته ببذل درجة مناسبة من المجهود في عملهم صيفًا وشتاء، ولم يزل معتادًا على تمتمة مقاطع شعرية محنّكة في أي وقت عندما يكون بمفرده.

واصلت المرأة العجوز العيشَ وفقَ طريقتها الغريبة، مثلَ شمعة نسيَ الربُّ إطفاءها. تمتمت مزاميرها، وانهمكت في حياكتها، ورفضت الاعتراف بأنه أُنشِيء طريق للمركبات عبر الوادي، أو أنه يمكن للسيارات الوصول إلى المضيق البحري في خمس وأربعين دقيقة وإلى أروتسميري في خمس عشرة دقيقة. والحقيقة هي أنها لم تؤمن بوجود أي طريق على الإطلاق، باستثناء طريق الربّ على الأكثر. وصاح القوم بفرحٍ، «ويوجد حرب عالمية أيضًا!» لكنها قالت إنه لا يوجد حرب عالمية؛ وقالت إنها على الأغلب الحرب القديمة نفسها الدائرة في الخارج منذ أمد بعيد حسبما تتذكر؛ حرب عالمية؟ ما هذا الهراء! هذا ما قالته ولم تكن مصدقة أن العالم موجود أصلًا. بيد أنها ظلت مصرّة على القول إنه يوجد لعنة على المزرعة. وعاجلًا أم آجلًا سوف تتحقق هذه اللعنة، وأولئك الذين سيعيشون لرؤيتها سيعرفونها ويتغرّمون تبعاتها؛ نادرًا ما سمح كولمكيلي لمن تشبّث بهذا الكوخ النجاة منه دون عقاب. «لكن غروب الشمس كان جميلًا في أورثارسيل، عِشتُ

هناك أربعين سنة ولم يقع مكروه على الإطلاق». كانت دائمًا ترغبُ بالعودة إلى بيتها هناك.

والآن أتينا إلى الجمعية التعاونية، هذا الاهتمام التجاري المزدهر المعنيّ بالمزارعين الذي يجعل الوسطاء والسماسرة لا لزوم لهم، ويضمن للمنتِج الريفي عائدات عادلة مقابل ما يجب عليه بيعه. سرعان ما أنقذت هذه الجمعيات طبقة الفلاحين في البلاد وصيّرت المزارعين الفقراء أناسًا أثرياء، كما يُقال إنهم فعلوا في الدنمارك. الجمعية التعاونية في «فِيورد» ازدهرت، كما ازدهرت الجمعيات التعاونية في كلّ مكان. طفيليات الأمّة والتّجار إما غرقوا بالكامل أو بالكاد تمكنوا بشقّ الأنفس من رفع رؤوسهم فوق الماء؛ وبات المزارعون يسيطرون بقوّة على جميع شؤونهم الخاصة، من تجارة وزراعة وتعمير وحتى الكهرباء، وذكرت صحف الفلاحين في الجنوب أنه وضِعت الآن أسس للزراعة على نطاق واسع في آيسلندا، زراعة ذات تنظيم مُتمشٍ مع المقومات الحديثة، الزراعة التي سوف تكون المهنة الرئيسية للشعب، وحجر الزاوية في حرّية المجتمع. أولاء الذين يعارضون مصالح الفلّاحين هم أسوأ أعداء الأمة. فليسقط الوسطاء والسماسرة. إنكم تدّخرون خمسًا وعشرين بالمائة بتعاملكم مع الجمعيات التعاونية، فالجمعيات التعاونية تأسست لمقاومة استبداد الرأسمالية ولحماية مصالح المنتِج الصغير والإنسان العادي. إلا أن النقطة الأهم لم تُذكَر بعد. ترمي الجمعيات التعاونية إلى هدفٍ أسمى من مجرد الربح الماليّ. إنها تسعى إلى تحسين البشرية نفسها، لتوسيع آفاق الإنسان، وتثقيفه، وجعله أكثر لطفًا في تعامله مع من هم أقلّ منزِلة.

فيما يتصل بكل هذا، أصبحت ثقافة الفلاحين فجأة الإنجيل العظيم الذي بشّرت به الصحف في الجنوب. كل شيء للفلاحين. طبقة الفلاحين هي دم الحياة في الأمة وعمودها الفقري. الوديان الجبلية هي مهد كل ما هو مثير للإعجاب في العِرق البشري. يخرج الريفيّ إلى مروجه الخضراء في جوٍّ صافٍ ونقيّ، وإذ يتنفّسهُ إلى رئتيه تتدفق عبر أطرافه طاقة غير معروفة، تنشّطُ الروح والجسد. ليس لدى سكان المدينة أي تصوّر عن السلام الذي تجودُ به الطبيعة الأمّ، وبينما لا يزال السلام غير موجود، تروي الروح

عطشها بالابتكارات السريعة الزوال. أما الراعي فهو ممتلئ بالروح البطولية، لأن العواصف المتجمّدة تقوّي عوده وتجعلهُ أكثر صلابة. هذا هو جمال الحياة الريفية. إنها أفضل مؤسسة تعليمية في البلاد. ويحمل الفلّاحون الثقافة الريفية على أكتافهم. الحكمة تتربع على العرش متوّجة إلى جانبهم، نبعٌ دائم من البركة للأرض وشعبها. والطبيعة، نعم، المشهد الآيسلندي جميل بسفوح تلاله، بوديانه، وشلّالاته، وجباله؛ ولا عجب أن أولئك الذين يسكنون في الوديان الجبلية هم الناس الحقيقيون، أهل الطبيعة، الأشخاص الحقيقيون الوحيدون. حياتهم مبذولة في خدمة الله.

لم تكن هيبة حياة الفلاح وفضائل ثقافته في الماضي سوى معتقدٍ من نوعٍ غريب وَعظَت به سيدة روثسميري في اللقاءات الاجتماعية، وبالأخص في حفلات الزفاف، ربّما لأنها ندمت كثيرًا على مغادرة المدينة. وما كانت عِظاتها تلك تلفت انتباه أحدٍ ولا اهتمامه، وما كانت تتركُ انطباعًا أو تُثير استجابة أكثر مما تفعله خُطب القسّ على سبيل المثال. لكنها باتت آنئذ تظهر في الصحف الفاخرة التي كانت تُطبع في الجنوب وتُرسَل إلى كل بيت في البلاد، كانت في كل أسبوع تظهر بشكلٍ أو بآخر. كان الأمر كما لو أن المرء قابل سيدة ميري على كل صفحة منشورة، بوجه أمومي مثل «البابا». وبدأ الناس عامّة يؤمنون بهذا المعتقد، وسرعان ما أصبحت الثقافة الريفية مطلبًا كبيرًا في مقاطعات البلد. بعيدًا عن الشحّ والفقر، بعيدًا عن إرث الأشباح؛ كولمكيلي، من ذا الذي يُتعب نفسه في سماع هذه الترّهات اليوم؟ لا، الفلاح الآيسلندي استيقظ من نوم امتدّ عصورًا. وكانت مسألة شكٍّ كبير إن نامَ أصلًا. وفي وقتٍ لا يذكر شكّل حزبه السياسي في البلد، حزب وجّهت مساعيه ضد المحافظين والأنانيين والسماسرة واللصوص؛ حزب المتعاونين وصغار المنتجين، وعامة الناس، والإصلاحيين المتقدمين، حزب العدالة والمُثُل العليا. كان إنغولفور أرنارنسون جونسون من أوائل الذين ذهبوا إلى البرلمان بهدف صريح ألا وهو القضاء على الظلم، والنضال في سبيل المُثُل العليا للعصر الذهبي الجديد الذي بزغَ فجره؛ وكان بيارتور صاحب البيت الصيفيّ واحدًا من الذين صوتوا له، كان رصيده في سجلات الجمعية التعاونية يتصاعد عامًا إثر عام. فإذن هل بدأ يؤمن بإنغولفور أرنارسون

وبقية الروثسميريين؟ إن كان قد بدأ يؤمن بهم حقًّا فهذا ما لا يمكنُ الجزم به، ولكن الشيء المؤكد هو: أنه عندما كان عمال الطرق التابعون للدولة يشيّدون جسرًا فوق الوادي الضيق الذي يقطع التلال، وذلك في الربيع بعدما أقنع إنغولفور أرنارسون الحكومة ببناء طريق سريع عبر الوادي، وبمدّ جسور فوق جميع الأنهار، في إحدى الأمسيات مشى بيارتور إلى التلال قبل أن يتوقف عمال الطرق عن العمل، وهناك انخرط في محادثة معهم. عَكست تلك المحادثة إلى حدٍّ ما طبيعة معتقداته في تلك الأوقات.

كان العمال يدقون الأسافين في الصخر، ويفلقونها إلى كتلٍ صغيرة، من ثمّ يصقلونها بأزاميلهم. مُدَّ الجسر فوق النهر إلى ما بعد المياه الضحلة، في مكان يجري فيه النهر في أخدود ضيق، لذلك كانت الأعمدة العالية ضرورية واستلزمت كثيرًا من الحجارة لصنعها.

قالَ بيارتور، فخورًا بالفائدة التي كانت تجنيها الدولة من الصخور على أرضه: «أنتم تنحِتون الحجارة يا شباب».

فأجابوا: «نعم، ولكننا نُفضِّل تعرية السيّدات».

قال: «اسمعوا، اللعنة عليكم، هل تظنون أني مشيتُ كل هذه المسافة كي أتبادل النُكات القذرة معكم؟»

«لا، بالطبع، ما فائدة النكات القذرة بالنسبة لك، خَرِعٌ لم يكن له القوة لإنجاب ابنة أو اثنتين لإضفاء البهجة على المشهد لنا!»

ردّ بيارتور هازئًا: «خَرِعٌ؟ إن أردتم منافسة قوتي بقوتكم فمن الأجدى لكم التدرب على أشياء أشد صلابة من تلك الأشياء التي هناك. فهي أضعف من جُبن مصل اللبن».

استفسروا: «هل كنت تريد أي شيء؟»

قال: «ليس لكم الحق في السؤال فوق هذه الأرض على أية حال. أنا من يسأل وأنتم من يجيب».

«هممم، جلالة الملك هو؟»

أجاب بيارتور: «من لا دَينَ عليه فهو شأنه شأن أي ملك. وإن شئتُ

توظيف أحد، فبوسعي أن أدفع له أجرة جيدة مثل أجور الحكومة. وبما أنني تذكرتُ، لا أفترض أنه بإمكان أيّ منكم يا شباب أن ينحت لي شاهدة قبر، هل بإمكانكم؟»

تساءل الرجال بِجدّية، إذ كانوا يحترمون أحزانهم كثيرًا: «شاهدة قبر؟ إنه في الحقيقة عمل أدق مما اعتدنا عليه، كما تعلم».

«أوه، لا ينبغي أن تكون مُتقنة. كل ما أريده هو شيء على شكل شاهدة قبر نوعًا ما، من أجل المظهر فقط، شيءٌ أرقّ كثيرًا في أعلاه مما هو في الأسفل، كما تعلمون».

قال الرجال: «هذا أمر بديهي. ولكن بطبيعة الحال ما من أحد يتولى مثل هذه الأعمال دون تقاضي أجور توازي أسعار العمل الإضافي».

قال لهم إنه لم يُعرف عنه بالبخل، ولا سيما في مثل هذه الأمور. وقد تفهموا هذا تمامًا، قبور أحبائهم هي أرض مقدسة، والمرء لا يُحصي نقوده في مثل هذه الظروف. وكَفّوا عن التحدث ببذاءة.

ثم بدأت المساومة. لم يكن لأي من الطرفين باعٌ طويل في مثل هذه المعاملات. تفاوضوا وقتًا غير قصير. كان هناك حذر من الطرفين، ومجاملة حتى، وبالأخص من جانب البنّائين؛ إلا أنهم توصلوا إلى اتّفاق في آخر الأمر. أكّد بيارتور مرارًا وتكرارًا أن العمل المتقن ليس ضروريًا. هل أراد نقشًا؟ نعم، أراد نقشًا على الشاهدة. آه، هذا يجعل المهمة أكثر تعقيدًا، لم يكن لديهم خبرة بنقش الحروف بأيّ حال من الأحوال.

فقال لهم بيارتور: «أوه، لا ينبغي أن يكون النقش مزخرفًا للغاية. الأحرف الأولى ستفي بالغرض، أو الاسم الأصلي، مع اسم الشخص الذي نصبَ لها الحجر».

سألوا: «أهو لزوجتك؟»

أجاب بيارتور: «آه، لا، ليس تمامًا، لكنه من أجل امرأة. امرأة ظلمناها أنا والآخرون لسنوات طويلة، ربما غالبًا ما يكون الإنسان غير منصفٍ في أحكامه، وبالتالي في أفعاله. فالمرء يخشى خُبز الآخرين».

سألوه: «هل هي مدفونة في روثسميري».

«في روثسميري؟»، كرّر باستياءٍ شديد. وأضاف متفاخرًا بامرأته: «أوه، كلا، ما كانت شغوفة قط بالروثسميريين ولا بمدفنهم أيضًا! إنها ترقد هنا في أرضي، إنها ترقد؛ دعوني أَصِفُ لكم، على مرمى حجرٍ من التلال هنا، على حافة الوادي».

حدقوا به بذهول لبضع لحظات، غير مُتيقنين مما يجب فهمه من هذا النّبأ، إلى أن قال أحدهم في النهاية: «بالتأكيد أنك لا تعني الغول العتيقة، أليس كذلك؟» وقال آخر: «تبًّا لك، هل تحاول الاستهزاء بنا؟»

لكن بيارتور لم يكن هازئًا من أي أحد، ولم يكن مولعًا بالمزاح قط، كان رصينًا وجادًّا، وفي الواقع مرَّ وقتٌ طويل منذ أن أضمر فكرة منح العجوز المسكين حجرًا. كانت ترقدُ في أرضه منذ قرون، في قبرٍ مُخزٍ، وكانت ضحية للقذف والافتراء الذي قرن اسمها بِاسمِ الشيطان؛ لكن آن أوان التكفير عن الخطأ وتطهير اسمها من كل هذه الخرافات البابوية. ولم ينكر بالطبع أنها كانت امرأة منحوسة عاثرة الحظ، ولكنه شكّ في أن تكون قد عانت من بليّة أشد مضاضة من مصيبة الأمة ككل. هو بحدّ ذاته شهدَ أوقاتًا عصيبة، ولكن ما كانت أوقاته هذه بالمقارنة مع الظروف العسيرة التي عانت منها البلاد في الماضي؟ خلال المجاعة الكبرى على سبيل المثال، أو في زمن الاحتكار، عندما بدا أن الشيطان كولمكيلي يُحكِم قبضته الخانقة على الأمة بأكملها؟ من الممكن أيضًا أن المرأة قد تكون ارتكبت أخطاء، ومن منا لم يُخطئ؟ يقول بعض الناس إنها قتلت أناسًا، ومن لم يقتل أناسًا، إن كان الأمر يتعلق بذلك؟ الناس أدنى من التُّراب تحت قدميك عندما تسوء الظروف. قال إنه ينظرُ إليها على أنها جارة له في الأراضي البراح ههنا، وعلى الرغم من أنه حتى الآن لم يؤيد قضيتها، ولكن كان هناك ازدهار في الزراعة وصيد الأسماك هذه الآونة، وبالتأكيد حان الوقت للتكفير عن بعض الأخطاء مع امرأة لطالما أُسيء فهمها. من أجل ذلك اعتزم أن يمنحها حجرًا وعفا الله عما سلف. والأهم من ذلك، كان على استعداد لإقراضها اسمه ليرافقها مستقبلًا عبر العصور بدلًا من البشاعة البابوية التي عَلِقت باسمها حتى الآن؛ وأوعزَ إليهم أن ينقشوا على الحجر هكذا: إلى غونقور من بيارتور.

***

61. تذاكر الدخول

والآن كَبُر غُفْيندور الصغير وَشَبَّ.

كانَ شابًّا واعدًا، لا يختلف عن أبيه في بُنيته وهيئته وحركاته وَسَكَناته، غير أنه أرقّ بطبيعته، ومع ذلك، وبشكل غريب، لم يكن لديه إحساس كبير بالشِّعر أو مهارة في نَظمه. على أيّة حال، لم تكن تلك مَثلبة خطيرة، لأنه بحلول هذا الوقت كان قد كُتِب من الشعر حول معظم الموضوعات الجديرة بالقصيدة، وكان بعضها جيدًا نسبيًّا، ثمّ إن الاهتمام في سنوات مراهقته لم يكن موجّهًا إلى الشِّعر وإنما إلى الرّغد العام على الأرض والبحر وجميع الخيرات المتنوعة التي جادت بها الحرب العالمية هِبة السّماء. كان ضخم الجثّة، تعوزه الرشاقة، له شعرٌ فاتح اللون قلّما يكون مغسولًا أو ممشّطًا، وكانت في وجهه حُمرة، ولهُ عينان طيبتان لا حدّة فيهما وعلى الرغم من ذلك تبدّى منهما العزم والإرادة، ولكن أية إرادة؟ كانَ قويًّا للغاية. كان يُعرف بالابن الوحيد لمالكِ البيت الصيفيّ ، ولقبٌ كهذا له هيبة كبيرة هذه الأيام، عندما ارتفع ثمن الحِملان إلى ثلاثين أو أربعين كرونة، أو حتى أعلى من ذلك، وعندما كانت تربية بقرة في المزرعة، ثمّ بقرة أخرى، ووجودهما لا يثير مظاهر من الغضب، أو اللجوء إلى شحذ السكاكين، وإنما تُقبِّلت على أنها ظاهرة طبيعية؛ وعندما أصبح العامل الوحيد السابق ربّ عملٍ أيضًا ومستأجِرًا للعمال الغرباء القادمين في الربيع والخريف من أمكنةٍ قريبة وبعيدة، الذين على الرغم من مطالبتهم بأجور عالية والعمل فقط أربع عشرة ساعة في اليوم، غير أنهم كانوا بحسب السلّم الاجتماعي في منزلة أدنى بكثير من ابن صاحب المزرعة. في يومٍ من الأيّام سَيرثُ هذه المملكة الصغيرة في الوادي. منذ نعومة أظفاره تمحورت اهتماماته، في الصحو والمنام، على منفعة المزرعة ورعايتها؛ أحبّ الأرض، كما يقول معظم الناس، دون وعي منه في الغالب، وكان مستعدًّا وراغبًا لمحاربة المشقّة والشدائد، دون الرغبة بالتغلّب عليها بالمُثُل العليا. ولم يُنشِد أية فرحة سوى فرحة معرفتِهِ أن الأغنام تتكاثر بنتائج طيبة في موسمها المعتاد، وبرؤيتها تقاوم أحوال الشتاء بقوة تكفيها للكفاح والخروج من الأراضي الموحلة في الربيع. ربما كان هذا

هو الفرح الحقيقي. ومع أن الدور العلويّ أمسى مشوّهًا في شكله، وأرضيته تميدُ بقوة تحت القدم، فإنه لم يعتبرها مشكلة بعينها قطّ. ظنّ بيارتور أنه لا شيء طبيعيًا أكثر من أن يكون عنده ابنٌ كهذا، ومما حيّره هو لماذا لم يكن عنده نصف دزينة من نفس النوع؟ ولكن لماذا يشتكي؟ كان الصبي يبلغ من العمر الآن سبعة عشر عامًا، ويمتلك ستة خراف وزوجًا من الأحذية الجلدية، وبذلة أَحَدٍ زرقاء اللون، وساعة وسلسلة. قلّة من الآيسلنديين يكونون بثرائهِ في سن السابعة عشرة. في حالته، كان ذلك حصيلة دأبهِ على فعل شيء ما، عوضًا عن الجلوس على البلاط في الخارج وإهدار الوقت في ثرثرة عديمة الجدوى، أو تسليم نفسه لسلطة أحلامٍ سخيفة لا معنى لها، أو حتى الأشباح، كما فعلَ أخواه. والآن كلاهما ميتٌ، كلٌّ بطريقته، بينما هو حيّ يُرزق ولديه من الأغنام ستّ.

في هذا الحين شهدت البلاد حركة كبيرة، أو انحلالًا، مثلما يُفضّل بعض الناس تسميتها، تفشّت في المجتمع، وقلة من استطاعوا الصمود في وجه حركة كهذه دون أن يتأثروا بها؛ في وجه انحلال كهذا دون الذوبان به، لا، فقط القليل ظلوا راسخين. كانت هذه الحركة البارزة والانحلال الكبير يَحدثان في الأمور المالية، لأن حياة الإنسان معلّقة بالكامل بمعونة المال، وبعض الناس يعتبرون أن المال وحده هو من يتحكم بها ويسوسها، إما بعدم وجوده على الإطلاق أو بكونهِ كافيًا، أو بكونهِ بين البينين. أدركَ الناس فجأة أن مبلغ المال الذي من الممكن أن يمتلكه أي شخص في أي وقت أكبر بكثير مما كانوا يتصورونه سابقًا. أولئك الذين نادرًا ما ذكروا مبلغًا أعلى من كرونتين في حالاتهم الأكثر جدّية بدأوا الآن يتحدثون عن الكرونات بأرقام كبيرة، والأشخاص الذين كانوا يتعاملون بعشر كرونات إلى عشرين كرونة صاروا يرفضون النقاش في أي شيء ما لم يتجاوز الألف، وحتى الأفراد المتقدمون في السن على نحو يثير البكاء والذين لم يجنوا بنسًا واحدًا لسنوات أصبحوا الآن يقومون بأعمال تنطوي على مبالغ تذكرنا بالأرقام الموجودة في القصيدة الفلكية «**سيولا**». تمكّن ثورير غيلتايغ من شراء مزرعته الخاصة، وزعمَ بعض الناس أنه سدّد ثمنها، ولكن كلّ الأقاويل توارت عندما تمكن فيلسوف مريض بالسل مثل أولافور يازتدال من إبرام عقد

لشراء عقاره، إزاء مبلغ قيلَ إنه بعشرات الآلاف. ووضع آخرون أرباحهم في بنك التوفير في «فِيورد». كان بنك التوفير هذا مرتبطًا باسم وكيل مزرعة ميري، لأنه كان يملك فيه مائة ألف كرونة آيسلندية، على الرغم من أنها قد تكون كذبة، إذ إنه لم يئنّ أحدٌ تحت وطأة الدين الدائم بنصف المرارة التي تجرعها هو؛ وفي بنك التوفير هذا أعطت الأموال فائدة بمعدل هائل، يقول بعض الناس إنه بمجرّد إيداع أموالهم في السجلات فإنها تتكاثر كما الفئران. كان بيارتور صاحب البيت الصيفيّ من بين هؤلاء الذين كان لهم أموال في هذه المؤسسة. كانَ اسمه معروفًا في بنك الادّخار وكان مسموحًا له بالفائدة. ورغمَ كلّ ما سبق كان الروثسميريون يولونه اهتمامًا في هذه الآونة. كان الأمر كما لو أن العالم بأكمله قد انقلب رأسًا على عقب.

والآن من عساه يقف على الرصيف سوى الوكيل نفسه، مع فريق من ثلاثة خيول كأنه ظنَّ أنه وُهِب ثلاث مؤخرات! وقد ارتدى حذاء لا بد أنه أُعطيَ له على سبيل تصفية دين؛ خيرات الحرب العالمية انهمرت على العالي والواطئ. كان يتشكّى من فقدان حدوة أحد خيوله. قالَ متبرّمًا: «بالمناسبة، لقد أحدثوا كثيرًا من الفوضى والتخريب في مراعي المستنقعات بطريقهم اللعين ذاك».

أجاب بيارتور: «أوه، إنها مستنقعاتي كما تعلم!»

الوكيل: «قيل لي إن حَمَاتك لم تزل على قيد الحياة».

بيارتور: «نعم، على حسابي أنا وليس حسابك. لم تأكل قط خبز الآخرين، رغم أنه كانَ وقتٌ أردتَ فيه أخذها بعيدًا من هنا والاحتفاظ بها على حساب معونات الرعية».

«ما الذي حصل لمزرعتها؟»

«أية مزرعة؟»

«مزرعتها. مزرعتها الخاصة. ما الذي حدث لها؟»

«أوه، إنها على ما أتوقع ما تزال واقفة في *ساندغيلس هِيث* على حالها، مثلما كانت دومًا».

قال الوكيل: «كنت ولم تزل وغدًا وعنيدًا شَكسًا. أسوأ من عرفته على

الإطلاق. اللعنة إن كان بإمكان الواحد أن يأخذ منك كلمة واحدة لائقة في يومٍ جميل من بواكير الربيع!»

«إن أكثر ما يتذكره الإنسان هي الأشياء التي تعلّمها في طفولته. وأنا لم أحصل على تعليمي على بعد مائة ميلٍ من شخص أعرفه».

قال الوكيل: «سمعتُ أنك تفكر في بيع هذا المكان والذهاب إلى هناك بعيدًا».

«بعيدًا إلى أين؟ هذه كذبة».

«فإذن ربما تفكر في بناء بيت جيّد لك هنا؟»

«سأفعل ما أراه مناسبًا، في البناء أو غيره».

«فكرت أن أسألك فقط في حال كان الأمر صحيحًا. وحتى إن لم يكن صحيحًا، من المحتمل أن أفكر في تقديم عرض لك بشراء حظائري الشتوية هذه منك».

قال بيارتور: «حدثَ أن صارَ اسم هذا المكان البيت الصيفيّ منذ ثمانية عشر عامًا يا صاحبي. ولكن لا عجب أنك نسيت، فقد مضى وقت طويل منذ أن جَمَعَنا شيءٌ مشترك. والآن دعني أخبرك بهذا؛ من الأكثر ترجيحًا أن تغدو روثسميري يومًا ما ملحقة بالبيت الصيفيّ من أن تُضَاف أرض البيت الصيفيّ إلى أرض روثسميري».

قال الوكيل: «إن روثسميري تحت أمرك متى شئت. سبعون ألف كرونة ومباركة لك».

«سوف أشتريها متى ناسبني الأمر».

«إذن قد يمكنك أيضًا أن تبيعني حظائر الخراف الخاصة بي وتردّها لي ثانية، بينما تفكّر بأمر روثسميري. وسأدفع لك فورًا، عشرة آلاف».

بيارتور: «نعم، وربما جميع النقود مزيفة».

قال الوكيل: «خمسة عشر ألفًا».

لم يعطِ بيارتور أي جواب على هذا الكلام سوى أنه مشى بِتخايلٍ حول الوكيل بينما كان يلخص سيرة نسبه وسمعته في بضع كلمات بليغة، مثلما

فعل من قبل مئات المرات. ولكن في هذا الوقت كانت حدوة الحصان قد سُمِّرت من جديد، وكان الوكيل يستعدّ لاعتلاء صهوة حصانه.

وبينما كان يمتطي ظهر الحصان قال الوكيل: «قلتُ خمسة عشر ألفًا. من غير المؤكد أن أكرر هذا العرض ثانية. ولكن إن كنت تفضل البناء فافعل ما بدا لك. وإن احتجت إلى قرضٍ من بنك الادّخار من أجل أغراض البناء، فلن أعترض سبيلك بكل تأكيد».

خمسة عشر ألف كرونة، هذا البخيل الشحيح ذو السروال المرقّع، الذي لا يتخلّى عن بنسٍ واحد قبل أن يقلّبه في كفّه ثلاث أو أربع مرات، هل قال خمسة عشر ألف كرونة؟ أكان الرجل مجنونًا؟ كل شخص يعلم أن خمسة عشر ألفًا دفعة واحدة لا بد أنها أموال مزوّرة، إلا إذا عمل المرء من أجل الحصول عليها بنفسه، ولن يفعلها أحدٌ أبدًا. سأصنع معه معروفًا إن تتبّعته على حصاني وقتلته، مثلما فعل إيغل سكالاغريمسن[1] حينما ترك سكالاغلام درعه وراءه في «بورغ»، ونُسِجت حوله الملاحم، وبُطِّنت الفراغات ما بين الكتابة بالذهب ورُصِّعت بالأحجار الكريمة. لماذا كان عليه أن يعرض عليه المال، إن لم يكن من أجل المزرعة، فمن أجل أمن المزرعة؟ لماذا لا يمكن للروثسميريين أن يتركوا مزارع الوادي في سلام؟ ولماذا يقدمون له دومًا عروض المساومة هذه؟ لا، كان عازمًا على الحفاظ على أرضه حتى النهاية، الأرض التي عاش عليها هو وأغنامه، الأرض التي عاشَ لأجلها مع أغنامه، وحيث عاشَ من أجل أغنامه. وذات يوم، عندما يوافيه الأجل، مثل الأغنام، سوف يستلم ابنه الوحيد راية مُزارِع الوادي، وَيَتنكّب مسؤولية الثقافة الريفية، وهكذا دواليك في المستقبل لألف عام قادمة. وإن كان سيبني مباني جديدة، وقد كان عازمًا على البناء، سيكون ذلك كلّه في الوقت الذي يناسبه هو، وليس بتحريض من الروثسميريين، وإنما بدافع من أسباب متعلقة به وحده. «غُفْيندور يا بُنيّ، لا تسمح لهم أبدًا بإغوائك بالمال، إن عشتَ، وأعلمُ أنك ستعيش لكي تصبح مالك هذه

1- إيغل سكالاغريمسن (904-955): Egill Skallagrímsson شاعر ومزارع ومحارب من عصر الڤايكينغ. بطل ساغا إيغل وهي ملحمة آيسلندية شهيرة (ملحمة عائلية) تدور حول حياة عشيرة إيغل سكالاغريمسن.

الأرض. الأرض هي التي تعيش عليها الأغنام. والأغنام الحسنة، الأغنام المعافاة السليمة، الأغنام بأصوافها الكثيفة، وبحالتها الجيدة عقب فصل الشتاء، هي أُسس حرية الإنسان وسُمعته الحسنة».

بلى، نِعمَ الرجل هو من استطاع الوقوف ثابتًا كما الصخرة في تلك الأيام، عندما كان كل ما يحيط به، بما في ذلك المال ووجهات نظر الحياة، طافيًا ويدوّم في تغيير مستمر، عندما جُرِفت أعتى الأسوار الفاصلة بين البشر والأشياء في الزمان والمكان، عندما غدا المستحيل ممكنًا، وتحققت رغبات الذين لم يكن لهم الجرأة حتى لتمني أمنية. يا للعجب، كان الخبزُ يُقدم طعامًا للخراف، تمامًا مثل الشريف وغيره من كبار المسؤولين، ووُضِعت دِلاء مملوءة بأسماك الرنجة من الدرجة الأولى أمام الأبقار غير المدربة؛ وسَحقت الدواب هذه الطيّبات وقد بانت عليها ألطف التعابير، فكانت آذانها مشرئبة إلى الوراء وعيونها مغمضة في نشوة حالمة. كان الآيسلنديون يبحرون بسفنهم إلى أميركا، الشيء الذي لم يفعلوه منذ أكثر من تسعمائة عام، عندما عثرَ ليف[1] المحظوظ على تلك الأرض وذهب إليها ثم فقدها من جديد. نعم، بالفعل كان كلّ هذا عظيمًا في قوّته، وواسع النطاق. من ثمّ في خضمّ هذا الطوفان من الحظ السعيد، الذي حطّم كل سدٍّ وفاضَ من كلّ قناة، وفي فترة تجاوز فيها الناس القدرة على التعجّب من الأحداث الكبرى أو الانزعاج من الكوارث المفاجئة، في ذلك الحين وصلت رسالة إلى السيد غودموندور[2]جودبيارتسون وكان عليه أن يذهب لاستلامها بيده، والتوقيع في روثسميري، ولم يجرؤ على فتحها إلى أن وصل إلى أعالي التلال من جديد، لأن آخر ما يبتغيه كان أن يتشمّم الروثسميريون شيئًا من أسراره الخاصة. قعدَ في جوفٍ، حيث كان العشب الجديد بالكاد يشقّ طريقه بين عشب الشتاء الذابل، فقد كان ذلك في أوائل شهر أيّار، ثمّ فضّ

1- ليف إريكسون (970-1020): مستكشف إسكندنافي من آيسلندا، يُعتقد أنه كان أول أوروبي وطئت قدمه قارة أميركا الشمالية (باستثناء غرينلاند) قبل كريستوفر كولومبوس بحوالي خمسمائة عام.

2- غودموندور: يُشار إلى أن غودموندور Guðmundur هو اسم مذكر آيسلندي ويُختصر أحيانًا إلى غومي أو غُڤيندور.

الرسالة. وسقطت منها قصاصتان ورقيتان زرقاوان، كُتِبَ عليهما أحرف أجنبية، مع توقيع متقن مُنمّق بكل أشكال الزخارف. على القصاصة الثالثة كُتِبت بضع كلمات بخطٍّ واضح، بتوقيع نوني، وكان محتواها الآتي: «مائتا دولار يرسلها لك الخال كي تتمكن من القدوم إلى أميركا، الحرب انتهت، والأحوال جيدة، بإمكانك أن تصير ما تريد».

حتى أكثر الناس ارتباطًا بالأرض على الإطلاق، لم يكن مرتبطًا بالأرض قط لدرجة عدم قبوله الذهاب إلى أميركا. يُقال إنه على مدى المائة عام الماضية رحل أكثر الناس ارتباطًا والتزامًا بالأرض إلى أميركا، على متن سفنٍ بخارية كبيرة، عبر البحار الشّاسعة. الشيء الوحيد الذي يمنع أكثر الناس ارتباطًا بالأرض من التخلي عن أرضهم ليست الأرض نفسها، وليست روابطهم معها، وإنما قلة المال للوصول إلى أميركا. مَثَل هجرة أهل آيسلندا ومزارعيها، جوهر الأمة ودمها وعمودها الفقري، الثقافة الريفية السليمة مجسدة في أشخاص؛ مَثَل هجرتهم هذه إلى أميركا على مدى أربعين سنة في منظرٍ سخيف أحمق كمَثَل تِيه بني إسرائيل في الصحراء، والأطباق تحت أذرعهم، والبطانيات عابقة برائحة طيور البفن، كما لو أنه لا يوجد أطباق ولا بطانيات في أميركا. وهكذا قيلَ لنا، طارت زهرة بولندا، وشريان حياتها، إلى أميركا على مدى خمسين إلى مائة عام، وما زالوا ينتقلون أيضًا إن سنحت لهم الفرصة، ليس ببطانياتهم فقط، ولكن مع عجلات عربات القمامة القديمة لديهم أيضًا، خشية أن تكون العجلات غير معروفة بعد في أميركا. خذ على سبيل المثال هذا الفتى الذي كان جالسًا هنا في عشب الشتاء الأبيض في آيسلندا، غودموندور جودبيارتسون، سبعة عشر عامًا، ستة خراف، وحذاء جلدي لمّاع، وغير ذلك. سيكون من الصعب عليه فعلًا تخيل أي شخص كان قلبه متجذرًا في رقعة واحدة من الأرض في الأراضي البور، وواد مع جبل وبحيرة، وإرث من نسب لا محدود عبر الأجيال، احتمالات لا حدود لها في عيون أطفاله الحالمين بالربيع. لم يسبق لأحد أن عاش بسعادة أكبر في حضن ملكة الجبل، كما يقولون في الشعر. قصاصتان من الورق الأزرق مزينتان بزخارف غير مقروءة، وانتهى كل شيء وقضي الأمر. كان متأكدًا من أنه لن

يسمع غناء الطيور الآيسلندية، وقد بدأ بالفعل في ذهنه بوداعِ الوادي الذي أوجده، الوادي الذي كان في الواقع هو نفسه، وكان عازمًا كل العزم على أن يكون شيئًا آخر، أن يريد ما يكون في بلدٍ تُقاس فيه مواشي الفرد بالأبقار والثيران، ولا أحد يتنازل لذكر شكل متدنٍ من أشكال الحياة الحيوانية مثل الخروف.

عندما قفل عائدًا إلى الوادي، إلى البيت الصيفيّ، والله يعلم أن الكوخ بدأ هذه الأيام يميل بدرجة غريبة في أحد الاتجاهات، كان ذلك لإبلاغ والده بأنه سيذهب إلى أميركا. ورقتان نقديتان، أطنان من المال، الحرب انتهت، بوسعه أن يصير ما يريد، مربّي ماشية على نطاق ضخم، وربما نجّارًا مثل خاله.

وقفَ الأبُ على الرصيف، وهو يحدّقُ بعمقٍ في الوادي حيث نفترضُ أنه رأى سلالة عائلته في أحلام الربيع المستقبلية تنمو وتزدهر. صحيح أنه ربما لم يسبق له أن رأى مثل هذه الرؤية، وربما لم يكن لديه غايات سامية واضحة بما يخصّ كَدحه، أو لم يمنحها أي مدلولٍ شاعريّ، أكثر من الفرنسيين والألمان الذين قتلوا مليون إنسان دون سبب على الإطلاق، أو كما يعتقد بعض الناس لمجرد التسلية؛ إلا أن ذلك لم يبدّل الحقيقة البارزة، التي بقيت ثابتة وأكيدة، وغير قابلة للتغيير: ذات يوم سوف يموت ويغدو هباء منثورًا، ومن سيتولى أمر الأغنام حينذاك؟ أكانت قصاصتان من الورق الأزرق هما كل ما يلزم لاقتلاع فتىً ريفيّ سليم له ماض ممتد منذ ألف عام في البلد، وهو من كان في انسجام ووئام تامّين مع الأرض والشعب؟ ألم يكن في حاجة إلى شيء أكثر لإقناعه، في غضون دقائق قليلة من المشي من التلال إلى الأرض، بخيانة الأرض والشعب ونفسه في الماضي والحاضر والمستقبل؟ رغم كل ذلك كان كل ما قاله هو:

«لا تثق أبدًا بالرسائل الواردة من أميركا، فهي تعجّ بالخيلاء والتبجُّح دومًا. وما يقولونه عن تغذية الماشية هو في الغالب أكاذيب».

قال الصبي: «نعم، ولكن يمكنني أن أكون نجّارًا».

بصقَ الأب وأجاب: «لقد عرفتُ نجّارين كثرًا يا فتى، إلا أني لم أقابل بعد

شخصًا أحرزَ تقدّمًا على الإطلاق. إنهم يجوبون الريف من ناحية إلى ناحية، يدقون المسامير من أجل الآخرين. الحجر المتدحرج لا يجمع الطحالب».

أمسكَ الفتى عن الكلام بعناد، لذلك بعد مدة قصيرة أضاف والده: «خسرتُ معظم أبنائي حتى الآن، كل واحد منهم بطريقته، ولم أتلفّظ بكلمة. ذَهبَ ما ذَهب. ولكن أنت من تعرف كيف تتعامل مع الأغنام! كنتُ لأنهال بالعصا على قفاك فقط لو كنتَ أصغر سنّا بعام واحد».

فقال الفتى: «عندما يُمنح شخص بقدر المال الذي معي لماذا لا يستخدمه في إلقاء نظرة على بلدٍ أكبر؟»

«بلد أكبر؟ لا تتفوه بمثل هذه الحماقات اللعينة. إن مزرعة البيت الصيفيّ كبيرة مثل أي بلد آخر، ومن لا يمكنه التفوّق والمضيّ إلى الأمام في البيت الصيفيّ لن يتمكن من ذلك في أي مكان آخر. لن تفلح في أي مكان آخر. كان الأمر مختلفًا تمامًا مع أخيك جون؛ ولدَ وبِدمه حبّ السّفر، وكان قلبه مُقبِلًا على أشياء أخرى غير الخراف. ولكن أنت على دراية بالخراف كما يدري بها قلّة من الناس، ولن أدعك تذهب أبدًا. كنتُ أنوي ترك المزرعة لك أنت. كنتَ دائمًا أكثر أولادي ولاءً، وعلى الرغم من أنك ما زلت صغيرًا، قد يحين اليوم الذي تتزوج فيه زيجةً ناجحة، وتكون قادرًا على اعتبار نفسك من المزارعين مُلّاك الأراضي».

ردّ الصبي كلمة بكلمة مُتعمِّدًا: «أبلغ من العمر سبعة عشر عامًا. ومن المسموح لي إدارة شؤوني الخاصة. ومع أنني كنتُ دومًا مولعًا بالخراف، فأنت لا تعرف بمَ كنتُ أفكر بيني وبين نفسي أحيانًا، وإن لم يسبق لي أن فكرت بصوتٍ عالٍ. غالبًا ما اعتقدتُ أنه إذا أُتيحت لي أية فرصة فسوف أغتنمها وأنا متأكد أن هذا هو الحال مع الجميع، سواء في سنّي أم أكبر. لا يجرؤ الشخص على المجاهرة بما يفكر أو بما يطمح إليه، لذا فهو ببساطة يستمر بعمل شيء، وبعض الناس يستمرون في عمل شيء حتى يدركهم الموت. بالكاد صدقتُ عينيَّ عندما فتحت الرسالة على التلال، لم أجرؤ قط على التفكير بأي شيء أو الأمل في أي شيء بصوتٍ عال، على الرغم من أنني ربما كنتُ أفكر وأتمنى لا شعوريًا. قد تكون هذه هي الفرصة الوحيدة

التي تأتيني طيلة حياتي. أنا لستُ أحمق، ولكنني سأكون أحمق بالفعل إن لم أستغل هذه الفرصة الوحيدة للخروج إلى العالم، وأن أكون شيئًا في العالم، تمامًا مثل أولئك الذين كانت لهم الجرأة للتفكير بصوتٍ عال».

قال الأب: «كفاك هذرًا، ما الذي تعرفه عن أيّ عالم لعين بحقّ الشيطان! ما العالم؟ هذا هو العالم، إنه ههنا، البيت الصيفيّ، أرضي، مزرعتي هي العالم. ومع أنك تخطط لابتلاع الشمس في نوبة من الجنون اللحظي لأنك رأيت ورقتين نقديتين زرقاوين من أميركا، من الواضح أنهما مزوّرتان شأنهما شأن أي مبلغ مالي كبير يقع في يد الفرد ما لم يعمل هو من أجل الحصول عليه بنفسه. عاجلًا أم آجلًا سوف تكتشف أن البيت الصيفيّ هو العالم، وحينذاك سوف تتذكر ما قلته لك».

وهكذا بمشاعر طغى عليها الفُتور انفضَّ بينهما الكلام.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

62. وِحشَة

لم يَبذل أية محاولة أخرى لفتح باب النقاش مع ابنه، فمن علامات الضعف معاودة النقاش مع أي أحد. الرّجل المستقل لا يفكر إلا في نفسه، ويتيح للآخرين القيام بما يحلو لهم. هو بحد ذاته لم يكن يسمح لأحد بمعاودة النقاش معه. ولكن منذ ذلك اليوم فصاعدًا كان ابنه قد رحل بالنسبة له. إذ لم يَعد يُكلّمه، وما عاد يعطيه أوامر العمل لليوم، وإنما شرع يعمل مع العامل في قناة عميقة كان قد نوى حفرها في المستنقعات، عمِلَ مثل المجنون منذ الفجر وحتى الغسق. من جهته التزم الصبي بالصمتِ أيضًا، كان الفراق الوشيك يثقل ذهنه بحزنٍ خالطهُ القلق، إذ إن الأرض كانت تسري في دمه، بلا كلمات، وبلا أفكار. وفي ذلك الحين شعر بأنه على وشك مغادرة الأرض، والانطلاق إلى الجوّ، إلى أصقاع بعيدة مجهولة. لكن الأمر ليس بيده، وليس بيدِ أحد. فهو شخص واقعيّ. لقد تصالح مع طبيعته هذه منذ الطفولة؛ وكانت لديه القدرة على مواجهة كلّ شيء، وربما كان لديه من الشجاعة للمواجهة طيلة حياته. ثم في يوم من الأيام أومأت المسافات

له بالاحتماليات العائمة، وكانت في يديه تذاكر الدخول، وقصاصتان من الورق الأزرق. ما عاد شخصًا واقعيًا. وقد أضناه الاحتمال؛ لم يعد لديه الشجاعة للمواجهة، لقد أمسى تحت تأثير مسافات مضيافة تلوّحُ له بيدها، احتمالات عائمة، ربما للأبد بعد ذلك. قد تكون حياته انتهت الآن ههنا.

قال: «سأغادرُ في الغد».

ما من جواب.

«هل تودُّ شراء أغنامي مني؟»

«لا، ولكن سوف أُغرقها لك في المستنقع».

«حسن جدًا، في هذه الحالة سوف أقدمها هدية لآستا سوليليا عندما أمرّ من فيورد».

قال الأب: «ها! لا بد أنك جُننت. سوف تُقتل».

«لا يوجد حرب الآن، الحرب انتهت».

وانتهى الحديث عند هذا الحدّ.

قال الفتى: «جدّتي، سأغادر غدًا».

قالت: «أوه، لن تذهب إلى مكان بعيد ولا ريب».

«أنا ذاهب إلى أميركا».

وضعت صنارتيها في حِجرها، ثم نظرت إليه بطرف عينها نظرة شكٍّ وريبة حينًا من الوقت؛ ثمّ أقحمت إحدى صنارتيها تحت غطاء رأسها، وحكّت رأسها بطرف الصنارة بضع دقائق. وقالت: «حسنًا، لقد هزَّ كلامك القملَ في رأسي». ثم استأنفت الحياكة.

في صباح اليوم التالي نهضَ وكلُّ ملكاته خاملة متثاقلة، كما لو أنه على وشك الانطلاق في الجوّ. ودّع جدته بكلمات وداعٍ خالية من الشِّعر. لم تطلب أن تُذكَر لأقاربها في أميركا. وبما أن والده لم يُعطِه حصانًا فقد انطلقَ راجِلًا في بذلة الأحد الزرقاء، وبِساعتِهِ وسلسلته، وكان حذاؤه المصنوع من الجلد اللامع ملفوفًا بمنديل تحت ذراعه، لأن أمتعته كانت قد تقدّمته. رفعَ جوربيه فوق سرواله كي يحمي سافلته من الطين. كانت الطيور مزقزقة.

وكانت تحيط بالجبال أحزمة بيضاء من الضباب هنا وهناك. بينما كانَ الحقل مغسولًا بالندى، والمستنقعات صفراء ضاربة إلى اللون البني، وخضراء في البقع الجافة. كان والده يعمل في القناة، فمضى إليه ليلقي تحية الوداع. لم يكلف بيارتور نفسه عناء الخروج من القناة حتى، وإنما قال له «مع السلامة» من الوحل بالأسفل.

قال الصبي بخجل وهو واقف على حافة القناة: «أبي، لا تُسِئ الظن بي».

فأجاب: «أخشى أن يُسيئوا معاملتك يا ولدي. إنهم يقتلون كلّ من بهِ أدب واحتشام. ولكن لو بقيت هنا، لكان بمقدورك أن تصير رجلًا مستقلًّا مثلي. إنك تتخلى عن مملكتك لكي تصبح عبدًا للآخرين. لكن لا جدوى من التذمّر. سأقف هنا وحدي، هذا كل شيء. وسأظل صامدًا ما دمتُ واقفًا على قدميّ. ويمكنك إخبار نوني بذلك أيضًا. وحظًّا سعيدًا لك».

وهكذا فقدَ ابنه الأخير بينما كان واقفًا في حفرة عميقة، في تلك المرحلة من حياته المهنية عندما كان الرخاء والسُّؤدد على مرمى البصر، بعد صراع طويل من أجل الاستقلالية التي كلفته كل أبنائه الآخرين. دع أولئك الذين يرغبون في الذهاب يذهبون، لربما كان كل ذلك للأفضل. الرجل الأقوى هو من يقف وحده. المرء يولد وحده. ويموت وحده. فإذن لم لا يعيش وحده؟ أليست القدرة على الوقوف وحيدًا هي الكمال في الحياة، أليست الهدف المنشود؟ ومضى إلى الحَفْر من جديد. ثمّ داهمه خاطرٌ فجأة، فألقى مجرفته، وَتسلّق إلى الضفة، كان الصبي قد ابتعدَ قليلًا عبر المستنقعات.

صاحَ الأبُ: «هِيه»، وركَضَ خلفه حتى أدركه. «ألم تقل شيئًا عن آستا سوليليا ليلة البارحة؟»، «قلتُ إنني أريد إعطاءها خرافي إن لم ترغب في شرائها».

قالَ والده: «آه، فهمت». كما لو أنه لم يتذكر مناسبة الحديث. «آه، حسنًا، وداعًا إذن. ولكن تذكر أنه على الرغم من انتهاء الحرب، فإن هذا لا يغير حقيقة أنهم قادرون على قتلك بدافع الغباء المطلق. هل تعتقد أن الرجال المجانين كفاية لشنّ حرب لمدة أربعة أعوام سيصبحون فجأة نماذج للفضيلة والفطنة لمجرّد أنهم وقعوا على اتفاقية سلام؟ لا، إنهم مجانين جميعًا».

لم يستطع ابنه التفكير في أي شيء مناسب للإجابة على هذا الفِكر العميق.

وإذّاك قال الأب وهو ما يزال يمشي بجواره: «إن سنحت لك الفرصة لرؤية آستا سوليليا يمكنك أن تقول لها إني خرجت في رحلة عبر الجبال في الجنوب ذات يوم من بواكير الربيعِ، وبأني عندما كنتُ واقفًا أتأملُ صخرة معينة، خطرَ في بالي مقطعان من الشِّعر. وكانا على الشكل الآتي:

وحِشةٌ مُتربِّصةٌ بين الجِبال
وشحوبٌ يلوحُ من هاماتها المتسربِلة بالضّباب،
ثَمّ صخرةٌ ثاويةٌ بِكآبة كَالحة،
قاتمة كانت الصّخرة مُتجهّمة، مَزهوّة عَاتية.

لا زهرة مُبهجة تَطلعُ من خاصرتها
المحميّة من الرِّيح، لِتبدّد كآبتها.
زهرتها هَربت. ملعونةٌ هي
«النورنز» التي بتلكِ القَسوةِ حكَمت.

«هل تعتقد أن بإمكانك تذكرهما؟»

أجاب الصبي: «يمكنني تذكر أي شيء أفهمه. ولكن ماذا تعني تلك الأبيات؟ هذا البيت عن *النورنز*[1] مثلاً؟»

«هذا ليس من شأنك، إنها فقط بضعة أبيات عن صخرة. أنا لا أؤمن بأي نُورن ولم أؤمن بها قط. وبرهانًا على ذلك يمكنك القول إني نصبتُ شاهدة على قبر العجوز غونڤور بِاسمي. ولكن ذلك لا يمنعني بالطبع من قول ما يناسبني في الشِّعر».

حفظَ الصبي الأبيات في ذاكرته ولم يطرح مزيدًا من الأسئلة.

1- النورنز (وردَ ذِكرها آنفًا) مفردها نورن: Norn آلهة المصير في الأساطير الإسكندنافية أو النوردية؛ هي كائنات أنثوية تحكم مصير الآلهة والبشر. وهي تقريبًا تتوافق مع القوى المتحكمة بمصير البشر، كالقدر في الأساطير الأوروبية الأخرى.

في النهاية قال بيارتور: «بالنسبة إلى ما تبقى، يمكنك إخبارها أن كل شيء على حاله هنا، سوى أن الكوخ بدأ يميل إلى الأمام قليلًا منذ عام أو عامين، وكان ذلك خلال الشتاء القاسي الذي حلّت به موجة صقيع شديدة. ولكن عندما أبني بيتي الجديد سأبنيه بطريقة لن يميل بعدها. وبأنني سوف أبنيه عاجلًا وليس آجلًا. لكن لا تخبرها بأن هذا الكلام مني».

لدى ذِكره هذه الكلمات رجع إلى عمله.

***

63. عن بلاد الأحلام

في هذه الأوقات لم يعد الذهاب إلى أميركا يُعتبر عملًا من أعمال العار أو الخِزي، يمكن مقارنته بالسعي للحصول على إعانة من الأبرشية أو الذهاب إلى السجن بما لا يصلح إلا لأرذال المجتمع؛ لقد بات الذهاب إلى أميركا اليوم يعادل مهابة الذهاب في رحلة بحرية ممتعة. لم يعد يُشار إلى المهاجرين على أنهم متشردون ومتسكعون مزمنون، أو بضائع رديئة صدّرتها مجالس الرعية بكل سرور، لا! كانوا أشخاصًا يحملون أموالًا في جيوبهم، ويعبرون البحار لرؤية أقاربهم وأصدقائهم النبلاء. أصبح الآيسلنديون في أميركا أناسًا نبلاء دفعة واحدة، إذ رويَ عنهم على نحو موثوق أنهم يمتلكون كثيرًا من الأموال، وكان من الجدير بالثناء البدء بالبحث عن هؤلاء الأثرياء أصحاب النفوذ. غُڤيندور من البيت الصيفيّ، شاب لم يسبق له أن أثار أية ضجة خلال زياراته السابقة إلى فِيورد. غُڤيندور من البيت الصيفيّ كان في المدينة ومعه مال في جيوبه، مائة كرونة، وألف، وربما أكثر، وعلى وشك ركوب سفينة عبر الأطلنطي لزيارة أقاربه، الأشراف المفلحين المرزوقين. وصار على الفور شخصية محترمة للغاية في فِيورد في الساحل، بينما كان في انتظار السفينة البخارية، وقدّمَ له العمدة قهوة عندما استدعاه من أجل جواز السفر، وحتى إن زوجة العمدة أتت لإلقاء نظرة عليه لأنه كان ذاهبًا إلى أميركا. كما استوقفه في الشارع رجلٌ ذو نباهة عظيمة –لم تبصره عينه من قبل– ودعاهُ للدخول، وقدّم له مزيدًا من القهوة، وعلّمه كيف يقول «يس

موني أولريت»، حتى يتمكن من تحقيق النجاح في الحياة في أميركا. في مكاتب شركة الشحن تلقى محاضرة حول كيفية التصرف في ريكياڤيك، مَن يُقابِل، ولمن يدفع نقود العبور. وأعطاه شخص سيجارًا ليدخنه، وتقيأ على الشاطئ. كثيرٌ من الناس استوقفوه في الشارع وسألوه إن كان هو الرجل الميمون. نعم لقد كان الرجل الميمون. وظهرت نسوة من النوافذ، رفعنَ الستائر، ورُزنه بنظراتهنّ من رأسه إلى أخمص قدمه بفضولٍ رومانسي لأنهن عرفن أنه هو الرجل الميمون. وقفَ أطفالٌ خلف زوايا المنزل وهتفوا من خلفه: «أميركا، أميركا، مرحبًا!» وهكذا مرّ يومان في جوٍّ من الشهرة. ابتاعَ سِكّينا وحَبلًا ليأخذهما معه إلى أميركا، إذ لا شيء أكثر ضرورة منهما في رحلة طويلة. كان موعد إقلاع السفينة باكرًا في صباح اليوم التالي، وعندما أنهى جميع التحضيرات كان ما يزال لديه من أمامه ما بعد الظهيرة والليلة. وفكّر: «من الأفضل أن أذهب لرؤية آستا سوليليا الآن». وجدها أخيرًا تعمل لدى مالك قاربٍ وزوجته. كانت معها طفلتها ذات السنوات الخمس، وفي رعايتها طفلة الصياد الصغيرة وكانت تبلغ من العمر عامًا واحدًا تقريبًا.

قالت آستا سوليليا: «أسميتها بيورت. أنا نفسي كنتُ طفلة عندما أنجبتها، كان الاسم كل ما استطعتُ التفكير به، لم يكن المقصود منه إرضاء أي شخص على وجه التحديد. إنها طويلة بالنسبة إلى سنّها، وعندها الكثير لتأكله الآن، الطفلة المسكينة، ولها عينٌ حولاء مثل أمها أيضًا». ثمّ قبّلَتها.

كانت شابّة طويلة القامة، لها ساقان طويلتان. كانت عريضة، وربما عريضة جدًا في منطقة الردفين، مع كتفين صغيرتين بالمقارنة بهما، كان ظهرها محدودبًا، وصدرها لم يعد ناهدًا مثلما كان عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها. كانت عيناها رماديتين فضيتين تحت أهدابها الداكنة، وكانت بشرتها شاحبة، وفي فمها نابَت الخشونة عن التماعة الحُسن السّالفة. كانت إحدى أسنانها الأمامية مسودّة من التسوس، وكان الحول في عينها أكثر وضوحًا من ذي قبل، ربما من الإرهاق، كانت يداها طويلتين عظامهما غليظة، لكنهما جميلتان في الشكل، وكانت ذراعاها نحيلتين، ولم تزل رقبتها بيضاء فتيّة. كان صوتها باردًا خشنًا، ليس صافيًا. وقد قصت شعرها قَصّة قصيرة وتدلت أطرافه على عينيها. كانَ في مظهرها وسلوكها شيءٌ قويّ

وَضعيف؛ جذّاب ومُنفّر في آن معًا. ليس بوسع المرء إلا أن يلاحظها؛ لم يكن مَلمحٌ واحد من ملامح وجهها مُضجِرًا، ولا لحظة خرس واحدة في وميضِ عينيها، ولا حركة واحدة في أطرافها دونما تعبير شخصي مفعم بالحيوية، وكانت تعابيرها كلها تحمل علامات متناقضة، فالإذلال والتمرّد في الوقت نفسه. كانت حياتها عذابًا مُحتدِمًا مستمرًّا لا هوادة فيه، بحيث لا يَسع المرء إلا أن يكون طيّبًا معها، ثمّ أن يدفعها بعيدًا عنه؛ ثم أن يعود إليها ثانية لأنه عجزَ عن فهمها، أو فهم نفسه ربما. تبيّنَ غُڤيندور على الفور أنها من سلالة رفيعة، رغمَ وقوفها هناك بقلق فوق الغسيل المبلل، مرتدية الخِرق البالية، ربما ارتدت عارَ أمّة بأكملها، أمة بريئة لألف عام، مع سنٍّ منخورة وطفلة غير شرعية. وعَجِبَ منها مثلما كان يعجب منها هو وإخوته في الماضي، عندما كانت أختهم الكبرى في المنزل. لا، لم يكن بينهم وبينها صلة قربى.

قال: «أنا مسافر إلى أميركا».

قالت: «ياللصبي المسكين!» لكن دونما شفقة، دونما شعور من أي نوع.

«أنا متأكد من أنه يمكنني القيام بما هو أفضل لي، وإن كانت التوقعات مُبشّرة في آيسلندا».

ابتسمت بفتور.

سألت: «من أرسلك إليّ؟»

أجاب: «لا أحد. شعرتُ فقط أنه يجب علي القدوم إليك لأودعك».

قالت: «ظننت أنك آخر من يكترث بالأشواق من بين أفراد الأسرة كلهم. حسبتُ أنك رجل حرّ مثل بيارتور صاحب البيت الصيفيّ».

نَطَقَت «بيارتور صاحب البيت الصيفيّ» بابتسامة باردة، دون تردد. ما اكتسبته من قوتها فقدته في حساسيتها.

وقفَ مستغرقًا في التفكير، عيناه مسمّرتان على الأرض من أجل تركيز أكبر. وقال بعدَ إطراق: «في الوادي شخص ما يحكمك ويمسك بيدك دومًا. لا أعلم من يكون. ومع أن أبي قد يكون صارمًا لكنه ليس حرًّا. هنالك شخص أشد صرامةً منه، شخص يقفُ فوقه ويطوقه بِسلطانه».

نظرت إليه نظرات متفحصة لبعض الوقت، كما لو أنها تسعى لتقرأ في

عقله إلى أي مدى بلغ فهمه. «هل تقصد كولمكيلي؟» سألتهُ بنبرة تَشي بدعابةٍ باردة، ربما كان كلٌّ منهما محتارًا في أمر الآخر.

وأتى ردّه: «لا، هنالك شيء لا يأذن لك بالراحة أبدًا، شيء يجعلكِ منهمكة بفعل شيء ما على الدوام».

قالت: «ما كان ينبغي لي أن أعتقد أنني أراك مجدّدا على أنك غُڤيندور القديم».

أجاب: «ذلك لأنني أملك المال الآن. وعندما تملكين المال تبدأين بالنظر إلى الأمور على نحو مختلف».

قالت: «لن تتحرّر منه أبدًا».

«أتحرر مِمّن؟»

«بيارتور صاحب البيت الصيفيّ . يمكنك أن تكرهه. لكنّه فيك. أنت حينئذ تكره نفسك ببساطة. ومن يشتمه فإنما يشتمُ نفسه».

وهذا مَا لَمْ يفهمه الصبي. قال: «إذا سافر المرء إلى الخارج، وبدأ حياة جديدة في بلاد بعيدة، فمن المؤكد أن تتوفر له الفرصة السانحة لتحرير نفسه أليس كذلك؟»

ضحكت بصوت مرتفع، ضحكة كئيبة. وقالت: «حسبتُ هذا أنا أيضًا. كانت ليلة، تركتهُ فيها، طردني، مشيتُ على طول الطريق عبر المروج العالية، وفي الصباح كنت حافية القدمين. أنا أيضًا ذهبتُ إلى الخارج، إلى بلدٍ بعيد».

«أنت؟»

أجابت: «نعم، ذهبتُ إلى أميركا الخاصة بي. وأنت اذهب إلى أميركا التي تخصك. أتمنى لك رحلة موفقة».

«إذن هل تعتقدين، مثل أبي، أنني لن أُفلِح هناك؟»

«لم أقل شيئًا عن ذلك أيها الفتى غُڤيندور. كل ما أعرفه هو أن بيارتور صاحب البيت الصيفيّ داخلك؛ مثلما هو داخلي، على الرغم من أننا قد لا نكون أقرباء على الإطلاق».

وإذّاك قال الفتى: «حسنًا، أتعرفين، قد تكون ميزة كبيرة. فأبي من النوع الذي لا يستسلم أبدًا. منذ أيام فقط سمعتُ أحدهم يعرضُ عليه خمسة عشر

ألفًا مقابل المزرعة، ورفض العرض. أي شخص بصلابته بمقدوره أن يصنع من نفسه رجلًا عظيمًا في العالم بالخارج؛ في أميركا مثلًا، حيث يُحتسب مخزون المزارع بالقطيع».

«ألم تقل أنه يوجد شخص أشد صلابة من أبي، شخص يحكمه ويمسكه بإحكام في قبضته؟»

«حسنًا، قلتُ ذلك بطريقة ما، ولكن لا يعني ذلك أنني أؤمن بكولمكيلي».

قالت: «لا، ليس كولمكيلي أيضًا. إنه القوة التي تتحكم بالعالم، وبوسعك أن تدعوه ما شئت يا غُڤيندور».

«هل هو الله؟»

«نعم، إن كانَ الله هو المستفيد من استعباد الناس طوال حياتهم مثل الوحوش الضارية دون الحصول على الفرص التي تقدمها الحياة على الإطلاق، فإذن هو الله. والآن أخشى أنه يجب علي أن أتركك يا غُڤيندور، فالغسيل بانتظاري».

ودون أن يستوعب هذه الحكمة الأعمق قال لها: «لا، اسمعي، يجب أن أقول لك شيئًا يا سولّا قبل أن أودعك؛ كنتُ أفكر بإهدائك أغنامي».

رجعت من منتصف خطوتها الأولى وحدّقت به، كانَ في عينيها ربما شيء من الشفقة الصّادقة؛ كما ينظرُ الناس إلى شخص أبلهٍ، على نحوٍ لا يُصدّق، استرسل في الكلام فكشفَ نفسه. ثم ابتسمت مرة أخرى.

قالت: «شكرًا يا غُڤيندور، لكني لا أقبل الهدايا، حتى من ابن بيارتور صاحب البيت الصيفيّ. لا تأخذ كلامي على محملٍ سيئ، ليست المرة الأولى التي أرفض فيها هدية. في العام الماضي عندما كنتُ أتضور جوعًا أنا وطفلتي الصغيرة في قبوٍ بارد يقعُ على المضيق البحري هناك، جاء الرجل الأكثر نفوذًا في المنطقة لرؤيتي في إحدى الليالي في الخفاء، وقال لي إنني ابنته، وقدم لي الكثير من المال، نعم، عرضَ عليّ إعالة بيورت مدى الحياة. وقلتُ له إنني أفضّلُ أن أرى ابنتي ميتة». ومرة أخرى ضحكت ضحكتها الباردة، ثمّ أردفت: «أنا وابنتي مُستقلّتان أيضًا، أترى، نحن أيضًا دوله ذات سيادة. أنا وبيورت نحبُّ الحرية تمامًا مثلَ سَمِيّنا، نفضلُ أن نموت أحرارًا على قبول هدايا من أي شخص».

كانت هيَ من نزلت من المرتفعات في وقتٍ مبكر من صباح أحد أيام الربيع. مَشت الليل بِطولهِ، روحٌ شابة، مشحونة بالأحلام، بأحلام قدسيّة، أقدس الأحلام قاطبة؛ بحلول الصباح كانت حافية القدمين. هي أيضًا كان لديها آمالها وتطلّعاتها عن أميركا. فأن تترك الطفولة من خلفك وتُدرك النضج وحرية التصرف والاختيار يعني أنك وجدتَ أميركا. تباهت وتبجّحت في وجه أخيها الذي لم يبلغ بعد أرض الأحلام الشهيرة العصية على التحقيق، نعم، حدث هذا في صباح يوم من الأيام، في صباح أَحَد العنصرة. وفكرت أن أراضي جديدة تنبثق من المحيط، وتغمر أصدافها الثمينة وشِعابها المرجانية في شعاع الصيف الأول؛ وفكرت بأراضٍ قديمة وببساتينها العطرة وحفيف أوراق شجرها المسالم الهادئ. وعلى المرج المشرف على شاطئ البحر يرتفع بيته الوضيء. كانَ تخشيبة سوداء مكسوّة بأوراق القطران التي انحلّت وتمزقت في بعض الأماكن. في نافذة صغيرة تطل على البحر، كانَ كوبان صدئان من الصفيح مملوءين بالتراب. وقد برزَت من السقف مدخنة موقد متصدّعة ومائلة. وكانت من أمام البيت درجتان مكسورتان. وماذا عن الغابة؟ كانت عبارة عن أعشاب بحرية ذابلة جرفتها أمواج البحر وبعثرتها على الشاطئ في كل مكان. وكان هناك جدول صغير، بالكاد يبلغ عرضه ياردة واحدة، يجري في الرمال، وعلى ضفتيه ركعَ صبيان لم ينضجا بعد، راحا يلعبان بتحريك الطين في القاع. قفزت من فوق الجدول فتاة شبه ناضجة في نفس عمرها تقريبًا، ولكنها كانت أكثر نحولًا، كانت منشغلة بالقرب من الباب بطفلين يصرخان، وجهاهما مُحتقنان من الغضب، وكانا مُصابين بطفحٍ جلديّ. وعلى العتبة وقفت الأمّ، حبلى مثل آستا نفسها، وكانت تحمل رضيعًا بين ذراعيها وتشتُم. من أجل آستا سوليليا ومحبوبها يكتبُ أولئك الشعراء الرديئون والكارهون للبشر والكذّابون كُتبهم الطّافحة بأشعة الشمس، والأحلام وطُرق النخيل المذهبة بنور الشمس لتضليلهما وإذلالهما والسُّخرية منهما. كان كل ما امتلكهُ حبيبها هو تلك الأحلام. وقدرته على معاقرة الخمر إلى أن يفقد وعيه.

ثمّ تذكر غُڤيندور فجأة أنه لم يكمل مَهمّته بعد، فطلب منها الانتظار مرة أخرى ولكن لوقت أطول: «طلب مني أبي أن أخبرك أن الأشياء ما تزال على حالها في المنزل، باستثناء أنه سيبدأ في بناء منزله قريبًا».

استدارت على عقبيها وصاحت في دهشة: «أبي طلب منك؟ أن تخبرني!»

حالما سمع سؤالها أدرك الشاب أنه زلِق بالكلام، وسارع لتصحيح الخطأ بالقول: «لا، لم يقل لي أن أخبرك بهذا. لكنه ذَكرَ هذه الأمور على أية حال. وطلب مني أن أقرأ لكِ هذه الأبيات». ثم قرأ لها المقطعين الشعريين. فضحكت.

قالت لهُ ناسيةً أنه ذاهب إلى أميركا: «قُل لهُ على لساني إنني أعرف حظائر البقر التي يبنيها. وقلٍ له إنني أعرف أيضًا شِعره الركيك الأجوف الذي لا روح فيه، والذي يُشكِّله ضَربًا باليدين والقدمين. ولكن أنا مخطوبة لشاب يُحبّني. وقد ذهب إلى المدرسة، وهو شاعرٌ حديث، يمتلكُ هو ووالدته بيتًا صغيرًا جميلًا في سانديري. مرّ عامان منذ أن طلبَ الزواج مني لأول مرة، ولن يُبعدني عنه أبدًا لأنه يحبّني. قُلْ لبيارتور صاحب البيت الصيفيّ هذا».

كانت هذه كلمتها الأخيرة. هكذا أصبحت فتاة «ليلة منتصف الصيف» الصغيرة في الأيام المنصرمة. الخدّ الأيسر في حياتها هو من كانت لهُ الغَلَبة، أو على الأغلب، هو من أنقذَ الخدّ الأيمن المغلوب على أمره الذي أدارتهُ لبيارتور صاحب البيت الصيفيّ منذ أعوام خَلَت، ليلةَ عيدِ الميلاد.

***

64. أميركا

سَألَت: «هل هذا أنت؟»

أجاب: «نعم، أنا».

هكذا كانت بداية تعارفهما.

في مرجٍ أخضر غنّاء قرب المساء، انتصبَ بيتٌ سامقٌ ذو مظهر مميّز، يعلوه برجٌ مُستطيل، مغمور بضياء الشمس. تلألأ المرجُ بمسحة شفيفة خاطفة من اللون الأحمر في شمس المساء، كانَ المشهد آية من السِّحر والألق.

قالت: «أنت محظوظ جدًّا بذهابك إلى أميركا، ألست متحمّسًا للغاية حيال ذلك؟»

كانت مرتدية حذاء عاليًا، وسروالًا قصيرًا ضيقًا عند الركبتين لكنه فضفاض في الأعلى، وكانت تقود زوجين من الخيول الأصيلة؛ فَتيين مفعمين بالحيوية، لهما شعر متلألئ من التغذية الجيدة، لامع كما الحرير. لعبَ النّسيم وأشعة الشمس بِشعرها الذهبي، بتمويجاته وخصلاته؛ وقد أشرفَ نهداها اليافعان فوق خصرها النحيل، كانت ذراعاها عاريتين حتى الكتفين، وحاجباها منحنيين في قوس مرتفعٍ خال من العناية. عيناها اللمّاحتان ذكّرتاه بالسّماء وصقورها. وكانت بشرتها مشعّة بزهرةِ الصِّبا اليانعة، ولونها لا شبيه له، جعلته يفكّر بالحليب الجديد النّمير في شهر مايو. كانت حرّة بالكامل. كانت الجمال بذاته. لم يرَ أحدًا أو أي شيء مثلها قط. كان في صوتها غنّة طفيفة، كان صوتها ينحدر إلى نغمات شادية منخفضة في نهاية كل جملة، وكانت تضحك بمرحٍ وجدّية. تاهَ تمامًا!

قالت: «يمكنك الدخول إلى الحديقة إن شئت».

فتحَ لها البوابة.

قالت: «لعلّك تمسك الحصانين من أجلي بينما أذهب إلى الداخل». ثم ذهبت. وقفَ مع الحصانين ممسكًا بأعنتهما، وكانا متحفّزين وراحا يعضّان على لجاميهما، ويحتكّان به بصبر نافد. انتظر وقتًا طويلًا ولم تعد، فقط عندما ظنّ أنها لن تعود أبدًا عادت.

سألته: «هل ترغب ببعض الشوكولاتة؟» وأعطته بعض الشوكولاتة.

«أترغب بالمزيد؟» ثم أعطته مزيدًا من الشوكولاتة.

قالت: «أتمنى لو أنني كنتُ ذاهبة معك. يا إلهي كم أحب أن أذهب إلى أميركا! أقول، إلى أي مدى تحب أن أرافقك؟»

احمرّ خجلًا وبشدة لدى فكرة الهروب بعيدًا مع فتاة كهذه. بدت الفكرة غير لائقة إلى حدٍّ ما. ومع ذلك فقد سمحَ لها بمرافقته إلى أميركا. قال لها: «ستصل السفينة الليلة وتغادر في الصباح الباكر». انفجرت في ضحك قَلبيّ؛ أفرحها كثيرًا أنه اعتزمَ أن يأخذها معه إلى أميركا. قالت وهي تضحك بمرحٍ ورَصانة: «أنت لطيف للغاية، أنا متأكدة. أفكر بالمقابل أن أدعوك إلى رحلةَ على الحصان الأغبر، رغم أنه لا يوجد سوى حبلٍ قصيرٍ عليه في الوقت

الحالي. كنتُ أفكر في الواقع بالذهاب إلى ميري لرؤية جدّي وجدّتي، وإذا لم يكن عندك أي اعتراض على الركوب على الحصان غير المُسْرج مسافة بضعة أميال، فيمكنك رؤيتي حتى أعلى نقطة في المروج».

لا، لا أبدًا لم يكن عنده أي اعتراض على ركوب الحصان دون سرج، حتى لو لمسافة خمسين ميلًا، وامتطى الحصان من فوره. ما إن اعتلى كلّ منهما صهوة جواده، حتى انطلقَ الحصانان بسرعة هائلة خطيرة، تقدّم الحصان الرمادي مع الفتاة وراحَ يَنهب المسافات نهبًا، بينما أخذ الحصان الأغبر، في مطاردة محمومة، يهزّ رأسه ويشدّ الزمام غير آبهٍ إطلاقًا بجهود الفارس لتوجيههِ. أدارت الفتاة «الرماديّ» إلى الطريق المفضي إلى المروج في الأعلى بالسرعة القصوى، في حين طارده «الأغبر» في الخلف وكان خَبَبُهُ عشوائيًا؛ نخرَ وانحرفَ وَتجانفَ وَشَبَّ كما لو أنه لم يَختبر لجامًا من قبل! استدارت مرات عدة لِتنظر إليه وضحِكت، كان شعرها متدفقًا في الريح، ذهبيًا في ضوء الشمس. على الرغم من مَطيّته إلا أن غودموندور جودبيارتسون لم يعرف شيئًا من قبل بكلّ هذا البهاء والشاعرية. اندفعا على المنحدر كما لو أنه مُهّد وأُعِدَّ ليكون مضمار سباق، سلكَ الحصانان المنعطفات في الطريق المتعرّج بسرعة كبيرة لدرجة أنه كان عليه التشبّث بِعُرف الفرس ليجنّب نفسه الرميات الجانبية.

بمرور بضع دقائق فقط كانا على القمّة. في نقطة بالقرب من رأس الممر تاخمَ الطريق قاع منخفض عشبي، وأثناء اجتيازهما هذه الوهدة، انحرفَ الحصان الرمادي فجأة، واتّجه على جانب الطريق، ثم قفزَ في الهواء فوق القناة، وسقط في التجويف وارتطم. وجدت الفتاة نفسها منطرحة على الضفّة وساقاها تلوحان في الهواء. الحصان الأغبر في مطاردته العنيفة على طول مسارات الحصان الآخر، طوّحَ قدميه الخلفيتين إلى الأعلى بقوة فانقذفَ راكبه إلى الأمام وسقطَ على رأسه، وتشقلب قبل أن يتمكن من الوقوف أخيرًا. هرولَ الحصانان بعيدًا إلى الأرض المنخفضة، وهما يهزان رأسيهما ويصهلان، ثمّ بدآ يرعيان. كانت الفتاة مستلقية على العشب ومُغرِقة بالقهقهة.

قال لها وهو يلملم نفسه وينهض: «آمل أنك لم تؤذي نفسك!»

لكن كل ما استطاعت فعله هو الإغراق في الضحك. صاحت وهي تتلوى من الضحك: «يا إلهي، يا لها من نكتة!» لحقَ بالحصانين وشدّ الأعنّة حول رأسيهما لكي يلجمَ حركتهما، كانا يأكلان بشراهة، ينخران في العشب ويجلجلان بالشكيمة في فمهما. عندما عاد كانت قاعدة وترتب شعرها. كانت المدينة من دونهما وكان بوسعهما رؤيتها كاملة من علٍ؛ قطع أراضي بِلون القهوة على شكل حدائق، وسقوف منازل مطلية حديثًا كشاهدٍ على الخيرات الوفيرة لحرب مزدهرة؛ وكان بمكنتهما الرؤية بعيدًا، بعيدًا فوق المحيط، حيث كان المحيط مُنبسطًا أمام ناظريهما كالأبدية، مصقولًا ولامِعًا مثل المرآة حتى الأفق، بحيث يشعر المرء أنه بالتأكيد يجب أن ينتهي العالم هناك، ويحل مكانه عالم جديد وأفضل، ربما كان ذلك حقيقة.

«أنت محظوظ على نحو رهيب لأنك حظيت بفرصة الإبحار عبر ذلك البحر الشاسع».

قال بشهامة: «خشيتُ أن تكوني قد آذيتِ نفسك. لديك حصانان عظيمان!»

«أفّ! إنهما مجرد حصانين عاديين. سأبادلهما على الفور بفرصة للإبحار إلى أميركا!»

سألها: «ما اسمكِ؟»

بيد أنها اكتفت بالنظر إليه وأبانت أسنانها المرصوفة الناصعة البياض في ضحكة مُنغّمة. «لماذا تكلف نفسك عناء السؤال وأنت ذاهب إلى أميركا؟»

«أردتُ أن أعرف فقط».

«حسنًا، سأخبرك، لكن ليس قبل عودتك من أميركا. اسمع، ماذا ستفعل عندما تصل إلى أميركا؟»

«لا أدري حتى الآن حقًّا»، مُنكفِئًا على نفسه، برغمِ تردّده، خلفَ ذات الستار من الغموض المتحفّظ الذي انزوَت خلفه.

«أنت لا تريد أن تخبرني، هذه هي المسألة».

قال: «بإمكان المرء أن يغدو ما يشاء في أميركا. خذي أخي على سبيل المثال. إنه في أميركا، لكن لا أحد يعرف ما هو. كل ما نعرفه أن لديه مبلغًا

ضخمًا من المال. مال مطبوع على ورق أزرق. لقد أرسل لي للتو رزمة كاملة منها. في أميركا مدنٌ وغابات كبيرة فيها حيوانات برية».

رددت بحماس: «حيوانات برية! هل ستصطاد حيوانات برية؟»

نعم بالطبع، سوف يصطاد حيوانات برية، الآن بعد أن بدأ يفكر بالأمر، كم كان محظوظًا لأنه ذكر الحيوانات البرية! فهو الذي كان ينوي صيد الحيوانات البرية!

قالت: «أصغِ إليّ، هل تملك صورة لأخيك في أميركا؟»

كلا، لم يكن يملك صورة له.

«كيف يبدو شكله؟ أليس شابًّا مريعًا؟ أقصد مثل الأجانب، أفهمت؟»

أجاب غُڤيندور: «إنه طويل القامة. بل فارع الطول. وهو أشد قوة مني. ويمكنه الغناء أيضًا. صوته فائق الجمال. وهو دومًا في أبهى حُلّة. أعتقدُ أنّ لديه بدلتين أو ثلاث بدلات رسمية. وهو ذكيٌّ أيضًا. يمكنك رؤية ذلك في عينيه. لقد تعلم كل شيء؛ لا أحد يعلم مقدار ما تعلّمه. وهو دائمًا يرغب بالسفر».

سألت: «هل اصطاد حيوانات برية أيضًا؟»

أجاب: «طبعًا، طبعًا في الغابة، غزلانًا وفهودًا. في غابة كبيرة على نحو مخيف. وهو يعيش في غابة، وسأكون معه في غضون شهر».

قالت: «فقط فكّر بالأمر، يا إلهي، كم أتمنى لو أنني كنتُ ذاهبة إلى أميركا!»

السرعة والهناءة اللتان جاوب بهما على أسئلة هذه الفتاة الفاتنة أذهلتاه كثيرًا؛ ولكن كان من الجميل التحدّث إليها؛ لم يلتق أحدًا ذلق اللسان مُلهِمًا كمثلها قطّ! كان الأمر كأن زهرة نبتت من كل كلمة وجهها إليها، مهما كانت تافهة. ولكن الآن بعد أن أصبح لديه الوقت للتفكير، صُدمَ من الغرابة في تفكيرها، فقال: «لا أفهم تمامًا، لماذا تريدين الذهاب إلى أميركا وأنت تسكنين في منزل كبير له برج من فوقه، وبإمكانك الحصول على أي شيء تتخيّلينه من المتاجر التعاونية، وتمتلكين زوجين ممتازين من الجياد؟»

بعد بضع لحظات من التأمل، كانت تميل إلى الاتّفاق معه. فقالت: «نعم، بالفعل، أعتقد أنك على حقّ، نعم، وأعتقد أن هذا كله محض هراء. في الحقيقة ليس لدي أدنى رغبة بالذهاب إلى أميركا، لن أذهب حتى وإن دفعوا لي مقابل ذلك. رغم أني كنتُ سأفكر بالأمر إذا كان أبي سيذهب معي. كل ما في الأمر هو أنني أشعر بالحماسة لدى ذهاب شخص ما إلى أميركا، إذ إن الطريق إليها طويل وبعيد، ولأنه شاعريٌّ للغاية، ولأني أشعر أن البحر مدهش، وكبير جدًّا، وأن العائدين من أميركا رجال عظماء، رجوليون وأقوياء. عندما كنتُ صغيرة، كنتُ أظن أن كل من يسافر إلى الخارج لا بد أن يكون رجلًا عظيمًا، كأبي مثلًا. ربما كان هذا كله غير منطقي. لكن لا سبب لعدم صحّته أليس كذلك؟ اسمعني، يجب ألا تنساني عندما تغدو في أميركا».

قالَ: «لا!» تضرّج وجهه خجلًا، ولم يتجاسر على رفع بصره إلى أعلى لأنه علمَ أنها كانت تنظرُ إليه.

قالت: «أتعرف؟ أراني مُنجذبة إلى أخيك الذي تحدثت عنه الآن. أخبرني المزيد عنه، ألم يعد إلى البلاد من قبل ولو مرة؟»

قال غُڤيندور: «لا، ولا أظنه سيعود. ولكن أنا قد أعود يومًا ما». ثمّ استجمع شيئًا من الشجاعة وأضاف: «هذا إن كنتِ تريدين أن أعود».

تَفرّست به بضع لحظات، وقارنت في ذهنها ما بين حاضره ومستقبله، في الحقيقة والمتخيّل، ومزجت الصورتين معًا، بعينٍ على المحيط الشاسع الذي كان على وشكِ عبوره؛ ولكونهِ رجلًا عظيمًا على الجانب الآخر من المحيط، ولأنه في أميركا حيوانات بريّة، بلى، ولأنه سيكون شديد الرجولة لدى إيابه من أميركا، قالت: «سأكون في غاية السعادة عندما تعود».

نعم، كانت صغيرة، صغيرة للغاية، ربما خمسة عشر، ربما ليست أكثر من أربعة عشر، وربما كان من باب التحذلق المحض أن تُذكر سنّ محددة فيما يتعلق بها، فلقد كان الشباب في جوهرها، الشباب الذي لم يعرفه أبناء البيت الصيفيّ. لا، لم يسبق له أن رأى مثيلًا لها، أو هي لم ترَ مثيلًا له فيما يتعلق بهذا الخصوص. «عندما ترجع ستكون أطول مما عليه أنت الآن،

وستكون عريضًا هنا»، ومررت يدها على صدره وكتفيه، «أو ربما أكثر عرضًا وقوة، وستكون مرتديًا بذلة صيفية باللون الرمادي الفاتح، وحذاء بُنّيًا. نعم، وقبّعة أيضًا. وقميصًا مخططًا، وكثيرًا من الأشياء الأخرى أيضًا. وعندما يهطل المطر سترتدي معطفًا كبيرًا مضادًا للمطر. وستصطاد حيوانات برية». أرجعت رأسها إلى الوراء ورَنَتْ إلى السّماء برؤية حالمة، ورأى الجانب السفلي من ذقنها؛ ثم انثنت إلى الأمام ضاحكة بين ذراعيه تقريبًا؛ وكان يتأمل مفرق رأسها الأبيض في شعرها الكثيف الفاتح اللون، الشعر الذهبي الذي تعشقه الشمس. نعم، ضحكت تقريبًا بين ذراعيه، وكانت أفكاره تُدوّمُ في اضطراب، ولم يستطع التصديق أن ذلك يمكن أن يكون حقيقة. لماذا حدثَ له هذا فقط عندما كان مغادرًا؟ لقد كان عازمًا بشدة على أنه سيعود يومًا ما.

في هذا الوقت بدأت بإعداد نفسها لما تبقى من رحلتها. قعدت على العشب، ورتّبت شعرها، وأمالت رأسها على الجانب، راقبها الصبي وأمال رأسه على الجانب هو أيضًا، فقط قليلًا، لا شعوريًا، وفي الوقت الراهن كانا قد انتهيا من إمالة رأسيهما على الجانب.

قالت: «والآن علينا الإمساك بالحصانين». وأمسكا بهما. شخرَ الحصانان وحاولا التخلص من الشكيمة في فمهما. تمسّكَ كل منهما بزمام حصانه، وفي الأثناء أمعنت الفتاة النظرَ بإعجاب في المحيط الذي كان على وشك عبوره، وكان هو عاجزًا عن رفع عينيه عنها.

قالت بحزن واغتمام: «أعتقد أنه ينبغي علينا أن نقول وداعًا الآن».

قدّمت له يدها، وكانت دافئة للغاية، ونضيرة للغاية، مدت ذراعها برقة وخفّة من فوق رقبة الحصان. تناول يدها بصمت، ولاحظت أنه يريد مرافقتها على نحو أبعد، من ناحية شعرت بأنها في قمة السعادة، ومن ناحية أخرى كانت تميل إلى الأسى.

لم يَفه بشيء. تلكّأت لبعض الوقت واستمرت بالتحديق به؛ اعتمدَت على مرفقيها فوقَ غَارب الحصان الرمادي، وراحت تمعن فيه النظر من فوق جِيدِ الحصان.

قال وهو يربتُ على الرماديّ: «إنهما زوجان رائعان من الخيول».

فضحكت حينئذٍ، فالرجال دومًا متشابهون، ودومًا ما يبحثون عن عذرٍ لإطالة أمد المناسبة.

سألها: «هل ترغبين في بيعهما لي؟»

«أبيعهما لك؟ عند مغادرتك إلى أميركا؟ ما حاجتك إلى الخيول؟»

أجاب: «أوه، أنا أريدهما فقط، لدي كثير من المال كما ترين».

قالت: «لا، لن أبيعهما لك، ولكن سأقدمهما هدية لك عندما تعود».

سألها: «ما اسمك؟»

«سأخبرك عندما ترجع».

قال: «أريد أن أعرف اسمك عندما أكون بعيدًا».

«لماذا؟ هل ستكتب لي؟»

«نعم».

قالت: «إذن، اركب معي لمسافة أطول قليلًا، وسوف نتحدث في الأمر».

قفز كل منهما على ظهر جواده، وانطلقا غربًا عبر الأراضي البراح بذات السرعة العنيفة كما في السابق، الرّمادي في الصدارة، والأغبر في إثره. كانت التربة جافة والغبار يتطاير من خلفهما في سحب عارمة؛ هبّت الريح في وجهيهما الضاحكين وهما مندفعين مباشرة في عين الشمس الغربية، مثل كائنات خارقة للطبيعة تمتطي السحب في نيران مشتعلة. واصلا في نهبِ الأرض نهبًا، دونما إبطاء، دون التحدث بأمر اسمها.

بعيدًا في المروج لمحا بريقَ بحيرة بيضاء صغيرة، ما عدا ذلك كانت الطحالب رمادية، والأعشاب الذابلة بيضاء، والصخور سوداء، وكانت التربة حمراء في البقع الخالية من العشب. كانت الجبال البعيدة في الجنوب مغمورة باللون البنفسجي، والأنهار الجليدية من خلفها بيضاء، ومن ورائهما تاه المحيط منذ زمن بعيد، ليلًا ونهارًا. على جنبات الطريق كانت عصافير المروج المذعورة تهرول على العشب وتصرخ قبل أن تحلّق في الهواء. نعاج بجانبها حملانها ولّت هاربة وغابت عن الأبصار.

حينما بلغا البحيرة أخيرًا، أدارت حصانها خارج الطريق دونَ سابق إنذار،

وتبعها الحصان الأغبر، أوّلًا فوقَ بقعة من الحجارة المكسوة بالطحالب، ثمّ فوق رقعة مستنقعية، وأخيرًا إلى الضفاف التي كانت مغطاة بأعشاب مرج جافة، خضراء كما لو كانت مزروعة. كانت على البحيرة بجعتان. قفزت من على حصانها، وقفزَ هو أيضًا. كانا في أعلى نقطة في المروج الآن؛ كانت الظلال طويلة للغاية، الشمس تلامس الحافة الغربية للمروج، وكان الهواء يزداد برودة بسرعة. كانت تحمل معطفًا سميكًا مربوطًا بمؤخرة سرج حصانها، وعندما فكّته وألقته فوقَ كتفيها، أخرجت حلويات من كل جيوبه وقدمت له بعضًا منها. ثمَّ قعدت على الضفّة.

قالت له: «اجلس». فجلسَ.

قالت له: «انظر إلى البجعتين». فنظر إليهما.

سألته: «هل تشعر بالبرد؟»

أجاب بأن لا.

«يمكنني أن أتبين من وجهك أنك تشعر بالبرد. اقترب مني قليلًا وسأضع طرفًا من معطفي حولك».

قال: «هذا ليس ضروريًّا على الإطلاق!» في حين اقترب منها بحيث تتمكن من إلقاء زاوية من معطفها حوله.

قالت ضاحكة: «ملابسك تفوحُ منها رائحة الدخان، والريش أيضًا!»

قال: «ماذا؟ دخان وريش؟»

قالت: «نعم، ولكن شعرك جميل جدّا»، ومسّدت شعره بيديها الناصعتين. «وأنتَ واسع هنا. وهنا. ولك تانِك العينان الرجوليتان».

عامَت البجعتان قريبًا من اليابسة، وأخذتا تنظران إلى الفتاة والفتى بفضول، وتغطسان رأسيهما بالماء من حين إلى آخر. «انظر كيف يعوم بنبالة، وكيف تعوم هي من خلفه برشاقة ولطافة».

قالَ نعم، وراح يراقبُ البجعتين ورأى كلّ ما رأت. في البداية تبدّيا مجرد طيرين عاديين، ولكنهما أدركا الآن أنهما زوجان، هو وهي، ليسا أي طيرين فقط، ولكن طيرين ذوي دلالة.

قالت بينما عيناها ما تزالان مسمرتين عليهما: «أرأيت، إنهما عاشقان!»

فأمسك بيدها في إجابة صامتة، على نحوٍ لا إرداي تمامًا؛ أي جواب آخر كان من الممكن أن يبوح به؟ شعرَ بدفء صدرها الصغير؛ تجسدت فيه الحياة ذاتها. جلسَ ممسكًا بيدها، ولم يبدر منها أي اعتراض، وواصلت التحديق بالبجعتين وهما تعومان جيئة وذهابًا، في جولة محترسة، على بعد بضعة أمتار من اليابسة، وتنظران إلى الصبي والفتاة بفضول. قالت: «أليسا جميلين؟»، وانتابتها القشعريرة، وما زالت تدنو منه أكثر؛ حتى داعبت خصلات شعرها وجهه. وضغطَ شفتيه الملتهبتين على وجنتها.

لحَظَتهُ بنظرةٍ لعوبٍ وسألت: «كيفَ برأيك ستعود إلى المضيق البحري الآن؟»

قال: «ما من عجلة، أمامي الليل بطولهِ». وأردف بالقول: «أنا مغرمٌ بك، ألن تعطيني وعدًا بانتظاري؟»

قالت: «شش! لا تتكلم هكذا». ثم قبلته من فمه، في المرة الأولى مع ضحكة، وفي الثانية مع قليل من البكاء، ثمّ قبلته مرارًا وتكرارًا بانفعال وشغف؛ كما لو أنها تمتلكه، وأغمضت عينيها.

بعد وقتٍ طويل عندما ألقى جانبًا المعطف الذي استلقيا تحته، ونهضَ على قدميه، كانت الشمس غارقة بعيدًا خلف الجبال، والهواء قارسًا، وكانت البجعتان قد اختفَتَا. ربما ما كانت في البحيرة أية بجعات، مجرد وهم، كانت ليلة عادية من ليالي الربيع فوق الأراضي البراح. طلبت منه أن يذهب للبحث عن الفرسين، ثم أدارت له ظهرها ودَارَتْ نفسها تحت المعطف، وشرعت تُسوّي ملابسها وتُرتب شعرها تحت ستْرها. كان مجرّدًا من الأفكار بالكلّية، رجلٌ فقدَ كل هدفٍ في الزمان والمكان، سواء في الوجهة أو الطريق. كان الحصانان قد شردا بعيدًا جدًّا إلى الطرف الآخر من البحيرة. وتبيّن أن الحصان الأغبر قد أزال شكيمته، وحبل الرّسن كان مفقوداً. كان مقاومًا وحرونًا للغاية من دون اللجام، لذا واجه الشاب صعوبة كبيرة في الإمساك به؛ وتعيّن عليه الخوض في الوحل حتى مستوى الركبة في المستنقعات. في الوقت الذي انتهى فيه من مهمته كان حذاؤه المصنوع من الجلد اللامع قد فقدَ ألقه ورونقه أو يكاد. في نهاية المطاف استدرجهُ إلى جانب الرمادي،

وأمسكَ به، ثم في عجالة ربطَ الحبل الذي اشتراه سابقًا تحتَ شفته السُّفلى. عندما عادَ أخيرًا مع الحصانين كانت الفتاة متبرّمة نافدة الصبر وسألته لماذا طال غيابه كثيرًا. ألقت الزِّمام حول عنق الرمادي دون إضاعة للوقت، ركبت، وصفقت حصانها على حَقوهِ، وانطلقت بأقصى سرعة، على طول المسافات الممتدة أمامها.

لقد أثبتَ الأغبر الآن أنه أكثر صعوبة في الانقياد من ذي قبل بما أنه لا يملك سوى شكيمة مرتجلة ورسن واحد. ركض حينًا من الوقت في منحنيات ودوائر زائغة، ثم أتبَعَ ذلك بتصرفات غريبة مختلفة، لذلك سرعان ما أدركَ غُفْيندور أنه كان جالسًا فوق حصان جامحٍ قد جعلت منه نزواته الغريبة وألاعيبه رَكُوبة مستحيلة. وعندما أفلح أخيرًا بقيادته إلى الطريق الصحيح من جديد، كانت الفتاة على مسافة بعيدة على قمة التل وما زالت محافظة على سرعتها الأولية فوق المروج المتماوجة. لمحها الأغبر فصهلَ صهيلًا هادرًا، وعَدَا في مطاردة مسعورة. واتضّح لغُفْيندور تدريجيًا بأن حصانه كان أقلّ تحمّلًا من كونه عدّاءً؛ كان بالفعل غارقًا في عرقه، وعند نزوله التل زلّت به القدم فسقطَ وتشقلب، وبالتالي كُشِطت وجنتا غُفْيندور وبراجم أصابعه. أخرج ساعته ليتفقدها ما إذا كانت قد كُسِرت من السقطة، ولكنها لم تكن مكسورة، وكانت الساعة الثانية. واصلت الفتاة زيادة سرعتها في المقدمة. كانت الساعة الثانية ليلًا، وقد ابتعدَ كثيرًا، سيكون محظوظًا بالفعل إن وصلَ إلى فِيورْد عند شروق الشمس. وماذا كان فاعلًا بالحصان؟ كان عليه أن يعيد للفتاة حصانها بالتأكيد، قبل الانطلاق في رحلة عودته ماشيًا إلى المضيق البحريّ. رفعَ عقيرته مناديًا: «هيه! مهلًا!» بيد أن الفتاة وحصانها كانا بعيدين للغاية لدرجة أن لا أمل في سماعه، وعلاوة على ذلك، كانت محتجبة عن النظر خلفَ طيّة من المروج. فكّر: «ما من خيار آخر، يجب أن ألحق بها وأعطيها الحصان». حاول أن يجعل من الحبل رسنًا مضاعفًا، ليرى إن كان الحصان سيتجاوب على نحو أفضل، ثمّ ركبَ وسعى إلى حثّه على المسير قدمًا. صاحَ: «هيه! مهلًا، حصانك، حصانك!» ولكن حين بلغَ الحافة الغربية للهضبة، حيث يستطيع المرء رؤية البيت الصيفيّ في الأسفل، كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة، الفجر خلف ظهره،

وفي البعيد، البعيد أسفل الوادي كانت سُحب الغبار المتطايرة من حوافر حصانها تخبره أنها لم تقلل من سرعتها. لم يعد أمامه أي احتمال بالتمكن من اللحاق بها، خاصة الآن بعد أن ظهرت على الأغبر علامات تعبٍ لا لبس فيها. ترجل عن الحصان، وظهرت له طيور الكروان فجأة، وكانت متيقظة تمامًا، من كل صخرة وتلة على المرتفعات؛ ما الذي يجب عليه فعله الآن بحق الشيطان؟ إذا ترك حصانها هنا وسارَ عائدًا إلى فيورد فسوف تكون لديه فرصة ضئيلة بإدراك السفينة، في ضوء الطريقة التي تتبدى بها الأشياء الآن، إلا إذا تأجلت مغادرتها بدرجة كبيرة. كانت الساعة الثالثة تمامًا. كانَ متعبًا سَلفًا، كانَ مُستَنفد القوى من ركوب الحصان بلا سرج مدة طويلة ومن السقطات التي تعرض لها، وليس متعبًا فقط! بل جائعًا أيضًا. تذكر بغتة أنه لم يأكل شيئًا، ما عدا الحلوى التي قدمتها له، منذ أن غادر النُّزل في وقت مبكر من صباح أمس. وعلى فرض أنه استعارَ حصانها، من دون موافقتها، وكما يُقال إن ذلك يكون مُبرَّرا في حالات الضرورة القصوى؛ وفرضًا أنه سيركب الحصان عائدًا إلى المضيق البحري، هل سيجدي ذلك نفعًا بعد كل شيء، هل سيصل في موعد السفينة؟ بعد التفكير بالأمر مليًّا لبعض الوقت، قرر أنه يجب عليه القيام بالمحاولة على الأقل، من الواضح أن هذه الحالة كانت ضرورة قصوى، ولا وقت لإعمال الضمير الحيّ والإحساس الشديد بالأمانة. وبما أنه قرر العودة إلى المضيق امتطى الحصان مرة أخرى. لكن المهر الآن أَبى أن يتزحزح، ومع أنّ الفتى لكزه مرارًا وتكرارًا، بعقبهِ وقبضتهِ، ولكن لم تثر تلك الضربات أي تأثير تجاوزَ جهود الحصان الفاترة لإسقاط الفتى عن ظهره! لقد علِمَ أن شقيقه في الإسطبل «الرماديّ» فرّ إلى الغرب، وما من قوة بشرية تقنعه بسلك الاتجاه المعاكس. في الختام استسلمَ الفارس بيأس وسمحَ للحصان بأن يتّخذ طريقه الخاص. نزلَ من أعلى التلّ خَببًا، وشقَّ طريقه إلى الوادي بحذرٍ، ما بين تثاؤب من حين إلى آخر، بسبب الحبل، وما بين هزة رأس عرضية، وشخرة أو صهيل. وعندما وصلا إلى المستنقعات قبالة البيت الصيفيّ، لمحا الفتاة والرمادي لمحة بعيدة وللمرة الأخيرة في الأفق قبل أن يختفيا عبر قمم التلال في الغرب. تمكن من إجبار فرسه على صعود الطريق المفضي إلى المزرعة. بعد أن حلّ الحبل أطلق لهُ

العنان في فناء البيت، كانت زوايا فمه مُتقرحة. تمرّغ على الحشائش قبالة البيت، ثم نهض وهزّ نفسه، وارتجفَ قليلًا في الكتف والفخذ، وأزبدَ جَسدهُ بالعرق. بزغت الشمس، وتبدّت ظلال الكوخ طويلة مثل ظلال قصرٍ مَهيب. ما من جزء من أجزاء النهار أو الليل يرتدي جَمالًا يُضاهي أوان شروق الشمس، ففي هذا الوقت يَرينُ الهدوء والسحر والبهاء على كل الأشياء. والآن رانَ الهدوء والسحر والبهاء على كل شيء. كانت أهازيج الطيور عذبة نشوى. والبحيرة الأشبه بمرآة والنهر المتدفق بسلاسة التمعا وتلألآ بسطوع فضيّ أخّاذ. وكانت الجبال الزرق ترنو إلى سماواتها بجذل وافتتان، كأن لا شيء يربطها بهذا العالم. لا شيء يربطها بهذا العالم. في الواقع، الوادي كلّه، أيضًا، بجماله الجليل وعظمتهِ بدا تافهًا كما لو أنه لا علاقة له بهذا العالم. هناك أوقات يبدو فيها أن العالم ليس له أي شيء مشترك مع العالم، أوقات لا يستطيع فيها المرء أن يفهم نفسه إلا إذا كانَ خالدًا.

لم يكن أحد في الكوخ مستيقظًا، أو أي شيء من هذا القبيل، ومع ذلك لم يعهد الصبي يومًا كهذا. افترشَ العشب، وظهره إلى جدار الحديقة، وطفِقَ يفكّر. بدأ يفكر بأميركا، الأرض المعظّمة عبر المحيط، أميركا التي كان من الممكن أن يكون فيها أي شيء اختاره. هل خسرها إذن إلى غير رجعة؟ آه، حسنًا، لقد أهمّه ذلك قليلًا. الحبّ أفضل؛ الحب أعظم من أميركا. الحب هو أميركا الحقيقية. أيمكن أن يكون صحيحًا أنها أحبته؟ نعم، ولا شيء أكثر صِحّة من هذا. وما من شيء على النقيض من نفسه كما هو العالم، العالم لا يُصدَّق. صحيح أنها قادت حصانها بعيدًا وتركته، لكنها كانت ممتطية حصانًا من سلالات روثسميري الأصيلة الشهيرة، وربما أراد العودة إلى موطنه. لم تلتفت إلى الوراء قط، ولم تخفف من سرعتها، ولكن على الرغم من هذه اللامبالاة الظاهرة، كان مقتنعًا، في هذا الصباح الذي ليس له مثيل، أنه في وقت ما في المستقبل، عندما يصبح مثلًا المالك الحر للبيت الصيفي، سوف يعود بها إلى المنزل زوجةً له. وبما أن القصة بدأت بهذه الصورة فكيف ستكون خاتمتها؟ إن ما عثرَ عليه لهوَ السعادة، على رغمِ أنها غادرته بعيدًا على صهوة حصانها، ولقد عذرها مرة بعد مرة بحجة أنها عجزت عن ترويض حصانها. كانَ عازمًا على إنفاق نقوده الأميركية في شراء

حصان جيد، حصان أصيل من الطراز الأول، حتى يتمكن في المستقبل من ركوب الحصان جنبًا إلى جنب مع حبيبته. وهكذا تمدد على أعشاب المزرعة حيث موطنه ومسقط رأسه، ناظرًا إلى السماء، متمعّنًا في زرقتها، مقارنًا ما بين الحبّ الذي ربحه وأميركا التي خسرها. «ليف المحظوظ» خسرَ أميركا أيضًا. نعم الحبُّ أفضل، وفكر على هذا المنوال مرارًا وتكرارًا. رآها بعين خياله ما تزال سارحة فوق الأراضي البراح المتماوجة، تهفو في الليلة المشرقة الصافية مثل الهواء، خصلات شعرها الذهبية مُنسابة في الريح، ومعطفها يرفرف على ردف الحصان. ورأى نفسه ما يزال في إثرها، من قمة إلى قمة، إلى أن اختفت في المدى. وهو نفسه اختفى في المدى.

وَنام.

***

65. السياسة

أين يكمنُ سرّ نجاح إنغولفور أرنارسون؟ لأية موهبة ومَلَكة، لأية إنجازات، كان مَدينًا بسرعة الصعود التي نقلته على جناح السرعة من الغموض إلى الشهرة، من العَدم إلى الرِّفعة الوطنية؟ بالفعل، على الرغم من صغر سنّه، كانَ أحد أهم الرجال في البلاد وأكثرهم نفوذًا وتأثيرًا، وشخصية وطنية أضحت صورته البهجة اليومية للصحف، وكان اسمه فخر أعظم العناوين ولهُ وقعٌ في الأذن. أتراهُ كان مَدينًا بصعوده، مثل الرجال الكبار من قبله، إلى سعيِهِ المستمر والحثيث لتحقيق مصالحه الشخصية؟ أكانَ متصيّدًا دومًا لأي شيء يبيعه الناس بداعي الضرورة، بحيث يتمكن من بيعهِ ثانية لأناس لا يستطيعون الاستغناء عنه، والذين كان لديهم ربما احتياج أكبر؟ هل تَملّك مزرعة هنا، ومزرعة هناك في أعوام الكساد وباعها عندما عاد الرخاء وارتفعت الأسعار؟ أتراهُ أقرضَ الناس العلفَ في ربيعٍ عصيبٍ وطالبهم بالمقابل بنفس الوزن أغنامًا من قبيل الضمان؟ أو قدّم الطعام أو المال للجياع بفائدة ربوية؟ أم هل حازَ العظَمَة بالتقتير على نفسه بالمأكل والمشرب، مثل مجرمٍ لم يتزوّد بما يجب من زادٍ لهروبهِ عبر البراري، أو فلّاح أخبره التاجر،

على الرغم من استعباده ثمانية عشر ساعة في اليوم، بأن ديونه في تزايد وأنه بلغَ الآن حدود الرصيد المسموح به؟ أو بامتلاكه لكرسيٍّ واحد في غرفته، ولآخر مكسور في الغرفة الأخرى، وراحَ يَهدجُ طيلة يومهِ بتشكيلة ثياب قديمة قذرة، مثل متشرّد بائس أو عامل مزرعة؟ أم كانت طريقته المعتمدة تكديس ألف فوق ألف أسفلَ صدره إلى أن أصبح ثريًّا بما يكفي ليؤسس بنك ادّخار، والبدء في إقراض الناس المال بنسبة فائدة قانونية، ثم الوقوف أمام المعوزين وإبلاغهم بأن عمق فقره بلغَ درجة سيضطر فيها قريبًا إلى بيع الروح من جسده إذا ما أرادَ الإفلات من السجن بسبب الديون؟ كلا، ما كانَ إنغولفور أرنارسون مثل هذا الشخص بأي حالٍ من الأحوال؛ كلّ عظمته وسموّه تَأتّيا من جهة أمه. ثمّ أكان شخصًا من النوع الذي امتلكَ عددًا من القوارب وجعل ذوي الفقر المدقع يصطادون السّمك من أجله ويعرّضون حياتهم للخطر؟ هل التقفَ أرباح الأسماك التي اصطادها الآخرون، واشترى أثاثًا مصنوعًا من خشب الماهوغني، وأعمالًا فنيّة، ومعها إنارة كهربائية، بينما حصلَ الذين اصطادوا الأسماك على أجرٍ زهيد بالكاد أتاحَ لهم شراء علبة صغيرة من دبابيس الشعر لزوجاتهم على سبيل الترف؟ أم إنه حصلَ على مدخولٍ ضخم من الدنمارك وغيرها من البلدان البعيدة لإدارة ذلك النوع من التجارة التي توفر ضروريات الحياة لأشخاص لم يكن في مقدورهم في الواقع الصارم العيش؟ أم إنه صرّفَ تجارته الخاصة، وبينما كان يدبُّ على التراب أمام المزارعين الأغنى، ويسمح لهم بتقييم أغنامهم بأنفسهم، لأنه في وسعهم دومًا التهديد بسحب منتوجاتهم وعرضها على محل تجاري آخر، هل حكمَ في الأثناء مثل الطاغية على الفلاحين التعساء الذين أدانوا له بالمال، وجوّعهم في كل ربيع وسلبهم كل فرصة للتقدم؟ كلا لم يكن طريق إنغولفور أرنارسون إلى الشرف والسمعة الحسنة هو البخل ولا مهنة التاجر الجشع؛ الطريق الوحيد إلى الثروة والكرامة الحقيقية حتى الآن والمعترف به من قبل المجتمع الآيسلندي وعدالته.

إن ما جعلَ إنغولفور أرنارسون رجلًا عظيمًا، أولًا وقبل كل شيء، مُثُله العليا، حبّهُ الذي لا يرتوي للبشرية، وقناعته الراسخة بأن الناس بحاجة إلى تحسين ظروف الحياة وتسهيلات أفضل للتقدم الثقافي، وتصميمه على

التخفيف من معاناة أقرانه من بني البشر من خلال تشكيل حكومة أخْيَر في البلاد. فبدلًا من أن تكون الحكومة دُمية لا حول لها ولا قوة في أيدي التجار مضطهدي الفلاحين الذين لا رحمة في قلوبهم ولا رأفة، ستكون الحليف الأقوى للمنتج الصغير، وبالأخص منتج الفلاح، في كفاحه من أجل الوجود. ولن يكون مسموحًا للسماسرة والطُّفيليين باستغلال الطبقة الزراعية. أراد إنغولفور أرنارسون الارتقاء بحياة المزارع إلى مرتبة الشرف والكرامة، ليس بالكلام وحده وإنما بالأفعال أيضًا. بسبب هذه المُثُل العليا اختاره المزارعون ليكون ممثلًا لهم في الألثينغي[1]، وغيره من الأماكن حيث تكون مصَالحهم على المحك. كانت الدائرة الانتخابية حتى هذا الحين مُهملة تمامًا من قبل الحكومة. ولا يعني هذا أن الطبيب فينسن العجوز – المتحدث المالي باسم بروني– لم يكن نشيطًا في مجلس الشعب؛ مجرّد أنه ركز مساعيه على قضيّة معينة، ألا وهي إقناع وزارة المالية بترميم وتوسعة أرصفة الميناء وحواجز الأمواج التي أعيد بناؤها وتوسعتها للتاجر في الربيع الفائت، ولكن المدّ العالي جرفها كأنها لم تكن شيئًا بمجرّد إتمامها. لأكثر من عشرين عامًا، سعى وراء هذا الموضوع المتكرر بحماسة جديرة بالإطراء وحيوية غير منقوصة، وأبرزَ فاتورته بانتظامٍ سنويّ، حتى باتَ هذا المشروع في النهاية يُشار إليه باسم الحركة الدائبة. ولكن عندما حصل إنغولفور على مقعدٍ في البرلمان، حَيّدَ الأمر بِرمّته جانبًا، ولم يُذكر بناء الأرصفة البحرية وحواجزِ الأمواج على الملأ بعد ذاك. ومع ذلك، لم يمض وقت طويل، حتى باشرَ بِمدِّ طرقات حديثة وتشييد جسور مُتقنَة لتحسين المواصلات في جميع أنحاء دائرته الانتخابية. وكانت هذه البداية فقط. فلقد أراد آنئذ استحداث الزراعة على نطاق واسع وبناء منازل لائقة للناس. كما كان من المُزمَع تصفية البنك الوطني في ريكياڤيك الذي كانَ حتى ذلك الحين بمنزلة قرن الوِفرة[2] للمُضاربين في سمك القدّ والرنجة، ووضعِهِ تحت سيطرة الدولة بوصفِهِ بنكًا زراعيًّا، بما أن الدولة كانت ترزح بالفعل تحت وطأة الديون. وسيقوم هذا

1- الألثينغي: مجلس الشعب الآيسلندي.

2- قرن الوفرة أو الخصب (بالإنجليزية: Cornucopia) هو رمز الوفرة والتغذية، وهو وعاء على شكل قرن يفيض بالأزهار والجوز والمنتجات الزراعية.

البنك الزراعي بعد ذلك بإقراض المال للمزارعين، بنسبة فائدة منخفضة، لأغراض البناء وتحسين فِلاحة الأرض. واعتزمَ أيضًا توجيه مقدار معين من المال العام إلى صندوق خاص من شأنه أن يعين المزارعين على شراء الأدوات الزراعية؛ كل شيء ابتداء من المحاريث والمعازق والجرارات والحصّادات والمِدمّات الآلية، وانتهاءً بآلات الخياطة ومَمَاخِض اللبن. ونَوَى بالمثل تقديم دعم مالي يوفر للفلاحين أنابيب وخزانات للسماد إذ إنه كان يبغض بغضًا شديدًا أكوام السّماد والأحواض المفتوحة. وكانت مُنيَتَهُ توفير الإنارة الكهربائية في منطقة الريف، لكن هذه الخطّة للأسف كانت ما تزال ضبابية في الشكل. في الصحو والمنام، انشغلَ في المسائل الناجمة عن حقبة جديدة من الإعمار والتنمية الريفية، وعلى الرغم من أنه كان ما يزال مدير جمعية تعاونية بالاسم، وكان ما يزال يعطي عنوانه الدائم في فِيورد (المضيق البحري)، بيد أنه بالكاد يستطيع المرء أن يقول إنه ذهب إلى هناك إلا في زيارة خاطفة، ففي الوقت الحالي بعد أن قام النائب برعاية الجمعية التعاونية بالنيابة عنه، راح يمضي الشطر الأكبر من السنة في ريكياڤيك، حيث عمل على تحرير صحيفة حزبه، واشتغل في اللجان البرلمانية، وانخرطَ في أنشطة أخرى مختلفة بوصفه قَيّمًا على مصالح الفلّاح. ولم يكن عنده دقيقة واحدة ليستبقيها من أجل مصالحه الشخصية. كانَ، باختصار، «إنغولفور أرنارسون» العصر الجديد، الرائد الآيسلندي للقرن العشرين، وقد اختلفَ عن سَلَفِه الأغرّ في هذه النقطة فقط، بأن كان اسمه الأخير جونسون.

ثمَّ الآن وقد حلّ الربيع واقتربَ موعد الانتخابات العامّة، من المؤكد أن المرء قد يضع في حسبانه كأمرٍ مُسلَّم به أن إنغولفور أرنارسون لن يكون لديه معارضة، وبأنه لن يكون لدى أيّ شخص التهور لكي يُقدم نفسه بوصفِهِ مُرشّحًا مُنافِسًا! على العكس تمامًا. على المرء ألا يفترض أن البلوتوقراطية (حكومة الأغنياء) وقوة التجار قد تراجعت بالكلّية فقط لأنهم واجهوا انتكاسة هنا، أو هناك، في أماكن قليلة متفرقة حيثُ أفلحَ الفلاحون في تشكيل تعاونيات استهلاكية في معرض الدفاع عن أنفسهم. ثمّ مجددًا، عزّزَ الازدهار الحالي عقيدة حبّ الذات التي كانت شائعة جدًّا في المدن بدلًا من إضعافها، وكانت هذه الدائرة الانتخابية تضم مدينتين فِيورد وڤيك، وكانت

الأنانية متفشّية لدى أصحاب القوارب، والحرفيين، وصغار التجّار في ڤيك، وإن كانت تتلقى دعمها الأكبر من التاجر الجديد الذي ظهر في المشهد فجأة في تلك المدينة. وسرعان ما أحاطَ نفسه بأكثر الأشخاص نجاحًا وغِنًى في المدينة والريف كلّهم، بل حتى إنه تزوّج من ابنة ***ملك الجبل*** في غضون بضعة أشهر من وصوله، على الرغم من أن بعض الناس أكدوا أنه لم يكن في الأصل أكثر من محتال ومضارب، حتى إنه قضى عامًا أو اثنين في السجن. ثمّ في المقام الثالث، كان تأثير مذهب أجنبي يُسمّى الاشتراكية ينمو بسرعة وعلى نحو ملموس أكثر في ڤيك. نادرًا ما كانت المدينة تخلو من المحرّضين ومُثيري الفتن الذين أُرسِلوا بشكل خاص من الجنوب وتنافسوا فيما بينهم بُغية تضليل الطبقات الفقيرة، وتحريضهم على كراهية كلٍّ من الربّ والبشر، كما لو أن الربّ والناس ما كانوا معادين بما فيه الكفاية لمثل هؤلاء الناس مسبقًا.

إنغلولفور أرنارسون: «الاشتراكية كلّها أكاذيب. إنهم يُتخِمون الناس المعدَمين بوعود لا تنتهي ولا يمكن أن يكون فيها أي أمل بالإيفاء إلى أن يبلغ المرء نفس مرتبة النضج لدى الآلهة! بيد أن أهدافهم الحقيقية السلب والنهب والجريمة».

لحسن الحظّ لم يكن أنغولفور أرنارسون في خطر كبير من هذا الوعيد بعد. كانَ هناك خطر يتهدده من الجانب الآخر. فقد تبين آنئذ أن الرأسماليين قد نبشوا لهُ مُرشَّحًا مُنافِسًا مع مَصرفٍ كامل من خلفه، وهو المصرف ذاته الذي أراد إنغولفور هدمه وإعادة بنائه ليكونَ مصرفًا زراعيًّا يعمل لمصلحة طبقة الفلّاحين، وبقيادة رجاله، إن كان له أي رأي في الأمر. إن قيام المحتالين في ريكياڤيك بإرسال واحدٍ من أعضائهم، مدير مصرف شبه مفلس، لنشر معتقداتهم عبر البلاد، لم يكن في حد ذاته أعجوبة بالطبع. ولكن ما الذي نَجمَ عن ذلك؟ هذا المُرسَل الصفيق من قبل عصابة من الرأسماليين المجرمين لم يكن لديه الجرأة فقط في افتقاره التام إلى المثل السامية وأساسيات الأدب والأصالة بحيث وقفَ ونهقَ بخطابه، وقدّم للمزراعين ليس ما وعدَ به أنغولفور أرنارسون فحسب، وإنما ضَمّنَ الصفقة مجموعة كاملة من الوعود الأخرى أيضًا! إذ تعهّدَ بتجهيز كل بيت صغير في

الدائرة الانتخابية بإنارة كهربائية في غضون سنة أو سنتين. وليس في منطقته الانتخابية فقط وإنما على طول البلاد وعرضها أيضًا.

إنغولفور أرنارسون: «عمليًا، لا يمكن اعتبار الفرق بين وعوده ووعود الاشتراكيين سوى اختلاف في أشكال الجنون، باستثناء أن مدير المصرف لا يقترح أن يُسرق الناس أو أن يُقتَلوا، ربما لأنه يتذكر حق التذكر أنه مُوفد من قبل تلك الطائفة الصغيرة من الأمة التي ما فَتئت تقتل الناس وتسرقهم دون توقف منذ أن كانت آيسلندا آيسلندا، وإن كان ذلك بوسائل مختلفة ودون التبشير بأي شكل من أشكال الاشتراكية».

لاحقًا، بعدما قدّم المصرفي وعوده للمزارعين متضمنة مخطط أنغولفور أرنارسون بالكامل، وزيادة، إذا ما انتُخِب، وكان ذلك كله في مدة زمنية أقصر بكثير مما خطط له إنغولفور، وجّه انتباهه إلى المدن، التي لم تُمنَح حتى الآن أي مكان محدد في منصة مُمثّل المزارعين. وهنا أيضًا تمثلت فيه روح الكَرَم والسّخاء. وعدَ ڤيك بإنشاء مصرفٍ وشركة أسماك كبيرة، ووعد فِيورد بمعمل لمسحوق العِظام ومنجم للفحم. الناخبون في الساحل أعاروا آذانًا مُصغية لهذا النوع من الكلام، وتأملوا منه خيرًا، وكان من المحتمل أن يلتفّ الناس في هذه الأماكن المكتظة بالسكان حول المصرفيّ. حسنًا، كانت هذه ورطة وأيّما ورطة! تبدّت الأمور بالنسبة إلى إنغولفور أرنارسون مُكفهرة. ماذا عساه أن يفعل الآن؟ لا، أيها الناخبون الموقرون، ما كانَ إنغولفور مرتدًّا في ميدان المعركة السياسية؛ ولم يسمح لرجال آخرين بأخذِ الوعود من فمه. ماذا فعل إذن؟ لقد أعاد ببساطة إحياء القضية الأبدية الشهيره لسلفه البرلماني الدكتور فينسن، ومشروعه القديم لإنشاء حواجز الأمواج. علاوة على ذلك، لم يكتفِ بوعد مدينة فيورد بإنشاء رصيف بحريّ وحوائل أمواج فحسب، بل وعدَ أيضًا بإنشاء مرفأ كامل لا تقلّ تكلفته عن نصف مليون كرونة آيسلندية. وقال إن في الأفق مخططًا هندسيًا واسعًا للغاية من شأنه أن يوفر فرص عمل غير محدودة ليس لسكان المضيق البحري (فيورد) فقط، ولكن للعاملين في مدينة «ڤيك» المجاورة أيضًا، ولا ينبغي لأحد أن ينسى كل هذه التعهدات التجارية التي لا تُعد ولا تُحصى، والتي ستُنشِئها الدوِلة في «فيورد» كنتيجة طبيعية لبناء مثل هذا الميناء. لم يحدث قط من قبل، ولا حتى في عهد فينسن

الغابر أن أثارت الأرصفة البحرية وحواجز الأمواج مثل هذا الاهتمام المتّقد والنفعيّ كما هو الحال الآن. بعد ذلك، شعرَ بلا شكّ بأن كرمه يجب أن يكون مُنصِفًا بقدرِ ما كانَ عطوفًا وشاملًا، لذا نقلَ مصنع مسحوق العظام لصاحبه المصرفيّ من فيورد إلى ڤيك، وبدلًا من شركة الصيد الكبيرة التي وعد بها خصمه، وعدَ شركة الصيد الصغيرة في ڤيك بإعانة كبيرة من الدولة، إلى جانب عدة امتيازات أخرى من شأنها أن تجعلها شركة صيد الأسماك الصغيرة الأكثر نجاحًا ونماءً في البلاد كلها، وستضمن لكل شخصٍ في ڤيك، بغض النظر عن عمق فقره الحالي، مستقبلًا مزدهرًا وميمونًا كفردٍ من الطبقة الوسطى. بقيَ منجم الفحم. وقد قسّمه بين المدينتين تقسيمًا منصفًا، شريطة أن يحتوي دائمًا على الفحم الحقيقي، وليسَ الليغنيت[1] أو الحجارة العادية والتراب. عندما بلغت الأمور هذه المرحلة، كان من الصعب عمليًّا تحديد مَن وعوده أفضل! وبدأ يبدو أن القضية على الأرجح لن تعتمد كثيرًا على العروض المطروحة بالفعل، بقدر ما هي معتمدة على المهارة الخِطابية للمُرشّحَين، وخاصة مقدرتهما على اللعب على أوتار قلوب النّاخبين. وأُشيعَ بأن عديدًا من العاملين نبذوا الاشتراكية في سبيل الحصول على فرصة عمل دائم، وعضوية مزدهرة في الطبقات الوسطى، وحِصّة في قارِب.

قال ملك الجبل: «لا أحد يعرف أبدًا كيف تسير الأمور، ولهذا السبب أقول إنه لمن الضروري عدم الميل كثيرًا إلى ناحية واحدة، وخاصة في السياسة. إن إنغولفور أرنارسون رجلٌ يتمتع بقدرات كبيرة، بالطبع، مثل جميع أفراد العائلة، ولا يمكنك أن تتمنى مُتكلِّمًا أفضل في الاجتماع، إلا أني عندما رأيتُ العام الماضي الأهمية التي يوليها سكّان فيورد وڤيك للمؤسسات الخاصة في الوقت الحاضر، ظننتُ على الفور أنه سيخسر قدرًا كبيرًا من دعمه. ولهذا السبب استقلتُ مباشرة من الجمعية التعاونية؛ فأشغالي الخاصة لا علاقة لها بها، والسياسة ليست شؤونًا خاصة، وعلى أية حال أنا لا أتحدث الآن كشخصٍ خصوصي. ومع أني غادرتُ الجمعية التعاونية، وحوّلتُ جميع أشغالي وتعاملاتي إلى زوج ابنتي في ڤيك، وأنا

1- الليغنيت: فحم بني داكن أو رمادي. نوع من أنواع الفحم الحجري وهو أقل جودة من الفحم الصلب، متوسط بين الخثّ والفحم القاري.

متأكد من أنه كان مجرد فعل طبيعي تمامًا يمكن لأي شخص فعله في ظلّ هذه الظروف، ولا يعني ذلك أنني أعتقد أن في قوم روثسميري ما يسوء. لا أحد ينكر فضائلهم الجمّة، والوعود التي يقدمها إنغولفور هي بالطبع جيدة جدًّا وجذّابة للغاية. ولكن هل لي أن أسأل، ماذا سيحدث إن لم يَفُز بالانتخابات؟ ماذا لو انهزمَ حزبه، مثلما تنبّأ معظم الناس؟ أخشى فقط إن حدثَ ذلك أن بعض الناس سوف ينتظرون طويلًا آلات الخياطة وخزانات السماد الخاصة بهم. وأن منازلهم الجديدة لن تكون فسيحة ومريحة كما توقع البعض منهم. وأي ضمان أمني سيحصل عليه من صوتوا له إن خَسر؟ لا شيء على الإطلاق، أو للمدة التي يراها مدير البنك مناسبة. كبار الرجالات في الجنوب ليس من السهل الإطاحة بهم، كما تعلم. وليس من الغباء أبدًا أن تكون على وفاق مع كبار الرجالات».

الأمر المؤكد حول ملك الجبل، هو أنه حالَ نقلهِ لأشغاله إلى زوج ابنته في ڤيك استهلّ مشروعًا لم يكن ليجرؤ على التفكير به أثناء تعامله مع الجمعية التعاونية؛ لقد شرع ببناء منزلٍ لنفسه. نُقِلت في الشاحنات حمولة فوق حمولة من الأسمنت والخشب، وكان من المتوقع أن يكون البيت جاهزًا في أجلٍ معلوم.

نظر إليه بيارتور نظرة شك وارتياب لبضع لحظات، ثم أجابه:

«إيه، ليست ابنة كل شخص متزوجة من عُصبة التجار، كما تعلم».

ردّ عليه ملك الجبل من فوره: «حسنًا، إن كان الأمر يتعلق بهذه المسألة فلا يمكنك أن تقول إنك متزوج من عائلة روثسميري. وبذلك أنت على الأقل لا تصوّت لمصلحتهم من منطلق روابط عائلية».

قالَ بيارتور ببرود: «تصويتي، مثل تصويت قلة أخرى يمكنني ذِكرها، لا تحدده الروابط العائلية بقدر ما تحدده المصالح التجارية. أنا أؤمن بالتصويت للأشخاص الذين أتعامل معهم بالطبع، فقط ما داموا بمنأى عنِ الإفلاس. وعلى الرغم من أنك شخصيًّا قد تكون لديك أسباب مقنعة لمعاشرة الأشخاص ذوي الشأن في الجنوب الذين تتفاخر بهم دومًا، بيد أني من ناحيتي لم تجمعني بهم أي علاقة، ولا أرى أي سبب يدفعني لبدء علاقة معهم الآن».

قال ملك الجبل: «أوه، أنا لا أعرف، ولكن أحدهم قال إنك تفكر في بناء منزل لك».

«وما شأنك أنت بالأمر؟ وحتى إن كنتُ أنوي بناء منزل لي، ما علاقة ذلك بالسياسة؟»

أجاب ملك الجبل: «لا شيء، لا شيء على الإطلاق! باستثناء أنك إن كنتَ تفكر في مبانٍ جديدة، فمن المنطقي أن تكون متأكدًا من أنك موضع ترحيب من قبل المصارف».

«وما الذي يمنعني من الحصول على جميع مواد البناء من الجمعية التعاونية إن لزم الأمر؟ أعتقد أن سُمعتي نظيفة مثلي مثل أي شخص هناك».

«نعم، ولكن لسوء الحظ هناك أشياء أخرى يجب مراعاتها إلى جانب مواد البناء، يا صديقي. لا يمكنك دفع أجور العمال على أي شيء هذه الأيام، كما تعلم. ولا يسمح لك النجارون والبناؤون بالحصول على رصيد ائتمان. من الأفضل أن يكون في حوزتك نقود جاهزة للدفع إن انتويتَ بناء أي شيء يستحق العناء».

قال بيارتور بثقة: «لا تخف أبدًا أيها العجوز. سيكون من السهل الحصول على المال. لم يمضِ وقتٌ طويل منذ أن مرَّ من طريقي رجل نبيل لا يقلّ أهمية عنك، وأفهمني بأنني إن حدث أن احتجتُ قرضًا فسوف يكون مرحبًّا بي في بنك الادّخار».

قال ملك الجبل: «بنك الادّخار، مؤسسة جديرة بالثناء، كما كنت أول من اعترفَ بها. أما بالنسبة إلى جون ميري، فقد جلسنا معًا في مجلس البلدية لسنوات طويلة، نعم، قبل بدء الحرب بفترة طويلة، ولم يتناهَ إلى سمعي قط أن أحدهم لمّحَ إلى أنه ليس سوى رجل صاحب صفات رائعة ومميزة. وليس ذنبه؛ بكل تأكيد، إن كان الأشخاص غير الجديرين بالثقة والذين دأبوا على مضايقته في الموسم وخارجه قد انتهى بهم الأمر إلى توحيد القوى والتهديد بفرض القانون عليه لمجرد أنه أصر على معدل فائدة هم أنفسهم وافقوا عليه في بداية الأمر. لذا أنا شخصيًّا لستُ مندهشًا بأنه قرر افتتاح بنك ادّخار، حيثُ يمكن دومًا تداول أمواله، حتى وإن كانت بنسبة ستة في المائة

فقط، بدلًا من الاستمرار بإقراض أشخاص غير موثوقين، في السر ومن وراء ظهر السُّلطات، نظير أي شيء يتراوح ما بين اثني عشر إلى خمسة وعشرين في المائة، مع التهديدات بالسجن دومًا. إن بنك الادّخار هو نوع من الأعمال التجارية الآمنة والثابتة دومًا. ومن الملائم أن يكون عندك بنك ادّخار في المنطقة، في حال طلبَ المرء مبلغًا صغيرًا لفترة قصيرة. ولكنها ليست أكثر من مبالغ صغيرة، ولا تزيد عن وقت قصير للغاية. لأنه لا أحد تمكّن منه الغباء لدرجة اقتراض مبلغ كبير من المال لقاء النسب التي يطلبها بنك الادّخار. أولئك الذين يفكرون في البناء يكونون أكثر حكمة في الذهاب إلى البنوك حيث يستمر القرض على الرهن العقاري مدة أربعين عامًا».

«أوه، لا أظنّ أني سأحتاج أكثر من سنة أو سنتين لتصفية حسابي معهم. اعتقدَ بعض الناس أن الأسعار ستنهار في نهاية الحرب، بيد أن الصوف جاوز المستويات القياسية في فصل الربيع، وسمعتُ من جهة مسؤولة أنهم سوف يعطوننا مقابل الحملان في هذا الخريف أكثر من أي وقتٍ مضى».

استغرقَ ملك الجبل في تفكير عميق بضع دقائق؛ مسّد لحيته بهذا الاتجاه وذاك شاردَ الذهن، كانَ هذا الرجل نزّاعًا إلى تبريح عقله في تقليب الأمور كثيرًا، فمن وجهة نظره لا تكون الفكرة مثالية إلا إذا أمكن تدوينها، في وثيقة عامة. كانَ موظّفًا عامًّا للكلاب والبشر والقساوسة رَدَحًا من الدّهر، لذا من الحماقة بمكان أن يندفع إلى استنتاج متسرّع.

قال أخيرًا: «آه، حسنًا، هذا ليس من شأني حقًّا، بيد أني اعتقدتُ أنني سأقدم نصيحة إكرامًا لصداقة قديمة. ولكن يجب عليك ألا تظن أنني أتيت بصفة عامة بأي شكل من الأشكال، أو بصفتي وكيلًا رسميًّا لأي شخص في هذا الشأن. من ناحية أخرى، ليس بوسعي التصريح بصراحة تامة أنني أتيت بصفة شخصية تمامًا. لقد جئتُ بصفتي بينَ بين. كما تعلمون جيّدًا، لم أستطع منح الحركة التعاونية دعمي التام، رغمَ أني آنستُ فيها نُبلًا وجمالًا كحركة، وكنتُ دومًا أول من اعترف بمناقب آل روثسميري، وبالأخص السيدة الكبيرة. حقيقة الأمر هي أنني حاولتُ دومًا لزوم المنهج الوسطي بشكل أو بآخر، ونتيجة لذلك كنتُ دائمًا على استعداد للاعتراف بأن كلا الطرفين على حقّ، على الأقل إلى حين تَوفّر دليل قاطع على أن أحدهما

أو الآخر على خطأ. والآن لنعد إلى المسألة المطروحة، أودُّ أن تعرف أن علاقاتي مع أشخاص كثر رفيعي المستوى تؤهلني لامتلاك القوة، وإن لم يكن للأسف السلطة المكتوبة، لتقديم قرض بشروط تساهلية استثنائية، ورهنًا عقاريًّا لمدة أربعين عامًا مع أحد البنوك في الجنوب، إن كنتَ مهتمًّا ببدء البناء هذا العام. ولكن بطبيعة الحال مثل هذا القرض لن يكون ممكنًا إلا إذا عرفنا نحن الذين نغذّي حبّ الاستقلال في صدورنا أين يكمن رفاهنا السياسي؛ وأن يكون لدينا الحسّ السليم الكافي لتحويل تجارتنا وأشغالنا إلى الجهة المضبوطة».

***

66. حصان السباق

كان غُڤيندور من البيت الصيفيّ على شِفاه الجميع في ذلك الربيع؛ في المقام الأول لأنه قرر الذهاب إلى أميركا، وفي المقام الثاني لأنه لم يذهب إلى أميركا. ثالثًا اشترى لنفسه حصانًا؛ وكانَ حصان سباق، كان قد اشتراه من شخصٍ يعيش في ناحية بعيدة مقابل مبلغٍ ضخم من المال. كثيرٌ من الناس ضحكوا. الشاب الأحمق أمضى الليل في ملاحقة ابنة إنغولفور أرنارسون الوحيدة عبر المروج والأراضي البراح فانتهى به الحال بأن أخفق باللحاق بسفينته؛ هل يمكن أن يكون أي شيء أكثر حماقة؟ بعض الناس زعموا أن الصبي مخبولٌ لا محالة. وقال البعض إن حصانه لا يعدو عن أن يكون مجرد حصان عاديّ، حتى إنه متقدم في السن. يا له من غبيّ! قَبل هذا، لم يلاحظ أحد أن غُڤيندور من البيت الصيفيّ موجود؛ والآن في فُجَاءة مُذهلة ذاعَ صيته السّيىء في كل مكان، ونُعِتَ بالأبله والمُغفّل. وإذا ما عُقِد اجتماع في المنطقة تحت أي وصفٍ؛ كان حريصًا على أن يبزّ كل التفاصيل، بحيث يتمكن من المساهمة في الحديث والظهور على حصانه. أهل البلدة حيّوه بابتسامة متحفّظة. وضحكَ سكان المدينة ملء أشداقهم على هذا الأخرق الذي جابَ الريف على حصان باهظ الثمن بعد مطاردة الابنة الوحيدة لعضو البرلمان من الغسق وحتى الفجر. واستوقفه تجار الخيول على الطريق

الرئيسي ونكزوا أسنان الحصان، ثمّ سخروا من راكبه حينما قاده مبتعدًا، وأجمعوا أمرهم على إرغامه على شراء حصانٍ أسوأ بمجرد أن يتمكنوا من خداعه وسلب حصانه الحالي.

في يوم من أيام الآحاد، قُبيلَ «منتصف الصيف»، تَقرّر عقد اجتماع انتخابي في روثسميري. اغتنمَ القسّ الفرصة لإقامة صلاة قبل الاجتماع. وصلَ عدة ناخبين إلى مكان الحدث مبكرًا، وكان توقيت وصولهم سيئًا للغاية لدرجة أنهم أُدخِلوا إلى الصلاة؛ بخلاف ذلك بدا أن الاهتمام المتزايد بالسياسة يُشير إلى أن الجمهور بدأ في الاعتقاد بأن شؤونهم تُدَار من الأرض، وليس من السماء. وصلَ غُڤيندور على فرسه عَدوًا حين كانت الصلاة على وشك البدء. استقبله رهطٌ من المزارعين الواقفين خارج حظيرة الخيول بابتسامة خبيثة لأنه لم يسافر إلى أميركا. بعضهم عاينَ حصان السباق بِعدائية واستنكار. استرقَ نظرة خاطفة على البيت الكبير المكوّن من طابقين، وطابقه الثالث بعلاليهِ ذات السقف الجملونيّ، ليرى إن كان أحدهم قد رآه أثناء دخوله على صهوة حصانه. ولكن في قصرٍ شهير لم يأت أحدٌ إلى النوافذ ليحدّق في الفراغ، كلّ ما رآه هو نباتات الشاعرة المزهرة وقد نشرت بتلاتها الجميلة في أشعة الشمس. وتمنى أن تكون عائلة الوكيل قد ذهبت إلى الصلاة. دخلَ الكنيسة، واختارَ مقعدًا بجوار الباب، فعدَ وأَجالَ بالنظر ليرى ما إذا كانت في أي مكان. بعدَ بضع دقائق من البحث القَلِق المتلهف رآها جالسة في الصف الأمامي، أسفل المنبر مباشرة تقريبًا. كانت معتمرة قبعة حمراء. كانَ بينه وبينها عدة أشخاص، استطاع تمييز القبعة فقط من بين كل الرؤوس. سرى في أعطاف جسده ومفاصله نوع من المشاعر يجعل الرئتين واسعتين والقلب بالغ الصغر والأذن مرهفة الحسّ لسماع الموسيقى؛ شعرَ أن الترنيمة سوف تُفقِده صوابه؛ وتغشّى عينيه الضباب أيضًا. مرّ الوقت ومضى، وما تزال جماعة المصلين ينشزون بعيدًا عن الترنيمة كأنهم لن يتوقفوا أبدًا. كيفَ كان سيدنو منها؟ ما الطريقة الأفضل لترتيب موعد دون أن يلاحظ الآخرون؟ أكان عليه أن ينتظر حتى انتهاء الصلاة، وينكزها عندما تمرّ من جانبه في طريقها إلى الخارج، ويهمس لها: «تعالي معي حول المنعطف، هناك شيء أودُّ أن أقوله لك؟» لا، إن نكز فتاة

في الكنيسة لهو تصرّف غير مهذب ولا يُغتفر بالمرّة! خاصة إن كانت فتاة كهذه، وبالأخص إذا طلب منها الذهاب إلى زاوية الشارع. ستختلف القصة كلّيًا إن هو دعاها إلى حظيرة الخيول لإلقاء نظرة على الحصان. ولكن خطرَ له في الوقت الحاضر أنه ربما ليس مسموحًا للناس ذِكر الخيول في الكنيسة، ففي كل النصوص المقدّسة لا توجد إشارة واحدة إلى الحصان، فقط إلى الحمار على أقصى تقدير. وكأنه من خلال الضباب رأى القسّ وهو يقتربُ من المذبح ويصرخ بصوت عالٍ. ثمّ شرعَ يغني أغنية طويلة مبهمة، ووقفَ الجميع، ورأى أنها كانت ترتدي معطفًا أزرق. ليس في العالم كله فتاة لديها كتفان جميلتان مثلها؛ بمقدور أي شخص أن يلاحظ أنهما غير مُعدّتين للأعباء الثقيلة. ومن تحت قبّعتها لاحت خصلات شعرها الذهبية، كانت قبعة باهظة متمشّية مع هيبة المناسبة. بدت مزهوّة ومنتصبة القامة، كما كان طبيعيًا في صباح يوم أحد في الكنيسة. لو نظرت من حولها لثانية أو ثانيتين فقط! حتى يتسنى له أن ينقل إليها تيّار حبّه. ولكن ماذا لو لم تكلف نفسها عناء النظر إلى خيول أناس آخرين، وهي من تملك إسطبلًا كاملًا من الخيول تحت تصرّفها؟ ما لم يعرض عليها الحصان هدية؟ لقد كان حصانًا غاليًا، يبلغ ثمنه قرابة ألف كرونة، ومع ذلك إن قبلته هدية فسوفَ يكون جاهزًا وعلى استعداد للعودة إلى البيت سيرًا على الأقدام، نعم، والزحف على أربع حتى، إن شاءت. وكان يتوقُ إلى إخبارها بهذا الأمر كثيرًا؛ لقد أمسى عبدها المخلص منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عينه عليها، يمكنها أن تأمره بفعل أي شيء تريده وتفكر به، الركوب، المشي، أو الزحف على أربع. وهو بالفعل ضحّى بأعظم دولة في العالم من أجلها، بأرض الفرص غير النهائية حيث يمكن للمرء أن يكون أي شيء يرضيه، ولا يحتاج للاستمرار بفعل شيء ما طوال الوقت ببلاهة مطلقة. نعم لقد استلقيا على ضفاف البحيرة، وكانت في البحيرة بجعتان، ذكر وأنثى. ولكن ما الذي حدث لهما؟ لقد اختفَتا، بالتأكيد لم يكن ذلك مجرد وهم؛ لا، لا، لا، لقد أحبّته ثمّ ركبت فرسها وابتعدت عنه، بعيدًا في المدى...

«أيها الإخوة المسيحيّون الأعزاء، إذ إني أسمح لنفسي بأن أدعوكم إخوتي، ما الكلمة المكوّنة من ستة أحرف، نعم، ستة أحرف صغيرة فقط،

والتي تعني شيئًا يصعد؟» أخيرًا تموضع القسّ خلف المنبر، وعساه بإذن الله أن يخطب خطبة طويلة، كيما يُتاح للصبي الوقت لكي يتوصل إلى قرار، ويحظى ببعض الإلهام. «والآن، من ناحية أخرى، دعونا نفكر، إخوتي الأحبة، ما الأحرف الخمسة، نعم، خمسة أحرف صغيرة فقط، التي تعني شيئًا ينزل؟»

نعم، لقد كان مستعدًا تمامًا ليقدم لها الحصان هدية، أو على الأقل أن يعرضه عليها. لم تكن لتقبل، بكل تأكيد، ولكن إن قبلت، فلن يضيرهُ الأمر ولو قليلًا، على العكس تمامًا، سيكون مَدينًا لها. صحيح، يمكن أن تقول: «لديّ كثير من الخيول، وإسطبل كامل ممتلئ بالأحصنة». لكنه تمنّى أن تضيف: «هذا الحصان هو أجمل حصان رأيته في حياتي، وسأقبلهُ لأنك أنت من تريد أن تعطيني إياه، ولأنك عريض الصدر، ولكن لو أخذته منك ستبقى بلا حصان، وسوف يتعيّن عليك العودة إلى المنزل راجِلًا، أليس كذلك؟» وكان سيردّ عليها بالقول: «لا يهم أبدًا. حتى ولو عدتُ إلى البيت حَبوًا. وإن حبوتُ على أربع. وزيادة على هذا، ما عليكِ سوى أن تتلفظي بكلمة وسأنبح كالكلب إن أردتِ. لقد شاءَ القدر أن أصير المالك المستقبلي الحرّ للبيت الصيفي، وعما قريب سنبدأ بالبناء، سوف نشيد منزلًا كبيرًا بحجم منزلكم في ميري هنا على الأقل، بطابقين، والثالث مع العلالي، وفي حين أنكم بنيتم منزلكم من الخشب والحديد فسوف نبني نحن منزلنا من الحجر. ولكن فلتساعدني السماء إن لم يكن مسموحًا للناس بِذكر الأحصنة، وإنما الحمير فقط!

«من اقتيدَ للخارج؟»، تساءل القسّ بينما انحنى على حافة المنبر، ومالَ من فوق جماعة المصلّين بمهابةٍ دينية وخشوعٍ عميق. ارتجى الشاب من البيت الصيفيّ وصلّى من كل قلبه بأن يكون من اقتيدَ حِصَانًا!

جهرَ القسّ منتصرًا: «هو من اقتيدَ إلى الخارج». مُشدّدًا على كلمة «هو». للأسف، تملّص موضوع المحادثة من الفتى.

«ومن سَاقهُ إلى الخارج؟» سألَ القسّ، مُطيلًا أمد الصمت إلى حدٍّ مفرط بينما نظرَ إلى كل شخصٍ في الكنيسة نظرة متفرّسة متقصية أغوار الذات.

انتابَ غُفْيندور الذعر من فكرة أن يُستدعى للإجابة عن السؤال. إلا أن القسّ أجابَ على سؤاله بنفسه: «جنود بيلاطِس[1] اقتادوه إلى الخارج. ومتى اقتادوه إلى الخارج؟ اقتادوه في الساعة الخامسة. وإلى أين اقتادوه؟ اقتادوه إلى العراء. ولماذا أخرجوه؟ لأنه لم يُسمح له بالبقاء في الداخل». وإذّاك تنفّس الصبي الصعداء.

على فرض أنه سيتسلّل من الكنيسة في منتصف الصلاة، لن يجذب الانتباه كثيرًا، بوسعه أن يتحرك خِلسة إلى الخلف مع ثني ركبتيه جيّدًا، وحالما يصبح في الخارج سيجري إلى حظيرة الخيول. ثم يُخرج حصانه. ويقفُ معه على باب الكنيسة ممسكًا بِعنانِهِ، وسينتظر إلى أن تنتهي الصلاة. وبمجرد أن تخطو خارج الكنيسة سيضع العِنان في يدها ويقول: «منذ الآن فصاعدًا، هذا لكِ». بيد أنه حينذاك تذكّر الناس. لم يكونا بمفردهما. ماذا سيقول سكان المنطقة؟ أيليق به، وهو ابن فلّاح، أن يُهدي حفيدة جون صاحب مزرعة ميري حصانًا؟ ألن ينفجر سكان البلدة أجمعهم في ضحكة عظيمة هدّارة؟ ثمّ ألن تتأذى هي نفسها من هذه الفضيحة؟ وطفقَ يتفصد منه العرق باردًا للتفكير في أنه سيغدو أضحوكة للبلدة بأسرها. وهكذا، كلّما أرهق ذهنه بالأفكار ازدادت عراقيلهُ تعقيدًا واستعصاءً على الحلّ.

قال القسّ: «أيها الإخوة والأخوات المسيحيّون الأعزاء. الوقتُ يمرّ». ومالَ على منبره من فوق حشد المصلّين، وحدّق في كل واحدٍ من الحاضرين بتمعّن إبّان الصمت الطويل الذي أتبعه بكلماته الرصينة المهيبة؛ بيد أنه أطال التحديق أكثر في غُفْيندور من البيت الصيفيّ. وكرر في الأخير: «نعم الوقت يمرّ. البارحة كانَ السبت. واليوم هو الأحد. وغدًا الاثنين. ثمّ يأتي يوم الثلاثاء. منذ زمن قصير فقط كانت الساعة الواحدة. والآن تجاوزت الثانية. وعما قريب ستحين الثالثة. ثمّ الساعة الرابعة». شعر غُفْيندور أن تلك الكلمات التحذيرية الخطيرة موجهة إليه على وجه الخصوص. إن إدراكه

1- بيلاطس البنطي: Pontius Pilatus، خامس حكام مقاطعة يهودا الرومانية في عهد طيباريوس قيصر الأمبراطور الروماني (بين عامي 26 و36.م) وبحسب ما هو مكتوب في الأناجيل الأربعة المعتمدة من قبل الكنيسة، فإنه قد تولى محاكمة المسيح تلبية لرغبة اليهود، وأصدر الحكم بصلبه.

لعدم العثور على ذريعة لابتدار الكلام، لعدم التوصل إلى حلّ لمشكلته، عَصرَ فؤاده عصرًا. وتفصّد العرق من جبهته وجرى على صِدغيه في حبات باردة. كانت نهاية الصلاة موشكة، وما زالت القبعة الحمراء بلا حراك، ما عدا أنها بدأت الآن تميل إلى الوراء قليلًا، إذ كانت الفتاة تنظرُ بثبات إلى القسّ في الأعلى، وتتشرّب بروحها كل كلمة تعبر شفتيه، كأنها كانت عازمة على الحياة بمقتضى كل كلمة من كلماته، في حين لم يَسمع غُفْيندور المسكين سوى عبارة من هنا وعبارة من هناك، فقد كان عقله في دوّامة متعاظمة من التشويش والاضطراب. «والصخور تشققت، يا إخوتي؛ نعم، دعوني أخبركم، قلة من استطاعوا الثبات في مكانهم تلك الساعة. وانْشقَ حجاب الهيكل إلى اثنين من فوق إلى أسفل[1]، نعم، ولم يكن حجاب الهيكل هو الشيء الوحيد الذي انشق. فقد عَمّت الظلمة الأرض والسماء، نعم لم يتبق من الضوء إلا قليل في تلك الساعة، أؤكد لكم ذلك».

نعم، بالفعل خيّمت العتمة على كل شيء، وفي ذلك الآن انتهت الموعظة عمليًّا، وانتهى الأمر تمامًا. تبع ذلك ترنيمة أخرى. بحلول هذا الوقت كان الشاب عاجزًا عن السمع أو الرؤية. نهض الحضور. ونهض هو أيضًا. هل عليه أن ينتظر حتى تأتي، أم أن يسبقها إلى الخارج؟ وانتظر. هل ينبغي عليه أن يبذل جهده للنظر إليها حين تمرّ، ثم يحاول أن يرسل لها دِفقًا من حبّه، فهو يؤمن بتيّار الحب، أم يجب عليه النظر إلى موطئ قدميه في استسلام ويأس مطلق؟ ونظرَ إليها بتيّار الحب. حينذاك اكتشفَ أنها ليست هيَ على الإطلاق! كانت شخصًا آخر، كانت امرأة من الريف في منتصف العمر، امرأة، بالإضافة إلى ذلك، كانت قد أنجبت ولدًا من أحدهم. لقد كانت ابنة ثورير غيلتايغ الوسطى معتمرة قبعة حمراء شنيعة. وهكذا تنفّسَ الصبي تنفّسًا طبيعيا مرة أخرى. بيد أنه شعر الآن أن كل شيء فارغ على نحو مخيف في وجدانِه ومن حوله، وبأنه مكثَ في الكنيسة كل تلك المدّة سُدى، وعذابه الروحي خلال التراتيل والعِظة كانَ هباء.

1- إنجيل مرقس 15: 38. «فصَرَخَ يَسُوعُ أَيْضاً بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَأَسْلَمَ الرُّوحَ. وَإِذَا حِجَابُ الْهَيْكَلِ قَدِ انْشَقَّ إِلَى اثْنَيْنِ مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ» (متى 27: 50-51).

في نهاية القدّاس هرع الناس لحضور الاجتماع. على الرصيف قبالة نوافذ بيت الوكيل وقفت مركبة لامعة. احتشد الزوار بفضول حول هذه الأعجوبة المتلألئة، وأنعموا فيها النّظر، وتفحّصوها من كل زاوية ممكنة. نقروا بأصابعهم على الزجاج الأمامي، والنوافذ الجانبية، ثمّ ضغطوا على الإطارات لمعرفة مدى قوّتها. غُڤيندور أيضًا نقرَ على النوافذ، وضغطَ على الإطارات. كان عضو الألثينغي قد وصلَ أثناء القدّاس، وهو الآن جالس مع والديه في الداخل. وفي تلك اللحظة بالذات جاء المصرفيّ ومناصروه بسياراتهم من ڤيك. اصطفّت السيارات بالطرف الآخر من السياج. عَبرَ الوكيل الباحة لاستقبالهم. كانَ مرتديًا سترة من قماش متهلهل ذات منظر مشين توحي بأن كلبًا نامَ عليها مدة اثني عشر شهرًا، على الرغم من أنه أحياها من مرقدها وارتداها دلالة على أهمية المناسبة الحالية. وقد شبكَ قميصه عند الرقبة بدبّوس أمان. وكان بنطاله من الأسفل مدسوسًا في جوربيه اللذين من الواضح أنهما مرقّعان. وما كان لأحد أن يتفاجأ لو أنه تعيّن على هؤلاء السادة الأنيقين الفخمين بمعاطفهم وياقاتهم الصلبة أن يكبحوا رغبة قوية بِنفْحِهِ نحاسية أو اثنتين بينما كان يرحّب بهم. طُلِب إلى الزائرين الجلوس في قاعة النقاش «الموط[1]»، المكان الذي سيمضي إليه المرشحان بمجرد الانتهاء من تناول القهوة. اتخذ غُڤيندور مقعدًا له في الزاوية ووضع قبعته فوقَ ركبتيه، وأعطاه أحدهم قليلًا من السعوط، وعطَس. في الوقت الحالي دخلَ المرشّحان. ولم يبصر غُڤيندور من البيت الصيفيّ سوى مرشّحه. إنغولفور أرنارسون جونسون، أين كان نظيره؟ ظُرفُه وسَناه أفْقَرا الإبداع! كان طويل القامة، قويّ البُنية، شجاعًا مِقدامًا، عبّد الطرقات التي أنشأها للمزارعين الفقراء في الوديان المعزولة. مُقلتاه المُقنِعتان الجذّابتان خلفَ النظارتين المؤطرتين بالذهب شَعّتا كما الشمس على الفلاحين المطحونين المجتمعين أمامه، وبينما استهلَّ الكلام، بصوتٍ جهوريّ طليق، تحركت يداه الصغيرتان البيضاوان في إيماءات سلسة رشيقة لدرجة أن المرء لم يكن بحاجة للاستماع إلى كلماته، وكان يكفيه ببساطة أن يراقب يديه. كان غُڤيندور من البيت الصيفيّ مندهشًا بأن يكون هناك أي أحد بكلّ تلك البلادة

1- الموط: Moot Hall ، مجلس شعبي قديم متمتع بسلطات سياسية وإدارية وقضائية.

بحيث ينتابه الشكّ في استقامة قضيّته. وبقلبٍ مرتجف فكّر أنه أحبّ ابنة هذا الرجل، أينما كانت؛ وبأن هذا الرجل العظيم الذي كانت سيارته تقف في الخارج قبالة النافذة، كانَ في الواقع والد زوجته.

سرعان ما أمسى الاجتماع على أشدّه، وكانت أكثر مشاكل البشرية إلحاحًا قيد النقاش؛ التعاونيات، وطبقة الفلاحين، والسلطة التجارية، وأرباح الوسطاء والسماسرة، وفضائح المصارف، الخسائر التي تكبدتها شركات الصيد، معدل الفائدة على قروض المزارعين، ومشروع القانون الزراعي، الدعم الحكومي لشراء المعدات الزراعية، مسألة الصرف الصحي، بيع المنتجات، الطرقات، الجسور، الهواتف، الاستيطان الريفي، التعليم، الإسكان، وتزويد النواحي الريفية بالكهرباء. نهض إنغولفور أرنارسون مرة بعد مرة، نافخًا صدره وملوّحًا يديه ببراعة فنّية فذّة، وأشارَ إلى خصمه وأثبتَ إثباتًا قاطعًا وبما لا يدعو إلى الشّك أنه هو المسؤول المباشر عن الخسائر الهائلة التي تكبّدتها المصارف، والتي سمحت للمضاربين بتبديد مدّخرات أمة بأكملها. وبأنه المسؤول عن الفضائح المالية التي عادت على شركات الصيد بسمعة سيئة واسعة النطاق. وعن مرض السل المتفشي بازدياد في أمة سكنت الأكواخ، عن انهيار الكرونة الآيسلندية، التي سُرقت من جيوب كل عامل في البلاد على نحوٍ صفيق سافر، وعن السياسة التعليمية التي هدفت إلى إنزال الأمة إلى مستوى الزنوج في مجاهل إفريقيا. والآن بعد أن توحد الفلاحون للدفاع عن حقوقهم وتأمين ظروف أفضل، انتفضَ هذا الرجل ضدّهم، وقد أضمر نيّة خبيثة؛ إذ كان مُصمّمًا على أن يمرّغ في الوحل الطبقة نفسها التي حملت الأمة على كاهلها خلال النار والجليد والأوبئة لألف عام، وحافظت على سلامة حضارتها طوال مخاطر لا حصر لها ولا عدّ.

كان غُڤيندور متّفقًا مع كل ما قاله إنغولفور أرنارسون، لأنه شعر أنه كان بالفعل صِهره. كان ممتلئًا بإعجاب غير محدود بهذا الرجل الذي لم يكتفِ ببساطة بتزويد الناس بالطرقات والجسور، بل أراد إضافة إلى ذلك رؤية كل شخص يعيش في منزل. لم يستطع أن يفهم لماذا على أي شخص أن يكلف نفسه عناء الاستماع إلى خصم إنغولفور، وهو شخصٌ قصير وسمين، ذو طريقة بائسة في الإلقاء، قد حافظَ على هدوئه المخزي على الرغم من جميع

جرائمه، وكان أيضًا يبتسم لدى كل اتّهام جديد، وبدا أنه أكثر سعادة كلما بات من الواضح أكثر أنه يجب أن يكون محبوسًا منذ أعوام. عندما فرغَ كلٌّ منهما أخيرًا من وصف الكيفية التي سينقذ فيها البلاد من المخاطر المحدقة بها، ولم يزد على ذلك شيئا، أُعلِن عن نهاية الاجتماع، وخرجَ المرشّحان المتنافسان جنبًا إلى جنب وتمشّيا في أنحاء الباحة المسيّجة، وعَلَت ضحكاتهما الودية كأنهما لم يكونا يومًا صديقين أفضل مما كانا في ساعتهما تلك! كثيرٌ من الأشخاص حظوا بوقتٍ طيّب، وبعضهم استمتعوا بأجواء المناسبة كثيرًا، ولكن كان من المشكوك به ما إذا كان أحد استمتع بوقته أكثر من المرشحَين المتنافسَين. راحَ الناس يحملقون بهما، وقد اعتراهم الذهول كيف لم ينقضّ أحدهما على خِناق الآخر! توادعا عند البوابة، وتشابكت أيديهما بمودة، وحدّقا طويلًا بعضهما بعيني بعض وعلى نحو مُعبِّر صريح، مثل مُتحابين في السّر، ثمّ انطلق المصرفيّ بسيارته، تاركًا المتفرّجين في حيرة من أمرهم. بعد هنيهة تأهّب الناخبون للرحيل أيضًا، فأخرجوا جيادهم من الحظيرة، وانطلقوا في مجموعات صغيرة. تمكن غُڤيندور من العثور على ذرائع مختلفة للبقاء لمدة أطول، فكانت النتيجة أنه عندما غادرَ معظم الحاضرين، كانَ هو ما يزال يحوم حول المنزل، مُراقِبًا الأبواب، ومُسترِقًا نظرة على النوافذ في الأعلى ما بين حين وآخر. حتى إنه كان يفكر في طرق الباب الخلفي لطلب استعارة مطرقة وكتلة خشب لكي يثبت بهما حدوة الفرس الفالتة، أو لطلب شربة ماء، ربما. ولكن خطر له إن كان سيفعل ذلك فمن شبه المؤكد أن إحدى خادمات المطبخ سوف تُلبّي الباب، وبذلك ستفسد خطته بالكامل. في آخر الأمر لاحت له فكرة رائعة: سيخفي سوطه في جدار الحظيرة، كأنّه ضَيّعه، ثمّ بعد أن يقود حصانه إلى التلال، سيرجع، ويطرق الباب، ويخبرهم عن السوط المفقود، ويطلب منهم الحفاظ على سوطه إذا وجدوه. ثم من المحتمل أن يَذيع في المنزل خبر وجوده في عِزبة ميري، من المحتمل أن يُذكر اسمه في المنزل، من المحتمل أن يخرج أحدهم سرًّا ليبحث له عن السّوط، ومن المحتمل أن تعثر عليه هيَ. دسّ السّوط وَواراه بين حجارة جدار الحظيرة، وامتطى جواده. وإذ بلغَ منتصف الطريق على المرتفعات، استدارَ وقفلَ عائدًا إلى ميري لكي يطلب منهم أن يحتفظوا له بالسّوط إن

وجدوه. حينما بلغَ سور البيت مجددًا، كانت الحظيرة خاوية منذ مدة طويلة، والجميع غادروا. ترجّلَ عن حصانه، ومشى إلى المنزل. ولكن في تلك اللحظة فُتِحَ باب الردهة، وخرجَ إنغولفور أرنارسون إلى عتبة الباب، وكان مرتديًا معطفًا ضخمًا، وأمّه برفقته. قبّلها، ثمّ فتح باب سيارته، وركبَ فيها. بعد ذلك أطلّت فتاة ذات شعر أشقر مرتدية ثوبًا أزرق اللون، وتحمل معطفًا متدلّيًا على ذراعها. ألقت ذراعيها حول عنق جدتها، وقبلتها مودِّعة. وفي بضع ثوانٍ بعد كانت الفتاة قد اجتازت الدَّرَج، وكانت جالسة بجانب أبيها في السيارة؛ ولوّحت بيدها الزاهرة لجدّها وجدّتها، ورأى ابتسامتها تتألق خلف الزجاج؛ بالنسبة له في هاتيك الابتسامة انطوى سحر الحياة. ثم سُمِع أزيز المحرك عند بدء التشغيل، وكان منخفضًا وقويًا بِسلاسة. ابتسمت في وجه أبيها عندما أقلعت المركبة، وعندما مرقت السيارة من جانبه، وَومَضت الشمس على مينا الأسنان، تشبّعت حواس الصبي برائحة البنزين السّارة، ولم يلاحظه أيٌّ منهما. تُرِكَ واقفًا وحده في الفناء الخالي، وراح يحدق في الأوتوموبيل الملتمعة وهي تبتعد في المدى. لم يعهد كمثل هذا الإقفَار المطلق قطّ، استعادَ سوطه، واعتلى صهوة حصانه، ومضى. اختفت السيارة عن الأنظار في أرضٍ منخفضة. بعد دقائق قليلة لمحها عند خطّ الأفق، فوق قمة الجبل. من الجنون التفكير في إعطائها حصانًا. ساطَ الحصان بالسوط فصهل؛ لربما كان مجرد فرس عجوز على أية حال، حيوان غبي متهالك عديم الفائدة، كان من المفترض أن يكون متقاعدًا منذ سنوات. كان مصممًا على بيعه لأي شخص مغفل بما يكفي لشرائه.

قال عضو الألثينغي: «انتظري هنا دقيقة فقط يا حبيبتي، سأعرّجُ على ذلك الكوخ لأقول كلمتين للرجل العجوز». صَفَّ سيارته على جانب الطريق، وضغطَ على الفرامل، وأطفأ المحرّك. «إلا إذا كنت تريدين القدوم معي؟»

أجابت: «لا، شكرًا، سوف يتلف حذائي».

راقبت أباها وهو يمشي بخفّة أعلى الطريق، شجاعًا قويّ البُنية، عريض المنكبين في معطفٍ سميك.

قصدَ بيارتور تخوم الحقل للقاء المدير التعاوني، وناداه بالفتى إنغي،

ودعاه للدخول. ولكن إنغولفور أرنارسون كان على عجلة من أمره؛ أراد فقط أن يلقي التحية على صديقه العتيق وأخيه بالتَّبنّي، وأن يطمئن عن أحواله ويربت على ظهره. عندما سأله عن سبب عدم حضوره الاجتماع، أجاب بيارتور بأن لديه أشياء أفضل ليقوم بها عوضًا عن الجلوس والاستماع إلى «مشاحناتكم اللعينة».

قال عضو الألثينغي: «أوه، لا أعرف، إن سماع هذه المسائل الحيوية المطروحة في الاجتماع يجعلِ الأمور أكثر وضوحًا بالنسبة لكم أنتم المزارعين ويمحّص أفكاركم، كما تعلم».

«الانخراط في نقاش حامي الوطيس، وإرسال بعضكم بعضًا إلى الجحيم صبيحة يوم أحد، مثلما تفعلون أنتم الأرستقراطيين الشامخين المعتدّين بأنفسكم هذه الأيام، ليسَ ديدني في مناقشة مسائل حيوية. مثل هذا التراشق بالرّوث لم يكن يعتبر جدالًا في الأيام السالفة، زمان الأفعال العظيمة والأعمال المجيدة، حينما وطِئ ظهر البسيطة رجال عِظام ذوو بأسٍ شديد شهير، رجال تحدّوا بعضهم بعضًا في مبارزة منفردة، أو استدعوا أتباعهم وقاتلوا في جيوش كاملة حتى تكوّمَت جثامين القتلى في أكوام أعلى من قمم التلال».

بيد أن عضو البرلمان لم يكن لديه الوقت للإصغاء إلى السياسة المقفّاة، وقال إنه سمع بأن مزارع البيت الصيفيّ سيبدأ في البناء، وإذا كان الأمر كذلك، فمتى يفكر في مباشرة البناء؟

قال بيارتور: «آه، سأبدأ حينما أظن أن الوقت مناسب».

«حسنًا، إن كنت تنوي البدء بالبناء هذا الصيف، فمن الأفضل أن نُسوّي الأمر الآن، لأنني ذاهب إلى ريكياڤيك في منتصف الأسبوع، ولا أظن أني سوف أعود قبل الانتخابات».

سأل بيارتور: «كيف تعلم أنني لا أستطيع الحصول على شروط أفضل في مكان آخر، إنغي يا فتى؟»

ردّ المدير التعاوني: «لقد أسأت فهمي تمامًا إن ظننت أني أعرض عليك شروطًا. إن الجمعية التعاونية ليست مؤسسة مساوِمة، ونحنُ لا نرمي إلى

جذب الزبون بواسطة عروض رنّانة بأسعار منافِسة. الجمعية التعاونية هي متجرك يا رجل، وأنت من تقرر شروطك الخاصة. لا وجود هنا للسماسرة لإضافة حصتهم إلى تكلفة الأخشاب والأسمنت، ولا مَن يضغط عليك من أجل الدفع سوى أنت. كل ما أسأله ما هي شروطك؟ أنا في خدمتك. متى تريد موادّنا؟ وهل تريد مني أن أحسب لك المبلغ الذي ستطلبه من بنك التوفير، أم تفضل القيام بذلك بنفسك؟»

«الشروط في بنك التوفير تعجيزية. البنوك العادية أفضل».

«نعم يا بيارتور إنها أفضل بكثير بحيث لا ينبغي أن أتفاجأ إذا ما خسر صديقك ملك الجبل كل ما يملك بحلول عيد الميلاد، ثم يسكن في كوخ قديم على الشاطئ، حيث ينتمي بحقّ، أو يبذل قصارى جهده كعامل إسطبلٍ لدى زوج ابنته، الذي يمكنني رميه في السجن متى شئت. أنا الرجل الذي سيتحكم بمصير البنك الوطني قبل انقضاء هذا الصيف، وتذكر كلامي هذا. وسوف تفلس كل عصابة المحتالين اللعينة أو لن يكون اسمي إنغولفور أرنارسون. ويومذاك لا عزاء لمن وثقوا بالمحتالين ووضعوا مصيرهم في أيديهم. ومن جهة أخرى، فإن بنك التوفير لدينا لهو مؤسسة قوية وجديرة بالثقة، ومع أنه قد لا يمنحك قرضًا لمدة طويلة جدًّا، فإن ذلك لمصلحتك، لأن المزرعة المثقلة برهن عقاري طويل الأجل، ليست ملكًا لأحد إلا على الورق!»

كان هذا تمويلًا عاليًا مع انتقام، وكان بيارتور مشتّتًا ما بين فِكرين، بالكاد يعرف ماذا يصدق. لقد كان مجرد فلاح بسيط من الريف قاومَ الطبيعة ووحوش البلاد بيديه العاريتين، وكانت ثقافته العليا مُستقاة من قصص البالاد والملاحم القديمة حيث حارب الرجال بعضهم بعضًا لفًّا أو دورانًا، وقطعوا بعضهم بعضًا إرْبًا إرْبًا، وكوموا جثث القتلى بعضهم فوق بعض، تلك كانت السياسة العليا الوحيدة التي يتفهّمها.

قال المدير التعاوني مستطردًا: «إن مواد البناء لدينا أرخص بثلاثة أضعاف من التي ستجدها في ڤيك. وصلتنا شحنة كاملة من الأسمنت مباشرة من الخارج الصيف الماضي. علاوة على ذلك، هناك احتمال كبير بأن يُدفع لكم ما يصل إلى خمسين كرونة للرأس الواحد من الحملان لهذا الخريف».

قال بيارتور: «إنه لأمر مؤسف أنه لا يمكن لأحد أن يعرف متى تكذب ومتى لا تكذب. أنا شخصيًا أقرب إلى التصديق بأنك تكذب طوال الوقت».

في تلك اللحظة صَفقهُ عضو البرلمان على كتفِهِ وضحك.

ثمّ تأهب للرحيل.

وقال: «إذن، سأرسل لك أولّ حمولة من الأسمنت غدًا. والبقية ستأتي تلقائيًا. سوف يُطلِعك وكيلي على جميع مخططات المهندس المعماري التي تريدها. ولدينا كثير من البنّائين والنّجارين على مقربة من المتجر. وأما بالنسبة إلى القرض من بنك التوفير، لدينا فكرة تقريبية عما ستحتاج إليه. أُمرر بنا غدًا أو بعد غد وسوف نتناقش في الأمر باستفاضة».

كانت السيارة واقفة على الطريق قبالة البيت الصيفيّ، وكان حصان السباق مذعورًا للغاية، اشرأبت أذناه بتململ واضطراب، ورفضَ التقدم على الرغم من محاولات الراكب لحثّه على المسير. في آخر المطاف اضطرَّ للنزول من على الحصان وقاده من اللجام. كانت المركبة المصقولة بعناية تلتمعُ في أشعة شمس المساء، غريبة على صفحة الأرض، خارقة للطبيعة، لكنه مع ذلك ساقَ حصانه باتجاهها. من النافذة الأمامية المفتوحة، ارتفع عمود رفيع من الدخان الأزرق، والتفّ في الهواء الهادئ. كانت الابنة جالسة بمفردها في المقعد الأمامي؛ رأى كتفها، رقبتها البيضاء، ضفائرها الذهبية، وخدّها. لم تنظر إليه، مع أنه كان على بعد أمتار قليلة، وواصل الدخان الصعود من النافذة في لفّات وحلقات رشيقة. اقترب منها وألقى عليها تحية المساء. فزعت بعض الشيء، وتصرفت كأنها تحاول إخفاء السّيجارة، ثمّ رفعتها إلى شفتيها من جديد.

سألته بصوتها الشادي، أو بالأحرى بصوتها الأخنّ: «لماذا أفزعتني هكذا؟»

قال بابتسامة ريفية: «فكرتُ أنني أريد أن أُريكِ حصاني».

قالت بوجهٍ خالٍ من التعبير: «حصان؟»، كأنها لم تسمع بمثل هذه الدابة من قبل.

قالَ: «نعم!». وأشارَ إلى الحصان وأخبرها عن ثمنه، وبأنه من أغلى الخيول في المنطقة.

وقالت دون أن تتنازل بالنظر إليه: «يا إلهي، وهل للأمر أي علاقة بي؟»

سألها: «ألا تتذكرينني إذن؟»

أجابت بنبرة رتيبة: «ليس على حدّ علمي»، وهي تحدّقُ في الطريق مباشرة من خلال الزجاج الأمامي لسيارة والدها، ممسكة السيجارة بين إصبعيها بِرقّة ولُطف. واستمرَّ بالتحديق بها. في الآخِر أدارت رأسها، وحدجتهُ بنظرة متعجرفة، وسألتهُ كما لو أنهُ تسبب لها بضرر شخصيّ: «لماذا لستَ في أميركا؟»

أجاب: «فاتتني السفينة في تلك الليلة».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ولماذا لم تذهب في السفينة التالية؟»

«أردتُ حصانًا بدلًا من ذلك».

«حصانًا؟»

ثمَّ استجمع شجاعته وقال: «شعرتُ بأنني سوف أكون قادرًا على تحقيق النجاح هنا في الموطن بعد أن عرفتكِ».

قالت: «بائس! بائسٌ جبان!»

شَاكهُ كلامها وأوغرَ صدره، فاحتقنَ وجهه، وحلّ محلّ الابتسامة ارتجاف في الشفة العليا، وصاح: «لستُ بائسًا، وسأريكِ ذلك. سترينَ يومًا ما».

«هذا النوع من الأشخاص الذين شرعوا في فعل شيء واستسلموا قبل إتمامه جميعهم بؤساء وأعشاب ضارة أيضًا. أدعوهم بالبائسين والأعشاب الضارة والجبناء. نعم، جبناء. أنا خجلانة من نفسي، خجلانة من نفسي، لأنّ عيني وقعت عليهم، فما بالك بالكلام معهم!»

تراجعَ إلى الوراء خطوة، ولاحت في عينه التماعة خاطفة وهو يصيح، مُقابِلًا الاستفزاز بالاستفزاز: «قد نبني قصرًا كبيرًا كقصركم يا آل روثسميري. أو أكبر».

ضحكت بازدراء وقد شمخت بأنفها، ولم تزد على ذلك شيئًا.

صرخَ قائلًا: «أنتم يا عُصبة روثسميري اللعينة لطالما ظننتم أنه بإمكانكم الدوس علينا، نعم هذا ما اعتقدتموه دومًا». وَدَنا منها خطوة، ثمّ لوّح قبضته في وجهها: «ولكني سأريكم!»

قالت: «أنا لا أتحدث إليك، لِمَ لا تدعني وشأني؟»

«خلال سنوات قليلة سوف أصبح مالك البيت الصيفيّ، وسأكون مزارعًا كبيرًا مثلَ جدّك، وربما أكبر. سترين».

نفثت الدخان من فمها في سحابة كبيرة بينما ضيّقت عينيها ورازتهُ بنظراتها. قالت له: «عمّا قريب سيصير والدي سيد البلاد بأسرها». ثم فتحت عينيها، ومالت نحوه، وأحدّت النظر إليه كما لو أنها تهدده: «سيد آيسلندا كلها. كلها!»

سلبت كلماتها الضياء من وجهه، وأرخى عينيه إلى الأرض. ثمّ سألها: «لماذا أنتِ قاسية معي إلى هذا الحدّ الآن؟ أنتِ التي تعرفين أنني بسببك فقط لم أذهب إلى أميركا. ظننتُ أنك مغرمة بي».

قالت: «أحمق! ربما لو أنك سافرت، ولو قليلًا». ثم خطرت لها نكتة جيدة ولم تحتمل كبتها: «وخاصة إذا لم تعد أبدًا، ربما! ولكن ها هو أبي قادم الآن». ورمت سيجارتها في القناة على الفور.

قال إنغولفور أرنارسون جونسون: «إذن وجدتِ من تتحدثين معه يا حبيبتي. إنه لأمر طيب». ركبَ في السيارة وأشعل لنفسه سيجارًا.

قالت: «إنه مجرد فتى ريفي. لقد كان ذاهبًا إلى أميركا ذات مرة».

«أوه، أهذا هو؟» قال عضو الألثينغي وهو يدوس على بادئ الحركة الذاتي، وأطلقَ المكابح.

«خيرًا فعلت يا صاحبي بالتخلي عن فكرة الذهاب إلى أميركا. يجب علينا البقاء في موطننا، نكافح مصاعبنا ونتغلب عليها. من الجيد أن يؤمن المرء بوطنه الأم. كل شيء من أجل آيسلندا. بالمناسبة، كم عمرك؟»

ولكن الفتى كان عمره سبعة عشر عامًا فقط، وكان صغيرًا على التصويت.

لذلك وضع عضو البرلمان السيارة في وضعية التشغيل، غير مكترث به أكثر، رفعَ إصبعه إلى قبعته بذهن شارد، كما لو أنه يقول وداعًا، ربما كان يعدّل قبعته ليس إلا.

وفي بضع لحظات كانا بعيدين. كل ما تبقى بضع عَصفات من التراب تدور في الهواء. ثمّ رَقَدت بعد حين ولم يَعد في الهواءِ ترابُ.

***

67. الشعر الحديث

عديدٌ من الناس ساورتهم الشكوك حول الوقت الراهن، ولكن عندما يتعلق الأمر بالصورة الإجمالية للأشياء، ويُنظر فيها نظرة بعيدة المدى، يكتشف المرء عادة أن الظروف قد أحرزت نوعًا من التقدّم، بطريقة أو بأخرى. وعادة ما تغدو أحلام الإنسان حقيقة، وبالأخص إن لم يكرّس لها جهدًا خاصًّا لتحقيقها؛ فها هي على الرصيف، وقبل أن يدرك المُزارِع، وضِعت أول حمولة من الأسمنت من أجل البناء. يُعتقد شعبيًّا أنه عندما يجعل الإنسان نفسه جديرًا بالعيش في بيت حقيقي، سوف يُعطى بيتًا حقيقيًّا للعيش فيه؛ سينبتُ من الأرض من تلقاء نفسه. الحياة تسبغُ على الفرد كلّ ما يستحقه، ويُقال إن الأمر ذاته ينطبقُ على الأمّة ككل. الحرب رفعت كثيرًا من الناس، وبضعة بلدان إلى مَصَافّ ذات قيمة كبيرة. ففي الواقع، من المشكوك به للغاية ما إذا كان بإمكان أي عدد من السياسيين، مهما كانوا بارعين، ومهما كانوا على قدرٍ عالٍ من الانفتاح والتعقل، أن يقدّموا لآيسلندا أكثر من حربٍ واحدة مصحوبة بوفرة من المذابح المتوقدة في المناطق الأجنبية. في النهاية أصبح بيارتور رجلًا ذا قيمة عظيمة، رغم أنه مالَ للاعتراف ذات مرة بأن الحياة في البيت الصيفيّ كانت شاقة للغاية في الأيام السالفة، ولكن على المرء أن يتعرض لبعض الضربات القاسية إن أرادَ المُضيّ إلى الأمام، بالتأكيد، وعلى أية حال نحنُ لا نأكل خبز الآخرين. إن خبز الآخرين لهوَ أشدّ صنوف السّم فتكًا يمكن أن يتناوله الإنسان الحرّ والمستقلّ، إن خبز الآخرين هو الشيء الوحيد الذي يمكنه أن يسلبه الاستقلال والحرية الحقيقية الوحيدة. لقد كانَ وقتٌ حاولَ فيه بعض الأشخاص إجباره على قبول بقرةٍ باعتبارها هدية، لكنه بالتأكيد لم يكن الرجل الذي يقبل الهدايا من أعدائه؛ وهو عندما ذبح البقرة ذاتها في العام التالي فقط لأنه كان لديه هدف بعيد مرتقب في تربية الحيوانات، أو كما قال للعمال في تلك الأيام البعيدة، بأنه كان يعرف تمام المعرفة ما هو فاعل بأمواله، وربما كان سيبني بها قصرًا لنفسه. وها هو يتحدّث الآن باللهجة المنفعلة ذاتها في المتجر التعاونيّ. قال: «منزل كبير أو لا شيء على الإطلاق. طابقان على الأقل وثالثٌ تحت

السطح الجملوني. ومع ذلك، تمكنوا من إقناعه بأنه سيكون من الأفضل أن يكون لديه قبو حسن متين البناء وطابق أقلّ، مما يجعل المنزل ثلاث طوابق متماثلة، الطابق السفلي، والطابق الأرضي، والطابق العلويّ. وقد حصّل قرضًا من بنك الادّخار. وبالطبع، لم تكن المزرعة الصغيرة مع افتقارها للمباني الجيدة ضمانًا كافيًا لقرضٍ طويل الأمد، لذلك مُنِح قرضًا لمدة عامٍ واحدٍ فقط في كلّ مرة. كان يُعتبر مناسبًا الإقراض بنسبة ثلاثين بالمائة على قوة الرهن العقاري الأول على الأرض، وإن كان الشرط الوحيد المفروض هو أن تكون الجمعية التعاونية هي الضامن. قبلت الجمعية التعاونية تحمل المسؤولية على الفور مقابل رهن عقاري ثانٍ على الأرض. ثمّ أعلنَ بنك الادّخار بأنه غير راغب في منح قرضٍ آخر في الخريف، عندما انتهى بناء المسكن، إلا أن يكون الرهن العقاري على المسكن والمزرعة معًا. ومن هذا القرض الجديد كان من المقرر أن تسترجع الجمعية التعاونية القرض الذي قدّمته لمواد البناء. هذه هي طُرق عَمَل التمويل العالي، وفي مقابل كل هذا صوّت المزارِع لمصلحة إنغولفور أرنارسون جونسون، الذي قد يجلس بوصفه ممثّلًا لهُ في البرلمان الوطني الألثينغي ويحلّ مشاكل الأمّة، وبعد ذلك بمدّة وجيزة أعلنَ مدير الجمعية التعاونية عن فوزه بالانتخابات، وبالتالي تكبّدت سُلطة التاجر هزيمة ثانية على هذه الجبهة بالذات. جميع الذين صوتوا للمدير التعاوني توفّر لهم الآن سبب للتهلّل فرحًا، في حين أن أولئك الذين صوّتوا لمصلحة المصرفي عضوا أناملهم من الغيظ واسودّت وجوههم، جزئيًا لأن البنك كان في وضع متزعزع، ومن المحتمل أن يعلن إفلاسه في أية لحظة، ومن جانب آخر لأن هؤلاء الأشخاص أنفسهم ناصبوا الروثسميريين العِداوة جهارًا نهارًا، فإلى من سيتجهون اليوم بأبصارهم في خضمّ دمارهم الذي صنعوه بأنفسهم؟ ثمّ لجعل الصورة أكثر سوداوية، لم يبد أن أولئك الأجانب الحمقى لديهم النية للحفاظ على حربهم الثمينة الدائرة لمدة اثني عشر شهرًا أخرى أو نحوًا من ذلك، وبدا كأن سوق المزارعين قد تهوي في أي يوم آنئذ.

حُفِرت الأساسات في منحدر الأرض جنوب المزرعة القديمة مباشرة، ثمّ أتى البنّاءون والنجّارون وشيّدوا القبو، وكانَ قبوًا بديعًا؛ ثمّ توقفوا عن العمل

أسبوعًا للراحة، وفي نهاية الأسبوع شرعوا بالعمل في الدّور الأرضي، حيث كانَ من المقرر أن تكون أربع حجرات، وخامسة لِغسْلِ الأطباق. نعم، فقط لو كان هناك طفلٌ أو طفلان صغيران متعطّشان للابتكار والتجديد، كي يفرحا بالبناء، مثلما كان الحال في السنوات الماضية التي بُنيت فيها حظيرة النّعاج، حيث كان في المزرعة في تلك الأيام إثارة وحماس عظيمان، وخطوات كثيرة تيمم الأرجاء، رائحة الخشب والأسمنت، قرع المطارق وقعقعة الخضخضة في الخلّاطة، عمّال بالعشرات، عربات وخيول، رمال وحصى. في ذلك التاريخ لم يُسمَع بالجدران المزدوجة ولا بالخرسانة المسلّحة، لذا كانت الجدران المفردة كافية، لكنها بُنيت على نحو سميك. خلال موسم صناعة القشّ في المروج، كان ما يزال ينقص البناء الدور العلويّ والسقف، وبما أن الأموال أُنفِقت بالكامل بحلول هذا الوقت، فقد قصدَ بيارتور المدينة للحصول على قرضٍ إضافيّ. ولكن صادفَ أن كان إنغولفور أرنارسون في ريكياڤيك، وكان المال شحيحًا في بنك التوفير، على الرغم من أنهم أفهموه بأنه قد تكون هناك فرصة في الخريف. وما كانت تلك العقبة الوحيدة، فقد كان المتجر مستنفدًا من الحديد المموج للأسطح، وكان يعاني من نقص شديد في زجاج النوافذ أيضًا، إذ كانَ كثيرٌ من الناس يبنون في تلك الآونة، إلا أنهم كانوا يتوقعون شحنة جديدة من الزجاج في وقتٍ لاحق في الصيف، والحديد المموّج في الخريف. قالوا: «سنرى السعر الذي ستجلبه الحِملان». لذلك وقفَ بيت بيارتور في القوالب طوال ذلك الصيف، وكان منظره من أكثر الأشياء التي تسبب الغَمّ والكآبة للعين؛ افتقدَ المسافرون المارّون من ذلك الطريق الكوخ القديم الودود المغطّى بالعشب النامي، لأنه اختفى عن الأنظار خلفَ هذا المسخ عديم الشكل بفمه الفاغر، الذي لا يذكّر بشيء إلّا بالدمار والخراب في إثر الإعصار. ولكن إن تخيّل أي شخص بأن بيت بيارتور سَيُترَك على حاله إلى أجلٍ غير مُسمّى، فإنه كان مخطئًا للأسف. فلقد تبيّن في الخريف أن بركات الحرب المبعوثة من السماء ما تزال سارية فيما يتعلّق بالأسعار، مع أن القتال نفسه انتهى منذ ما يقرب من عام آنذاك. لم يُسمع عن مثل هذه الأسعار من قبل في آيسلندا؛ لدرجة أن سيّدة ميري خطبت في ذلك الخريف بهذه الكلمات البليغة ذات الوقع الشديد في المؤتمر الوطني

للمعاهد النّسائية في ريكياڤيك: «إنّ آيسلندا بلدٌ سماويّ!» جلبت الحِملان سِعرًا وصلَ إلى خمسين كرونة للرأس الواحد، وبالطبع لم تقع الصحف في الجنوب على كلمات شاعرية مثالية بما يكفي للإشادة بفضائل الثقافة الريفية، ماضيًا وحاضرًا. ومُجِّدت محاسن الفلاحين ورُفِعت فوق جميع المحاسن الأخرى. تمكن بيارتور من الحصول على مزيد من المال من بنك التوفير، كما حصلَ على الخشب وألواح النوافذ والحديد المطعّج والعمال، بحيث لم يمض وقت طويل حتى اكتمل المنزل مع السقف. ولكن عندما كانوا منهمكين بصبّ الطابق العلوي، اكتُشِفَ بأن القبو بدأ يتصدّع. وعندما استُدعيَ كبير البنائين ورئيس عمال النجارة صرّحا بأن هذه الصدوع لا بدّ أنها نجمت عن الزلازل التي وقعت في ذلك الصيف. قال بيارتور إن أحدًا لم يلاحظ أي زلزال في ذلك الصيف، على الأقل ليس على السطح العلوي للأرض.

قال مشرف البنائين: «لقد وقعت زلازل في كوريا».

لحسنِ الحظ كانت الشقوق صغيرة نسبيًّا، ومن السهل ملؤها مرة أخرى، وعلى الرغم منها، من الممكن للمرء أن يستشفَّ في المنزل كثيرًا من المشاهد المبشّرة الفتّانة المستقبلية. أمعن بيارتور النظر في المنزل مطوّلًا وفي أحيان كثيرة، وكان يتمتم لنفسه بكلمات شتّى.

بعد جولة طِراد الماشية في الخريف، نزلَ كلٌّ من الأب وابنه في عربتين إلى فِيورد في الساحل، لأن المنزل كان ما يزال بحاجة إلى قدرٍ كبير من اللوازم الصغيرة. لم يَفه بيارتور بكلمة واحدة إلى أن قطعا أراضي الخلنج، وهبطا منحدرها الشرقي. ثمّ كسرَ الصمت بالقول: «لقد قلت لي في الربيع إن آستا سوليليا تعتقد أن شِعري ما هو إلا شعر ركيك تافه، أليس كذلك؟»

ردّ غُڤيندور: «نعم، هذا ما قالته لا أكثر ولا أقلّ».

«وبأن جميع أصدقائها في فِيورد يؤيدون الشِّعر الحديث؟»

قال غُڤيندور: «نعم، إنها مخطوبة لشاعر حديث».

قال بيارتور: «حسنًا، إنه سهل بما فيه الكفاية أن تكتب مثل هؤلاء الأشخاص المعاصرين. إن ما يكتبون مثل الإسهال. قوافي نهائية ولا شيء أكثر!»

لكن غُڤيندور لم يكن لديه لسان شاعر، ولذلك كان متحفظًا بالكلام عندما تكون مواضيع كهذه موضعًا للنقاش. وبعد صمتٍ وجيز، استأنف والده القول:

«إذا ما مررت صدفة بآستا سوليليا اليوم، أريد منك أن تقرأ عليها هذه الأبيات الشعرية الثلاثة المعاصرة، لئلّا يقول أحد إنني عاجز عن الكتابة بهذه المقاييس الحديثة البسيطة، إن لزمَ الأمر».

«لا بأس، ما دام بإمكاني حفظها».

«بحقّ السّماء يا فتى لا تدع أحدًا يسمعك وأنت تقول إنك أخرق لدرجة عدم قدرتك على حفظ ثلاثة أبيات سهلة من أوّل مرة».

سارَ لوقتٍ قصير مغمغمًا، ثمّ قال بصوت عال: «إنها ثلاثة مقاطع عن الحرب».

عشرة ملايين إنسان ونصف مليون رأيتهم
يُقتلون لهوًا في مرح المجانين الصاخب
ربما هم الآن جميعهم يَصْطلون بالجحيم
لكني لستُ حزينًا عليهم. في حِفظ الله، والوداع!

ومع ذلك كانت حربٌ أخرى
اندلعت بالقربِ من صخرةٍ في غابر الأيّام
وكان القتال من أجلِ زهرةٍ واحدةٍ حَبيبة
مُزِّقت في ساعة مشؤومة

من أجل ذلك بِتُ مؤخّرا مَهمومًا مُتغيّر المزاج
وأقلّ افتخارًا بما أملك
فَمِن أجلِ أيّ شيء الثّراء والمنازل والقوّة
إن لم تُزهِر في هذا المنزلِ زهرة جميلة؟

سأل غُڤيندور: «أليس من الأفضل أن تذهب وتراها بنفسك؟»

سأله الأب فاغرًا فمه: «أنا؟ لا، لا شيء يربطني بمثل هؤلاء الناس».

«أيّ ناس؟»

«الناس الذين خانوا ثقتي بهم. لستُ أنا من يجب عليه الذهاب وطلب الصّفح من أي شخص. دع من خانَ ثقتي يأتي إليّ ويطلب المغفرة. أنا لا أطلب المغفرة من أحد». وأضاف: «علاوة على ذلك، أنا لا أقرب لها على أيّة حال».

قالَ الشاب: «ومع ذلك، عليك أن تذهب وتراها. أنا واثق بأنها كابدت أوقاتًا صعبة بسبب فعلتها. ثم إنك أنت من طردها عندما كانت حبلى».

«ليس شأنك مَنْ أطرد. ويمكنك الاعتقاد أنكَ محظوظ لأني لم أطردك، ودعني أقول لك، لن يطول بي الأمر حتى أطردك أنت أيضًا، إن تناهى إلى سمعي المزيد من فمكَ اللعين».

«أنا متيقن أن سولّا تودُّ منك الذهاب لرؤيتها».

ساطَ بيارتور حصانه سَوطًا قويًا، وأجاب: «يا فتى، لا شيء سيجعلني أذهب إليها، ما دامَ فيّ نَفَسٌ حيّ». ثمّ بعد دقيقة أو اثنتين أردفَ قائلًا وهو ينظرُ من فوق كتفيهِ إلى ابنه: «ولكن، إن متُّ يمكنك أن تخبرها على لساني أنه بوسعها تجهيز جثتي للدفن بكلّ سرور».

كانت آستا سوليليا قد انتقلت للتوّ إلى منزل خطيبها في «سانديري» أسفل المضيق البحري. كان بيتًا صغيرًا. في الواقع لم يكن بيتًا على الإطلاق بالمعنى العاديّ للكلمة، كانَ كوخًا مغطى بالعشب مسقوفًا بحديد مموّج صدِئ، يعكس إلى حدٍّ كبير نفس درجة الحضارة تلك المساكن التي يسكنها زنوج إفريقيا الأشدّ ظلمة. كان في النافذة وعاءان صدِئان من الصفيح، مملوءان بالأتربة، وفي أحدهما التصقَ جذع نبتة كان يكافح من أجل العيش. سريران: واحد من أجل آستا سوليليا وخطيبها، والآخر لأمه، التي كانَ الكوخ ملكها. كانَ الخطيب في العمل. لم تستقبل آستا سوليليا أخاها بقسوة، على الرغم من انزعاجها الواضح من عينها اليسرى. كانت شاحبة وغريبة وكان سنّها المتسوّس مقلوعًا وفي مكانه فجوة. بالنسبة للبقية، لم تكن كثيرة الكلام

مع أخيها، ولم تذكر حتّى خطته القديمة للهجرة إلى أميركا. من الواضح أنها لم تعتبر فكرة تخلّيه عن الهجرة إلى أميركا بالأمر اللّافت للنظر بأي شكل من الأشكال، فهي لم تؤمن بأميركا في الربيع ولا آمنت بها في هذا الوقت. لاحظ على الفور أنها حبلى، وحدّق في يديها ذواتي الأصابع الطويلة، حيثُ قطنَ كمٌّ هائل من الواقع الإنسانيّ، وفي ذراعيها اللتين كانتا نحيلتين للغاية. كان لديها كحّة جافة.

قال: «يبدو أنك تعانين من نزلة برد حادة».

لا، لم يكن لديها نزلة برد، ولكنها كانت تسعل دائمًا بنفس الطريقة؛ وأحيانًا كانت تبصقُ دمًا في الصباح. ثم سألها حينذاك إن كانت تفكر في الزواج، لكن يبدو أنها لا تتطلع إلى الزواج الآن بنفس الاعتزاز الذي أظهرته في الربيع، عندما أبلغت ابن بيارتور صاحب البيت الصيفيّ بأنها مخطوبة. وبأن خطيبها شاعر حديث. سألت: «ولمَ يحفلْ أيّ شخص في البيت الصيفيّ بما أفعل؟»

قال غُڤيندور: «أعطاني أبي هذا الصباح قصيدة كي أحفظها. إنها عن الحرب. قصيدة حديثة. هل أقرأها عليكِ؟»

قالت: «كلا، لا أطيق إزعاج نفسي بسماعها».

قال: «أظنّني سأقرأها عليكِ على أية حال». ثمّ ألقى المقاطع الشعرية الثلاثة.

أصغت إليه، وشاعَ الدفء في عينيها لدى سماع القصيدة على نحوٍ غريب، وانحلّت الغضون في وجهها، وكأنها أوشكت أن تنفجر باكية، أو أوشكت أن تفقد أعصابها، لكنها لم تتلفظ بكلمة، أو بالأحرى، تركت كل ما اعتزمت قولَه دون أن يُقال، وولّت مدبِرة.

قال: «البيت الجديد شبه جاهز الآن. سننتقل إليه عمّا قريب».

قالت: «حقّا؟ وبمَ يعنيني الأمر؟»

«انطلاقًا من القصيدة، يتحتم عليّ القول إن أبي لديه أفكار معينة بخصوص المنزل. أنا متأكد بأنه سيعطيكِ الحجرة الكبيرة إذا عدتِ إلينا».

قالت بِهزّة ترفّع وأنفة من رأسها: «أنا مخطوبة لشاب، لشاب موهوب يحبّني».

قال غُڤيندور: «ومع ذلك، يجب أن تعودي».

«هل تعتقد أنني سوف أترك رجلًا يُحبّني؟»

إلا أن المرأة العجوز ضاقت ذرعًا بهذا الكلام، وما عاد بوسعها ضبطَ نفسها أكثر، فاندفعت قائلة من حيث كانت بالقرب من الموقد: «فإذن، لن تكون فكرة سيئة إن أظهرتِ له مزيدًا من اللطف والحنان. يالّلفتى المسكين، ما حظيَ بلحظة وئام معكِ ولا سلام منذ أن ولجتِ هذه الدار!»

أدارت آستا سوليليا وجهها ناحية المرأة العجوز وصاحت بانفعال: «هذا كذب! أنا أحبّه، نعم، أحبه أكثر من أي شيء في هذا العالم كلّه، وليس لديك الحق لإخبار الغرباء بأنني لستُ طيبة معه، في حين أنني أُحسن إليه أضعاف ما يستحق! إنه طفله الذي أحمله في بطني، أليس كذلك؟ وإن كانَ بيارتور صاحب البيت الصيفيّ سيأتي إلي شخصيًّا، وإن أتى إلى هذه الأرضية حَبوًا على يديه وركبتيه طلبًا للصفح عن كل ما فعله بي منذ ولادتي، سأظل غير راغبة بسماع أي كلمة عن منزله، فضلًا عن الحلم بالتحرك خطوة واحدة باتجاهه. لذا، يمكنك أن تقول له على لساني: طالما فيّ نَفَسٌ حيّ، لا شيء سيجعلني أعود إلى بيارتور صاحب البيت الصيفيّ أبدًا، ولكن عندما أموت، بوسعهِ، وبكلّ سرور، دفنَ جثّتي الهامدة، وهذا آخر همّي!»

***

68. عندما يكون الرجل غير متزوّج

سئمَ الرجلُ من المنزل قبل إتمام بنائه؛ من الغريب أن الجنس البشري بحاجة للعيش في منزل، بدلًا من البقاء قانعًا ببيت الأمنيات. ما الأخبار الآن عن هذا المبنى الخرساني الذي كان محطّ نقاش طويل، والذي اعتزمَ بيارتور صاحب البيت الصيفيّ اتّخاذه مسكنًا له؟ كما وردَ سابقًا، وقعت زلازلَ في كوريا، ولكن ماذا في ذلك؟ كانت في المنزل الآن نوافذ، وفي النوافذ ألواح زجاجية، وكان للمنزل سقف، مع مدخنة بارزة منه،

وكان في المطبخ موقد طبخ مع ثلاث شبكات، اشتُرِيَ بسعر مخفّض. ولإضفاء مزيد من التحسينات على المبنى، بُنِيَ سلّم خرساني يصل إلى الباب الأمامي بحيث يستطيع الأشخاص دخول المنزل على ارتفاع خمس درجات. ومن بعده بهو المدخل، لأنه كان للمنزل بهو مدخل بالطبع. كانت النية الانتقال إلى المنزل في وقت ما في الخريف. كانت الغرفة الكبرى في الطابق الأرضي مكسوّة بألواح من الداخل؛ اقترح أحد الأشخاص أنه يجب طلاء الألواح، واقترح آخر أن يُلصقَ عليها الصور المقتطعة من الصحف الأجنبية بقصد الزينة مثلما يفعلون في المدن، لكن بيارتور لم يُرِد تزيين أي شيء، لم يكن يريد أي قمامة في منزله. كلّ شيء على ما يرام حتى الآن. ولكن في وقت مبكر من الخريف هبّت عواصف عاتية. ثمّ يومًا بعد يوم من المطر والأمطار المتجمّدة المشفوعة بالعواصف، تبيّن أن الجوّ داخل المنزل كان عاصفًا كما في الخارج. لماذا كان هذا؟ كان ذلك لأنهم نسَوا تركيب أبواب للمنزل. لم يخطر ببال أحد أن يطلب الأبواب في الوقت المناسب، وقد فات الأوان آنذاك، فصناعة الباب تستلزم وقتًا طويلًا، والنجّارون في فِيورد كانوا منشغلين بالخدمات التي يحتاجها الناس قبل دخول فصل الشتاء.

قال بيارتور: «أوه، فقط مَسمِر بعض الألواح القديمة معًا».

بيد أنّ النّجار رفض صنع ما اقترحه بيارتور، قائلًا إنه من غير المجدي تعليق أبواب مُتقلقلة في بيتٍ حجريّ، فعلى ما يبدو الرّيح تسعى دومًا على نحوٍ مضاعف إلى بيتٍ مشيّد من الحجر. ومع ذلك، كان على استعداد لتجهيز المنزل بعتبات من الدرجة الأولى قبل أن يغادر، «ولكن هأنذا أخبرك، لمجاراة عتبات كهذه أنت بحاجة إلى أبواب من أجود الأنواع، أبواب من خشب خاص، أبواب معلقة على مفصَّلات مناسبة».

قال بيارتور: «أوه، لن يتأخر الحداد في تجهيز مفصّلات من أجلي».

قال النّجار: «لا، أنت مخطئ في هذا. قد تكون المفصّلات العادية، كاللتي سيصنعها الحداد لك، ملائمة تمامًا على صندوق أو خزانة، لكنها غير مناسبة لبابٍ مصنوع بإتقان. ما تحتاج إليه هو مفصّلات أبواب مضبوطة،

ومن أفضل صنعة ونوعيّة. في سنوات الازدهار جميع الأبواب يجب تعليقها على مفصّلات مناسبة».

صاحَ بيارتور بغضب: «أوه، إلى الجحيم جميعها!»، ذلك أنه كان مغتاظًا لأبعد حدّ لدى التفكير في المقدار المالي الهائل الذي كلّفه إياه هذا الوحش الأسمنتي الفاغر فمه حتى الآن.

ولكن كانت هناك أمور أسوأ من مجرد عدم وجود الأبواب. كان المنزل بلا شك قد اكتمل فيما يتعلق بالبناء، ولكن كانَ نقصٌ تام في كل تلك الأشياء التي لا غنى عنها في المنزل حتى يكون جديرًا باسمه. فعلى سبيل المثال، لم يكن في البيت أَسِرّة. في الكوخ القديم كانت هياكل الأسِرّة مبنية داخل بِنيَة غرفة المعيشة، وكان من المستحيل نقلها. والأمر ذاته ينطبق على الطاولات. كانت الطاولة في الكوخ مصنوعة في وقتها من بعض الألواح المسطحة الخشنة، وقد ثُبِّتت فيما بعد على عتبة النافذة، وصحيح أنها أصبحت ناعمة ملساء بمرور الزمن، غير أنه من الصحيح أيضًا أن الزمن فعل بها أكثر من ذلك بكثير؛ فقد كسرها في أماكن متفرّقة وبثَّ فيها البِلى والعفن. ولم يكن من خزائن أطباق يمكن تحريكها أيضًا؛ كانت الأرفف مُسمَّرة إلى الحائط، ومتعفّنة معه. ولم يكن في البيت الصيفيّ يومًا كراسٍ، ولا مقاعد أيضًا، ناهيك عن أي من الكماليات الأرقى على غرار الأثاث التزييني والديكورات، كالستائر، ولوحة منقوش عليها «بارك الله منزلنا»، ولوحة للشاعر والقسّ هالغريمور بيتورسون، ولوحة لقيصر روسيا، وكلاب صينية. باختصار، طوال تلك السنوات لم يكن في البيت الصيفيّ شيء واحد يمكن الاستفادة منه للاستخدام أو الزينة في بيتٍ حقيقي. هذه هي المشاكل العديدة التي تنبثُق وتواجه الإنسان عندما يصل إلى أعلى قمم الحضارة، ويبدأ العيش في منزل. ليست الأبواب وحدها ما هو بحاجة إليه. ولذلك قرر بيارتور قضاء شتاء آخر في الكوخ القديم المغطى بالعشب، خاصة أن الطقس القاسي بدا كأنه سيبدأ مبكرًا. أوصدَ مكان الأبواب بألواح خشبية. وبالتالي، في الوقت الراهن، بقي المنزل سامقًا من المنحدر أمام الكوخ مثلَ أي إعلان آخر عن سنوات الرخاء التي عاشها الرجل خلال مسيرته في تربية المواشي، واجهة غريبة!

والآن نلتفت إلى مدبرات المنزل. من الصعب أن يكون لديك مدبرة منزل. فمدبرات المنازل يختلفنَ عن النساء المتزوجات في هذا الصدد: فهنَّ يصررن على فعل ما يحلو لهنّ، في حين أن النساء المتزوجات مُطالَبات بفعل ما يُملى عليهن. مدبرات المنازل يطالبن بأشياء على الدوام، في حين تعتقد النساء المتزوجات أنهن محظوظات لعدم حصولهن على أي شيء على الإطلاق. تحتاج مدبرات المنازل إلى كل شيء من أجل كل شيء، في حين أن النساء المتزوجات لسنَ بحاجة لأي شيء مقابل أيّ شيء، لا بل يعتقدنَ أنه أمرٌ طبيعي تمامًا. معظم الأشياء تعتبرها مدبرات المنازل انتقاصًا لكرامتهن، لكن من يأبه بالاستماع إلى امرأة متزوجة إن شرعت في التذمّر والشكوى؟ الأمر الذي لا يتأثر بِهِ أحدٌ إلّاها. ولا داعي لذكر نوبات العبوس والتبويز التي تعتريهنَّ، وحقيقة جدالهنّ إلى أن يصدعنَ رأس الرجل إن لم يكن كل شيء على هواهنّ بالضبط. ومن الصعب بالتأكيد أن يتزوج المرء من امرأة فقط ليقول لها أن تُبقي فمها مغلقًا! اعتاد بيارتور القول: «أفضّلُ أن أكون متزوّجًا من ثلاث نساء على أن يكون لدي مدبرة منزل واحدة». غير أن أفعاله كانت على النقيض مما يقول، ذلك أنه استمرَّ بتوظيف النسوة المشاكسات سليطات اللسان المِلْحاحات، والمعاناة من حياة يسودها الشجار المتّصل من عامٍ إلى آخر. خلال السنوات الثلاث الأولى كانت لديه ثلاث مدبرات منزل، كلّ واحدة منهن مكثت لديه مدة اثني عشر شهرًا، واحدة شابة، والثانية متوسطة العمر، والثالثة كبيرة في السن. كانت الشابة فظيعة، والتي في منتصف العمر أسوأ، والعجوز فاقتهما سوءًا. في النهاية وظّفَ واحدة ما تزال فتيّة، وثَبُتَ أنها أقل اعتراضًا من الجميع، كان اسمها برينهيلدور، ويُختَصر عادة إلى برينيا. تمسكت برينيا بعملها لعامين حتى الآن على الرغم من كل شيء. إحدى الصفات الحسنة التي ميّزتها عن الأخريات هي أنها كانت مهتمة بالمزرعة وتتمنى لها الخير. ولكن لم تكن تلك النقطة الوحيدة لمصلحتها. فهي لم تكن مدمنة مثل المدبرة الشّابة على استبقاء الأفضل من كل شيء من أجل العامل في المنزل، وإبقائه مستيقظًا طوال الليل بالمناجاة والغزل حتى يغدو عديم النفع في الصباح، وهي لم تكن تنفعل وتنخرط في نوبة من الغضب ضد الله والناس، ثم تتمرّغ على

الأرض في حالةٍ من الهستيريا مثلما كانت تفعل الوسطى، وهي لم تسعَ إلى إذلال بيارتور بمقارنة التسريبات في البيت الصيفيّ، وحياة البؤس الحالية التي تحياها بِنسق التّسقيف الفائق، وشبابها الخالي من النقرس الذي أمضته بسعادة في خدمة رجال الدين، كما فعلت المرأة العجوز. لا، كانت تؤدي عملها بهدوء وكفاءة، وكانت صادقة في كل تعاملاتها مع سيّدها. إلا أنها لم تكن بأيِ حالٍ من الأحوال خالية من العيوب التافهة الخاصة ببنات جنسها؛ كأن تشعر بعدم التقدير لقيمتها الحقيقية إطلاقًا، وبأن كل جهودها لا تَلقى احترامًا ولا تثمينًا، وفضائلها غير معترفٍ بها. وتفكّرُ بأن الجميع أساء فهمها، وحتى إنهم اشتبهوا بارتكابها جرائم مختلفة، لأنهم بدوا دائمًا كأنهم يتهمونها بفَعْلة أو بأخرى، وعادة ما يكون الاتهام بالسّرقة. وبالنسبة للتهم الجائرة الجليّة كانت دومًا متيقظة، وعلى أهبة الاستعداد لمواجهتها وصدّها مع دفاعٍ صارمٍ لاذع. فإن اقترح بيارتور أن ما تبقى من قهوة الصباح بالإمكان تسخينه ليروي به ظمأه كانت تقول: «يبدو أنك نسيت أن العجل قد حصلَ على الثّمالة». وإذا ما طلب بيارتور بتأدّبٍ قضمة أو اثنتين من السمك الذي لم يأكله وقت الغداء كانت تقول متبرّمة: «يبدو أنك تظن أنني أسرق ما في المنزل!» وإن ألمحَ بيارتور أنها تأخرت في العودة من المرج بعد الحَلْب الصباحي كانت تجيب باحتداد: «قد تحسِب أنني كنتُ مستلقية في السرير، وأغنِّج نفسي مثل ابنة الوكيل!» لم تتزوج قط. يُعتقدُ أنها كانت متوادّة مع رجلٍ في شبابها، لكن يبدو أنها اكتشفت أن لديه زوجة بالفعل، وكانت غير قادرة على تجاوز الأمر منذُ ذلك الحين. ونظرًا لأنها عَمِلت مقابل أجرٍ طيلة حياتها، وادّخرت كلّ ما جَنَت من مالٍ وأودعتهُ في البنك، فقد كانت تُعتبر عمومًا ميسورة الحال. كان لها فرسٌ خاص بها أيضًا، فرسٌ عجوز لم يروّض مطلقًا، لكنها كانت مولعة به للغاية. ولكن كان أكثر ما يلفت النظر حقيقة امتلاكها لكنزٍ جعلها تتفوّق على غالبية العاملين في البلد. وما كانَ ذلك الكنز يا تُرى؟ لقد كان سريرًا، سريرًا مستقلّا عن هيكل المنزل. كان لديها سرير يمكنُ فكّه إلى أجزاء وتجميعه مرة أخرى ساعة يشاء المرء، بحيث يمكن نقله من مكان إلى آخر، باختصار، لم يكن أقل من قطعة أثاث. وكان لديها مرتبتها الخاصة أيضًا، التي كانت تعرّضها للهواء في

اليوم الأول من كل صيف، وكان لديها مفرش وغطاء من أجود أنواع الريش الناعم، ومجموعتان من الملاءات القطنية، ووسادة جميلة مُطرّزة عليها عبارة «ليلة سعيدة». في الواقع كانت امرأة ممتازة، يُعتمد عليها، ولها بنية قوية على نحو غير مألوف، وتضاهي أيّ رجل. ومع أنها كانت نظيفة كقطّ، ولديها مسوّغاتها المقنعة، فإنها لم تكن متملّصة سريعة الغثيان تتهرّب من فكرة رفع القاذورات ليلًا أو نهارًا، بيديها الكبيرتين اللتين لا تخلوان من تقرّحات بردٍ قديمة، بينما ترتدي سترة ضيقة دون مشدّات، بحيث تبدو ضخمة عند محيط خصرها مثل فَرسٍ جَسيم. كان في وجنتيها المتأثرتين بالطقس تورّدٌ لطيف ناضِر، وربما مجرد مسحة من اللون الأزرق عندما تشعر بالبرد. وكانت لها عينان واقعيتان، وفمٌ أحاطت به خطوط كادحة قاسية، لا أثر فيها للروح العصرية الانتقادية العيابة في الفكر أو الشعور. كانت تتحدث عادة بصوتٍ متوتر ونبرة باردة، أشبه بصوتِ متهم بريء أمام القاضي، مظلوم قليلًا، وفي قلبها جرح دفين.

الآن، كان الانتقال إلى البيت الجديد في ذلك الخريف أمرًا مفروغًا منه بالنسبة إلى بيارتور، وهو لذلك لم يفعل شيئًا لإصلاح الكوخ القديم خلال ذلك الصيف، وعندما حلّت محل الصقيع فجأة، نحو نهاية تشرين الأول، رياح أذابت الجليد، وأمطار غزيرة، سرعان ما تبيّن على نحو مزعج أن السقف كانَ في حالة مريعة للغاية. أوقف بيارتور التسرّبات قدر استطاعته، ثم انتقل إلى الطابق السفلي، ولكن لأن الجدة كانت مخلوقًا محافظًا عجوزًا، رفضت الانتقال، واكتفت بالتدّثر بِجوال والاستلقاء في السرير إلى أن تشعر بالدفء. حسنًا، في أحد الأيام كان بيارتور جالسًا في الطابق السفلي بانتظار أن تُحضِر له مدبّرة المنزل عصيدته، فأحضرتها له ووضعتها قدّامه ثم شرع يأكل. وقفت هنيهة وراحت تراقبه من زاوية عينها، بينما كانَ منشغلًا بملعقته، يأكل من الوعاء على ركبتيه، وعندما أوشكَ على الانتهاء من طعامه فتحت فمها وخاطبته. كانت لديها عادة بأن تدير ظهرها له عندما تتحدث إليه، والآن بدا الأمر كما لو أنها تتذمر في وجه الجدار.

«ينبغي علي القول إنني لا أستطيع تَبيّن الهدف من بناء منزلٍ كبير إن كنت تنوي البقاء في هذه الحفرة القديمة الحقيرة التي يَرشَح منها الماء كما كنت

في السابق. لو أنني المسؤولة عن هذا الأمر كنتُ سأسمع انتقادات كثيرة من الناس حول سوء الإدارة».

«لا أعتقد أنه سيضيرنا البقاء هنا شتاء آخر، وإن تحتم علينا احتمال بعض التسربات هنا وهناك. إن تسربات الماء صحية إن كانت آتية من السماء. وعلى كل حال ليس ذنبي أن الأبواب لم تكن جاهزة».

«لو أنني سُئِلتُ في الوقت المناسب، لكنتُ على أتمّ الاستعداد لدفع ثمن باب غرفتي».

ردّ عليها بيارتور من فوره: «نعم، ولكن حدث أن انتويتُ تركيب أبواب في منزلي على نفقتي الخاصة. وعلى كل حال يلزمنا أشياء أخرى غير الأبواب، ولم أكن متهيّئًا للذهاب وشراء جميع الأثاث لمثل هذا المنزل الكبير عندما كان الشتاء قد حلّ علينا بالفعل».

قالت مدبّرة المنزل: «يبدو أنك استطعت تدبّر أمورك دون أثاث حتى الآن. ولكن إن لزم الأمر بوسعي دومًا شراء كرسيين بمالي الخاص. وبوسعي أيضًا إعارتكَ سريري، أو على الأقل مشاركته مع الآخرين، إن كان من الممكن التوصل إلى أي نوع من الاتفاق مع أي مخلوق في هذا البيت».

«ها؟» قالَ لها بيارتور، ونظرَ إليها وهي واقفة قبالته. لا أحد يستطيع الإنكار أنها امرأة ذات قَدٍّ حَسَن. وكانت دون شك مُجيدَةً في عملها، وذكيّة، وخالية من أي نوع من الغرور أو الإسراف. وقد تكون وسيلته الفُضْلى هي الزواج من هذه البَقّاقة ليمتلك الإذن كاملًا ليقول لها اخرسي، أو على الأقل مشاطرتها الفراش، مثلما اقترحت هي بطريقتها الرسمية المتزمتة. شعر أنه لا يمكنه أن يغضب من هذه العملاقة التي لم تستطع السنوات أن تحنيها، ولا أن يجيبها بقسوة أو عجرفة، كما تستحق، وكان عليه الإقرار بأنه تبذيرٌ منه وسلوك شاذ بأن يدفع أجرًا بدلًا من أن يندسّ ببساطة إلى جانبها في سريرها المدهش، أحد أفضل الأَسرّة في المقاطعة بأكملها، والذي لم تتح له الفرصة النوم في سرير مثله من قبل. بالإضافة إلى ذلك، ألم يكن لها نقود في بنك التوفير؟ استأنف قائلًا: «آه، يا عزيزتي برينيا، ليس بسبب افتقاري إلى المال أنني لم أنتقل إلى المنزل الجديد هذا الخريف. كان بإمكاني شراء كثير

من الأبواب، وكثير من الأسرّة، وكثير من الكراسي، إن شئت. وربما صورة للمسيح، وواحدة للقيصر أيضًا، إن رغبتُ بذلك».

أجابت وهي ما تزال متبرّمة ووجهها ناحية الحائط: «لستُ مضطرة لأسأل لماذا كانَ ذلك. يُكتب الشعر عن أولئك الذين ليس لديهم القريحة ولا الحسّ لفهمه، لكن البعض لا يسمعون كلمة طيبة تُقال في حقهم. كل ما يحصلون عليه تسربات مياه المطر».

كرر مرة ثانية: «التسرب الذي يأتي من الخارج لا يؤذي أحدًا. إنه التسرب الذي يجده المرء في الداخل هو الأسوأ».

عندما يكون المرء غير متزوّج يتحتّم عليه أن يقول للناس اصمتوا بطريقة ملتوية.

***

69. الفوائد

أكانَ مثيرًا للعَجب لو أن معظم الناس اعتقدوا أن بيارتور صاحب البيت الصيفيّ سيكون أفضل حالًا لو لم يبنِ المنزل؟ فإذن ماذا عن مَلك الجبل ومنزله؟ أكان أداؤه أفضل، هل لي أن أسأل؟ لا؛ الحقيقة هي أنه على الرغم من خلوّ بيت بيارتور من الأثاث وأنه غير صالح للسُّكنى بعد، إلا أنه كان ينبوعًا حقيقيًّا من السعادة مقارنة بالمنزل الذي بناه ملك الجبل وجهّزه بتكلفة مرتفعة. ففي حين وقفَ منزل بيارتور بفضل القرض الذي طلبه من بنك التوفير وأغنامه لتسديد الفوائد المنصوص عليها، انهار منزل ملك الجبل كليًّا، وأغرقَ مالكه في خرابٍ مفاجئ. كان منزلًا كبيرًا، منزل ملك الجبل ذاك، في الحقيقة، وكان مؤثّثًا في أحسن صورة بحيث يمكن تصنيفه إلى جانب قصر روثسميري كمسكنٍ لا يخجل البشر المتحضرون من العيش فيه. غير أنه لم يكد يُوصِل منزله إلى المستوى المرغوب حتى طُرِد مَدحورًا وأُجبِرَ على الهروب. الناس لا يمكنهم ببساطة احتمال مصاريف العيش كبشرٍ متحضرين، مثلما تَبيّنَ غالبًا من قبل، وسيتبيّن لاحقًا. حتى مزارعو الطبقة الوسطى لا يمكنهم احتمال مصاريف العيش بهذه الطريقة،

وفي عام الرخاء أيضًا. السبيل الوحيد المعقول للناس العاديين، الوحيد الذي ينفع، هو العيش في كوخ صغير في نفس مستوى الزنوج في وسط إفريقيا، والسماح للتاجر بالحفاظ على وميض الحياة فيها، كحال الأمة الآيسلندية منذ ألف عام وحتى الآن. وإذا ما طمحَ الناس إلى أهدافٍ أعلى فهم يكلّفون أنفسهم ما لا يطيقون. صحيح أنه كان من المألوف في الماضي أن يَدينَ النّاس للتاجر بالمال وأن يرفضَ تسليفهم عندما يصير الدّين كبيرًا جدًّا. وبالمثل، لم يكن من المستغرب بالنسبة للناس الذين حُرِموا من القوت أن يموتوا جوعًا، ولكن هذا المصير كان بالتأكيد أفضل بما لا يُقاس من الوقوعِ في شَرَكِ البنوك، كَحال الناس في الوقت الراهن، فهم على الأقل عاشوا مثلَ أناس مُستقلّين، هم على الأقل ماتوا من الجوع مثل أناس أحرار. يكمن الخطأ في الاعتقاد أن يد العون التي تبسطها البنوك موثوقة بقدر ما هي مغرية، في حين أنه في الواقع الفعلي لا يمكن الاعتماد على البنوك إلا من قِبل قلّة استثنائية من الأشخاص الكبار الذين بمقدورهم استدانة أي مبلغ من مليون إلى خمسة ملايين. إذن، في نفس الوقت تقريبًا الذي باع فيه بيارتور أفضل بقرة لديه لتأمين المال للأجور وسداد ألف كرونة من القرض، وزيادة عليها فائدة بقيمة ستمائة كرونة من عوائد مواشيه، في الوقت عينه باعَ ملك الجبل مزرعته إلى مُضارِب مقابل الرهون العقارية التي كانت مرهونة بها، وفرّ إلى المدينة ليعيش في كوخ هناك، نعم، وظنّ نفسه محظوظًا لأنه تمكن من الهرب. كان البنك الوطني قد انتقل إلى سيطرة أنغولفور أرنارسون، وأصبحَ مصرفًا حكوميًّا بموجبِ قرض حكومي ضخم من إنكلترا؛ وباتت الإعفاءات والامتيازات على القروض أمرًا مستبعدًا إلا إذا كان الأمر متعلقًا بالملايين، وانخفضت أسعار منتجات المزارعين انخفاضًا كارثيًّا.

بلى تداعى كلّ شيء وباتت الأحوال في الحضيض في الخريف الذي أتمّ فيه مبنى بيارتور الجديد عامه الأول. وما عادت بركات الحرب مجدية بما يخصّ التجارة والأسعار، فلقد عَاودَ الأجانب تربية أغنامهم من جديد بدلًا من ذبح البشر، لسوء الحظّ! بات اللحم الآيسلندي مرة أخرى أحد سلع العالم الفائضة عن الحاجة. ولم يكن أحد يطلب الصوف في هذه الأيام، فقد طَفِقت تنمو أصواف أغنام الأجانب مجدّدًا. تعيّن على بيارتور الوقوف

متفرّجًا على هذه الأغنام الآيسلندية غير المرحب بها وهي تتبدد ببساطة ليتمكن من تسديد الفائدة وجزء من القرض المترتب عليه. إلا أنه تحمّل هذه الخسارة بنفس الجَلَد والاصطبار الصارمين اللذين أظهرهما في السابق في مواجهة المجاعة والأشباح والتّجار، ولم يَشتكِ لأحد. لا ريبَ أنّ جدران سجنه من الديون كانت تزداد سماكة كلّما انخفض سعر إنتاجه، لكنه كان عازمًا على الاستمرار في رفع رأسه ومواجهة تلك الجدران، ما دامَ في رأسِهِ قطرة دم واحدة أو ذرّة عقل. كانت تلك مرحلة جديدة في نضال المزارع الصغير الأبدي من أجل الاستقلال، هذه المعركة ضد الظروف الاقتصادية العادية التي يجب أن تعود بالضرورة بعد زوال الازدهار غير العادي للحرب العالمية؛ عندما تلاشى التفاؤل غير الطبيعي الذي غرّر بالفلاح السّاكن في الكوخ ودَفَعه إلى فِعلٍ أحمق غاية في السّخف وهو بأن يفكر في العيش في منزلٍ؛ ثمّ ليتلاشى دون أن يترك وراءه أي أثر. عادَ إلى رشده، بعد أن زالت سنوات الرخاء، ليجدَ نفسه عالقًا في المستنقع الذي تمكن من تجنّبه في الأعوام الصعبة بجهد غير متناهٍ. الرجل الحرّ في أعوام المجاعة أمسى عبدًا للفائدة في سنوات الرخاء. فبعد كل شيء، وبتحرّرهم من الديون، ومن موت الصغار، ومن القذارة والجوع، تبيّن أن الأعوام العجاف كانت أكثر وفاء وأمنًا من سنوات الرخاء بكل مؤسسات الإقراض اللعوب التي كانت تؤويها.

كانَ ذلك في نفس الوقت تقريبًا الذي عُيّنَ فيه إنغولفور أرنارسون حاكمَ محافظة، وأُنعِشَ البنك الوطني بواسطة عدة ملايين من رأس المال من الدولة الآيسلندية، وهذا يعني من بنكٍ معيّن في لندن، في ذلك الوقت تقريبًا قَدِمَ مدير جديد إلى الجمعية التعاونية في فِيورْد. دمدمَ المدير الجديد غاضبًا: «الأمور هنا غارقة في جحيم من الفوضى!» وكانَ كلّما أوغلَ في سَبر السجلات، اشتد غضبه، لقد سُمِحَ لديون الناس بالارتفاع أكثر مما ينبغي، كانت الأمور في حالة مروعة، وكان لا بدّ من اتّخاذ تدابير احترازية مشدّدة على الفور. فأمّا الذين كانوا مَدينين بأكثر مما يمكنهم دفعه فقد أشهروا إفلاسهم على الفور، وكان بوسعهم شكر حظهم السعيد بأن عُفيَ عنهم بتلك السهولة، ولكن كلّ أولئك الذين كان لديهم أي شيء سُمِح لهم بالتعلّق

بحبل الدين، وبالكاد أصابع أقدامهم تلامس الأرض، على أمل أن يتمكنوا من كشط الفوائد على الأقل، بأظافرهم المكسورة والنازفة. وقد تكون هذه مصيبة أشدّ ضراوة من الإفلاس والطرد بوفاضٍ خالٍ. كما رتّبَ الرجال الكبار أن توزع حصص الإعاشة على العامة في المجمع التعاوني، وذلك بهدف تأمين كفاف يومهم، من أجل تسديد الفوائد. ثم وزِّعت الاحتياجات الضرورية على الناس، بكميات تتفاوت حسب إمكانياتهم وظروفهم حتى يتمكنوا من الاستمرار في العبودية مقابل الفوائد التي كان عليهم دفعها. وكثير من الناس لم يكن بإمكانهم الحصول على المؤن الأساسية إلا إذا اصطحبوا معهم شخصًا أكثر ثراء ضمانة لهم. وكانت القهوة والسُّكر خارج الحُسْبان إلا لكبار المزارعين؛ وكان من الممكن قياس الحصّة التموينية من القمح بسهولة أكبر بالكُشتبان، على الرغم من أن بعض التعساء لم يحصلوا على أي شيء إطلاقًا، قُلِّلت السلع الصغيرة وأواني المطبخ بشدة، وكانت الملابس ممنوعة منعًا باتًّا، خاصة على أولئك الذين كانوا بحاجة حقيقية إليها. ومن جهة أخرى، أحرزت الحكومة تقدّمًا هائلًا بما يخص التبغ، فقد سنّت قوانين مؤخرًا تمنح بموجبها منحة مجانية من التبغ من المال العام لكل فرد من أفراد المجتمع الزراعي لإعانته في حماية أغنامه من الجرب ودودة الرئة، ويمكن أن تُعطى هذه الرفاهية إما داخليًّا كَدواء، أو خارجيًّا كَغسول. قوبلَ هذا التبغ بترحيب حارّ؛ أُطلِقَ عليه تسمية إكستشيكا (الخزينة العامة)، أو ووزْمي (مصاب بالدود)، وحتى الوكيل مضغَ تبغ وورمي لمصلحة الاقتصاد في هذه الأوقات الصعبة.

لدى إطلاعه على الحصص الغذائية المخصصة له من أجل معيشته، في السنة الثانية من بناء منزله الجديد، قال بيارتور: «هذا نهجٌ متشدّد ولا ريب! إذ لم يعد مسموحًا لي بتحديد مشترياتي بنفسي كرجلٍ حرّ. وإذا لم أحصل على ما أريده من هنا، فسوفَ أتسوق من مكان آخر».

ليأتيه الردّ: «افعل ما بدا لك! لكننا ببساطة سنحجز على ممتلكاتك».

«ماذا يفترض بي أن أكون بحق الجحيم؟ عبدًا أم أهبل، أم ماذا؟»

فكانَ الردّ: «لا أعرف، نحن نتصرف وفق السجلات فقط».

سُمِحَ له بنصف زكيبة من دقيق الجاودار فقط، وبنفس المقدار من الشوفان، ولكنه أُعطيَ كثيرًا من بقايا الأسماك المملحة، التي على ما يبدو أن الجمعية التعاونَية لديها منها حمولات ملء العربات، وبالمثل كثير من تبغ وورمي. كانت تلك أولّ مرة في حياته كمزارع يُرفَضُ فيها مَنحه حفنة من دقيق القمح لصنع الفطائر المحلاة إذا ما طرق زائرٌ مزرعته، وكانت القهوة والسُّكر أمرًا مُستبعدًا على أشخاص مثله ما لم يدفعوا نقدًا. كان إذاك غير متردد في قول ما يفكر فيه عن أولاء الذين يقبضون على حياة الفلاحين في أيديهم، ولكن بمن كان سيُندّد هناك؟ ببضعة دفاتر وسجلات؟

ومع ذلك لم يفلحوا في منعه من جعل منزله صالحًا للسكن في ذلك الخريف. كان ينقصه أشياء كثيرة بالطبع، لكنهم على الأقل تمكنوا من توضيب الغرفة الكبرى في الطابق الأوسط بطريقة ما، وتمكنوا من استخدام المطبخ أيضًا، كما جُهِزَ المنزل بثلاثة أبواب، واحد خارجيّ واثنان داخليّان، رُكِبّت جميعها باستخدام مفصلات أصليّة، وزُوِّدت أيضًا بمقابض لائقة. واشترى من فِيورد سريرًا مستعملًا له ولغُڤيندور، وعلى الرغم من أنه حتى الآن لم يكن أحد يعتبره رجلًا مفيدًا، فقد دقّ بعض الألواح معًا لتشكيل سرير للمرأة العجوز، كما صنعَ بالمثل طاولة كيفما اتّفق وأريكة بسيطة للجلوس. وبهذا انتقلت العائلة للعيش في المنزل الجديد، جميعهم في غرفة واحدة. ولكن ما إن استقروا في المنزل حتى اكتشفوا أن في موقد الطبخ علّة ما، كان الدخان يتطاير بلا انقطاع كلما أُشعِلت النار، ويعجّ المنزل بأكمله برائحة كريهة رهيبة. استُدعي أشخاص عدة، وعُقِدت اجتماعات كثيرة لمناقشة الأمر، وطُرِحت عدة نظريات جديرة بالملاحظة، وبُرهِنت بصورة قاطعة. رأى البعض أن المدخنة لم تكن مرتفعة على نحو كاف، ورأى آخرون أن المدخنة مرتفعة جدًّا. اعتقد بعض الأشخاص أن المدخنة واسعة، في حين ظنّ آخرون أنها يجب أن تكون ضيقة جدًّا، أو حتى مثقّبة. علاوة على ذلك، أُشيرَ إلى نظرية علمية نُشِرت في إحدى الصحف مفادها أن المداخن التي بُنيت خلال المد الربيعي لطالما تسببت بكثير من المتاعب. وإذا حكمنا وفقَ هذه النظرية يجب أن تكون مدخنة بيارتور قد بُنيت خلال المدّ الربيعي. وكان الشيء الوحيد المؤكد هو أن المدخنة ظلت تدخن على الرغم من

كل تنظيراتهم. وبدا جليًّا أن الإصلاحات باهظة الثمن كانت ضرورة لإعادة الأمور إلى نصابها، وكان من المشكوك فيه للغاية ما إذا كان من الممكن دفع ثمنها، لأن موقد الطبخ كان نَهِمًا للحطب وغيره من الوقود بشبكاته الثلاث الكبيرة. في خاتمة المطاف اشتروا موقد زيت للطهي، وتُرِكَ فرن الطبخ واقفًا في المطبخ بشبكاته الثلاث دونَ مِساس، كما لو كانَ للزينة.

***

مكتبة
t.me/soramnqraa

70. ترولات[1] في الخريف

اعتادت مدبرة المنزل برينيا، مرّة في كل خريف، أن تُسرج فرسها وتمضي في رحلة إلى المدينة بُغية التسوّق. في هذه الأحيان كانت تغادر لمدة أسبوع في كلّ مرة، لأن هذه الرحلة كانت في طبيعتها رحلة إجازة أيضًا، ربما كان لديها أصدقاء مثلَ أيّ شخص آخر. كان من دأبها العودة ببشرةٍ مُحمّرة، وعلى وجهها سيماء الأهمية إذ يمشي بها حصانها خببًا، مع تشكيلة واسعة من الرزم المربوطة إلى السرج، أوانٍ وملبوسات صغيرة متنوعة، وفَضْلات قطن، وخيوط للخياطة، وبسكويت صلب للقضم في المناسبات الاحتفالية، ولتقديمها للقوم في حال كانت طريقة تفكيرهم مقبولة وحقّانية. وشيء من القهوة، وقُمع أو اثنين من السُّكر. ومع ذلك كان الأمر مختلفًا في هذه المرة، ذلك أنها رجعت، ليس على صهوة الحصان، وإنما سيرًا على الأقدام، وكانت تقود الحصان من خلفها، وسرج التحميل متخمًا بالأغراض. كانت متحمسة ومبتهجة حينما سألت المُزارِع عما إذا كان سيساعدها في فكّ الحُزَم وحملها إلى الداخل.

تساءل بيارتور: «ما كل هذا الذي اشتريته؟»

أجابتهُ غير راغبة بإخباره بكل شيء دفعة واحدة: «آه، لا شيء يُذكر، حقًّا!

1- الترول: Troll جبار خرافي يسكن الكهوف. في الأساطير النوردية والإسكندنافية يُصوّر الترول إما كعملاق أو قزم. وصِفت هذه الكائنات في المصادر النوردية القديمة بأنها تسكن في الصخور المعزولة والجبال والكهوف في وحدات عائلية صغيرة، وقلما تكون مفيدة للبشر.

لا شيء يستحق الحديث عنه بأيّة حال». ولكن تبدّى من أسلوبها أنها كانت معتدة بنفسها نوعًا ما، وربّما كانت مجرد سعادة تافهة، مجرد تفاخر ضمني؛ من المحتمل أنها كانت في طريقها عبر المروج تتطلّع إلى استجوابها، ومحاولة تقصّي كل التفاصيل منها. إلا أنه كفّ عن الكلام من فوره بتحفّظٍ باردٍ، ولم يُظهِر أي علامة أخرى على الفضول. لم يكن من عادته استجواب أي شخصٍ في أي شيء، هو نفسه لم يكن يسمح لأحد باستجوابه بأي شيء، فلتفعل ما يروق لها بما اشترته. وضعَ مشترياتها في المدخل بصمت، ثمّ أطلقَ فرسها في المستنقعات، وأعطاه ركلة، كانت ليلة خريفية مدلهمّة. ثم وجدَ بعض الأعمال المختلفة لتؤخّره في الخارج ولم يعد إلى البيت حتى وقت النوم. توقع أن مدبرة المنزل، على جري عادتها الخريفية، ستقدّمُ له قطعة من البسكويت ليأكلها إن عادَ إلى المنزل قبل ذهابها إلى النوم، ولكنه في هذه المرة كان أقل اهتمامًا بالبسكويت من أي وقتٍ مضى، فقد خشيَ مما قد تودي إليه، لربما كلمات قاسية من كلا الطرفين. ومع ذلك عندما دخل المنزل بعد غيبة طويلة بِنيّة الخلود إلى النوم، ألفى نفسه غير قادرٍ على منع نفسه من إشعال الضوء في الممر، وإلقاء نظرة متفحصة على الأشياء التي اشترتها. كان في الممر نصف شوال من الدقيق، وكيس من الأرز، وقُمع كامل من السُّكر، وصندوق فوّاحٌ بروائح البضائع الاستعمارية[1] مثل البُنّ، والزبيب، والله أعلم ماذا أيضًا؛ كلّ تلك البضائع التي حظر عبء الدَّين على الرجل المستقل شراؤها في بلدٍ حرّ. رفعَ أحد الألواح في الغطاء واختلسَ النظر من أسفله. وما أوّل شيء رأته عينه يا تُرى؟ كانت لفافة من تبغ السعوط المعطّر المبهج. ولا عجب إن شعر بأن صوابه طار، رجلٌ لم يكن لديه على مدار شهر كامل سوى تبغ ووزْمي المجاني لتهدئته، أو بالأحرى ليهيّج تعطّشه إلى التبغ. مُنزعجًا أيّما انزعاج من مواصلة استطلاعاته، أطفأ الضوء ودخل الغرفة.

1- البضائع الاستعمارية: colonial goods مصطلح يُشار به إلى السلع المستوردة من المستعمرات الأوروبية مثل القهوة والشاي والتوابل والأرز والشوكولا والتبغ، وقد أصبح هذا المصطلح أقل ملاءمة بانهيار الإمبراطوريات الأوروبية الغربية الذي أعقبَ الحرب العالمية الثانية.

كانت المرأة العجوز نائمة، وغُڤيندور في السرير أيضًا، وقد أدارَ وجهه ناحية الجدار. فقط برينيا كانت ما تزال مستيقظة، وكانت جالسة على سريرها، ولمّا تزل في ثياب الخروج. كانت قد أفرغت بعض الملابس لتفحّصها، ووضعتها جانبًا كما لو كانت تشعر بخيبة أمل فيها. حدّقت في يديها في حِجرها ولم ترفع بصرها إليه قط. منذ وقتٍ قصير فقط كانت مزهوّة بنفسها للغاية ومتفاخرة، لكنها الآن لا تقول شيئًا، لم تبق بهجة ولا سرور.

«هل علينا أن نهدر كل هذا الزيت؟» قال المُزارع متذمّرًا، وبرمَ برغيّ المصباح إلى أقلّ من النصف تقريبًا.

لم تُجِب بشيء، وهو أمر غير معتاد بالنسبة لها، ولكنها بعد هنيهة نَشقت نشقة صغيرة. شرعَ يحلّ أربطة حذائه. كان يأمل بأن يتمكن من الدخول إلى فراشه وسحب أغطيته إلى ما فوق رأسه قبل أن تجد فرصة لتعرض عليه قطعة بسكويت. وكان حريصًا على عدم النظر إليها، لكنه تَفكّر مليًّا في تصرّفها. هذه المرأة العاقلة المُعاندة، التي تجاوزت سنوات رعونة الشباب والهِياج الطائش، هذه المرأة التي كدّت وكدحت وادّخرت طوال حياتها، لم تهدر بِنسًا واحدًا، ربما باستثناء رطلٍ من البسكويت مرة واحدة في السنة، هل فقدت حصافتها؟ أكانت تجلسُ هناك عابسة الوجه فقط لأن عينيه لم تجحظا من رأسه من فرط إعجابه عندما أحضرت حمولة حصانٍ من المؤن إلى منزله، منزله الجديد الكبير؟ ولكنها رغم ذلك كانت امرأة جيدة ويمكن الاعتماد عليها، وقلّما جَنحت إلى ثرثرة باطلة، ولم يكن لديه أي شكوى ضدها، ما عدا تلك المرة في العام الماضي عندما تدخلت في شيء لا يعنيها. وهي امرأة حَسنةُ القوام، أيضًا، كلّما أبصرها المرء، مفتولة الخَلْق ريّانة، وفي وجنتيها ما يزال توردُ الصّبا؛ فعليًّا كلّ ما كانت تحتاجه هو نظّارة لتبدو مهيبة في حضورها مثل سيدة ميري قبل بضع سنوات عندما كانت في أحسن أحوالها. وكانت تجسد روح النظافة، لا تسمح لأحد بارتداء أي شيء قبل إصلاحه، ولا تدع الأوساخ تتراكم في الزوايا، وكانت تعرف كيف تستفيد أقصى فائدة من المؤن، وتضفي على كل ما تطهوه نكهة شهيّة. ولم تكن تدّخر جهدها، أو تَستنكِف عن فعل أي شيء، فقد كانت على استعداد لرفع القاذورات ليلًا أو نهارًا، إن لزم الأمر. لا ولم تكن الشخص الذي يستلقي

في السرير ويدلل نفسه مثل ابنة الوكيل دون القيام بفعل شيء مفيد. وكانت امرأة قوية مُوسِرة، تمتلك مبلغًا لائقًا في رصيدها في بنك التوفير، وعلى الرغم من أن فرسها أخرق متعثّر، ومع ذلك يظلّ الفرس فرسًا. وأخيرًا وليس آخرًا، كان لديها ذلك السرير المدهش، أفضل قطعة أثاث في منزل المزارع الجديد بأكمله؛ وموقد الطبخ غير مستثنى. كان من المشكوك بأمره إن كانت سيدة ميري نفسها تنام بين ملاءات أكثر نعومة.

كلا، لم يظهر عليها علامات تشي برغبتها بتقديم البسكويت له، ربما لم يخطر ببالها قط بالنظر إلى النحو الذي تجري به الأمور. إذ إنها لوقت طويل جلست على سريرها ويداها في حضنها، غريب كيف يمكن أن تبدو يداها عاجزتين حينما لا يكون فيهما شيء، وفي الواقع استطاع تمييز ظلال وجهها في ظلام الغرفة. في آخر الأمر، تناولت الأغراض التي كانت تتفحصها، ولفّتها في صرّة مُهمَلة كما لو كانت خِرقة تافهة، ودسّتها تحت غطاء صندوق ملابسها. ثمّ نَدّت عنها تنهيدة صغيرة. وسحبت المِلحفة عن سريرها، وطوتها بنفس الترتيب المعتاد، ومدّت الغطاء ذا المربعات الحمراء، والملاءة الناصعة البياض، وقعدت على حافة السرير، وَهمَّت بخلع ملابسها، فكّت الأنشوطة، ونزعت سترتها، وخلعت تنورتها، وعندما طوت كل ملابسها الخارجية بعناية فائقة، وضعتها جميعًا مع أفضل تنورة تحتيّة لديها تحت غطاء الصُّوان. كانت مرتدية ملابس داخلية صوفية سميكة جيدة الصنع عملتها بنفسها، وبدا أن قوامها ينمو ويزهر ويتحرر وهي تقشّر عنها الملابس الخارجية الضيقة، كان الكفلان الكبيران المتينان ما يزالان مَرنين للغاية بحيث بدا أنه من غير المعقول أنها تجاوزت سن الإنجاب. كان في ركبتيها وفخذيها صلابة هائلة، وكانت رقبتها قوية وشابة، وكان ثدياها ثديي فتاة، كانا صلبين ومرتجفين، لَدِنين، مرتفعين في المقدمة، ومُقبَّبين. خلعت صدارها كله، كانت امرأة «ترول»، ولكنها لم تكن ترولًا أكثر منه، لأنه هو أيضًا كان لديه كَتِفا عملاق، وصدر يمكنه احتمال كل شيء. ارتدت قميص النوم. ثمَّ، وليس قبل أن تخمد الضوء، أصدر سريرها صريرًا وهي تستلقي عليه.

وجدَ النوم مستحيلًا بطريقة ما، وراحَ يتقلّب في سريره من جانبٍ إلى

آخر، وحسدَ ابنه الذي كان يشخر منذ ساعات. وَنفّسَ عن مشاعره غيرَ مَرّة بسيلٍ من الشتائم همهمةً؛ غاضبًا لأن أفكارًا حمقاء سلبت النوم من عينه. والحقيقة هو أنه كانَ توّاقًا إلى قطعة من التبغ الجيّد. وفكّر؛ اللعنة على تبغ وورمي والجمعية التعاونية وبنك التوفير والمنزل. كانت الرائحة في هذا المكان الجديد كفيلة بخنق أي شخص. نعم، لو كان لدى الواحد بعض التبغ اللائق فقط بدلًا من ذلك الوورمي اللعين. كيفَ سيجبر نفسه على النوم؟ هناك اعتقاد قديم يزعم أن الشعر البارع يفيد في حالات الأرق، ولكنه بعد أن تمتمَ بعضًا من رباعيّاته المفضلة، اكتشفَ لدى التفتيش في عقله أن الأمثلة الوحيدة التي يمكنه تذكرها هي الأشعار الفاحشة. اقتحمت هذه الأبيات غير المرغوب فيها عقله بحشود لا تُقهر، وأقصَت حتى أجود الروائع الشعرية المعقدة.

كان الآخرون جميعهم نيامًا منذ وقت طويل، وهو ما يزال راقدًا يتحوّل من جانبٍ إلى جانب، ويلعن، وبعقل مملوء بالفحش، كانَ آنئذ مهووسًا بالشوق إلى التبغ؛ أوه، إلى الجحيم أعتقد أن أفضل ما يمكنني فعله إن أردت السَّكينة لنفسي، هو أن أخرج وأقتطع لنفسي قطعة جيدة من تبغ السعوط.

لبس سرواله، ونهض من السرير، وارتدى حذاءه، وتوخى الحذر في إحداث أقل قدرٍ ممكن من الضوضاء. ولكن الليلة الخريفية كانت حالكة السّواد كما القطران، وكان عليه أن يشقّ طريقه نحو الباب. وبينما كان يتلمّس طريقه، مرت يده على مقبض دائري لم يتعرف عليه في البدء. ثمّ تحسّسه مجددًا، ثمّ دار حوله، ثمّ تلمست يده وجهًا، لا بدّ أنها عُجرة سريرها التي لمسها في البداية.

سمعها تهمس في الظلام: «من هذا؟»

أجاب: «هل أيقظتك؟» لأنه كان يعتقد أنها نائمة.

ردّت هامسة: «أهذا أنت؟» وَصرَّ السرير كما لو أنها كانت تتحرك وترفع رأسها.

قال: «ماذا؟ كلا!»

ثم تحسّس طريقه قُدمًا بجانب السرير إلى أن وجد الباب. اخترقت

أنفه روائح البضائع الاستعمارية الباهظة الثمن، شهية المذاق، ونسيَ تلهفّه إلى التبغ، وتذكر شيئًا واحدًا وهو أن تلك الغريبة قد اشترت مؤونة غذائية وأحضرتها إلى بيته كما لو أنها اعتقدت أنه خسيس وعَبد. كماليات! كانت هذه أول مرة يُحمَلُ فيها خبزُ الآخرين إلى بيته.

خرج إلى الهواء الطلق الليلي. كانت نُدف الثلج تَهمي على الأرض بِخفّة، وكان الهواء لاذعًا شديد البرودة، لكنه لم يأبه به وسلكَ طريقه إلى أطراف الحقل، بملابسه الداخلية وحذاء دون جوربين. كان من المريح استنشاق الهواء النقي من جديد بعد روائح الأسمنت والرطوبة في المنزل. ربما كان المنزل غير صحيّ. ماذا دَهاه بحقّ الجحيم حتى فكر ببناء منزل؟

آه، حسنًا، ربما الآن بعد استنشاقه هواء نقيًّا قد يحظى ببعض النوم. قفلَ عائدًا إلى المنزل، وتلمّسَ طريقه على درجات السلم الخمس، وولجَ المدخل، لتواجهه مرة أخرى رائحة مشترياتها الباهظة الثمن، ذات المذاق الشهيّ، بكمياتها الباذخة، وثمنها المدفوع نقدًا. ولكن مع ذلك ستكون هذه المرة الأخيرة التي يُحملُ فيها خبزُ الآخرين إلى بيته.

في صباح اليوم التالي كانَ على قدميه في وقتٍ مبكر، وعندما أنجزَ بعضَ مهامه، عاد إلى البيت لشرب ماء الصباح. ولكن ما الذي فعلته حينذاك سوى أنها صبّت له كوبًا كبيرًا من القهوة، فملأ البخار العطري المنبعث منها حواسّه، لم تكن أيّ من زوجتيه قادرة على صنع القهوة مثل برينيا، وبرأيه هي أفضل واحدة تصنع القهوة في المقاطعة بأكملها، كلّ ما تلمسهُ من طعام يكتسب نكهة جذابة وشهية خاصة به. أدارت لهُ ظهرها طوال الوقت باستثناء بضع لحظات عندما كانت تملأ فنجانه. هل ردّت عليه عندما قال صباح الخير؟ أو ربما لم يقل صباح الخير! حدّق في فنجان القهوة الموضوع أمامه حينًا من الوقت، نعم، لطالما كانَ شغوفًا بالقهوة. في الأخير، أزاح الفنجان جانبًا دون أن يمسّ محتواه، وانتصبَ واقفًا على قدميه، ثمّ قال دون إنذار:

«برينهيلدور، عليكِ أن تذهبي».

فنظرت إليه حينئذ وقالت: «أذهب؟» كانَ وجهها بعيدًا عن كونه متقدّمًا

في السن. ولم يكن بشعًا حتى. كانَ في وجهها امرأة شابة، وكانت هذه المرأة الشابة ترنو إليه بِفزع.

قالت: «يبدو أنك تظنّ».. ولم تزِد على ذلك.

كان الأمر كما لو أن المرأة الترول قد تفتّتت إلى أشتات بضربة واحدة. تبددت ملامحها، وأخفت عينيها في ثنية مرفقها مع بكاء عميق مرتعش، مثلَ بنت صغيرة. أغلق الباب من خلفه، ومضى إلى عمله في الخارج. كان وجهها متورّمًا من البكاء طوال ذلك اليوم، لكنها لم تقل شيئًا.

في اليوم التالي كانت قد ذهبت.

***

71. الوفاء بالأهداف والمثل العليا

إذن، هل وضِعت أهداف إنغولفور أرنارسون ومُثله العليا موضع التطبيق في كل مكان؟ نعم بالطبع طُبِّقت. لقد وضِعت أهداف إنغولفور السامية موضع التنفيذ في كل مكان. على كل صعيد. وضِعت قوانين تطوير الأراضي حيّز التنفيذ، وكُوفِئ الناس بمبالغ مالية كبيرة على زراعة مساحات شاسعة من الأرض، نعم، وبضعة كرونات قليلة مقابل زراعة رقعة صغيرة فقط. وحصل الناس على جوائز لقاء بناءِ إسطبلات جميلة، ومخازن للعلف من الخرسانة، وسُمِحَ لهم بالحصول على منحة إذا أرادوا شراء آلات زراعية باهظة الثمن مثل الجرارات والمحاريث، والمسالِف[1]، والجزازات، والأمشاط، في الواقع كلّ شيء وصولًا إلى آلات الخياطة. وسرعان ما بدأ نظام الصرف الصحي في العمل أيضًا، مُنِحت الإعانات المالية لتشييد الحفر والخزانات الأرضية شريطة أن تكون كبيرة ومكلفة بما يكفي. كما افتَتحَ بنك آيسلندا فرعًا لتقديم القروض لبناء المنازل الريفية. وفي هذه الحالة تمكن الفلاحون من الحصول على قروض طويلة الأمد بسعر فائدة مخفض وأقساط مريحة، ولكن فقط بشرط بناء منازل كبيرة ومتينة، بالنظام الذي يقتضي تشييد جدران مزدوجة من الخرسانة المسلحة، والقشرة المتصالبة على الألواح الخشبية،

1- مَسالف جمع مِسلفة وهي آلة تُسوّى بها الأرض للزراعة وغيرها.

وأرضيات مشمّعة، ومياه في الصنابير، وبلاليع، وتدفئة مركزية، وكهرباء إن أمكن ذلك. فقط البيوت من الدرجة الأولى حقًّا ستكون جديرة بالنظر، إذ إن التجربة أثبتت أن البيوت المشيدة بمواصفات رخيصة كانت اقتراحًا محفوفًا بالمخاطر. كما أُصدِرت قوانين تُعنى بالتقليص المنهجيّ لكل الديون الزراعية الكبيرة، مَا أثارَ بهجة عارمة في صفوف أولئك المزارعين الذين كانت ممتلكاتهم كبيرة بما يكفي لتراكم عليهم ديونًا ضخمة. وازدهر المجمع التعاوني، وهو منشأة تجارية خاصة تربط بين أعضائها رابطة الأخوة، ولا يستطيع أي وسيط أو لصٍّ متسلل اختراقها لاستغلال أرباح صغار المنتجين المُستَحقّة. وإذا كانت الأوقات مزدهرة، لم يكن المزارع يتقاضى ثمنَ المنتج الذي باعهم إياه فحسب، وإنما كان يُمنح علاوة تبدأ من بضعة كرونات فصاعدًا وذلك اعتمادًا على المبلغ الذي حصل عليه من البيع. كانت علاوات الوكيل بالآلاف. فازَ بجوائز زراعية كبيرة، لأنه استزرعَ مساحات شاسعة من الأراضي، وبَنى أكثر الإسطبلات إبهارًا، كما حصل على منحة من صندوق المعدّات واللوازم لشراء جرّار، ومحاريث حديثة، وحصّادات حديثة، وآلات جَرف قشّ حديثة، وغيرها من المستلزمات الزراعية الغالية الثمن، وحتى آلات الخياطة. بالإضافة إلى ذلك، مُنِحَ إعانة من صندوق الصرف الصحي، وبمساعدتها شيّد واحدًا من أفضل خزانات السماد في المقاطعة بأكملها. ما إن اكتملت هذه الأعمال حتى اكتشفَ أن المنزل كانَ يتعفن من تحت قدميه، لذا قدّمَ على قرضٍ ضخم من دائرة قروض البناء الريفية في بنك آيسلندا، وبنى، وفقًا للوائح تلك الدائرة، منزلًا فاخرًا من الطراز الأول، به قبو، وطبقتان، والثالثة عُليّة، جميعها من الخرسانة المسلحة بجدران مزدوجة، وألواح خشبية، ومشمّع في الأرضيات، وحمّام للسيّدة، وتدفئة مركزية، ومياه ساخنة وباردة، وإنارة كهربائية. مثلَ هؤلاء الرجال هم زهرة الأمة. رجال مثل الوكيل والمُضارِب الذي أنقذَ ملك الجبل بشراء مزرعته. مُضارب؟ لم يكن صحيحًا أنه كانَ مضاربًا، لقد كان مجرد رأسماليّ حديث قرر ممارسة الزراعة كهواية. وعلى أية حال، ما كانَ على ملك الجبل أن يلوم سوى نفسه إن خسرَ كل ما يملك، لأنه كان دومًا غبيًّا في الزراعة، ولم يتمكن قط من البقاء ضمن الحدود المعقولة، على

الرغم من حديثه عن الاعتدال والوسطية. ولم يكن من رجال المال أيضًا، وهو الآن في شيخوخته اضطرّ للعمل كادِحًا في مستودع في المدينة، معتمدًا في وجوده على إحسان زوج ابنته إليه. لا، لم يكن الرجل الجديد في مزرعة ملك الجبل بالتأكيد مضارِبًا، بالكاد كان قد مر عليه شهر في المنطقة عندما انتُخبَ لمجلس الرعية، وحصلَ من فوره على منحة لشراء أدوات زراعية حديثة، كما حصلَ على جائزة كبيرة مقابل إنتاجه، وزوّد منزل ملك الجبل بالكهرباء. الحرب العالمية لم تُشَنّ عبثًا عندما يتعلّق الأمر بهذا الرجل.

ولكن ماذا عن بيارتور صاحب البيت الصيفيّ وأصحابه؟ كيف تصرّفوا؟

لننظر أوّلًا بشأن ثورير غيلتايغ، والد البنات المرحات المفعمات بالحيوية اللواتي كانت لديهن نقطة ضعف اتجاه الجوارب الحريرية ذات الطول المفرط. فعليًّا اتضّح أن الأمور أفضل بكثير بالنسبة لهم مما كان متوقعًا، حتى إن البنت الصغرى قد تزوجت من رجل ميسور الحال في المدينة. وأما ثورير فلم يكن مدينًا بالكثير لدرجة أن يصبح رجلًا عظيمًا بفضل قوة ديونه، ولم يكن مدينًا بالقليل لدرجة أن تكون هناك نيّة لإعلان إفلاسه. في نهاية الحرب استطاع أن يصف نفسه بأنه مزارع من الطبقة الوسطى. أختيرَ ليشغل منصب ملك الجبل السابق في الأبرشية. ووقع تطهير الكلاب على عاتقه مع ما يرافق المهمة من مسؤوليات ورواتب ومكافآت. واختيرَ كاتبًا في الأبرشية. كما بقي على وفاقٍ مع كلا الجانبين، وكفّ عن التذمر من طيش النساء ورعونتهن، وقيلَ إنه لا يعارض فكرة الحصول على مقعدٍ في مجلس الرعية، إذا ما أُتيحت له الفرصة. ومن اللافت للنظر أن من أنقذه في هذه الأيام بأجورها المرتفعة هنّ بناتِه الضّالّات، اللاتي أرغمتهن ظروف خاصة على البقاء تحت سقف أبيهنّ، ولم يعملن من أجله خلال سنوات الحرب فحسب، بل حرصنَ أيضًا على مساعدة أطفالهن له. وهو لم يخاطر ببناء منزل من أجل الناس في مزرعته؛ بنى فقط من أجل الأغنام، وبما أن أغلب الناس لديهم سبب أفضل للاتّفاق، فمن الأكثر أمانًا لرفاهة المرء في المستقبل أن يفعل أقلّ ما يمكن من أجل الناس.

والآخرون؟ لقد كدّوا وكدحوا كسابق عهدهم، وانسحقوا تحتَ أعباء ضرائب الأبرشية، والديون، والديدان، والمرض والموت، في الحين الذي

تحققت فيه مُثُل إنغولفور أرنارسون العليا وأهدافه السامية، وتهاطلت على الموسرين المكافآت والمِنح والدّعم المالي والشروط التساهلية. أبرمَ أولافور يازتدال عقدًا لشراء مزرعته الصغيرة، إلا أنه كان ما يزال مقيمًا في نفس الكوخ المغطّى بالعشب الذي ماتت فيه زوجته وجميع أطفاله –الحياة البشرية ليست طويلة بما يكفي لكي يصير الفلاح شخصًا ذا إمكانيات– الحقيقة التي يُقال إنها أُثبِتت إثباتًا قاطعًا في كتاب من قبل عالم أجنبي شهير. وأما بالنسبة إلى هورلاغور كيلدور، فقد قرر بنهاية الحرب وما صَحِبها من ازدهار، قرر شراء المزرعة التي استأجرها من الوكيل منذ وقتٍ طويل، وها هي الآن الفوائد تستغرق وقته كله لسدادها. كلا، لم يستطع بناء منزل، عليه الانتظار إلى حين اندلاع الحرب القادمة. بحلول ذلك الوقت من المحتمل أن يكون الوكيل قد أخذ منه الكوخ مرة أخرى لتسوية الفوائد غير المدفوعة، ولكن ليتدبر المستقبل أمره بنفسه في الوقت الراهن، فَهورلاغور الذي ما عرف قطّ التمييز بين ما هو طبيعي وما هو خارق، وإنما يعطي كل ذي حقٍّ حقّه في الوقت المناسب، سوفَ يعطي هذه المسألة حقّها عندما يحين دورها في المستقبل.

وماذا عن إينار أونديرنيث؟ على الرغم من أنه لمدة عام أو عامين كان قادرًا على مشاهدة ديونه وهي تتضاءل شيئًا فشيئًا، بيد أنه لم يتمكن من شراء مزرعته أو تجديد مبانيه، والآن أخذت ديونه تتراكم مرة أخرى، وسيكون محظوظًا إن جَلبت له الأغنام التي ينوي بَيعها في الخريف ما يكفيهِ لدفع الضرائب وثمن الأعلاف. وسوف يكون لزامًا على فاتورة الطبيب أن تنتظر، وكذلك بقايا السمك المملح؛ فحياة الإنسان هي حياة الإنسان؛ إلا أنه كتب قصائد تذكارية لطيفة مثلما كان يكتب من قبل كلّما ماتَ أحد، وظلّ متمسّكًا بالأمل كدأبِهِ دومًا بأن ينظر الربُّ إلى الفلاحين في الحياة الثانية بعينِ الرضا أكثر مما كان عليه في هذه الحياة، وأن يأذن لهم آنئذ بالاستفادة من حقيقة أنّ لهم أرواحًا خالدة.

فإذن هل شملت كل تلك المِنح والإعانات المالية والأرباح والصفقات الفلاحين الفقراء المملِقين عندما آتت أهداف إنغولفور أرنارسون ومُثُله العليا أُكُلها أخيرًا؟ ما عسى المرء أن يقول؟ ما يحدث هو أن المنحة التي

تقدمها خزينة الدولة للفلاح الصغير المفلس من أجل تكلفة جرار أو محاريث حديثة بالكاد تعني له شيئًا. أو عندما تقدم له مثلًا قرضًا مدته أربعين سنة لبناء منزل من الخرسانة بجدران مزدوجة، ومياه في الصنبور، وأرضيات مُشمعة، وإنارة كهربائية. أو علاوة على ودائعهِ. أو مكافأة على زراعة مساحة شاسعة من الأراضي. أو خزان فخمٍ للسماد من أجل فضلات بقرةٍ لمرّة أو مرة ونصف. والحقيقة هي أنه من غير المجدي على الإطلاق تقديم عرض سخيّ لأي شخص ما لم يكن ثريًا؛ الأغنياء هم الوحيدون الذين يمكنهم قبول العروض السخيّة. أن تكون فقيرًا هي ببساطة حالة إنسانية غريبة تَتمثّل في عدم قدرتك على الاستفادة من العروض السخيّة. إن جوهر كون المرء مزارعًا فقيرًا هو عدم القدرة على الإفادة من الأُعطيات التي يمنحها السياسيون أو يَعِدون بها، وأن يُترك المرء تحت رحمة المُثُل العليا التي تجعل الثري أكثر ثراء والفقير أشدّ فقرًا.

كانَ بيارتور في هذه الآونة يقضي شتاءه الثاني في المنزل الذي بناه. كان أسوأ منزل في العالم وكان باردًا على نحو لا يُصدّق. قبيل وقتٍ قصير من بدء السنة الجديدة لزِمت المرأة العجوز سريرها، على الرغم من عدم قدرتها على الموت، لذلك قرر بيارتور نقلها إلى الكشك الخاوي في حظيرة الأبقار، لئلا تموت من شدة البرد. وحتى بيارتور تأثر كثيرًا من برودة هذا المنزل لدرجة أنه بدأ يخشى من أنه تقدّم في السن، إلا أنه ارتاح لفكرة أن ابنه، وهو في زهرة شبابه، لم يستطع تحمّل البرد أيضًا. كانت جدران غرفة المعيشة تَنِزُّ من الرطوبة، وكانت تتغطى بقشرة من الجليد خلال موجات الصقيع. ولم يكن الثلج يذوب عن النوافذ قط، وكانت الريح تعصفُ في المنزل مباشرة، وفي الطابق العلوي كان الثلج على الأرضيات ويتطاير في الهواء. تولّى الأب وابنه أمر الطبخ لنفسيهما في ذلك الشتاء، دون بهجة أو مرح، ولم يكن يُسمع حتى التذمّر في المزرعة في هاتيك الأيام، وبدا أن أحدًا لم يكن على حقّ في أي شيء.

في الصيف التالي وظّفَ بيارتور مزيدًا من العمال، ومن جديد أُعدّ القَشّ من أجل خِرافه الآيسلندية، وإن كان لا يوجد مستهلك في العالم سيحطُّ من قدرِ نفسهِ بلمسِ الخِراف الآيسلندية، ما عدا الثعالب وديدان الرئة. استمرّ

السوق بالهبوط في ذلك الخريف. لا أحد بحاجة إلى الخروف الآيسلنديّ، واضطرت الحكومة أخيرًا إلى بيع حق الأمة لمصدر ثروتها الرئيس، وهي أماكن الصيد، مقابل شراء بلد أجنبي لعدد قليل من لحم الضأن المملح، الذي تُرِك بعد ذلك ليتعفن في الموانئ البعيدة وأُخرِج في النهاية إلى البحر للتخلّص منه. كل ما اعتقد بيارتور أنه يمكنه ادّخاره للبيع في الخريف ذهب للأجور وضرائب البلدية، ولم يتبق شيء للفوائد وسداد أقساط قروضه، ولو أنه باع كلّ شيء لما كان ذلك سوى قطرة في المحيط على أية حال. قصدَ مصرف التوفير ليرى إن كان بوسعه التوصل إلى بعض الترتيبات بشأن ديونه، ولكن الشخص الوحيد الذي وجده في المبنى كان بائسًا ضعيفًا مسلول الهيئة قلّب أوراق سجل الحسابات بِكسل وأبلغه بأن ليس لديه السّلطة لإجراء أي تخفيض. كان قد تَقرر افتتاح فرع لمصرف آيسلندا في ڤيك قريبًا، وكان من المقرر دمج مصرف التوفير في فِيورد معه، لذا كان الشخص الوحيد الذي يمتلك السلطة لإجراء أية تعديلات على الشروط الحالية لقروض بنك التوفير هو محافظ البنك نفسه إنغولفور أرنارسون. نصحَ المدير بيارتور بفتورٍ بالذهاب إلى ريكياڤيك لرؤية إنغولفور هناك ومحاولة التوصل إلى بعض الترتيبات معه. عادَ بيارتور إلى بيته وفكر في الموضوع. وربما لم يكلف نفسه عناء التفكير في الأمر؛ سيّان أن يُفكّر المرء أو يُغضي عن التفكير، جميعهم لصوص، كلهم بلا استثناء. وبينما كانَ مشغولًا في التفكير في الأمور، انتشرت في أنحاء البلاد كما النار في الهشيم أخبارٌ تُفيد بأن إنغولفور أرنارسون قد تخلّى مؤقتًا عن منصبه بوصفِهِ قيّمًا على المصرف؛ وعُيّنَ رئيسًا لِوزراء آيسلندا في ذلك الخريف.

***

72. كلابٌ وأرواحٌ وإلى آخره!

بيع عقار مرهون. إخطار بناء على الالتماس المُقدّم من بنك آيسلندا، فِرع ڤيك، يُعلن بموجبه أن مزرعة البيت الصيفيّ في مقاطعة روثسميري سوف تُباع بالمزاد العلني في اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو المقبل، وذلك

لتسوية الديون، والفوائد على الديون، وتكلفة البيع. يبدأ المزاد العلني في الساعة الثالثة مساء في العقار المراد بيعه.

العمدة، جون سكولاسون

عُلِّق هذا الإعلان في كلٍّ من ڤيك وفِيورد ونُشِرَ في الجريدة الرسمية ابتداء من منتصف الشتاء فصاعدًا. وبعد مدة وجيزة، وصل بيارتور إشعار بنفس الغرض. لم يقل شيئًا. لم يكن من عادته أن يتحسّر على أي شيء خسره؛ لا تُغذّ حزنك أبدًا، بل اكتف بما تبقى لديك، عندما تفقد ما كنت تملك؛ ولحسن الحظ كان لديه الرغبة والقدرة على التمسك بأغنامه طالما أمكنه ذلك. إذ كان ما يزال متبقيًّا له منها ما يقارب المائة، وبقرة واحدة، وثلاثة أفراس عجائز مرهقة، وكلبة صفراء، وهي الجيل الرابع من الإناث من كلبته الأولى.

في ذلك المساء، عندما دخلَ بيارتور حظيرة الأبقار، توقف أمام سرير المرأة العجوز، وراحَ ينظر إليها في الأسفل لدقيقة.

سألها أخيرًا: «ربما تتذكرين كوخك في الشّمال في ساندغيلس هيث، يا بيرا».

«كوخ؟» لم يكن بإمكانها الجزم بذلك حقًّا، لقد تبخرت ذاكرتها منذ زمن بعيد، ولم تتذكر شيئًا عن أي شيء في تلك الأيام.

قال: «ماذا؟ أتصوّر أنه ما يزال موجودًا على الرغم من ذلك».

قالت: «إنه كوخ لطيف، عِشتُ هناك لمدة أربعين سنة، ولم يحدث أي شيء على الإطلاق. ولكن هنا يبدو أن شيئًا ما يحدث دومًا».

قال لها: «آه، حسنًا، سأرحل من هنا هذه الآونة. إنهم يرغمونني على البيع».

ردت بالقول: «وأنا لستُ متفاجئة، إنها أفعال ذلك الشيطان العجوز من جديد، لطالما سكنَ مزرعة البيت الصيفيّ وطاردها. وسيسكنها دومًا. نادرًا ما سمح كولمكيلي لأي شخص حلّ في هذه المزرعة بالإفلات بسهولة دون

عقاب. من جهتي أقول إنني لم أحسب أن هذا البيت يومًا بيتي. لم أكن أكثر من نزيل ليليّ عابر».

بيد أن المزارع لم يكن لديه رغبة بمناقشة أمر الأشباح، فهو ما آمن بالأشباح قطّ، أو بشكل عام في أي شكل من أشكال الكائنات الخارقة باستثناء تلك التي يلتقيها المرء في الشِّعر، لذلك دخلَ في صُلب الموضوع مباشرة:

«هل ترغبين في تأجيري كوخ أورثارسيل هذا الربيع يا بيرا؟»

قالت: «كان غروب الشمس جميلًا في أورثارسيل، عندما كان زوجي العزيز راغنار يرتدي معطفه الكبير ويتجه إلى المروج على حصانه بحثًا عن خِرافه، ليجزّ صوفها حيثما ثَقِفها. وكان لديه كلاب رائعة أيضًا. لطالما كانت لدينا كلاب رائعة».

قال بيارتور موافقًا: «نعم، أنت محقة بهذا يا بيرا. لطالما كانت كلاب راغنار جيدة. أتذكر ذلك الوقت عندما كان لديه كلب بني ضارب للصفرة، كان حيوانًا مذهلًا، كان يبصر في الظلام مثلما كان أي كلب يبصر في وضح النهار. غالبًا لا يحالفك الحظ بمصادفة مخلوق مثل هذا، صدقيني. لكنني حصلتُ على نصيبي من الكلاب الجيدة أيضًا، كما تعلمين، يا بيرا، تلك الحيوانات الوفيّة، الكلاب لم تخذلني قط، وفي مرة من المرات كانت لدي كلبة صفراء، وهي الجدة الكبرى لكلبتي الحالية، التي بدت للعالم أجمع أنها تتمتع بِسُلطة على الحياة والموت».

بغضّ النظر عما قد يحدث وما حدث، يبقى للإنسان على الأقل ذكرياته مع كلابه التي لا يستطيع أحد حرمانه منها، على الرغم من أنه اتّضحَ أن الرخاء الذي جلبته الحرب العالمية، وتحقيق المُثُل العُليا للأشخاص المهمين؛ اتّضحَ أن ذلك كله لم يكن أكثر من سحابة غبار عَلَت ودَوّمت كي تُعمي بصيرة العامل المستقل.

قال ثورير غيلتايغ ببعض التعاطف: «حسنًا، إذن هذا ما آلت إليه أحوالك يا عزيزي بيارتور!» كانَ ذلك في وقت مبكر من الربيع، وكان قاعدًا على حائط الحظيرة مع عدّة فلاحين أُخَر، وكانت أياديهم ملطّخة بدماء وَسمِ الدّواب، وكانت الحملان وأمهاتها تثغو ثغاء شديدًا حول سيقانهم.

قال بيارتور: «آه، سيكون دورك التالي، لا أمان في كون المرء مُطهِّر كلاب. مثلما رأينا جميعًا».

قال ثورير، وربما ليس دون شيء من الانزعاج: «لا أعرف كثيرًا عن هذا الأمر يا بيارتور. أنا لا أثق بالكلاب ثقة تامة بالطبع، لأنه بالنسبة لي الشيء الأهم هو أن يكون لديك إيمان، ليس بالكلاب، وإنما بالأبناء، مهما بدر منهم. وهذا ما فعلته على الدوام. مهما حدث لبناتي فأنا لم أطردهن قط. والنتيجة هي أنهن استمررن في العمل من أجلي، بارك الله قلوبهن، ومن أجل أنفسهن في الوقت ذاته. إن إيمان المرء بأبنائه يوازي إيمانه بوطنه».

نعم كان قد ارتقى إلى فلاح من الطبقة الوسطى، كما كان من السهل التعرف إلى ذلك من نبرته. يكمن سرّ نجاحه في حقيقة أن بناته صَيّرنه جدًّا في منزله، وظللنَ هناك على مرّ السنين مع أطفالهن غير الشرعيين. وبهذا زُوِّد بيد عاملة نسائية غير مدفوعة الأجر طوال أعوام الحرب، وتمكن في خاتمة المطاف، من الحصول على منصب مشرّف كذلك. بالإضافة إلى ذلك، باتَ يؤمن ببلده أيضًا: كلّ شيء من أجل آيسلندا.

قال بيارتور: «ما سبق لأبنائي أن جلبوا العار لأبيهم قطّ. كانوا أبناء مستقلين، أبنائي».

وأدرك الجمعُ من فورهم إلى أي منحىً كان الحديث مُتّجهًا، وبأن خطوة صغيرة أخرى في ذلك الاتّجاه سوف تُفضي إلى إهانات شخصية. تبعَ ذلك صمت مشوبٌ بالحرج والإرباك، وبدا أنه من الصعب تجاوزه، إلى أن اقتنص الفرصة لِحسن الحظ الصديق العتيق أولافور، ذلك أنه كان يعلم من خبرته القديمة أن من يتردّد في اغتنام فرصته في أيّ مناقشة لن يتمكن من إقحام نفسه بالمحادثة والتلفّظ وإن بِكلمة واحدة.

قال: «حسن، شخصيًا توصلتُ إلى نتيجة مفادها أن الشخص ليس لديه الفرصة لأن يصير مستقلًا في هذه الأيام أكثر مما كان عليه في الماضي، إن هَمّ ببناء منزل لنفسه. لم يحدث في تاريخ البلد بأكمله، منذ بدء التوطين فصاعدًا، لم يحدث أن تمكن أي عامل عادي من بناء منزل لنفسه جدير بالتسمية، ولذلك لا أرى خيرًا بأن يقوم الواحد بذلك الآن. وعلى أية حال،

بِم يهمّ إن تحتم على الإنسان العيش في كوخ طيني صغير طوال حياته، ما دامت حياته، لو كان بالإمكان تسميتها حياة، قصيرة جدًّا؟ ستكون مسألة مختلفة تمامًا إن كان للناس أرواح خالدة. فقط في هذه الحالة سيكون من المجدي أن يحاول المرء بناء منزل لنفسه».

إينار أونديرنيث: «حسن، أنا لستُ مثل أولافور، وأنا لا أزعمُ، في تلك المناسبات النادرة عندما يكون لديّ ما أقوله، بأن حججي تستند إلى نظرية علمية. أقول فقط ما يبدو محتملًا بالنسبة لي ولا ألقي بالًا إلى آراء العلماء. وينبغي علي القول في هذه المناسبة فقط لأنني أعرف ببساطة أن الروح موجودة، وبأنها خالدة، فأنا لا أمانع العيش في كوخٍ يكسوه العشب لفترة قصيرة بينما الروح باقية هنا على هذه الأرض. وعلى الرغم من أن الحياة بائسة، وبأن منزل المرء ضيّق، وديونه ثقيلة، ورغم أن مؤونته غير كافية، ورغم الأسقام الطويلة التي لا مفرّ لهُ منها، ومع ذلك تبقى الحقيقة هي أن الروح هي الروح. ستظل الروح دومًا روحًا ومنتمية إلى عالمٍ آخر وأعلى».

«أوه، فلتذهبوا إلى الشيطان بكل هرائكم اللعين عن الأرواح!» قال بيارتور ذلك وهو يقفز عن جدار الحظيرة بازدراء.

عند تلك النقطة حوّل هرولاغور كِلدور المحادثة إلى الديدان.

***

الجزء الثالث

الخاتمة

73. خُبز الآخرين

ذلك الربيع، في نفس الوقت تقريبًا الذي انتهى فيه بيارتور من إعادة بناء بيت المزرعة المتهدّم في أورثارسيل -كان على نمط بيت المزرعة الذي بناه من قبل بالسّليقة- استردّ وكيل أورثسميري حظائر خرافه الشتوية إذ اشتراها بِسعر الرهن العقاري الذي كانت مرهونة به. واعتبرَ معظم الناس أنه أجرى صفقة ناجحة. كان يعتزمُ تحويل البيت الصيفيّ إلى مزرعة ضخمة للثعالب، لأنه باتَ أكثر وضوحًا يومًا بعد يوم أن الثعلب لم يعد العدو الأسوأ للبلاد، بل الخروف. في الأثناء كان بيارتور قد نقلَ ماشيته وأغراضه المنزلية إلى أراضي ساندغيلس في الشمال، ولم يتبق في مسكنه القديم سوى المرأة العجوز، التي اعتزمَ نقلها إلى أورثارسيل عند عودته من المدينة. كانت أول رحلة له إلى المدينة باسم بيارتور من أورثارسيل، وكان ابنه برفقته. كان هذا الرجل آنئذ غارقًا في ديونه لمتاجر الجمعية التعاونية بحيث لم يكن مسموحًا له حتى بحفنةٍ من دقيق الجاودار على حسابه الخاص. سُمِحَ له بحمولة حصان من الأمتعة بعد إبراز تفويض خَطيّ بِاسمِ الأرملة هالبيرا ابنة جون. كان لا فائدة من الانخراط في لغة التهديد، ولا فائدة من شتم أي شخص، لأن لا أحد كان لديه الوقت للاستماع إلى التهديدات، أو لرد الإساءة، إلا إذا طلب صبيٌّ على حصان النّقل من بيارتور أن يخرس. وكان من غير المجدي لكمُ أحدٍ في أنفه، لأنه بطريقة أو بأخرى كان أنف الشخص الخطأ هو الذي

يُلكَم. باع أفضل حصانين لديه لشراء أخشاب لغرفة المعيشة الجديدة في أورثارسيل، وكان كلّ ما تبقى له الآن حصان عجوز متهالك يبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا يُدعى بيلسي، الذي التقيناه مسبقًا. نتذكرهُ من الأيام الخالية، عندما حضرنا جنازة في البيت الصيفيّ، نعم، منذ وقت طويل، عندما وقفَ مربوطًا على عِضادة الباب في يوم من أيام الشتاء، وحملقَ في العجوز ثورثور نيثوركوت بينما كان يشدو ترنيمة. كثيرة هي الأشياء التي قد تمرُّ على رأس الحصان. عاشَ هذا الحصان في مزرعة البيت الصيفيّ منذ أن زرعها بيارتور، كان الحصان الوحيد في أعوام القحط، وكانَ واحدًا بين عِدة آخرين في الأوقات الطيبة، لكنه الآن الحصان الوحيد من جديد؛ هزيل، واهن رخو، أجرب، أمرد، عنده ابيضاض في إحدى عينيه؛ فرس عجوز مسكين، ولكن لديه قلبٌ جسور مثل بيارتور.

بلغا فِيورد متأخرين، وشعر المزارع أن في الأمر مشقة كبيرة على بيلسي إن جعله يقوم برحلة العودة في نفس المساء. كانا قد ساقاه إلى مكان ليرعى فيه، لكن أسنانه كانت قليلة، وكان بطيئًا في مِلء بطنه، لذلك لم يكن لديهما من خيار آخر سوى الانتظار حتى الصباح الباكر، عندما يُفترض أنه أكلَ كفايته. كانت ساعة متأخرة في المساء، المتاجر مغلقة، وكانا قد أنجزا مهامهما، ولا شيء ليفعلاه سوى انتظار الفجر؛ وهكذا تمشيّا في الشارع. كانا جائعين، لأنهما لم يأكلا شيئًا طوال اليوم، ولأن أيًا منهما لم يكن يملك النقود، لم يستطيعا قضاء الليلة في مبيت. كانت السّماء مُلبدة بالغيوم، وَهبَّ نسيمٌ بارد من جهة البحر، لكن الأمطار ظلّت مُحتبسة. كانا كلاهما في شوق للقهوة، ولم يبوحا بذلك.

قال بيارتور وهو يرنو إلى السماء «لا أعتقد أن هناك احتمالية كبيرة لسقوط الأمطار الليلة. بإمكاننا الاستلقاء في مكان ما خلفَ سور الحديقة بضع سويعات».

كانَ في المدينة اضطرابٌ وبَلبلة، على الرغم من أن بيارتور من أورثارسيل كانت لديه أمور أكثر جدية تشغل عقله. والحقيقة أن مُثُل إنغولفور أرنارسون وأهدافه كانت في طوز التحقيق في المضيق البحري «فِيورد». كان قد بدأ قبل أسبوعين العمل على مخطط المرفأ الكبير الذي

وعدَ به رئيس الوزراء ذات مرة في هذه المدينة التي تُعتبر سوقًا مهمة، ثمّ دفع به إلى البرلمان بكل همّته المعهودة، إذ لم يكن الشخص الذي يخلف بوعوده. إلى جانب السكان المحليين، وجدَ عدد كبير من سُكان ڤِيك عملًا في هذا المشروع الطموح؛ تركوا منازلهم، وكانوا يعيشون في هذه الآونة في أكواخ الصيد، التي استُخدمت مهاجعَ وكانت تُسمى بالتخشيبات. اتُّفِقَ على أن معدلات الأجور ينبغي أن تتماشى مع ما هو معتاد في الأجزاء النائية من البلاد. بدأ العمل مجددًا بإعادة بناء حاجز الأمواج ذائع الصيت، وهي مهمة تتطلب كميات هائلة من الحجر والخرسانة. عمِل الرجال لمدة أسبوع في نسف الحجارة ونقلها؛ ثمّ حانَ اليوم الأول لدفع الرواتب. ثمّ تبيّن بعد ذلك أن أفكارهم حول معدلات الأجور كانت وردية للغاية، دفعوا لهم مبلغًا لا يؤهلهم ليكونوا من أفراد الطبقة المتوسطة، وكان المبلغ في رأيهم غير كافٍ ليسدّ رمقهم ورمق عائلاتهم. ووصفوا هذه الأجور بأنها اعتداء على العمال بالتجويع، وقالوا إنهم ضدّ الدستور الذي يسمح بتجويع العمال، وكأن هذا الدستور هو شيء جديد! طالبوا بأجورٍ أعلى، ولكن لا أحد كان لديه السلطة لدفع أجور أعلى في هذه الأوقات العصيبة. من يبالي إن تضور أطفالك جوعًا؟ الدستور الآيسلندي مقدس. ألقوا معدّاتهم جانبًا وخرجوا إلى الإضراب. لم يسبق أن حصل إضراب في فِيورد من قبل، إلا أن عمال ڤِيك الذين قادوا القضية الحالية، سبقَ لهم أن شنّوا إضرابًا في بلدتهم وانتصروا، ونتيجة لذلك تمكن أفراد عائلاتهم من الحصول على خبز الجاودار مع بقايا الأسماك المملحة الصالحة للأكل لمدة طويلة بعد ذلك. ومع ذلك انقسمَ سكان فِيورد حول المسألة، فبينما كان بعضهم مؤيدين متحمّسين للإضراب، ظلّ عدد كبير منهم بمنأى عن الأمر، لأنهم كانوا على غير استعداد لتقديم تضحية من أجل استقلال آيسلندا. رحّبَ رئيس العمال بجميع الراغبين بقبول الراتب المعروض، وكان بوسع الآخرين حزم أمتعتهم والرحيل. حتى إن عددًا من ملّاك القوارب الصغار وآخرين من الطبقة الوسطى أتوا وقدّموا خدماتهم المجانية بغرض الحفاظ على استقلال الأمة والدستور الآيسلندي. لكن المضربين رفضوا ترك الوظيفة، وأكثر من ذلك، عيّنوا خُفراء لمنع الراغبين في العمل من الدخول. وبالنتيجة وقعت

اشتباكات متكررة بين أولئك الذين كان بمقدورهم البقاء والاحتمال لكي يصونوا استقلالية آيسلندا، وبين أولئك الذين أرادوا توفير قوت أُسرهم. للأسف تعرّض كثير من المقاتلين للضرب، وبعضهم أُصيبوا بكسور في العظام. سرعان ما شاعت في المنطقة كلمات وأفكار على شفاه الجميع لا تشبه أي شيء عُرف سابقًا؛ هؤلاء الناس الذين جاءوا إلى هنا لزعزعة السلام كانوا زمرة من الأوغاد البلطجية السيئي السمعة الذين زعموا علانيةً بأنهم يسعون إلى نظام جديد يحصل فيه العمال على ما يكفيهم من طعام. لم يكن في المنطقة شرطة لقمع مثل هذه الأفكار المجنونة، وكان الدستور عاجزًا وغير محميّ، جنبًا إلى جنب مع استقلال البلاد، إلى أن أبرقَ العمدة إلى السلطات، وطلبَ إرسال الشرطة لحماية الذين يريدون العمل ولإخراج عصابة مثيري الشغب الأشرار من موقع المشروع، والذين لا ينتمون إلى فِيورد على كل حال، والذين كانوا يستخدمون القوة بصفة غير شرعية ليحوْلوا دون متابعة العمل. لقيَ هذا الطلب استجابة مباشرة من الحكومة؛ وكانت دورية شرطة في طريقها إلى المنطقة آنئذ، وكان من المتوقع وصولها على متن سفينة ساحلية في صباح اليوم التالي. كما أُذيعَ بأن المضربين كانوا على أهبة الاستعداد لمواجهة الشرطة، وكان من المتوقع حدوث معركة كبيرة. كانت المدينة بأكملها في حالة من القلق المتوجس، لذلك لم يكن من المستغرب أن لا أحد كان لديه وقت للتفكير ببيارتور صاحب البيت الصيفيّ في الوقت الذي كان الجميع يتساءلون فيه عما إذا كانوا سيتعرضون لهزيمة منكرة في اليوم التالي. ولكن الآن كان الوقت متأخرًا، وكانت أصوات الطبقة العاملة المتمردة قد صمتت، ونابَ عنها زعيق طيور الخرشنة[1] النّشاز. قعدَ مزارع الوادي وابنه على حافة الطريق، مقابل دار مَبيت، ومضغا القشّ ولم يتحدّثا لوقتٍ طويل.

كان الابن هو من كسرَ الصمت أخيرًا.

قال: ألا يجب علينا كلينا الذهاب لرؤية آستا سوليليا، وتَفقُّد أحوالها؟»

1- الخرشنة: وتسمى أيضًا خطاف البحر، جنس من الطيور يتبع الفصيلة النورسية، من رتبة الزقزاقيات.

ما من جواب.

الابن: «ألا تعتقد أنه يجب علينا الذهاب لرؤية آستا سوليليا؟ يُقال إن حبيبها هرب وتركها».

صمت مستمرّ.

الابن: «أبي، أنا متأكد من أن عزيزتنا آستا سوليليا سيعجبها أن نذهب لرؤية بعضنا بعضًا. أنا متأكد من أنها ستقدم لنا قهوة».

نفد صبر الأب أخيرًا، ونظرَ إلى ابنه نظرة غاضبة وقال: «أوه، اسكت قبل أن أصفعك. ألن تتعلم أبدًا أن تتصرف كرجل، أيها المخنث اللعين!»

وانتهى الأمر عند هذا الحد.

كانا جالسين بصمت لمدة طويلة عندما لمحا رجلًا يتسكع على الطريق على مسافة ليست ببعيدة، ثمّ دنا ببطء وتسكع على مقربة منهما، كانَ رجلًا طويل القامة نحيلًا، يرتدي سروالًا قطنيًا أزرق اللون، وقميصًا صوفيًّا، وقبعته على مؤخرة رأسه. كان يقفَ ما بين حين وآخر وينظر إلى المنازل ثم يستدير في دائرة. وبعد أن رأى الرجل وابنه كفَّ عن تفحص المنازل، ومضى نحوهما، ثم توقف على بعد بضع خطوات. تحسّس جيوبه وأخرج عقب سيجارة ثم تمعّنَ به وبالرجلين القرويين بالتناوب. ثمّ ابتسم، وبعد أن أشعلَ عقب السيجارة، اقترب منهما أكثر.

قال: «مساء الخير يا رفاق».

ردّا تحيته ببرود ودونما حماس كبير، ولم يتحركا، وواصلا التحديق في القناة على جانب الطريق، وسيقان العشب بين أسنانهما.

تلكّأ الغريب هُنيّةً، وراحَ ينقّلُ قدميه ويغيّر من وضعيته من حينٍ إلى آخر، لكن لم تظهر عليه علامات المغادرة. طافت نظراته بين هنا وهناك لكنها ثبُتت أخيرًا صوب السماء.

قال: «لقد هبطت الغيوم بحلول الليل».

لم يَردّا بشيء.

قال الغريب: «هذه بؤرة عَفِنة على أي حال. ليتني أعود إلى دياري. ولا يعني ذلك أن الوضع أفضل هناك بالطبع».

سأله بيارتور: «من أي بلدٍ أنت؟»

وقال إنه من فِيك، وإنه غادرَ تلك المدينة لأنه ظن أن الأوضاع لن تكون سيئة للغاية في فِيورد هذا الصيف، ولكن تبيّنَ في الواقع أنها أسوأ بكثير مما هي عليه في مدينته حتى. لقد اتّضح أن العمل برمّته ما هو إلا عملية احتيال.

ثم قال مخاطبًا بيارتور فجأة كما لو أنه التمعت في رأسه فكرة رائعة: «اسمع، هل بإمكانك بيعي رغيف خبز؟»

«أبيعك رغيف خبز؟ هل أنت متأكد أنك لم تفقد عقلك؟ لا، ليس لدي خبز للبيع».

أجاب الآخر مبتسمًا بلا معنى: «آه، حسنًا. لا يهم، لا يمكنني دفع ثمنه على أية حال».

رانَ صمتٌ قصير، ثمّ صاح الغريب: «لعنة الله عليهم، وتبًّا لهم، والنار الكاوية، والفناء. في أي كتاب هذا ذكّرني؟»

أجاب بيارتور: «في الإنجيل على ما أعتقد».

قال الآخر: «أفّ! ماذا دهاني، بالطبع في الإنجيل».

قال بيارتور: «أنت على ما أعتقد واحد من هؤلاء المضرِبين، يجدر بكم أن تخجلوا من أنفسكم وتعودوا إلى عملكم».

قال الرجل: «وما الفائدة؟ إن كنا قد تعرضنا للخداع؟ أتمنى ألا تكون واحدًا من الذين يريدون الاستمرار في العمل!»

أجاب بيارتور: «أجل، أنا كذلك. لطالما كنتُ رجلًا كادحًا دؤوبًا. لكني لستُ تابعًا لأحد. أنا ما زلتُ رجلًا مستقلًّا».

قال الغريب: «يقولون الآن إن الشرطة آتية غدًا. آمل أنك لم تصوّت لمصلحة إنغولفور أرنارسون، الكلب البوليسي الملعون!»

بيد أن بيارتور فضّل التزام الصمت بشأن هذه المسألة.

أدلى الرجل بملاحظة: «إنها جريمة ألا تكون قادرًا على الحصول على بعض الخبز. لقد بعثني الشباب لأحضر لهم بعض الخبز، كما ترى. كنا بصدد صنع بعض القهوة».

بيارتور: «لقد قلتَ إنك لا تملكُ شيئًا من المال».

رفع الرجل بصره إلى السماء كَرّة أخرى، وطقطقَ بلسانه، وابتسم نفس الابتسامة التي لا معنى لها كما في السابق. «حسنًا، لم أكن أفكر فعلًا في شرائه، أرأيت. لم أكن جادًّا في كلامي على أية حال. كنتُ فقط ألقي نظرة على المخبز».

قال له بيارتور: «المخبز مغلق منذ ساعات».

قال الرجل: «لا مشكلة،طالما أنهم لم يخبئوا الخبز».

«لم يخبئوه؟»

«نعم، نعم لقد أخفوا الخبز. رأيتُ بعض الأرغفة الجميلة في المتجر في الساعة السابعة، وحوش حقيقية، كان يجب أن تراهم يا رجل!»

وفي هذا الوقت انتهى من عقب السيجارة.

نظرَ من جديد إلى السماء وأضاف: «هل تعتقد أنها ستمطر الليلة؟»

قال بيارتور: «لا أعتقد ذلك».

قال الرجل: «لستُ أبالي. بوسعها أن تمطر قدر ما تشاء، وهذا آخر همي. اسمع، مرّ وقتٌ طويل منذ أن كنتُ مع امرأة آخر مرة، الآن فكرتُ في هذا الأمر».

قال بيارتور: «يا إلهي!»

قال الآخر: «آه، لا يهم على أية حال. إن أرسل الأوغاد الشرطة غدًا فمن الجيد ألا تكون مع امرأة. أقول، ألا ترغبان بالانضمام إلينا يا رفيقيّ؟»

«ضدّ من؟»

قال الرجل: «ضد ابن الحرام الكبير إنغولفور أرنارسون طبعًا».

تفكّر بيارتور في الأمر هنيهةً، ثم قال: «لا، أخشى أنني لستُ مؤهلًا للانضمام إلى مشاجرة هذه الآونة».

قال الرجل: «لدينا كومة كاملة من الأزاميل، وهراوات من جميع الأشكال».

قال بيارتور: «حقًّا؟»

ولكن إن أحضر الأوغاد معهم بنادق سوف يتعين علينا الاستسلام طبعًا. اتفقنا جميعًا على ذلك. معظمنا لديه أطفال، هل فهمت. لم أكن لأبالي إن أُطلِقَ عليّ الرصاص لو لم يكن لدي أطفال. أقول، هل تنتظران شيئًا معيّنًا؟»

قال بيارتور: «لا، أنتظرُ فقط أن ينتهي حصاني من الأكل، يبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا ويتطلب الأمر منه وقتًا ليشبع. سنسلكُ الطريق إلى منزلنا عبر المروج، أولّ شيء في الصباح».

الرجل: «ولكن يقينًا لن ترحلا قبل المشاجرة، أليس كذلك يا رفيقيَّ؟ اسمعا، ما الذي يجبركما على الجلوس هنا بحق الشيطان، على أية حال؟ لمَ لا تأتيان معي ونتشاطر معًا شيئًا من الخبز وبعض القهوة الساخنة؟»

«إذن لديك بعض الخبز أليس كذلك؟»

ردد الرجل بتعجّب: «خبز؟ عجبًا! طبعًا لدينا الكثير من الخبز. تعالا معي فقط».

كان سمْحًا وبسيطًا للغاية، وكانَ كلامهُ ليّنًا ودودًا، فإذا هما ينهضان ويسيران معه. لم يسلك أثناء مسيره طريقًا مستقيمًا، بل إنه بالأحرى اتخذَ بمفرده طريقًا متعرّجًا؛ بينما سارا هما مباشرة. طلب منهما مرتين أن ينتظراه بينما كانَ ينعطفُ خلف المنزل».

قال: «بكل أمانة، يا لها من نكتة مضحكة! إنهم مذعورون للغاية لدرجة أن النساء العجائز ذهبنَ وأقفلنَ أبواب مطابخهن!» لقد ظنَّ على ما يبدو أن هذا شيء مضحك حقًّا، وضحكَ عليه، لكن لم يستطع أي من الآخرين رؤية أي شيء مضحك حوله. وفيما بين ذلك، راحَ يتحدّث عن الشرطة والطقس والنساء، وعن أي شيء خطرَ على باله.

قال: «أقول، لا فائدة من الزواج هذه الأيام».

مكتبة
t.me/soramnqraa

قال بيارتور: «لا فائدة؟»

«إطلاقًا!» قال الآخر وهو يطقطقُ بلسانه.

قال بيارتور: «حسنًا، إذن لا تتزوج».

قال الرجل: «أقول، منذ عدة أيام تجاذبتُ أطراف الحديث مع شخصٍ متوقّد الذكاء، هل تدري ما قال؟ قال إن السماح للناس بالعيش لهيَ جريمة بحقّ السلطات أعظم بكثير من قتلهم».

قال بيارتور هازئًا: «كلام فارغ!»

ردّ الرجل بكل بساطة وهدوء: «لا، لا، أنا أظن ذلك أيضًا. لدي الرأي

ذاته. أعتقدُ أن الناس ليسوا مجرمين كبارًا بما يكفي للعيش في ظل هذا النظام. الناس ليسوا ماكرين أفّاكين ليستحقوا مثل هذا النظام، أي عامة الناس. هذا ما هو الخطأ».

كانَ بيارتور مشغولًا بمحاوِلة فهمِ ما قال الرجل لكي يرد عليه.

استطرد الرجل: «ونحن لسنا مسلحين أيضًا. فقط لو كنا مسلحين لاختلف الأمر تمامًا. علينا أن نسرق فؤوسهم لنسحق بها رؤوسهم اللعينة. ولكن لو جلبوا أسلحة نارية، حينئذ فقط – لحظة! يوجد امرأة عجوز تقطن هنا».

في غضون ثوانٍ كانَ مختفيًا عن الأنظار خلف أحد المنازل، منزل متوسط الحجم في نوافذه أزهار، وفيه قنّ دجاج صغير. بعد غياب قصير عادَ برغيف خبز كبير كامل من دقيق الجاودار.

«لقد كشطتُ يدي»، قال وهو يلعق الدم من الخدش، «لكنها إصابة طفيفة، هيا بنا نذهب».

تساءل بيارتور بغضب: «آمل أنك لم تسرق هذا الرغيف!»

«أفّ!» قال الرجل وهو يطقطق بلسانه. دسّ الرغيف داخل الجزء الأمامي من بنطاله وسحب فوقه السترة الصوفية. «لا يهم، إنها تملك أراضي كثيرة. فهي أرملة رئيس الشمامسة».

وهنا توقف بيارتور على الطريق وقال: «هذا يكفي، من جهتي لن أتقدم معك أكثر من ذلك».

قال الرجل محاولًا إقناعه: «ولكن عليك المسير معي، تعال، تعال وتناول شيئًا من القهوة. لا أعتقد أن تلك العجوز بحاجة إلى كل هذا الخبز».

قال بيارتور: «لم أكن يومًا لصًا، ولا حتى مُتلقّفًا للسرقات».

قال الآخر: «ولا أنا، ولكن ماذا يفعل المرء عندما يُسرَق منه كل شيء، وربما سيتعرض لعيار ناري أثناء المفاوضة؟ أيّ فرق سيحدثه رغيف أقل أو أكثر للرأسمالية التي قتلت عشرة ملايين إنسان من أجل المتعة في الحرب؟ الرأسمالية تعاقب الناس على عدم السرقة أكثر مما تعاقبهم على السرقة؛ فإذن لماذا يجب على المرء ألا يسرق؟ جميع الناس الذين تحدثت إليهم

قالوا إنهم كانوا أفضل حالًا في السجن من أي مكان آخر. المرأة العجوز التي حصلت منها على رغيف الخبز كل ما عليها هو القعود على مؤخرتها ومشاهدة الإيجارات وهي تتدفق عليها من المَزارع التي تمتلكها. لكنني متأكد من أن البقاء في السجن أفضل بكثير من امتلاك مزرعة مثلك. أنا متأكد أن الإنسان أكثر استقلالية في السجن. لذلك، تقدّما يا رفيقيّ. لا بدّ أن القهوة جاهزة الآن. واللص الوحيد هنا هو الرأسمالية!»

كان في هذه التخشيبة بالذات عشرة أو اثنا عشر عاملًا. كان موقد الزيت الذي يُعِدّون عليه القهوة يدخّن بشكل بغيض، لكنهم تمكنوا من غَلي الماء، وانتشرت رائحة القهوة اللذيذة في هواء الليل مع اقتراب القادمين الجدد.

«من هذان؟»

ردّ دليلهم: «كانا قاعدين على حافة الطريق يتنشقان السعوط» وهي إفادة لم تكن صحيحة بالمرة، لأنهما كانا يمضغان سيقان العشب فقط. «طلبتُ منهما القدوم لتناول القهوة».

«وهل جلبتَ خبزًا في طريقك؟»

أجابَ بنبرة عملية: «نعم بالطبع، الكثير من الخبز. ألن تدخلا يا صاحبيّ؟ من الآمن تمامًا دخولهما يا شباب فهما ضد الرأسمالية».

قدّمَ المُضِيفون للضّيفين مكانًا للجلوس على أحد التخوت، ثم شرعوا بطرح الأسئلة عليهما بعدما ارتاحا في جلستهما. كان العديد منهم قد سمعوا ببيارتور صاحب البيت الصيفيّ، وعرفوا أنه بنى منزلًا، وأن الدائنين باعوا مزرعته قبل أيام قليلة؛ أرادوا معرفة هذه القصة بالتفصيل، إلا أن بيارتور رفض البوح بأية تفاصيل. قدموا لهُ كوبًا من القهوة، وتقبّلهُ بامتنان كبير، ولكن عندما وصلَ الأمر إلى الخبز اشتعل غضبًا من جديد، فلقد كانَ خبز الآخرين. مع أنه في الواقع كان راغبًا في الخبز بشدّة. قبلَ غُڤيندور شريحة سميكة من الخبز، ونظرَ إلى والده.

قال له بيارتور: «أنت تأكل هذا الخبز على مسؤوليتك الخاصة، وليس على مسؤوليتي».

سأله شابٌّ ذو نظرة صريحة غريبة، وملامح حساسة نابضة بالحياة: «هل تعرف يا بيارتور ما الذي فعله الفلاحون الرّوس؟»

لم يجِب بشيء.

«عاشوا حياة مستقلة منذ قديم الزمان، مثل القطط البرية، أو، على نحوٍ أنسب، عاشوا مثل فلاحين آيسلنديين كمثلك أنت. استخدمتهم الرأسمالية للسرقة والقتل، أفهمت ذلك. منذ ثمانية أعوام شنّت الرأسمالية حربًا، وعلى مدى ثلاثة أعوام قتلتهم كما الكلاب من أجل التسلية. في أحد الأيام قُتِلَ مئتا ألف دفعة واحدة. في آخر الأمر، سئمَ الفلاحون الروس من الحرب، ووحّدوا القوى مع رفاقهم العمال في المدن، ثمّ أطاحوا بالرأسمالية وقتلوا القيصر، واستعادوا كل الثروات التي سلبهم إياها الرأسماليون. ثمّ أنشأوا مجتمعًا جديدًا لم يكن يُسمح فيه لأحد بتحقيق أرباح من عمل الآخرين وجهدهم. أُطلق على هذا المجتمع اسم المجتمع الاشتراكي».

قال بيارتور ضاحكًا: «جميل، جميل! فإذن سقط القيصر أليس كذلك؟»

ثمّ قصّ عليهم شيئًا من سيرة حياته، وشرحَ أوضاعه الراهنة. «أظنني سأتناول معكم كِسرة من الخبز يا فِتيان». قال أخيرًا لأنه رآهم يتناولون الخبز جميعًا، وبِشهية مفتوحة، وقد أتوا على نصف الرغيف تقريبًا. اقتطعوا له شريحة كبيرة سميكة، وكانَ خُبزًا طيّبا. قالَ بفمٍ محشوٍ بالخبز: «آه، حسنًا، لربما سينتقمون لي هناك، كما قال جريتير المغوار، الذي أُخِذَ بثأرهِ على طول الطريق جنوبًا في مايكلاجارد؛ السبب الذي اعتُبِرَ لأجله أعظم رجل في آيسلندا».

قال له أحدهم: «ولكنك لم تمت بعد». وقالَ آخر: «وسوف تحارب إلى جانبنا غدًا».

قال: «لا، لقد بنيتُ لنفسي كوخًا آخر، على أرض أخرى، وليس لدي وقتٌ للشجار هنا في المضائق البحرية».

قال أحدهم: «سيأتي اليوم الذي ستتخلص فيه الطبقة العاملة من أولئك السُّرّاق والقتلة، وفي ذلك اليوم لن تكون نادمًا لأنك انضممت إلينا».

«آسف، ولكنني لطالما كنتُ رجلًا مستقلًّا. أريد أرضًا خاصة بي. سأذهب إلى أورثارسيل بطلوع الصبح، بمجرد أن يكون الفرس قد تناول كفايته من الطعام، هذا أمر محقق. إلا أن الشاب غُڤيندور يمكنه البقاء معكم، وإذا كسرَ رؤوس بعض هؤلاء الأوغاد من رونسميري لا أعتقد أنني سأدع ذلك يقلقني كثيرًا. لذلك ستبقى مع هؤلاء الزملاء يا غُڤيندور، أسمعت؟ من

يدري ربما يمنحونك في يوم ما أميركا التي سعيت إليها منذ زمن ليس ببعيد.

عندما شربوا قهوتهم، شرع بعضهم يغني، بينما تهيّأ آخرون للنوم. لم يخلعوا ملابسهم، وإنما ارتموا على التخوت كما هم، في كل تختٍ اثنان أو ثلاثة. كانت في معظم الأسِرّة بطانية مهترئة أو اثنتان للتّغطّي. عرضَ رجلان على غُڤيندور ثُلث سريرهما. قالا: «سيجد عملًا إن انتصرنا، وسنجعله واحدًا من الاتحاد على الفور».

بعد مدة وجيزة كان معظمهم مستلقيًا، وكانت الأمور هادئة نسبيًا. وجِدَ مكان لبيارتور أيضًا في أحد التخوت، وكان مستلقيًا على الجانب الخارجي. كان يشعر بالغثيان، كأنه قد يتقيّأ في أي لحظة. لا بدّ أن الخبز هو السبب، بالطبع، لكن من الغريب أنه تمكن من إبقائه في معدته. بدا كأنه لن يتمكن من النوم أبدًا، إن مبيت هذه الليلة وضعه في مأزق كبير. أكانوا عصابة من اللصوص أولاء الذين تورط معهم؟ من مثيري الشغب والسُّراق الذين انتووا ضرب السلطات ونهب البلاد؟ ألم يتهوّر حينما قرر بقاء ابنه هنا بصحبة اللصوص؟ ما الذي يجمع بينه، هو الرجل المستقل وأبنائه، وبين هذه الجماعة؟ لماذا كانَ عليه أن يسايرهم ويتورط معهم، من بين جميع الناس؛ وهو الرجل المستقل الذي تولى زمام أرض جديدة؟ أم كان من المحتمل، من جهة أخرى، أنهم محقّون صالحون؟ فإذا كان الحال كذلك، فهم الرجال الصالحون الوحيدون الذين قابلهم على الإطلاق. لأنه لم يكن أمامه آنذاك سوى أمرين اثنين للاختيار بينهما، إما أن السلطات هي ضباط العدل وهؤلاء الرجال مجرمون، أو أن هؤلاء الرجال هم ضباط العدل والسلطات هي المجرمة. لم تكن إشكالية هيّنة يمكن حلّها خلال ليلة واحدة قصيرة، وندمَ أشد الندم لأنه قبلَ الدعوة بالقدوم إلى هنا. كان ما يزال يعاني من آلام في معدته بسبب الخبز المسروق. شعرَ بأنه تكبّدَ أعظم هزيمة في حياته. كانَ شعوره بالخزي كبيرًا لدرجة أن الدماء تصاعدت إلى وجنتيه، وكانت لحظاتٌ أوشكَ فيها على النهوض من السرير والخروج إلى العراء، واستفراغِ خبز الذُلّ. ومع ذلك، لم ينهض، بل تمدّد حيثُ كان. كانَ الآخرون يشخرون من حوله منذ وقتٍ طويل.

***

74. سقوط القيصر

إذن، نامَ على كل حال. عندما فتحَ عينيه كانَ ضوء النهار يملأ المكان، وكانت شمس الصباح مشرقة من خلال الباب المفتوح. نهضَ من الفراش ونظرَ إلى الشمس ليجد أن الوقت لا بد أن يكون حوالي السادسة صباحًا. نامَ ثلاث ساعات أو نحوًا من ذلك. كان الرجال ما زالوا نائمين. الخبز والحديث من الليلة الفائتة فقدا شيئًا من حقيقتهما، ولكنهما لم يفقدا شيئًا من خطيئتهما، كأنهُ كانَ في حلمٍ لا يليق به، من المستغرب أنه حلّ في مثل هذه الفوضى. كانَ ظهره يؤلمه وكان يشعر بالتّيبس. الكلام لا يهم، فالمرء يسمع كلامًا كثيرًا من حين إلى آخر؛ فقط لو أنه لم يأكل ذلك الخبز الملعون. ثم تذكر أنه أعطاهم ابنهم أيضًا. يقينًا أنهم لم يضعوا شيئًا في قهوته حتى جرّدوه من كل ذرة من الفِكر السليم! وقفَ على عتبة باب التخشيبة، ونظر بالتناوب إلى الداخل والخارج، وتساءل كيف سيتمكن من سحب غُڤيندور من بينهم. بعد دقائق عدة من التردد في اتخاذ القرار، اجتاز الغرفة على رؤوس أصابعه، عازمًا على نكزه وإيقاظه بهدوء قدر الإمكان. وهناك كان الفتى مستلقيًا، غارقًا في نوم عميق بين زملائه، صدورهم عريضة، في وجوههم سيماء العزيمة، أياديهم كبيرة غليظة العِظام، بينما وُضعِت من ورائهم أزاميل كثيرة. وشعرَ أن ابنه تبدّى في صورة مُستحسنة بنومهِ بين هؤلاء الرجال الأشداء الأصحاء، لدرجة أنه لم يطاوعه قلبه على إيقاظه وأخذهِ بعيدًا. وكانَ سيظهر بينهم على ما يرام عندما يكون مستيقظًا أيضًا. أحسّ أن مثل هؤلاء الرجال في الواقع يستحقون امتلاك البلاد وحكمها. ولكن ما العمل لو أحضر رجال إنغولفور أرنارسون بنادقهم وقتلوهم وابنه من ضمنهم؟ ألن يكون من الآمن أكثر أن يوقظ الصبي وأن يذهب به بعيدًا عن البلدة بدلًا من أن يتركه هنا ليُطلَق عليه النار مثل كلبٍ في الشارع؟ لطالما فكر في الفتى كثيرًا، وإن أخفى الأمر تمامًا. من المؤكد أنه كان في يوم من الأيام على وشك الذهاب إلى أميركا، لكنه حُبه للاستقلال انتصر في ذلك اليوم، وقرر التغلب على صعوبات الحياة هنا في الوطن مع والده. تفكّرَ بيارتور: «آه، حسنًا، ما الذي يهم؟ أظنني فقدتُ أبناء من قبل». عادَ بذاكرته للحظات إلى الأولاد

الذين حملهم في صندوق ليدفنهم في مقبرة آل روثسميري، وإلى أولئك الذين خسرهم في كفاحه من أجل الاستقلال. ثمّ فكّرَ، ربّما من الأفضل أن يذهب هذا أيضًا بنفس الطريقة. الإنسان لا يكون مستقلًّا ما لم يكن لديه الشجاعة للوقوف بمفرده. لقد كانَ جريتير أسموندارسن طريد العدالة في جبال آيسلندا مدة عشرين عامًا، إلى أن غُلِبَ في جزيرة درينجي؛ ولكن أُخِذَ بثأره عن كل ذلك في مايكلاجارد[1]، أكبر مدينة في العالم. ربما سيؤخذ بثأري أنا أيضًا بمضيّ السنين. وربما في مدينة كبيرة أيضًا. وتذكر فجأة أن القيصر قد سقط، وأطربتهُ الفكرة إلى حدٍّ كبير، ماذا سيقول جون العجوز صاحب مزرعة ميري عن ذلك؟ وبما أنه تخلى عن فكرة إيقاظ ابنه، غادر التخشيبة بهدوء قدر الإمكان.

كان الوقت قد حان لإحضار الفرس من المرعى والاستعداد للرحيل، ولكن لم تَبدُ عليه رغبة في جلب الفرس، بل راح يطوف في القرية النائمة دون وجهة محددة، مجيبًا بذهن شاردٍ على تحيات الصباح من الصيادين العجائز القلائل الذين كانوا على رأس عملهم. بعد التجول لمدة طويلة على غير هدى، انعطفت خطواته بغرضٍ محدد باتجاه البحر على طول المضيق البحري، نحو ذلك الجزء من المدينة حيث تجمّعت أشد الأكواخ رداءة. كان هذا الجزء يدعى سانديري. لم تتسنّ له الفرصة للذهاب إلى هناك من قبل، لكنه كان يعرفُ أشخاصًا كثرًا يقيمون هناك. كانت بضع نساء يدخلن أو يخرجن من الأبواب، وينفضنَ أكياسًا كبيرة على الحائط. بينما وقفَ لفيفٌ من العمال في حديقة على جانب أحد الأكواخ، مستغرقين في النقاش، ولم يُعِر أحد منهم بيارتور أي اهتمام، كان اجتماعًا من نوع ما.

على قارعة الطريق جلست طفلة صغيرة نحيلة الوجه، كانت تصنع كعكًا من الطين في الصباح الباكر. وعندما مرّ بجوارها وقفت ومسحت يديها

1- مايكلاجارد: Miklagard (نقلًا عن شبكة الڤايكينغ) عندما أبحر الڤايكينغ إلى القسطنطينية وصولًا إلى القرن الذهبي (شبه جزيرة في إسطنبول الأوروبية الحالية) قابلتهم مدينة ذات أسوار عظيمة في مواجهة البحر، وكانت هذه المدينة أكبر مدينة عُرِفَ بها الڤايكينغ، وليس من المستغرب أن الڤايكينغ أشاروا إليها بالتسمية النوردية القديمة مايكلاجارد، التي تعني المدينة الكبيرة.

على بطنها؛ كانَ لديها ساقان طويلتان بالقياس إلى سنوات عمرها، الطفلة المسكينة، ويدان ذواتا براجم طويلة أيضًا، ووجهها، كان وجهها ليس وجه طفلة، وإنما كان زاخرًا بالخبرة الحياتية والتعبير الذاتي المميز؛ نظرت إليه صدفة وَعرفَ عينيها على الفور، العين السليمة والحولاء، فتوقف فجأة في منتصف الطريق، وحدّق فيها بثبات، لقد كانت آستا سوليليا الصغيرة!

قالَ وهو يحملق في الطفلة: «ماذا؟» ذلك أنه حَسِبَ أنها قالت شيئًا وهي تنظر إليه.

قالت: «لم أقل شيئًا».

سألها: «ما الذي تفعلينه خارج السرير في هذه الساعة يا فتاتي الصغيرة؟ إنها بالكاد تبلغ السادسة!»

أجابت: «لم أستطع النوم. لديّ سعال ديكي. قالت أمي إنني سأكون أفضل حالًا في الهواء الطلق».

قال: «آه يا عزيزتي، إذن لديك سعلة سيئة أليس كذلك؟ لا عجب أن تُصابي بِسُعال شديد وأنتِ ترتدين ملابس رقيقة للغاية».

لم تردّ، وجلست لتكمل كعكاتها من جديد. حكّ رأسه في حيرة.

قال: «حسنًا، حسنًا يا سولّا. يا فتاتي المسكينة».

قالت: «لا ينادونني سولّا».

«ماذا ينادونك إذن؟»

ردت بافتخار: «اسمي هو بيورت».

قال: «حسنًا يا ابنتي بيورت، لا أعتقد أنّ في ذلك فرقًا كبيرًا».

جلسَ على حافة الطريق وأخذ ينظر إليها. غرفت الطين بِكوبٍ قديم من المينا، ثم وضعته على حجرٍ من أجل الخَبز.

قالت: «إنها كعكة عيد الميلاد». ومنحته ابتسامة صغيرة لمواصلة المحادثة.

لم يقل شيئًا، وإنما استمر في التحديق بها. في الأخير، نهضت من جديد وسألته: «لماذا أنت جالس هنا؟ ولماذا تنظر إلي؟»

سألها: «لا بد أن أمك الآن تعدّ قهوة الإفطار أليس كذلك؟»

قالت: «لا يوجد عندنا قهوة أبدًا، فقط ماء».

«آه، كثير من الناس اضطروا إلى الاكتفاء بالماء فيما مضى».

اشتدّت بها نوبة من السُّعال. حتى استحال لون وجهها أزرق. واستلقت على الأرض حتى انتهت النوبة.

عندما بدأت بالتعافي من السُّعال سألته: «ماذا تفعل هنا؟ لم لا تذهب بعيدًا؟»

أجابَ بنبرة جادّة: «كنتُ أفكر في القدوم معك إلى البيت لتناول كأس من ماء الإفطار».

بعد أن نظرت إليه نظرات متفحصة لدقيقة أو اثنتين قالت: «اتفقنا، إذن تعال معي».

لقد أكلَ خبز الآخرين في الليلة الماضية، الخبز الذي علاوة على ذلك كان مسروقًا؛ فما يضيره إن تناول ماء الإفطار مع هذه الفتاة الصغيرة. فرشَخَ من فوق السياج الشائك، وتبعَ الطفلة إلى الكوخ. لم ينحسر ثباته الأخلاقي قطّ كمثلِ حاله في الليلة المنقضية وأوان طلوع شمس الصباح الذي تلاها؛ نعم باتَ من المشكوك فيه ما إذا كانَ بمقدوره حقًّا أن يطلق على نفسه اسم رجل مستقل بعد الآن.

كانت في جملون الكوخ نافذة معدّة من أجل أربعة ألواح من الزجاج، حُشيت اثنتان من الفتحات بأكياس كبيرة، ومُسمِرت على الثالثة قطع من الخشب، وفقط في الفتحة الرابعة لوح زجاجي كامل. دلّته بيورت على الطريق. كانَ الكوخ فيما مضى مغطى بالأوراق من الداخل، على غرار بيوت المدن، لكن الأوراق باتت الآن مسودّة ورطبة ومتدلية من السقف في حالة يرثى لها. كانَ في الغرفة سريران؛ في أحدهما صاحبة المنزل، المرأة العجوز، وفي الآخر آستا سوليليا مع طفلتها الصغرى. كانَ هناك موقد زيت على طاولة بجوار النافذة، وصندوق، وكرسي مكسور.

عندما رأت آستا سوليليا ابنتها داخلة من الباب قالت لها: «هل عُدتِ بهذه السرعة؟» جلست في السرير، ثدياها متدلّيان من قميصها المفتوح، وكان شعرها مبعثرًا، وكانت هزيلة وشاحبة للغاية. ولكن عندما رأت بيارتور

داخلًا من خلف الطفلة، أَحَدّت بصرها إليه. هزّت رأسها كما لو أنها تحطّمُ وهمًا بصريًا، لكنه لم يكن وهمًا، كانَ واقفًا أمامها على الأرضية، لقد كان هو!

صاحت مقطوعة الأنفاس لاهثة: «أبي!»

حَملَقت بهِ بِفمٍ فاغرٍ، وقد اتّسعت عيناها أكثر فأكثر، ونتأت حدقتاها وبرزتا. غَامت ملامحها، كما لو أنها فقدت السيطرة على عضلات وجهها، لكنها بدت في نفس الوقت كأنها سَمِنت وصارت أصغر سنًّا، كل ذلك في طرفةِ عين، ثمّ هتفت من جديد وقد خرجت عن طورها بالكامل: «أبي!»

التقطت تنورتها التحتية، شدتها على عجل من فوق رأسها ثم سحبتها على وركيها وهي تقفز من السرير حافية القدمين، وركضت إلى الباب، وألقت بنفسها في حضنه. لفّت ذراعيها حول عنقه، وضغطت فمها فوقَ حنجرتهِ، أسفلَ لحيتهِ.

نعم، لقد كان هو. استراحَ فمها في مكانه القديم، لقد كان هو، لقد جاء. أخيرًا رفعت رأسها، ونظرت في وجهه مرة أخرى، وَتنهدت: «ظننتُ أنك لن تأتي أبدًا».

قال: «اسمعي يا ابنتي، استعجلي وسخني بعض الماء وألبسي الطفلتين. سأعيدكِ معي إلى البيت اليوم».

«أبي!» هو كل ما استطاعت قوله، ولما تزل عيناها مُسمّرتين على وجهه. وقفت كما لو أنها متجذرة في المكان: «لا، لا أصدق أنك أنت!»

مضى إلى سريرها، ودارت هي على أرض الغرفة وهي ما زالت تنظر إليه، مبهورة. أخذ يتأمل الطفلة الرضيعة التي كانت نائمة في السرير، وكانَ مفعمًا بالرأفة والحنان كدأبه دومًا كلما رأى طفلًا رضيعًا نابضًا بالحياة. قال: «يا إلهي! أي كائن عاجز مغلوب على أمره! نعم هكذا هو الجنس البشري مشهد مثير للشفقة حينما تنظرُ إليه كما هو في الواقع الفعلي».

قالت آستا سوليليا وهي تحتضنه بقوة مرة أخرى «ما زلتُ غير مصدقة!»

قال: «أسرعي، والبسي ثيابك يا ابنتي، أمامنا طريق طويل».

في ذلك الوقت بدأت بارتداء ملابسها. كان لديها سعال.

قال: «كان من المفترض أن تعودي إلى المنزل قبل أن تسوء حالة صدرك إلى هذه الدرجة. بنيتُ منزلًا جديدًا، كما وعدتك في السابق، ولكن ما ظلّ فيه مسرّة ولا بهجة، راحَ كل شيء. لقد أجّرت لي العجوز هالبيرا كوخ أورثارسيل».

هتفت: «أبي!»، ولم تزِد على ذلك.

قال: «لطالما كان هذا رأيي، يجب ألا تستسلم أبدًا ما دمتَ حيًّا، وإن كانوا قد سرقوا منك كل شيء. فإن لم يتبق لك شيء، بإمكانك تسمية الهواء الذي تتنفسه هواءك الخاص، أو على الأقل يمكنك الادعاء بأنك حصلت عليه على سبيل الاستعارة. نعم، يا حبيبتي، في الليلة الفائتة أكلتُ خبزًا مسروقًا، وتركتُ ابني بين الرجال الذين سوف يستخدمون المعاول ضدّ السُّلطات، لذلك فكرتُ ربما من المحبّذ أن أبحث عنك هذا الصباح».

75. دماء على العشب

«يا إله السموات! كم غِبتِ عن البيت يا فتاة!» هتفت الجدة عندما تُركت آستا بمفردها معها في يومهما الأخير في البيت الصيفيّ، بعد أن ذهبَ بيارتور بالمؤن إلى أورثارسيل. «خِلتُ أنك ميتة!»

قالت الفتاة: «بلى، لقد كنتُ ميتة يا جدتي».

الجدة: «أليس من المضحك أن يتمكن الجميع من الموت ما عداي؟»

قالت آستا سوليليا: «نعم، ولكنني بُعثت من الموت الآن يا جدتي».

قالت الجدة: «ماذا؟»

«بُعِثتُ من الموت».

ردت الجدة: «آه، كلا أيتها الشابة، لا أحد يعود من الموت. وإنه لأمرٌ حسن أيضًا».

ثمّ أدارت وجهها، وأمعنت النظر بثبات في الحياكة التي كانت مُنهمكة بها، وطَفِقت تُهمهمُ بينها وبين نفسها ترنيمة قديمة عن يوم القيامة.

في المساء اصطحبت آستا سوليليا طفلتيها إلى الينبوع، ووقفت لتحدق

بذهول في هذا المنزل البشع بزواياه الحادة، الآثار المتروكة على الخرسانة من قوالب الصب، رشقات الأسمنت على بعض النوافذ، الألواح الزجاجية المكسورة في النوافذ الأخرى، والحفر التي حُفِرت في الأرض في كل مكان. وعلى الرغم من جِدّتِهِ، بيد أنه ذكّرها بأنقاضِ مبنى قُصِفَ في الحرب. كانَ هذا هو القصر الذي بناه في الحلم الذي ستعود فيه. هي أيضًا حلمت في مرة من المرات ببيت مشرق وضيء في المروج الخضراء بجوار البحر. والآن هي مشتاقة فقط إلى الكوخ الصغير في مزرعة البيت الصيفيّ، بخطوطهِ الدائرية المريحة، وأبعاده المقبولة، حيثُ كابدت معاناتها الأقدس، وخَبِرت أعزّ رغباتها وأشدها. ومع ذلك، كان من دواعي الراحة أن ترى التلال القديمة في موطنها، وأن تكتشف أنه على الرغم من مرور قرون عديدة، فإن هاتيك التلال ما تزال في مكانها؛ كما كانت البحيرة، والمستنقعات، والنهر المتدفق بسلاسة عبر أراضي المستنقعات. ذات مرة، كانت «عشيّة منتصف الصيف»، وكانت ذاهبة لرؤية العالم للمرة الأولى؛ وكانت مرة أبصرت فيها التماعة في نظرات شخص غريب، وتطلّعت إلى إراحة روحها هناك، إلى أبد الآبدين؛ كانت حياتها نهبًا للخراب قبل أن تبدأ، مثل منزل بيارتور جونسون واستقلاليته، وهي الآن أمًّا لطفلتين، وربما ثلاثة، على الرغم من عدم حاجة أحد إلى معرفة ذلك. أشارت لطفلتيها إلى جدولها القديم وقالت: «انظرا، ها هو ذا جدولي القديم!» ثم قبّلتهُما. كانت كمثلِ الطبيعة الذابلة في مهبّ الريح، لا حول لها ولا قوة، لأنها لا ملاذ لها، لا من الله ولا من البشر. البشر لا يمنحون بعضهم بعضًا ملاذًا ولا موئلًا؛ فماذا عن الله؟ سنرى، عندما نموت أخيرًا من الاستنفاد والتعب. ربما كان الله سبحانه وتعالى قد دوّنَ كل ما عانته. وعلى رغم كل شيء، شعرت في ذلك المساء بأنها لم تكن أكبر سنًّا من أن ترى المستقبل في حلم؛ في حلمٍ جديد. أن تكون قادرًا على التطلّع إلى الأمام، هو أن تعيش.

في اليوم التالي، أخذَ بيارتور آخر حمولة من حوائجهِ إلى أورثارسيل. كانَ قد جهزّ بيلسي العجوز بصندوقين من الخشّ، وفي أحد الصندوقين وضع المرأة العجوز، التي تجاوزت التسعين من العمر الآن، بينما وضعَ في الجانب الآخر الطفلتين. ثمّ انطلق، يقودَ الحصان إلى الطريق. مشت آستا سوليليا

بجانبه على المرتفعات. كانت الكلبة مُتلكئة في المؤخرة، تَتشمّم هذا وذاك بلا مبالاة، كعادة الكلاب في أيام الربيع العَطِرة. كانَ الصمتُ رفيقهم. كانوا مثلَ أناس في رحلة طويلة، تركوا من خلفهم دارَ مَبيتٍ فقيرة في المروج. لقد كانت مروج الحياة. وامتدّت الطريق من أمامهم إلى مروجٍ أبعد. لا رِثاء؛ لا تأوِ حزنكَ أبدًا، ولا تأسَ على ما فقدتَ. حتى إنه لم يلتفت ليُلقي على واديه القديم نظرة وداعٍ أخيرة عندما وصلوا إلى أعلى الجبال. ولكن عندما مروا بالقرب من ركام مرقد غونڤور توقفَ وغادرَ الطريق. أمسكَ بشاهدة القبر التي كان قد وضعها إحياء لذكراها منذ سنوات، ودحرجها على حافة الوادي. كانَ يعلم الآن على وجه اليقين أنه من المستحيل تطهيرها من كولمكيلي، لقد كانت راقدة معه هناك دائمًا؛ في الأوقات العصيبة والخَيّرة على حد سواء، وما تزال راقدة معه هناك. مرة أخرى دمّرا مزرعة العامل الوحيد، هذا حالهما نفسه من قرن إلى قرن، لسبب بسيط وهو أن العامل الوحيد يظلّ على حاله من قرن إلى آخر. قد تجلب الحرب على القارة شيئًا من الإغاثة، لمدة سنة أو نحو ذلك، ولكنها مجرد مساعدة ظاهرية، سراب. لن ينجو العامل الوحيد من حياة الفقر إلى الأبد، سيعيش في ابتلاء وكرب ما دامَ الإنسان ليس حاميًا لأخيه الإنسان، وإنما ألدّ أعدائه. حياة العامل الوحيد، يعني حياة العامل المستقل، هي في طبيعتها هروب من أناس آخرين يسعونَ إلى قتله. من مأوى ليليّ إلى آخرٍ أشدّ رداءة. عائلة من الفلاحين مرتحلة، أربعة أجيال من الثلاثين الذين واصلوا الحياة والموت في هذا البلد لألف عام؛ ومن أجل من؟ ليس من أجل أنفسهم بأي حال من الأحوال، ولا من أجل أي شخص منهم. هم لا يشبهون شيئًا بقدرِ ما يشبهون الهاربين من بلدٍ مزّقتهُ الحرب العنيفة عامًا إثر عام. مجرمون طريدون؛ في بلد من؟ ليس بلدهم على الأقل. هنالك قصة مقدسة في الكتب الأجنبية تحكي عن رجلٍ أوفى بعهده بأن زرعَ حقلَ عَدوّه ليلة واحدة. أما قصة بيارتور صاحب البيت الصيفيّ فهي قصة رجلٍ زرعَ حقلَ عدوه طوال حياته، ليل نهار. هذه هي قصة الرجل الأكثر استقلالية في البلاد. أراض بور، ومزيد من الأراضي البور. من الوادي انبعثت قعقعة مخيفة تردد صداها عندما كان شاهد القبر يتحطّم في طريقه إلى الأسفل، وقفزت الكلبة إلى حافة الوادي، ووقفت هناك تنبحُ نباحًا عنيفًا.

على مسافة غير قصيرة عبر التلال، وفي بقعة كان من الممكن أن يُرى منها يوتيروثسميري في الأسفل، غادر الرجل الطريق الرئيس، وشرعَ يتجه شمالًا، عبر ممرات مشاة قديمة غير مطروقة منذ الماضي، باتجاه ساندغيلس هِيث. كان صندوقا الخثّ يصرّان صريرًا غير منقطع، والطفلتان نائمتين في أحدهما على الجانب الآخر من الحصان، لكن المرأة العجوز قعدت في صندوقها ممسكة بِوتدِ السرج بيديها المزرقّتين الذاويتين. كانت في طريقها إلى بيتها، عائدة من مأوى ليليّ.

كلما توغلوا في جهة الشمال عبرَ الأراضي البور ازداد الطريق وعورة ومشقة؛ انهيارات أرضية، أخاديد، مستنقعات، صخور ضخمة، جميع أنواع العقبات. في الأخير باتت التيارات المائية في المستنقعات أشدّ سرعة. بعد ميل أو نحو ذلك خارت قوى آستا سوليليا. ارتمت على منحدر معشوشب، وأخذت تسعلُ سعالًا شديدًا؛ وظهرت بعض الدماء. عندما انتهت النوبة أخيرًا، استرخت على ظهرها مع أَنّةٍ متوجعة وظلت مستلقية في حالة انهيار كامل. أنزل بيارتور الصندوقين، وأطلق الحصان ليرعى. وساعد الطفلتين والمخلوقة العجوز على الخروج من الصندوق. وقفت بيورت الصغيرة على بعد بضع ياردات وإصبعها في فمها، محدّقة في أمها، بينما جلست المرأة العجوز عند رأسها، والرضيعة نائمة في حجرها، كما وردَ في القصيدة القديمة:

الدماء المسفوحة خضّبت نِصال العشب

لولا بابلولا

كل ما وردَ في القصيدة تحقق، كانت هناك دماء على العشب. انتظروا بعض الوقت حتى تسترد آستا سوليليا قوّتها. وقفَ بيارتور حائرًا على بعد مسافة قصيرة؛ سألت الطفلة أمها إن كانت قد تألمت كثيرًا، قالت الأم إنها لم تتألم كثيرًا، لكنها مجهدة ولا تعتقد أنها قادرة على المشي بعد. رقدت على العشب، تئنُّ بضعف، مغمضة العينين، وفي زاوية فمها دمٌ. انحنت المرأة العجوز فوقها، ونظرت إليها عن كثب بضع دقائق، مُمِيلة رأسها.

غمغمت: «نعم، ولستُ مندهشة. جثمان آخر سأعيشُ لأقبّله».

في النهاية فقدَ بيارتور الأمل تمامًا في قدرة الفتاة على المشي لمسافة أبعد. أقعدَ المرأة العجوز والطفلتين في الصندوقين، ثمَّ رفعهما وثبّتهُما على الوتد. بعد ذلك حملَ آستا سوليليا بين ذراعيه، وقالَ لها أن تتشبّث بعنقه جيّدًا، ثمّ قادَ الحصان مجدّدًا. عندما بلغوا أعلى التل، همست:

«أخيرًا، أنا معكَ من جديد».

فأجاب:

«تمسّكي جيّدًا حول رقبتي، يا زهرتي».

وَهَمست: «أجل، دومًا، ما دُمتُ حيّة. زهرتكَ الوحيدة. زهرة حياتك. ولن أموت الآن، لا، ليس قبل وقتٍ طويل».

ثمّ مَضوا في طريقهم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحتويات

هالدور كِليان لاكسنس (1902–1998) 5

إشادات برائعةِ هالدور لاكسنس «أناسٌ مستقلّون» 7

الكتاب الأول

الجزء الأول: الرائد الآيسلندي 11

الجزء الثاني: براءة من الديون 179

الكتاب الثاني

الجزء الأول: الأوقات الصعبة 329

الجزء الثاني: سنوات الازدهار 461

الجزء الثالث: الخاتمة 569

بعدَ ثمانية عشر عامًا من السُّخرة المُهينة لدى وكيل مزرعة "ميري"، يتمكن جودبيارتور جونسون مِن شِراء مزرعته الصغيرة الخاصة به، وَيصير "بيارتور صاحب البيت الصيفي". وَلم يعد يطمح بعد ذاك سوى بتربيةِ قطعانه وزيادتها دون أن يكون لأحدٍ عليه مِنّة ولا فضلُ. بيدَ إن ابنته آستا سوليليا الجريئة المفعمة بالحيوية، أرادت هي أيضًا العَيش معتمدة على نفسها غير مَدينة له بشيء، لِيتمخّض عن ذلكَ معركة قوامها الإرادة العنيدة، فهيَ على نحوٍ متناوب قاسية ومؤثرة؛ منطوية في جَوهرها ودَقائِقها على الأُلفة والعاطفة الجيّاشة.

وَلئن كان بيارتورِ صاحب البيت الصيفي، بطل الكتاب، مُربيّ أغنامٍ عاديًا فإنّ تصميمه المُتعنّت على تحقيق الاستقلال لَهوَ بطوليٌّ حقًا، وفي الوقت نفسه مروّع وَهزليّ على نحو كئيب.

تستحضرُ الرواية الكلاسيكيات والملاحم الآيسلندية القروسطية. كما أنّها زاخرة بالماورائيّات والموروث الشعبي والتّطير الذي يرفضهُ بيارتور رفضًا تامًّا، ويُشكّل جزءا حيويًا من كِفاحِهِ المُرير.

أناسٌ مُستقلّون، رواية عميقة الأثر واسعة المدى؛ تحفة أدبية رائعة.

**

ملحمة آيسلندية مَهيبة بقلم "تولستوي الشّمال".

كشفٌ إنسانيٌّ عظيم لرواية تدور أحداثها في الريف الآيسلنديّ في بواكِير القرن العشرين بِقلم الحائز على جائزة نوبل للآداب المُلقب بــ"تولستوي الشّمال". تصويرٌ بديع للريف الآيسلندي الفريدَ، وصراع الإنسانِ الدؤوب في سبيل نَيل الاستقلال. يمتلكُ لاكسنس خيال الشُعراء ومَلَكتهم في الرّمزِ والعبارة.. ويمثّل بيارتور بطل الرواية الرمز المدهش والمُعقد لاستقلال الفلّاحين.

هناك كتبٌ جيدة، وهناك كتبٌ عظيمة، وقد يكونُ كتابٌ أكثر من هذه وتلك؛ إنه كتاب حياتك!

- ملحق مراجعة الكتب في صحيفة نيويورك تايمز

مكتبة نوبل ١٩٥٥

مكتبة
t.me/soramnqraa